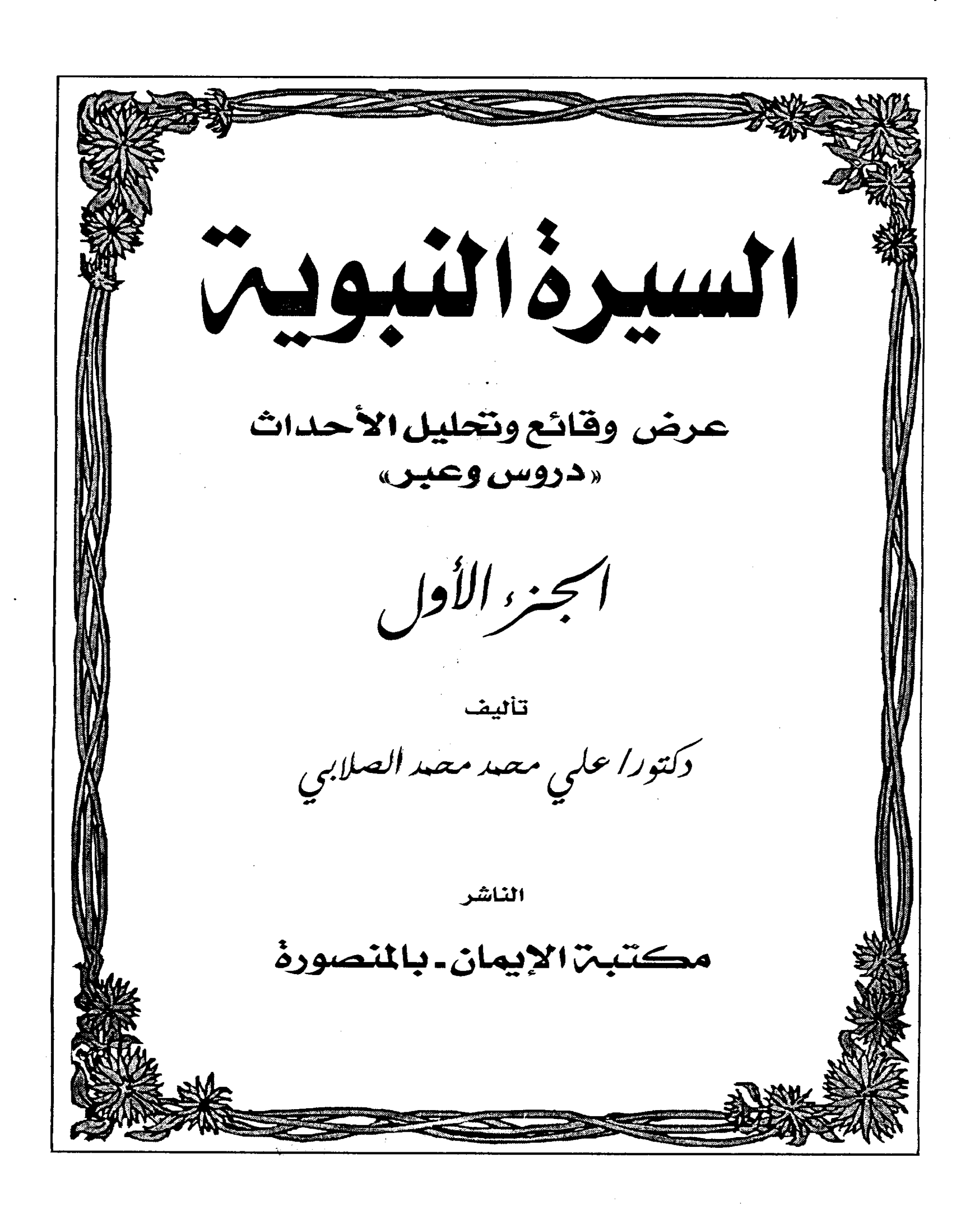
السيرة النبوية
دروس وعبر

مكتبة الإيمان
المنصورة - أمام جامعة الأزهر
ت: ٠٥٠/٢٢٥٧٨٨٢



السيرة النبوية

عرض وقائع وتحليل الأحداث
«دروس وعبر»

الجزء الأول

تأليف

دكتور / علي محمد محمد الصلابي

الناشر

مكتبة الإيمان - بالمنصورة

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٢).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: ١).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب: ٧٠، ٧١).

يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، ولك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضى.

أما بعد...

إن دراسة الهدي النبوي له أهميته لكل مسلم فهو يحقق عدة أهداف من أهمها، الاقتداء برسول الله (ﷺ) من خلال معرفة شخصيته (ﷺ) وأعماله وأقواله وتقريراته، وتكسب المسلم محبة الرسول (ﷺ) وتنميه وتباركه، ويتعرف على حياة الصحابة الكرام الذين جاهدوا مع رسول الله (ﷺ)، فتدعوه تلك الدراسة لمحبتهم والسير على نهجهم واتباع سبيلهم.

كما أن السيرة النبوية توضح للمسلم حياة الرسول (ﷺ)، بدقائقها وتفاصيلها منذ ولادته وحتى موته مرورًا بطفولته وشبابه، ودعوته وجهاده وصبره، وانتصاره على عدوه، وتظهر بوضوح أنه كان زوجًا وأبًا وقائدًا ومحاربًا، وحاكمًا وسياسيًا ومربيًا وداعية وزاهدًا وقاضيًا.

وعلى هذا فكل مسلم يجد بغيته فيها[1]، فالداعية يجد له في سيرة رسول الله (ﷺ) أساليب الدعوة، ومراحلها المتسلسلة ويتعرف على الوسائل المناسبة لكل مرحلة من مراحلها، فيستفيد منها في اتصاله بالناس ودعوتهم للإسلام، ويستشعر الجهد العظيم الذي بذله رسول

---

(١) انظر: السيرة النبوية دراسة تحليلية، د. محمد أبو فارس، ص٥٠.

الله (ﷺ) من أجل إعلاء كلمة الله، وكيفية التصرف أمام العوائق والعقبات، والصعوبات وما هو الموقف الصحيح أمام الشدائد والفتن؟ ويجد المربي في سيرته (ﷺ) دروسًا نبوية في التربية والتأثير على الناس بشكل عام وعلى أصحابه الذين رباهم على يده وكلأهم بعنايته، فأخرج منهم جيلاً قرآنيًا فريدًا وكوّن منهم أمة هي خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله، وأقام بهم دولة نشرت العدل في مشارق الأرض ومغاربها، ويجد القائد المحارب في سيرته (ﷺ) نظامًا محكمًا، ومنهجًا دقيقًا في فنون قيادة الجيوش والقبائل والشعوب والأمة، فيجد نماذج في التخطيط واضحة، ودقة في التنفيذ بينة وحرصًا على تجسيد مبادئ العدل وإقامة قواعد الشورى بين الجند والأمراء والراعي والرعية، ويتعلم منها السياسي كيف كان (ﷺ) يتعامل مع أشد خصومه السياسيين المنحرفين، كرئيس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول الذي أظهر الإسلام وأبطن الكفر والبغض لرسول الله (ﷺ) وكيف كان يحبك المؤامرات وينشر الإشاعات التي تسيء إلى رسول الله (ﷺ) لإضعافه وتنفير الناس منه وكيف عامله رسول الله (ﷺ) وصبر عليه وعلى حقده حتى ظهرت حقيقته للناس فنبذوه جميعًا حتى أقرب الناس له وكرهوه والتفوا حول قيادة النبي (ﷺ).

ويجد العلماء فيها ما يعينهم على فهم كتاب الله (تعالى) لأنها هي المفسرة للقرآن الكريم في الجانب العملي، ففيها أسباب النزول، وتفسير لكثير من الآيات، فتعينهم على فهمها والاستنباط منها ومعايشة أحداثها، فيستخرجون أحكامها الشرعية، وأصول السياسة الشرعية، ويحصلون منها على المعارف الصحيحة في علوم الإسلام المختلفة وبها يدركون الناسخ والمنسوخ وغيرها من العلوم، وبذلك يتذوقون روح الإسلام ومقاصده السامية، ويجد فيها الزهاد معاني الزهد وحقيقته ومقصده، ويستقي منها التجار مقاصد التجارة وأنظمتها وطرقها، ويتعلم منها المبتلون أسمى درجات الصبر والثبات، فتقوى عزائمهم على السير في طريق دعوة الإسلام وتعظم ثقتهم بالله (عز وجل) ويوقنوا أن العاقبة للمتقين[٢].

وتتعلم منها الأمة الآداب الرفيعة، والأخلاق الحميدة، والعقائد السليمة، والعبادة الصحيحة، وسمو الروح، وطهارة القلب، وحب الجهاد في سبيل الله وطلب الشهادة في سبيله، ولهذا قال علي بن الحسن: (كنا نعلم مغازي النبي (ﷺ) كما نعلم السورة من القرآن) وقال الواقدي: سمعت محمد بن عبد الله يقول: سمعت عمي الزهري يقول: في علم المغازي علم الآخرة والدنيا.

وقال إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص: (كان أبي يعلمنا مغازي رسول الله (ﷺ) يعدها علينا ويقول: هذه مآثر آبائكم فلا تضيعوا ذكرها)[٣].

إن دراسة الهدي النبوي في تربية الأمة وإقامة الدولة، يساعد العلماء والقادة والفقهاء والحكام على معرفة الطريق إلى عز الإسلام والمسلمين من خلال معرفة عوامل النهوض،

(٢) انظر: مدخل لفهم السيرة، د. يحيى اليحيى، ص١٤.
(٣) انظر: البداية والنهاية (٢/ ٢٤٢).

وأسباب السقوط ويتعرفون على فقه النبي (ﷺ) في تربية الأفراد، وبناء الجماعة المسلمة، وإحياء المجتمع، وإقامة الدولة، فيرى المسلم حركة النبي (ﷺ) في الدعوة والمراحل التي مر بها وقدرته على مواجهة أساليب المشركين في محاربة الدعوة، وتخطيطه الدقيق في الهجرة إلى الحبشة، ومحاولته إقناع أهل الطائف بالدعوة، وعرضه لها على القبائل في المواسم، وتدرجه في دعوة الأنصار ثم هجرته المباركة إلى المدينة.

إن من تأمل حادثة الهجرة ورأى دقة التخطيط ودقة التنفيذ من ابتدائها إلى انتهائها ومن مقدماتها إلى ما جرى بعدها يدرك أن التخطيط المسدد بالوحي في حياة الرسول (ﷺ) قائم وأن التخطيط جزء من السنة وهو جزء من التكليف الإلهي في كل ما طولب به المسلم.

إن المسلم يتعلم من المنهاج النبوي كل فنون إدارة الصراع والبراعة في إدارة كل مرحلة وفي الانتقال من مستوى إلى آخر وكيف واجه القوى المضادة من اليهود والمنافقين والكفار والنصارى؟ وكيف تغلب عليها كلها بسبب توفيق الله (تعالى) والالتزام بشروط النصر وأسبابه التي أرشد إليها المولى (عز وجل) في كتابه الكريم.

إن قناعتي الراسخة في التمكين لهذه الأمة وإعادة مجدها وعزتها وتحكيم شرع ربها منوط بمتابعة الهدى النبوي قال (تعالى): **﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾** (سورة النور، الآية: ٥٤)، فقد بينت الآية الكريمة أن طريق التمكين في متابعة النبي (ﷺ) فقد جاءت الآيات التي بعدها تتحدث عن التمكين وتوضح شروطه قال (تعالى): **﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾** (سورة النور، الآيتان: ٥٥-٥٦).

وقد قام رسول الله (ﷺ) وأصحابه بتحقيق شروط التمكين، فحققوا الإيمان بكل معانيه وكافة أركانه، ومارسوا العمل الصالح بكل أنواعه وحرصوا على كل أنواع الخير وصنوف البر، وعبدوا الله عبودية شاملة في كافة شؤون حياتهم، وحاربوا الشرك بكل أشكاله وأنواعه وخفاياه، وأخذوا بأسباب التمكين المادية والمعنوية على مستوى الأفراد والجماعة حتى أقاموا دولتهم في المدينة ومن ثم نشروا دين الله بين الشعوب والأمم.

إن تأخر المسلمين اليوم عن القيادة العالمية لشعوب الأرض نتيجة منطقية لقوم نسوا رسالتهم، وحطوا من مكانتها وشابوا معدنها بركام هائل من الأوهام في مجال العلم والعمل على حد سواء، وأهملوا السنن الربانية وظنوا أن التمكين قد يكون بالأماني والأحلام.

إن هذا الضعف الإيماني والجفاف الروحي، والتخبط الفكري والقلق النفسي، والشتات الذهني، والانحطاط الخلقي الذي أصاب المسلمين بسبب الفجوة الكبيرة التي حدثت بين الأمة والقرآن الكريم والهدي النبوي الشريف، وعصر الخلفاء الراشدين والنقاط المشرقة

المضيئة في تاريخنا المجيد.

أما ترى معي ظهور الكثير من المتحدثين باسم الإسلام وهم بعيدون كل البعد عن القرآن الكريم والهدي النبـوي، وسيرة الخلفـاء الراشدين وأدخلوا في خطابهم مصطلحـات جديدة ومفـاهيم مائعة نتـيجة الهزيمة الـنفسية أمـام الحضارة الغـربية وأصبحـوا يتلاعبـون بالألفاظ ويلوونها، ويتحدثون الساعات الطوال، ويدبجون المقالات، ويكتبون الكتب في فلسفة الحياة والكون والإنسان ومناهج التغـيير ولا نكاد نلمس في حديثهم أو نلاحظ في مقـالاتهم عمقًا في فهم فـقه التمكين، وسنن الله في تـغيير الـشعوب وبناء الدول من خـلال القرآن الكريم والمنهاج النبـوي الشريف أو دعوة الأنبـياء والمرسلين لشـعوبهم أو تقصـيًا لتاريخنا المجـيد، فـيخـرجوا لنا عـوامل النهوض عند نـور الدين محـمود، أو صـلاح الدين، أو يوسف بن تاشفين، أو محمـود الغزنوي أو محمد الفاتح ممن ساروا على الهـدي النبوي في تربية الأمة وإقامة الدولة ،بل يستدلون ببعض الساسة أو المفكرين والمثقفين من الشرق أو الغرب ممن هم أبعد الناس عن الوحي السماوي والمنهج الرباني وأنا لست ممن يعـارض الاستفادة من تجارب الشعوب والأمم فالحكمة ضالة المؤمن فـهو أحق بها أنّى وجدها، ولكنني ضد الذين يجهلون أو يتجاهلون المنهاج الربانـي، وينسون ذاكرة الأمة التاريخية المليـئة بالدروس والعبر والعظات ثم بعد ذلك يحـرصون على أن يتـصدروا قيـادة المسلمين بأهوائهم وآرائهم البعـيدة عن نور القرآن الكريم والهدي النبوي الشريف.

وما أجمل ما قاله ابن قيم الجوزية:

والله مـا خـوفي من الذنوب فـإنهـا لعَلَى ... طريـق العـــفـــو والغـــفـــران
لكنمـا أخـشى انسلاخ الـقلب عن تحكيم ... هـذا الـوحي والـقـــــــرآن
ورضًـا بـآراء الرجـال وخـــرصـهـــا ... لا كـــــان ذاك بمنة الـرحــــمن

إننا في أشد الحاجة لمعرفة المنهاج النبـوي في تربية الأمة وإقامة الدولة، ومعرفة سنن الله في الشعوب والأمم والدول وكيف تعـامل معها النبي (ﷺ) عندما انطلق بدعـوة الله في دنيا الناس حتى نلتمس من هديه (ﷺ) الطريق الصحيح في دعوتنا والتـمكين لديننا ونقيم بنياننا على منهجـية سليمـة مستمـدة أصولها وفروعها من كتـاب ربنا وسنّة نبينا (ﷺ) قـــال (تعـالى): ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا**﴾ (سورة الأحزاب، الآية: ٢١).

فقد كان فقه النبي (ﷺ) في تربية الأمة وإقامة الدولة شاملاً ومتكاملاً ومتوازنًا وخاضعًا لسنن الله في المجتمعات وإحياء الشعوب وبناء الدول، فتعامل (ﷺ) مع هذه السنن في غاية الحكمـة وقمة الـذكاء، كسـنة التدرج، والتـدافع، والابتلاء، والأخـذ بالأسبـاب، وتغيـير النفوس، وغرس (ﷺ) في نفوس أصحابه المنهج الرباني وما يحمله من مفاهيم وقيم وعقائد وتصورات صحيحة عن الله والإنسان، والكون والحـياة والجنة والنار، والقضاء والقدر، وكان

الصحابة رضي الله عنهم يتأثرون بمنهجه في التربية غاية التأثر ويحرصون كل الحرص على الالتزام بتوجيهاته، فكان الغائب إذا حضر من غيبته يسأل أصحابه عما رأوا من أحوال النبي (ﷺ) وعن تعليمه وإرشاده وعما نزل من الوحي حال غيبته، وكانوا يتبعون خطى الرسول (ﷺ) في كل صغيرة وكبيرة ولم يكونوا يقصرون هذا الاستقصاء على أنفسهم، بل كانوا يلقنونه لأبنائهم ومن حولهم.

ففي هذا الكتاب تقصي لأحداث السيرة، فيتحدث الباحث عن أحوال العالم قبل البعثة، والحضارات السائدة والأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية والخلقية في زمن البعثة، وعن الأحداث المهمة قبل المولد النبوي، وعن نزول الوحي، ومراحل الدعوة، والبناء التصوري والأخلاقي والتعبدي في العهد المكي، وعن أساليب المشركين في محاربة الدعوة، وعن الهجرة إلى الحبشة، ومحنة الطائف، ومنحة الإسراء والمعراج، والطواف على القبائل، ومواكب الخير وطلائع النور من أهل يثرب والهجرة النبوية، ويقف الكتاب بالقارئ على الأحداث مستخرجًا منها الدروس والعبر والفوائد لكي يستفيد منها المسلمون في عالمنا المعاصر، وتحدث الباحث عن حياة النبي (ﷺ) منذ دخوله المدينة إلى وفاته وبين فقه النبي (ﷺ) في إرساء دعائم المجتمع وتربيته ووسائله في بناء الدولة، ومحاربة أعدائها في الداخل والخارج، فيقف الباحث على فقه النبي (ﷺ) في سياسة المجتمع ومعاهداته مع أهل الكتاب التي سجلت في الوثيقة، وحركته الجهادية، ومعالجته الاقتصادية، والارتقاء بالمسلم نحو مفاهيم هذا الدين الذي جاء لإنقاذ البشرية من دياجير الظلام، وعبادة الأوثان، وانحرافها عن شريعة الحكيم المتعال، وقد حاول الباحث أن يعالج مشكلة اختزال السيرة النبوية في أذهان الكثير من أبناء الأمة، ففي العقود الماضية ظهرت دراسات رائعة في مجال السيرة النبوية وكتب الله لها قبولاً وانتشارًا، «كالرحيق المختوم»، لصفي الرحمن المباركفوري، و«فقه السيرة» للغزالي، و«فقه السيرة النبوية» للبوطي و«السيرة النبوية» لأبي الحسن الندوي وكانت هذه الدراسات مختصرة ولم تكن شاملة لأحداث السيرة، واعتمدت بعض الجامعات هذه الكتب وظن بعض طلابها أن من استوعب هذه الكتب فقد أحاط بالسيرة النبوية وهذا خطأ فادح وخطير في حق السيرة النبوية المشرفة، وقد تسرب هذا الأمر إلى بعض أئمة المساجد وبعض قيادات الحركات الإسلامية وانعكس ذلك على الأتباع فأحدث تصورًا ناقصًا للسيرة عند كثير من الناس وقد حذر الشيخ محمد الغزالي من خطورة هذا التصور في نهاية كتابه «فقه السيرة» فقال: قد تظن أنك درست حياة محمد (ﷺ) إذا تابعت تاريخه من المولد إلى الوفاة وهذا خطأ بالغ.

إنك لن تفقه السيرة حقًا إلا إذا درست القرآن الكريم والسنة المطهرة وبقدر ما تنال من ذلك، تكون صلتك بنبي الإسلام[٤].

ففي هذه الدراسة يجد القارئ تسليط الأضواء على البعد القرآني الذي له علاقة بالسيرة

(٤) انظر: فقه السيرة للغزالي، ص٤٧٦.

النبوية، كغزوة بدر، وأحد، والأحزاب، وبني النضير، وصلح الحديبية، وغزوة تبوك، فبين الباحث الدروس والعبر، وسنن الله في النصر والهزيمة، وكيف عالج القرآن الكريم أمراض النفوس من خلال الأحداث والوقائع؟

إن السيرة النبوية تعطي كل جيل ما يفيده في مسيرة الحياة وهي صالحة لكل زمان ومكان ومُصلحة كذلك.

لقد عشت سنين من عمري في البحث في القرآن الكريم والسيرة النبوية فكانت من أفضل أيام حياتي، فنسيت أثناء البحث غربتي وهجرتي وتفاعلت مع الدرر والكنوز والنفائس الموجودة في بطون المراجع والمصادر، فعملت على جمعها وترتيبها وتنسيقها وتنظيمها حتى تكون في متناول أبناء أمتي العظيمة، وقد لاحظت التفاوت في ذكر الدروس والعبر والفوائد والأحداث بين كتّاب السيرة قديمًا وحديثًا، فأحيانًا يذكر ابن هشام ما لم يذكره الذهبي، ويذكر ابن كثير ما لم يذكره أصحاب السنن هذا قديمًا، أما حديثًا، فقد ذكر السباعي ما لم يذكره الغزالي، وذكر البوطي ما لم يذكره الغضبان، وهكذا.

ووجدت في التفسير، وشروح الحديث، كفتح الباري، وشرح النووي، وكتب الفقهاء ما لم يذكره كتاب السيرة قديمًا ولا حديثًا فأكرمني الله (تعالى) بجمع تلك الدروس والعبر والفوائد ونظمتها في عقد جميل يسهل الاطلاع عليه ويساعد القارئ على تناول تلك الثمار اليانعة بكل سهولة إن في هذا الكتاب حصيلة علمية وأفكارًا عملية جمعت من مئات المراجع والمصادر، وقد ساهم في إخراج هذا الجهد أخوة كثيرون من ليبيا واليمن والعراق، ومصر ، والسودان، والسعودية، والإمارات، وقطر، وبلاد الشام بالحوار والنقاش والندوات، فأفاد بعضهم في الإشارة إلى بعض المراجع والمصادر النادرة وعمل على توفيرها، والبعض الآخر أرشد إلى ضرورة التركيز على السنن والقوانين التي تعامل معها النبي (ﷺ) في حركته المباركة، كقانون الفرصة في فتح خيبر، وفتح مكة، وأشار البعض إلى أهمية ربط السيرة التاريخية بالسيرة السلوكية والسيرة المعبر عنها بحديث شريف أو فعل نبوي والسيرة كما يقررها القرآن الكريم ببعضها ومزجها في منهجية متناسقة تمد أبناء الجيل بعلم غزير، وفقه عميق، وعاطفة جياشة، فهي غذاء للروح، وتثقيف للعقول وحياة للقلوب، وصفاء للنفوس.

إن السيرة النبوية غنية في كل جانب من الجوانب التي تحتاجها مسيرة الدعوة الإسلامية، فالنبي (ﷺ) لم يلتحق بالرفيق الأعلى إلا بعد أن ترك سوابق كثيرة لمن يريد أن يقتدي به في الدعوة والتربية والثقافة والتعليم والجهاد، وكافة شؤون الحياة، كما أن التعمق في سيرة الرسول (ﷺ)، يساعد القارئ على التعرف على الرصيد الخلقي الكبير الذي تميز به رسول الله (ﷺ) عن كل البشر ويتعرف على صفاته الحميدة التي عاش بها في دنيا الناس فيرى من خلال سيرته مصداق قول حسان بن ثابت رضي الله عنه عندما قال:

وأحسن منك لم تر قط عيني ... وأجمل منك لم تلد النساء

خلقت مبرءًا من كل عيب ... كأنك قد خلقت كما تشاء

هذا ، ولا أدّعي أني أتيت بما لم تستطعه الأوائل فشأن رسول الله (ﷺ) كبير وتوضيح بعض معالم سيرته يحتاج إلى نفس أرق، وفقه أدق وذكاء أكبر وإيمان أعمق، كما أنني لا أدّعي لعملي هذا العصمة أو الكمال، فهذا شأن الرسل والأنبياء، ومن ظن أنه قد أحاط بالعلم فقد جهل نفسه وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ (سورة الإسراء، آية: ٨٥).

فالعلم بحر لا شاطئ له وما أصدق الشاعر إذ يقول:

وقل لمن يدّعي في العلم فلسفة ... حفظت شيئًا وغابت عنك أشياء

يقول الثعالبي: لا يكتب أحد كتابًا فيبيت عنده ليلة إلا أحب في غيرها أن يزيد فيه أو ينقص منه، هذا في ليلة، فكيف في سنين معدودة؟

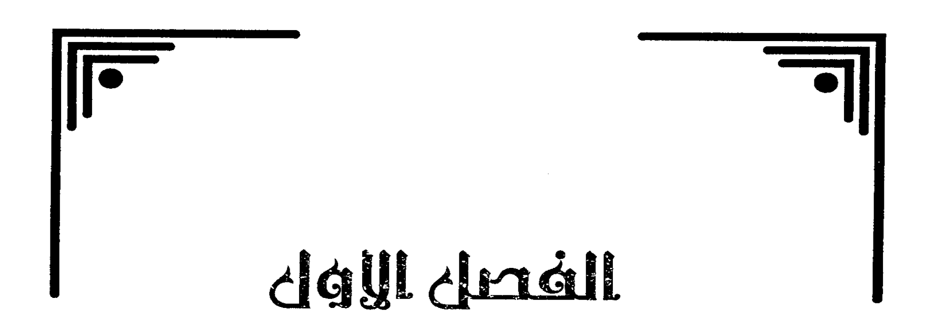
وقال العماد الأصبهاني: إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابًا في يومه إلا قال في غده، لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر ...

وأخيرًا أرجو من الله (تعالى) أن يكون عملاً لوجهه خالصًا ولعباده نافعًا وأن يثيبني على كل حرف كتبته ويجعله في ميزان حسناتي وأن يثيب إخواني الذين أعانونني بكافة ما يملكون من أجل إتمام هذا الكتاب قال الشاعر:

أسيرُ خَلْفَ ركَابِ القومِ ذا عَرَجٍ ... مؤمِّلا جَبْرَ ما لاقَيْت مِنْ عوَجِ
فإن لحقْتُ بهم من بَعد ما سبقوا ... فكم لربِّ السماء في الناس من فَرَجِ
وإن ظَلَلْتُ بقفر الأرض منقطعا ... فما على أعرج في ذاك من حرج

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورضوانه
علي محمد الصلابي
١٨ رجب ١٤٢١هـ
١٦ أكتوبر ٢٠٠٠م



الفصل الأول

أهم الأحداث التاريخية من قبل البعثة حتى نزول الوحي



المبحث الأول

الحضارات السائدة قبل البعثة وداياناتها

أولاً: الإمبراطورية الرومانية:

كانت الإمبراطورية الرومانية الشرقية تعرف بالإمبراطورية البيزنطية، فكانت تحكم دول اليونان والبلقان وآسيا وسوريا وفلسطين وحوض البحر المتوسط بأسره ومصر وكل إفريقيا الشمالية، وكانت عاصمتها القسطنطينية وكانت دولة ظالمة مارست الظلم والجور والتعسف على الشعوب التي حكمتها، وضاعفت عليها الضرائب، وكثرت الاضطرابات والثورات، وكانت حياتهم العامة قائمة على كل أنواع اللهو واللعب والطرب والترف.

أما مصر فكانت عرضة للاضطهاد الديني والاستبداد السياسي، واتخذها البيزنطيون شاةً حلوبًا يحسنون حلبها، ويسيئون علفها.

وأما سوريا فقد كثرت فيها المظالم والرقيق، ولا يعتمدون في قيادة الشعب إلا على القوة والقهر الشديد وأصبحت مطية المطامع الرومانية، وكان الحكم حكم الغرباء الذي لا يعتمد إلا على القوة، لا يشعر بأي عطف على الشعب المحكوم، وكثيرًا ما كان السوريون يبيعون أبناءهم ليوفوا ما كان عليهم من ديون[1].

كان المجتمع الروماني مليئًا بالتناقض والاضطراب وقد جاء تصويره في كتاب «الحضارة ماضيها وحاضرها» كالآتي:

(كان هناك تناقض هائل في الحياة الاجتماعية للبيزنطيين، فقد رسخت النزعة الدينية في أذهانهم، وعمت الرهبانية، وشاعت في طول البلاد وعرضها، وأصبح الرجل العادي في البلاد يتدخل في الأبحاث الدينية العميقة، والجدل البيزنطي، ويتشاغل بها، كما طبعت الحياة العادية العامة بطابع المذهب الباطني، ولكن نرى هؤلاء -في جانب آخر- حريصون أشد الحرص على كل نوع من أنواع اللهو واللعب، والطرب والترف، فقد كانت هناك ميادين رياضية واسعة تتسع لجلوس ثمانين ألف شخص، يتفرجون فيها على مصارعات بين الرجال والرجال أحيانًا، وبين الرجال والسباع أحيانًا أخرى، وكانوا يقسمون الجماهير في لونين: لون أزرق ولون أخضر، لقد كانوا يحبون الجمال، ويعشقون العنف والهمجية، وكانت ألعابهم دموية ضارية أكثر الأحيان، وكانت عقوبتهم فظيعة تقشعر منها الجلود، وكانت حياة سادتهم وكبرائهم عبارة عن المجون والترف، والمؤامرات والمجاملات الزائدة، والقبائح والعادات السيئة)[2].

ثانيًا: الإمبراطورية الفارسية:

كانت الإمبراطورية الفارسية تعرف بالدولة الفارسية أو الكسروية، وهي أكبر وأعظم من الإمبراطورية الرومانية الشرقية وقد كثرت فيها الديانات المنحرفة كالزرادشتية والمانية التي

---

(١) انظر: السيرة النبوية للندوي ص٣١ بتصرف.

(٢) نفس المصدر ص٣١ بتصرف.

أسسـها ماني في أوائل القـرن الثالث الميلادي، ثم ظهـرت المزدكية في أوائل القـرن الخامس الميلادي التـي دعت إلى الإباحية في كل شـيء مما أدى إلى انتشار ثورات الـفلاحين وازدياد النهـابين للقصـور فكانوا يقبـضون أو يأسـرون النساء ويسـتولون علـى الأملاك والعـقارات فأصبحت الأرض والمزارع والدور كأن لم تسكن من قبل.

وكان ملوكهم يحكمون بالوراثة، ويضعون أنفسهم فوق بني آدم؛ لأنهم يعتبرون أنفسهم من نسل الآلهة، وأصبـحت موارد البلاد ملكًا لهؤلاء الملوك يتـصرفون فيها ببـذخ لا يتصور ويعيشون عيش البهائم، حتى ترك كـثير من المزارعين أعمالهم أو دخلوا الأديرة والمعابد فرارًا من الضرائب والخـدمة العسكرية، وكـانوا وقودًا حقيـرًا في حروب طاحنة مدمـرة قامت في فترات من التـاريخ دامت سنين طوال بين الفرس والروم لا مصلحة للـشعوب فيهـا إلا تنفيذ نزوات ورغبات الملوك[٣].

ثالثا: الهند:

فقد اتفقت كلـمة المؤرخين على أن أحط أدوارها ديانةً وخلقًا واجتماعـًا وسياسة، ذلك العهد الذي يبتدئ من مستهل القرن السادس الميلادي فانتشرت الخلاعة حتى في المعابد، لأنها أصبحت مقدسـة، وكانت المرأة لا قيمة لها ولا عصمة، وانتـشرت عادة إحراق المرأة المتوفى زوجها، وامتـازت الهند عن أقطار العالم بالتفاوت الفاحش بين طبـقات الشعب، وكان ذلك تابعًا لقـانون مدني سيـاسي ديني وضعـه المشرعون الهنديون الذين كـانت لهم صفـة دينية، وأصبح هو القانون العـام في المجتمع ودستور حياتهم، وكـانت الهند في حالة فوضى وتمزق انتشرت فيـها الإمارات التي اندلعت بينها الحروب الطاحنة، وكانت بعيـدة عن أحداث عالمها في عزلة واضـحة يسيطر عليـها التزمت والتـطرف في العادات والتقـاليد والتفـاوت الطبقي والتعصب الدموي والسـلالي، وقد تحدث مؤرخ هندوكي أستاذ التاريخ في إحـدى جامعات الهند، عن عصر سابق لدخول الإسلام في الهند فقال: (كان أهل الهند منقطعين عن الدنيا، منطوين على أنفسهم، لا خبرة عندهم بالأوضاع العالمية، وهذا الجهل أضعف موقفهم، فنشأ فيـهم الجمـود، وعمّت فيـهم أمارات الانحطاط والتـدهور، كان الأدب في هذه الفـترة بلا روح، وهكذا كان الشأن في الفن المعماري، والتصوير، والفنون الجميلة الأخرى)[٤].

(وكان المجتمع الهندي راكدًا جامدًا، كان هناك تفاوت عظيم بين الطبقات، وتمييز معيب بين أسرة وأسرة، وكانوا لا يسمحـون بزواج الأيامى ويشدّدون على أنفسهم في أمور الطعام والشراب، أما المنبوذون فكانوا يعيشون -مضطرين- خارج بلدهم ومدينتهم)[٥].

كان تقسيم سكان الهند إلى أربع طبقات:

١- طبقة الكهنة ورجال الدين، وهم «البراهمة».

---

(٣) انظر: السيرة النبوية للندوي ص٣٢، ٣٣ بتصرف.
(٤) انظر: السيرة النبوية للندوي ص٣٨.
(٥) نفس المصدر ص٣٩.

٢- ورجال الحرب والجندية وهم «شترى».

٣- ورجال الفلاحة والتجارة وهم «ويش».

٤- ورجال الخدمة وهم «شودر»، وهم أحط الطبقات، فقد خلقهم خالق الكون - في زعمهم الجاهلي - من أرجله، وليس لهم إلا خدمة هذه الطبقات الثلاثة وإراحتها.

وقد منح هذا القانون البراهمة مركزًا ومكانة لا يشاركهم فيها أحد، والبرهمي رجل مغفور له ولو أباد العوالم الثلاثة بذنوبه وأعماله، ولا يجوز فرض جباية عليه، ولا يعاقب بالقتل في حال من الأحوال، أما (شودر) فليس لهم أن يقتنوا مالاً، أو يدخروا كنزًا، أو يجالسوا برهميًا، أو يمسوه بيدهم، أو يتعلموا الكتب المقدسة(٦).

رابعًا: أحوال العالم الدينية قبل البعثة المحمدية:

كانت الإنسانية قبل بزوغ فجر الإسلام العظيم تعيش مرحلة من أحط مراحل التاريخ البشري في شؤونها الدينية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية وتعاني من فوضى عامة في كافة شؤون حياتها؛ وهيمن المنهج الجاهلي على العقائد والأفكار والتصورات والنفوس، وأصبح الجهل والهوى والانحلال والفجور، والتجبر والتعسف من أبرز ملامح المنهج الجاهلي المهيمن على دنيا الناس(٧).

وضاع تأثير الديانات السماوية على الحياة - أو كاد - بسبب ما أصابها من التبديل والتحريف والتغيير الذي جعلها تفقد أهميتها باعتبارها رسالة الله إلى خلقه، وانشغل أهلها بالصراعات العقدية النظرية التي كان سببها دخول الأفكار البشرية، والتصورات الفاسدة على هذه الأديان، حتى أدى إلى الحروب الطاحنة بينهم ومن بقي منهم لم يحرف ولم يبدل قليل نادر وآثر الابتعاد عن دنيا الناس ودخل في حياة الخلوة والعزلة طمعًا في النجاة بنفسه يأسًا من الإصلاح، ووصل الفساد إلى جميع الأصناف والأجناس البشرية ودخل في جميع المجالات بلا استثناء ففي الجانب الديني تجد الناس إما ارتدوا عن الدين أو خرجوا منه أو لم يدخلوا فيه أصلاً، أو وقعوا في تحريف الديانات السماوية وتبديلها، وأما في الجانب التشريعي، فإن الناس نبذوا شريعة الله وراءهم ظهريًا واخترعوا من عند أنفسهم قوانين وشرائع لم يأذن بها الله تصطدم مع العقل وتختلف مع الفطرة.

وتزعم هذا الفساد زعماء الشعوب والأمم من القادة والرهبان والقساوسة والدهاقين والملوك، وأصبح العالم في ظلام دامس وليل بهيم وانحراف عظيم عن منهج الله (سبحانه وتعالى).

فاليهودية أصبحت مجموعة من الطقوس والتقاليد لا روح فيها ولا حياة وتأثرت بعقائد

---

(٦) راجع القانون المدني الاجتماعي المسمى منو شاسنز ، الأبواب ١-٢-٨-٩-١٠ . نقلاً عن السيرة النبوية للندوي ص٣٨ .

(٧) انظر: الغرباء الأولون ، سلمان العودة ص٥٧ .

الأمم التي جاورتها واحتكت بها، والتي وقعت تحت سيطرتها فأخذت كثيرًا من عاداتها وتقاليدها الوثنية الجاهلية، وقد اعترف بذلك مؤرخو اليهود[٨] فقد جاء في دائرة المعارف اليهودية: (إن سخط الأنبياء وغضبهم على عبادة الأوثان تدل على أن عبادة الأوثان والآلهة، كانت قد تسربت إلى نفوس الإسرائيليين، ولم تستأصل شأفتها إلى أيام رجوعهم من الجلاء والنفي في بابل، وقد اعتقدوا معتقدات خرافية وشركية، أن التلمود أيضًا يشهد بأن الوثنية كانت فيها جاذبية خاصة لليهود)[٩].

إن المجتمع اليهودي قبل البعثة المحمدية قد وصل إلى الانحطاط العقلي وفساد الذوق الديني، فإذا طالعت تلمود بابل الذي يبالغ اليهود في تقديسه والذي كان متداولاً بين اليهود في القرن السادس المسيحي، تجد فيه نماذج غريبة من خفة العقل وسخف العقول، والاجتراء على الله، والعبث بالحقائق، والتلاعب بالدين والعقل[١٠].

أما المسيحية فقد امتحنت بتحريف الغالين، وتأويل الجاهلين واختفى نور التوحيد وإخلاص العبادة لله وراء السحب الكثيفة[١١]، واندلعت الحروب بين النصارى في الشام والعراق، وبين نصارى مصر حول حقيقة المسيح وطبيعته، وتحولت البيوت والمدارس والكنائس إلى معسكرات متنافسة وظهرت الوثنية في المجتمع المسيحي في مظاهر مختلفة وألوان شتى، فقد جاء في تاريخ المسيحية في ضوء العلم المعاصر:

(لقد انتهت الوثنية، ولكنها لم تلق إبادة كاملة، بل إنها تغلغلت في النفوس واستمر كل شيء فيها باسم المسيحية وفي ستارها، فالذين تجردوا عن آلهتهم وأبطالهم وتخلوا عنهم أخذوا شهيدًا من شهدائهم، ولقبوه بأوصاف الآلهة ثم صنعوا له تمثالاً وهكذا انتقل هذا الشرك وعبادة الأصنام إلى هؤلاء الشهداء المحليين، ولم ينته هذا القرن حتى عمت فيه عبادة الشهداء والأولياء، وتكونت عقيدة جديدة، وهي أن الأولياء يحملون صفات الألوهية، وصار هؤلاء الأولياء والقديسون خلقًا وسيطًا بين الله والإنسان يحمل صفة الألوهية على أساس عقائد الأريسيين، وأصبحوا رمزًا لقداسة القرون الوسطى وورعها وطهرها، وغيرت أسماء الأعياد الوثنية بأسماء جديدة، حتى تحول في عام ٤٠٠ ميلادي عيد الشمس القديم إلى عيد ميلاد المسيح)[١٢].

وجاء في دائرة المعارف الكاثوليكية الجديدة: (تغلغل الاعتقاد بأن الإله الواحد مركب من ثلاثة أقانيم في أحشاء حياة العالم المسيحي وفكره، منذ ربع القرن الرابع الأخير، ودامت كعقيدة رسمية مُسَلَّمَة، عليها الاعتماد في جميع أنحاء العالم المسيحي، ولم يرفع الستار عن تطور عقيدة التثليث وسرّها إلا في المنتصف الثاني للقرن التاسع عشر الميلادي)[١٣].

(٨، ٩) انظر: السيرة النبوية، أبو الحسن الندوي ص٢٠ .

(١٠، ١١) المصدر السابق نفسه ص٢١ .

(١٢) انظر: السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي ص٢٣ .

(١٣) دائرة المعارف الكاثوليكية الجديدة . مقال التثليث (١٤/ ٣٩٥) .

لقد اندلعت الحروب بين النصارى وكفّر بعضهم بعضًا، وقتل بعضهم بعضًا وانشغل النصارى ببعضهم عن محاربة الفساد وإصلاح الحال ودعوة الأمم إلى ما فيه صلاح البشرية(١٤).

وأما المجوس، فقد عرفوا من قديم الزمان بعبادة العناصر الطبيعية أعظمها النار وانتشرت بيوت النار في طول البلاد وعرضها وعكفوا على عبادتها وبنوا لها معابد وهياكل، وكانت لها آداب وشرائع دقيقة داخل المعابد، أما خارجها فكان أتباعها أحرارًا يسيرون على هواهم لا فرق بينهم وبين من لا دين له.

ويصف المؤرخ الدنماركي طبقة رؤساء الدين ووظائفهم عند المجوس في كتابه «إيران في عهد الساسانيين» فيقول: (كان واجبًا على هؤلاء الموظفين أن يعبدوا الشمس أربع مرات في اليوم، ويضاف إلى ذلك عبادة القمر والنار والماء، وكانوا مكلفين بأدعية خاصة، عند النوم والانتباه والاغتسال ولبس الزنار والأكل والعطس وحلق الشعر وتقليم الأظفار، وقضاء الحاجة وإيقاد السرج، وكانوا مأمورين بألا يَدَعوا النار تنطفئ، وألا تمس النار والماء بعضها بعضًا، وألا يَدَعوا المعدن يصدأ، لأن المعادن عندهم مقدسة)(١٥).

وكان أهل إيران يستقبلون في صلاتهم النار، وقد حلف «يزدجرد» -آخر ملوك السّاسانيين- بالشمس مرة، وقال: (أحلف بالشمس التي هي الإله الأكبر). وقد دان المجوس بالثّنوية في كل عصر وأصبح ذلك شعارًا لهم، فآمنوا بإلهين اثنين، أحدهما النور أو إله الخير والثاني الظلام أو إله الشر(١٦).

أما البوذية في الهند وآسيا الوسطى، فقد تحولت وثنية تحمل معها الأصنام حيث سارت، وتبني الهياكل، وتنصب تماثيل بوذا حيث حلت ونزلت(١٧).

أما البراهمة دين الهند الأصلي، فقد امتازت بكثرة المعبودات والآلهة وقد بلغت أوجها في القرن السادس الميلادي، ولا شك أن الديانة الهندوكية والبوذية وثنيتان سواء بسواء، لقد كانت الدنيا المعمورة من البحر الأطلسي إلى المحيط الهادي غارقة في الوثنية وكأنما كانت المسيحية واليهودية والبوذية والبرهمية تتسابق في تعظيم الأوثان وتقديسها، وكانت كخيل رهان تجري في حلبة واحدة.

وقد أشار النبي (ﷺ) إلى عموم هذا الفساد لجميع الأجناس وجميع المجالات بلا استثناء فقد قال (ﷺ) ذات يوم في خطبته: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا؛ كل مال نحلته(١٨) عبدًا حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء(١٩) كلهم، وإنهم أتتهم

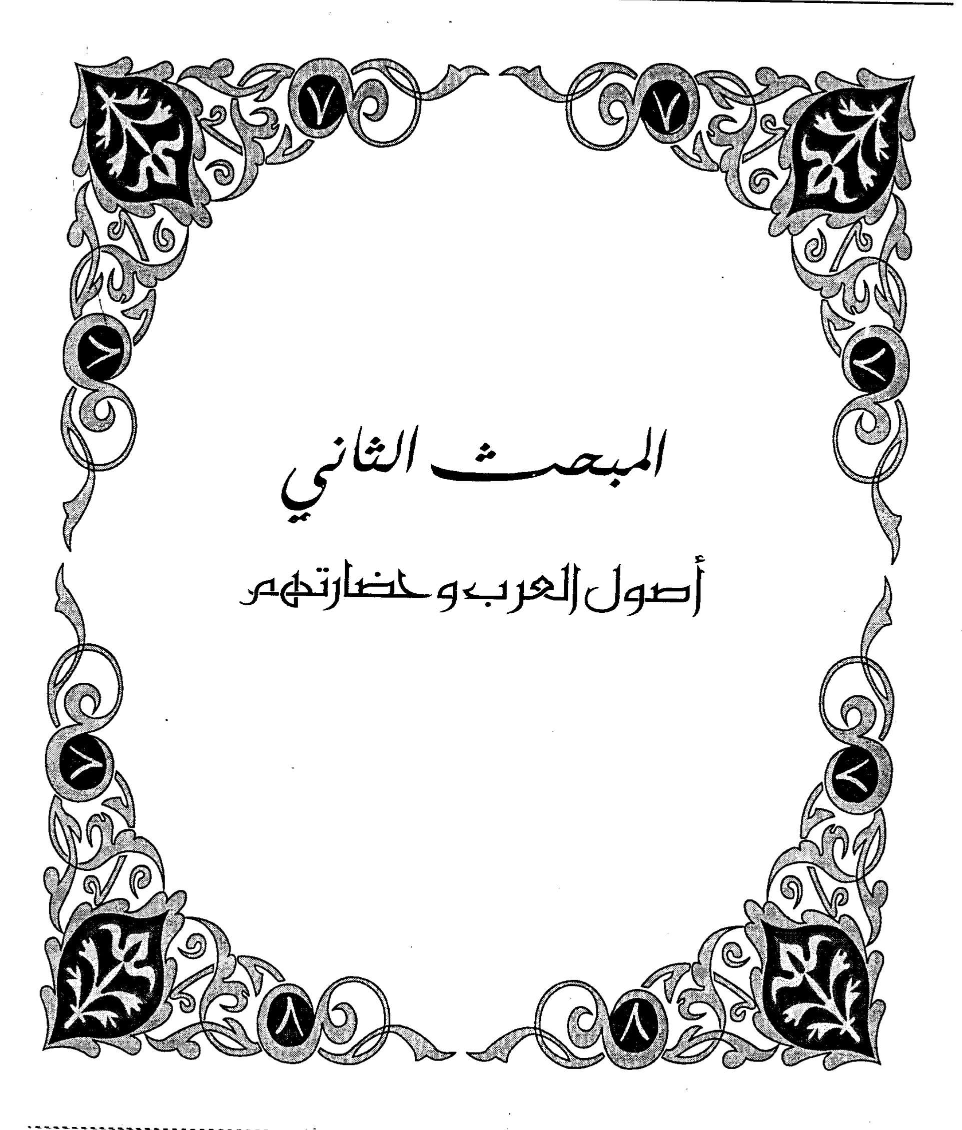
(١٤) انظر: فتح العرب لمصر، تعريب محمد أبو حديد ص٣٧، ٣٨، ٤٨.
(١٥) إيران في عهد الساسانيين ص١٥٥. نقلاً عن السيرة النبوية للندوي ص٢٧.
(١٦) انظر: السيرة النبوية، أبو الحسن الندوي ص٢٧.
(١٧) انظر: السيرة النبوية، للندوي ص٢٨.
(١٨) نحلته: أعطيته (النهاية في غريب الحديث) (٥/٢٩).
(١٩) حنفاء: مائلين عن الشرك إلى التوحيد النهاية في غريب الأثر (١/٤٥١).

الشياطين فاجتالتهم عن دينهم[٢٠]، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا، وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم: عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب»[٢١].

والحديث يشير إلى انحراف البشرية في جوانب متعددة كالشرك بالله، ونبذ شريعته وفساد المصلحين من حملة الأديان السماوية وممالأتهم للقوم على ضلالهم[٢٢].



(٢٠) اجتالتهم: ذهبت بهم. «النهاية» (١/٣١٦).
(٢١) مسلم، كتاب الجنة، باب الصفات (٤/٢١٩٧) رقم ٢٨٦٥.
(٢٢) انظر: الغرباء الأولون ص٥٩.



المبحث الثاني

أصول العرب وحضارتهم

أولاً: أصول العرب:

قسم المؤرخون أصول العرب إلى ثلاثة أقسام بحسب السلالات التي انحدروا[٢٣] منها:

١- العرب البائدة:

وهي قبائل عاد، وثمود، والعمالقة، وطسم، وجديس، وأميم، وجرهم وحضرموت ومن يتصل بهم وهذه دَرَست معالمها واضمحلت من الوجود قبل الإسلام وكان لهم ملوك امتد ملكهم إلى الشام ومصر[٢٤].

٢- العرب العاربة:

وهم العرب المنحدرة من صلب يعرب بن يشجب بن قحطان وتسمى بالعرب القحطانية[٢٥] ويعرفون بعرب الجنوب[٢٦] ومنهم ملوك اليمن، ومملكة معين، وسبأ وحِمْيَر[٢٧].

٣- العرب العدنانية:

نسبة إلى عدنان الذي ينتهي نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وهم المعروفون بالعرب المستعربة، أي الذين دخل عليهم دم ليس عربيًا ثم تمّ اندماج بين هذا الدم وبين العرب، وأصبحت اللغة العربية لسان المزيج الجديد.

وهؤلاء هم عرب الشمال، موطنهم الأصلي مكة، وهم إسماعيل عليه السلام وأبناؤه، والجراهمة الذي تعلم منهم إسماعيل عليه السلام العربية، وصاهرهم، ونشأ أولاده عربًا مثلهم، ومن أهم ذرية إسماعيل (عدنان) جد النبي (ﷺ) الأعلى، ومن عدنان كانت قبائل العرب وبطونها فقد جاء بعد عدنان ابنه معدّ، ثم نزار، ثم جاء بعده ولداه مضر وربيعة.

أما ربيعة بن نزار فقد نزل من انحدر من صلبه شرقًا، فقامت عبد القيس في البحرين، وحنيفة في اليمامة، وبنو بكر بن وائل ما بين البحرين واليمامة، وعبرت تغلب الفرات فأقامت في أرض الجزيرة بين دجلة والفرات، وسكنت تميم في بادية البصرة[٢٨].

أما فرع مضر: فقد نزلت سليم بالقرب من المدينة، وأقامت ثقيف في الطائف، واستوطنت سائر هوازن شرقي مكة، وسكنت أسد شرقي تيماء إلى غربي الكوفة، وسكنت ذبيان وعبس من تيماء إلى حوران[٢٩] وتقسيم العرب إلى عدنانية وقحطانية هو ما عليه

(٢٣) انظر: فقه السيرة النبوية، للغضبان ص٤٥.
(٢٤) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/٤٦).
(٢٥) فقه السيرة، للغضبان ص٤٥.
(٢٦) مدخل لفهم السيرة ص٩٨.
(٢٧) السيرة النبوية لأبي شهبة (١/٤٧).
(٢٨) مدخل لفهم السيرة ص٩٨، ٩٩.
(٢٩) انظر: الطريق إلى المدائن، عادل كمال ص٤٠.

جمهرة علماء الأنساب وغيرهم من العلماء ومن العلماء من يرى أن العرب: عدنانية، وقحطانية ينتسبون إلى إسماعيل[٣٠] (ﷺ).

وقد ترجم البخاري في صحيحه لذلك فقال: باب نسبة اليمن إلى إسماعيل عليه السلام، وذكر في ذلك حديثًا عن سلمة قال: خرج رسول الله (ﷺ) على قوم يتناضلون بالسهام، فقال: «**ارموا بني إسماعيل، وأنا مع بني فلان**» -لأحد الفريقين- **فأمسكوا بأيديهم، فقال: «ما لهم؟»** قالوا: كيف نرمي وأنت مع بني فلان؟ فقال: «**ارموا وأنا معكم كلكم**»[٣١] وفي بعض الروايات: «**ارموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان راميًا**».

قال البخاري: وأسلم بن أفصى بن حارثة بن عمرو بن عامر من خزاعة، يعني: أن خزاعة فرقة ممن كان تمزق من قبائل سبأ حين أرسل الله عليهم سيل العرم[٣٢].

وولد الرسول (ﷺ) من مضر، وقد أخرج البخاري عن كليب بن وائل قال: حدثتني ربيبة النبي (ﷺ) زينب بنت أبي سلمة قال: (قلت لها: أرأيت النبي (ﷺ) أكان من مضر؟ فقالت: فممن كان إلا من مضر؟ من بني النضر بن كنانة)[٣٣].

وكانت قريش قد انحدرت من كنانة وهم أولاد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة وانقسمت قريش إلى قبائل شتى من أشهرها جمح وسهم وعدي ومخزوم وتيم وزهرة وبطون قصي بن كلاب، وهي عبد الدار بن قصي وأسد بن عبد العزى بن قصي، وعبد مناف بن قصي، وكان من عبد مناف أربع فصائل: عبد شمس ونوفل والمطلب وهاشم .. وبيت هاشم هو الذي اصطفى الله منه سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم (ﷺ)[٣٤]:

قال (ﷺ): «**إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**»[٣٥].

ثانيًا: حضارات الجزيرة العربية:

نشأت من قديم الزمان ببلاد العرب حضارات أصيلة، ومدنيات عريقة من أشهرها:

١- حضارة سبأ باليمن:

وقد أشار القرآن الكريم إليها، ففي اليمن استفادوا من مياه الأمطار والسيول التي كانت تضيع في الرمال، وتنحدر إلى البحار، فأقاموا الخزانات والسدود بطرق هندسية متطورة، وأشهر هذه السدود (سد مأرب)، واستفادوا بمياهها في الزروع المتنوعة، والحدائق ذات

(٣٠) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/٤٨).
(٣١) البخاري، كتاب الجهاد والسير (٣/٢٩٨) رقم ٢٨٩٩.
(٣٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/٤٨).
(٣٣) البخاري، كتاب المناقب (٤/ ١٨٥) رقم ٣٤٩١.
(٣٤) انظر: فقه السيرة النبوية، للغضبان ص٤٧.
(٣٥) رواه مسلم، باب فضل نسب النبي (ﷺ) (٤/ ١٧٨٢) رقم ٢٢٧٦.

الأشجار الزكية، والثمار الشهية، قال (عزّ شأنه): ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ﴾ (سورة سبأ، الآيات: ١٥-١٧).

ودل القرآن الكريم على وجود قرى متصلة في الزمن الماضي ما بين اليمن، إلى بلاد الحجاز، إلى بلاد الشام، وأن قوافل التجارة والمسافرين كانوا يخرجون من اليمن إلى بلاد الشام، فلا يعدمون ظلاً، ولا ماءً، ولا طعامًا. قال (تعالى): ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ * فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (سورة سبأ، الآيتان: ١٨-١٩).

٢- حضارة عاد بالأحقاف:

وكانوا في شمال حضرموت وهم الذين أرسل الله إليهم نبي الله هودًا عليه السلام، وكانوا أصحاب بيوت مشيدة، ومصانع متعددة، وجنات، وزروع وعيون[٣٦] قال (تعالى): ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (سورة الشعراء، الآيات ١٢٣ ـ ١٣٤).

٣- حضارة ثمود بالحجاز:

دل القرآن الكريم على وجود حضارة في بلاد الحجْر وأشار إلى ما كانوا يتمتعون به من القدرة على نحت البيوت في الجبال، وعلى ما كان يوجد في بلادهم من عيون وبساتين وزروع[٣٧] قال (تعالى): ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ (سورة الشعراء، الآيات: ١٤١ـ ١٥٠).

وقال فيهم أيضًا:

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (سورة الأعراف، الآية ٧٤).

---

(٣٦) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٥٠).

(٣٧) نفس المصدر (١/ ٥١).

لقد زال كل ذلك من زمن طويل، ولم يبق إلا آثار ورسوم وأطلال، فقد اضمحلت القرى والمدن، وتخربت الدور والقصور، ونضبت العيون، وجفت الأشجار وأصبحت البساتين والزروع أرضًا جرزًا[٣٨].



(٣٨) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٥١).



المبحث الثالث

الأحوال الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية عند العرب

أولاً: الحالة الدينية:

ابتليت الأمة العربية بتخلف ديني شديد، ووثنية سخيفة لا مثيل لها، وانحرافات خلقية، واجتماعية وفوضى سياسية، وتشريعية ومن ثم قل شأنهم وصاروا يعيشون على هامش التاريخ، ولا يتعدون في أحسن الأحوال أن يكونوا تابعين للدولة الفارسية أو الرومانية، وقد امتلأت قلوبهم بتعظيم تراث الآباء والأجداد واتباع ما كانوا عليه مهما يكن فيه من الزيغ والانحراف والضلال ومن ثم عبدوا الأصنام، فكان لكل قبيلة صنم، فكان لهذيل بن مدركة: سواع، ولكلب: ود، ولمذحج يغوث ولخيوان: يعوق، ولحمير: نسر، وكانت خزاعة وقريش تعبد أساف ونائلة، وكانت مناة على ساحل البحر، تعظمها العرب كافة والأوس والخزرج خاصة، وكانت اللات في ثقيف، وكانت العزى فوق ذات عرق، وكانت أعظم الأصنام عند قريش(٣٩).

وإلى جانب هذه الأصنام الرئيسية يوجد عدد لا يحصى كثرة من الأصنام الصغيرة والتي يسهل نقلها في أسفارهم ووضعها في بيوتهم.

روى البخاري في صحيحه عن أبي رجاء العطاردي قال: (كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجرًا آخر هو أخير ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجرًا جمعنا جَثوة من تراب، ثم جئنا بالشاة فحلبناه عليه ثم طفنا به!!)(٤٠).

وقد حالت هذه الوثنية السخيفة بين العرب ومعرفة الله وتعظيمه وتوقيره والإيمان به، وباليوم الآخر وإن زعموا أنها لا تعدو أن تكون وسائط بينهم وبين الله وقد هيمنت هذه الآلهة المزعومة على قلوبهم وأعمالهم وتصرفاتهم، وجميع جوانب حياتهم وضعف توقير الله في نفوسهم قال (تعالى): **﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ﴾** (سورة الأعراف، الآية: ١٣٦). **﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾** (سورة الأنعام، الآية: ٣٦).

أما البقية الباقية من دين إبراهيم عليه السلام فقد أصابها التحريف، والتغيير والتبديل، فصار الحج موسمًا للمفاخرة والمنافرة، والمباهاة وانحرفت بقايا المعتقدات الحنيفية عن حقيقتها وألصق بها من الخرافات والأساطير الشيء الكثير.

وكان يوجد بعض الأفراد من الحنفاء الذين يرفضون عبادة الأصنام وما يتعلق بها من الأحكام والنحائر وغيرها، ومن هؤلاء زيد بن عمرو بن نفيل، وكان لا يذبح للأنصاب، ولا يأكل الميتة والدم وكان يقول:

---

(٣٩) انظر: الغرباء الأولون ص ٦٠ .

(٤٠) البخاري، كتاب المغازي - وفد بني حنيفة (٥/١١٩) ورقمه (٤٣٧٧) .

أربا واحـــدًا أم ألف رب ؟؟ أدين إذا تقسمت الأمور ؟
عزلت اللات والعزى جميعًا كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا عزى أدينُ ولا ابنتيها ولا صنمي بني عمرو أزور
ولا غنمًا أدين وكان ربًا لنا في الدهر، إذ حلمي يسير
ولكن أعبد الرحمن ربي ليغفر ذنبي الرب الغفور(٤١)

وممن كان يدين بشريعة إبراهيم، وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام، قس بن ساعدة الإيادي: فقد كان خطيبًا، حكيمًا، عاقلاً، له نباهة، وفضل، وكان يدعو إلى توحيد الله، وعبادته، وترك عبادة الأوثان، كما كان يؤمن بالبعث بعد الموت، وقد بشر بالنبي (ﷺ)، فقد روى أبو نعيم في دلائل النبوة عن ابن عباس قال: (إن قس بن ساعدة كان يخطب قومه في سوق (عكاظ) فقال في خطبته: سيعلم حق من هذا الوجه -وأشار بيده إلى مكة- قالوا: وما هذا الحق؟ قال: رجل من ولد لؤيّ بن غالب يدعوكم إلى كلمة الإخلاص، وعيش الأبد، ونعيم لا ينفد، فإن دعاكم فأجيبوه، ولو علمت أني أعيش إلى مبعثه لكنت أول من يسعى إليه) وقد أدرك النبي (ﷺ) ومات قبل البعثة(٤٢).

ومما ينشده من شعره:

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردًا للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها يمضي الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضي إليّ ولا من الباقين غابر
أيقنت أني لا محالة حيث صار القوم صائر(٤٣)

كان بعض العرب قد تنصر، وبعضهم دخل في اليهودية، أما الأغلبية فكانت تعبد الأوثان والأصنام.

ثانيًا: الحالة السياسية:

كان سكان الجزيرة العربية ينقسمون إلى بدو، وحضر وكان النظام السائد بينهم هو النظام القبلي، حتى في الممالك المتحضرة التي نشأت بالجزيرة، كمملكة اليمن في الجنوب ومملكة الحيرة في الشمال الشرقي، ومملكة الغساسنة في الشمال الغربي، فلم تنصهر الجماعة فيها في

(٤١) انظر: السيرة النبوية، لابن كثير (١/ ١٦٣).
(٤٢) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة (١/ ٨٠).
(٤٣) السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٨١).

شعب واحد، وإنما ظلت القبائل وحدات متماسكة.

والقبيلة العربية مجموعة من الناس، تربط بينها وحدة الدم (النسب)، ووحدة الجماعة، وفي ظل هذه الرابطة نشأ قانون عرفي ينظم العلاقات بين الفرد والجماعة، على أساس من التضامن بينهما في الحقوق والواجبات، وهذا القانون العرفي كانت تتمسك به القبيلة في نظامها السياسي والاجتماعي(٤٤).

وزعيم القبيلة ترشحه للقيادة منزلته القبلية وصفاته، وخصائصه من شجاعة ومروءة، وكرم ونحوها، ولرئيس القبيلة حقوق أدبية ومادية، فالأدبية أهمها احترامه وتبجيله، والاستجابة لأمره، والنزول على حكمه وقضائه، وأما المادية فقد كان له في كل غنيمة تغنمها (المرباع) وهو ربع الغنيمة، و(الصفايا) وهو ما يصطفيه لنفسه من الغنيمة قبل القسمة، و(النشيطة) وهي ما أصيب من مال العدو قبل اللقاء، و(الفضول) وهو ما لا يقبل القسمة من مال الغنيمة، وقد أجمل الشاعر العربي ذلك بقوله:

لك المرباع فينا، والصفايا وحكمك، والنشيطة، والفضول(٤٥)

ومقابل هذه الحقوق واجبات ومسؤوليات، فهو في السلم جواد كريم، وفي الحرب يتقدم الصفوف، ويعقد الصلح، والمعاهدات.

والنظام القبلي تسود فيه الحرية، فقد نشأ العربي في جو طليق، وفي بيئة طليقة، ومن ثم كانت الحرية من أخص خصائص العرب، ويعشقونها ويأبون الضيم والذل وكل فرد في القبيلة ينتصر لها، ويشيد بمفاخرها، وأيامها، وينتصر لكل أفرادها محقًا أو مبطلاً، حتى صار من مبادئهم:

(انصر أخاك ظالمًا، أو مظلومًا)

وكان شاعرهم يقول:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانًا

والفرد في القبيلة تبع للجماعة، وقد بلغ من اعتزازهم برأي الجماعة أنه قد تذوب شخصيته في شخصيتها، قال دريد بن الصمة:

وهل أنا إلا من غزيَّةِ إن غَوَتْ غويت، وإن ترشد غزية أرشد(٤٦)

وكانت كل قبيلة من القبائل العربية لها شخصيتها السياسية وهي بهذه الشخصية كانت تعقد الأحلاف مع القبائل الأخرى، وبهذه الشخصية أيضًا كان تشن الحرب عليها، ولعل من أشهر الأحلاف التي عقدت بين القبائل العربية، حلف الفضول، (حلف المطيبين)(٤٧).

(٤٤) نفس المصدر (١/ ٦٠).
(٤٥) انظر: مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول ص ١٣.
(٤٦) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٦١).
(٤٧) انظر: دراسة تحليلية لشخصية الرسول (ﷺ)، د. محمد قلعجي ص٣١.

وكانت الحروب بين القبائل على قدم وساق، ومن أشهر هذه الحروب حرب الفجار[٤٨]، وكان -عدا هذه الحروب الكبرى- تقع إغارات فردية بين القبائل تكون أسبابها شخصية أحيانًا، أو طلب العيش أحيانًا أخرى، إذ كان رزق بعض القبائل في كثير من الأحيان في حدِّ سيوفها، ولذلك ما كانت القبيلة تأمن أن تنقض عليها قبيلة أخرى في ساعة من ليلٍ أو نهار لتسلب أنعامها ومؤنها، وتدع ديارها خاوية كأن لم تسكن بالأمس[٤٩].

ثالثًا: الحالة الاقتصادية:

يغلب على الجزيرة العربية الصحاري الواسعة الممتدة، وهذا ما جعلها تخلو من الزراعة إلا في أطرافها وخاصة في اليمن والشام، وبعض الواحات المنتشرة في الجزيرة وكان يغلب على البادية رعي الإبل والغنم وكانت تنتقل القبائل بحثًا عن مواقع الكلأ وكانوا لا يعرفون الاستقرار إلا في مضارب خيامهم.

وأما الصناعة فكانوا أبعد الأمم عنها، وكانوا يأنفون منها، ويتركون العمل فيها للأعاجم والموالي، حتى عندما أرادوا بنيان الكعبة استعانوا برجل قبطي نجا من السفينة التي غرقت بجدة ثم أصبح مقيمًا في مكة[٥٠].

وإذا كانت الجزيرة العربية قد حُرمت من نعمتي الزراعة والصناعة، فإن موقعها الاستراتيجي بين إفريقيا وشرق آسيا جعلها مؤهلة لأن تحتل مركزًا متقدمًا في التجارة الدولية آنذاك.

وكان الذين يمارسون التجارة من سكان الجزيرة العربية هم أهل المدن، ولا سيما أهل مكة فقد كان لهم مركزًا ممتازًا في التجارة وكان لهم - بحكم كونهم أهل الحرم- منزلة في نفوس العرب، فلا يعرضون لهم، ولا لتجارتهم بسوء، وقد امتن الله عليهم بذلك في القرآن الكريم: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ**﴾ (سورة العنكبوت، الآية: ٦٧). وكانت لقريش رحلتان عظيمتان شهيرتان: رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام، يذهبون فيها آمنين بينما الناس يتخطفون من حولهم، هذا عدا الرحلات الأخرى التي يقومون بها طوال العام، قال (تعالى): ﴿**لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ**﴾ (سورة قريش، الآية: ١ إلى ٤).

وكانت القوافل تحمل الطيب والبخور، والصمغ، واللبان، والتوابل والتمور، والروائح العطرية، والأخشاب الزكية، والعاج، والأبنوس، والخرز، والجلود، والبرود اليمنية والأنسجة الحريرية، والأسلحة وغيرها مما يوجد في شبه الجزيرة، أو يكون مستوردًا من خارجها، ثم تذهب به إلى الشام وغيرها ثم تعود محملة بالقمح، والحبوب، والزبيب،

---

(٤٨) نفس المصدر ص٣٣، ٣٤، ٣٥.

(٤٩) المصدر السابق ص٣٥.

(٥٠) انظر: فقه السيرة النبوية، منير الغضبان ص٦٠.

والزيتون، والمنسوجات الشامية وغيرها.

واشتهر اليمنيون بالتجارة، وكان نشاطهم في البر وفي البحار، فسافروا إلى سواحل إفريقيا وإلى الهند وأندونيسيا، وسومطرة وغيرها من بلاد آسيا، وجزر المحيط الهندي أو البحر العربي كما يُسمَّى، وقد كان لهم فضل كبير بعد اعتناقهم الإسلام، في نشره في هذه الأقطار.

وكان التعامل بالربا منتشرًا في الجزيرة العربية، ولعل هذا الداء الوبيل سرى إلى العرب من اليهود[٥١]، وكان يتعامل به الأشراف وغيرهم وكانت نسبة الربا في بعض الأحيان إلى أكثر من مائة في المائة[٥٢].

وكان للعرب أسواق مشهورة: عكاظ، ومجنَّة، وذو المجاز، ويذكر بعض المؤلفين في أخبار مكة أن العرب كانوا يقيمون بعكاظ هلال ذي القعدة، ثم يذهبون منه إلى مجنّة بعد مضي عشرين يومًا من ذي القعدة، فإذا رأوا هلال ذي الحجة ذهبوا إلى ذي المجاز فلبثوا فيها ثمان ليال، ثم يذهبون إلى عرفة، وكانوا لا يتبايعون في عرفة ولا أيام منى حتى جاء الإسلام فأباح لهم ذلك قال (تعالى): **﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّآلِّينَ﴾** (سورة البقرة، الآية: ١٩٨).

وقد استمرت هذه الأسواق في الإسلام إلى حين من الدهر ثم دَرَست، ولم تكن هذه الأسواق للتجارة فحسب، بل كانت أسواقًا للأدب والشعر والخطابة يجتمع فيها فحول الشعراء ومصاقع الخطباء، ويتبارون فيها في ذكر أنسابهم، ومفاخرهم، ومآثرهم، وبذلك كانت ثروة كبرى للغة، والأدب، إلى جانب كونها ثروة تجارية[٥٣].

رابعًا: الحالة الاجتماعية:

هيمنت التقاليد والأعراف على حياة العرب وأصبحت لهم قوانين عرفية فيما يتعلق بالأحساب والأنساب، وعلاقة القبائل ببعضها والأفراد كذلك، ويمكن إجمال الحالة الاجتماعية فيما يأتي:

١- الاعتزاز الذي لا حدّ له بالأنساب، والأحساب، والتفاخر بهما:

فقد حرصوا على المحافظة على أنسابهم، فلم يصاهروا غيرهم من الأجناس الأخرى، ولما جاء الإسلام قضى على ذلك وبين لهم أن التفاضل إنما هو بالتقوى والعمل الصالح.

٢- الاعتزاز بالكلمة، وسلطانها، لا سيما الشعر:

كانت تستهويهم الكلمة الفصيحة، والأسلوب البليغ، وكان شعرهم سجل مفاخرهم،

---

(٥١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/٩٨ إلى ١٠١).
(٥٢) انظر: دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ص١٩.
(٥٣) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/١٠٢).

وأحسابهم، وأنسابهم، وديوان معارفهم، وعواطفهم، فلا تعجب إذا كان نجم فيهم الخطباء المصاقع، والشعراء الفطاحل، وكان البيت من الشعر يرفع القبيلة، والبيت يخفضها، ولذلك ما كانوا يفرحون بشيء فرحهم بشاعر ينبغ في القبيلة.

٣- المرأة في المجتمع العربي:

كانت المرأة عند كثير من القبائل كسقط المتاع، فقد كانت تورث، وكان الابن الأكبر للزوج من غيرها من حقه أن يتزوجها بعد وفاة أبيه أو يَعْضلها عن النكاح، حتى حرّم الإسلام ذلك وكان الابن يتزوج امرأة أبيه[٥٤]، فنزل قول الله (تعالى): ﴿ **وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاء سَبِيلاً** ﴾ (سورة النساء، الآية: ٢٢).

وكانت العرب تحرم نكاح الأصول كالأمهات، والفروع كالبنات، وفروع الأب كالأخوات، والطبقة الأولى من فروع الجد كالخالات والعمات[٥٥].

وكانوا لا يورِّثون البنات ولا النساء ولا الصبيان، ولا يورثون إلا من حاز الغنيمة وقاتل على ظهور الخيل، وبقي حرمان النساء والصغار من الميراث عرفًا معمولاً به عندهم إلى أن توفي أوس بن ثابت -في عهد رسول الله (ﷺ)- وترك بنتين كانت بهما دمامة، وابنًا صغيرًا، فجاء ابنا عمه -وهما عصبته- فأخذا ميراثه كله، فقالت امرأته لهما: تزوجا البنتين، فأبيا ذلك لدمامتهما، فأتت رسول الله فقالت: يا رسول الله توفي أوس وترك ابنًا صغيرًا وابنتين، فجاء ابنا عمه سويد وعرفطة فأخذا ميراثه، فقلت لهما: تزوجا ابنتيه، فأبيا. فقال (ﷺ): «**لا تحركا من الميراث شيئًا**»[٥٦] ونزل قوله (تعالى): ﴿ **لِّلرِّجَالِ نَصيِبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا** ﴾ (سورة النساء، الآية: ٧).

وكان العرب يعيّرون بالبنات؛ لأن البنت لا تخرج في الغزو، ولا تحمي البيضة من المعتدين عليها، ولا تعمل فتأتي بالمال شأن الرجال، وإذا ما سُبيت اتخذت للوطء تتداولها الأيدي لذلك، بل ربما أكرهت على احتراف البغاء، ليضم سيدها ما يصير إليها من المال بالبغاء إلى ماله -وقد كانت العرب تبيح ذلك- وقد كان هذا يورث الهمّ والحزن والخجل للأب عندما تولد له بنت وقد حدثنا القرآن الكريم عن حالة من تولد له بنت قال (تعالى): ﴿ **وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ** ﴾ (سورة النحل، الآية ٥٨، ٥٩).

وكثيرًا ما كانوا يختارون دسها في التراب، ووأدها حية، ولا ذنب لها إلا أنها أنثى[٥٧]؛

---

(٥٤) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٨٧)

(٥٥) دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ص٢٢، ٢٣، ٢٤.

(٥٦) تفسير القرطبي (٥/ ٤٥).

(٥٧) انظر: دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ص٢٥، ٢٦.

ولذلك أنكر القرآن الكريم عليهم هذه الفعلة الشنيعة قال (تعالى): ﴿وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ (سورة التكوير، الآية: ٨، ٩).

وكان بعض العرب يقتل أولاده من الفقر أو خشية الفقر فجاء الإسلام وحرّم ذلك قال (تعالى): ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (سورة الأنعام، الآية: ١٥١).

وقال (تعالى): ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ (سورة الإسراء، الآية ٣١).

وكانت بعض القبائل لا تئد البنات، كما كان فيهم من يستقبحون هذه الفعلة الشنعاء كزيد بن عمرو بن نفيل[٥٨].

وكانت بعض القبائل تحترم المرأة، وتأخذ رأيها في الزواج، وكانت المرأة العربية الحرة تأنف أن تفترش لغير زوجها وحليلها، وكانت تتسم بالشجاعة وتتبع المحاربين وتشجعهم، وقد تشارك في القتال إذا دعت الضرورة، وكانت المرأة البدوية العربية تشارك زوجها في رعي الماشية، وسقيها، وتغزل الوبر والصوف، وتنسج الثياب، والبرود، والأكسية، مع التصون والتعفف[٥٩].

٤- النكاح:

تعارف العرب على أنواع من النكاح، لا يعيب بعضهم على بعض إتيانها، وقد ذكرت لنا السيدة عائشة رضي الله عنها فقالت: (إن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء: فنكاح منها نكاح اليوم: يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته، فيصدقها ثم ينكحها، ونكاح آخر: كان للرجل أن يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها[٦٠]: أرسلي إلى فلان فاستبضعي[٦١] منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبدًا، حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع، ونكاح آخر: يجتمع الرهط[٦٢] ما دون العشرة، فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها[٦٣]، فإذا حملت ووضعت ومرت ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم

---

(٥٨) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٩٢).

(٥٩) نفس المصدر (١/ ٨٨).

(٦٠) الطمث: الحيض.

(٦١) استبضعي: طلب الجماع حتى تحمل منه.

(٦٢) الرهط: الجماعة دون العشرة.

(٦٣) يصيبها: يجامعها.

الذي كان من أمركم، وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان، تسمي من أحبت باسمه، فيلحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع به الرجل، والنكاح الرابع: يجتمع الناس الكثير، فيدخلون على المرأة لا تمتنع فمن جاءها[٦٤]، وهن البغايا كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون عَلَمًا، فمن أرادهنّ دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها، ودعوا لهم القافة[٦٥]، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون، فالتاط[٦٦] به، ودعي ابنه، لا يمتنع من ذلك. فلما بُعث محمد (ﷺ) بالحق هدم نكاح الجاهلية إلا نكاح الناس اليوم)[٦٧].

وذكر بعض العلماء أنحاء أخرى لم تذكرها عائشة -رضي الله عنها- كنكاح الخدْن وهو في قوله (تعالى): ﴿وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: ٢٥] كانوا يقولون: ما استتر فلا بأس به، وما ظهر فهو لوم، وهو إلى الزنا أقرب منه إلى النكاح، وكنكاح المتعة وهو النكاح المعين بوقت، ونكاح البدل: كان الرجل في الجاهلية يقول للرجل: انزل لي على امرأتك، وأنزل لك عن امرأتي، وأزيدك[٦٨].

ومن الأنكحة الباطلة نكاح الشِّغار وهو أن يزوج الرجل ابنته على أن يزوجه الآخر ابنته، ليس بينهما صداق[٦٩].

وكانوا يحلون الجمع بين الأختين في النكاح، وكانوا يبيحون للرجل أن يجمع في عصمته من الزوجات ما شاء دون التقيد بعدد، وكان الذين جمعوا بين أكثر من أربع زوجات أكثر من أن ينالهم العدّ[٧٠]، وجاء الإسلام ومنهم من له العشرة من النساء والأكثر، والأقل، فقصر ذلك على أربع إن علم أنه يستطيع الإنفاق عليهن، والعدل بينهن، فإن خاف عدم العدل فليكتف بواحدة، وما كانوا في الجاهلية يلتزمون العدل بين الزوجات، وكانوا يسيئون عشرتهن، ويهضمون حقوقهن حتى جاء الإسلام فأنصفهن، وأوصى بالإحسان إليهنّ في العشرة، وقرر لهن حقوقًا ما كنّ يحلمن بها[٧١].

٥- الطلاق:

كانوا يمارسون الطلاق، ولم يكن للطلاق عندهم عدد محدّد، فكان الرجل يطلق امرأته ثم يراجعها، ثم يطلقها ثم يراجعها هكذا أبدًا، وبقي هذا الأمر معمولاً به في صدر الإسلام[٧٢] إلى أن أنزل الله تبارك وتعالى قوله: ﴿الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ

(٦٤) جاءها: دخل عليها.
(٦٥) القافة: جمع القائف، وهو الذي يعرف شبه الولد بالوالد.
(٦٦) التاط به: استلحقه.
(٦٧) البخاري، كتاب النكاح، باب لا نكاح إلا بولي رقم ٥١٢٧.
(٦٨) فتح الباري (٩/ ١٥٠).
(٦٩) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٩٠).
(٧٠) انظر: دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ص٢٤، ٢٥.
(٧١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٨٨).
(٧٢) دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ص٢٥.

بإحسان ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئًا إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾ (سورة البقرة، الآية: ٢٢٩).

فقيد الإسلام عدد الطلقات، وأعطى للزوج فرصة ليتدارك أمره، ومراجعة زوجته مرتين، فإن طلق الثالثة فقد انقطعت عروة النكاح، ولا تحل له إلا بعد زوج آخر، ففي الكتاب الكريم: ﴿فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجًا غيره فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون﴾ (سورة البقرة، الآية: ٢٣٠).

ومما كان يلحق بالطلاق في التحريم الظهار، وهو أن يقول الزوج لزوجته: أنت علي كظهر أمي، وكان تحريمًا مؤبدًا حتى جاء الإسلام، فوسمه بأنه منكر من القول وزور، وجعل للزوج مخرجًا منه، وذلك بالكفارة[٧٣] قال (تعالى): ﴿الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم وإنهم ليقولون منكرًا من القول وزورًا وإن الله لعفو غفور * والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير * فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينًا ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم﴾ (سورة المجادلة، الآية: ٣، ٤).

٦- الحروب، والسطو، والإغارة:

كانت الحروب تقوم بينهم لأتفه الأسباب، فهم لا يبالون بشن الحروب وإزهاق الأرواح في سبيل الدفاع عن المثل الاجتماعية التي تعارفوا عليها وإن كانت لا تستحق التقدير، وقد روى لنا التاريخ سلسلة من أيام العرب في الجاهلية مما يدل على تمكن الروح الحربية من نفوس العرب وغلبتها على التعقل والتفكير، فمن تلك الأيام مثلاً يوم البسوس وقد قامت الحرب فيه بين بكر وتغلب بسبب ناقة للجرمي وهو جار للبسوس بنت منقذ خالة جساس بن مرة، وقد كان كليب سيد تغلب قد حمى لإبله مكانًا خاصًا به فرأى فيه هذه الناقة فرماها فجزع الجرمي وجزعت البسوس، فلما رأى ذلك جساس تحين الفرصة لقتل كليب فقتله فقامت الحروب الطاحنة بين القبيلتين لمدة أربعين سنة[٧٤].

وكذلك يوم داحس والغبراء وقد كان سببه سباقًا أقيم بين داحس وهو فرس لقيس بن زهير، والغبراء وهي لحذيفة بن بدر فأوعز هذا إلى رجل ليقف في الوادي فإن رأى داحسًا قد سبق يرده وقد فعل ذلك فلطم الفرس حتى أوقعها في الماء فسبقت الغبراء وحصل بعد ذلك القتل والأخذ بالثأر، وقامت الحرب بين قبيلتي عبس وذبيان[٧٥].

---

(٧٣) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٩١).
(٧٤) الكامل في التاريخ لابن الأثير (١/ ٣١٢).
(٧٥) نفس المصدر (١/ ٣٤٣).

وكذلك الحروب التي قامت بين الأوس والخزرج في الجاهلية وهم أبناء عم حيث إن الأوس والخزرج أبناء حارثة بن ثعلبة الأزدي واستمرت الحروب بينهم وكان آخر أيامهم (بعاث) وذلك أن حلفاء الأوس من اليهود جددوا عهودهم معهم على النصرة –وهكذا كان كثير من حروب الأوس والخزرج يذكيها اليهود حتى يضعفوا القبيلتين فتكون لهم السيادة الدائمة واستعان كل فريق منهم بحلفائه من القبائل المجاورة فاقتتلوا قتالاً شديدًا كانت نهايته لصالح الأوس[٧٦].

وكانت بعض القبائل تسطو وتغير بغية نهب الأموال وسبي الأحرار وبيعهم، كزيد بن حارثة فقد كان عربيًا حرًا، وكسلمان الفارسي فقد كان فارسيًا حرًا، وقد قضى الإسلام على ذلك حتى كانت تسير المرأة والرجل من صنعاء إلى حضرموت لا يخافان إلا الله والذئب على أغنامهما[٧٧].

٧- العلم والقراءة والكتابة:

لم يكن العرب أهل كتاب وعلم كاليهود والنصارى، بل كان يغلب عليهم الجهل والأمية، والتقليد والجمود على القديم وإن كان باطلاً وكانت أمة العرب لا تكتب ولا تحسب وهذه هي الصفة التي كانت غالبة عليها وكان فيهم قليل ممن يكتب ويقرأ، ومع أميتهم وعدم اتساع معارفهم فقد كانوا يشتهرون بالذكاء، والفطنة، والألمعية، ولطف المشاعر، وإرهاف الحس، وحسن الاستعداد، والتهيؤ لقبول العلم والمعرفة، والتوجيه الرشيد ولذلك لما جاء الإسلام صاروا علماء، حكماء، فقهاء، وزالت عنهم الأمية، وأصبح العلم والمعرفة من أخص خصائصهم، وكان فيهم من مهر في علم قص الأثر – وهو القيافة – وكان فيهم أطباء كالحارث بن كلدة، وكان طبهم مبنيًا على التجارب التي اكتسبوها من الحياة والبيئة[٧٨].

خامسًا: الحالة الأخلاقية:

كانت أخلاق العرب قد ساءت وأولعوا بالخمر والقمار، وشاعت فيهم الغارات وقطع الطريق على القوافل، والعصبية والظلم، وسفك الدماء، والأخذ بالثأر، واغتصاب الأموال، وأكل مال اليتامى، والتعامل بالربا، والسرقة والزنا، ومما ينبغي أن يعلم أن الزنا إنما كان في الإماء وأصحاب الرايات من البغايا، ويندر أن يكون في الحرائر، وليس أدل على هذا من أن النبي (ﷺ) لما أخذ البيعة على النساء بعد الفتح: (على ألا يشركن بالله شيئًا، ولا يسرقن، ولا يزنين) قالت السيدة هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان: أو تزني الحرة[٧٩]؟!!

وليس معنى هذا أنهم كانوا كلهم على هذا. لا، لقد كان فيهم كثيرون لا يزنون، ولا يشربون الخمر، ولا يسفكون الدماء، ولا يظلمون، ويتحرجون من أكل أموال اليتامى،

---

(٧٦) التاريخ الإسلامي، د. عبدالعزيز الحميدي (١/ ٥٥).
(٧٧) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٩٣).
(٧٨) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٩٣).
(٧٩) نفس المصدر (١/ ٩٤).

ويتنزهون عن التعامل بالربا[٨٠] وكانت فيهم سمات وخصال من الخير كثيرة أهلتهم لحمل راية الإسلام، ومن تلك الخصال والسمات:

١- الذكاء والفطنة:

فقد كانت قلوبهم صافية لم تدخلها تلك الفلسفات والأساطير والخرافات التي يصعب إزالتها كما في الشعوب الهندية والرومانية واليونانية والفارسية، فكأن قلوبهم كانت تعد لحمل أعظم رسالة في الوجود وهي دعوة الإسلام الخالدة ولهذا كانوا أحفظ شعب عرف في ذلك الزمن وقد وجه الإسلام قريحة الحفظ والذكاء إلى حفظ الدين وحمايته، فكانت قواهم الفكرية، ومواهبهم الفطرية مذخورة فيهم، لم تستهلك في فلسفات خيالية، وجدال بيزنطي عقيم، ومذاهب كلامية معقدة[٨١].

واتساع لغتهم دليل على قوة حفظهم وذاكرتهم، فإذا كان للعسل ثمانون اسمًا وللثعلب مائتان وللأسد خمسمائة، فإن للجمل ألفًا، وكذا السيف، وللداهية نحو أربعة آلاف اسم، ولا شك أن استيعاب هذه الأسماء يحتاج إلى ذاكرة قوية حاضرة وقَّادة[٨٢].

وقد بلغ بهم الذكاء والفطنة إلى الفهم بالإشارة فضلاً عن العبارة، والأمثلة على ذلك كثيرة[٨٣].

٢- أهل كرم وسخاء:

كان هذا الخلق متأصل في العرب، وكان الواحد منهم لا يكون عنده إلا فرسه، أو ناقته، فيأتيه الضيف، فيسارع إلى ذبحها أو نحرها له، وكان بعضهم لا يكتفي بإطعام الإنسان بل كان يطعم الوحش، والطير، وكرم حاتم الطائي سارت به الركبان، وضربت به الأمثال[٨٤].

٣- أهل شجاعة ومروءة ونجدة:

كانوا يتمادحون بالموت قتلاً، ويتهاجون بالموت على الفراش قال أحدهم لما بلغه قتل أخيه: إن يقتل فقد قتل أبوه وأخوه وعمه، إنا والله لا نموت حتفًا، ولكن قطعًا بأطراف الرماح، وموتًا تحت ظلال السيوف.

وما مات منا سيد حتف أنفه ... ولا طُلّ منا حيث كان قتيل

تسيل على حد الظُّباة نفوسنا ... وليست على غير الظباة تسيل

وكان العرب لا يقدمون شيئًا على العز وصيانة العرض، وحماية الحريم، واسترخصوا في سبيل ذلك نفوسهم قال عنترة:

---

(٨٠) المصدر السابق (١/ ٩٤).

(٨١) انظر: السيرة النبوية للندوي ص١٢.

(٨٢) بلوغ الأرب (١/ ٣٩-٤٠).

(٨٣) انظر: مدخل لفقة السيرة ص٧٩، ٨٠. (٨٤) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٩٥).

بكرت تخوفني الحتوف كأنني أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل
فأجبتها إن المنية منهل لا بد أن أسقى بكأس المنهل
فاقني حياءك لا أبا لك واعلمي أني امرؤ سأموت إن لم أقتل(٨٥)

وقال عنترة:

لا تسقني ماء الحياة بذلة بل فاسقني بالعز كأس الحنظل
ماء الحياة بذلة كجهنم وجهنم بالعز أطيب منزل(٨٦)

وكان العرب بفطرتهم أصحاب شهامة ومروءة؛ فكانوا يأبون أن ينتهز القوي الضعيف، أو العاجز، أو المرأة أو الشيخ، وكانوا إذا استنجد بهم أحد أنجدوه ويرون من النذالة التخلي عمن لجأ إليهم.

٤- عشقهم للحرية، وإباؤهم للضيم والذل:

كان العربي بفطرته يعشق الحرية يحيا لها، ويموت من أجلها، فقد نشأ طليقًا لا سلطان لأحد عليه، ويأبى أن يعيش ذليلاً، أو يمس في شرفه وعرضه ولو كلفه ذلك حياته(٨٧)، فقد كانوا يأنفون من الذل ويأبون الضيم والاستصغار والاحتقار وإليك مثالٌ على ذلك:

جلس عمرو بن هند ملك الحيرة لندمائه وسألهم: هل تعلمون أحدًا من العرب يأنف أمه خدمة أمي؟ قالوا: نعم، أم عمرو بن كلثوم الشاعر الصعلوك.

فدعا الملك عمرو بن كلثوم لزيارته، ودعا أمه لتزور أمه، وقد اتفق الملك مع أمه أن تقول لأم عمرو بن كلثوم بعد الطعام: ناوليني الطبق الذي بجانبك، فلما جاءت قالت لها ذلك، فقالت: لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها، فأعادت عليها الكرة وألحت، فصاحت ليلى أم عمرو بن كلثوم: وا ذلاه يا لتغلب... فسمعها ابنها فاشتد به الغضب فرأى سيفًا للملك معلقًا بالرواق فتناوله وضرب به رأس الملك عمرو بن هند، ونادى في بني تغلب وانتهبوا ما في الرواق، ونظم قصيدة يخاطب بها الملك قائلاً:

بأي مشيئة عمرو بن هند نكون لقيلكم(٨٨) فيها قطينا(٨٩)
بأي مشيئة عمرو بن هند تطيع بنا الوشاة وتزدرينا
تهددنا وتوْعدنا رويدًا متى كنا لأمك مَقْتَوينا(٩٠)
إذا ما الملك سامَ الناس خسفا أبينا أن نقر الذل فينا(٩١)

---

(٨٥) ديوان عنترة ص٢٥٢.
(٨٦) ديوان عنترة، د. فاروق الطباع ص٨٢.
(٨٧) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٩٥).
(٨٨) القيل هو الملك دون الملك الأعظم.
(٨٩) القطين هم الخدم.
(٩٠) مقتوينا: خدمة الملوك.
(٩١) انظر: شرح المعلقات للحسين الزوزني ص١٩٦ ـ ٢٠٤.

٥- الوفاء بالعهد وحبهم للصراحة والوضوح والصدق:

كانوا يأنفون من الكذب ويعيبونه، وكانوا أهل وفاء، ولهذا كانت الشهادة باللسان كافية للدخول في الإسلام:

وقصة أبي سفيان مع هرقل لما سأله عن رسول الله (ﷺ) وكانت الحروب بينهم قائمة قال: (لولا أن يأثروا عليَّ كذبًا لكذبت عليه)[٩٢].

أما وفاؤهم فقد قال النعمان بن المنذر لكسرى في وفاء العرب: (وإن أحدهم يلحظ اللحظة ويومئ الإيماء فهي وَلْث وعقدة لا يحلها إلا خروج نفسه، وإن أحدهم يرفع عودًا من الأرض فيكون رهنًا بدينه فلا يغلق رهنه ولا تخفر ذمته، وإن أحدهم ليبلغه أن رجلاً استجار به وعسى أن يكون نائيًا عن داره، فيصاب فلا يرضى حتى يفني تلك القبيلة التي أصابته، أو تفنى قبيلته لما أخفر من جواره، وأنه ليلجأ إليهم المجرم المحدث من غير معرفة ولا قرابة فتكون أنفسهم دون نفسه وأموالهم دون ماله)[٩٣].

والوفاء خلق متأصل بالعرب فجاء الإسلام ووجهه الوجهة السليمة فغلظ على من آوى محدثًا مهما كانت منزلته وقرابته. قال (ﷺ): **«لعن الله من آوى محدثًا»**[٩٤] ومن القصص الدالة على وفائهم[٩٥]: (أن الحارث بن عباد قاد قبائل بكر لقتال تغلب وقائدهم المهلهل الذي قتل ولد الحارث وقال: (بؤ بشسع نعل كليب) في حرب البسوس، فأسر الحارث مهلهلاً وهو لا يعرفه فقال: دلني على مهلهل بن ربيعة وأخلي عنك، فقال له: عليك العهد بذلك إن دللتك عليه، قال: نعم. قال: فأنا هو، فجز ناصيته وتركه) وهذا وفاء نادر ورجولة تستحق الإكبار[٩٦] ومن وفائهم: (أن النعمان بن المنذر خاف على نفسه من كسرى لما منعه من تزويج ابنته فأودع أسلحته وحرمه إلى هانئ بن مسعود الشيباني، ورحل إلى كسرى فبطش به، ثم أرسل إلى هانئ يطلب منه ودائع النعمان، فأبى، فسير إليه كسرى جيشًا لقتاله فجمع هانئ قومه آل بكر وخطب فيهم فقال: (يا معشر بكر، هالك معذور، خير من ناج فرور، إن الحذر لا ينجي من قدر، وإن الصبر من أسباب الظفر، المنية ولا الدنية، استقبال الموت خير من استدباره، الطعن في ثغر النحور، أكرم منه في الأعجاز والظهور، يا آل بكر قاتلوا فما للمنايا من بد)[٩٧]، واستطاع بنو بكر أن يهزموا الفرس في موقعة ذي قار، بسبب هذا الرجل الذي احتقر حياة الصَّغار والمهانة ولم يبالِ بالموت في سبيل الوفاء بالعهود.

٦- الصبر على المكاره وقوة الاحتمال، والرضا باليسير:

كانوا يقومون من الأكل ويقولون: البطنة تذهب الفطنة، ويعيبون الرجل الأكول الجشع

(٩٢) صحيح البخاري ، كتاب بدء الوحي رقم ٧ .
(٩٣) بلوغ الأرب (١/ ١٥٠) .
(٩٤) رواه مسلم ، كتاب الأضاحي رقم ١٩٧٨ .
(٩٥) انظر: مدخل لفهم السيرة ص٩٠ .
(٩٦) نفس المصدر ص٩١ . (٩٧) تاريخ الطبري عن يوم ذي قار (٢/ ٢٠٧) .

قال شاعرهم:

إذا مدت الأيدي إلى الزاد لم أكن بأعجلهم إذ أجشع القوم أعجل(٩٨)

وكانت لهم قدرة عجيبة على تحمل المكاره والصبر في الشدائد، وربما اكتسبوا ذلك من طبيعة بلادهم الصحراوية الجافة، قليلة الزرع والماء، فألفوا اقتحام الجبال الوعرة، والسير في حرّ الظهيرة، ولم يتأثروا بالحر ولا بالبرد، ولا وعورة الطريق، ولا بعد المسافة، ولا الجوع، ولا الظمأ ولما دخلوا الإسلام ضربوا أمثلة رائعة في الصبر، والتحمل وكانوا يرضون باليسير، فكان الواحد منهم يسير الأيام مكتفيًا بتمرات يقيم بها صلبه، وقطرات من ماء يرطب بها كبده(٩٩).

٧- قوة البدن وعظمة النفس:

واشتهروا بقوة أجسادهم مع عظمة النفس وقوة الروح، وإذا اجتمعت البطولة النفسية إلى البطولة الجسمانية صنعتا العجائب، وهذا ما حدث بعد دخولهم في الإسلام.

٨- العفو عند المقدرة وحماية الجار:

وكانوا ينازلون أقرانهم وخصومهم، حتى إذا تمكنوا منهم عفوا عنهم وتركوهم، ويأبون أن يجهزوا على الجرحى، وكانوا يرعون حقوق الجيرة، ولا سيما رعاية النساء والمحافظة على العرض قال شاعرهم:

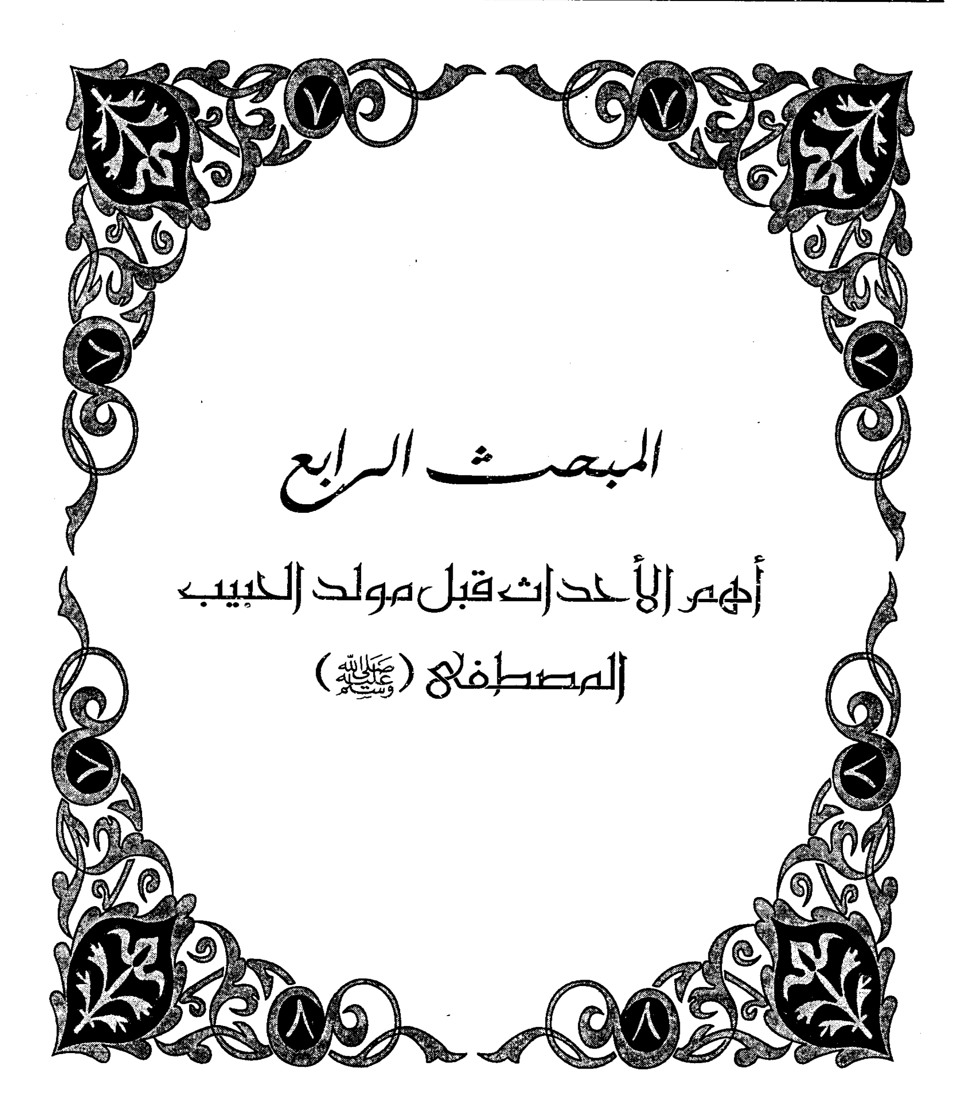
وأغضُّ طرفي إن بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها

وكانوا إذا استجار أحد الناس بهم أجاروه، وربما ضحوا بالنفس والولد والمال في سبيل ذلك.

كانت هذه الفضائل، والأخلاق الحميدة رصيدًا ضخمًا في نفوس العرب، فجاء الإسلام فنماها وقواها، ووجهها وجهة الخير والحق، فلا عجب إذا كانوا انطلقوا من الصحارى كما تنطلق الملائكة الأطهار، فتحوا الأرض، وملأوها إيمانًا بعد أن ملئت كفرًا، وعدلاً بعد أن ملئت جورًا، وفضائل بعد أن عمتها الرذائل، وخيرًا بعد أن طفحت شرًا(١٠٠).

هذه بعض أخلاق المجتمع الذي نشأ فيه الإنسان العربي فهو أفضل المجتمعات، لهذا اختير رسول الله (ﷺ)، واختير له هذا المجتمع العربي، وهذه البيئة النادرة، وهذا الوسط الرفيع مقارنة بالفرس والروم والهنود واليونان، فلم يختر من الفرس على سعة علومهم ومعارفهم ولا من الهنود على عمق فلسفاتهم، ولا من الرومان على تفننهم، ولا من اليونان على عبقرية شاعريتهم وخيالهم، وإنما اختير من هذه البيئة البكر، لأن هؤلاء الأقوام وإن كانوا على ما هم عليه وما هم فيه من علوم ومعارف، إلا أنهم لم يصلوا إلى ما وصل إليه العرب من سلامة الفطرة، وحرية الضمير، وسمو الروح(١٠١).

(٩٨) بلوغ الأرب (١/ ٣٧٧).
(٩٩) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٩٦، ٩٧). (١٠٠) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٩٧).
(١٠١) انظر: نظرات في السيرة للإمام حسن البنا ص١٤.



المبحث الرابع

أهم الأحداث قبل مولد الحبيب المصطفى (ﷺ)

أراد الله (سبحانه وتعالى) أن يرحم البشرية ويكرم الإنسانية فحان وقت الخلاص بمبعث الحبيب (ﷺ)، وقبل أن نشرع في بيان ميلاده الكريم ونشأته العزيزة، ورعاية الله (عز وجل) له قبل نزول الوحي عليه وسيرته العطرة قبل البعثة، نريد أن نتحدث عن الآيات العظيمة، والأحداث الجليلة التي سبقت ميلاده (ﷺ)، فقد سبق مولده الكريم أموراً عظيمة دلت على اقتراب تباشير الصباح.

إن من سنن الله في الكون أن الانفراج يكون بعد الشدة، والضياء يكون بعد الظلام، واليسر بعد العسر(١٠٢).

ومن أهم هذه الأحداث:

أولاً: قصة حفر عبد المطلب جد النبي (ﷺ) لزمزم:

ذكر الشيخ إبراهيم العلي في كتابه القيم «صحيح السيرة النبوية» رواية صحيحة في قصة حفر عبد المطلب لزمزم من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: (قال عبد المطلب: إني لنائم في الحجر إذ أتاني آت فقال لي: احفر طيبة(١٠٣) قلت: وما طيبة؟ قال: ثم ذهب عني.

قال: فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي، فنمت فيه، فجاءني فقال: احفر برّة(١٠٤)، قال: قلت: وما برّة؟ قال: ثم ذهب عني.

فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه، فجاءني فقال: احفر المضنونة(١٠٥). قال: قلت: وما المضنونة؟ قال: ثم ذهب.

فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي، فنمت فيه فجاءني فقال: احفر زمزم. قال: قلت: وما زمزم؟ قال: لا تنزف(١٠٦) أبدًا ولا تذم، تسقي الحجيج الأعظم، وهي بين الفرث والدم، عند نقرة الغراب الأعصم(١٠٧)، عند قرية النمل(١٠٨).

قال: فلما بين له شأنها ودلّ على موضعها، وعرف أنه قد صدق، غدا بمعوله(١٠٩) ومعه ابنه الحارث بن عبد المطلب، وليس معه يومئذ ولد غيره، فحفر فيها، فلما بدا لعبد المطلب

(١٠٢) انظر: هذا الحبيب يا محب ، للجزائري ص٥١ .
(١٠٣) طيبة: مشتقة من الطيب ، وبه سميت المدينة .
(١٠٤) برة: مشتقة من البر ، والبر: هو الخير والطهارة .
(١٠٥) المضنونة: الغالية النفيسة التي يضن بمثلها ، أي يُبخل .
(١٠٦) لا تنزف: أي لا يفرغ ماؤها ولا يلحق قعرها .
(١٠٧) الغراب الأعصم: الذي في ساقيه بياض .
(١٠٨) قرية النمل: المكان الذي يجتمع فيه النمل .
(١٠٩) المعول: الفأس .

الطي[١١٠] كبَّر، فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته، فقاموا إليه فقالوا: يا عبد المطلب إنها بئر أبينا إسماعيل، وإن لنا فيها حقًا، فأشركنا معك فيها. قال: ما أنا بفاعل، إن هذا الأمر قد خصصت به دونكم، وأعطيته من بينكم. قالوا له: فأنصفنا، فإنا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها، قال: فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه. قالوا: كاهنة بني سعد بن هذيم، قال: نعم، وكانت بأشراف الشام.

فركب عبد المطلب ومعه نفر من بني أمية، وركب من كل قبيلة من قريش نفر، فخرجوا والأرض إذ ذاك مفاوز، حتى إذا كانوا ببعضها نفد ماء عبد المطلب وأصحابه، فعطشوا حتى استيقنوا بالهلكة، فاستسقوا من كانوا معهم فأبوا عليهم، وقالوا: إنا بمفازة[١١١] وإنا نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم. فقال عبد المطلب: إني أرى أن يحفر كلّ رجل منكم حفرته لنفسه بما لكم الآن من القوة، فكلما مات رجل دفعه أصحابه في حفرته ثم واروه، حتى يكون آخرهم رجلاً واحدًا، فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة ركب جميعه. فقالوا: نِعمَ ما أمرت به.

فحفر كل رجل لنفسه حفرة، ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشًا. ثم إن عبد المطلب قال لأصحابه: والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت لا نضرب في الأرض، ولا نبتغي لأنفسنا لعجز، فعسى الله أن يرزقنا ماء ببعض البلاد، ارتحلوا. فارتحلوا حتى إذا بعث[١١٢] عبد المطلب راحلته انفجرت من تحت خفها عين ماء عذب، فكبّر عبد المطلب، وكبر أصحابه، ثم نزل فشرب وشرب أصحابه، واستسقوا حتى ملؤوا أسقيتهم، ثم دعا قبائل قريش -وهم ينظرون إليهم في جميع هذه الأحوال- فقال: هَلمُّوا إلى الماء فقد سقانا الله، فجاؤوا فشربوا، واستقوا كلهم، ثم قالوا: قد والله قضى لك علينا، والله ما نخاصمك في زمزم أبدًا، إن الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة هو الذي سقاك زمزم، فارجع إلى سقايتك راشدًا. فرجع ورجعوا معه ولم يصلوا إلى الكاهنة، وخلوا بينه وبين زمزم).

قال ابن إسحاق: فهذا ما بلغني عن علي بن أبي طالب في زمزم[١١٣] وقد ورد في فضل ماء زمزم أحاديث كثيرة فمنها. ما رواه مسلم في صحيحه في قصة إسلام أبي ذر رضي الله عنه: «**إنها طعامُ طُعْمٍ**»[١١٤].

وروى الدارقطني والحاكم وصححه عن ابن عباس عن النبي (ﷺ): «ماء زمزم لما شرب

---

(١١٠) الطي: حافة البئر .

(١١١) المفازة: جمعها مفاوز: القفار .

(١١٢) بعث راحلته: أقامها من بروكها .

(١١٣) السيرة النبوية لابن هشام: (١/ ١٤٢-١٤٥) ، السير والمغازي لابن إسحاق ص٢٤ ، ٢٥ تحقيق سهيل زكار ، البيهقي في الدلائل (١/ ٩٣-٩٥) وصرح ابن إسحاق بالسماع فسنده صحيح ، وله شاهد من مرسل الزهري ، فالحديث صحيح من طريق البيهقي وابن هشام .

(١١٤) مسلم ، فضائل الصحابة (٢٤٧٣)، وطعام طعم، أي: تشبع شاربها كما يشبعه الطعام.

له: إن شربته لتستشفي شفاك الله، وإن شربته لشبعك أشبعك الله، وإن شربته لقطع ظمئك قطعه الله، وهي هزمة[١١٥] جبريل، وسقيا الله إسماعيل» قال الشيخ محمد أبو شهبة رحمه الله[١١٦]: ومهما يكن من شيء فقد صحح الحافظ الدمياطي -وهو من الحفاظ المتأخرين المتقنين ـ حديث: «ماء زمزم لما شرب له» وأقره الحافظ العراقي[١١٧].

ثانيًا: قصة أصحاب الفيل:

هذه الحادثة ثابتة بالقرآن الكريم والسنّة النبوية، وأتت تفاصيلها في كتب السير والتاريخ، وذكرها المفسرون في كتبهم.

قال (تعالى): ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ**﴾ (سورة الفيل).

أما إشارات الرسول (ﷺ) إلى الحادث فمنها:

أن الرسول (ﷺ) لما خرج زمن الحديبية سار حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت بها راحلته فقال الناس! حَل حَل[١١٨]، فألحت[١١٩] فقالوا: خلأت القصواء فقال النبي (ﷺ): «**ما خلأت القصواء وماذاك لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل**»[١٢٠].

وجاء في السيرة النبوية لأبي حاتم ما يلي: (كان من شأن الفيل أن ملكًا كان باليمن غلب عليها، وكان أصله من الحبشة يقال له: أبرهة، بنى كنيسة بصنعاء فسماها القليس وزعم أنه يَصرف إليها حَج العرب، وحَلف أن يسير إلى الكعبة فيهدمها، فخرج ملك من ملوك حمْير فيمن أطاعه من قومه يُقال له: ذو نفر فقاتله؛ فهزمه أبرهة وأخذه، فلما أتى به قال له ذوَ نفر: أيها الملك لا تقتلني فإن استبقائي خير لك من قتلي، فاستبقاه، وأوثقه، ثم خرج سائرًا يريد الكعبة حتى إذا دنا من بلاد خثعم خرج إليه النفيل بن حبيب الخثعمي ومن اجتمع إليه من قبائل اليمن فقاتلوه فهزمهم وأخذ النفيل، فقال النفيل: أيها الملك! إني عالم بأرض العرب فلا تقتلني، وهاتان يداي على قومي بالسمع والطاعة، فاستبقاه وخرج معه يَدله، حتى إذا بلغ الطائف خرج معه مَسعود بن معتب في رجال ثقيف فقال: أيها الملك نحن عبيد لك ليس لك عندنا خلاف، وليس بيننا وبينك الذي تريد - يعنون اللات - إنما تريد البيت الذي بمكة، نحن نبعث معك من يدلك عليه، فبعثوا معه مَولى لهم يُقال له: أبو رغال فخرج معهم حتى إذا كان بالمغمس[١٢١] مات أبو رغال وهو الذي رجم قبره وبعث أبرهة من

(١١٥) هزمة أو همزة: أثر ضربته في الأرض بعقبه ، أو جناحه .
(١١٦) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١٥٨/١) .
(١١٧) مقدمة ابن الصلاح وشرحها للحافظ العراقي ص١٣ .
(١١٨) كلمة تقال للناقة إذا تركت السير (فتح الباري: ٥/ ٣٣٥) .
(١١٩) ألحت: أي تمادت على عدم القيام وهو من الإلحاح ، فتح الباري (٥/ ٣٣٥) .
(١٢٠) البخاري ، الشروط (٥/ ٣٨٨) .
(١٢١) المغمس: مكان قرب مكة في طريق الطائف مات فيه أبو رغال .

المغمس رجلاً، يقال له الأسود بن مقصود على مقدمة خيله، فجمع إليه أهل الحرم وأصاب لعبد المطلب مائتي بعير بالأرك، ثم بعث أبرهة حناطة الحميري إلى أهل مكة فقال: سل عن شريفها ثم أبلغه أني لم آت لقتال، إنما جئت لأهدم هذا البيت، فانطلق حناطة حتى دخل مكة فلقي عبد المطلب بن هاشم فقال: إن الملك أرسلني إليك ليخبرك أنه لم يأت لقتال إلا أن تقاتلوه، إنما جاء لهدم هذا البيت ثم الانصراف عنكم، فقال عبد المطلب: ما عندنا له قتال، فقال: سنخلي بينه وبين البيت، فإن خلى الله بينه وبينه فوالله ما لنا به قوة، قال: فانطلق معي إليه، قال: فخرج معه حتى قدم المعسكر وكان «ذو نفر» صديقًا لعبد المطلب فأتاه فقال: يا ذا نفر هل عندكم من غناء فيما نزل بنا؟ فقال: ما غناء رجل أسير لا يأمن من أن يقتل بُكرة أو عشية، ولكن سأبعث لك إلى أنيس سائس الفيل فآمره أن يصنع لك عند الملك ما استطاع من خير ويُعظم خطرك ومنزلتك عنده، قال: فأرسل إلى أنيس فأتاه فقال: إن هذا سيد قريش صاحب عين مكة الذي يُطعم الناس في السهل والوحوش في الجبال، وقد أصاب له الملك مائتي بعير، فإن استطعت أن تنفعه فانفعه، فإنه صديق لي.

فدخل أنيس على أبرهة فقال: أيها الملك! هذا سيد قريش وصاحب عين مكة الذي يُطعم الناس في السهل والوحوش في الجبال يستأذن عليك وأنه أحب أن تأذن له، فقد جاءك غير ناصب لك ولا مخالف عليك، فأذن له ،وكان عبد المطلب رجلاً عظيمًا جسيمًا وسيمًا، فلما رآه أبرهة عظمه وأكرمه، وكره أن يجلس معه على سريره وأن يجلس تحته، فهبط إلى البساط فجلس عليه معه، فقال له عبد المطلب: أيها الملك إنك قد أصبت لي مالاً عظيمًا فاردده عليّ، فقال له: لقد أعجبتني حين رأيتك ولقد زهدت فيك، قال: ولمَ؟ قال: جئت إلى بيت هو دينك ودين آبائك وعصمتكم ومنعتكم لأهدمه فلم تُكلمني فيه، وتكلمني في مائتي بعير لك؟ قال: أنا رب هذه الإبل، ولهذا البيت رب سيمنعه، قال: ما كان ليمنعه مني، قال: فأنت وذاك، قال: فأمر بإبله فرُدت عليه ثم خرج عبد المطلب وأخبر قريش الخبر وأمرهم أن يتفرقوا في الشعاب، وأصبح أبرهة بالمغمس قد تهيأ للدخول وعبأ جيشه وقرب فيله وحمل عليه ما أراد أن يحمل وهو قائم فلما حركه وقف وكاد أن يرزم إلى الأرض فيبرك، فضربوه بالمعول في رأسه فأبى، فأدخلوا محاجنه تحت أقرانه ومرافقه فأبى، فوجهوه إلى اليمن فهرول، فصرفوه إلى الحرم فوقف، ولحق الفيل بجبل من تلك الجبال، فأرسل الله الطير من البحر كالبلسان[١٢٢] مع كل طير ثلاثة أحجار: حجران في رجليه وحجر في منقاره، ويحملن أمثال الحمص والعدس من الحجارة فإذا غشين القوم أرسلنها عليهم، فلم تُصب تلك الحجارة أحدًا إلا هلك وليس كل القوم أصيب فذلك قول الله (تعالى): ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ (سورة الفيل).

وبعث الله على أبرهة داء في جسده، ورجعوا سراعًا يتساقطون في كل بلد، وجعل

(١٢٢) البلسان: الزرازير .

أبرهة تتساقط أنامله، كلما سقط أنملة اتبعها مدة من قيح ودم، فانتهى إلى اليمن وهو مثل فرخ الطير فيمن بقي من أصحابه، ثم مات[١٢٣].

وذكر ابن إسحاق رحمه الله في سيرته كما نقله ابن هشام عنه في السير أن عبد المطلب أخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده، فقال عبدالمطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة:

لا هم إن العبد يمنع ... رحلة فامنع حلالك
لا يغلبن صليبهم ... ومحالهم غدواً محالك
إن كنت تاركهم ... وقبلتنا فأمر ما بدا لك

ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة، وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شغف الجبال فتحرزوا فيها ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها، وذكر بعد ذلك ما حدث من هلاك لأبرهة وجيشه[١٢٤].

دروس وعبر وفوائد من حادثة الفيل:

١- بيان شرف الكعبة أول بيت وضع للناس:

وكيف أن مشركي العرب كانت تعظمه وتقدسه ولا يقدمون عليه شيء وتعود هذه المنزلة إلى بقايا ديانة إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام.

٢- حسد النصارى وحقدهم على مكة وعلى العرب الذين يعظمون هذا البيت:

ولذلك أراد أبرهة أن يصرف العرب عن تعظيم بيت الله ببناء كنيسة القليس وعلى الرغم من استعماله أساليب الترغيب والترهيب إلا أن العرب امتنعوا ووصل الأمر إلى مداه بأن أحدث في كنيسة القليس أحد الأعراب قال الرازي -رحمه الله (تعالى)- في قوله (تعالى): ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾: اعلم أن الكيد هو إرادة مضرة بالغير على الخفية (إن قيل) لما سماه كيدًا وأمره كان ظاهرًا، فإنه كان يصرح أن يهدم البيت؟ (قلنا): نعم، لكن الذي كان في قلبه شرًا مما أظهر، لأنه كان يضمر الحسد للعرب، وكان يريد صرف الشرف الحاصل لهم بسبب الكعبة منهم ومن بلدهم إلى نفسه وإلى بلدته[١٢٥].

٣- التضحية في سبيل المقدسات:

قام ملك من ملوك حميَر في وجه جيش أبرهة ووقع الملك أسيرًا، وقام النفيل بن حبيب الخثعمي ومن اجتمع معه من قبائل اليمن فقاتلوا أبرهة إلا أنهم انهزموا أمام الجيش العرمرم وبذلوا دماءهم دفاعًا عن مقدساتهم.

إن الدفاع عن المقدسات والتضحية في سبيلها شيء غريزي في فطرة الإنسان.

---

(١٢٣) السيرة النبوية لأبي حاتم السبتي ص٣٤-٣٩ . وانظر: السيرة النبوية لابن كثير (١/ ص٣٠-٣٧) .
(١٢٤) السيرة النبوية لابن هشام مع شرح أبي ذر الخشني (١/ ٨٤-٩١) .
(١٢٥) انظر: تفسير الرازي (٣٢/ ٩٤) .

٤- خونة الأمة مخذولون:

فهؤلاء العمـلاء الذين تعاونوا مع أبرهة وصاروا عيونًا له وجـواسيس وأرشدوه إلى بيت الله العتـيق ليهدمـه، لعنوا في الدنيا والآخرة، لعنهـم الناس، ولعنهم الله (سبحـانه وتعالى) وأصبح قبر أبي رغال رمزًا للخيانة والعمالة وصار ذاك الرجل مبغوضًا في قلوب الناس وكلما مر أحد على قبره رجمه.

٥- حقيقة المعركة بين الله وأعدائه:

في قول عبد المطلب زعيم مكة: (سنخلي بينه وبين البيت فإن خلى الله بينه وبينه، فوالله ما لنا به قوة) وهذا تقرير دقيق لحقيقة المعركة بين الله وأعدائه فمهما كانت قوة العدو وحشوده فإنها لا تستطيع الوقوف لحظة واحـدة أمام قدرة الله وبطشه ونقمته فهو سـبحانه واهب الحياة وسالبها في أي وقت شاء(١٢٦).

قال القاسمـي -رحمه الله- قال القاشاني -رحـمه الله-: قصة أصحاب الفـيل مشهورة وواقعتهم قريبـة من عهد الرسول (ﷺ)، وهي إحدى آيات قـدرة الله، وأثر من سخطه على من اجترأ عليه بهتك حرمه(١٢٧).

٦- تعظيم الناس للبيت وأهله:

ازداد تعظيم العـرب لبيت الله الحرام الذي تكفل بحـفظه وحمايـته من عبث المفـسدين، وكيد الكائدين(١٢٨)، وأعظمت العرب قريشًا، وقالوا: هم أهل الله، قاتل الله عنهم وكفاهم العدو، وكان ذلك آية من الله، ومقدمة لبعـثة نبي يبعث من مكة ويطهر الكعبة من الأوثان، ويعيد لها ما كان لها من رفعة وشأن(١٢٩).

٧- قصة الفيل من دلائل النبوة:

قال بعض العلماء: إن حادثة الفيل من شواهد النبوة ودلالاتها ومن هؤلاء:

الماوردي -رحـمه اللـه-: آيات الملك باهرة، وشـواهد النبوة ظاهـرة، تشهـد مـباديهـا بالعواقب فلا يلتـبس فيها كذب بصـدق، ولا منتحل بحق، وبحسب قوتهـا وانتشارها يكون بشائرها وإنذارها. ولما دنا مولد رسول الله (ﷺ) تعاطرت آيات نبوته، وظهرت آيات بركته، فكان من أعظمها شأنًا وأشهرها عيـانًا وبيانًا أصحاب الفيل .. إلى أن قال: وآية الرسول في قصة الفيل أنه كان في زمانه حمـلاً في بطن أمه بمكة، لأنه ولد بعد خمسين يومًا من الفيل، وبعد مـوت أبيه في يوم الإثنين الـثاني عشـر من شهـر ربيع الأول، فكانت آية في ذلك من وجهين:

---

(١٢٦) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس ص١١٢ .
(١٢٧) انظر: محاسن التفسير للقاسمي (١٧/ ٢٦٢) .
(١٢٨) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس ص١١٢ .
(١٢٩) انظر: السيرة النبوية للندوي ص٩٢ .

أحدهما: أنهم لو ظفروا لسبوا واسترقوا، فأهلكهم الله (تعالى) لصيانة رسوله (ﷺ) أن يجري عليه السبي حملاً ووليدًا.

والثاني: أنه لم يكن لقريش من التأله ما يستحقون به رفع أصحاب الفيل عنهم، وما هم أهل كتاب لأنهم كانوا بين عابد صنم، أو متدين وثن أو قائل بالزندقة، أو مانع من الرجعة، ولكن لما أراد الله (تعالى) من ظهور الإسلام، تأسيًا للنبوة، وتعظيمًا للكعبة . . . ولما انتشر في العرب ما صنع الله (تعالى) في جيش الفيل تهيبوا الحرم وأعظموه، وزادت حرمته في النفوس، ودانت لقريش بالطاعة، وقالوا: أهل الله قاتل عنهم وكفاهم كيد عدوهم، فزادوهم تشريفًا وتعظيمًا، وقامت قريش لهم بالوفادة والسدانة والسقاية والوفادة مال تخرجه قريش في كل عام من أموالهم يصنعون به طعامًا للناس أيام منى، فصاروا أئمة ديانين، وقادة متبوعين، وصار أصحاب الفيل مثلاً في الغابرين(١٣٠).

وقال ابن تيمية - رحمه الله -: وكان ذلك عام مولد النبي (ﷺ)، وكان جيران البيت مشركين يعبدون الأوثان ودين النصارى خير منهم، فعلم بذلك أن هذه الآية لم تكن لأجل جيران البيت حينئذ، بل كان لأجل البيت، أو لأجل النبي (ﷺ) الذي ولد في ذلك العام عند البيت أو لمجموعهما، وأي ذلك كان فهو من دلائل نبوته(١٣١).

وقال ابن كثير - رحمه الله - عندما تحدث عن حادثة الفيل: . . كان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله (ﷺ)، فإنه في ذلك العام ولد على أشهر الأقوال، ولسان حال القدرة يقول: لم ينصركم يا معشر قريش على الحبشة لخيرتكم عليهم، ولكن صيانة للبيت العتيق، الذي سنشرفه ونوقره ببعثة النبي الأمي محمد صلوات الله وسلامه عليه خاتم الأنبياء(١٣٢).

٨- حفظ الله للبيت العتقيق:

وهي أن الله لم يقدر لأهل الكتاب ـ أبرهة وجنوده - أن يدمروا البيت الحرام أو يسيطروا على الأرض المقدسة. حتى والشرك يُدنسه، والمشركون هم سدنته ليبقى هذا البيت عتيقًا من سلطان المتسلطين، مصونًا من كيد الكائدين وليحفظ لهذه الأرض حريتها حتى تنبت فيها العقيدة الجديدة حُرة طليقة، لا يهيمن عليها سلطان، ولا يطغى فيها طاغية ولا يهيمن على هذا الدين الذي جاء ليهيمن على الأديان، وعلى العباد، ويقود البشرية ولا يقاد، وكان هذا من تدبير الله لبيته ولدينه قبل أن يُعلم أحدًا أن نبي هذا الدين قد ولد في هذا العام(١٣٣).

ونحن نستبشر بإيحاء هذه الدلالة اليوم ونطمئن، إزاء ما نعلمه من أطماع فاجرة ماكرة ترف حول الأماكن المقدسة من قبل الصليبية العالمية والصهيونية العالمية، ولا تنى أو تهدأ في

---

(١٣٠) انظر: أعلام النبوة للماوردي ص١٨٥-١٨٩ .

(١٣١) انظر: الجواب الصحيح (٤/١٢٢) .

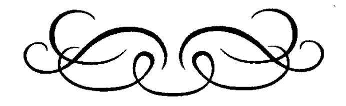
(١٣٢) انظر: تفسير ابن كثير (٤/٥٤٨ ، ٥٤٩) .

(١٣٣) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس ص١١٣ .

التمهـيد الخفي اللئيم لهـذه الأطماع الفاجرة الماكـرة، فالله الذي حمى بيتـه من أهل الكتاب وسدنته من المشركين، سيحفظه - إن شاء الله - ويحفظ مدينة رسوله من كيد الكائدين ومكر الماكرين(١٣٤).

٩- جعل الحادثة تاريخاً للعرب:

استعظم العرب ما حدث لأصحاب الفيل، فأرخوا به، وقالوا: وقع هذا عام الفيل وولد فلان عام الفيل ووقع هذا بعد عام الفيل بكذا من السنين، وعام الفيل صادف عام ٥٧٠م(١٣٥).



(١٣٤) في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٨٠) .
(١٣٥) انظر: السيرة النبوية للندوي ص٩٣ .



المبحث الخامس

من المولد النبوي الكريم إلى حلف الفضول

أولاً: نسب النبي (ﷺ):

إن النبي (ﷺ) أشرف الناس نسبًا وأكملهم خَلْقًا وخُلُقًا وقد ورد في شرف نسبه أحاديث صحاح، منها ما رواه مسلم: أن النبي (ﷺ) قال: «**إن الله (عز وجل) – اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**»(١٣٦).

وقد ذكر الإمام البخاري رحمه الله نسب النبي (ﷺ): فقال: (هو أبو القاسم، محمد بن عبد الله، بن عبد المطلب، بن هاشم، بن عبد مناف، بن قصي، بن كلاب، بن مرة، بن كعب، بن لؤي، بن غالب، بن فهر، بن مالك بن النضر، بن كنانة، بن خزيمة، بن مدركة، ابن إلياس، بن مضر، بن نزار، بن معد، بن عدنان)(١٣٧).

وقال البغوي في شرح السنة بعد ذكر النسب إلى عدنان: (ولا يصح حفظ النسب فوق عدنان)(١٣٨).

وقال ابن قيم الجوزية:

بعد ذكر النسب إلى عدنان أيضًا: (إلى هنا معلوم الصحة، متفق عليه بين النسابين، ولا خلاف البتة، وما فوق عدنان مختلف فيه، ولا خلاف بينهم أنّ عدنان من ولد إسماعيل عليه السلام)(١٣٩).

وقد جاء عن ابن سعد في طبقاته: (الأمر عندنا الإمساك عما وراء عدنان إلى إسماعيل)(١٤٠).

وعن عروة بن الزبير أنه قال: (ما وجدنا من يعرف وراء عدنان ولا قحطان إلا تخرصًا)(١٤١).

قال الذهبي رحمه الله في كتاب السيرة النبوية: (وعدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام بإجماع الناس لكن اختلفوا فيما بين عدنان وإسماعيل من الآباء)(١٤٢).

لقد كان – وما زال – شرف النسب له المكانة في النفوس، لأن ذا النسب الرفيع لا تنكر عليه الصدارة، نبوة كانت أو ملكًا، وينكر ذلك على وضيع النسب، فيأنف الكثير من

(١٣٦) مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي (٤/ ١٧٨٢) رقم ٢٧٧٦.
(١٣٧) البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب مبعث النبي (٤/ ٢٨٨) رقم ٣٨٥١.
(١٣٨) شرح السنّة ١٣/ ١٩٣.
(١٣٩) زاد المعاد (١/ ٧١).
(١٤٠) ابن سعد (١/ ٥٨).
(١٤١) نفس المصدر.
(١٤٢) السيرة النبوية للذهبي ص١.

الانضواء تحت لوائه، ولما كان محمد (ﷺ) يعد للنبوة هيأ الله (تعالى) له شرف النسب ليكون مساعدًا له على التفاف الناس حوله[١٤٣].

إن معدن النبي (ﷺ) طيب ونفيس، فهو من نسل إسماعيل الذبيح وإبراهيم خليل الله واستجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام، وبشارة أخيه عيسى عليه السلام كما حدّث هو عن نفسه، فقال: **«أنا دعوة أبي إبراهيم وبشارة أخي عيسى»**[١٤٤].

وطيب المعدن والنسب الرفيع يرفع صاحبه عن سفاسف الأمور ويجعله يهتم بعاليها وفضائلها والرسل والدعاة يحرصون على تزكية أنسابهم وطهر أصلابهم، ويعرفون عند الناس بذلك فيحمدونهم ويثقون بهم[١٤٥].

ومما تبين يتضح لنا من نسبه الشريف، دلالة واضحة على أن الله (سبحانه وتعالى) ميز العرب على سائر الناس، وفضل قريشًا على سائر القبائل الأخرى، ومقتضى محبة رسول الله (ﷺ)، محبة القوم الذين ظهر فيهم والقبيلة التي ولد فيها، لا من حيث الأفراد والجنس بل من حيث الحقيقة المجردة ذلك لأن الحقيقة العربية القرشية، قد شرف كل منها - ولا ريب - بانتساب رسول الله (ﷺ) إليها، ولا ينافي ذلك ما يلحق من سوء بكل من قد انحرف من العرب أو القرشيين، عن صراط الله (عز وجل)، وانحط عن مستوى الكرامة الإسلامية التي اختارها الله لعباده، لأن هذا الانحراف أو الانحطاط من شأنه أن يودي بما كان من نسبة بينه وبين الرسول (ﷺ) ويلغيها من الاعتبار[١٤٦].

ثانيًا: زواج عبد الله بن عبد المطلب من آمنة بنت وهب ورؤيا آمنة أم النبي (ﷺ):

كان عبد الله بن عبد المطلب من أحب ولد أبيه إليه، ولما نجا من الذبح وفداه عبد المطلب بمائة من الإبل، زوجه من أشرف نساء مكة نسبًا، وهي آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب[١٤٧].

ولم يلبث أبوه أن توفي بعد أن حملت به آمنة ودفن بالمدينة عند أخواله بني (عدي بن النجار) فإنه كان قد ذهب بتجارة إلى الشام فأدركته منيته بالمدينة وهو راجع، وترك هذه النسمة المباركة، وكأن القدر يقول له: قد انتهت مهمتك في الحياة وهذا الجنين الطاهر يتولى الله (عز وجل) بحكمته ورحمته تربيته وتأديبه وإعداده لإخراج البشرية من الظلمات إلى النور.

ولم يكن زواج عبد الله من آمنة هو بداية أمر النبي (ﷺ)، قيل للنبي (ﷺ): ما أول بدء أمرك[١٤٨] فقال رسول الله (ﷺ): **«أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى ورأت أمي أنه يخرج**

(١٤٣) انظر: دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد (ﷺ) ص٩٦ .
(١٤٤) انظر: الحاكم (٢/ ٦٠٠) وصححه.
(١٤٥) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس ص١٠٢ .
(١٤٦) انظر: فقه السنة للبوطي ص٤٥ .
(١٤٧) انظر: وقفات تربوية مع السيرة ، أحمد فريد ص٤٦ .
(١٤٨) انظر: وقفات تربوية مع السيرة ص٤٦ .

منها نور أضاءت منه قصور الشام»(١٤٩).

ودعوة إبراهيم عليه السلام هي قوله: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (سورة البقرة، الآية: ١٢٩).

وبشرى عيسى: كما أشار إليه قوله (عز وجل) حاكيًا عن المسيح عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (سورة الصف، الآية: ٥).

وقوله: **«ورأت أمي كأنه خرج منها نور أضاءت منه قصور الشام»** قال ابن رجب: (وخروج هذا النور عند وضعه إشارة إلى ما يجيء به من النور الذي اهتدى به أهل الأرض، وزال به ظلمة الشرك منها، كما قال (تعالى): ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (سورة المائدة، الآيتان: ١٥، ١٦).

وقال ابن كثير: (وتخصيص الشام بظهور نوره إشارة إلى استقرار دينه وثبوته ببلاد الشام ولهذا تكون الشام في آخر الزمان معقلاً للإسلام وأهله، وبها ينزل عيسى ابن مريم بدمشق بالمنارة الشرقية البيضاء منها ولهذا جاء في الصحيحين: **«لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»** وفي صحيح البخاري: **«وهم بالشام»**(١٥٠).

ثالثًا: ميلاد الحبيب المصطفى (ﷺ):

ولد الحبيب المصطفى (ﷺ) يوم الإثنين بلا خلاف، والأكثرون على أنه ليلة الثاني عشر منه(١٥١).

والمجمع عليه أنه (ﷺ) ولد عام الفيل(١٥٢) وكانت والدته في دار أبي طالب بشعب بني هاشم(١٥٣).

قال أحمد شوقي رحمه الله في مولد الحبيب المصطفى (ﷺ):

ولد الهدى فالكائنات ضياءُ ... وفم الزمان تبسُّمٌ وثناء

---

(١٤٩) رواه أحمد (٥/ ٢٦٢)؛ الحاكم (٢/ ٦٠٠)، مجمع الزوائد (٨/ ٢٢٢) وإسناد أحمد حسن وله شواهد تقويه، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(١٥٠) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ١٨٤)، رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة (٨/ ١٨٩) رقم ٧٣١١.

(١٥١) انظر: صحيح السيرة النبوية، إبراهيم العلي ص٤٧.

(١٥٢) انظر: السيرة النبوية لابن كثير (١/ ٢٠٣).

(١٥٣) انظر: وقفات تربوية مع السيرة النبوية ص٤٧.

الروح، والملأ، الملائك حوله	للدين والدنيا به بشراء
والعرش يزهو، والحظيرة تزدهي	والمنتهى والسِّدرة العصماء
بك بشّر الله السماء فزينت	وتضوَّعت مسْكًا بك الغبراء
يوم يتيه على الزمان صباحه	ومساؤه بمحمد وضاء
ذعرت عروش الظالمين فزلزلت	وعلت على تيجانهم أصداء
والنار خاوية الجوانب حولهم	جمعت ذوائبها وغاض الماء
والآي تترى، والخوارق جمة	جبريل روّاح بها غدّاء[154]

وقد قال الشاعر الأديب الليبي الأستاذ محمد بشير المغيربي في ذكرى مولد الرسول (ﷺ) عام ١٩٤٧م في جريدة الوطن الصادرة في بنغازي:

بلغ الزمان من الحياة عتيا	لكنَّ يومًا لا يزال فتيا
يمشي على الأحقاب مشية فاتح	في موكب جعل السنين مطيا
تخذت له الأعوام في أيامها	عرشًا فأصبح تاجها الأبديا
ومضت به الأجيال خطوات من	بلغ الرشاد وكان قبل صبيا
أعظم بيوم جاء يحمل (رحمة	للعالمين) وعزة ورقيا
ولدت به للكائنات حقيقة	أضحى بها سر الحياة جليا
وأنار في الأولى الطريق إلى الورى	ليسير للأخرى الأنام تقيا
كادت به الدنيا تقول لشمسها	عني فقد رجع الضياء إليا[155]

وقال أيضًا في نادي طرابلس الغرب الثقافي في القاهرة في عام ١٩٤٩:

ما لي وما بي من شمول	أشدو على رغم العذول
إني أطالع في السماء	كأنها سفر جليل
وأرى النجوم تمثلت	لي كالملائك في مثول
والبدر خلت شعاعه	وحي الرسالة في نزول
وإذا بصوت من ضمير	الكون مبتهجًا يقول
في مثل هذي الليلة	الغراء قد ولد الرسول
وأشع نور محمد	فوق الروابي والسهول
ملأ الزمان وكان قبل	يهيم في ليل طويل[156]

---

(١٥٤) انظر: ديوان شوقي (١/ ٣٤، ٣٥).

(١٥٥) جريدة (الوطن) بنغازي ١٩٤٧.

(١٥٦) سمعتها مشافهة من الشاعر.

رابعًا: مرضعاته (ﷺ):

كانت حاضنته (ﷺ) أم أيمن بركة الحبشية أمة أبيه، وأول من أرضعته ثويبة أمة عمه أبي لهب[١٥٧] فمن حديث زينب ابنة أبي سلمة أنّ أمّ حبيبة رضي الله عنها أخبرتها أنها قالت: يا رسول الله، انكح أختي بنت أبي سفيان، فقال: **«أو تحبين ذلك؟»** فقلت: نعم، لست لك بمخلية، وأحب من شاركني في خير أختي. فقال النبي (ﷺ): **«إنّ ذلك لا يحل لي»**. قلت: فإنا نتحدث أنك تريد أن تنكح بنت أبي سلمة. قال: **«بنت أم سلمة؟»** قلت: نعم. فقال: **«لو أنها لم تكن ربيبتي في حِجري ما حلّت لي، إنها لابنة أخي من الرضاعة، أرضعتني وأبا سلمة ثويبة، فلا تعرضنّ عليّ بناتكن ولا أخواتكن»**[١٥٨].

وكان من شأن أم أيمن، أم أسامة بن زيد، أنها كانت وصيفة لعبد الله بن عبد المطلب، وكانت من الحبشة، فلما ولدت آمنة رسول الله (ﷺ)، بعد ما توفي أبوه، فكانت أم أيمن تحضنه، حتى كبر رسول الله (ﷺ)، فأعتقها، ثم أنكحها زيد بن حارثة ثم توفيت بعد ما توفي رسول الله (ﷺ) بخمسة أشهر[١٥٩].

١ - حليمة السعديّة مرضعته في بني سعد:

وهذه حليمة السعدية تقص علينا خبرًا فريدًا، عن بركات الحبيب المصطفى (ﷺ) التي مستها في نفسها وولدها، ورعيها وبنتها.

عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما: قال: (لما ولد رسول الله (ﷺ) قدمت حليمة بنت الحارث، في نسوة من بني سعد بن بكر يلتمسون الرضعاء بمكة قالت حليمة: فخرجت في أوائل النسوة على أتان لي، قمراء[١٦٠]، ومعي زوجي الحارث بن عبد العزى، أحد بني سعد بن بكر، ثم أحد بني ناضرة، قد أدمت[١٦١] أتاننا، ومعي بالركب شارف[١٦٢] والله ما تبض[١٦٣] بقطرة لبن، في سنة شهباء[١٦٤] قد جاع الناس حتى خلص إليهم الجهد، ومعي ابن لي، والله ما ينام ليلنا، وما أجد في يدي شيئًا أعلله به، إلا أنا نرجو الغيث وكانت لنا غنم، فنحن نرجوها.

فلما قدمنا مكة فما بقي منا أحد إلا عرض عليها رسول الله (ﷺ) فكرهته، فقلنا: إنه يتيم، وإنما يكرم الظئر، ويحسن إليها الوالد، فقلنا: ما عسى أن تضع بنا أمه أو عمه أو

(١٥٧) انظر: وقفات تربوية مع السيرة النبوية ص٤٨ .
(١٥٨) البخاري ، كتاب النكاح ، باب: «وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم» رقم ٥١٠١ .
(١٥٩) مسلم ، كتاب الجهاد ، باب رد المهاجرين إلى الأنصار رقم ١٧٧١ .
(١٦٠) قمراء: القمرة لون إلى الخضرة، أو بياض فيه كدرة .
(١٦١) أدمت: حدثت في ركبها جروح دامية لاصطكاكها .
(١٦٢) الشارف: الناقة المسنة .
(١٦٣) تبض: لا ترشح قطرة لبن .
(١٦٤) شهباء: سنة مجدبة لا خضرة فيها ولا مطر .

جده، فكلُّ صواحبي أخذ رضيعًا، فلما لم أجد غيره، رجعت إليه، وأخذته، والله ما أخذته إلا أني لم أجد غيره، فقلت لصاحبي: والله لآخـذنَّ هذا اليتيم من بني عبد المطلب، فعسى الله أن ينفعنا به، ولا أرجع من بين صواحبي ولا آخذ شيئًا، فقال: قد أصبت.

قالت: فأخـذته، فأتيت به الرَّحْلَ، فوالله ما هو إلا أن أتيت به الرَّحْلَ، فأمسيت أقبل ثدياي باللبن، حتى أرويته، وأرويت أخاه، قام أبوه إلى شارفنا تلك يلمسها، فإذا هي حافل[١٦٥]، فحلبها، فأرواني وروي، فقال: يا حليمة، تعلمين والله لقد أصبنا نسمة مباركة[١٦٦]، ولقد أعطى الله عليها ما لم نتمنَّ، قالت: فبتنا بخير ليلة، شباعًا، وكنا لا ننام ليلنا مع صبينا.

ثم اغتدينا راجعين إلى بلادنا أنا وصواحبي، فركبت أتاني القمراء فحملته معي، فوالذي نفس حليمة بيده لقطعَتْ الركب[١٦٧] حتى إن النسوة ليقلن: أمسكي علينا، أهذه أتانك التي خرجت عليها؟ فقلت: نعم، فقالوا: إنها كانت أدمت حين أقبلنا فما شأنها؟ قالت: فقلت: والله حملت عليه غلامًا مباركًا.

قالت: فخرجنا، فما زال يزيدنا الله في كل يوم خيرًا، حتى قدمنا والبلاد سنةٌ، ولقد كان رعاتنا يسرحون ثم يريحون، فتروح أغنام بني سعد جياعًا، وتروح غنمي بطَانًا[١٦٨]، حفلاً[١٦٩]، فنحلب، ونشرب، فيقولون: ما شأن غنم الحارث بن عبد العزى وغنم حليمة تروح شباعًا حفلاً، وتروح غنمكم جياعًا. ويلكم اسرحوا حيث تسرح غنم رعاؤهم، فيسرحون معهم، فما تروح إلا جياعًا كما كانت، وترجع غنمي كما كانت.

قالت: وكان يشب شبابًا ما يشبه أحد من الغلمان، يشب في اليوم شباب السنة، فلما استكمل سنتين أقدمناه مكة، أنا وأبوه، فقلنا: والله لا نفارقه أبدًا ونحن نستطيع، فلما أتينا أمه، قلنا: أي ظئر! والله ما رأينا صبيًا قط أعظم بركة منه، وإنا نتخوف عليه وباء[١٧٠] مكة وأسقامها، فدعيه نرجع به حتى تبرئي من دائك، فلم نزل بها حتى أذنت، فرجعنا به، فأقمنا أشهرًا ثلاثة أو أربعة فبينما هو يلعب خلف البيوت هو وأخوه في بُهْم لنا[١٧١]، إذ أتى أخوه يشتدُّ، وأنا وأبوه في البدن، فقال: إن أخي القرشي، أتاه رجلان عليهما ثياب بيض، فأخذاه وأضطجعاه، فشقَّا بطنه، فخرجت أنا وأبوه نشتدُّ، فوجدناه قائمًا، قد انتقع لونه[١٧٢]، فلما رآنا أجهش إلينا، وبكى، قالت: فالتزمته أنا وأبوه، فضممناه إلينا: ما لك بأبي وأمي؟ فقال:

(١٦٥) حافل: كثير اللبن.
(١٦٦) نسمة: نفس.
(١٦٧) قطعت الركب: سبقت الركب.
(١٦٨) بطانا: الممتلئة البطون.
(١٦٩) حفلاً: كثيرات اللبن.
(١٧٠) الوباء: المرض.
(١٧١) البهم: صغار الضأن والماعز.
(١٧٢) انتقع لونه: تغير.

أتاني رجلان وأضجعاني، فشقا بطني، ووضعا به شيئًا، ثم رداه كما هو، فقال أبوه: والله ما أرى ابني إلا وقد أصيب، الحقي بأهله، فرديه إليهم قبل أن يظهر له ما نتخوف منه. قالت: فاحتملناه فقدمنا به على أمه، فلما رأتنا أنكرت شأننا، وقالت: ما رجعكما به قبل أن أسألكماه، وقد كنتما حريصين على حبسه؟ فقلنا: لا شيء إلا أن قضى الله الرضاعة وسرّنا ما نرى، وقلنا: نؤويه كما تحبون أحبّ إلينا، قال: فقالت: إن لكما شأنا فأخبراني ما هو، فلم تدعنا حتى أخبرناها، فقالت: كلا والله، لا يصنع الله ذلك به، إن لابني شأنا، أفلا أخبركما خبره، إني حملت به، فوالله ما حملت حملاً قط، كان أخف عليّ منه، ولا أيسر منه، ثم أُريت حين حملته خرج مني نور أضاء منه أعناق الإبل ببصرى -أو قالت: قصور بصرى- ثم وضعته حين وضعته، فوالله ما وقع كما يقع الصبيان، لقد وقع معتمدًا بيديه على الأرض رافعًا رأسه إلى السماء فدعاه عنكما فقبضته، وانطلقنا)[١٧٣].

١- دروس وعبر:

أ- بركة النبي (ﷺ) على السيدة حليمة:

فقد ظهرت هذه البركة على حليمة السعدية في كل شيء، ظهرت في إدرار ثديها وغزارة حليبها، وقد كان لا يكفي ولدها، وظهرت بركته في سكون الطفل ولدها، وقد كان كثير البكاء مزعجًا لأمه يؤرقها ويمنعها من النوم، فإذا هو شبعان ساكن جعل أمه تنام وتستريح، وظهرت بركته في شياههم العجفاوات التي لا تدر شيئًا وإذا بها تفيض من اللبن الكثير الذي لم يعهد.

ب- كانت هذه البركات من أبرز مظاهر إكرام الله له:

وليس فقط أن أكرم بسببه بيت حليمة السعدية التي تشرفت بإرضاعه. وليس من ذلك غرابة ولا عجب[١٧٤]، فخلف ذلك حكمة أن يُحب أهل هذا البيت هذا الطفل ويحنوا عليه ويحسنوا في معاملته ورعايته وحضانته، وهكذا كان فقد كانوا أحرص عليه وأرحم به من أولادهم[١٧٥].

ج - خيار الله للعبد أبرك وأفضل:

اختار الله لحليمة هذا الطفل اليتيم وأخذته على مضض لأنه لم تجد غيره، فكان الخير كل الخير فيما اختاره الله، وبانت نتائج هذا الاختيار مع بداية أخذه وهذا درس لكل مسلم بأن يطمئن قلبه إلى قدر الله واختياره والرضا به ولا يندم على ما مضى وما لم يقدره الله (تعالى).

---

(١٧٣) أبو يعلى في مجمع الزوائد (٨/ ٢٢١)، السيرة النبوية بشرح الخشني: (١/ ٢١٤) من طريق ابن إسحاق وقد صرح ابن إسحاق بالسماع في رواية السيرة، قال الذهبي في السيرة النبوية ص٨: هذا حديث جيد الإسناد وله شواهد تقويها ولذلك فالحديث حسن لشواهده.

(١٧٤) فقة السيرة النبوية للبوطي ص٤٤.

(١٧٥) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس ص١٠٥.

د - أثر البادية في صحة الأبدان وصفاء النفوس، وذكاء العقول:

قال الشيخ محمد الغزالي -رحمه الله-: وتنشئة الأولاد في البادية، ليمرحوا في كنف الطبيعة، ويستمتعوا بجوها الطلق وشعاعها المرسل، أدنى إلى تزكية الفطرة، وإنماء الأعضاء والمشاعر، وإطلاق الأفكار والعواطف.

إنها لتعاسة أن يعيش أولادنا في شقق ضيقة من بيوت متلاصقة كأنها علب أغلقت على من فيها، وحرمتهم لذة التنفس العميق والهواء المنعش.

ولا شك أن اضطراب الأعصاب الذي قارن الحضارة الحديثة يعود - فيما يعود - إلى البعد عن الطبيعة، والإغراق في التصنع. ونحن نقدر لأهل مكة اتجاههم إلى البادية لتكون عرصاتها الفساح مدارج طفولتهم. وكثير من علماء التربية يود لو تكون الطبيعة هي المهد الأول للطفل حتى تتسق مداركه مع حقائق الكون الذي وجد فيه ويبدو أن هذا حلم عسر التحقيق[١٧٦].

وتعلم رسول الله (ﷺ) في بادية بني سعد اللسان العربي الفصيح وأصبح فيما بعد من أفصح الخلق، فعندما قال له أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله! ما رأيت أفصح منك. فقال (ﷺ): «**وما يمنعني وأنا من قريش وأرضعت من بني سعد**»[١٧٧].

٢- ما يستفاد من حادثة شق الصدر:

تعد حادثة شق الصدر التي حصلت له (ﷺ) أثناء وجوده في مضارب بني سعد من إرهاصات النبوة ودلائل اختيار الله إياه لأمر جليل[١٧٨].

وقد روى الإمام مسلم في صحيحه حادثة شق الصدر في صغره، فعن أنس بن مالك: (أن رسول الله (ﷺ) أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة فقال: هذا حظ الشيطان منك ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه[١٧٩]، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه -يعني ظئره- فقالوا: إن محمدًا قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون.

قال أنس: وقد كنت أرى أثر المخيط في صدره[١٨٠].

ولا شك أن التطهير من حظ الشيطان هو إرهاص مبكر للنبوة، وإعداد للعصمة من الشر وعبادة غير الله، فلا يحل في قلبه إلا التوحيد الخالص، وقد دلت أحداث صباه على تحقق

---

(١٧٦) انظر: فقه السيرة ص٦٠ ، ٦١ .
(١٧٧) الروض الأنف للسهيلي (١/ ١٨٨) .
(١٧٨) انظر: فقه السيرة للبوطي ص٤٧ .
(١٧٩) جمعه وضم بعضه إلى بعض (شرح النووي على مسلم ٢/ ٢١٦) .
(١٨٠) مسلم ، كتاب الايمان ، (١/ ٤٥) رقم ٢٥٩ .

ذلك فلم يرتكب إثمًا ولم يسجد لصنم(١٨١) رغم انتشار ذلك في قريش(١٨٢).

وتحدث الدكتور البوطي عن الحكمة في ذلك فقال: يبدو أن الحكمة في ذلك إعلان أمر الرسول (ﷺ) وتهيؤه للعصمة والوحي منذ صغره بوسائل مادية، ليكون ذلك أقرب إلى إيمان الناس به وتصديقهم برسالته. إنها إذن عملية تطهير معنوي، ولكنها اتخذت هذا الشكل المادي الحسي، ليكون فيه ذلك الإعلان الإلهي بين أسماع الناس وأبصارهم(١٨٣) إن إخراج العلقة منه تطهير للرسول (ﷺ) من حالات الصبا اللاهبة العابثة المستهترة واتصافه بصفات الجد والحزم والاتزان وغيرها من صفات الرجولة الصادقة، كما تدلنا على عناية الله به وحفظه له وأنه ليس للشيطان عليه سبيل(١٨٤).

خامسًا: وفاة أمه وكفالة جده ثم عمه:

توفيت أم النبي (ﷺ) وهو ابن ست سنين بالأبواء بين مكة والمدينة وكانت قد قدمت به على أخواله من بني عدي بن النجار تزيره إياهم، فماتت وهي راجعة به إلى مكة(١٨٥) ودفنت بالأبواء وبعد وفاة أمه كفله جده عبد المطلب، فعاش في كفالته وكان يؤثره على أبنائه أي أعمام النبي (ﷺ) فقد كان جده مهيبًا لا يجلس على فراشه أحد من أبنائه مهابة له، وكان أعمامه يتهيبون الجلوس على فراش أبيهم، وكان (ﷺ) يجلس على الفراش ويحاول أعمامه أن يبعدوه عن فراش أبيهم فيقف الأب الجد بجانبه ويرضى أن يبقى جالسًا على فراشه متوسمًا فيه الخير وأنه سيكون له شأن عظيم(١٨٦)، وكان جده يحبه حبًّا عظيمًا وكان إذا أرسله في حاجة جاء بها وذات يوم أرسله في طلب إبل فاحتبس عليه(١٨٧) فطاف بالبيت وهو يرتجل يقول:

رب رد راكبي محمدًا ... رده لي واصنع عندي يدًا

فلما رجع النبي (ﷺ) وجاء بالإبل فقال له: يا بني: لقد حزنت عليك كالمرأة حزنًا لا يفارقني أبدًا(١٨٨).

ثم توفي عبد المطلب والنبي (ﷺ) في الثامنة من عمره(١٨٩)، فأوصى جده به عمه أبا

---

(١٨١) زعم المستشرق نيكلسون أن حديث شق الصدر أسطورة نشأت عن تفسير الآية ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ وأنه لو كان لها أصل فعلينا أن نخمن أنها تشير إلى نوع من الصرع. وهذا الذي زعمه نيكسون سبقه إليه المشركون حين اتهموا رسول الله (ﷺ) بالجنون فنفى الله عنه ذلك ﴿وما صاحبكم بمجنون﴾.

(١٨٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ١٠٤).

(١٨٣) انظر: فقه السيرة النبوية ص٤٧.

(١٨٤) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس ص١٠٦، ١٠٧.

(١٨٥) ابن هشام في السيرة (١/ ١٦٨) وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث.

(١٨٦) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس ص١٠١. (١٨٧) صحيح السيرة النبوية للعلي ص٥٦.

(١٨٨) أخرجه الطبراني في الكبير: ٥٥٢٤ وصححه إبراهيم العلي في صحيح السيرة النبوية ص٥٦.

(١٨٩) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس ص١٠١.

طالب فكفله عمه وحنّ عليه ورعاه[١٩٠].

أرادت حكمة الله أن ينشأ رسوله يتيمًا، تتولاه عناية الله وحدها بعيدًا عن الذراع التي تمعن في تدليله والمال الذي يزيد في تنعيمه، حتى لا تميل به نفسه إلى مجد المال والجاه، وحتى لا يتأثر بما حوله من معنى الصدارة والزعامة، فيلتبس على الناس قداسة النبوة بجاه الدنيا، وحتى لا يحسبوه يصطنع الأول ابتغاء الوصول إلى الثاني[١٩١] وكانت المصائب التي أصابت النبي (ﷺ) منذ طفولته كموت أمه ثم جده بعد أن حرم عطف الأب، وذاق كأس الحزن مرة بعد مرة كانت تلك المحن قد جعلته رقيق القلب مرهف الشعور، فالأحزان تصهر النفوس وتخلصها من أدران القسوة والكِبْر والغرور، وتجعلها أكثر رقة وتواضعًا.

وليست وفاة والديه في العشرينات من حياتهما ناشئة عن هزالهما وضعف بنيتهما. ولم يكن محمد (ﷺ) سليل أبوين سقيمين. وإنما توفاهما الله بعد أن قاما بالمهمة التي وجدا من أجلها، ليتأسى بمحمد (ﷺ) كل من فقد والديه أو أحدهما وهو صغير، وليكون أدبه وخلقه مع يتمه دليلاً على أن الله (تعالى) تولى رعايته وتأديبه، وحتى ينشأ قوي الإرادة ماضي العزيمة غير معتمد على أحد في شؤونه، وحتى لا يكون لأبويه أي أثر في دعوته[١٩٢] وحتى لا تتدخل يد البشرية في تربيته وتوجيهه، فيكون الله (سبحانه وتعالى) هو الذي يتولى تربيته، ولا يتلقى أو يتلقن من مفاهيم الجاهلية وأعرافها شيئًا، إنما يتلقى من لدن الحكيم الخبير فالله (سبحانه وتعالى) آواه، وسخر له جده وعمه لتهيئة الجانب المادي، بينما كانت التربية النفسية والخلقية والفكرية تعهدًا ربانيًا، ورعاية إلهية[١٩٣].

سادسًا: عمله (ﷺ) في الرعي:

كان أبو طالب مقلاً في الرزق فعمل النبي (ﷺ) برعي الغنم مساعدة منه لعمه، فلقد أخبر (ﷺ) عن نفسه الكريمة وعن إخوانه من الأنبياء أنهم رعوا الغنم، أما هو فقد رعاها لأهل مكة وهو غلام وأخذ حقه عن رعيه، ففي الحديث الصحيح قال رسول الله (ﷺ): «**ما بعث الله نبيًا إلا رَعى الغنم**» فقال: أصحابه: وأنت يا رسول الله؟ قال: «**وأنا رعيتها لأهل مكة بالقراريط**»[١٩٤]، إن رعي الغنم كان يتيح للنبي (ﷺ) الهدوء الذي تتطلبه نفسه الكريمة، ويتيح له المتعة بجمال الصحراء، ويتيح له التطلع إلى مظاهر جلال الله في عظمة الخلق، ويتيح له مناجاة الوجود في هدأة الليل وظلال القمر ونسمات الأسحار، يتيح له لونًا من التربية النفسية من الصبر والحلم والأناة والرأفة والرحمة والعناية بالضعيف حتى يقوى وزم قوى القوي حتى يستمسك للضعيف ويسير بسيره، وارتياد مشارع الخصب والري وتجنب الهلكة ومواقع الخوف من كل ما لا تتيحه حياة أخرى بعيدة عن جو الصحراء وهدوئها

---

(١٩٠) انظر: مدخل لفهم السيرة ، اليحيى ص١١٩ .

(١٩١) انظر: فقه السيرة للبوطي ص٤٦ .

(١٩٢) انظر: رسائل الأنبياء ، عمر أحمد عمر (٣/ ٢٠) .

(١٩٣) انظر: فقه السيرة النبوية للغضبان ص٨٤ ، ٨٥ .

(١٩٤) البخاري ، كتاب الأطعمة (٩/ ٤٨٨) رقم ٢٢٦٢ . والقيراط جزء من الدينار أو الدرهم.

وسياسة هذا الحيوان الأليف الضعيف[١٩٥].

وتذكرنا رعايته للغنم بأحاديثه (ﷺ) التي توجه المسلمين للإحسان للحيوانات[١٩٦] فكان رعي الغنم للنبي (ﷺ) دربة ومرانًا له على سياسة الأمم.

ورعي الغنم يتيح لصاحبه عدة خصال تربوية منها:

١ - الصبر:

على الرعي من طلوع الشمس إلى غروبها، نظرًا لبطء الغنم في الأكل، فيحتاج راعيها إلى الصبر والتحمل، وكذا تربية البشر[١٩٧].

إن الراعي لايعيش في قصر منيف ولا في ترف وسرف، وإنما يعيش في جو حار شديد الحرارة، وبخاصة في الجزيرة العربية، ويحتاج إلى الماء الغزير ليذهب ظمأه، وهو لا يجد إلا الخشونة في الطعام وشظف العيش، فينبغي أن يحمل نفسه على تحمل هذه الظروف القاسية، ويألفها ويصبر عليها[١٩٨].

٢- التواضع:

إذ طبيعة عمل الراعي خدمة الغنم والإشراف على ولادتها، والقيام بحراستها والنوم بالقرب منها، وربما أصابه ما أصابه من رذاذ بولها أو شيء من روثها فلم يتضجر من هذا، ومع المداومة والاستمرار يبعد عن نفسه الكبر والكبرياء ويرتكز في نفسه خلق التواضع[١٩٩] وقد ورد في صحيح مسلم أن رسول الله (ﷺ) قال: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر**» فقال رجل: يا رسول الله الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا؟ فقال: «**إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس**»[٢٠٠].

٣- الشجاعة:

فطبيعة عمل الراعي الاصطدام بالوحوش المفترسة، فلا بد أن يكون على جانب كبير من الشجاعة تؤهله للقضاء على الوحوش ومنعها من افتراس أغنامه[٢٠١].

٤ - الرحمة والعطف:

إن الراعي يقوم بمقتضى عمله في مساعدة الغنم إن هي مرضت أم كُسرت أو أصيبت، وتدعو حالة مرضها وألمها إلى العطف عليها وعلاجها والتخفيف من آلامها، فمن يرحم

(١٩٥) انظر: محمد رسول الله ، محمد الصادق عرجون (١/ ١٧٧) .
(١٩٦) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ١٠٦) .
(١٩٧) انظر: مدخل لفهم السيرة ، اليحيى ص١٢٤ .
(١٩٨) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس ص١١٤ ، ١١٥ .
(١٩٩) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس ص١١٤ .
(٢٠٠) مسلم رقم ١١ (١٤٧/ ٩١) .
(٢٠١) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس ص١١٤ .

الحيوان يكون أشد رحمة بالإنسان، وبخاصة إذا كان رسولاً أرسله الله تبارك وتعالى لتعليم الإنسان وإرشاده وإنقاذه من النار وإسعاده في الدارين[٢٠٢].

٥- حب الكسب من عرق الجبين:

إن الله قادر على أن يغني محمدًا (ﷺ) عن رعي الغنم، ولكن هذه تربية له ولأمته للأكل من كسب اليد وعرق الجبين، ورعي الغنم نوع من أنواع الكسب باليد وصاحب الدعوة يجب أن يستغني عن ما في أيدي الناس ولا يعتمد بدعوته عليهم، فبذلك تبقى قيمته وترتفع منزلته، ويبتعد عن الشبه والتشكيك فيه، ويتجرد عمله لله (تعالى)، ويرد شبهة الكفرة الظلمة الذين يصورون للناس أن الأنبياء أرادوا الدنيا بدعوتهم[٢٠٣] ﴿**قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ**﴾ (سورة يونس، الآية: ٧٨).

هكذا يقول فرعون لموسى، ونظرًا لسيطرة حب الدنيا وحطامها على عقولهم يظنون أن أي تفكير وأي حركة مراد بها الدنيا، ولهذا قالت الأنبياء عليهم السلام لأقوامهم مبينة استغنائها عنهم: ﴿**وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ**﴾ (سورة هود: الآية ٢٩).

روى البخاري عن المقدام رضي الله عنه عن رسول الله (ﷺ) قال: «**ما أكل أحدٌ طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده**»[٢٠٤].

ولا شك أن الاعتماد على الكسب الحلال تكسب الإنسان الحرية التامة والقدرة على قول كلمة الحق والصدع بها[٢٠٥] وكم من الناس يطأطئون رؤوسهم للطغاة، ويسكتون على باطلهم، ويجاورونهم في أهوائهم خوفًا على وظائفهم عندهم[٢٠٦].

إن صاحب أي دعوة، لن تقوم لدعوته أي قيمة في الناس إذا ما كان كسبه ورزقه من وراء دعوته أو على أساس من عطايا الناس وصدقاتهم، ولذا كان صاحب الدعوة الإسلامية أحرى الناس كلهم بأن يعتمد في معيشته على جهده الشخصي أو مورد شريف لا استجداء فيه حتى لا تكون عليه لأحد من الناس منة أو فضل في دنياه فيعوقه ذلك من أن يصدع بكلمة الحق في وجهه غير مبالٍ بالموقع الذي قد تقع من نفسه.

وهذا هو المعنى وإن لم يكن قد خطر في بال الرسول (ﷺ) في هذه الفترة، إذ أنه لم يكن يعلم بما سيوكل إليه من شأن في الدعوة والرسالة الإلهية، غير أن هذا المنهج الذي هيأه الله له ينطوي على هذه الحكمة ويوضح أن الله (تعالى) قد أراد أن لا يكون في شيء من

(٢٠٢) انظر: مدخل لفهم السيرة ص١٢٧ .
(٢٠٣) انظر: مدخل لفهم السيرة ص١٣٧ .
(٢٠٤) البخاري ، كتاب البيوع رقم ٢٠٧٢ .
(٢٠٥) انظر: مدخل لفهم السيرة ص١٢٨ .
(٢٠٦) انظر: فقه السيرة للغضبان ص٩٣ .

حياة الرسول قبل البعثة ما يعرقل سبيل دعوته أو يؤثر عليها أي تأثير سلبي، فيما بعد البعثة[٢٠٧].

إن إقبال النبي (ﷺ) على رعي الأغنام لقصد كسب القوت والرزق يشير إلى دلائل هامة في شخصيته المباركة منها؛ الذوق الرفيع والإحساس الدقيق اللذان جمّل الله (تعالى) بها نبيه (ﷺ). لقد كان عمّه يحوطه بالعناية التامة، وكان له في الحنو والشفقة كالأب الشفوق، ولكنه (ﷺ) ما إن آنس في نفسه القدرة على الكسب حتى أقبل يكتسب، ويتعب نفسه لمساعدة عمه في مؤونة الإنفاق وهذا يدل على شهامة في الطبع، وبرّ في المعاملة، وبذل للوسع[٢٠٨]، والدلالة الثانية تتعلق ببيان نوع الحياة التي يرتضيها الله (تعالى) لعباده الصالحين في دار الدنيا، لقد كان سهلاً على الله أن يهيئ للنبي (ﷺ)، وهو في صدر حياته، من أسباب الرفاهية ووسائل العيش ما يغنيه عن الكدح ورعاية الأغنام سعيًا وراء الرزق.

ولكن الحكمة الربانية تقتضي منا أن نعلم أن خير مال الإنسان ما اكتسبه بكدّ يمينه ولقاء ما يقدمه من الخدمة لمجتمعه وبني جنسه، وشر المال ما أصابه الإنسان وهو مستلق على ظهره دون أن يرى أي تعب في سبيله، ودون أن يبذل أي فائدة للمجتمع في مقابله[٢٠٩].

سابعًا: حفظ الله (تعالى) لنبيه قبل البعثة:

إن الله (تعالى) صان نبيه (ﷺ) عن شرك الجاهلية وعبادة الأصنام روى الإمام أحمد في مسنده عن هشام بن عروة عن أبيه قال: حدثني جار لخديجة أنه سمع النبي (ﷺ) وهو يقول لخديجة: أي خديجة والله لا أعبد اللات والعزى. قال: كان صنمهم التي كانوا يعبدون ثم يضطجعون[٢١٠]، وكان لا يأكل ما ذبح على النصب، ووافقه في ذلك زيد بن عمرو بن نفيل[٢١١].

وقد حفظه الله (تعالى) في شبابه من نزعات الشباب ودواعيه التي تنزع إليها الشبوبية بطبعها ولكنها لا تلائم وقار الهداة وجلال المرشدين[٢١٢]، فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: **«ما هممت بقبيح مما كان أهل الجاهلية يهمون به، إلا مرتين من الدهر، كلتيهما يعصمني الله منهما، قلت ليلة لفتى كان معي من قريش بأعلى مكة في أغنام أهله يرعاها: أبصر إلي غنمي حتى أسمر هذه الليلة بمكة، كما يسهر الفتيان، قال: نعم، فخرجت، فجئت أدنى دار من دور مكة، سمعت غناء، وضرب دفوف، ومزامير، فقلت: ما هذا؟ فقالوا: فلان تزوج فلانة، لرجل من قريش تزوج امرأة من قريش، فلهوت**

(٢٠٧) انظر: فقه السيرة للبوطي ص٥٠.
(٢٠٨) نفس المصدر ص٥٠.
(٢٠٩) انظر: فقه السيرة للبوطي ص٥٠.
(٢١٠) انظر: وقفات تربوية، أحمد فريد ص٥١.
(٢١١) نفس المصدر ص٥١.
(٢١٢) انظر: محمد رسول الله، محمد عرجون (١/١٩٣).

بذلك الغناء وبذلك الصوت حتى غلبتني عيني، فما أيقظني إلا حر الشمس فرجعت فقال: ما فعلت؟ فأخبرته. ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك، ففعل، فخرجت، فسمعت مثل ذلك، فقيل لي مثل ما قيل لي، فلهوت بما سمعت حتى غلبتني عيني، فما أيقظني إلا مس الشمس، ثم رجعت إلى صاحبي فقال: فما فعلت؟ قلت: ما فعلت شيئًا. قال رسول الله (ﷺ): «فوالله ما هممت بعدها بسوء مما يعمل أهل الجاهلية حتى أكرمني الله بنبوته»[٢١٣].

وهذا الحديث يوضح لنا حقيقتين كل منهما على جانب كبير من الأهمية:

١- أن النبي (ﷺ) كان متمتعًا بخصائص البشرية كلها، وكان يجد في نفسه ما يجده كل شاب من مختلف الميولات الفطرية التي اقتضت حكمة الله أن يجبل الناس عليها، فكان يحس بمعنى السمر واللهو ويشعر بما في ذلك من متعة، وتحدثه نفسه لو تمتع بشيء من ذلك كما يتمتع الآخرون.

٢- أن الله (عز وجل) قد عصمه مع ذلك عن جميع مظاهر الانحراف وعن كل ما لا يتفق مع مقتضيات الدعوة التي هيأه الله لها[٢١٤].

ثامنًا: لقاء الراهب بحيرا بالرسول وهو غلام:

خرج أبو طالب إلى الشام، وخرج معه النبي (ﷺ) في أشياخ من قريش، فلما أشرفوا[٢١٥] على الراهب[٢١٦]، هبطوا فحلوا رحالهم[٢١٧]، فخرج إليهم الراهب، وكانوا قبل ذلك يسيرون، فلا يخرج إليهم، ولا يلتفت.

فبينما هم يحلون رحالهم جعل الراهب يتخللهم[٢١٨] حتى جاء فأخذ بيد رسول الله (ﷺ) قال: هذا سيد العالمين، هذا رسول رب العالمين يبعثه الله رحمة للعالمين، فقال له أشياخ من قريش: ما علمك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خر[٢١٩] ساجدًا، ولا يسجدان إلا لنبيّ، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف[٢٢٠] كتفه مثل التفاحة.

ثم رجع فصنع لهم طعامًا، فلما أتاهم به، وكان هو في رعية الإبل[٢٢١] قال: أرسلوا إليه، فأقبل وعليه غمامة[٢٢٢] تظله، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة،

---

(٢١٣) صحيح السيرة النبوية ، إبراهيم العلي ص٥٧ .

(٢١٤) انظر: فقه السيرة النبوية للبوطي ص٥٠ ، ٥١ .

(٢١٥) أشرفوا: طلعوا .

(٢١٦) الرهب: زاهد النصارى .

(٢١٧) حلو رحالهم: أي أنزلوها وفتحوها .

(٢١٨) يتخللهم: يمشي بينهم .

(٢١٩) خر: سقط .

(٢٢٠) الغضروف: رأس لوح الكتف . (٢٢١) رعية الإبل: رعايتها .

(٢٢٢) غمامة: السحابة .

فلما جلس مال فيء الشجرة[٢٢٣] عليه، فقال: انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه.

قال: فبينما هو قائم عليهم، وهو يناشدهم[٢٢٤] ألا يذهبوا به إلى الروم فإن الروم إذا عرفوه بالصفة فيقتلونه، فالتفت فإذا سبعة قد أقبلوا من الروم، فاستقبلهم، فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: جاءنا أن هذا النبي خارج في هذا الشهر، فلم يبق طريق إلا بعث إليه بأناس، وإنا قد أخبرنا خبره، بعثنا إلى طريقك هذا، فقال: هل خلفكم أحد هو خير منكم؟

قالوا: إنما اخترنا خيره لك لطريقك هذا، قال: أفرأيتم أمرًا أراد الله أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس رده؟ قالوا: لا. قال: فبايعوه وأقاموا معه.

قال: أنشدكم الله أيكم وليه[٢٢٥] ؟ قالوا: أبو طالب فلم يزل يناشده حتى رده أبو طالب[٢٢٦].

ومما يستفاد من قصة بحيرا عدة أمور منها:

١- أن الصادقين من رهبان أهل الكتاب يعلمون أن محمدًا (ﷺ) هو الرسول للبشرية، وعرفوا ذلك لما وجدوه من أمارات وأوصاف عنه في كتبهم.

٢- إثبات سجود الشجر والحجر للنبي (ﷺ)، وتظليل الغمام له وميل فيء الشجرة عليه.

٣- أن النبي (ﷺ) استفاد من سفره وتجواله مع عمه وبخاصة من أشياخ قريش، حيث اطلع على تجارب الآخرين وخبرتهم، والاستفادة من آرائهم، فهم أصحاب خبرة، ودراية، وتجربة لم يمر بها النبي (ﷺ) في سنه تلك.

٤- حذر بحيرا من النصارى، وبين أنهم إذا علموا بالنبي (ﷺ) أنهم سيقتلونه وناشد عمه وأشياخ مكة ألا يذهبوا به إلى الروم، فإن الروم إذا عرفوه بالصفة يقتلونه، لقد كان الرومان على علم بأن مجيء هذا الرسول سيقضي على نفوذهم الاستعماري في المنطقة، ومن ثم فهو العدو الذي سيقضي على مصالح دولة روما، ويعيد هذه المصالح إلى أربابها، وهذا ما يخشاه الرومان.

تاسعًا: حرب الفجار:

اندلعت هذه الحرب بين قريش ومن معهم من كنانة وبين هوازن وسببها أن عروة الرحّال ابن عتبة بن هوازن أجار لطيمة[٢٢٧] للنعمان بن المنذر إلى سوق عكاظ. فقال البرّاض بن قيس بن كنانة: أتجيرها على كنانة؟ قال: نعم، وعلى الخلق فخرج بها عروة، وخرج البراض

---

(٢٢٣) مال فيء الشجرة عليه: مال ظلها.

(٢٢٤) يناشدهم: يقسم عليهم.

(٢٢٥) أيكم وليه: قريبه.

(٢٢٦) انظر: صحيح السيرة النبوية ص٥٨، ٥٩.

(٢٢٧) اللطيمة: الجمال التي تحمل الطيب والبز والتجارة.

يطلب غفلته حتى قتله، وعلمت بذلك كنانة فارتحلوا وهوازن لا تشعر بهم. ثم بلغهم الخبر، فاتبعوهم، فأدركوهم قبل أن يدخلوا الحرم، فاقتتلوا حتى جاء الليل ودخلوا الحرم، فأمسكت عنهم هوازن. ثم التقوا بعد هذا اليوم أيامًا وعاونت قريش كنانة[٢٢٨] وشهد محمد (ﷺ) بعض أيامهم، أخرجه أعمامه معهم.

وسميت يوم الفجار بسبب ما استحل فيه من حرمات مكة التي كانت مقدسة عند العرب[٢٢٩].

وقد قال (ﷺ) عن تلك الحرب: **«كنت أُنبِّل على أعمامي»**. أي أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها[٢٣٠].

وكان (ﷺ) حينئذ ابن أربع عشرة أو خمس عشرة سنة، وقيل ابن عشرين، ويرجح الأول أنه كان يجمع النبال، ويناولها لأعمامه، مما يدل على حداثة سنه.

وبذلك اكتسب الجرأة والشجاعة، والإقدام، وتمرن على القتال منذ ريعان شبابه، وهكذا انتهت هذه الحرب التي كثيرًا ما تشبه حروب العرب، حتى ألف الله بين قلوبهم، وأزاح عنهم هذه الضلالات بانتشار نور الإسلام بينهم[٢٣١].

عاشرًا: حلف الفضول:

كان حلف الفضول بعد رجوع قريش من حرب الفجار، وسببه أن رجلاً من زبيد[٢٣٢] قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل، ومنعه حقه فاستعدى عليه الزبيدي أشراف قريش، فلم يعينوه لمكانة العاص فيهم، فوقف عند الكعبة واستغاث بآل فهر وأهل المروءة ونادى بأعلى صوته:

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ... ببطن مكة نائي الدار والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته ... يا للرجال وبين الحجر والحَجَر
إن الحرام لمن تمت كرامته ... ولا حرام لثوب الغادر الفجر[٢٣٣]

فقام الزبير بن عبد المطلب فقال: ما لهذا مترك. فاجتمعت بنو هاشم، وزهرة، وبنو تَيْم ابن مرة في دار عبد الله بن جُدْعان فصنع لهم طعامًا، وتحالفوا في شهر حرام، وهو ذو القعدة، فتعاقدوا وتحالفوا بالله ليكونُنّ يدًا واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يُرد إليه حقه ما بلّ بحر صوفة، وما بقي جَبَلاً ثبير وحراء مكانهما[٢٣٤].

(٢٢٨) قريش فرع من كنانة.
(٢٢٩) وقفات تربوية مع السيرة النبوية ص٥٣.
(٢٣٠) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٢١-٢٢٤) السيرة الحلبية (١/ ١٢٧-١٢٩).
(٢٣١) انظر: وقفات تربوية ص٥٣.
(٢٣٢) زبيد: بلد باليمن.
(٢٣٣) انظر: الروض الأنف للسهيلي (١/ ١٥٥، ١٥٦).
(٢٣٤) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٢١٣).

ثم مشوا إلى العاص بن وائل، فانتزعوا منه سلعة الزبيدي، فدفعوها إليه.

وسمّت قريش هذا الحلف حلف الفضول، وقالوا: لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر.

وفي هذا الحلف قال الزبير بن عبد المطلب:

إن الفضول تعاقدوا وتحالفوا ... ألا يقيم ببطن مكة ظالم

أمر عليه تعاقدوا وتواثقوا ... فالجار والمعتر[٢٣٥] فيهم سالم

وقد حضر هذا الحلف النبي (ﷺ) الذي هدموا به صرح الظلم، ورفعوا به منار الحق، وهو يعتبر من مفاخر العرب وعرفانهم لحقوق الإنسان[٢٣٦] وقد قال (ﷺ): **«شهدت حلف المطيبين مع عمومتي وأنا غلام، فما أحب أن لي حمر النعم، وأني أنكثه»**[٢٣٧].

وقال (ﷺ): **«لقد شهدت في دار عبد الله بن جُدعان حلفًا ما أحب أن لي به حمر النّعم، ولو دعيت به في الإسلام لأجبت»**[٢٣٨].

دروس وعبر وفوائد:

١- إن العدل قيمة مطلقة وليست نسبية، وأن الرسول (ﷺ) يظهر اعتزازه بالمشاركة في تعزيز مبدأ العدل قبل بعثته بعقدين، فالقيم الإيجابية تستحق الإشادة بها حتى لو صدرت من أهل الجاهلية[٢٣٩].

٢- كان حلف الفضول واحة في ظلام الجاهلية وفيه دلالة بينة على أن شيوع الفساد في نظام أو مجتمع لا يعني خلوه من أي فضيلة، فمكة مجتمع جاهلي هيمنت عليه عبادة الأوثان والمظالم والأخلاق الذميمة كالظلم والزنا والربا ومع هذا كان فيه رجال أصحاب نخوة ومروءة يكرهون الظلم ولا يقرونه وفي هذا درس عظيم للدعاة في مجتمعاتهم التي لا تحكم الإسلام، أو تحارب الإسلام[٢٤٠].

٣- إن الظلم مرفوض بأي صورة، ولا يشترط الوقوف ضد الظالمين فقط عندما ينالون من الدعاة إلى الله، بل مواجهة الظالمين قائمة، ولو وقع الظلم على أقل الناس[٢٤١] إن الإسلام يحارب الظلم ويقف بجانب المظلوم دون النظر إلى لونه ودينه ووطنه وجنسه[٢٤٢].

٤- جواز التحالف والتعاهد على فعل الخير وهو من قبيل التعاون المأمور به في القرآن

---

(٢٣٥) المعتر: الزائر من غير البلاد.

(٢٣٦) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٢١٤).

(٢٣٧) صحيح السيرة النبوية، إبراهيم العلي ص٥٩ وصححه الألباني رحمه الله.

(٢٣٨) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٣٤) فقه السيرة للغضبان ص١٠٢.

(٢٣٩) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ١١٢).

(٢٤٠) انظر: فقه السيرة النبوية للغضبان ص١١٠.

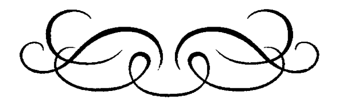
(٢٤١) انظر: فقه السيرة للغضبان ص١١٠.

(٢٤٢) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس ص١٢١.

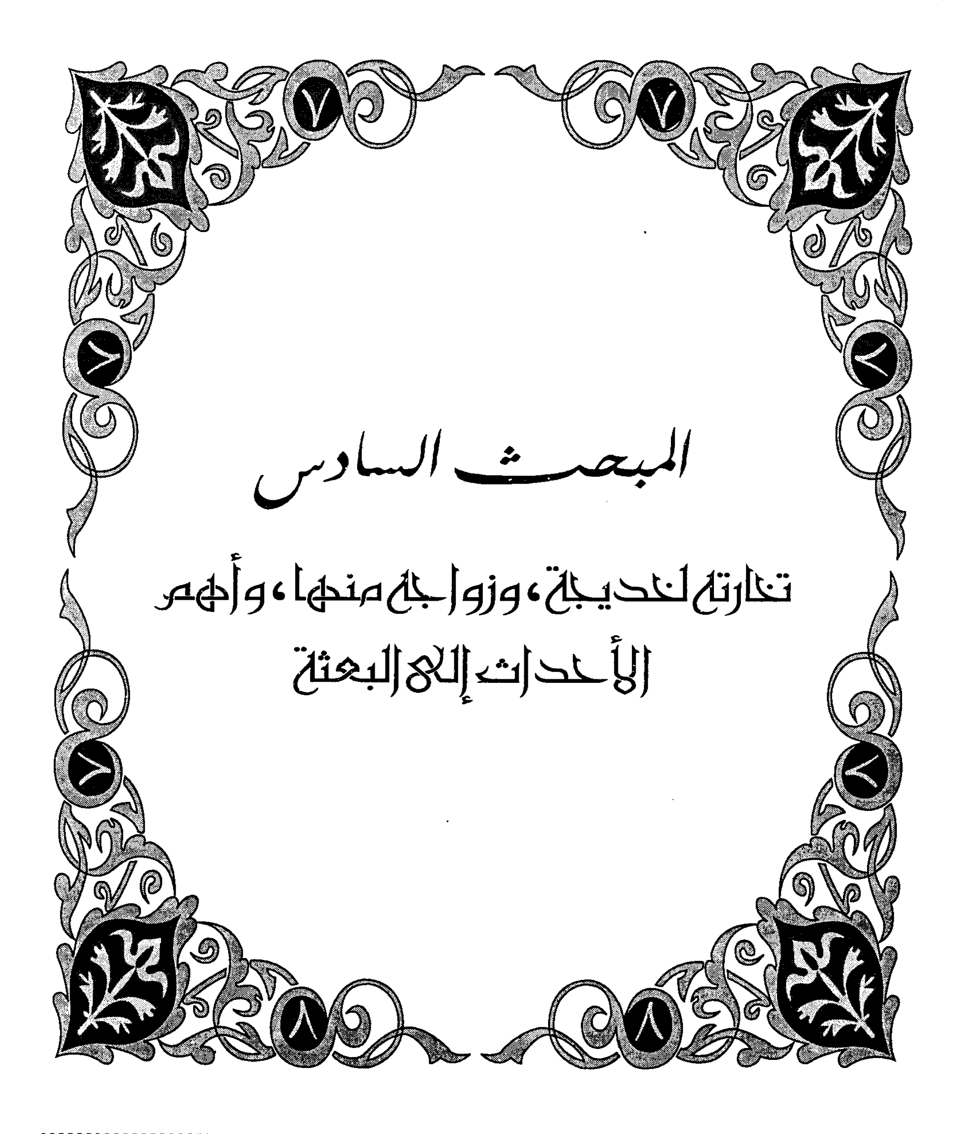
الكريم قال (تعالى): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (سورة المائدة، آية: ٢).
ويجوز للمسلمين أن يتعاقدوا في مثل هذا الحال، لأنه تأكيد لشيء مطلوب شرعًا، على ألا يكون ذلك شبيهًا بمسجد الضرار، بحيث يتحول التعاقد إلى نوع من الحزبية الموجهة ضد مسلمين آخرين ظلمًا وبغيًا، وأما تعاقد المسلمين مع غيرهم على دفع ظلم أو في مواجهة ظالم، فذلك جائز لهم، على أن تلحظ في ذلك مصلحة الإسلام والمسلمين في الحاضر والمستقبل، وفي هذا الحديث دليل[٢٤٣].

والدليل فيه قوله (ﷺ): «**ما أحب أن لي به حمر النعم**»[٢٤٤] لما يحقق من عدل، ويمنع من ظلم، أو النكث به مقابل حمر النعم. وقوله (ﷺ): «**ولو دعيت به في الإسلام لأجبت**»[٢٤٥] طالما أنه يردع الظالم عن ظلم وقد بين (ﷺ) استعداده للإجابة بعد الإسلام لمن ناداه بهذا الحلف[٢٤٦].

٥- وعلى المسلم أن يكون في مجتمعه إيجابيًا فاعلاً، لا أن يكون رقمًا من الأرقام على هامش الأحداث في بيئته ومجتمعه، فقد كان النبي (ﷺ) محط أنظار مجتمعه، وصار مضرب المثل فيهم، حتى ليلقبوه بالأمين وتهفوا إليه قلوب الرجال والنساء على السواء، بسبب الخلق الكريم الذي حبا الله (تعالى) به نبيه (ﷺ)، وما زال يزكو وينمو حتى تعلقت قلوب قومه وهذا يعطينا صورة حية عن قيمة الأخلاق في المجتمع، وعن احترام صاحب الخلق ولو في المجتمع المنحرف[٢٤٧].



(٢٤٣) انظر: الأساس في السنة وفقه السيرة النبوية (١/ ١٧١، ١٧٢).
(٢٤٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٣٤).
(٢٤٥) نفس المصدر.
(٢٤٦) انظر: الأساس في السنة (٤/ ١٧٢).
(٢٤٧) انظر: فقه السيرة للغضبان ص١١٠، ١١١.



المبحث السادس

تجارته لخديجة، وزواجه منها، وأهم الأحداث إلى البعثة

أولاً: تجارته لخديجة وزواجه منها:

كانت خديجة بنت خويلد رضي الله عنها أرملة[٢٤٨] ذات شرف ومال، تستأجر الرجال ليتجروا بمالها، فلما بلغها عن محمد صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه عرضت عليه أن يخرج في مالها إلى الشام تاجرًا وتعطيه أفضل ما تعطي غيره من التجار، فقبل وسافر معه غلامها ميسرة، وقدما الشام، وباع محمد سلعته التي خرج بها، واشترى ما أراد من السلع، فلما رجع إلى مكة وباعت خديجة ما أحضره لها تضاعف مالها.

وقد حصل محمد (ﷺ) في هذه الرحلة على فوائد عظيمة ـ بالإضافة إلى الأجر الذي ناله ـ إذ مر بالمدينة التي هاجر إليها من بعد وجعلها مركزًا لدعوته، وبالبلاد التي فتحها ونشر فيها دينه، كما كانت رحلته سببًا لزواجه من خديجة بعد أن حدثها ميسرة عن سماحته وصدقه وكريم أخلاقه[٢٤٩]، ورأت خديجة في مالها البركة ما لم تر قبل هذا وأخبرت بشمائله الكريمة ووجدت ضالتها المنشودة فتحدثت بما في نفسها إلى صديقتها نفيسة بنت منبه، وهذه ذهبت إليه تفاتحه أن يتزوج خديجة[٢٥٠] فرضي بذلك وعرض ذلك على أعمامه، فوافقوا كذلك، وخرج معه عمه حمزة بن عبد المطلب فخطبها إليه وتزوجها رسول الله (ﷺ) وأصدقها عشرين بكرة، وكانت أول امرأة تزوجها رسول الله (ﷺ)، ولم يتزوج غيرها حتى ماتت رضي الله عنها[٢٥١]، وقد ولدت لرسول الله (ﷺ) غلامين وأربع بنات. وابناه هما:

القاسم، و به كان (ﷺ) يكنى وعبد الله، ويلقب الطاهر والطيب.

وقد مات القاسم بعد أن بلغ سنًا تمكنه من ركوب الدابة، ومات عبد الله وهو طفل، وذلك قبل البعثة أما بناته فهن: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة. وقد أسلمن وهاجرن إلى المدينة وتزوجن[٢٥٢]. هذا وقد كان عمر الرسول (ﷺ) حين تزوج خديجة رضي الله عنها خمسًا وعشرين سنة وكان عمرها أربعين سنة[٢٥٣].

دروس وعبر وفوائد:

١- إن الأمانة والصدق أهم مواصفات التاجر-الناجح، وصفة الأمانة والصدق في التجارة في شخصية النبي (ﷺ) هي التي رغبت السيدة خديجة في أن تعطيه مالها ليتاجر به ويسافر به إلى الشام، فبارك الله لها في تجارتها وفتح الله لها من أبواب الخير ما يليق بكرم الكريم.

---

(٢٤٨) تزوجها عتيق بن عائذ ثم مات عنها ، فتزوجها أبو هالة ومات أيضًا .

(٢٤٩) انظر: رسالة الأنبياء ، عمر أحمد عمر (٣/ ٢٧) .

(٢٥٠) انظر: مواقف تربوية ص٥٦ .

(٢٥١) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس ص١٢٢ .

(٢٥٢) انظر: رسالة الأنبياء (٣/ ٢٨) .

(٢٥٣) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس ص١٢٢ .

٢- إن التجارة مورد من موارد الرزق التي سخرها الله لرسوله (ﷺ) قبل البعثة وقد تدرب النبي (ﷺ) على فنونها، وقد بين النبي (ﷺ) أن التاجر الصدوق الأمين في هذا الدين يُحشر مع الصديقين والشهداء والنبيين، وهذه المهنة مهمة للمسلمين ولا يقع صاحبها تحت إرادة الآخرين واستعبادهم وقهرهم، وإذلالهم فهو ليس بحاجتهم بل هم في حاجة إليه وبحاجة إلى خبرته وأمانته وعفته.

٣- كان زواج الحبيب المصطفى للسيدة خديجة بتقدير الله (تعالى)، ولقد اختارالله (سبحانه وتعالى) لنبيه زوجة تناسبه وتؤازره، وتُخفف عنه ما يصيبه، وتعينه على حمل تكاليف الرسالة وتعيش همومه[٢٥٤].

قال الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله -: وخديجة مثل طيب للمرأة التي تكمل حياة الرجل العظيم، إن أصحاب الرسالات يحملون قلوبًا شديدة الحساسية، ويلقون غُبنًا بالغًا من الواقع الذي يريدون تغييره، ويقاسون جهادًا كبيرًا في سبيل الخير الذي يريدون فرضه، وهم أحوج ما يكونون إلى من يتعهد حياتهم الخاصة بالإيناس والترفيه، وكانت خديجة سباقة إلى هذه الخصال، وكان لها في حياة محمد (ﷺ) أثر كريم[٢٥٥].

٤- نرى أن النبي (ﷺ) ذاق مرارة فقد الأبناء، كما ذاق من قبل مرارة فقد الأبوين، وقد شاء الله - وله الحكمة البالغة - ألا يعيش له (ﷺ) أحد من الذكور حتى لا يكون مدعاة لافتتان بعض الناس بهم، وادّعائهم لهم النبوة، فأعطاه الذكور تكميلاً لفطرته البشرية، وقضاء لحاجات النفس الإنسانية، ولئلا يتنقّص النبي في كمال رجولته شانئ، أو يتقوّل عليه متقول، ثم أخذهم في الصغر، وأيضًا ليكون ذلك عزاء وسلوى للذين لا يُرزقون البنين، أو يُرزقون ثم يموتون، كما أنه لون من ألوان الابتلاء، وأشد الناس بلاءً الأنبياء[٢٥٦]، وكأن الله أراد للنبي (ﷺ) أن يجعل الرقة الحزينة جزءًا من كيانه: فإن الرجال الذين يسوسون الشعوب لا يجنحون إلى الجبروت إلا إذا كانت نفوسهم قد طبعت على القسوة والأثرة وعاشت في أفراح لا يخامرها كدر، أما الرجل الذي خبر الآلام فهو أسرع الناس إلى مواساة المحزونين ومداواة المجروحين[٢٥٧].

٥- يتضح للمسلم من خلال قصة زواج النبي (ﷺ) من السيدة خديجة، عدم اهتمام النبي (ﷺ) بأسباب المتعة الجسدية ومكملاتها، فلو كان مهتمًا بذلك كبقية الشباب لطمع بمن هي أقل منه سنًا أو بمن لا تفوقه في العمر، وإنما رغب النبي (ﷺ) لشرفها ومكانتها في قومها، فقد كانت تلقب في الجاهلية بالعفيفة الطاهرة.

٦- وفي زواج النبي (ﷺ) من السيدة خديجة ما يلجم ألسنة الحاقدين، وأقلام الحاقدين

(٢٥٤) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ١٢٢، ١٢٣).
(٢٥٥) انظر: فقه السيرة للغزالي ص٧٥.
(٢٥٦) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٢٢٣، ٢٢٤).
(٢٥٧) انظر: فقه السيرة، للغزالي ص٧٨.

على الإسلام وقوة سلطانه من المستشرقين وعبيدهم العلمانيين الذين ظنوا أنهم وجدوا في موضوع زواج النبي (ﷺ) مقتلاً يصاب منه الإسلام، وصوّروا النبي (ﷺ) في صورة الرجل الشهواني الغارق في لذاته وشهواته، فنجد أن النبي (ﷺ) عاش إلى الخامسة والعشرين من عمره في بيئة جاهلية، عفيف النفس، دون أن ينساق في شيء من التيارات الفاسدة التي تموج حوله، كما أنه تزوج من امرأة لها ما يقارب ضعف عمره، وعاش معها دون أن تمتد عينه إلى شيء مما حوله، وإن من حوله الكثير وله إلى ذلك أكثر من سبيل، إلى أن يتجاوز مرحلة الشباب، ثم الكهولة، ويدخل في سن الشيوخ، وقد ظل هذا الزواج قائمًا حتى توفيت خديجة عن خمسة وستين عامًا، وقد ناهز النبي (ﷺ) الخمسين من العمر دون أن يفكر خلالها بالزواج بأي امرأة أخرى، وما بين العشرين والخمسين من عمر الإنسان هو الزمن الذي تتحرك فيه رغبة الاستزادة من النساء والميل إلى تعدد الزوجات للدوافع الشهوانية.

ولكن النبي (ﷺ) لم يفكر في هذه الفترة بأن يضم إلى خديجة مثلها من النساء: زوجة أو أمة، ولو أراد لكان الكثير من النساء والإماء طوع بنانه.

أما زواجه بعد ذلك من السيدة عائشة وغيرهن من أمهات المؤمنين، فإن لكل منهن قصة، ولكل زواج حكمة وسبب يزيدان في إيمان المسلم بعظمة محمد (ﷺ) ورفعة شأنه وكمال أخلاقه[٢٥٨].

ثانيًا: اشتراكه في بناء الكعبة الشريفة:

لما بلغ محمد (ﷺ) خمسًا وثلاثين سنة اجتمعت قريش لتجديد بناء الكعبة لما أصابها من حريق وسيل جارف صدّع جدرانها. وكانت لا تزال كما بناها إبراهيم عليه السلام رضمًا[٢٥٩] فوق القامة، فأرادوا هدمها ليرفعوها ويسقفوها ولكنهم هابوا هدمها، وخافوا منه، فقال الوليد بن المغيرة أنا أبدؤكم في هدمها، فأخذ المعول، ثم قام عليها وهو يقول: اللهم لم نزغ، ولا نريد إلا الخير.

وهدم من ناحية الركنين: فتربص الناس تلك الليلة وقالوا: ننظر، فإن أصيب لم نهدم منها شيئًا، ورددناها كما كانت، وإن لم يصبه شيء فقد رضي الله ما صنعنا، فأصبح الوليد غاديًا يهدم، وهدم الناس معه حتى انتهوا إلى حجارة خضرة كالأسنمة[٢٦٠] آخذ بعضها ببعض.

وكانوا قد جزؤوا العمل وخصوا كل قبيلة بناحية واشترك سادة قريش وشيوخها في نقل الحجارة ورفعها، وقد شارك النبي (ﷺ) وعمه العباس في بناء الكعبة وكانا ينقلان الحجارة. فقال العباس للنبي (ﷺ): اجعل إزارك على رقبتك يقيك من الحجارة، فخر إلى الأرض[٢٦١]، وطمحت عيناه إلى السماء ثم أفاق فقال: «**إزاري إزاري**»، فشد عليه

(٢٥٨) انظر: فقه السيرة النبوية للبوطي ص٥٣، ٥٤.
(٢٥٩) الرضم: حجارة منضودة بعضها على بعض من غير طين.
(٢٦٠) جمع سنام وهو أعلى ظهر البعير. (٢٦١) ففعل ذلك فوقع.

إزاره(٢٦١) فلما بلغوا موضع الحجر الأسود اختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، وكادوا يقتتلون فيما بينهم، لولا أن أبا أمية بن المغيرة قال: يا معشر قريش! اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب المسجد. فلما توافقوا على ذلك دخل محمد (ﷺ) فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، قد رضينا فلما أخبروه الخبر قال: هلموا ثوبًا. فأتوه به. فوضع الركن فيه بيديه، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوا جميعًا. فرفعوه، حتى إذا بلغوا موضعه وضعه بيده ثم بنى عليه.

وأصبح ارتفاع الكعبة ثمانية عشر ذراعًا ورفع بابها عن الأرض بحيث يصعد إليه بدرج، لئلا يدخل إليها كل أحد، فيدخلوا من شاؤوا، وليمنعوا الماء من الشرب إلى جوفها، وأسند سقفها إلى ستة أعمدة من الخشب، إلا أن قريشًا قصرت بها النفقة الطيبة عن إتمام البناء على قواعد إسماعيل، فأخرجوا منها الحجر، وبنوا عليه جدارًا قصيرًا دلالة على أنه منها، لأنهم شرطوا على أنفسهم ألا يدخل في بنائها إلا نفقة طيبة، ولا يدخلها مهر بغي، ولا بيع ربا، ولا مظلمة لأحد(٢٦٢).

دروس وعبر وفوائد:

١- تظهر أهمية الكعبة وقداستها عند قريش ويكفي أن باشر تأسيسها ورفع قواعدها إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام بأمر من الله (تعالى) لتكون أول بيت لعبادة الله وحده.

٢- بنيت الكعبة خلال الدهر كله أربع مرات على يقين، فأما المرة الأولى منها، فهي التي قام بأمر البناء منها إبراهيم (ﷺ) يعينه ابنه إسماعيل (ﷺ)، والثانية: فهي تلك التي بنتها قريش قبل البعثة واشترك في بنائها النبي (ﷺ)، والثالثة: عندما احترق البيت في زمن يزيد بن معاوية بفعل الحصار الذي ضربه الحصين السكوني على ابن الزبير حتى يستسلم، فأعاد ابن الزبير بناءها، وأما المرة الرابعة في زمن عبد الملك بن مروان بعد ما قتل ابن الزبير حيث أعاده على ما كان عليه زمن النبي (ﷺ)(٢٦٣)؛ لأن ابن الزبير باشر في رفع بناء البيت وزاد فيه الأذرع الستة التي أخرجت منه، وزاد في طوله إلى السماء عشرة أذرع وجعل له بابين أحدهما يدخل منه والآخر يخرج منه، وإنّما جرّأه على إدخال هذه الزيادة حديث عائشة عن رسول الله (ﷺ): **«يا عائشة، لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية، لأمرت بالبيت فهدّم، فأدخلت فيه ما أخرج منه، وألزقته بالأرض، وجعلت له بابًا شرقيًا وبابًا غربيًا فبلغت به أساس إبراهيم»**(٢٦٤).

---

(٢٦٢) رواه البخاري ، كتاب الحج رقم ١٥٨٣ .
(٢٦٣) انظر: وقفات تربوية ص٥٧ ، انظر: رسالة الأنبياء ، عمر أحمد عمر (٣/ ٢٩ ، ٣٠) .
(٢٦٤) السيرة النبوية للبوطي ص٥٧ ، ٥٨ .
(٢٦٥) البخاري ، كتاب العلم رقم ١٢٦ .

٣- طريقة فض التنازع كانت موفقة وعادلة، ورضي بها الجميع وحقنت دماء كثيرة، وأوقفت حروبًا طاحنة، وكان من عدل حكمه أن رضت به جميع القبائل ولم تنفرد بشرف وضع الحجر قبيلة دون الأخرى، وهذا من توفيق الله لرسوله وتسديده قبل بعثته. إن دخول رسول الله (ﷺ) من باب الصفا كان قدرًا من الله، لحل هذه الأزمة المستعصية، التي حلت نفسيًا قبل أن تحل على الواقع، فقد أذعن الجميع لما يرتضيه محمد (ﷺ)، فهو الأمين الذي لا يظلم وهو الأمين الذي لا يحابي ولا يفسد وهو الأمين على البيت والأرواح والدماء(٢٦٦).

٤- إن حادثة تجديد بناء الكعبة قد كشفت عن مكانة النبي (ﷺ) الأدبية في الوسط القرشي(٢٦٧)، وحصل لرسول الله (ﷺ) في هذه الحادثة شرفان، شرف فصل الخصومة ووقف القتال المتوقع بين قبائل قريش، وشرف تنافس عليه القوم وادّخره الله لنبيه (ﷺ) ألا وهو وضع الحجر الأسود بيديه الشريفتين، وأخذه من البساط بعد رفعه ووضعه في مكانه من البيت(٢٦٨).

٥- إن المسلم يجد في حادثة تجديد بناء الكعبة كمال الحفظ الإلهي وكمال التوفيق الرباني في سيرة رسول الله (ﷺ)، كما يلاحظ كيف أن الله أكرم رسوله بهذه القدرة الهائلة على حل المشكلات بأقرب طريق وأسهله، وذلك ما تراه في حياته كلها (ﷺ)، وذلك مَعلم من معالم رسالته، فرسالته إيصال للحقائق بأقرب طريق، وحل للمشكلات بأسهل أسلوب وأكمله(٢٦٩).

ومن حفظ الله لنبيه (ﷺ) في شبيبته عن أقذار الجاهلية وأدرانها، ومعائبها ما وقع له عندما كان ينقل الحجر أثناء بناء الكعبة ورفع إزاره على رقبته، فخر إلى الأرض وطمحت عيناه إلى السماء ثم أفاق: إزاري إزاري، فشد عليه إزاره، فما رؤي بعد ذلك عريانًا (ﷺ)(٢٧٠).

ثالثًا: تهيئة الناس لاستقبال نبوة محمد (ﷺ):

شاءت حكمة الله (تعالى) أن يعد الناس لاستقبال نبوة محمد (ﷺ) بأمور منها:

١- بشارات الأنبياء بمحمد (ﷺ):

دعا إبراهيم عليه السلام ربه أن يبعث في العرب رسولاً منهم، فأرسل محمدًا إجابة لدعوته، قال (تعالى): ﴿ **رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ** ﴾ (سورة البقرة: ١٢٩) وذكر القرآن الكريم أن الله (تعالى) أنزل البشارة بمبعث محمد (ﷺ) في الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء السابقين

---

(٢٦٦) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس ص١٢٥ .

(٢٦٧) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ١١٦) .

(٢٦٨) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس ص١٢٥ ، ١٢٦ .

(٢٦٩) انظر: الأساس في السنة وفقه السيرة النبوية (١/ ١٧٥) .

(٢٧٠) البخاري ، كتاب الحج رقم ١٥٨٣ .

فقال (تعالى): ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (سورة الأعراف، الآية: ١٥٧).

وبشر به عيسى عليه السلام وأخبرنا الله (تعالى) عن بشارة عيسى قال (تعالى): ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (سورة الصف، آية: ٦).

وأعلم الله (تعالى) جميع الأنبياء ببعثته، وأمرهم بتبليغ أتباعهم بوجوب الإيمان به واتباعه إن هم أدركوه[٢٧١]، كما قال (تعالى): ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (سورة آل عمران، آية: ٨١).

وقد وقع التحريف في نسخ التوراة والإنجيل وحذف منهما التصريح باسم محمد (ﷺ) إلا توراة السامرة وإنجيل برنابا الذي كان موجودًا قبل الإسلام وحرّمت الكنيسة تداوله في آخر القرن الخامس الميلادي، وقد أيدته المخطوطات التي عثر عليها في منطقة البحر الميت حديثًا، فقد جاء في إنجيل برنابا العبارات المصرحة باسم النبي محمد (ﷺ) مثل ما جاء في الإصحاح الحادي والأربعين منه ونص العبارة: ([٢٩] فاحتجب الله وطردهما الملاك ميخائيل من الفردوس [٣٠] فلما التفت آدم رأى مكتوبًا فوق الباب: لا إله إلا الله محمد رسول الله)[٢٧٢].

قال ابن تيمية: (والأخبار بمعرفة أهل الكتاب بصفة محمد (ﷺ) عندهم في الكتب المتقدمة متواترة عنهم) ثم قال: (ثم العلم بأن الأنبياء قبله بشّروا به يعلم من وجوه: أحدهما: ما في الكتب الموجودة اليوم بأيدي أهل الكتاب.

الثاني: إخبار من وقف على تلك الكتب ممن أسلم وممن لم يسلم بما وجدوه من ذكره بها. وهذا مثل ما تواتر عن الأنصار أن جيرانهم من أهل الكتاب كانوا يخبرون بمبعثه وأنه رسول الله وأنه موجود عندهم، وكانوا ينتظرونه، وكان هذا من أعظم ما دعا الأنصار إلى الإيمان به لما دعاهم إلى الإسلام حتى آمن الأنصار به وبايعوه[٢٧٣].

فمن حديث سلمة بن سلامة بن وقش رضي الله عنه، وكان من أصحاب بدر قال: (كان لنا جار من يهود في بني عبد الأشهل قال: فخرج علينا يومًا من بيته قبل مبعث النبي

---

(٢٧١) انظر: دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ص١٠١، ١٠٢.

(٢٧٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١١٨/١).

(٢٧٣) انظر: الجواب الصحيح لابن تيمية (١/ ٣٤٠).

(ﷺ) بيسير، فوقف على مجلس عبد الأشهل، قال سلمة: وأنا يومئذ أحدث من فيه سنًا عليّ بردة مضطجعًا فيها بفناء أهلي فذكر البعث والقيامة والحساب والميزان والجنة والنار، فقال ذلك القوم وكانوا أهل شرك وأصحاب أوثان، لا يرون أن بعثًا كائن بعد الموت.

فقالوا له: ويحك يا فلان، ترى هذا كائنًا أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار، ويجزون فيها بأعمالهم؟ قال: نعم، والذي يُحلف به وَلَوَدَّ أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور[٢٧٤] في الدنيا يحمونه، ثم يدخلونه إياه، فيطبق به عليه[٢٧٥] وأن ينجو من تلك النار غدًا.

قالوا له: ويحك، وما آية ذلك؟ قال: نبي يبعث من نحو هذه البلاد وأشار بيده نحو مكة واليمن.

قالوا: ومتى نراه؟ قال: فنظر إليّ -وأنا من أحدثهم سنًا- فقال: إن يستنفذ هذا الغلام عمره يدركه.

قال سلمة: (فوالله ما ذهب الليل والنهار، حتى بعث الله (تعالى) رسوله (ﷺ)، وهو حيٌّ بين أظهرنا، فآمنا به، وكفر به بغيًا وحسدًا فقلنا: ويلك يا فلان: ألست بالذي قلت لنا فيه ما قلت؟ قال: بلى: وليس به)[٢٧٦].

وقد ذكر ابن تيمية رحمه الله: (قد رأيت أنا من نسخ الزبور ما فيه تصريح نبوة محمد (ﷺ) باسمه، ورأيت نسخة أخرى بالزبور فلم أر ذلك فيها، وحينئذ فلا يمتنع أن يكون في بعض النسخ من صفات النبي (ﷺ) ما ليس في أخرى)[٢٧٧].

وقد ذكر عبد الله بن عمرو رضي الله عنه صفة رسول الله (ﷺ) في التوراة فقال: ... والله إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن: (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، وحرزًا للأميين[٢٧٨]، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق[٢٧٩]، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء[٢٨٠] بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح به أعينًا عميًا، وآذانًا صمًا، وقلوبًا غلفًا)[٢٨١].

---

(٢٧٤) التنور: الفرن.
(٢٧٥) يطبق عليه: يغلق عليه.
(٢٧٦) صحيح السيرة النبوية، إبراهيم العلي ص٣١.
(٢٧٧) الجواب الصحيح (١/ ٣٤٠).
(٢٧٨) حرزًا للأميين: حفاظًا لهم.
(٢٧٩) السخاب: رفع الصوت بالخصام.
(٢٨٠) العوجاء: ملة إبراهيم التي غيرتها العرب عن استقامتها.
(٢٨١) البخاري، كتاب التفسير رقم ٤٨٣٨.

ومن حديث كعب الأحبار قال: (إني أجد في التوراة مكتوبًا: محمد رسول الله، لا فظ ولا غليظ، ولا سخّاب في الأسواق، ولا يجزي السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، أمته الحمادون، يحمدون الله في كل منزلة، ويكبّرونه على كل نجد، يأتزرون إلى أنصافهم، ويوضئون أطرافهم صفهم في الصلاة، وصفهم في القتال سواء، مناديهم ينادي في جو السماء، لهم في جوف الليل دوي كدوي النحل، مولده بمكة، ومهجره بطابة، وملكه بالشام)[٢٨٢].

٢- بشارات علماء أهل الكتاب بنبوته:

أخبر سلمان الفارسي رضي الله عنه في قصة إسلامه المشهورة عن راهب عمورية حين حضرته المنية قال لسلمان: (إنه قد أظل زمان نبي مبعوث بدين إبراهيم، يخرج بأرض العرب، مهاجره إلى أرض بين حرتين بينهما نخل، به علامات لا تخفى، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل)[٢٨٣].

ثم قصّ سلمان خبر قدومه إلى المدينة واسترقاقه، ولقائه برسول الله (ﷺ) حين الهجرة، وإهدائه له طعامًا على أنه صدقة فلم يأكل منه الرسول، ثم إهدائه له طعامًا على أنه هدية وأكله منه، ثم رؤيته خاتم النبوة بين كتفيه، وإسلامه على أثر ذلك)[٢٨٤].

ومن ذلك إخبار أحبار اليهود ورجالاتها بقرب مبعثه (ﷺ)، ومن ذلك قصة أبي التيهان الذي خرج من بلاد الشام ونزل في بني قريظة ثم توفي قبل البعثة النبوية بسنتين، فإنه لما حضرته الوفاة قال لبني قريظة: يا معشر يهود، ما ترونه أخرجني من أرض الخَمْر والخَمير -الشام- إلى أرض البؤس والجوع -يعني: الحجاز-؟ قالوا: أنت أعلم، قال: إني قدمت هذه البلدة أتوكّف -أنتظر- خروج نبي قد أظلّ زمانه، وكنت أرجو أن يبعث فأتبعه.

وقد شاع حديث ذلك وانتشر بين اليهود وغيرهم حتى بلغ درجة القطع عندهم، وبناء عليه كان اليهود يقولون لأهل المدينة المنورة: إنه قد تقارب زمان نبي يُبعث الآن، نقتلكم معه قتل عاد وإرم[٢٨٥]، وكان ذلك الحديث سببًا في إسلام رجال من الأنصار وقد قالوا: (إن مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله (تعالى) وهداه، لما كنا نسمع من رجال اليهود، كنا أهل شرك أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: إنه تقارب الزمان نبي يبعث الآن، نقتلكم معه قتل عادٍ وإرم)[٢٨٦].

---

(٢٨٢) صحيح السيرة النبوية ص٣٠ .
(٢٨٣) انظر: السيرة النبوية لابن كثير (١/ ٣٠٠) .
(٢٨٤) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ١٢٢) .
(٢٨٥) انظر: دراسة تحليلية، د. محمد قلعجي ص١٠٧ .
(٢٨٦) ابن هشام بإسناد حسن (١/ ٢٣١) .

وقد قال هرقل ملك الروم عندما استلم رسالة النبي (ﷺ): (وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم)[٢٨٧].

٣- الحالة العامة التي وصل إليها الناس:

لخص الأستاذ الندوي الحال التي كان عليها العرب وغيرهم وقتذاك بقوله: كانت الأوضاع الفاسدة، والدرجة التي وصل إليها الإنسان في منتصف القرن السادس المسيحي أكبر من أن يقوم لإصلاحها مصلحون ومعلمون في أفراد الناس. فلم تكن القضية قضية إصلاح عقيدة من العقائد، أو إزالة عادة من العادات، أو قبول عبادة من العبادات، أو إصلاح مجتمع من المجتمعات، فقد كان يكفي له المصلحون والمعلمون الذين لم يخل منهم عصر ولا مصر.

ولكن القضية كانت قضية إزالة أنقاض الجاهلية، ووثنية تخريبية، تراكمت عبر القرون والأجيال، ودفنت تحتها تعاليم الأنبياء والمرسلين، وجهود المصلحين والمعلمين، وإقامة بناء شامخ مشيد البنيان، واسع الأرجاء، يسع العالم كله، ويؤوي الأمم كلها، قضية إنشاء إنسان جديد، يختلف عن الإنسان القديم في كل شيء، كأنه ولد من جديد، أو عاش من جديد قال (تعالى): **﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** (سورة الأنعام، الآية: ١٢٢).

قضية اقتلاع جرثومة الفساد واستئصال شأفة الوثنية، واجتثاثها من جذورها، بحيث لا يبقى لها عين ولا أثر، وترسيخ عقيدة التوحيد في أعماق النفس الإنسانية ترسيخًا لا يتصور فوقه، وغرس ميل إلى إرضاء الله وعبادته، وخدمة الإنسانية، والانتصار للحق، يتغلب على كل رغبة، ويقهر كل شهوة، ويجرف كل مقاومة، وبالجملة الأخذ بحجز الإنسانية المنتحرة التي استجمعت قواها للوثوب في جحيم الدنيا والآخرة، والسلوك بها على طريق أولها سعادة يحظى بها العارفون المؤمنون وآخرها جنة الخلد التي وعد المتقون، ولا تصوير أبلغ وأصدق من قوله (تعالى) في معرض المن ببعثة محمد (ﷺ)[٢٨٨]: **﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾** (سورة آل عمران، الآية: ١٠٣).

٤- إرهاصات نبوته (ﷺ):

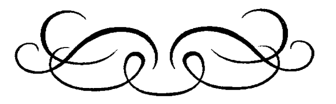
ومن إرهاصات نبوته (ﷺ) تسليم الحجر عليه قبل النبوة، فعن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله (ﷺ): «**إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه**

---

(٢٨٧) انظر: صحيح السيرة النبوية ص١٤٦ .

(٢٨٨) انظر: الأساس في السنة وفقه السيرة النبوية ، سعيد حوى (١/ ١٨٠ ، ١٨١) .

الآن)»(٢٨٩)، ومنها الرؤيا الصادقة وهي أول ما بدئ له من الوحي فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح(٢٨٩)، وحبب إليه (ﷺ) العزلة والتحنث (التعبد) فكان يخلو في غار حراء وهو جبل يقع في الجانب الشمالي الغربي من مكة، ويتعبد فيه الليالي ذوات العدد، فتارة عشرة وتارة أكثر من ذلك إلى شهر، ثم يعود إلى بيته فلا يكاد يمكث فيه قليلاً حتى يتزود من جديد لخلوة أخرى، ويعود الكرة إلى غار حراء وهكذا إلى أن جاءه الوحي وهو في إحدى خلواته تلك(٢٩٠).



(٢٨٨) مسلم في الصحيح ، كتاب الفضائل ، باب فضل نسب النبي وتسليم الحجر عليه قبل النبوة رقم ٢٢٧٧ .

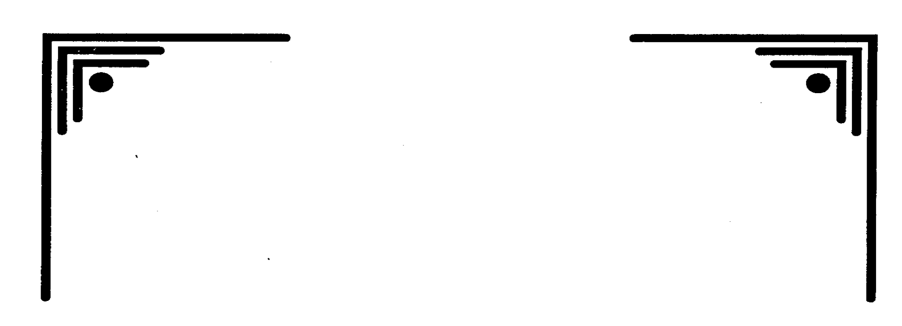
(٢٨٩) البخاري ، كتاب بدء الوحي رقم ٣ .

(٢٩٠) انظر: فقه السيرة النبوية للبوطي ص٦٠ .



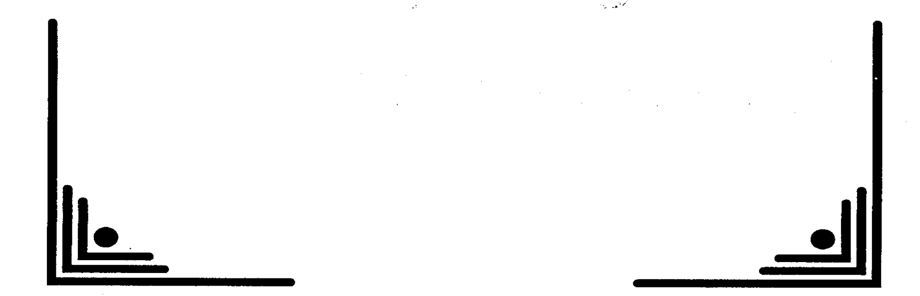
الفصل الثاني

نزول الوحي والدعوة السرية



المبحث الأول

نزول الوحي على سيد الخلق أجمعين (ﷺ)



كان عُـمر النبي (ﷺ) قد بلغ الأربعين وكان يخلو في غار حـراء بنفسه ويتفكر في هذا الكون وخالقه وكان تعبده في الغار يستغرق ليالي عديدة حتى إذا نفذ الزاد عاد إلى بيته فتزود لليالي أخرى، وفي نهار يوم الإثنين[١] من شهر رمضان جاءه جبريل بغتة لأول مرة داخل غار الحـــراء[٢]، وقد نقل البخـاري في صحيحـه حديث عائشة رضي الله عنهـا (والبخاري أبو الصحاح وكتب السنن والمسانيد وكتب التـاريخ)، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: (أول ما بدئ به رسـول الله (ﷺ) من الوحي الرؤيا الصالحـة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليـه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيـه -وهو التعبد- الليـالي ذوات العدد، قـبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يـرجع إلى خديجـة فيـتزود لمثلها، حتى جـاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقـال: اقرأ، قال: قلت: **«مـا أنا بقارئ»**. قال: فأخذني، فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني قال: اقرأ، فقلت: **«ما أنا بقارئ»**، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: **«ما أنا بقـارئ»**، فأخذني فغطني الثـالثة، ثم أرسلني فقال: **﴿اقْـرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّـذِي خَلَقَ* خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ *الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾** (سورة العلق، الآيات: ١ - ٤)، فرجع بهاَ رسولُ الله (ﷺ) يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد، فقال: **«زملوني ! زملوني، زمـلوني»** حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: «لقد خشيت على نفسي»، فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلّ[٣]، وتكسب المعدوم[٤]، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق[٥]، فانطلقت به خديجة، حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة، وكان امرءًا تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربي، فيكتب الإنجيل بالعربية مـاشاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي ما ترى؟ فأخبره رسول الله (ﷺ) خبر ما رأى: فـقال له ورقة: هذا الناموس[٦] الذي نزّل الله على موسى، يا ليتني فيـها جذعًا[٧]، ليتني أكون حيًا إذ يخـرجك قومك، فقال رسول الله (ﷺ): **«أو مـخـرجيّ هم؟»** قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل مـا جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا[٨]، ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي[٩][١٠].

(١) انظر: صحيح السيرة للعلي ص٦٧ .
(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ١٢٥) .
(٣) تحمل الكل: تنفق على الضعيف، واليتيم والعيال، والكل أصله: الثقل والإعياء .
(٤) وتكسب المعدوم: تعفي الناس ما لا يجدونه عند غيرك من نفائس الفوائد ومكارم الأخلاق.
(٥) نوائب الحق: لا يصيبك مكروه لما جعل الله فيك من مكارم الأخلاق وكرم الشمائل .
(٦) الناموس: هو جبريل عليه السلام صاحب سر الخير .
(٧) جذعًا: الشاب القوي .
(٨) مؤزرًا، قويًا بالغًا . (٩) فتر الوحي: تأخر نزوله .
(١٠) البخاري، كتاب بدء الوحي رقم ٣ .

عندما نتأمل في حديث السيدة عائشة يمكن للباحث أن يستنتج قضايا مهمة تتعلق بسيرة الحبيب المصطفى (ﷺ) ومن أهمها:

أولا: الرؤيا الصالحة:

ففي حديث عائشة رضي الله عنها أن أول ما بُدئ به محمد (ﷺ) من الوحي الرؤيا الصالحة، وتسمى أحيانًا بالرؤيا الصادقة، والمراد بها هنا رؤى جميلة ينشرح لها الصدر وتزكو بها الروح[١١] ولعل الحكمة من ابتداء الله (تعالى) رسوله (ﷺ) بالوحي بالمنام، أنه لو لم يبتدئه بالرؤيا وأتاه الملك فجأة ولم يسبق له أن رأى ملكًا من قبل فقد يصيبه شيء من الفزع، فلم يستطع أن يتلقى منه شيئًا، لذلك اقتضت حكمة الله (تعالى) أن يأتيه الوحي أولاً في المنام ليتدرب عليه ويعتاده[١٢] والرؤيا الصادقة الصالحة جزءٌ من ستة وأربعين جزءًا من النبوة كما ورد في الحديث الشريف[١٣]، وقد قال العلماء: وكانت مدة الرؤيا الصالحة ستة أشهر، ذكره البيهقي، ولم ينزل عليه شيء من القرآن في النوم بل نزل كله يقظة.

والرؤيا الصالحة من البشرى في الحياة الدنيا فقد ورد عن النبي (ﷺ) قوله: **«من البشرى في الحياة الدنيا الرؤيا الصالحة يراها الرجل، أو تُرى له»**[١٤].

فكان (ﷺ) قبل نزول جبريل عليه السلام عليه بالوحي في غار حراء يرى الرؤى الجميلة فيصحو منشرح الصدر، متفتح النفس لكل ما في الحياة من جمال[١٥]، لقد أجمعت الروايات من حديث بدء الوحي أن أول ما بدئ به رسول الله (ﷺ) من الوحي الرؤيا الصادقة الصالحة، يراها في النوم فتجيء في اليقظة كاملة واضحة كما رآها في النوم، لا يغيب عليه منها شيء كأنما نقشت في قلبه وعقله، وقد شبَّهت السيدة عائشة رضي الله عنها -وهي من أفصح العرب- ظهور رؤيا رسول الله (ﷺ) إذا استيقظ بها من كمال وضوحها بظهور ضوء الصبح ينفلق عنه غبش الظلام، وهو تصوير بياني لا تنفلق دنيا العرب في ذرى فصاحتهم عن أبلغ منه[١٦].

ثانيا: ثم حبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه:

وقبيل النبوة حُبب إلى نفس النبي (ﷺ) الخلوة، ليتفرغ قلبه وعقله وروحه إلى ما سيلقى إليه من أعلام النبوة، فاتخذ من غار حراء متعبدًا، ليقطع عن مشاغل الحياة ومخالطة الخلق، استجماعًا لقواه الفكرية، ومشاعره الروحية، وإحساساته النفسية، ومداركه العقلية، تفرغًا

---

(١١) انظر: طريق النبوة والرسالة ، حسين مؤنس ص٢١ .
(١٢) انظر: منامات الرسول صلى الله عليه وسلم ، عبدالقادر الشيخ إبراهيم ص٥٧ .
(١٣) انظر: الرؤيا ضوابطها وتفسيرها ، هشام الحمصي ص٧ .
(١٤) ابن ماجه ، كتاب تعبير الرؤيا رقم ٣٨٩٩ حسن الإسناد .
(١٥) انظر: طريق النبوة والرسالة ص٢٢ .
(١٦) انظر: محمد رسول الله ، محمد صادق عرجون (١/ ٢٥٤) .

لمناجاة مبدع الكون وخالق الوجود[١٧]، والغار الذي كان يتردد عليه الحبيب المصطفى (ﷺ) يبعث على التأمل والتفكر، تنظر إلى منتهى الطرف فلا ترى إلا جبالاً كأنها ساجدة متطامنة لعظمة الله، وإلا سماء صافية الأديم، وقد يرى من يكون فيه مكة إذا كان حاد البصر[١٨].

كانت هذه الخلوة التي حُببت إلى نفس النبي (ﷺ) لونًا من الإعداد الخاص، وتصفية النفس من علائق المادية البشرية إلى جانب تعهده الخاص بالتربية الإلهية والتأديب الرباني في جميع أحواله، وكان تعبده (ﷺ) قبل النبوة بالتفكر في بديع ملكوت السموات، والنظر في آياته الكونية الدالة على بديع صنعه وعظيم قدرته، ومحكم تدبيره، وعظيم إبداعه[١٩].

وقد أخذ بعض أهل السلوك إلى الله من ذلك فكرة الخلوة مع الذكر والعبادة في مرحلة من مراحل السلوك؛ لتنوير قلبه وإزالة ظلمته وإخراجه من غفلته وشهوته وهفوته، ومن سنن النبي (ﷺ) سنة الاعتكاف في رمضان[٢٠] وهي مهمة لكل مسلم سواءً كان حاكمًا أو عالمًا أو قائدًا، أو تاجرًا . . . لتنقية الشوائب التي تعلق بالنفوس والقلوب، ونصحح واقعنا على ضوء الكتاب والسنّة، ونحاسب أنفسنا قبل أن نحاسب[٢١].

ويمكن لأهل فقه الدعوة أن يعطوا لأنفسهم فترة من الوقت للمراجعة الشاملة والتوبة، والتأمل في واقع الدعوة وما هي عليه من قوة أو ضعف، واكتشاف عوامل الخلل، ومعرفة الواقع بتفاصيله، خيره وشره، ولا مانع من العزلة في بعض الأحيان إذا فشى الفساد وأصبحت الدنيا مؤثرة ومتابعة الهوى مطلبًا ولا بد أن تكون إيجابية وليست سلبية وليتابع الطريق بعدها بما يحمله من الحق[٢٢].

وفي قول السيدة عائشة: (فيتحنث الليالي ذوات العدد) يقول الشيخ محمد عبدالله دراز: (هذا كناية عن كون هذه الليالي لم تصل إلى نهاية القلة ولا إلى نهاية الكثرة، وما زال هذا الهدي الذي كان عليه النبي (ﷺ) قبل البعثة من التوسط والاقتصاد في الأعمال، شعارًا للملة الإسلامية ورمزًا للهدي النبوي الكريم بعد أن أرسله الله رحمة للعالمين)[٢٣].

ثالثا: حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاء الملك فقال: اقرأ، قال: قلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ**﴾ (سورة العلق، الآيات: ١ - ٤).

---

(١٧) نفس المصدر (١/ ٢٥٤).

(١٨) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٢٥٦).

(١٩) انظر: محمد رسول الله، محمد صادق عرجون (١/ ٤٦٩).

(٢٠) انظر: الأساس في السنة وفقه السيرة النبوية، سعيد حوى (١/ ١٩٥).

(٢١) انظر: فقه السيرة للغضبان.

(٢٢) انظر: الطريق إلى المدينة، محمد العبده.

(٢٣) المختار من كنوز السنة / ١٩ ط٢ ١٩٧٨ دار الأنصار/ القاهرة.

لقد كانت هذه الآيات الكريمات المباركات أول شيء نزل من القرآن الكريم، وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقة، وإن من كرم الله (تعالى) أن علّم الإنسان ما لم يعلم فشرفه وكرّمه بالعلم، وهو القدر الذي امتاز به آدم عليه السلام على الملائكة، والعلم تارة يكون في الأذهان، وتارة يكون في اللسان، وتارة يكون بالكتابة بالبنان[٢٤] وبهذه الآيات كانت بداية نبوة محمد (ﷺ) لقد كان هذا الحادث ضخم. لقد عبر عنه سيد قطب - رحمه الله - في ظلاله فقال: (إنه حادث ضخم جدًا. ضخم إلى غير حد، ومهما حاولنا اليوم أن نحيط بضخامته، فإن جوانب كثيرة منه ستظل خارج تصورنا!

إنه حادث ضخم بحقيقته، وضخم بدلالته، وضخم بآثاره في حياة البشرية جميعًا.. وهذه اللحظة التي تم فيها هذا الحادث تعد - بغير مبالغة- هي أعظم لحظة مرت بهذه الأرض في تاريخها الطويل.

ما حقيقة هذا الحادث الذي تم في هذه اللحظة؟

حقيقته أن الله جل جلاله، العظيم الجبار القهار المتكبر، مالك الملك كله، قد تكرم - في عليائه - فأراد أن يرحم هذه الخليقة المسماة بالإنسان، القابعة في ركن من أركان الكون لا يكاد يرى اسمه الأرض. وكرّم هذه الخليقة باختيار واحد منها ليكون ملتقى نوره الإلهي، ومستودع حكمته، ومهبط كلماته، وممثل قدره الذي يريده - سبحانه - لهذه الخليقة..)[٢٥].

كانت بداية الوحي الإلهي فيها إشادة بالقلم وخطره، والعلم ومنزلته في بناء الشعوب والأمم وفيها إشارة واضحة بأن من أخص خصائص الإنسان العلم والمعرفة[٢٦].

وفي هذا الحادث العظيم تظهر مكانة ومنزلة العلم في الإسلام، فأول كلمة في النبوة تصل إلى رسول الله هي الأمر بالقراءة: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾ (سورة العلق، آية: ١).

وما زال الإسلام يحث على العلم ويأمر به ويرفع درجة أهله ويميزهم على غيرهم قال (تعالى): ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾ (سورة المجادلة، آية: ١١)، وقال سبحانه: ﴿**أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾ (سورة الزمر، آية: ٩).

---

(٢٤) انظر: تفسير ابن كثير (٤/٥٢٨).
(٢٥) في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٣٦).
(٢٦) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٢٦٠).

إن مصدر العلم النافع من الله عز وجل، فهو الذي علم بالقلم وعلم الإنسان ما لم يعلم، ومتى حادت البشرية عن هذا المنهج، وانفصل علمها عن التقيد بمنهج الله (تعالى) رجع علمها وبالاً عليها وسببًا في إبادتها[٢٧].

رابعًا: الشدة التي تعرض لها النبي (ﷺ) ووصف ظاهرة الوحي:

لقد قام جبريل عليه السلام بضغط النبي (ﷺ) مرارًا حتى أجهده وأتعبه، وبقي رسول الله (ﷺ) يلقى من الوحي شدة وتعبًا وثقلاً كما قال (تعالى): **﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾** (سورة المزمل، آية: ٥). كان في ذلك حكمة عظيمة لعل منها: بيان أهمية هذا الدين وعظمته وشدة الاهتمام به، وبيان للأمة أن دينها الذي تتنعم به ما جاءها إلا بعد شدة وكرب[٢٨]، إن ظاهرة الوحي معجزة خارقة للسنن والقوانين الطبيعية حيث تلقى النبي (ﷺ) كلام الله (القرآن) بواسطة الملك جبريل (عليه السلام) وبالتالي فلا صلة لظاهرة الوحي بالإلهام أو التأمل الباطني أو الاستشعار الداخلي، بل إن الوحي يتم من خارج ذات النبي (ﷺ)، وتنحصر وظيفته بحفظ الموحي وتبليغه وأما بيانه وتفسيره فيتم بأسلوب النبي كما يظهر في أحاديثه وأقواله (ﷺ)[٢٩].

إن حقيقة الوحي هي الأساس الذي تترتب عليه جميع حقائق الدين بعقائده وتشريعاته وأخلاقه ولذلك اهتم المستشرقون والملاحدة من قبلهم بالطعن والتشكيك في حقيقة الوحي، وحاولوا أن يأولوا ظاهرة الوحي ويحرفوها عن حقيقتها عما جاءنا في صحاح السنة الشريفة، وحدثنا به المؤرخون الثقات، فقائل يقول: إن محمدًا (ﷺ) تعلم القرآن ومبادئ الإسلام من بحيرا الراهب، وبعضهم قال بأن محمدًا كان رجلاً عصبيًا أو مصابًا بداء الصرع[٣٠].

والحقيقة تقول: إن محمدًا (ﷺ) وهو في غار حراء فوجئ بجبريل أمامه يراه بعينه، وهو يقول له: اقرأ، حتى يتبين أن ظاهرة الوحي ليست أمرًا ذاتيًا داخليًا مرده إلى حديث النفس المجرد، وإنما هو استقبال وتلقٍ لحقيقة خارجية لا علاقة لها بالنفس وداخل الذات. وضم الملك إياه ثم إرساله ثلاث مرات قائلاً في كل مرة: اقرأ، يعتبر تأكيدًا لهذا التلقي الخارجي ومبالغة في نفي ما قد يتصور من أن الأمر لا يعدو كونه خيالاً داخليًا فقط.

ولقد أصيب النبي (ﷺ) بالرعب والخوف مما سمع ورأى وأسرع إلى بيته يرجف فؤاده وهذا يدل على أن النبي (ﷺ) لم يكن متشوقًا للرسالة التي سيكلف بثقلها وتبليغها للناس[٣١] وقد قال (تعالى) تأكيدًا لهذا المعنى: **﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى**

---

(٢٧) انظر: الوحي وتبليغ الرسالة، د. يحيى اليحيى ص٣٤.

(٢٨) نفس المصدر ص٣٠، ٣١.

(٢٩) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/١٢٩).

(٣٠) انظر: فقه السيرة النبوية للبوطي ص٦٤.

(٣١) نفس المصدر ص٦٤.

صراط مستقيم * صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور﴾ (سورة الشورى، الآيتان: ٥٢، ٥٣).

وقال (تعالى): ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم * قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون﴾ يونس، الآيتان: ١٥، ١٦).

لقد تساقطت آراء المشككين في حقيقة الوحي أمام الحديث الصحيح الذي حدثتنا به السيدة عائشة رضي الله عنها وقد استمر الوحي بعد ذلك يحمل الدلالة نفسها على حقيقة الوحي، وأنه ليس كما أراد المشككون وقد أجمل الدكتور البوطي هذه الدلالة فيما يلي:

١- التمييز الواضح بين القرآن والحديث، إذ كان يأمر بتسجيل الأول فورًا، على حين يكتفي بأن يستودع الثاني ذاكرة أصحابه، لا لأن الحديث كلام من عنده لا علاقة للنبوة به، بل لأن القرآن موحي به إليه بنفس اللفظ والحروف بواسطة جبريل عليه السلام، أما الحديث فمعناه وحي من الله عز وجل، ولكن لفظه وتركيبه من عنده عليه الصلاة والسلام، فكان يحاذر أن يختلط كلام الله عز وجل الذي يتلقاه من جبريل بكلامه هو.

٢- كان النبي (ﷺ) يُسأل عن بعض الأمور، فلا يُجيب عليها وربما مرّ على سكوته زمن طويل، حتى إذا نزلت آية من القرآن في شأن سؤاله. وربما تصرف الرسول في بعض الأمور على وجه معين، فتنزلت آيات من القرآن تصرفه عن ذلك الوجه، وربما انطوت على عتب أو لوم له.

٣- كان رسول الله (ﷺ) أميًا . . . وليس من الممكن أن يعلم إنسان بواسطة المكاشفة النفسية حقائق تاريخية، كقصة يوسف عليه السلام وأم موسى حينما ألقت وليدها في اليم .. وقصة فرعون ولقد كان هذا من جملة الحكم في كونه (ﷺ) أميًا: ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون﴾ (سورة العنكبوت، آية: ٤٨).

٤- إن صدق النبي (ﷺ) أربعين سنة مع قومه واشتهاره فيهم بذلك، يستدعي أن يكون (ﷺ)، من قبل ذلك صادقًا مع نفسه، ولذا فلا بد أن يكون قد قضى في دراسته لظاهرة الوحي على أي شك يخايل لعينيه أو فكره وكأن هذه الآية جاءت ردًا لدراسته الأولى لشأن نفسه مع الوحي: ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين﴾ (سورة يونس، آية: ٩٤).

ولهذا روى أن النبي (ﷺ) قال بعد نزول هذه الآية: «**لا أشك ولا أسأل**»[٣٢].

خامسًا: أنواع الوحي:

تحدث العلماء عن أنواع الوحي فذكروا منها:

(٣٢) أخرجه الطبري ١٧٩٠٦ ، ١٧٩٠٨ بسنده عن قتادة ، تفسير القرطبي (٨/ ٣٤٠).

١- الرؤيا الصادقة:

وكانت مبدأ وحيه (ﷺ)، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، وقد جاء في الحديث «رؤيا الأنبياء وحيٌ»، قال (تعالى) في حق إبراهيم (عليه السلام): ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾.

٢- الإلهام:

وهو أن ينفث الملك في روعه -أي قلبه من غير أن يراه، كما قال (ﷺ): «**إن روح القدس نفث في روعي**»[٣٣] أي: إن جبريل (عليه السلام) نفخ في قلبي: «**لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب**»[٣٤].

٣- أن يأتيه مثل صلصلة الجرس، أي مثل صوته في القوة، وهو أشدُّه، كما في حديث عائشة: أن الحارث رضي الله عنه سأل رسول الله (ﷺ): كيف يأتيك الوحي؟ فقال (ﷺ): «**أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ، فيفصم عني وقد وعيت ما قال وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني، فأعي ما يقول**»[٣٥].

٤- ما أوحاه الله (تعالى) إليه بلا وساطة ملك، كما كلم الله موسى بن عمران عليه السلام، وهذه المرتبة هي ثابتة لموسى قطعًا بنص القرآن وثبوتها لنبينا (ﷺ) في حديث الإسراء[٣٦].

٥- أنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها، فيوحي إليه ما شاء الله (تعالى) أن يوحيه.

٦- أنه (ﷺ) كان يتمثل له الملك رجلاً، فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحيانًا[٣٧].

هذا ما قاله ابن القيم عن مراتب الوحي.

لقد كان نزول الوحي على رسول الله (ﷺ) بداية عهد جديد في حياة الإنسانية بعد ما انقطع وتاهت البشرية في دياجير الظلام.

وكان وقع نزول الوحي شديدًا على رسول الله (ﷺ) كما هو واضح من النص بالرغم من أنه كان أشجع الناس وأقواهم قلبًا كما دلت على ذلك الأحداث خلال ثلاث وعشرين سنة، وذلك لأن الأمر ليس مخاطبة بشر لبشر ولكنه كان مخاطبة عظيم الملائكة وهو يحمل كلام الله (تعالى) ليستقبله من اصطفاه الله جل وعلا لحمل هذا الكلام وإبلاغه لعامة البشر.

---

(٣٣) حديث صحيح بشواهده (زاد المعاد ١/ ٧٩) مؤسسة الرسالة.
(٣٤) نفس المصدر (زاد المعاد ١/ ٧٩).
(٣٥) البخاري، كتاب بدء الوحي رقم ٢.
(٣٦) انظر: الرؤى والأحلام في النصوص الشرعية، أسامة عبدالقادر ص١٠٨.
(٣٧) انظر: زاد المعاد في هدي خير العباد (١/ ٣٣-٣٤).

ولقد كان موقفًا رهيبًا ومسؤولية عظمى لا يقوى عليها إلا من اختاره الله تبارك و(تعالى) لحمل هذ الرسالة وتبليغها .

ومما يتصور رهبة هذا الموقف مـا جاء في هذه الرواية من قول رسول الله (ﷺ): «**لقـد خشيت على نفسي**» وقول عائشة رضي الله عنها في هذا الحديث: (فـرجع بها رسول الله (ﷺ) يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها قال: «**زملوني زمـلوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع**».

ومما يبين شـدة نزول الوحي على رسـول الله (ﷺ) ما أخـرجه الإمام البخـاري ومسلم رحمهما الله من حديث عائشة رضي الله عنها: قالت: (ولقد رأيته -تعني رسول الله (ﷺ)- ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنـه وإن جبينه ليتفصد عرقًا)[٣٩] وحـديث عبادة بن الصـامت رضي الله عنه قال: (كان نبي الله (ﷺ) إذا نزل عليه الوحي كُرب لذلك وتربّد وجهه)[٤٠] .

سادسًا: أثر المرأة الصالحة في خدمة الدعوة:

(فرجع بهـا رسول الله (ﷺ) يرجف فؤاده، فدخل على خديجـة بنت خويلد، فقال: «**زملوني زملوني!**» فزملوه حتى ذهب عنه الروع. فقال لخديجة وأخبرها الخبر: «**لقد خشيت على نفـسي**». فقالت خـديجة: كلا والله مايخزيك الله أبدًا، إنـك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق).

كان موقف خـديجة رضي الله عنها يدل على قـوة قلبها حيث لم تفـزع من سماع هذا الخبر واستقـبلت الأمر بهدوء وسكينة، ولا أدل على ذلك من ذهابها فور سماعـها الخبر إلى ورقة بن نوفل وعرضت الأمر عليه[٤١] .

كان موقف خديجة رضي الله عنها من خبـر الوحي يدل على سعة إدراكها حيث قارنت بين ما سـمعت وواقع النبي (ﷺ) فأدركت أن من جبل علـى مكارم الأخلاق لا يخزيه الله أبدًا، فقد وصفـته بأنه يصل الرحم، وكون الإنسان يصل أقاربه دليل على اسـتعداده النفسي لبذل الخيـر والإحسان إلى الناس، فإن أقارب الإنسان هم المرآة الأولى لكشـف أخلاقه، فإن نجح في احتـواء أقاربه وكسـبهم بما له عليهم من مـعروف كان طبـيعيًـا بأن ينجح في كسب غيرهم من الناس)[٤٢] .

كانت أم المؤمنين السيـدة خديجة رضي الله عنها قد سـارعت إلى إيمانها الفطري، وإلى معرفتها بسنن الله (تعالى) في خلقه، وإلى يقينها بما يملك محمد (ﷺ) من رصيد الأخلاق،

(٣٨) انظر: التاريخ الإسلامي مواقف وعبر للحميدي (١/ ٦٠) .
(٣٩) البخاري، كتاب بدء الوحي رقم ٣ ، مسلم ، كتاب الفضائل رقم ٢٣٣٣ .
(٤٠) مسلم ، كتاب الفضائل رقم ٢٣٣٤ .
(٤١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (١/ ٦١) .
(٤٢) نفس المصدر (١/ ٦٤) .

وفضائل الشمائل، ليس لأحد من البشر رصيد مثله في حياته الطبيعية التي يعيش بها مع الناس، وإلى ما ألهمت بسوابق العناية الربانية التي شهدت آياتها من حفاوة الله (تعالى) بمحمد (ﷺ) في مواقف لم تكن من مواقف النبوة والرسالة، ولا من إرهاصاتها المعجزة، وأعاجيبها الخارقة، ولكنها كانت من مواقف الفضائل الإنسانية السارية في حياة ذوي المكارم من أصحاب المروءات في خاصة البشر[٤٣].

كانت موقنة بأن زوجها فيه من خصال الجبلة الكمالية ومحاسن الأخلاق الرصينة، وفضائل الشيم المرضية، وأشرف الشمائل العلية وأكمل النحائر الإنسانية ما يضمن له الفوز ويحقق له النجاح والفلاح فقد استدلت بكلماتها العميقة على الكمال المحمدي[٤٤]، فقد استنبطت خديجة رضي الله عنها من اتصاف محمد (ﷺ) بتلك الصفات على أنه لن يتعرض في حياته للخزي قط، لأن الله (تعالى) فطره على مكارم الأخلاق، وضربت المثل بما ذكرته من أصولها الجامعة لكمالاتها.

ولم تعرف الحياة في سنن الكون الاجتماعية أن الله (تعالى) جمّل أحدًا من عباده بفطرة الأخلاق الكريمة، ثم أذاقه الخزي في حياته، ومحمد (ﷺ) بلغ من المكارم ذروتها، فطرة فطره الله عليها، لا تطاول ولا تسامي[٤٥].

ولم تكتف خديجة رضي الله عنها بمكارم أخلاق النبي (ﷺ) على نبوته بل ذهبت إلى ابن عمها العالِم الجليل ورقة بن نوفل رحمه الله الذي كان ينتظر ظهور نبي آخر الزمان لما عرفه من علماء أهل الكتاب على دنو زمانه واقتراب مبعثه، وكان لحديث ورقة أثر طيب في تثبت النبي (ﷺ) وتقوية قلبه، وقد أخبر النبي (ﷺ) بأن الذي خاطبه هو صاحب السر الأعظم الذي يكون سفيرًا بين الله (تعالى) وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام، ومن أشعار ورقة التي تدل على انتظاره لمبعث النبي (ﷺ) قوله:

لججتُ وكنت في الذكرى لجوجًا	**لهمٍّ طالما بعث النشيجا**
ووصف من خديجة بعد وصف	**فقد طال انتظاري يا خديجا**
ببطن المكّتين[٤٦] على رجائي	**حديثك أن أرى منه خروجًا**
بما خبّرتنا من قول قسٍّ	**من الرهبان أكره أن يعوجا**
بأن محمدًا سيسود فينا	**ويخصم من يكون له حجيجا[٤٧]**

لقد صدّق ورقة بن نوفل برسالة النبي (ﷺ) وشهد له النبي عليه الصلاة والسلام بالجنة

(٤٣) انظر: محمد رسول الله، محمد الصادق عرجون (١/ ٣٠٧).
(٤٤) انظر: محمد رسول الله، عرجون (١/ ٣٠٧، ٣٠٨).
(٤٥) نفس المصدر (١/ ٢٣٢).
(٤٦) المكتين: جانبًا مكة، أو بطاحها وظواهرها.
(٤٧) سيرة ابن هشام (١/ ١٩٤).

فقد جاء في رواية أخرجها الحاكم بإسناده عن عائشة رضي الله عنها أن النبي (ﷺ) قال: «**لا تسبوا ورقة فإني رأيت له جنة أو جنتين**»(٤٨).

وعن عائشة رضي الله عنها أن خديجة رضي الله عنها سألت رسول الله عن ورقة فقال: «**قد رأيته فرأيت عليه ثيابًا بيضًا، فأحسبه لو كان من أهل النار لم يكن عليه ثياب بيض**» قال: وروى أبو يعلى بسند حسن عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله (ﷺ) سئل عن ورقة بن نوفل فقال: «**أبصرته في بطنان الجنة وعليه السندس**»(٤٩).

لقد قامت خديجة رضي الله عنهـا بدور مهم في حياة النبي (ﷺ)، لما لها من شخـصية في مجتمع قومها، ولما جبلت عليه من الكفاءة في المجالات النفسية التي تقوم على الأخلاق العالية من الرحمة والحلم والحكمة والحزم وغير ذلك من مكارم الأخلاق والرسول (ﷺ) قد وفقـه الله (تعالى) بهذه الزوجـة المثالية، لأنه قـدوة للعالمين وخاصـة الدعاة إلى الله، فقـيام خديجة بذلك الدور الكبير إعلام من الله (تعالى) لجميع حملة الدعوة الإسلامية بما يشرع لهم أن يسلكوه في هذا المجال من التاسي برسول الله (ﷺ) حتى يتحقق لهم بلوغ المقاصد العالية التي يسعون لتحقيقها(٥٠).

إن السيدة خديجة رضي الله عنها مثال حسن وقدوة رفيعة لزوجات الدعاة، فالداعية إلى الله ليس كباقي الرجال الذين هم بعيدون عن أعباء الدعوة. ومن الصعب أن يكون مثلهم في كل شيء، إنه صاحب هم ورسـالة، هم على ضياع أمـته، وانتشـار الفساد، وزيادة شـوكة أهله، وهَمّ لما يصـيب المسلمين في مشـارق الأرض ومغـاربها من مـؤامرات وظلـم وجوع، وإذلال، وما يصيب الدعاة منهم من تشريد وتضـييق وتنكيل، وبعد ذلك هو صاحب رسالة واجب عليه تـبليغهـا للآخرين، وهذا الواجب يتطلب وقـتًا طويلاً يأخـذ عليه أوقـات نومه وراحته، وأوقات زوجـته وأبنائه، ويتطلب تضحية بالمال والوقت والدنيـا بأسرها ما دام ذلك في سبيل الله ومـرضاته، وإن أوتيت من الأخلاق والتقوى والجمـال والحسب ما أوتيت، إنه يحتاج إلى زوجة تدرك واجب الدعـوة وأهميتها، وتدرك تمامًا ما يقـوم به الزوج وما يتحمله من أعباء، وما يعانيه من مـشاق، فتقف إلى جانبه تيسر له مهمـته وتعينه عليها، لا أن تقف عائقًا وشوكة في طريقه(٥١).

إن المرأة الصالحة لها أثر في نجاح الدعوة، وقد اتضح ذلك في موقف خديجة رضي الله عنها وما قامت به من الوقوف بجانب النبي (ﷺ) وهو يواجه الوحي لأول مرة، ولا شك أن الزوجة الصالحة المؤهلة لحمل مثل هذه الرسالة لهـا دور عظيم في نجاح زوجها في مهمته في هذه الحياة، وبخـاصة الأمور التي يعامل بها الناس، وإن الـدعوة إلى الله (تعالى) هي أعظم

---

(٤٨) المستدرك (٢/٦٠٩) على شرط مسلم وأقره الذهبي.

(٤٩) مجمع الزوائد (٩/٤١٦).

(٥٠) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (١/٦٩).

(٥١) انظر: وقفات تربوية من السيرة النبوية، البلالي ص٤٠.

أمر يتحمله البشر، فإذا وفق الداعية لزوجة صالحة ذات كفاءة فإن ذلك من أهم أسباب نجاحه مع الآخرين[٥٢] وصدق رسول الله (ﷺ) إذ يقول: **«الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة»**[٥٣].

سابعًا: وفاء النبي (ﷺ) للسيدة خديجة رضي الله عنها:

كان رسول الله (ﷺ) مثالاً عاليًا للوفاء ورد الجميل لأهله، فقد كان في غاية الوفاء مع زوجته المخلصة في حياتها وبعد مماتها وقد بشرها (ﷺ) ببيت في الجنة في حياتها، وأبلغها سلام الله جل وعلا وسلام جبريل (عليه السلام)، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى جبريل النبي (ﷺ) فقال: **«يا رسول الله، هذه خديجة قد أتتك معها إناء فيه إدام -أو طعام أو شراب- فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها عز وجل ومني وبشرها ببيت في الجنة من قصب[٥٤] لا صخب فيه ولا نصب»**[٥٥].

وتذكر عائشة رضي الله عنها وفاء النبي (ﷺ) لخديجة بعد وفاتها بقولها: ما غرت على أحد من نساء النبي (ﷺ) ما غرت على خديجة وما رأيتها، ولكن كان النبي (ﷺ) يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة؟ فيقول: **«إنها كانت ... وكانت ... وكان لي منها الولد»**[٥٦].

وأظهر (ﷺ) البشاشة والسرور لأخت خديجة لما استأذنت عليه لتذكُّره خديجة فعن عائشة رضي الله عنها قالت: (استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله (ﷺ) فعرف استئذان خديجة[٥٧] فارتاح لذلك وقال: **«اللهم هالة بنت خويلد»**، فغرت فقلت: وما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين[٥٨] هلكت في الدهر فأبدلك الله خيرًا منها)[٥٩]، وأظهر (ﷺ) الحفاوة بامرأة كانت تأتيهم زمن خديجة وبين أن حفظ العهد من الإيمان[٦٠].

ثامنًا: سنة تكذيب المرسلين:

«يا ليتني فيها جذعًا، ليتني أكون حيًا إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله (ﷺ): **«أو مخرجيّ هم؟»** قال: نعم؛ لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك

---

(٥٢) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (١/ ٦٨).
(٥٣) رواه مسلم رقم ١٤٦٧ ص١٠٩٠، كتاب الرضاع.
(٥٤) يعني من لؤلؤ أو ذهب.
(٥٥) مسلم، كتاب فضائل الصحابة ص١٨٨٧ رقم ٢٤٣٢.
(٥٦) البخاري، كتاب مناقب الأنصار (٧/ ١٣٢).
(٥٧) يعني لتشابه صوتيهما.
(٥٨) يعني لا أسنان لها من الكبر.
(٥٩) مسلم، كتاب فضائل الصحابة ص١٨٨٩ رقم ٢٤٣٧.
(٦٠) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (١/ ٧١).

أنصرك نصرًا مؤزرًا [٦١] فقد بين الحديث سنة من سنن الأمم مع من يدعوهم إلى الله عز وجل وهي التكذيب والإخراج كما قال (تعالى) عن قوم لوط: **﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾** (سورة النمل، الآية: ٥٦).

وكما قال قوم شعيب: **﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾** (سورة الأعراف، الآية ٨٨).

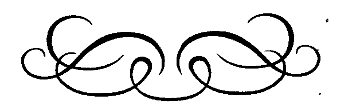
وقال (تعالى): **﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾** (سورة إبراهيم، الآية ١٣).

تاسعًا: قوله: «وفتر الوحي»:

تحدث علماء السيرة قديمًا وحديثًا عن فترة الوحي، فقال الحافظ ابن حجر: وفتور الوحي عبارة عن تأخيره مدة من الزمان، وكان ذلك ليذهب ما كان (ﷺ) وجده من الروع، وليحصل له التشوق إلى العود[٦٢].

فعن جابر بن عبد الله الأنصاري قال وهو يحدث عن فترة الوحي: «**بينا أنا أمشي، إذ سمعت صوتًا من السماء فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه، فرجعت فقلت: زملوني. فأنزل الله (تعالى): ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ فحمي الوحي وتتابع**»[٦٣].

وقال صفي الرحمن المباركفوري: أما مدة فترة الوحي فروى ابن سعد عن ابن عباس ما يفيد أنها كانت أيامًا، وهذا الذي يترجح بل يتعين بعد إدارة النظر في جميع الجوانب، وأما ما اشتهر من أنها دامت طيلة ثلاث سنين أو سنتين ونصف فلا يصح بحال، وليس هذا موضوع التفصيل في رده، وقد بقي رسول الله (ﷺ) في أيام الفترة كئيبًا محزونًا تعتريه الحيرة والدهشة[٦٤] وأما ما قاله بعض رواة السيرة من أنه كان تردّى شواهق الجبال، وأن جبريل عليه السلام كان يظهر له في كل مرة ويبشره بأنه رسول الله فمرسل ضعيف، كما أنه يتنافى مع عصمة النبي (ﷺ)[٦٥].



(٦١) البخاري، كتاب الوحي؛ مسلم (٢/١٩٧-٢٠٤) الإيمان.
(٦٢) فتح الباري (١/٣٦).
(٦٣) البخاري، بدء الوحي رقم ٤.
(٦٤) انظر: الرحيق المختوم ص٧٩، ٨٠.
(٦٥) انظر: الروض الأنف للسهيلي (٢/٤٣٣-٤٣٤).



المبحث الثاني

الدعوة السرية

أولاً: الأمر الرباني بتبليغ الرسالة:

عرف النبي (ﷺ) معرفة اليقين أنه أصبح نبيًا لله الرحيم الكريم وجاء جبريل عليه السلام للمرة الثانية وأنزل الله على نبيه قوله (تعالى): ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ**﴾ (سورة المدثر، الآيات: ١ ـ ٤).

كانت هذه الآيات المتتابعة إيذانًا للرسول (ﷺ) بأن الماضي قد انتهى بمنامه وهدوئه، وأنه أمامه عمل عظيم يستدعي اليقظة والتشمير، والإنذار والإعذار، فليحمل الرسالة، وليوجه الناس، وليأنس بالوحي، وليقوَ على عنائه فإنه مصدر رسالته ومدد دعوته[٦٦].

وتعد هذه الآيات أول أمر بتبليغ الدعوة، والقيام بالتبعة. وقد أشارت هذه الآيات إلى أمور هي خلاصة الدعوة المحمدية، والحقائق الإسلامية التي بني عليها الإسلام كله، وهي الوحدانية والإيمان باليوم الآخر، وتطهير النفوس، ودفع الفساد عن الجماعة، وجلب النفع[٦٧].

كانت هذه الآيات تهييجًا لعزيمة رسول الله (ﷺ) لينهض بعبء ما كُلِّفه من تبليغ رسالات ربه، فيمضي قُدُمًا بدعوته، لا يبالي العقبات والحواجز، كان هذا النداء متلطف ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ**﴾ إيذانًا بشحذ العزائم، وتوديعًا لأوقات النوم والراحة وجاء عقب هذا النداء الأمر الجازم بالنهوض ﴿**قُمْ**﴾ في عزيمة ناهضة، وقوة حازمة، تتحرك في اتجاه تحقيق واجب التبليغ، وفي مجيء الأمر بالإنذار منفردًا على التبشير في أول خطاب وجه إلى النبي (ﷺ) بعد فترة الوحي إيذانًا بأن رسالته تعتمد على الكفاح الصبور، والجهاد المرير، ثم زادت الآيات في تقوية عزيمة النبي (ﷺ)، وشدّ أزره، وحضّه على المضي قُدمًا إلى غاية ما أمر به، غير عابئ بما يعترض طريقه من عقبات، مهما يكن شأنها فقيل له، ﴿**وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ**﴾ أي لا تعظم شيئًا من أمور الخلق، ولا يتعاظمك منهم شيء، فلا تتهيب فعلاً من أفعالهم، ولا تخش أحدًا منهم، ولا تعظِّم إلا ربك الذي تعهدك وأنت في أصلاب الآباء وأرحام الأمهات، فربّاك على موائد فضله، ورعاك بإحسانه وجوده حتى أخرجك للناس نبيًا ورسولاً، بعد أن أعدّك خلْقًا وخُلُقًا لتحمل أمانة أعظم رسالاته ﴿**وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ**﴾، فكل تعظيم وتكبير وإجلال حق لله (تعالى) وحده، لا يشاركه فيه أحد، أو شيء من مخلوقاته[٦٨].

وفي قوله: ﴿**وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ**﴾، فكأنه قيل له (ﷺ): فأنت على طهرك وتطهُّرك بفطرتك في كمال إنسانيتكَ بما جبلك الله عليه من أكرم مكارم الأخلاق، وبما حباك به من نبوته

(٦٦) انظر: فقه السيرة للغزالي ص٩٠ .

(٦٧) انظر: دولة الرسول من التكوين إلى التمكين ، د . كامل سلامة ص١٨١ .

(٦٨) انظر: محمد رسول الله صادق عرجون (٥٨٩/١ ، ٥٩٠ ، ٥٩١) .

ليعدَّك بها ليومك هذا أحوج إلى أن تزداد في تطهرك النفسي، فتزداد من المكارم في حياتك مع الناس والأشياء، فأنت اليوم رسول الله إلى العالمين، وكمال الرسالة في كمال الخُلق الاجتماعي صبرًا، وحلمًا، وعفوًا، وإحسانًا، ودؤوبًا على الجد في تبليغ الدعوة إلى الله (تعالى)، ولا يثنيك إيذاء، ولا يقعدك عن المضي إلى غايتك فادح البلاء[٦٩].

وفي: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ فكأنه قيل له (ﷺ) ليكن قصدك ونيتك في تركك ما تركت فطرة وطبعًا هجره تكليفًا وتعبدًا، لتكون قدوة أمتك، وعنوان تطهرها بهداية رسالتك[٧٠].

ثانيًا: بدء الدعوة السرية:

بعد نزول آيات المدثر قام رسول الله (ﷺ) يدعو إلى الله وإلى الإسلام سرًا، وكان طبيعيًا أن يبدأ بأهل بيته، وأصدقائه، وأقرب الناس إليه.

١ - إسلام السيدة خديجة رضي الله عنها:

كان أول من آمن بالنبي (ﷺ) من النساء، بل أول من آمن به على الإطلاق السيدة خديجة رضي الله عنها، فكانت أول من استمع إلى الوحي الإلهي من فم الرسول الكريم، وكانت أول من تلا القرآن بعد أن سمعته من صوت الرسول العظيم وكانت كذلك أول من تعلّم الصلاة عن رسول الله (ﷺ)، فبيتُها هو أول مكان تلي فيه أول وحي نزل به جبريل على قلب المصطفى الكريم بعد غار حراء[٧١].

كان أول شيء فرضه الله من الشرائع بعد الإقرار بالتوحيد إقامة الصلاة. وقد جاء في الأخبار حديث تعليم الرسول (ﷺ) زوجه خديجة الوضوء والصلاة حين افتُرضت على رسول الله: أتاه جبريل وهو بأعلى مكة فهَمَز له بعَقبه في ناحية الوادي فانفجرت منه عين فتوضأ جبريل عليه السلام والرسول ينظر ليُريه كيف الطهور للصلاة، ثم توضأ رسول الله (ﷺ) كما رأى جبريل توضأ، ثم قام جبريل عليه السلام فصلى به وصلى النبي (ﷺ) بصلاته، ثم انصرف جبريل عليه السلام فجاء رسول الله خديجة فتوضأ لها يريها كيف الطهور للصلاة، كما أراه جبريل عليه السلام، فتوضأت كما توضأ رسول الله (ﷺ) ثم صلىّ بها رسول الله (ﷺ) كما صلى به جبريل (عليه السلام)[٧٢].

٢ - إسلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

وبعد إيمان السيدة خديجة دخل علي بن أبي طالب في الإسلام وكان أول من آمن من الصبيان، وكان سنه إذ ذاك عشر سنين على أرجح الأقوال، وهو قول الطبري وابن إسحاق[٧٣] وقد أنعم الله عليه بأن جعله يتربى في حجر رسوله (ﷺ) قبل الإسلام حيث

(٦٩) نفس المصدر ص٥٩٢ .

(٧٠) انظر: محمد رسول الله ، محمد عرجون ص٥٩٣ .

(٧١) انظر: المرأة في العهد النبوي ، د . عصمة الدين كركر ص٣٦ .

(٧٢) انظر: ابن هشام (١/ ٢٤٤) ، من معين السيرة صالح الشامي ص٤١ .

(٧٣) السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٢٨٤) .

أخذه من عمه أبي طالب وضمه إليه(٧٤) وكان علي رضي الله عنه ثالث من أقام الصلاة بعد رسول الله وبعد خديجة رضي الله عنها(٧٥).

وقد ذكر بعض أهل العلم أن رسول الله (ﷺ) كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة وخرج معه علي بن أبي طالب مستخفيًا من أبيه، ومن جميع أعمامه وسائر قومه فيصليان الصلوات فيها فإذا أمسيا رجعا ليضمّهما ذلك البيت الطاهر التقي بالإيمان المفعم بصدق الوفاء وكرم المنْبَت(٧٦).

٣- إسلام زيد بن حارثة رضي الله عنه:

هو أول من آمن بالدعوة من الموالي(٧٧)، حبْ النبي (ﷺ)، ومولاه، ومتبنّاه: زيد بن حارثة الكلبي الذي آثر رسول الله على والده وأهلَه، عندما جاؤوا إلى مكة لشرائه من رسول الله (ﷺ)، فترك رسول الله الأمر لحارثة فقال زيد لرسول الله: ما أنا بالذي أختار عليك أحدًا، وأنت مني بمنزلة الأب والعمٍّ، فقالا له والده وعمه: ويحك تختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك؟ قال: نعم، وإني رأيت من هذا الرجل شيئًا ما أنا بالذي أختار عليه أحدًا أبدًا(٧٨).

٤- إسلام بنات النبي (ﷺ):

وكذلك سارع إلى الإسلام بنات النبي (ﷺ)، كل من زينب، وأم كلثوم، وفاطمة ورقية، فقد تأثرن قبل البعثة بوالدهن (ﷺ) في الاستقامة وحسن السيرة، والتنزه عما كان يفعله أهل الجاهلية، من عبادة الأصنام والوقوع في الآثام، وقد تأثرن بوالدتهن؛ فأسرعن إلى الإيمان(٧٩) وبذلك أصبح بيت النبي (ﷺ) أول أسرة مؤمنة بالله (تعالى) منقادة لشرعه في الإسلام، ولهذا البيت النبوي الأول مكانة عظمى في تاريخ الدعوة الإسلامية لما حباه الله به من مزايا وخصه بشرف الأسبقية في الإيمان وتلاوة القرآن وإقام الصلاة فهو:

* أول مكان تُلي فيه وحي السماء بعد غار حراء.

* وهو أول بيت ضم المؤمنة الأولى سابقة السبق إلى الإسلام.

* وهو أول بيت أقيمت فيه الصلاة.

* وهو أول بيت اجتمع فيه المؤمنون الثلاثة السابقون إلى الإسلام، خديجة وعلي وزيد ابن حارثة.

---

(٧٤) ابن هشام (١/ ٢٤٦).
(٧٥) عيون الأثر ، ابن سيد الناس (١/ ١١٥).
(٧٦) انظر: المرأة في العهد النبوي ، د. عصمة الدين ص٤٢.
(٧٧) يطلق المولى على السيد ، وعلى المملوك الذي أعتق وهو المراد هنا.
(٧٨) انظر: دراسة تحليلية لشخصية الرسول ، د. محمد قلعجي ص١٩١.
(٧٩) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٢٨٤).

* وهو أول بيت تعهد بالنصرة ولم يتقاعس فيه فرد من أفراده كبارًا أو صغارًا عن مساندة الدعوة(٨٠).

يحق لهذا البيت أن يكون قدوة، ويحق لربته أن تكون مثالاً ونموذجًا حيًا لبيوت المسلمين ولنسائهم ورجال المؤمنين كافة، فالزوجة فيه طاهرة مؤمنة مخلصة وزيرة الصدق والأمان. وابن العم المحضون والمكفول مستجيب ومعضّد ورفيق، والمتبنَّى مؤمن صادق مساعد ومعين، والبنات مصدّقات مستجيبات مؤمنات ممتثلات(٨١).

لقد اكتسى هذا البيت بأبهى حُلل الإيمان وأضاء أركانه قبس نور التصديق، فكان بين الزوجين التجاوب والتكافل وتمّ بذلك تجسيد معنى قوله (تعالى) في محكم تنزيله: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ**﴾ (سورة الأعراف، الآية: ١٨٩).

وفيه أيضًا تجسيد ما روي عن النبي (ﷺ) في مجال التربية قوله: «**يولد الولد على الفطرة وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»(٨٢)، ومن استقامة التربية كانت بناته رضي الله عنهن من السابقات إلى التصديق والإيمان، وهكذا كان البيت النبوي مكانته الأولى والواجب يدعو إلى أن يكون قدوتنا والأنموذج الذي نسير على هديه في المعاشرة ومثالية السلوك بالصدق والتصديق، في الاستجابة والعمل لكل من آمن بالله ربًا وبمحمد نبيًا ورسولاً(٨٣)، إن الحقيقة البارزة في المنهج الرباني تشير إلى أهمية بناء الفرد الصالح والأسرة الصالحة، كأول حلقة من حلقات الإصلاح، والبناء، ثم المجتمع الصالح، ولقد تجلت عناية الإسلام بالفرد المسلم وتكوينه ووجوب أن يسبق أي عمل آخر، فالفرد المسلم هو حجر الزاوية في أي بناء اجتماعي ولما كانت الأسرة التي تستقبل الفرد منذ ولادته وتستمر معه مدة طويلة من حياته، بل هي التي تحيط به طوال حياته، فهي المحضن المتقدم الذي تتحدد به معالم الشخصية وخصائصها وصفاتها، كما أنها الوسيط بين الفرد والمجتمع، فإذا كان هذا الوسط سليمًا قويًا أمد طرفيه - الفرد والمجتمع - بالسلامة والقوة(٨٤).

ولهذا اهتم الإسلام بالأسرة واتجه إليها يضع لها الأسس التي تكفل قيامها ونموها نموًا سليمًا، ويوجهها الوجهة الربانية لتكون حلقة قوية في بناء المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية التي تسعى لصناعة الحضارة الربانية في دنيا الناس(٨٥).

---

(٨٠) انظر: المرأة في العهد النبوي، د. عصمة ص٤٣.
(٨١) نفس المصدر ص٤٥.
(٨٢) البخاري، كتاب الجنائز ٨٠، ٩٢؛ مسلم، كتاب القدر، ٢٢.
(٨٣) انظر: المرأة في العهد النبوي ص٤٦.
(٨٤) انظر: دولة الرسول من التكوين حتى التمكين، كامل سلامة ص٢٠٨.
(٨٥) نفس المصدر ص٢٠٨.

ويظهر هذا الاهتمام بالأسرة من حركة الدعوة الإسلامية منذ ساعتها الأولى، إذ كان من قدر الله (تعالى) أن يكون أول السابقين إلى الإسلام امرأة (خديجة رضي الله عنها)، إشادة بمنزلة المرأة في الإسلام وأنه يرسي قواعده على الأسرة، وصبي (علي رضي الله عنه) إشارة لحاجة الدعوة إلى البراعم الجديدة واهتمامها بالجيل الناشئ لتسير في مراحلها الصحيحة لبناء المجتمع، ثم الدولة ثم الحضارة[٨٦] وإن التأمل في نقطة البدء بهذه الدعوة التي توجهت إلى امرأة كخديجة، رضي الله عنها ومولى كزيد بن حارثة، وصبي كعلي بن أبي طالب، وبقية أسرة النبي (ﷺ)، لتدل دلالة واضحة على أن الدعوة الإسلامية موجهة لكل الناس صغيرهم وكبيرهم، ذكرهم وأنثاهم، وسيدهم ومولاهم، فلكل هذه الشرائح الاجتماعية من الرجال والنساء والأطفال والموالي، دوره المنتظر في البناء الاجتماعي، وإقامة الدولة، وانتشار الحضارة[٨٧].

٥- إسلام أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه أول من آمن بالنبي (ﷺ) من الرجال الأحرار، والأشراف، فهو من أخص أصحاب رسول الله (ﷺ) قبل البعثة وفيه قال رسول الله (ﷺ): «ما دعوت أحدًا إلى الإسلام إلا كانت عنده كبوة، وتردد ونظر، إلا أبا بكر، ما عكَم[٨٨] حين دعوته، ولا تردد فيه»[٨٩]، فأبو بكر صاحب رسول الله (ﷺ)، وهو حسنة من حسناته عليه الصلاة والسلام لم يكن إسلامه إسلام رجل، بل كان إسلامه إسلام أمة، فهو في قريش كما ذكر ابن إسحاق في موقع العين منها:

- كان رجلاً مألفًا لقومه محببًا سهلاً.
- وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر.
- وكان رجلاً تاجرًا.
- ذا خلق ومعروف.
- وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر لعلمه وتجارته، وحسن مجالسته[٩٠].

لقد كان أبو بكر كنزًا من الكنوز ادخره الله (تعالى) لنبيه، وكان من أحب قريش لقريش، فذلك الخلق السمح الذي وهبه الله (تعالى) إياه جعله من الموطئين أكنافًا، من الذين يألفون ويؤلفون، والخلق السمح وحده عنصر كاف لألفة القوم وهو الذي قال فيه عليه

(٨٦) انظر: الأخوات المسلمات وبناء الأسرة المسلمة، محمود الجوهري ص٧ .
(٨٧) انظر: دولة الرسول من التكوين حتى التمكين ص٢٠٨ .
(٨٨) ما تلبث بل سارع .
(٨٩) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٢٨٤) .
(٩٠) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٧١) .

الصلاة والسلام: «**أرحم أمتي بأمتي أبو بكر**»[٩١] وعلم الأنساب عند العرب، وعلم التاريخ هما أهم العلوم عندهم، ولدى أبي بكر الصديق رضي الله عنه النصيب الأوفر منهما، وقريش تعترف للصديق بأنه أعلمها بأنسابها وأعلمها بتاريخها وما فيه من خير وشر، فالطبقة المثقفة ترتاد مجلس أبي بكر لتنهل منه علمًا لا تجده عند غيره غزارة ووفرة وسعة، ومن أجل هذا كان الشباب النابهون، والفتيان الأذكياء يرتادون مجلسه دائمًا، إنهم الصفوة الفكرية المثقفة التي تود أن تلقى عنده هذه العلوم، وهذا جانب آخر من جوانب عظمته، وطبقة رجال الأعمال، ورجال المال في مكة، هي كذلك من رواد مجلس الصديق، فهو إن لم يكن التاجر الأول في مكة، فهو من أشهر تجارها، فأرباب المصالح هم كذلك قصاده، ولطيبته وحسن خلقه تلقى عوام الناس يرتادون بيته، فهو المضياف الدمث الخلق، الذي يفرح بضيوفه، ويأنس بهم، فكل طبقات المجتمع المكي تجد حظها عند الصديق رضوان الله عليه[٩٢] كان رصيده الأدبي والعلمي والاجتماعي في المجتمع المكي عظيمًا، ولذلك عندما تحرك في دعوته للإسلام استجاب له صفوة من خيرة الخلق وهم:

* عثمان بن عفان رضي الله عنه، في الرابعة والثلاثين من عمره.
* عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه في الثلاثين من عمره.
* سعد بن أبي وقاص وكان في السابعة عشرة من عمره.
* والزبير بن العوام رضي الله عنه وكان في الثانية عشرة من عمره.
* وطلحة بن عبيد الله وكان في الثالثة عشرة من عمره[٩٣].

كان هؤلاء الأبطال الخمسة أول ثمرة من ثمار الصديق أبي بكر رضي الله عنه، دعاهم إلى الإسلام فاستجابوا، وجاء بهم إلى رسول الله (ﷺ) فرادى، فأسلموا بين يديه، فكانوا الدعامات الأولى التي قام عليها صرح الدعوة، وكانوا العدة الأولى في تقوية جانب رسول الله (ﷺ)، وبهم أعزه الله وأيّده وتتابع الناس يدخلون في دين الله أفواجًا، رجالاً ونساءً، وكان كل من هؤلاء الطلائع داعية إلى الإسلام، وأقبل معهم رعيل السابقين، الواحد، والاثنان، والجماعة القليلة، فكانوا على قلة عددهم كتيبة الدعوة وحصن الرسالة، لم يسبقهم سابق ولم يلحق بهم لاحق في تاريخ الإسلام[٩٤].

إن تحرك أبي بكر رضي الله عنه في الدعوة إلى الله (تعالى) يوضح صورة من صور الإيمان بهذا الدين والاستجابة لله ورسوله (ﷺ) صورة المؤمن الذي لا يقر له قرار، ولا يهدأ له بال، حتى يحقق في دنيا الناس ما آمن به، دون أن تكون انطلاقته دفعة عاطفية مؤقتة

---

(٩١) أورده الألباني في صحيح الجامع الصغير (٨/٢) ج٣ .
(٩٢) انظر: التربية القيادية للغضبان (١/ ١١٥) .
(٩٣) انظر: التربية القيادية (١/ ١١٦) .
(٩٤) انظر: محمد رسول الله ، عرجون (١/ ٥٣٣) .

سرعان ما تخمد وتذبل وتزول، وقد بقي نشاط أبي بكر وحماسه إلى أن توفاه الله جل وعلا لم يفتر أو يضعف أو يمل أو يعجز.

ونلاحظ أن أصحاب الجاه لهم أثر كبير في كسب أنصار للدعوة؛ ولهذا كان أثر أبي بكر رضي الله عنه في الإسلام أكثر من غيره(٩٥).

بعد أن كانت صحبة الصديق لرسول الله مبنية على مجرد الاستئناس النفسي والخلقي صارت الأنسة بالإيمان بالله وحده، وبالمؤازرة في الشدائد، واتخذ رسول الله عليه الصلاة والسلام من مكانة أبي بكر، وأنس الناس به ومكانته عندهم قوة لدعوة الحق، فوق ما كان له عليه الصلاة والسلام من قوة نفس، ومكانة عند الله وعند الناس(٩٦).

ومضت الدعوة سرية وفردية على الاصطفاء والاختيار للعناصر التي تصلح أن تتكون منها الجماعة المؤمنة التي ستسعى لإقامة دولة الإسلام ودعوة الخلق إلى دين رب العباد والتي ستقيم حضارة ربانية ليس لها مثيل.

٦- الدفعة الثانية:

جاء دور الدفعة الثانية، بعد إسلام الدفعة الأولى، فأول من أسلم من هذه الدفعة: أبو عبيدة بن الجراح، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن مخزوم بن مرة ابن عمة رسول الله (ﷺ) برة بنت عبد المطلب، وأخوه من الرضاع، والأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، وعثمان ابن مظعون الجمحي، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وقدامة وعبد الله ابنا قصي، وفاطمة بنت الخطاب بن نفيل أخت عمر بن الخطاب، وزوجة سعيد بن زيد، وأسماء بنت أبي بكر الصديق، وخباب بن الأرت حليف بني زهرة(٩٧).

٧- الدفعة الثالثة:

أسلم عمير بن أبي وقاص أخو سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن مسعود، وابن الحارث ابن شمخ بن مخزوم ... بن هذيل ومسعود بن القارئ، وهو مسعود بن ربيعة بن عمرو بن سعد بن عبد العزى بن حمالة من القارة.

وسليط بن عمرو، وأخوه حاطب بن عمرو، وعياش بن أبي ربيعة، وامرأته أسماء بنت سلامة، وخنيس بن حذافة السهمي، وعامر بن ربيعة حليف آل الخطاب، وعبد الله بن جحش وأخوه أحمد، وجعفر بن أبي طالب، وامرأته أسماء بنت عميس، وحاطب بن الحارث، وامرأته فاطمة بنت المجلل، وأخوه خطاب بن الحارث، وامرأته فكيهة بنت يسار، وأخوهما، معمر بن الحارث، والسائب بن عثمان بن مظعون، والمطلب بن أزهر، وامرأته رملة بنت أبي عوف، والنحام بن عبد الله بن أسيد، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر، وفهيرة

(٩٥) انظر: الوحي وتبليغ الرسالة، د. يحيى اليحيى ص٦٢.
(٩٦) انظر: خاتم النبيين لأبي زهرة ص٣٩٨.
(٩٧) انظر: دولة الرسول من التكوين إلى التمكين ص٢١٢.

وأمه، وكان عبدًا للطفيل بن الحارث بن سخبرة، فاشتراه الصديق وأعتقه، وخالد بن سعيد ابن العاص بن أمية، بن عبد شمس، بن عبد مناف، بن قصي، وامرأته أمينة بنت خلف. وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، وواقد بن عبد الله بن عبد مناف، وخالد بن عامر وعاقل وإياس بنو البكير بن عبد ياليل، وعمار بن ياسر حليف مخزوم بن يقظة، وقال ابن هشام: عنسي من مذحج.

وصهيب بن سنان، هو (سابق الروم).

ومن السابقين إلى الإسلام: أبو ذر الغفاري، وأخوه أنيس، وأمه[٩٨].

ومن أوائل السابقين بلال بن رباح الحبشي.

وهؤلاء السابقون من جميع بطون قريش، عدهم ابن هشام أكثر من أربعين نفرًا[٩٩].

وقال ابن إسحاق: ثم دخل الناس في الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام في مكة، وتُحدث به[١٠٠].

ويتضح من عرض الأسماء السابقة، أن السابقين الأولين إلى الإسلام كانوا خيرة أقوامهم، ولم يكونوا كما يحب أعداء الإسلام أن يصوروا للناس أنهم من حثالة الناس، أو من الأرقاء الذين أرادوا استعادة حريتهم أو ما شابه ذلك وجانب الصواب بعض كتّاب السيرة لدى حديثهم عن السابقين الأولين إلى الإسلام، فكان من كتابة بعضهم: (وتُحَدِّثنا السيرة أن الذين دخلوا في الإسلام في هذه المرحلة كان معظمهم خليطًا من الفقراء والضعفاء والأرقاء فما الحكمة في ذلك؟)[١٠١].

كان رصيد هذه الدعوة بعد سنوات ثلاث من بدايتها أربعين رجلاً وامرأة عامتهم من الفقراء والمستضعفين والموالي والأرقاء وفي مقدمتهم أخلاط من مختلف الأعاجم: صهيب الرومي وبلال الحبشي[١٠٢] (فآمن به ناس من ضعفاء الرجال والنساء والموالي)[١٠٣].

إن البحث الدقيق يثبت أن مجموع من أشير إليهم بالفقراء والمستضعفين والموالي والأرقاء والأخلاط من مختلف الأعاجم هو ثلاثة عشر. ونسبة هذا العدد من العدد الكلي من الداخلين في الإسلام لا يقال «أكثرهم» ولا «معظمهم» ولا «عامتهم».

إن الذين أسلموا يومئذ لم يكن يدفعهم دافع دنيوي وإنما هو إيمانهم بالحق الذي شرح الله صدورهم له ونصرة نبيه (ﷺ) يشترك في ذلك الشريف والرقيق والغني والفقير ويتساوى

(٩٨) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٢٨٧).
(٩٩) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٢٤٥ ـ ٢٦٢).
(١٠٠) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٢٦٢).
(١٠١) فقه السيرة للبوطي ص٧٧.
(١٠٢) نفس المصدر ص٧٩.
(١٠٣) حدائق الأنوار ومطالع الأسرار لابن الربيع (١/ ٣٠١).

في هذا أبو بكر وبلال وعثمان وصهيب[١٠٤] رضي الله عنهم.

يقول الأستاذ صالح الشامي: نحن لا نريد أن ننفي وجود الضعفاء والأرقاء ولكن نريد أن ننفي أن يكونوا هم الغالبية -لأن هذا مخالف للحقائق الثابتة- ولو كانوا كذلك لكانت دعوة طبقية يقوم فيها الضعفاء والأرقاء ضد الأقوياء وأصحاب السلطة والنفوذ، ككل الحركات التي تقاد من خلال البطون. إن هذا لم يدر بخلد أي من المسلمين وهو يعلن إسلامه، إنهم يدخلون في هذا الدين على اعتبارهم أخوة في ظل هذه العقيدة. عبادًا لله، وإنه لمن القوة لهذه الدعوة أن يكون غالبية أتباعها في المرحلة الأولى بالذات من كرام أقوامهم، وقد آثروا في سبيل العقيدة أن يتحملوا أصنافًا من الهوان ما سبق لهم أن عانوها أو فكروا بها[١٠٥].

لقد كان الإسلام ينساب إلى النفوس الطيبة والعقول النيرة، والقلوب الطاهرة التي هيأها الله لهذا الأمر، ولقد كان في الأوائل خديجة وأبو بكر وعلي وعثمان والزبير، وعبد الرحمن وطلحة، وأبو عبيدة وأبو سلمة والأرقم وعثمان بن مظعون، وسعيد بن زيد، وعبد الله بن جحش، وجعفر وسعد بن أبي وقاص، وفاطمة بنت الخطاب وخالد بن سعيد، وأبو حذيفة ابن عتبة وغيرهم رضي الله عنهم وهم من سادة القوم وأشرافهم[١٠٦].

هؤلاء هم السابقون الأولون الذين سارعوا إلى الإيمان والتصديق بدعوة النبي (ﷺ).

ثالثا: استمرار النبي (ﷺ) في الدعوة:

استمر النبي (ﷺ) في دعوته السرية يستقطب عددًا من الأتباع والأنصار من أقاربه وأصدقائه، وخاصة الذين يتمكن من ضمهم في سرية تامة بعد إقناعهم بالإسلام، وهؤلاء كانوا نعم العون والسند للرسول (ﷺ) لتوسيع دائرة الدعوة في نطاق السرية وهذه المرحلة العصيبة من حياة دعوة الرسول (ﷺ) ظهرت فيها الصعوبة والمشقة في تحرك الرسول (ﷺ) ومن آمن معه بالدعوة، فهم لا يخاطبون إلا من يأمنوا من شره، ويثقون به، وهذا يعني أن الدعوة خطواتها بطيئة وحذرة، كما تقتضي صعوبة المواظبة على تلقي مطالب الدعوة من مصدرها، وصعوبة تنفيذها، إذا كان الداخل في هذا الدين ملزمًا منذ البداية بالصلاة ودراسة ما تيسر من القرآن -مثلاً- ولم يكن يستطيع أن يصلي بين ظهراني قومه، ولا أن يقرأ القرآن، فكان المسلمون يختفون في الشعاب والأودية إذا أرادوا الصلاة[١٠٧].

١ - الحس الأمني:

إن من معالم هذه المرحلة، الكتمان والسرية حتى عن أقرب الناس، وكانت الأوامر

(١٠٤) انظر: من معين السيرة صالح الشامي ص٤٠.
(١٠٥) نفس المصدر ص٤٠.
(١٠٦) المصدر السابق ص٤٠.
(١٠٧) انظر: الغرباء الأولون، سلمان العودة.

النبوية على وجوب المحافظة على السرية واضحة وصارمة، وكان (ﷺ) يكوّن من بعض المسلمين أسرًا (خلايا) وكانت هذه الأسر تختفي اختفاء استعداد وتدريب، لا اختفاء جبن وهروب حسب ما تقتضيه الخطة الربانية، فبدأ الرسول عليه الصلاة والسلام ينظم أصحابه من أسر وخلايا صغيرة، فكان الرجل يجمع الرجل والرجلين إذا أسلما، عند الرجل به قوة وسعة من المال، فيكونان معه ويصيبان منه فضل طعامه ويجعل منهم حلقات، فمن حفظ شيئًا من القرآن علّمَ من لم يحفظ، فيكون من هذه الجماعات أسر أخوة، وحلقات تعليم.

إن المنهج الذي سار عليه رسول الله (ﷺ) في تربية أتباعه هو القرآن الكريم وكان النبي (ﷺ) يربي أصحابه تربية شاملة في العقائد والعبادات والأخلاق، والحس الأمني وغيرها ولذلك نجد في القرآن الكريم آيات كريمة تحدثت عن الأخذ بالحس الأمني؛ لأن من أهم عوامل نهوض الأمة أن ينشأ الحس الأمني في جميع أفرادها وخصوصًا في الصف المنظم الذي يدافع عن الإسلام ويسعى لتمكينه في دنيا الناس، ولذلك نجد النواة الأولى للتربية الأمنية كانت في مكة وتوسعت مع توسع الدعوة ووصولها إلى الدولة ومن الآيات المكية التي أشارت إلى هذا المعنى قوله (تعالى): ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (سورة يوسف، الآية ٨٧).

ووجه الاستدلال: أن يعقوب عليه السلام قد طلب من أبنائه أن يتحسسوا ويبحثوا عن يوسف وأخيه، وفي هذا إقرار من أحد أنبياء الله في جمع المعلومات عن الآخرين، ويعتبر جمع المعلومات من العناصر الأساسية في علم الاستخبارات، ويؤكد على مبدأ جمع المعلومات ﴿وَلاَ تَيْأَسُواْ﴾[١٠٨].

ولا شك أن الصحابة كانوا يجمعون المعلومات على من يريدون دعوته للإسلام وكانت القيادة تشرف على ذلك؛ ولذلك قام النبي (ﷺ) بترتيب جهاز أمني رفيع يشرف على الاتصال المنظم بين القيادة والقواعد ليضمن تحقيق مبدأ السرية.

وفي القرآن المكي نجد قوله (تعالى): ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ (سورة القصص، الآيتان: ١١-١٢).

ونلاحظ في الآيات الآتي:

١- استخدام أم موسى مبدأ جمع المعلومات والحصول عليها في حفاظها على ابنها: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ (سورة القصص، الآية ١١) والتقصي إنما هو تتبع الأثر وجمع المعلومات.

٢- اختيار العنصر الأمين والحريص في جمع المعلومات لتكن صحيحة وموثقة وأمينة، وقبل ذلك حريصة على تلك المعلومات ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ (القصص، آية: ١١) فأم

(١٠٨) انظر: الاستخبارات العسكرية في الإسلام، عبد الله علي ص١٠٥ .

موسى لم تختر غير أخته، لأن الأخت تعتبر من الحريصين والأمناء على تلك المصلحة، وهي تندفع من ذاتها في جمع المعلومات وتحصيل الأخبار، ومن المهم بمكان أن يكون العنصر المرسل في عملية الاستخبارات مندفعًا من ذاته حريصًا على المصلحة المرسل إليها.

٣- التقصي والتتبع بدون إشارة أو جلب أنظار ﴿قُصِّيهِ﴾ (سورة القصص، آية: ١١) نفهم من كلمة التقصي الانتباه وعدم إثارة الأنظار، ودليل ذلك إنها بصرت به دون أن يشعروا بها.

٤- دقة الملاحظة وقوة الفراسة أثناء جمع المعلومات ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ (سورة القصص، الآية: ١١).

٥- استعملت أخت موسى شكلاً من أشكال الاستخبارات العصرية وهو التخريب الفكري، فبعد أن نظرت إليهن وهنّ غير قادرات على إرضاعه: ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ (سورة القصص، الآية: ١٢). وقد قصدت إبعاد موسى عن المراضع، ليخلص إلى أمها دون إشعارهم أنها منه بسبيل.

٦ - محاولة تحقيق الهدف أثناء جمع المعلومات، فأخت موسى لم تكتف بأن تعرف مكان موسى لتخبر أمها بمكانه وإنما هي تقصت الأخبار، وتوصلت إلى مكانه وحاولت إعادته إلى أمه وقد نجحت في هذا[١٠٩].

إن هذه الآيات الكريمة تربي في حس الصحابة الحس الأمني وأخذ الحيطة في مسيرتهم الدعوية.

إن السيرة النبوية غنية في أبعادها الأمنية منذ تربية الأفراد وحتى بعد قيام الدولة، وتظهر الحاجة للحركات الإسلامية والدول المسلمة لإيجاد أجهزة أمنية متطورة (في زمننا المعاصر)؛ تحمي الإسلام والمسلمين من أعدائها اليهود والنصارى والملاحدة، وتعمل على حماية الصف المسلم في الداخل من اختراقات الأعداء فيه، وتجتهد لرصد أعمال المعارضين والمحاربين للإسلام، حتى تستفيد القيادة من المعلومات التي تقدمها لها أجهزتها المؤمنة الأمنية، ولا بد أن تؤسس هذه الأجهزة على قواعد منبعها القرآن الكريم والسنّة النبوية، وتكون أخلاق رجالها قمة رفيعة تمثل صفات رجال الأمن المسلمين.

إن اهتمام المسلمين بهذا الأمر يجنبهم المفاجآت العدوانية (إذا عرفت العدو وعرفت نفسك فليس هناك ما يدعوك إلى أن تخاف نتائج مئة معركة، وإذا عرفت نفسك ولم تعرف العدو فإنك ستواجه الهزيمة في كل معركة)[١١٠].

إن بناء الأجهزة الأمنية، ومكاتب المعلومات التي تقدم للقيادة التقارير لوضع الخطط المناسبة على أثرها، ليس أمرًا جديدًا، بل هو موغل في تاريخ الإنسانية، وكذلك في تاريخ

---

(١٠٩) انظر: الاستخبارات العسكرية في الإسلام ص١١١ ، ١١٢ .

(١١٠) نفس المصدر ص٣١١ .

المسلمين منذ عصر النبوة والخلافة الراشدة حتى يومنا هذا.

إن من أسباب التمكين المهمة إعطاء هذا الأمر حقه من الاهتمام، والارتقاء به وتطويره بما يناسب أحوال العصر الذي نحن فيه[(١١١)]. كان النبي (ﷺ) يشرف بنفسه على تربية أصحابه في كافة الجوانب، ووزعهم في أسر، فمثلاً كانت فاطمة بنت الخطاب وزوجها سعيد ابن زيد، وهو ابن عم عمر بن الخطاب رضي الله عنهم، كانوا في أسرة واحدة مع نعيم بن عبد الله النحام بن عدي، وكان معلمهم خباب بن الأرت، وكان اشتغالهم بالقرآن لا يقتصرون منه على تجويد تلاوته وضبط مخارج حروفه ولا على الاستكثار من سرده، والإسراع في قراءته بل كان همهم دراسته وفهمه ومعرفة أمره ونهيه والعمل به[(١١٢)].

كان النبي (ﷺ) يهتم بالتخطيط الدقيق المنظم، ويحسب لكل خطوة حسابها، وكان مدركًا تمامًا أنه سيأتي اليوم الذي يؤمر فيه بالدعوة علنًا وجهرًا، وأن هذه المرحلة سيكون لها شدتها وقوتها، فحاجة الجماعة المؤمنة المنظمة تقتضي أن يلتقي الرسول المربي مع أصحابه، فكان لا بد من مقر لهذا الاجتماع، فقد أصبح بيت خديجة رضي الله عنها لا يتسع لكثرة الأتباع، فوقع اختيار النبي وصحبه على دار الأرقم بن أبي الأرقم؛ إذ أدرك الرسول عليه الصلاة والسلام أن الأمر يحتاج إلى الدقة المتناهية في السرية والتنظيم، ووجوب التقاء القائد المربي بأتباعه في مكان آمن بعيد عن الأنظار، ذلك أن استمرار اللقاءات الدورية المنظمة بين القائد وجنوده هو خير وسيلة للتربية العملية والنظرية، وبناء الشخصية القيادية الدعوية.

ومما يدل على أن الرسول (ﷺ) كان يعد أتباعه ليكونوا بناة الدولة وحملة الدعوة وقادة الأمم هو حرصه الشديد على هذا التنظيم السري الدقيق، فلو كان مجرد داعية لما احتاج الأمر إلى كل هذا.

ولو كان يريد مجرد إبلاغ الدعوة للناس لكان خير مكان في الكعبة حيث منتدى قريش كلها، ولكن الأمر -غير ذلك- فلا بد من السرية التامة في التنظيم، وفي المكان الذي يلتقي فيه مع أصحابه، وفي الطريقة التي يحضرون إليها إلى مكان اللقاء[(١١٣)].

٢- دار الأرقم بن أبي الأرقم (مقر القيادة):

تذكر كتب السيرة أن اتخاذ دار الأرقم مقرٌ لقيادة الرسول (ﷺ) كان بعد المواجهة الأولى التي برز فيها سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال ابن إسحاق: وكان أصحاب رسول الله (ﷺ) إذا صلوا ذهبوا في الشعاب، فاستخفوا بصلاتهم من قومهم. فبينما سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في نفر من أصحاب رسول الله (ﷺ) في شعب من شعاب مكة إذ ظهر عليه نفر من المشركين وهم يصلون، فناكروهم، وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم، فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلاً من المشركين بلحي بعير فشجه، فكان أول دم أهريق

(١١١) انظر: فقه التمكين في القرآن ، علي الصّلابي ص٣١١ .

(١١٢) انظر: الدعوة الإسلامية ، د . عبد الغفار محمد عبد العزيز ص٩٦ .

(١١٣) انظر: دولة الرسول من التكوين إلى التمكين ص٢١٨ .

في الإسلام)[١١٤].

أصبحت دار الأرقم السرية مركزًا جديدًا للدعوة يتجمع فيه المسلمون، ويتلقون عن رسول الله (ﷺ) كل جديد من الوحي، ويستمعون له (ﷺ) وهو يذكرهم بالله، ويتلو عليهم القرآن، ويضعون بين يديه كل ما في نفوسهم وواقعهم فيربيهم -عليه الصلاة والسلام- على عينه كما تربى هو على عين الله عز وجل وأصبح هذا الجمع هو قرة عين النبي(ﷺ)[١١٥].

رابعًا: أهم خصائص الجماعة الأولى التي تربت على يدي رسول الله (ﷺ):

كانت الجماعة الأولى التي تربت على يدي رسول الله (ﷺ) قد برزت فيها خصائص مهمة جعلتها تتقدم بخطوات رصينة نحو صياغة الشخصية المسلمة، التي تقيم الدولة المؤمنة، وتصنع الحضارة الرائعة، فمن أبرز هذه الخصائص:

١- الاستجابة الكاملة للوحي، وعدم التقديم بين يديه:

إن العلم والفقه الصحيح الكامل في العقائد والشرائع والآداب وغيرها لا يكون إلا عن طريق الوحي المنزل -قرآنًا وسنّة- وذلك بالعلم بالله وأسمائه وصفاته، وأفعاله ومعرفة ما يجب له وما ينزه عنه سبحانه و(تعالى)-، والعلم بالملائكة، والكتاب، والنبيين، والعلم بالآخرة، والجنة، والنار، والعلم بالشرائع المجملة والمفصّلة، والأحكام المتعلقة بالمكلفين، والعلم بالمسلك الصحيح الذي ينبغي سلوكه في سائر الأحوال: في الغضب والرضا، القصد والغنى، في الأمن والخوف، في الخير والشر، في الهدنة والفتنة، والتزام الدليل الشرعي هو منهج الذين أنعم الله عليهم بالإيمان الصحيح[١١٦] قال (تعالى): ﴿ **وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ** ﴾ (سورة الأعراف، آية: ١٨١).

لقد كان الصحابة رضي الله عنهم أعظم من غيرهم انتفاعًا بالدليل والوحي، وتسليمًا له؛ لأسباب عديدة؛ منها:

أ- نزاهة قلوبهم، وخلوها من كل ميل أو هوى غير ما جاءت به النصوص، واستعدادها التام لقبول ما جاء عن الله ورسوله والإذعان والانقياد له انقيادًا مطلقًا؛ دون حرج، ولا تردد، ولا إحجام.

ب- معاصرتهم لوقت التشريع ونزول الوحي، ومصاحبتهم للرسول (ﷺ) ولذلك كانوا أعلم الناس بملابسات الأحوال التي نزلت النصوص فيها، والعلم بملابسات الواقعة أو النص من أعظم أسباب فقهه وفهمه وإدراك مغزاه.

جـ- وكانت النصوص -قرآنا وسنّة- تأتي في كثير من الأحيان لأسباب تتعلق بهم -بصورة فردية، أو جماعية-، فتخاطبهم خطابًا مباشرًا، وتؤثر فيهم أعظم التأثير، لأنها

---

(١١٤) انظر: ابن هشام (١/ ٢٣٦).

(١١٥) انظر: التربية القيادية (١/ ١٩٨).

(١١٦) انظر: صفة الغرباء، سلمان العودة ص٨٣.

تعالج أحداثًا واقعية، وتعقب في حينها، حيث تكون النفوس مشحونة بأسباب التأثر، متهيئة لتلقي الأمر والاستجابة له.

د- قد أعفاهم قرب عهدهم بالنبي (ﷺ) من الجهد الذي احتاج إليه من بعدهم في تمييز النصوص وتصحيحها، فلم يحتاجوا -في غالب أحوالهم- إلى سلسلة الإسناد، ولا معرفة الرجال والعلل وغيرها، ولم يختلط عليهم الصحيح بغيره، ومن ثمّ لم يقع عندهم التردد في ثبوت النص الذي وقع عند كثير ممن جاء بعدهم -خاصة من أصحاب النفوس المريضة، أو من الجهلة الذين لم يدرسوا السنّة ويفقهوها رواية ودراية(١١٧) - فكانوا إذا سمعوا أحدًا يقول: قال رسول الله (ﷺ)؛ ابتدرته أبصارهم؛ كما يقول ابن عباس رضي الله عنه(١١٨).

٢- التأثر الوجداني العميق بالوحي والإيمان:

كان الصحابة يتعاملون مع العلم الصحيح ليس كحقائق علمية مجردة يتعامل معها العقل فحسب، دون أن يكون لها علاقة بالقلب والجوارح؛ فقد أورثهم العلم بالله، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله: محبته والتأله إليه، والشوق إلى لقائه والتمتع بالنظر إلى وجهه الكريم في جنة عدن، وأورثهم تعظيمه، والخوف منه والحذر من بأسه وعقابه، وبطشه ونقمته وأورثهم رجاء ما عنده، والطمع في جنته ورضوانه، وحسن الظن به، فاكتملت لديهم -بذلك- آثار العلم بالله والإيمان به، وهي: الحب والخوف، والرجاء، وأورثهم العلم بالجنة والنار: الرغبة في النعيم الأبدي السرمدي والخوف من مقاساة العذاب الرهيب، فقلوبهم تتراوح بين نعيم ترجوه وتخشى فوته، وعذاب تحذره وتخشى وقوعه؛ فتعلقت قلوبهم بالآخرة -فكرًا وخوفًا ورجاء- حتى كأنهم يرون البعث والقيامة والميزان والصراط والجنة والنار رأي العين، وأورثهم علمهم بالقدر، وأنه أمر قد فرغ منه: التوكل على الله، وعدم التوكل على الأسباب، وعدم الفرح بما أوتوا ولا الأسى على ما مُنعوا، والإجمال في الطلب، إذ لن يفوت المرء ما قدر له، ولن يأتيه ما لم يقدّر، كما غرس في نفوسهم الشجاعة والإقدام، وأورثهم علمهم بالموت وإيمانهم به: العزوف عن الدنيا، والإقبال على الآخرة، والدوام على العمل الصالح، إذ لا يدري المرء متى يموت والموت منه قريب وهذه المعاني الوجدانية هي المقصود الأعظم من تحصيل العلم، وإذا فقدت فلا ينفع مع فقدها علم، بل هو ضررٌ في العاجل والآجل(١١٩).

ولقد كان للصحابة - رضي الله عنهم - من هذه المعاني الوجدانية أعظم نصيب؛ لأن إيمانهم كان أعمق وأكمل من إيمان غيرهم ولقد تلقوه غضًا طريًا من النبي (ﷺ) لم يَخْلَقْ بغبرة الأهواء والغفلان(١٢٠).

وكان الصحابة فرسانًا بالنهار، ورهبانًا بالليل، لا يمنعهم علمهم وإيمانهم الحق

(١١٧) انظر: صفة الغرباء ص٩٢، ٩٣.
(١١٨) نفس المصدر ص٩٤.
(١١٩) انظر: صفة الغرباء ص٩٧.
(١٢٠) نفس المصدر ص١٠٢.

وخشوعهم لله من القيام بشؤونهم الدنيوية؛ من بيع، وشراء، وحرث، ونكاح، وقيام على الأهل والأولاد وغيرهم فيما يحتاجون، وكانوا بعيدين كل البعد عن الإعجاب بالنفس، الذي أصيب به بعض المتعبدين ممن جاء بعدهم، فترتب عليه ازدراؤهم واحتقارهم لأعمال الآخرين، واستهانة بمجهوداتهم في سبيل الدين وحطّ من قدرهم، فأصبحوا في الحقيقة متعبدين في محراب (الذات) معظمين لأنفسهم، وهذا مصدر كل رذيلة خلقية، وسبب لمحق كل عمل صالح.

والذين يصابون بهذه البليّة المردية يشعرون بأنهم -وحدهم- الأوصياء على الدين ويغلقون عقولهم وأعينهم عن رؤية فضائل الآخرين، فلا يرون إلا العيوب والمساوئ، بل تصبح الفضائل عندهم عيوبًا ومساوئ[١٢١].

خامسًا: شخصية النبي (ﷺ) وأثرها في صناعة القادة:

كانت دار الأرقم بن أبي الأرقم أعظم مدرسة للتربية والتعليم عرفتها البشرية كيف لا، وأستاذها هو رسول الله (ﷺ) أستاذ البشرية كلها، وتلاميذها هم الدعاة والهداة، والقادة الربانيون الذي حرروا البشرية من رق العبودية وأخرجوهم من الظلمات إلى النور، بعد أن رباهم الله (تعالى) على عينه تربية غير مسبوقة ولا ملحوقة[١٢٢].

في دار الأرقم وفق الله (تعالى) رسوله إلى تكوين الجماعة الأولى من الصحابة الذين نقلهم من هباء الجاهلية إلى نور الإيمان، وأصبحوا جميعًا من عظماء الرجال ومشاهير العالم، وصناع التاريخ البشري، حيث قاموا بأعظم دعوة عرفتها البشرية.

إن خريجي مدرسة الأرقم من عظماء الرجال في العالم، وهم الذين قامت عليهم الدعوة، والجهاد والدولة والحضارة فيما بعد؛ فلم يجد الزمان بواحد مثل أبي بكر الصديق وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص.... إلخ.

لقد استطاع الرسول المربي الأعظم (ﷺ) أن يربي في تلك المرحلة السرية، وفي دار الأرقم أفذاذ الرجال الذين حملوا راية التوحيد، والجهاد والدعوة فدانت لهم الجزيرة، وقاموا بالفتوحات العظيمة في نصف قرن.

كانت قدرة النبي (ﷺ) فائقة في اختيار العناصر الأولى للدعوة في خلال السنوات الثلاثة الأولى من عمر الدعوة، وتربيتهم وإعدادهم إعدادًا خاصًا ليؤهلهم لاستلام القيادة، وحمل الرسالة، فالرسالات الكبرى، والأهداف الإنسانية العظمى لا يحملها إلا أفذاذ الرجال، وكبار القادة، وعمالقة الدعاة كانت دار الأرقم مدرسة من أعظم مدارس الدنيا، وجامعات العالم، التقى فيها الرسول المربي بالصفوة المختارة من الرعيل الأول (السابقين الأولين)، فكان ذلك اللقاء الدائم تدريبًا عمليًا لجنود المدرسة على مفهوم الجندية والسمع

---

(١٢١) انظر: صفة الغرباء ص١٠٣، ١٠٤.

(١٢٢) انظر: دولة الرسول من التكوين إلى التمكين ص٢١٩.

والطاعة والقيادة وآدابها وأصولها، ويشحذ فيه القائد الأعلى جنده وأتباعه بالثقة بالله والعزيمة والإصرار، ويأخذهم بالتزكية والتهذيب، والتربية والتعليم، كان هذا اللقاء المنظم يشحذ العزائم، ويقوي الهمم، ويدفع إلى البذل والتضحية والإيثار(١٢٣).

كانت نقطة البدء في حركة التربية الربانية الأولى لقاء المدعو بالنبي (ﷺ)، فيحدث للمدعو تحول غريب واهتداء مفاجئ بمجرد اتصاله بالنبي (ﷺ)، فيخرج المدعو من دائرة الظلام إلى دائرة النور، ويكتسب الإيمان ويطرح الكفر، ويقوى على تحمل الشدائد والمصائب في سبيل دينه الجديد وعقيدته السمحة.

كانت شخصية رسول الله (ﷺ) المحرك الأول للإسلام، وشخصيته (ﷺ) تملك قوى الجذب والتأثير على الآخرين، فقد صنعه الله على عينه، وجعله أكمل صورة لبشر في تاريخ الأرض والعظمة دائمًا تحب، وتحاط من الناس بالإعجاب، ويلتف حولها المعجبون يلتصقون بها التصاقًا بدافع الإعجاب والحب، ولكن رسول الله (ﷺ) يضيف إلى عظمته تلك، أنه رسول الله، متلقي الوحي من الله، ومبلغه إلى الناس، وذلك بُعدٌ آخر له أثره في تكييف مشاعر ذلك المؤمن تجاهه فهو لا يحبه لذاته فقط كما يُحب العظماء من الناس، ولكن أيضًا لتلك النفحة الربانية التي تشمله من عند الله، فهو معه في حضرة الوحي الإلهي المكرم؛ ومن ثم يلتقي في شخص الرسول (ﷺ) البشر العظيم والرسول العظيم، ثم يصبحان شيئًا واحدًا في النهاية، غير متميز البداية ولا النهاية.. حب عميق شامل للرسول البشر أو للبشر الرسول ويرتبط حب الله بحب رسوله ويمتزجان في نفسه، فيصبحان في مشاعره هما نقطة ارتكاز المشاعر كلها، ومحور الحركة الشعورية والسلوكية كلها كذلك.

كان هذا الحب الذي حرك الرعيل الأول من الصحابة هو مفتاح التربية الإسلامية ونقطة ارتكازها ومنطلقها الذي تنطلق منه(١٢٤).

سادسًا: المادة الدراسية في دار الأرقم:

كانت المادة الدراسية التي قام بتدريسها النبي (ﷺ) في دار الأرقم القرآن الكريم، فهو مصدر التلقي الوحيد، فقد حرص الحبيب المصطفى على توحيد مصدر التلقي وتفرده وأن يكون القرآن الكريم وحده هو المنهج والفكرة المركزية التي يتربى عليها الفرد المسلم، والأسرة المسلمة، والجماعة المسلمة، وكان روح القدس ينزل بالآيات غضة طرية على رسول الله (ﷺ)، فيسمعها الصحابة من فم رسول الله (ﷺ) مباشرة، فتسكب في قلوبهم، وتتسرب في أرواحهم، وتجري في عروقهم مجرى الدم وكانت قلوبهم وأرواحهم تتفاعل مع القرآن وتنفعل به، فيتحول الواحد منهم إلى إنسان جديد بقيمه ومشاعره، وأهدافه، وسلوكه وتطالعاته. لقد حرص الرسول (ﷺ) حرصًا شديدًا على أن يكون القرآن الكريم وحده هو

---

(١٢٣) انظر: دولة الرسول من التكوين إلى التمكين ص٢٢٠.

(١٢٤) انظر: منهج التربية الإسلامية، محمد قطب ص٣٤، ٣٥.

المادة الدراسية، والمنهج الذي تتربى عليه نفوس أصحابه، وألا يختلط تعليمهم بشيء من غير القرآن[١٢٥].

في دار الأرقم تعلموا أن القرآن وحده وتوجيهـات الحبيب المصطفى هما الدستور الأعلى للدعوة والحياة والدولة والحضارة كان القرآن الكريم المادة الدراسية الوحيدة التي تلقاها تلاميذ مدرسة الأرقم على يد المربي الأعظم محمد (ﷺ)، فهو المصدر الوحيد للتلقي، وعليه تربى الجيل الفـريد من هذه الأمة العظيـمة، فهـو كتاب هذه الأمـة الحي، ورائدها الناصح، وهو مدرستها التي تتلقى فيها دروس حياتها.

لقد تلقى الرعيل الأول القرآن الكريم بجدية ووعي وحـرص شديد على فهم توجيهاته، والعمل بها بدقة تامة، فكانوا يلتمسون مـن آياته ما يوجههم في كل شأن من شؤون حياتهم الواقعية، والمستقبلية.

فنشأ الرعيل الأول على توجيهات القرآن الكريم، وجاؤوا صـورة عملية لهذه التوجيهات الربانية، فـالقرآن كان هو المدرسـة الإلهية، التي تخـرج منها الدعاة والقـادة الربانيون، ذلك الجيل الذي لم تعرف له البشرية مثيلاً من قبل ومن بعد لقد أنزل الله القرآن الكريم على قلب رسوله، لينشئ به أمة ويقيم به دولة، وينظم به مجتمعًا وليربي به ضمائرًا وأخلاقًا وعقولاً، ويبني به عقيدة وتصورًا وأخلاقًا، ومشاعـر، فخرّج الجماعة المسلمة الأولى التي تفوقت على سائر المجتمعات في جـميع المجالات؛ العقدية، والروحية والخلقية، والاجتماعـية والسياسية والحربية[١٢٦].

سابعًا: الأسباب في اختيار دار الأرقم:

كان اختيار دار الأرقم لعدة أسباب منها:

١- أن الأرقم لم يكن معـروفًا بإسلامه، فـما كان يخطر ببـال أحد أن يتم لقاء محـمد وأصحابه بداره.

٢- أن الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنه من بني مخزوم وقـبيلة بني مخزوم هي التي تحمل لواء التنافس والحرب ضـد بني هاشم. فلو كان الأرقم معروفًا بإسـلامه فلا يخطر في البال أن يكون اللقاء في داره لأن هذا يعني أنه يتم في قلب صفوف العدو.

٣- أن الأرقم بن أبي الأرقم كان فتى عند إسلامه؛ فلقد كـان في حدود السادسة عشرة من عمره، ويوم تفكر قريش في البحث عن مركـز التجمع الإسلامي فلن يخطر في بالها أن تبحث في بيوت الفتيان الصغار من أصحاب محمد (ﷺ)؛ بل يتجه نظرها وبحثها إلى بيوت كبار أصحابه، أو بيته هو نفسه (ﷺ).

فقد يخطر على ذهنهم أن يكون مكان التجمع على الأغلب في أحد دور بني هاشم، أو

(١٢٥) انظر: دولة الرسول من التكوين إلى التمكين ص٢٢٥ .
(١٢٦) نفس المصدر ص٣٣٥ .

في بيت أبي بكر رضي الله عنه أو غيره ومن أجل هذا نجد أن اختيار هذا البيت كان في غاية الحكمة من الناحية الأمنية، ولم نسمع أبدًا أن قريشًا داهمت ذات يوم هذا المركز وكشفت مكان اللقاء[١٢٧].

ثامنًا: من صفات الرعيل الأول:

كانت الفترة الأولى من عمر الدعوة تعتمد على السرية والفردية وكان التخطيط النبوي دقيقًا ومنظمًا، وكان تخطيطًا سياسيًا محكمًا، فما كان اختيار رسول الله (ﷺ) لدار الأرقم لمجرد اجتماع المسلمين فيها لسماع نصائح ومواعظ وإرشادات، وإنما كانت مركزًا للقيادة، ومدرسة للتعليم والتربية والإعداد والتأهيل للدعوة والقيادة، بالتربية الفردية العميقة الهادئة، وتعهد بعض العناصر والتركيز عليها تركيزًا خاصًا، لتأهيلها لأعباء الدعوة والقيادة، فكان الرسول المربي قد حدد لكل فرد من هؤلاء عمله بدقة وتنظيم حكيم، اشترك في ذلك، الكل يعرف دوره المنوط به، والكل يدرك طبيعة الدعوة والمرحلة التي تمر بها، والكل ملتزم جانب الحيطة والحذر والسرية والانضباط التام[١٢٨].

كان بناء الجماعة المؤمنة في الفترة المكية يتم بكل هدوء وتدرج وسرية وكان شعار هذه المرحلة هو توجيه المولى عز وجل المتمثل في قوله (تعالى): ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا**﴾ (سورة الكهف، الآية ٢٨).

فالآية الكريمة تأمر النبي (ﷺ) بأن يصبر على تقصير وأخطاء المستجيبين لدعوته، وأن يصبر على كثرة تساؤلاتهم خاصة إن كانت خاطئة، وأن يصبر على ترددهم في قبول التوجيهات، وأن يجتهد في تصبيرهم على فتنة أعداء الدعوة، وأن يوضح لهم طبيعة طريق الدعوة، وأنها شاقة، وألايغرر به مغرر ليبعده عنهم، وألا يسمع فيهم منتقصًا، ولا يطيع فيهم متكبرًا أغفل الله قلبه عن حقيقة الأمور وجوهرها[١٢٩].

إن الآيات الكريمة السابقة من سورة الكهف تصف لنا بعض صفات الجماعة المسلمة الأولى والتي من أهمها:

أ- الصبر في قوله (تعالى): ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ**﴾ إن كلمة الصبر تتردد في القرآن الكريم وفي أحاديث النبي (ﷺ) ويوصي الناس بها بعضهم بعضًا، وتبلغ أهميتها أن تصير صفة من أربع للفئة الناجية من الخسران.

قال (تعالى): ﴿**وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾ (سورة العصر) فحكم المولى عز وجل على جميع الناس بالخسران إلا من أتى بهذه الأمور الأربعة:

---

(١٢٧) انظر: المنهاج الحركي للغضبان (١/٤٩).

(١٢٨) انظر: دولة الرسول من التكوين إلى التمكين ص٢٣٧.

(١٢٩) انظر: الطريق إلى جماعة المسلمين، حسين بن محسن ص١٧٠.

١ – الإيمان بالله.

٢ – العمل الصالح.

٣ – التواصي بالحق.

٤ – التواصي بالصبر.

لأن نجاة الإنسان لا تكون إلا إذا أكمل الإنسان نفسه بالإيمان والعمل الصالح، وكمل غيره بالنصح والإرشاد، فيكون قد جمع بين حق الله، وحق العباد، والتواصي بالصبر ضرورة؛ لأن القيام على الإيمان والعمل الصالح، وحراسة الحق والعدل من أعسر ما يواجه الفرد والجماعة، ولا بد من الصبر على جهاد النفس، وجهاد الغير، والصبر على الأذى والمشقة، والصبر على تبجح الباطل، والصبر على طول الطريق وبطء المراحل، وانطماس المعالم وبعد النهاية(١٣٠).

ب- كثرة الدعاء والإلحاح على الله: وهذا يظهر في قوله (تعالى): **﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾** (سورة الأنعام: الآية ٥٢)؛ فالدعاء باب عظيم، فإذا فتح للعبد تتابعت عليه الخيرات، وانهالت عليه البركات فلابد من تربية الأفراد الذين يعدون لحمل الرسالة وأداء الأمانة على حسن الصلة بالله وكثرة الدعاء، لأن ذلك من أعظم وأقوى عوامل النصر(١٣١).

ج – الإخلاص: ويظهر في قوله (تعالى): **﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾** ولا بد عند إعداد الأفراد إعدادًا ربانيًا أن يتربى المسلم على أن تكون أقواله وأعماله، وجهاده كله لوجه الله وابتغاء مرضاته وحسن مثوبته من غير نظر إلى مغنم، أو جاه، أو لقب، أو تقدم، أو تأخر، وحتى يصبح جنديًا من أجل العقيدة والمنهج الرباني ولسان حاله قوله (تعالى): **﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾** (سورة الأنعام، الآيتان: ١٦٢، ١٦٣).

إن الإخلاص ركن من أركان قبول العمل ومعلوم أن العمل عند الله لا يقبل إلا بالإخلاص وتصحيح النية وبموافقة السنّة والشرع.

د- الثبات: ويظهر في قوله (تعالى): **﴿وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾** (سورة الكهف، آية: ٢٨).

وهذا الثبات المذكور فرع عن ثبات أعم ينبغي أن يتسم به الداعية الرباني، قال (تعالى): **﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾** (سورة الأحزاب، الآية: ٢٣).

ففي الآيات الكريمة ثلاث صفات، إيمان ورجولة، وصدق. وهذه العناصر مهمة للثبات على المنهج الحق، لأن الإيمان يبعث على التمسك بالقيم الرفيعة والتثبت بها، وباعث على

---

(١٣٠) انظر: الظلال (٦/٣٩٦٨).

(١٣١) انظر: فقه التمكين في القرآن الكريم ص٢٢١.

التضحية بالنفس ليبقى المبدأ الرفيع، والرجولة محركة للنفس نحو هذا الهدف غير مهتمة بالصغائر والصغار، وإنما دائمًا دافعة نحو الهدف الأسمى، والمبدأ الرفيع، وصدق يحول دون التحول أو التغير أو التبديل، ومن ثم يورث هذا كله الثبات الذي لا يتلون معه الإنسان وإن رأى شعاع السيف على رقبته أو رأى حبل المشنقة ينتظره، أو رأى الدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها.

ولا شك أن اللبنات التي تعد لحمل الدعوة، وإقامة الدولة، وصناعة الحضارة تحتاج إلى الثبات الذي يعين على تحقيق الأهداف السامية والغايات الجميلة والقيم الرفيعة(١٣٢).

هذه من أهم الصفات التي اتصفت بها الجماعة المؤمنة الأولى.

تاسعًا: انتشار الدعوة في بطون قريش وعالميتها:

كان انتشار الإسلام في المرحلة السرية في سائر فروع قريش بصورة متوازنة دون أن يكون ثقل كبير لأي قبيلة وهذه الظاهرة مخالفة لطبيعة الحياة القبلية آنذاك. وهي إذا أفقدت الإسلام الاستفادة الكاملة من التكوين القبلي والعصبية لحماية الدعوة الجديدة ونشرها، فإنها بنفس الوقت لم تؤلب عليه العشائر الأخرى بحجة أن الدعوة تحقق مصالح العشيرة التي انتمت إليها وتعلي من قدرها على حساب العشائر الأخرى، ولعل هذا الانفتاح المتوازن على الجميع أعان في انتشار الإسلام في العشائر القرشية العديدة دون تحفظات متصلة بالعصبية؛ فأبو بكر الصديق من «تيم» وعثمان بن عفان من «بني أمية» والزبير بن العوام من «بني أسد»، ومصعب بن عمير من «بني عبد الدار» وعلي بن أبي طالب من «بني هاشم» وعبد الرحمن ابن عوف من «بني زهرة» وسعيد بن زيد من «بني عدي»، وعثمان بن مظعون من «بني جمح» ؛ بل إن عددًا من المسلمين في هذه المرحلة لم يكونوا من قريش، فعبد الله بن مسعود من هذيل، وعتبة بن غزوان من مازن، وعبد الله بن قيس من الأشعريين، وعمار بن ياسر من عنس من مذحج، وزيد بن حارثة بن كلب، والطفيل بن عمرو من دوس، وعمرو بن عبسة من سليم، وصهيب النمري من «بني النمر بن قاسط» لقد كان واضحًا أن الإسلام لم يكن خاصًا بمكة(١٣٣).

لقد شق النبي (ﷺ) طريقه بكل تخطيط ودقة وأخذ بالأسباب مع التوكل على الله (تعالى)، فاهتم بالتربية العميقة، والتكوين الدقيق، والتعليم الواسع، والاحتياط الأمني، والانسياب الطبيعي في المجتمع، والإعداد الشامل للمرحلة التي بعد السرية؛ لأنه عليه الصلاة والسلام يعلم إن الدعوة إلى الله لم تنزل لتكون دعوة سرية يخاطب بها الفرد بعد الفرد، بل نزلت لإقامة الحجة على العالمين، وإنقاذ من شاء الله إنقاذه من الناس من ظلمات الشرك والجاهلية إلى نور الإسلام والتوحيد، ولذلك كشف الله (تعالى) عن حقيقة هذه

---

(١٣٢) انظر: دعوة الله بين التكوين والتمكين، د. علي جريشة ص٩١، ٩٢.
(١٣٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/١٣٣).

الدعوة وميدانها منذ خطواتها الأولى حيث أن القرآن المكي بين شمول الدعوة وعالمتيها:

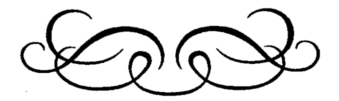
قال (تعالى): ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (سورة ص، آية: ٨٧).

قال (تعالى): ﴿وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (سورة القلم، آية: ٥٢).

إن الدعوة جاءت لتخاطب البشر، كل البشر، ولتنقذ منهم من سبقت له من الله الحسنى.

وهذا يعني أن الدعوة جاءت ومن خصائصها؛ الإعلان والصدع، والبلاغ، والبيان، والإنذار، وتحمل ما يترتب على هذا من التكذيب، والإيذاء والقتل. إن استسرار النبي (ﷺ) في دعوته أول الأمر، إنما هو حال استثنائي لظروف وملابسات خاصة، هي ظروف بداية الدعوة وضعفها وغربتها، وينبغي أن يفهم ضمن هذا الإطار.

وإن كان الكتمان والاستسرار سياسة مصلحية في كثير من أمور الإسلام في الحرب والسلام، فهو كذلك في موضوع الدعوة؛ فالاستسرار بها كان لضرورة فرضها الواقع وإلا فالأصل هو بيان دين الله وشرعه وحكمه لكل الناس، أما الاستسرار بما سوى ذلك من الوسائل والخطط والتفصيلات فهو أمر مصلحي خاضع للنظر والاجتهاد البشري؛ إذ لا يترتب عليه كتمان للدين، ولا سكوت عن حق، ولا يتعلق به بيان، ولا بلاغ، ومن ذلك - مثلاً - معرفة عدد الأتباع المؤمنين بالدعوة، فهذا أمر مصلحي لا يخل بقضية البلاغ والنذارة التي نزلت الكتب وبعثت الرسل من أجلها، فيمكن أن يظل سرًا متى كانت المصلحة في ذلك، مع القيام بأمر الدعوة والتبليغ، ولهذا فإن النبي (ﷺ) حتى بعد أن صدع بدعوته وأنذر الناس وأعلن النبوة ظل يخفي أشياء كثيرة لا تؤثر على مهمة البلاغ والبيان، كعدد أتباعه، وأين يجتمع بهم؟ وما هي الخطط التي يتخذونها إزاء الكيد الجاهلي[١٣٤].



(١٣٤) انظر: الغرباء الأولون ص١٢٤، ١٢٥، ١٢٦.



المبحث الثالث

البناء العقدي في العهد المكي

أولاً: فقه النبي (ﷺ) في التعامل مع السنن:

إن بناء الدول وتربية الأمم والنهوض بها يخضع لقوانين وسنن ونواميس تتحكم في مسيرة الأفراد والشعوب والأمم والدول، وعند التأمل في سيرة الحبيب المصطفى (ﷺ) نراه قد تعامل مع السنن والقوانين بحكمة وقدرة فائقة.

إن السنن الربانية أحكام الله (تعالى) الثابتة في الكون، وعلى الإنسان في كل زمان ومكان وهي كثيرة جدًا والذي يهمنا منها في هذا الكتاب ما يتعلق بحركة النهوض تعلقًا وثيقًا.

(ولقد شاء الله رب العالمين أن يجري أمر هذا الدين، بل أمر هذا الكون على السنن الجارية، لا على السنن الخارقة، وذلك حتى لا يأتي جيل من أجيال المسلمين فيتقاعس، ويقول: لقد نصر الأولون بالخوارق، ولم تعد الخوارق تنزل بعد ختم الرسالة وانقطاع النبوات)[١٣٥].

إن المتدبر لآيات القرآن الكريم يجدها حافلة بالحديث عن سنن الله (تعالى) التي لا تتبدل ولا تتغير ويجد عناية ملحوظة بإبراز تلك السنن وتوجيه النظر إليها واستخراج العبرة منها والعمل بمقتضياتها، لتكوين المجتمع المسلم المستقيم على أمر الله، والقرآن الكريم حينما يوجه أنظار المسلمين إلى سنن الله (تعالى) في الأرض فهو بذلك يردهم إلى الأصول التي تجري وفقها، فهم ليسوا بدعًا من الحياة؛ فالنواميس التي تحكم الكون والشعوب والأمم والدول والأفراد جارية لا تتخلف، والأمور لا تمضي جزافًا والحياة لا تجري في الأرض عبثًا؛ وإنما تتبع هذه النواميس؛ فإذا درس المسلمون هذه السنن، وأدركوا مغازيها؛ تكشفت لهم الحكمة من وراء الأحداث، وتبينت لهم الأهداف من وراء الوقائع، واطمأنوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه الأحداث، أو إلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النظام، واستشرفوا خط السير على ضوء ما كان في الطريق، ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين لينالوا النصر والتمكين بدون الأخذ بالأسباب المؤدية إليه[١٣٦].

والسنن التي تحكم الحياة واعدة؛ فما وقع منها مضى من زمان، وسيقع في كل زمان[١٣٧].

وهذه السنن هي التي يجري الله - (تعالى) - عليها فلك الحياة ويسير عليها حركتها، فليس هناك شيء واحد في حياة البشر يحدث اعتباطًا، وإنما يجري كل شيء في هذه الحياة حسب سنن الله (تعالى) التي لا تتبدل، ولا تتخلف، ولا تحابي أحدًا من الخلق، ولا

(١٣٥) انظر: واقعنا المعاصر، محمد قطب ص٤١٤.
(١٣٦) انظر: في ظلال القرآن (١/٤٧٨).
(١٣٧) نفس المصدر (١/٤٧٨).

تستجيب لأهواء البشر[١٣٨].

والمسلمون أولى أن يدركوا سنن ربهم المبرزة لهم في كتاب الله وفي سنة رسوله (ﷺ) حتى يصلوا إلى ما يرجون من عزة وتمكين (فإن التمكين لا يأتي عفوًا ولا ينزل اعتباطًا، ولا يخبط خبطًا عشوائيًا، بل إن له قوانينه التي سجلها الله (تعالى) في كتابه الكريم ليعرفها عباده المؤمنون، ويتعاملوا معها على بصيرة)[١٣٩].

إن من شروط التعامل المنهجي السليم مع السنن الإلهية والقوانين الكونية في الأفراد والمجتمعات والأمم، هو أن نفهم، بل نفقه فقهًا شاملاً رشيدًا هذه السنن، وكيف تعمل ضمن الناموس الإلهي أو ما نعبر عنه بفقه السنن ونستنبط منها على ضوء فقهنا لها القوانين الاجتماعية والمعادلات الحضارية[١٤٠].

يقول الأستاذ البنا في منهجية التعامل مع السنن:

لا تصادموا نواميس الكون فإنها غلابة، ولكن غالبوها واستخدموها وحولوا تيارها، واستعينوا ببعضها على البعض، وترقبوا ساعة النصر وما منكم ببعيد[١٤١].

ونلاحظ عدة أمور مهمة:

١- عدم المصادمة.

٢- المغالبة.

٣- الاستخدام.

٤- التحويل.

٥- الاستعانة ببعضها على بعض.

٦- ترقب ساعة النصر[١٤٢].

إن ما وصل إليه الأستاذ البنا يدل على دراسته العميقة للسيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، وتجارب الشعوب والأمم، ومعرفة صحيحة للواقع الذي يعيشه وتوصيف سليم للداء والدواء.

إن حركة الإسلام الأولى التي قادها النبي (ﷺ) في تنظيم جهود الدعوة، وإقامة الدولة، وصناعة الإنسان النموذجي الرباني الحضاري خضعت لسنن وقوانين قد ذكرت بعضها بنوع من الإيجاز، كأهمية القيادة في صناعة الحضارات، وأهمية الجماعة المؤمنة المنظمة في مقاومة الباطل، وأهمية المنهج الذي تستمد منه العقائد والأخلاق والعبادات، والقيم والتصورات ومن سنن الله الواضحة فيما ذكر سنة التدرج وهي من سنن الله (تعالى) في خلقه وكونه، وهي

(١٣٨) انظر: التمكين للأمة الإسلامية، محمد السيد ص٢٠٨.

(١٣٩) انظر: جيل النصر المنشود للقرضاوي ص١٥.

(١٤٠) انظر: المشروع الإسلامي لنهضة الأمة قراءة في فكر البنا ص٥٨.

(١٤١) انظر: رسالة المؤتمر الخامس ص١٢٧.

(١٤٢) انظر: المشروع الإسلامي لنهضة الأمة ص٥٨.

من السنن الهامة التي يجب على الأمة أن تراعيها وهي تعمل للنهوض والتمكين لدين الله.

ومنطلق هذه السنة أن الطريق طويل - لا سيما في هذا العصر الذي سيطرت فيه الجاهلية وأخذت أهبتها واستعدادها، كما أن الشر والفساد قد تجذّر في الشعوب واستئصاله يحتاج إلى تدرج.

فقد بدأت الدعوة الإسلامية الأولى متدرجة، تسير بالناس سيرًا دقيقًا، حيث بدأت بمرحلة الاصطفاء والتأسيس، ثم مرحلة المواجهة والمقاومة، ثم مرحلة النصر والتمكين، وما كان يمكن أن تبدأ هذه جميعها في وقت واحد، وإلا كانت المشقة والعجز وما كان يمكن كذلك أن يقدم واحد منها على الأخرى، وإلا كان الخلل والإرباك[١٤٣].

واعتبار هذه السنة في غاية الأهمية (ذلك أن بعض العاملين في حقل الدعوة الإسلامية يحسون أن التمكين يمكن أن يتحقق بين عشية وضحاها، ويريدون أن يغيروا الواقع الذي تحياه الأمة الإسلامية في طرفة عين، دون النظر في العواقب، ودون فهم للظروف والملابسات المحيطة بهذا الواقع ودون إعداد جيد للمقدمات، أو للأساليب والوسائل)[١٤٤] وقد وجه الله (تعالى) أنظارنا إلى هذه السنة في أكثر من موقع، فالله- (تعالى)- خلق السموات والأرض في ستة أيام، يعلمها سبحانه ويعلم مقدارها، وكان - جل شأنه - قادرًا على خلقها في أقل من لمح البصر وكذلك بالنسبة لأطوار خلق الإنسان والحيوان والنبات كلها تتدرج في مراحل حتى تبلغ نماءها وكمالها ونضجها وفق سنة الله - (تعالى) - الحكيمة.

وسنة التدرج مقررة في التشريع الإسلامي بصورة واضحة ملموسة، وهذا من تيسير الإسلام على البشر، أنه راعى معهم سنة التدرج فيما شرعه لهم إيجابًا وتحريمًا، فنجده حين فرض الفرائض كالصلاة والصيام والزكاة فرضها على مراحل، ودرجات، حتى انتهت إلى الصورة الأخيرة التي استقرت عليها[١٤٥].

(ولعل رعاية الإسلام للتدرج هي التي جعلته لا يُقدم على إلغاء نظام الرق الذي كان نظامًا سائدًا في العالم كله عند ظهور الإسلام، وكأن محاولة إلغائه تؤدي إلى زلزلة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية، فكانت الحكمة في تضييق روافده بل ردمها كلها، ما وجد إلى ذلك سبيلاً، وتوسيع مصارفه إلى أقصى حد، فيكون ذلك بمثابة إلغاء الرق بطريق التدرج)[١٤٦].

(إننا إذا درسنا القرآن الكريم والسنة المطهرة دراسة عميقة علمنا كيف، وبأي تدرج وانسجام تم التغيير الإسلامي في بلاد العرب، ومنها إلى العالم كله على يد النبي (ﷺ) . . . فلقد كانت الأمور تسير رويدًا رويدًا حسب مجراها الطبيعي حتى تستقر في مستقرها الذي أراده الله رب العالمين. .)[١٤٧].

---

(١٤٣) انظر: التمكين للأمة الإسلامية ص٢٢٧.

(١٤٤) انظر: آفات على الطريق (١/٥٧) ومابعدها. (١٤٥) انظر: التمكين للأمة الإسلامية ص٢٢٧.

(١٤٦) انظر: الخصائص العامة للإسلام للقرضاوي ص١٦٦ وما بعدها.

(١٤٧) انظر: التمكين للأمة الإسلامية نقلاً عن المودودي ص٢٢٩.

(وهذه السنة الربانيـة في رعاية التدرج ينـبغي أن تتبع في سـياسة النـاس، وعندما يراد تطبيق الإسلام في الحياة، واستئناف حياة إسلامية متكاملة يكون التمكين ثمرتها، فإذا أردنا أن نقيم مجتمعًـا إسلاميًا حقيقيًا، فلا نتـوهم أن ذلك يمكن أن يتحقق بقرار يصدر من رئيس أو ملك أو من مـجلس قيـادي أو برلماني .. إنما يتـحقـق ذلك بطريق التدرج، أي بالإعـداد، والتهيئة الفكرية، والنفسية، والاجتماعية.

وهو نفس المنهج الذي سلكه النبي (ﷺ) لتغيير الحياة الجاهلية إلى الحياة الإسلامية، فقد ظل ثلاثة عشر عامًا في مكة، كانت مهمته الأساسية فيها تنحصر في تربية الجيل المؤمن الذي يستطيع أن يحمل عبء الدعـوة، وتكاليف الجهاد لحمايتها ونـشرها في الآفاق .. ولهذا لم تكن المرحلة المكية مرحلة تشريع بقدر ما كانت مرحلة تربية وتكوين)[١٤٨].

ثانيًا: سنة التغيير وعلاقتها بالبناء العقدي:

من السنن الهامة على طريق النهوض: السنة التي يقررها قول الله (تعالى): **﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾** (سـورة الرعـد، آية: ١١) وارتباط هذه السنة الربانية بالتـمكين للأمة الإسلامية وَاضح غـاية الوضوح، ذلك أن التمكين لا يمكن أن يتأتى في ظل الوضع الحالي للأمة الإسلامية، فلا بد من التغيير، كما أن التمكين لن يتحـقق لأمة ارتضت لنفسـها حيـاة المذلة والتخلف، ولم تحـاول أن تغير مـا حل بها من واقع، وأن تتحرر من أسره[١٤٩].

(والإسلام يوم جاء أول مرة، وقف في وجهه واقع ضخم، واقع الجزيرة العربية، وواقع الكرة الأرضيـة، ووقفت في وجـهه عقـائد وتصورات، ووقفت في وجـهه قـيم وموازين، ووقفت في وجهه أنظمة وأوضاع ووقفت في وجهه مصالح وعصبيات.

كانت المسـافة بين الإسلام يوم جـاء وبين واقع الناس في الجزيرة العـربية، وفي الأرض كافة، مسافة هائلة، وكانت النقلة التي يريدهم عليـها بعيدة، وكانت تسند الواقع أحقاب من التـاريخ وأشتـات من المصـالح، وألوان من القوى، وقـفت كلهـا سدًا في وجـه هذا الدين الجديد، الذي لا يكتفي بتغيير العقائد، والتصورات، والقيم والموازين، والعادات، والتقاليد، والأخلاق، والمشاعر، إنما يريد كذلك أن يغير الأنـظمة والأوضاع، والشرائع والقوانين، كما يريد انتزاع قيادة البشرية من يد الطاغوت والجاهلية ليردها إلى الله، وإلى الإسلام)[١٥٠].

(ولا شك أن ما حدث مـرة يمكن أن يحدث مرة أخرى، فقد حـدث ما حدث وفق سنة جارية، لا وفق مـعجزات خـارقة. وقد قـام ذلك البناء على رصيد الفـطرة المدخرة لكل من يستنفذ هذا الرصيد، ويجمعه، ويطلقه في اتجاهه الصحيح)[١٥١].

---

(١٤٨) انظر: الخصائص العامة للإسلام ص١٦٨ بتصرف يسير.

(١٤٩) انظر: التمكين للأمة الإسلامية ص٢١٠.

(١٥٠) انظر: هذا الدين، سيد قطب ص٥١، ٥٢. (١٥١) نفس المصدر ص٦٥.

إن التغيير الذي قاده النبي (ﷺ) بمنهج الله (تعالى) بدأ بالنفس البشرية وصنع منها الرجال العظماء، ثم انطلق بهم ليحدث أعظم تغيير في شكل المجتمع، حيث نقل الناس من الظلمات إلى النور، ومن الجهل إلى العلم، ومن التخلف إلى التقدم، وأنشأ بهم أروع حضارة عرفتها الحياة[١٥٢].

لقد قام النبي (ﷺ) بمنهجه القرآني بتغيير في العقائد والأفكار والتصور، وعالم المشاعر والأخلاق في نفوس أصحابه فتغير ما حوله في دنيا الناس، فتغيرت المدينة ثم مكة ثم الجزيرة ثم بلاد فارس والروم في حركة عالمية تسبح وتذكر خالقها بالغدو والآصال.

كان اهتمام المنهج القرآني في العهد المكي بجانب العقيدة، فكان يعرض بشتى الأساليب فغمرت قلوبهم معاني الإيمان وحدث لهم تحول عظيم قال (تعالى) موضحًا ذلك الارتقاء العظيم: **﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** (سورة الأنعام، آية: ١٢٢).

حقًا إنه تصوير رائع عجيب..! تقف الأقلام حائرة في وصفه، وكذلك الأسلوب القرآني في كل حين، تنهل منه الألباب، وتصدر عنه الأساليب وتعجز عن إيفائه حقه من التعبير. من الموت إلى الحياة، ومن الظلمات إلى النور هل يستويان مثلا! مسافة هائلة! ونقلة عظيمة، لايعرف عظمتها، ويدرك مقدارها إلا من تفرس في حالهم في ضوء هذا البيان القرآني المعجز[١٥٣].

ثالثاً: تصحيح الجانب العقدي لدى الصحابة:

كان الصحابة رضي الله عنهم قبل البعثة في تصورهم لله فيه قصور ونقص، فهم ينحرفون عن الحق في أسمائه وصفاته **﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** (سورة الأعراف، آية: ١٨٠)، فينكرون بعض صفاته ويسمونه بأسماء لا توفيق فيها أو بما يوهم معنى فاسدًا، وينسبون إليه النقائص كالولد والحاجة، فزعموا أن الملائكة بنات الله، وجعلوا الجن شركاء له سبحانه **﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾** (سورة الأنعام، آية: ١٠٠) **﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾** (سورة النحل، آية: ٥٧) فجاء القرآن الكريم لترسيخ العقيدة الصحيحة وتثبيتها في قلوب المؤمنين وإيضاحها للناس أجمعين وذلك ببيان توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، والإيمان بكل ما أخبر الله به من الملائكة والكتاب والنبيين والقدر خيره وشره واليوم الآخر وإثبات الرسالة للرسل عليهم السلام، والإيمان بكل ما أخبروا به[١٥٤].

فقد عرَّفَ القرآن المكي للناس من هو الإله الذي يجب أن يعبدوه، وكان النبي (ﷺ)

---

(١٥٢) انظر: نفوس ودروس في إطار التصوير القرآني ص٣٦٧ لتوفيق محمد سبع.

(١٥٣) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية للزهراني (١/ ٢٥، ٢٦).

(١٥٤) انظر: أهمية الجهاد في نشر الدعوة، علي العلياني ص٤٧.

يربيهم على تلك الآيات العظيمة، فقد حرص (ﷺ) منذ اليوم الأول أن يعطي الناس التصور الصحيح عن ربهم وعن حقه عليهم، مدركًا أن هذا التصور سيورث التصديق واليقين عند من صفت نفوسهم واستقامت فطرتهم. ولقد كان تركيز النبي (ﷺ) في هذا التصور المستمد من القرآن الكريم على عدة جوانب منها:

١- أن الله منزه عن النقائص، موصوف بالكمالات التي لا تتناهى فهو سبحانه واحد لا شريك له، ولم يتخذ صاحبة ولا ولد.

٢- وأنه سبحانه خالق كل شيء، ومالكه، ومدبر أمره ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة الأعراف، آية: ٥٤).

٣- وأنه (تعالى) مصدر كل نعمة في هذا الوجود، دقت أو عظمت ظهرت أو خفيت ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ (سورة النحل، آية: ٥٣).

٤- وأن علمه محيط بكل شيء، فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، ولا ما يخفي الإنسان وما يعلن ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (سورة الطلاق: ١٢).

٥- وأنه سبحانه يقيد على الإنسان أعماله بواسطة ملائكته، في كتاب لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وسينشر ذلك في اللحظة المناسبة والوقت المناسب: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (سورة ق، آية: ١٨).

٦- وأنه سبحانه يبتلي عباده بأمور تخالف ما يحبون، وما يهوون، ليعرف الناس معادنهم، ومن منهم يرضى بقضاء الله وقدره، ويسلم له ظاهرًا وباطنًا، فيكون جديرًا بالخلافة والإمامة والسيادة، ومن منهم يغضب ويسخط، فلا يساوي شيئًا، ولايسند إليه شيء: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (سورة الملك، آية: ٢).

٧- وأنه سبحانه يوفق ويؤيد وينصر من لجأ إليه، ولاذ بحماه ونزل على حكمه في كل ما يأتي وما يذر ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ (سورة الأعراف، آية: ١٩٦).

٨- وأنه (سبحانه وتعالى) حقه على العباد أن يعبدوه، ويوحدوه فلا يشركوا به شيئًا: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنْ الشَّاكِرِينَ﴾ (سورة الزمر، آية: ٦٦).

٩- وأنه سبحانه - حدد مضمون هذه العبودية، وهذا التوحيد في القرآن العظيم[١٥٥].

(١٥٥) انظر: منهج الرسول صلى الله عليه وسلم في غرس الروح الجهادية ص١٠ ـ ١٦ .

وتربى الرعيل الأول رضوان الله عليهم على فهم صفات الله وأسمائه الحسنى وعبدوه بمقتضاها فعظم الله في نفوسهم وأصبح رضاه سبحانه غاية مقصدهم وسعيهم واستشعروا مراقبته لهم في كل الأوقات، فكبحوا جماح نفوسهم من أن تزل، والله مطلع عليها، وتطهر صحابة رسول الله (ﷺ) من الشرك بجميع أنواعه، سواء من اعتقاد متصرف مع الله عز وجل في أي شيء من تدبير الكون من إيجاد أو إعدام أو إحياء أو إماتة أو طلب خير أو دفع شر بغير إذن من الله سبحانه، أو اعتقاد منازع له في شيء من مقتضيات أسمائه وصفاته كعلم الغيب، وكالعظمة والكبرياء وكالحاكمية المطلقة، وكالطاعة المطلقة ونحو ذلك[١٥٦].

إن التربية النبوية الرشيدة للأفراد على التوحيد هي الأساس التي قام عليه البناء الإسلامي، وهي المنهجية الصحيحة التي سار عليها الأنبياء والمرسلين من قبل، فكل رسول دعا قومه إلى إفراد الله بالعبادة قال (تعالى) عن نوح (عليه السلام): ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ (سورة هود، آية: ٢٥-٢٦) وقال عن هود (عليه السلام) ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ (سورة هود، آية: ٥٠).

وقال عن صالح (عليه السلام): ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ (سورة هود، آية: ٦١).

وقال عن شعيب (عليه السلام): ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ (سورة هود، آية: ٨٤).

وقال عن عيسى (عليه السلام): ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (سورة آل عمران، آية: ٥١).

وبالجملة فالرسل عليهم الصلاة والسلام كلهم دعوا لتوحيد الألوهية وهو إفراد الله بالعبادة واجتناب الطاغوت والأصنام قال (تعالى): ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (سورة النحل، آية: ٣٦).

وقد ربى رسول الله (ﷺ) صحابته على تجريد التوحيد بأنواعه كلها، وكان هو (ﷺ) مثالاً حيًا للمؤمن الموحد غاية التوحيد: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ * قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (سورة الأنعام، آية: ١٦١- ١٦٤).

(١٥٦) انظر: أهمية الجهاد في نشر الدعوة ص٥٣.

وقد آتت تربية الرسول (ﷺ) لأصحابه ثمارها المباركة فتطهر الصحابة في الجملة مما يضاد توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، فلم يحتكموا إلا إلى الله وحده ولم يطيعوا غير الله، ولم يتبعوا أحدًا على غير مرضاة الله ولم يحبوا غير الله كحب الله، ولم يخشوا إلا الله ولم يتوكلوا إلا على الله ولم يلتجئوا إلا إلى الله، ولم يدعوا دعاء المسألة والمغفرة إلا لله وحده، ولم يذبحوا إلا لله ولم ينذروا إلا لله ولم يستغيثوا إلا بالله ولم يستعينوا فيما لا يقدر عليه إلا الله إلا بالله وحده، ولم يركعوا أو يسجدوا أو يحجوا أو يطوفوا أو يتعبدوا إلا لله وحده، ولم يشبهوا الله لا بالمخلوقات ولا بالمعدومات بل نزهوه غاية التنزيه وأثبتوا له ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسوله (ﷺ) من غير تحريف أو تعطيل أو تأويل، ولم يخافوا خوف السر إلا من الله وحده ولم يصرفوا الطاعة المطلقة إلا لله وحده، ولم يشركوا أحدًا من خلقه في خاصية من خصائص ربوبيته كالإحياء والإماتة والرزق والعلم المحيط والقدرة الباهرة والقيومية والبقاء المطلق والتحليل والتحريم للخلق ونحو ذلك جعلنا الله ممن يحقق التوحيد قولاً وعملاً واعتقادًا، إنه ولي ذلك والقادر عليه(١٥٧).

كما جاء القرآن المكي موضحًا عقيدة التوحيد جاء مثبتًا لرسالة محمد (ﷺ) إلى الإنس والجن كافة قال (تعالى): ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة سبأ، آية: ٢٨) وقال (تعالى): ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (سورة الأعراف، آية: ١٥٨). وقال (تعالى): ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (سورة الأحقاف، آية: ٢٩-٣١) وغير هذه الآيات في القرآن الكريم كثير تثبت رسالة محمد (ﷺ) للإنس والجن كافة(١٥٨).

وكما رسخ القرآن المكي في قلوب الصحابة رضي الله عنهم العقيدة الصحيحة حول التوحيد بأنواعه وحول الرسول (ﷺ) والرسالة صحح عقيدتهم حول الملائكة وأنهم خلق من خلقه يسجدون له ولا يستكبرون عن عبادته وليس لهم شرك في السماء ولا في الأرض وأنهم لا يضرون ولا ينفعون أحدًا إلا بأمره سبحانه: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ (سورة الرعد، آية: ١٣) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة فاطر، آية: ١). ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي

(١٥٧) انظر: أهمية الجهاد في نشر الدعوة ص٥٤ ، ٥٥ .
(١٥٨) نفس المصدر ص٥٦ .

الأرض وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ (سورة سبأ: ٢٢).

وكذلك سائر أركان الإيمان الأخرى غرسها القرآن المكي في قلوب المؤمنين بأسلوب القرآن المعجز ووضحها لكافة الناس فبين كيفية إنزال القرآن على الرسول (ﷺ) ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾ (الإسراء: ١٠٦).

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (سورة الزمر، آية: ٢٣).

﴿وَمَا قَدَرُواْ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (سورة الأنعام، آية: ٩١).

وبين سبحانه أنه له كتبًا غير القرآن الكريم ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً﴾ (سورة الإسراء، آية: ٥٥).

﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾ (سورة آل عمران، آية: ٣).

وبين سبحانه أنه بعث كثيرًا من الأنبياء: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ﴾ (سورة الزخرف، آية: ٦).

فبعضهم ذكرهم القرآن وبعضهم لم يذكرهم ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (سورة غافر، آية: ٧٨).

رابعًا: وصف الجنة في القرآن الكريم وأثره على الصحابة:

ركز القرآن المكي على اليوم الآخر غاية التركيز فقل أن توجد سورة مكية لم يذكر فيها بعض أحوال يوم القيامة وأحوال المنعمين وأحوال المعذبين، وكيفية حشر الناس ومحاسبتهم حتى لكأن الإنسان ينظر إلى يوم القيامة رأي العين: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ * وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ * وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ * وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ * قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ * وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ * وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ

تَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة الزمر، آية: ٦٧-٧٥).

وقد جاءت الآيات الكريمة مبينة وواصفة للجنة، فأثر ذلك في نفوس الصحابة أيما تأثير فمما جاء في وصف الجنة بأنه لا مثل لها، وأن لها أبوابًا، وفيها درجات، وتجري من تحتها الأنهار، وفيها عيون، وقصور وخيام وفيها أشجار متنوعة، كسدرة المنتهى، وشجرة طوبى، وتحدث القرآن الكريم عن نعيم أهلها، وطعامهم وشرابهم، وخمرهم وآنيتهم ولباسهم وحليهم وفرشهم وخدمهم، وأحاديثهم ونسائهم وعن أفضل ما يعطاه أهلها وعن آخر دعواهم بحيث أصبح الوصف القرآني للجنة مهيمنًا على جوارح وأحاسيس وأذهان وقلوب المسلمين ونذكر بعض ما جاء من وصفها من خلال القرآن الكريم:

١- الجنة لا مثل لها:

إن نعيم الجنة شيء أعده الله لعباده المتقين نابع من كرم الله وجوده وفضله، ووصف لنا المولى عز وجل شيئًا من نعيمها إلا أنه ما أخفاه الله عنا من نعيم شئ عظيم لا تدركه العقول، ولا تصل إلى كنهه الأفكار قال (تعالى): **﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** (سورة السجدة، الآيتان: ١٦، ١٧).

وقد بين (سبحانه وتعالى) سبب هذا الجزاء بما وفقهم إليه من أعمال عظيمة من قيام ليل، وإنفاق في سبيله قال (تعالى): **﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** (سورة السجدة، الآيتان: ١٦، ١٧).

٢- درجات الجنة:

إن أهل الجنة متفاوتون فيما بينهم على حساب أعمالهم وتوفيق الله لهم وكذلك درجاتهم في الآخرة، بعضها فوق بعض قال (تعالى): **﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾** (سورة طه، آية: ٧٥).

وأولياء الله المؤمنون في تلك الدرجات بحسب إيمانهم وتقواهم قال (تعالى): **﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا * كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا * انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾** (سورة الإسراء، آية: ١٨-٢١).

٣- أنهار الجنة:

ذكر القرآن الكريم في آيات عديدة أنهار الجنة قال (تعالى): **﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ**

الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ (سورة محمد، آية: ١٥).

٤- عيون الجنة:

في الجنة عيون كثيرة مختلفة الطعوم والمشارب قال (تعالى): ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (سورة الحجر، آية: ٤٥)، قال (تعالى): ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ﴾ (سورة المرسلات، آية: ٤١) وقال في وصف الجنتين اللتين أعدهما لمن خاف ربه: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ (سورة الرحمن، آية: ٦٦).

وفي الجنة عينان يشرب المقربون ماءهما صرفًا غير مخلوط، ويشرب منهما الأبرار الشراب مخلوطًا ممزوجًا بغيره، العين الأولى: عين الكافور قال (تعالى): ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ (سورة الإنسان، الآية ٥-٦). فقد أخبر أن الأبرار يشربون شرابهم ممزوجًا من عين الكافور بينما عباد الله يشربونها خالصًا.

العين الثانية: عين التسنيم، قال (تعالى): ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ * وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ (سورة المطففين، الآيات ٢٢-٢٨).

ومن عيون الجنة عين تسمى السلسبيل، قال (تعالى): ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ (سورة الإنسان، الآيات ١٧-١٨).

٥- وصف بعض شجر الجنة:

أ- سدرة المنتهى:

وهذه الشجرة ذكرها المولى عز وجل في كتابه العزيز وأخبر سبحانه أن رسولنا (ﷺ) رأى جبريل على صورته التي خلقها الله عليها عندها، وأن هذه الشجرة عند جنة المأوى التي غشيها مما لا يعلمه إلا الله عندما رآها الرسول (ﷺ) قال (تعالى): ﴿عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ (سورة النجم، الآيات: ١٤ - ١٧)

ب- شجرة طوبى:

وهذه الشجرة عظيمة كبيرة تصنع منها ثياب أهل الجنة، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): «**طوبى شجرة في الجنة مسيرة مائة عام، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها**»[١٥٩].

(١٥٩) سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٤/٦٣٩) رقم ١٩٨٥ .

الشجرة التي يسير الراكب في ظلها مائة عام: هذه الشجرة هائلة لا يقدر قدرها إلا الذي خلقها، وقد بين الرسول (ﷺ) عظم هذه الشجرة بأن أخبر أن الراكب لفرس من الخيل التي تعد للسباق يحتاج إلى مائة عام حتى يقطعها إذا سار بأقصى ما يمكنه، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي (ﷺ) قال: «**إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة، واقرؤوا إن شئتم: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾**» (سورة الواقعة، الآية ٣٠)[(١٦٠)].

وهذا يدل عن خلق بديع وقدرة الصانع (سبحانه وتعالى).

٦- طعام أهل الجنة وشرابهم:

ذكر الله (سبحانه وتعالى) أن في الجنة ما تشتهيه الأنفس من المآكل والمشارب: **﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾** (سورة الواقعة، الآية: ٢٠) **﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾** (سورة الزخرف، الآية: ٧١).

وقد أباح الله لهم أن يتناولوا من خيراتها وألوان طعامها وشرابها ما يشتهون: **﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾** (سورة الحاقة، الآية: ٢٤).

٧- خمر أهل الجنة:

من الشراب الذي يتفضل الله به على أهل الجنة الخمر، وخمر الجنة خالي من العيوب والآفات التي تتصف بها خمر الدنيا، فخمر الدنيا تذهب العقول، وتصدع الرؤوس، وتوجع البطون، وتمرض الأبدان، وتجلب الأسقام، وقد تكون معيبة في صنعها أو لونها أو غير ذلك، أما خمر الجنة فإنها خالية من ذلك كله، وجميلة صافية رائعة[(١٦١)]. قال (تعالى): **﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِن مَّعِينٍ * بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ * لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾** (سورة الصافات، الآيات ٤٥-٤٧). فقد وصف الله جمال لونها (بيضاء) ثم بين أنها تلذ شاربها لا يمل من شربها **﴿لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾** (الصافات، الآية: ٤٧). وقال في موضع آخر يصف خمر الجنة: **﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنزِفُونَ﴾** (سورة الواقعة، الآيات: ١٧-١٩)

وقال (تعالى) في موضع آخر: **﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾** (سورة المطففين، الآيات: ٢٥-٢٦). والرحيق الخمر، ووصف هذا الخمر بوصفين: الأول أنه مختوم أي موضوع عليه خاتم الأمر الثاني: أنهم إذا شربوه وجدوه في ختام شرابهم له رائحة المسك[(١٦٢)].

---

(١٦٠) البخاري مع الفتح ، كتاب بدء الخلق ما جاء في وصف الجنة (٦/ ٣٦٨) .
(١٦١) انظر: اليوم الآخر الجنة والنار ، عمر الأشقر ص٢٣ .
(١٦٢) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٥١٤) .

٨- طعام أهل الجنة وشرابهم لا دنس معه:

الجنة دار خالصة من الأذى، وأهلها مطهرون من أوساخ أهل الدنيا، قال رسول الله (ﷺ): «**أول زمرة تدخل الجنة من أمتي على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشد نجم في السماء إضاءة ثم هم بعد ذلك منازل، لا يتغوطون، ولا يتبولون، ولا يتمخطون، ولا يبزقون**»[(١٦٢)].

فالذي يتفاوت فيه أهل الجنة مما نص عليه في الحديث قوة نور كل منهم، أما خلوصهم من الأذى فإنهم يشتركون فيه جميعًا، فهم لا يتغوطون ولا يتبولون، ولا يتفلون، ولا يبزقون، ولا يتمخطون. وفضلات الطعام والشراب تتحول إلى رشح كرشح المسك، يفيض من أجسادهم، كما يتحول بعض منه إلى جشاء ولكنه جشاء تنبعث منه روائح طيبة عبقة عطرة، قال رسول الله (ﷺ): «**إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون، ولا يتفلون، ولا يتبولون ولا يتغوطون، ولا يتمخطون**». قالوا: فما بال الطعام؟ قال: «**جشاء كجشاء المسك**»[(١٦٣)].

٩- لباس أهل الجنة وحليهم ومباخرهم:

أهل الجنة يلبسون فيها الفاخر من اللباس، ويتزينون فيها بأنواع الحلي من الذهب والفضة واللؤلؤ، فمن لباسهم الحرير، ومن حُلِلهم أساور الذهب والفضة واللؤلؤ قال (تعالى): ﴿**جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ**﴾ (سورة فاطر، الآية ٣٣). ﴿**عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا**﴾ (سورة الإنسان، الآية ٢١). وملابسهم ذات ألوان، ومن ألوانّ الثياب التي يلبسون الخضر من السندس والإستبرق: ﴿**أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا**﴾ (سورة الكهف، الآية: ٣١). وقدّ أخبرَ الرَسول (ﷺ) أنَ لأَهل الجنة أمشاطًا من الذهب والفضة وأنهم يتبخرون بعود الطيب، مع أن رائحة المسك تفوح من أبدانهم الزكية، قال رسول الله (ﷺ): «**آنيتهم الذهب والفضة، وأمشاطهم الذهب، ووقود مجامرهم الألوة -عود الطيب- ورشحهم المسك**»[(١٦٤)].

وثياب أهل الجنة وحليهم لا تبلى ولا تفنى قال رسول الله (ﷺ): «**من يدخل الجنة ينعم ولا يبأس، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه**»[(١٦٥)].

١٠- اجتماع أهل الجنة وأحاديثهم:

أهل الجنة يزور بعضهم بعضًا، ويجتمعون في مجالس طيبة يتحدثون ويذكرون ما كان منهم في الدنيا، وما منّ الله به عليهم من دخول الجنان، قال (تعالى) في وصف اجتماع أهل

---

(١٦٢) مسلم ، كتاب الجنة ، باب أول زمرة تدخل الجنة رقم ٢٨٣٤ .

(١٦٣) مسلم ، كتاب الجنة ، باب أول زمرة تدخل الجنة رقم ٢٨٣٥ .

(١٦٤) البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب صفة الجنة رقم ٣٢٤٦ .

(١٦٥) مسلم ، كتاب الجنة ، باب دوام نعيم الجنة (٤/ ٢١٨١) رقم ٢٨٣٦ .

الجنة: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ (سورة الحجر، آية: ٤٧).

وحدثنا القرآن عن أصناف الأحاديث التي يتكلمون بها في مجتمعاتهم: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (سورة الطور، آية: ٢٥). ومن ذلك تذكرهم أهل الشر الذين كانوا يشككون أهل الإيمان ويدعونهم إلى الكفران: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ * فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ * قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ * وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ * أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ (سورة الصافات، آية: ٥٠-٦١).

١١- نساء أهل الجنة:

زوجة المؤمن في الدنيا زوجته في الآخرة إذا كانت مؤمنة قال (تعالى): ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ (سورة الرعد، آية: ٢٣). وهم في الجنات منعمون مع الأزواج، يتكئون في ظلال الجنة مسرورين فرحين: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ (سورة يس، آية: ٥٦) ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ (سورة الزخرف، آية: ٧٠).

١٢- الحور العين:

قال (تعالى): ﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ (سورة الدخان، آية: ٥٤).

والحور: جمع حوراء وهي التي يكون بياض عينها شديد البياض، وسواده شديد السواد، والعين: جمع عيناء، والعيناء هي واسعة العين. وقد وصف الله في القرآن الحور العين بأنهن كواعب أتراب قال (تعالى): ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا * وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ (سورة النبأ، آية: ٣١-٣٣). والكاعب: المرأة الجميلة التي برز ثديها، والأتراب: المتقاربات في السن، والحور العين من خلق الله في الجنة، أنشأهن الله إنشاء فجعلهن أبكارًا، عربًا أترابًا: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ (سورة الواقعة، آية: ٣٥-٣٧). وكونهن أبكارًا يقضي أنه لم ينكحهن قبلهم أحد، كما قال (تعالى): ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ﴾ (سورة الرحمن، آية: ٥٦) وقد تحدث القرآن الكريم عن جمال نساء الجنة فقال: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ (سورة الواقعة، آية: ٢٢) والمراد بالمكنون: الخفي المصان، الذي لم يغير صفاء لونه ضوء الشمس، ولا عبث الأيدي، ونسبهن في موضع آخر بالياقوت والمرجان: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ (سورة الرحمن، آية: ٥٦-٥٨). والياقوت والمرجان حجران كريمان فيهما جمال، ولهما منظر حسن بديع، وقد وصف الحور بأنهن قاصرات الطرف، وهن اللواتي قصرن بصرهن على أزواجهن، فلم تطمح أنظارهن لغير

أزواجهن وقد شهد الله لحور الجنة بالحسن والجمال، وحسبك أن شهد الله بهذا ليكون قد بلغ غاية الحسن والجمال: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (سورة الرحمن، آية: ٧٠-٧١). ونساء الجنة لسن كنساء الدنيا، فإنهن مطهرات من الحيض والنفاس، والبصاق والمخاط والبول والغائط(١٦٦).

وقد تحدث الرسول (ﷺ) عن جمال رجال ونساء أهل الجنة فقال: «**أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون ولا يمتخطون، ولا يتغوطون، وآنيتهم فيها الذهب، أمشاطهم من الذهب والفضة، ومجامرهم الألوة، ورشحهم من وراء اللحم من الحسن**»(١٦٧).

وانظر إلى هذا الجمال الذي حدث به رسول الله (ﷺ) أصحابه هل تجد له نظيرًا مما تعرف؟ «**ولو أن امرأة من أهل الجنة اطلعت إلى أهل الأرض لأضاءت ما بينهما ولملأته ريحًا، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها**»(١٦٨).

١٣- أفضل ما يعطاه أهل الجنة:

قال رسول الله (ﷺ): «**إذا دخل أهل الجنة الجنة، يقول تبارك و(تعالى): تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك و(تعالى)**»، وجاء في رواية أخرى: «**ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾** (سورة يونس، آية: ٢٦)». وأما عن رضوان الله الذي يعطى لأهل الجنة، فعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله (ﷺ): «**إن الله (تعالى) يقول: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير كله في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك؟ فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعد أبدًا**»(١٦٩).

١٤- آخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين:

يمر المؤمنون في الموقف العظيم بأهوال عظام، ثم يمرون على الصراط فيشاهدون هولاً ورعبًا، ثم يدخلهم الله جنات النعيم بعد أن أذهب عنهم الحزن، فيرون ما أعد الله لهم فيها من خيرات عظام، فترتفع ألسنتهم تسبح ربهم وتقدسه، فقد أذهب عنهم الحزن، وصدقهم وعده وأورثهم الجنة: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (سورة

(١٦٦) انظر: الوسطية في القرآن الكريم ص٤٣٣.

(١٦٧) البخاري، كتاب بدء الخلق - باب صفة الجنة، فتح الباري (٦/ ٣٦٧).

(١٦٨) مشكاة المصابيح للبغوي (٣/ ٨٨).

(١٦٩) مشكاة المصابيح للبغوي (٣/ ٨٨).

فاطر، آية: ٣٣-٣٤).

وآخر دعواهم في جنات النعيم الحمد لله رب العالمين: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة يونس، آية: ١٠).

إن النبي (ﷺ) كان يربي أصحابه على السعي لمرضاة الله (تعالى) حتى يدخلهم جناته العظيمة، فكان يصف لهم الجنات من خلال المنهج القرآني، حتى لكأن الصحابي يرى الجنة معروضة أمامه في تلك اللحظة، وينفعل بها كأنه يراها في عالم العيان بالفعل، وليست أمرًا يتصور حدوثه في المستقبل وهذا من الإعجاز البياني في التعبير القرآني إلى حد تصبح الآخرة - التي لم تأت بعد - كأنها الحاضر الذي يعيشه الإنسان، ويصبح الحاضر الذي يعيشه بالفعل كأنه ماضي سحيق تفصله عن الإنسان آماد، وأبعاد[١٧٠].

إن التصور البديع للجنان والاعتقاد الجازم بها مهم في نهضة أمتنا، فعندما تحيا صورة الجنان في نفوس أفراد الأمة يندفعون لمرضاة الله (تعالى) ويقدمون الغالي والنفيس ويتخلصون من الوهن وكراهة الموت وتتفجر في نفوسهم طاقات هائلة تمدهم بعزيمة وإصرار ومثابرة على إعزاز دين الله، وقد لاحظت في المعارك الفاصلة، والانتصارات العظيمة التي حققتها الأمة في تاريخها المجيد من أسبابها الواضحة حب القادة، والجنود المقاتلين للشهادة في سبيل الله والشوق لجنانه وتعبدهم لله بفريضة الجهاد والأمثلة على ذلك كثيرة، كمعركة الزلاقة التي انتصر فيها المرابطون بقيادة يوسف بن تاشفين على النصارى في الأندلس، وكمعركة حطين بقيادة صلاح الدين، وعين جالوت بقيادة قطز، وكفتح القسطنطينية بقيادة محمد الفاتح.

خامسًا: وصف النار في القرآن الكريم وأثره في نفوس الصحابة:

كان الصحابة يخافون الله (تعالى) ويخشونه ويرجونه وكانت لتربية الرسول (ﷺ) أثر في نفوسهم عظيم، وكان المنهج القرآني الذي سار عليه رسول الله (ﷺ) يفعل الأفاعيل في نفوس الصحابة؛ لأن القرآن الكريم وصف أهوال يوم القيامة ومعالمها من قبض الأرض وطي السماء، ودك الأرض، ونسف الجبال وتفجير البحار وتسجيرها، وموران السماء وانفطارها، وتكوير الشمس وخسوف القمر وتناثر النجوم، وصور القرآن الكريم حال الكفار وذلتهم وهوانهم وحسرتهم ويأسهم وإحباط أعمالهم، وتخاصم العابدين والمعبودين وتخاصم الأتباع وقادة الضلالة، وتخاصم الضعفاء والسادة، وتخاصم الكافر وقرينه الشيطان، ومخاصمة الكافر أعضاءه، وتخاصم الروح والجسد وتحدث القرآن الكريم عن الشفاعة وبين شروطها والمقبول منها، والمرفوض، والمراد بالحساب والجزاء، وعن مشهد الحساب، وهل يسأل الكفار؟ ولماذا يسألون ؟ وتحدث القرآن الكريم عن اقتصاص المظالم بين الخلق، وكيف يكون الاقتصاص في يوم القيامة، وبين المولى عز وجل في القرآن الكريم عظم شأن الدماء وبين أن هناك يوم القيامة توضع الموازين التي توزن بها الأعمال، وأخبر النبي (ﷺ) عن الحوض من الذين يردون عن الحوض والذين يذادون عنه وتحدث القرآن الكريم عن حشر الكفار إلى

(١٧٠) انظر: دراسات قرآنية لمحمد قطب ص٨١.

النار، ومرور المؤمنين على الصراط، وخلاص المؤمنين من المنافقين[١٧١] وكان لهذا الحديث أثره العظيم في نفوس الصحابة وصور القرآن الكريم ألوان العذاب في النار، فأصبح الرعيل الأول يراها رأي العين فمن حديث القرآن عن النار بيانه لكل من:

١- طعام أهل النار وشرابهم ولباسهم:

أ- فبين القرآن الكريم أن من طعام أهل النار الضريع والزقوم، وأن شرابهم الحميم والغسلين، والغساق قال (تعالى): ﴿**لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ * لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِن جُوعٍ**﴾ (سورة الغاشية، آية: ٦-٧).

وهذا الطعام أكلهم له نوع من أنواع العذاب، لا يتلذذون به ولا تنتفع به أجسادهم.

أما الزقوم فقال (تعالى) فيه: ﴿**إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ**﴾ (سورة الدخان، الآيات: ٤٣-٤٦) وقد وصف الله شجرة الزقوم في آية أخرى فقال: ﴿**أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ**﴾ (سورة الصافات، آية: ٦٢).

وقال في موضع آخر: ﴿**إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ**﴾ (سورة الواقعة، آية: ٥١-٥٥). ويؤخذ من هذه الآيات أن هذه الشجرة شجرة خبيثة، جذورها تضرب في قعر النار، وفروعها تمتد في أرجائها، وثمر هذه الشجرة قبيح المنظر لذلك شبهت برؤوس الشياطين، وقد استقر في النفوس قبح رؤوسهم وإن كانوا لا يرونهم، ومع خبث هذه الشجرة وخبث طلعها، إلا أن أهل النار يلقى عليهم الجوع بحيث لا يجدون مفرًا من الأكل منها إلى درجة ملء البطون فإذا امتلأت بطونهم أخذت تغلي في أجوافهم كما يغلي دردي الزيت، فيجدون لذلك آلامًا مبرحة، فإذا بلغت الحال بهم هذا المبلغ اندفعوا إلى الحميم وهو الماء الحار الذي تناهى حره، فشربوا منه كشرب الإبل التي تشرب وتشرب ولا تروى لمرض أصابها، وعند ذلك يقطع الحميم أمعاءهم ﴿**مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ**﴾ (سورة محمد، آية: ١٥) هذه هي ضيافتهم في ذلك اليوم العظيم[١٧٢].

وإذا أكل أهل النار هذا الطعام الخبيث من الضريع والزقوم غصوا به لقبحه وخبثه وفساده: ﴿**إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيمًا * وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا**﴾ (سورة المزمل، آية: ١٢-١٣).

ومن طعام أهل النار الغسلين، قال (تعالى): ﴿**فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ * وَلا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ * لا يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِؤُونَ**﴾ (سورة الحاقة، آية: ٣٥-٣٧) وقال (تعالى):

---

(١٧١) انظر: الوسطية في القرآن الكريم ص٤٠٢.

(١٧٢) انظر: اليوم الآخر الجنة والنار، لعمر الأشقر ص٨٨.

﴿وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ (سورة ص، آية: ٥٨).

والغسلين والغساق بمعنى واحد، وهو ماسال من جلود أهل النار من القيح والصديد، وقيل: ما يسيل من فروج النساء الزواني ومن نتن لحوم الكفرة وجلودهم، وقال القرطبي: (هو عصارة أهل النار)[١٧٣]

ب- أما شرابهم فهو الحميم قال (تعالى): ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ (سورة محمد، آية: ١٥) وقال: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (سورة الكهف، آية: ٢٩) وقال: ﴿مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ (سورة إبراهيم، آية: ١٦-١٧) وقال: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ (سورة ص، آية: ٥٧) وقد ذكرت هذه الآيات أربعة أنواع من شراب أهل النار: الحميم، وهو الماء الحار الذي تناهى حره.

الغساق، وقد مضى الحديث عنه، فإنه يذكر في مأكول أهل النار ومشروبهم.

الصديد، وهو ما يسيل من لحم الكافر وجلده.

المهل، وهو كعكر الزيت، فإذا قرب وجهه سقطت فروة وجهه فيه[١٧٤].

ج- لباس أهل النار:

قال (تعالى): ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ (سورة إبراهيم، آية: ٤٩-٥٠) والقطران هو النحاس المذاب.

٢- صور من عذاب أهل النار:

أ- تفاوت عذاب أهل النار:

قال (تعالى): ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ (سورة غافر، آية: ٤٦).

وقال (تعالى): ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ (سورة النحل، آية: ٨٨) وقد حدث النبي (ﷺ) عن أخف الناس عذابًا فقال: **«إن أهون أهل النار عذابًا يوم القيامة لرجل توضع في أخمص قدميه جمرة تغلي منها دماغه»**[١٧٥].

---

(١٧٣) يقظة أولي الاعتبار مما ورد في ذكر الجنة والنار صديق حسين ص٨٦.

(١٧٤) اليوم الآخر في الجنة والنار ص٩٠.

(١٧٥) البخاري، مع الفتح، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار (١١/٤٢٤).

ب- اللفح:

ومن إهانة الله لأهل النار أنهم يحشرون في يوم القيامة على وجوههم عميًا وصمًا وبكمًا قال (تعالى): ﴿**وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا**﴾ (سورة الإسراء، آية: ٩٧) ويلقون في النار على وجوههم: ﴿**وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ (سورة النمل، آية: ٩٠).

ثم إن النار تلفح وجوههم وتغشاها أبدًا لا يجدون حائلاً يحول بينهم وبينها: ﴿**تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ**﴾ (سورة المؤمنون، آية: ١٠٤).

ج- السحب:

ومن أنواع العذاب الأليم سحب الكفار في النار على وجوههم قال (تعالى): ﴿**إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ**﴾ (سورة القمر، آية: ٤٧-٤٨) ويزيد في آلامهم حال سحبهم في النار أنهم مقيدون بالقيود والأغلال والسلاسل: ﴿**الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ**﴾ (سورة غافر، آية: ٧٠-٧٢).

د- تسويد الوجوه:

يسود الله في الدار الآخرة وجوه أهل النار وهو سواد شديد، كأنما حلت ظلمة الليل في وجوههم: قال (تعالى): ﴿**وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ (سورة يونس، آية: ٢٧).

هـ- إحاطة النار بالكفار:

لما كانت الخطايا والذنوب تحيط بالكافر إحاطة السوار بالمعصم، وكان الجزاء من جنس العمل، فإن النار تحيط بالكفار في كل وجهة، كما قال (تعالى): ﴿**لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ**﴾ (سورة الأعراف، آية: ٤١). والمهاد ما يكون من تحتهم، والغواش جمع غاشية وهي التي تغشاهم من فوقهم، والمراد أن النيران تحيط بهم من فوقهم ومن تحتهم، قال (تعالى): ﴿**يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ (سورة العنكبوت، آية: ٥٥) وقال في موضع آخر: ﴿**لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ**﴾ (سورة الزمر، آية: ١٦).

وقد صرح بالإحاطة في موضع آخر، وذلك أن للنار سورًا يحيط بالكفار فلا يستطيع الكفار مغادرتها أو الخروج منها، قال (تعالى): ﴿**وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن**

شاء فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (سورة الكهف، آية: ٢٩) وسرادق النار سورها وحائطها الذي يحيط بها[١٧٦].

و- اطلاع النار على الأفئدة:

قال (تعالى) ﴿كَلاَّ لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ * نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ﴾ (سورة الهمزة، الآيات: ٤-٧).

ز- قيود أهل النار وأغلالهم وسلاسلهم:

أعد الله لأهل النار سلاسلاً وقيودًا ومطارقًا: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلا وَأَغْلالاً وَسَعِيرًا﴾ (سورة الإنسان، الآية: ٤).

﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيمًا * وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ (المزمل: ١٢-١٣) والأغلال توضع في الأعناق: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (سورة سبأ، الآية: ٣٣).

﴿إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ (سورة غافر، الآية: ٧١). والأنكال: القيود سميت أنكالاً لأنه يعذبهم وينكل بهم بها ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيمًا﴾ (سورة المزمل، الآية: ١٢). والسلاسل نوع آخر من ألوان العذاب التي يقيد بها المجرمون كما يقيد المجرمون في الدنيا، وانظر إلى هذه الصورة التي أخبر بها الكتاب الكريم: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ (سورة الحاقة، الآيات: ٣٠-٣٢).

ح- قرن معبوداتهم وشياطينهم في النار:

قال (تعالى): ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (سورة الأنبياء، الآيات: ٩٨-٩٩).

وقال (تعالى): ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ * حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ * وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ (سورة الزخرف، الآيات: ٣٦-٣٩).

ط- حسرتهم وندمهم ودعاؤهم:

قال (تعالى): ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (يونس: ٥٤).

---

(١٧٦) انظر: اليوم الآخر الجنة والنار ص١٠٢.

وعندما يطلع الكافر على صحيفة أعماله، فيرى كفره وشركه الذي يؤهله للخلود في النار، فإنه يدعو بالثبور والهلاك، ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا * يَصْلَى سَعِيرًا﴾ (سورة الانشقاق: ١٠-١٢) ويتكرر دعاؤهم بالويل والهلاك عندما يلقون في النار، ويصلون حرها ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا * لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ (سورة الفرقان، الآيات: ١٣-١٤).

وهناك يعلو صراخهم ويشتد عويلهم، ويدعون ربهم آملين أن يخرجهم من النار﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ سورة فاطر، الآية: ٣٧) وهم يعترفون في ذلك الوقت بضلالهم وكفرهم وقلة عقولهم: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (سورة الملك، الآية: ١٠). ولكن طلبهم يرفض بشدة، ويجابون بما يستحق أن تجاب به الأنعام: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ * قَالَ اخْسَؤُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ﴾ (سورة المؤمنون، الآيات: ١٠٦-١٠٨).

لقد حق عليهم القول، وصاروا إلى المصير الذي لا ينفع معه دعاء ولا يقبل فيه رجاء: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ * وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (سورة السجدة، الآيات: ١٢-١٤).

ويتوجه أهل النار بعد ذلك النداء إلى خزنة النار، يطلبون منهم أن يشفعوا لهم كي يخفف الله عنهم شيئا مما يعانونه: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ * قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ﴾ (سورة غافر، الآيات: ٤٩-٥٠).

﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ﴾ (سورة الزخرف، الآية: ٧).

لقد خسر هؤلاء الظالمون أنفسهم وأهليهم عندما استحبوا الكفر على الإيمان قال (تعالى): ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ (سورة هود، الآية: ١٠٦).

كان القرآن المكي يربي المسلم على الخوف من عقاب الله ويبين للصحابة أن العذاب في الآخرة حسي ومعنوي وفي خطاب القرآن وتوضيح النبي (ﷺ) للصحابة حقيقة النار، وما يجعل الصحابي من أن يستجيب لأوامر الله ويجتنب نواهيه، فكان الصحابي يستحضر في مخيلته صورة الجنان، والنيران ويستعد للموت الذي هو آت لا محالة، وأنه سوف يسأل في وحدته لا محالة، وأن القبر إما روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النيران، فالصحابي حين يستحضر في نفسه كل هذا، فإن قلبه يستشعر خوف الله عز وجل، ومراقبته في السر والعلن، بل يندفع بكليته إلى العمل الصالح من دعوة وجهاد، والسعي لإقامة دولة تحكم

شرع الله، وصناعة حضارة تنقذ البشرية من ضياعها وانحرافها عن شرع الله (تعالى) ويدعو الله في خلواته وفي سره وجهره أن يكرمه الله برفقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.

إن هذا التصور والفهم العميق لحقيقة الآخرة، وحقيقة الجنة والنار له أثره على العاملين لنهضة الأمة، واستعادة مجدها وعزتها وكرامتها ،وهو أصل عظيم في بناء التصور العقدي لأفراد الأمة سار على نهجه الحبيب المصطفى (ﷺ) ولذلك لا بد لنا من السير على نفس الطريق.

سادسًا: مفهوم القضاء والقدر وأثره في تربية الصحابة رضي الله عنهم:

اهتم القرآن الكريم في الفترة المكية بقضية القضاء والقدر، قال (تعالى): ﴿ **إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** ﴾ (سورة القمر، الآية: ٤٩)، وقال (تعالى): ﴿ **الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا** ﴾ (سورة الفرقان، الآية: ٢) وكان (ﷺ) يغرس في نفوس الصحابة مفهوم القضاء والقدر وبين لهم مراتبه من خلال القرآن الكريم.

المرتبة الأولى: علم الله المحيط بكل شيء: ﴿ **وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾ (سورة يونس، الآية: ٦١).

المرتبة الثانية: كتابة كل شيء كائن: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ** ﴾ (سورة يس، الآية: ١٢).

المرتبة الثالثة: مشيئة الله النافذة وقدرته التامة: ﴿ **أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا** ﴾ (سورة فاطر، الآية: ٤٤).

المرتبة الرابعة: خلق الله لكل شيء: ﴿ **ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ** ﴾ (سورة الأنعام، الآية: ١٠٢).

كان الفهم الصحيح والاعتقاد الراسخ في قلوب الصحابة لحقيقة القضاء والقدر ترتبت عليه ثمار نافعة ومفيدة عادت عليهم بخيرات الدنيا والآخرة، فمن تلك الثمرات.

١- **أداء عبادة الله (عز وجل):** فالقدر مما تعبد الله (سبحانه وتعالى) الأمة بالإيمان به.

٢- **الإيمان بالقدر طريق الخلاص من الشرك:** لأن المؤمن يعتقد أن النافع والضار، والمعز والمذل، والرافع والخافض هو الله وحده (سبحانه وتعالى).

٣- **الشجاعة والإقدام:** فإيمانهم بالقضاء والقدر جعلهم يوقنون أن الآجال بيد الله (تعالى) وأن لكل نفس كتاب.

٤- الصبر والاحتساب ومواجهة الصعاب.

٥- سكون القلب وطمأنينة النفس وراحة البال: فهذه الأمور من ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر، وهي هدف منشود، فكل من على وجه البسيطة يبتغيها ويبحث عنها، فقد كان عند الصحابة من سكون القلب، وطمأنينة النفس ما لا يخطر على بال، ولا يدور حول ما يشبهه خيال، فلهم في ذلك الشأن القدح المعلى والنصيب الأوفى.

٦- ومن ثمراته عزة النفس والقناعة والتحرر من رق المخلوقين: فالمؤمن بالقدر يعلم أن رزقه بيد الله، ويدرك أن الله كافيه وحسبه ورازقه، وأنه لن يموت حتى يستوفي رزقه، وأن العباد مهما حاولوا إيصال الرزق له، أو منعه عنه فلن يستطيعوا إلا بشيء قد كتبه الله، فينبعث بذلك إلى القناعة وعزة النفس، والإجمال في الطلب وترك التكالب على الدنيا والتحرر من رق المخلوقين، وقطع الطمع مما في أيديهم، والتوجه بالقلب إلى رب العالمين.

إن ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر كثيرة وهذه من باب الإشارة.

ولم تقتصر تربية الرسول (ﷺ) لأصحابه على تعليمهم أركان الإيمان الستة المتقدمة، بل صحح عندهم كثيرًا من المفاهيم والتصورات والاعتقادات عن الإنسان والحياة والكون والعلاقة بينهما ليسير المسلم على نور من الله يدرك هدف وجوده في الحياة ويحقق ما أراد الله منه غاية التحقيق ويتحرر من الوهم والخرافات[١٧٧].

سابعًا: معرفة الصحابة لحقيقة الإنسان:

إن القرآن الكريم عرّف الإنسان بنفسه بعد أن عرفه بربه وباليوم الآخر، ويجيب على تساؤلات الفطرة، من أين؟ وإلى أين؟ وهي تساؤلات تفرض نفسها على كل إنسان سوي وتلح في طلب الجواب[١٧٨].

وبين القرآن الكريم للصحابة الكرام حقيقة نشأة الإنسانية وأصولهم التي يرجعون إليها وما هو المطلوب منهم في هذه الحياة؟

وما هو مصيرهم بعد الموت؟

تعرّف الصحابة بواسطة النبي (ﷺ) ومنهجه القرآني على الأصل الإنساني الذي هو الماء والتراب -أي الطين- وبسلالته التي هي الماء المهين أو النطفة، كما عرفه بمكانته وكرامته عند ربه، حيث أسجد له الملائكة، وأعلى كرامته وتفضيله على كثير من الخلق، ليقف الإنسان وسطًا بين هذين الحدين: الأدنى والأعلى، فمكانته وكرامته يرى نفسه عزيزًا، وبأصله وسلالته يتواضع معظمًا شأن من أنشأه من ذلك الأصل، وأوصله إلى تلك المكانة العالية، فينجو بذلك من العجب والكبر والغرور، كما يمنعه عزه وكرامته من التذلل لغير الله (تعالى)، والإنسان لو تركه الإله دون هدى لعانى الكثير من سوء الفهم للنفس، بل إن عددًا

---

(١٧٧) انظر: أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية ص٥٩.

(١٧٨) انظر: منهج التربية الإسلامية، محمد قطب (٢/ ٥٤).

من الناس قد يعانون من ذلك لسبب ما، كالإفراط في الثقة بنظرتهم الخاصة إلى أنفسهم التي قد تؤدي إلى الغرور والتعالي، وإما إلى الهوان والتدني[(١٧٩)].

وذلك أن نظرة الإنسان إلى نفسه من أقوى المؤثرات في تربيته وما زال الإنسان منذ وجد على وجه على الأرض مأخوذًا بسوء الفهم لنفسه: يميل إلى جانب الإفراط حينًا، فيرى أنه أكبر وأعظم كائن في العالم، فينادي بذلك وقد امتلأ أنانية وغطرسة وكبرياء، كما نادى قوم عاد: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ (سورة فصلت، الآية: ١٥)، وكما نادى فرعون: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ (سورة، النازعات، الآية: ٢٤). ويربأ بنفسه -أي الإنسان- أن يعتقد أنه مسؤول أمام أحد، ويتحول إلى متأله.. ويميل حينا آخر إلى جانب معاكس هو التفريط، فيظن أنه أدنى أو أرذل كائن في العالم، فيطأطئ رأسه أمام شجر أو حجر، أو نهر أو جبل، أو أمام حيوان، بحيث لا يرى السلامة إلا أن يسجد للشمس أو للقمر[(١٨٠)].

وقد بين القرآن الكريم بوضوح أن (حقيقة الإنسان ترجع إلى أصلين: الأصل البعيد وهو الخلقة الأولى من طين، حين سواه ونفخ فيه الروح والأصل القريب المستمر وهو خلقه من نطفة)[(١٨١)] وقال (تعالى) في ذلك عن نفسه: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (سورة السجدة، آية: ٧-٩) والآيات في هذا المعنى كثيرة.

وتحدث القرآن الكريم عن تكريم الله (تعالى) للإنسان وكان لذلك الحديث أثره في نفوس وعقول وقلوب الرعيل الأول، فقد بين لهم القرآن الكريم صور عديدة لتكريم الإنسان منها:

١- اختص الله الإنسان بأن خلقه بيديه:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (سورة ص، آية: ٧١-٧٤) فبين لهم علو مكانة الروح التي حلت في الإنسان وأن لها منزلة سامية، وكرمه بذلك الإستقبال الفخم الذي استقبله به الوجود، وبذلك الموكب الذي تسجد فيه الملائكة ويعلن فيه الخالق جل شأنه تكريم هذا الإنسان بقوله عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ (سورة الأعراف، آية: ١١).

---

(١٧٩) أساليب التشويق في القرآن، د. الحسين جلو ص١٣٤.

(١٨٠) انظر: أصول التربية للنحلاوي ص٣١.

(١٨١) انظر: أساليب التشويق والتعزيز ص١٣٤.

٢- الصورة الحسنة والقامة المعتدلة:

قال (تعالى): ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (سورة التغابن، آية: ٣). والقامة المعتدلة قال عز وجل: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (سورة التين، آية: ٤).

٣- ومنحه العقل والنطق والتمييز:

قال (تعالى) ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ (سورة الرحمن، آية: ١-٤).

٤- وسخر الله للإنسان ما في السماء والأرض:

بعد أن خلق الله الإنسان أكرمه بالنعم العظيمة التي لا تعد ولا تحصى لقوله (تعالى): ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (سورة إبراهيم، آية: ٣٤).

لقد سخر الله عز وجل للإنسان - تكريمًا له - ملكوت السموات بما تشتمل عليه من نجوم وشموس وأقمار وجعل في نظامها البديع ما ينفع الإنسان من تعاقب الليل والنهار واختلاف في الفصول ودرجات الحرارة ونحو ذلك قال (تعالى): ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالْنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (سورة النحل، آية: ١٢).

وقال (تعالى): ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لَّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة الجاثية، آية: ١٣).

٥- وكرم الله الإنسان بتفضيله على كثير من خلقه:

قال (تعالى): ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ الإسراء، آية: ٧٠).

٦- وكرم الله الإنسان بإرسال الرسل إليه:

ومن أجل مظاهر التكريم من المولى سبحانه للإنسان أن أرسل الرسل لهداية الخلق ودعاهم لما يحييهم، وضمن لهم الفوز في الدنيا والآخرة، فكان من أعظم النعم التي أنعم الله بها على الإنسان تكريمًا له نعمة الإسلام ونعمة الإيمان ونعمة الإحسان وأن هدانا الله إليها، فقال عز من قائل: ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى ﴾ (سورة طه، آية: ١٢٣)، ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِـي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (سورة الأعراف، آية: ١٥٨).

ومن مظاهر هذا التكريم الذي شعر به الصحابة رضي الله عنهم حصر مظاهر شرف

الإنسان في العبودية لله وحده، وتحريره من عباده الأصنام والأوثان والبشر: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (سورة النحل، آية: ٣٦).

٧- حب الله للإنسان وذكره في الملأ الأعلى:

من أروع مظاهر تكريم المولى سبحانه للإنسان، أن جعله أهلاً لحبه ورضاه وأرشده في القرآن الكريم إلى ما يجعله خليقًا بهذا الحب وأول ذلك اتباع رسول الله (ﷺ) فيما دعا الناس إليه كي يحيوا حياة طيبة في الدنيا ويظفروا بالنعيم المقيم في الآخرة، وقد أشار المولى عز وجل إلى ثمرة هذا الاتباع وما أحلاها من ثمرة ألا وهي التمتع بخيري الدنيا والآخرة قال (تعالى): ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (سورة النحل، آية: ٩٧).

٨- حفظ الإنسان ورعايته:

ومن مظاهر تكريم الإنسان أن يحظى برعاية الله عز وجل وحفظه من السوء قال (تعالى): ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾ (سورة الإنفطار، آية: ١) وسخر له الملائكة لحفظه: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ (سورة الطارق، الآية: ٤) وصور التكريم للإنسان كثيرة في القرآن الكريم[١٨٢].

ثامنًا: تصور الصحابة لقصة الشيطان مع آدم عليه السلام:

كان رسول الله (ﷺ) من خلال المنهج القرآني، يحدثهم عن قصة الشيطان مع آدم ويشرح لهم حقيقة الصراع بين الإنسان مع عدوه اللدود الذي حاول إغواء أبيهم آدم عليه السلام من خلال الآيات الكريمة، قال (تعالى): ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة الأعراف، آية: ٢٧).

قال (تعالى): ﴿ قَالَ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ (سورة الأعراف، الآيات: ١٤-١٧).

كان الشيطان يتجسم في حس الرعيل الأول مرئيًا مشهودًا يأتيهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم، يوسوس لهم بالمعصية ويستثير كوامن الشهوات، فكانوا يحاولون أن يكونوا دائمًا منتبهين من عدوهم، كانوا يسارعون في الخيرات ليضيقوا مسالك الشيطان ويسدوها، فلا يجد له مسلكًا إليهم حتى فيما هو أخفى من دبيب النمل[١٨٣] وقد تعلموا ذلك من قوله (تعالى): ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ

---

(١٨٢) انظر: موسوعة نظرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (١١٣٦/٤، ١١٤٢).

(١٨٣) انظر: واقعنا المعاصر ص٤٦.

لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ (سورة النحل، الآيات: ٩٨-١٠٠).

جاءت قصة آدم مع الشيطان في القرآن الكريم في أكثر من موضع أحيانًا تجيء بكل تفصيلاتها كما في سورة الأعراف، وأحيانًا تجيء ببعض التفصيلات كما في سورة الحجر والإسراء وطه وص، وأحيانًا تجيء في سورة إشارة عابرة، وهذا كثير جدًا في القرآن، وتنفرد سورة إبراهيم بذكر موقف الشيطان يوم القيامة من بني آدم الذين استجابوا له في الدنيا، وتنصله الكامل من تبعتهم(١٨٤).

قال (تعالى) في سورة الأعراف: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ * قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ * يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة الأعراف، الآيات: ١٩-٢٧) إن مما يهم الإنسان أن يعرفَ تاريخه ليَعتبَر به، لا ليَتسلى، وقصة آدم مع الشيطان قصة لها دلالاتها الخاصة بين القصص القرآني كله، فهي تحدد للبشر مبدأهم ومنتهاهم ودورهم في الأرض وخطة سيرهم فيها والعقبات التي تقابلهم في أثناء رحلتهم، وطريقة تجنب هذه العقبات وتخطيها(١٨٥).

كانت الآيات الكريمة التي تحدثت عن قصة آدم وصراعه مع الشيطان قد علمت الرعيل الأول قضايا مهمة في مجال التصور والاعتقاد والأخلاق فمنها:

١- أن آدم هو أصل البشر:

إن آدم عليه السلام هو أصل البشر، فقد خلقه الله (تعالى) من طين على صورته البشرية الكاملة التي لم تأت عن طريق التدرج عن نوع من أنواع المخلوقات، أو عن صورة أو هيئة أخرى، فالله (تعالى) خلق آدم من طين ثم نفخ فيه الروح، فصار بشرًا سويًا من لحم ودم بكامل هيئته وصورته الإنسانية.

(١٨٤) انظر: دراسات قرآنية ص١١٢ .
(١٨٥) نفس المصدر ص١١٤ .

٢- جوهر الإسلام الطاعة المطلقة لله:

أمر الله (تعالى) الملائكة بالسجود لآدم، فسجدوا له سجود تحية وتكريم وتعظيم واعتراف بفضله، وطاعة لله رب العالمين دون تردد ولا اعتراض، مع أنهم في الملأ الأعلى وهم في حال تسبيح وتقديس وعبادة مستمرة لله رب العالمين، وقبل أن يصدر من آدم أي نوع من العبادة ترجح على عبادتهم، وإنما كانت مبادرة الملائكة إلى السجود لآدم، والحال كما وصفنا، لأن الأمر لهم بالسجود لآدم صادر من الله رب العالمين، وما يأمر به الله تجب المبادرة إلى تنفيذه حالاً بدون تردد ولا اعتراض ولا توقف في تنفيذه على معرفة حكمة هذا الأمر، وهذا هو جوهر الإسلام، وهذا هو الشأن بالمسلم: يسارع إلى طاعة ربه، والامتثال لأمره بدون تردد ولا اعتراض، ولا تعليق لهذه الطاعة على شيء آخر من معرفة سبب الأمر أو معرفة حكمته، أو موافقته لعقله وهواه.

٣- قابلية الإنسان للوقوع في الخطيئة:

تعلم الصحابة من قصة وقوع آدم في الخطيئة بأن الإنسان له قابلية للوقوع في المعصية، وأن هذه القابلية متأتية من طبيعة الإنسان، فقد خلقه الله (تعالى) على طبيعة تجعل وقوعه في الخطيئة أمرًا ممكنًا، لما في طبيعته وما جبله الله عليه من ميول ورغبات وغرائز هي جوانب الضعف في الإنسان، والتي من خلالها ينفذ الشيطان بوساوسه إليه، ويزين له الوقوع في الخطيئة، فمن غرائز الإنسان الكامنة فيه أنه يحب أن يكون خالدًا لا يموت، أو معمرًا أجلاً طويلاً كالخلود ويحب أن يكون له ملك غير محدد بالعمر القصير[١٨٦]، فجاء إبليس إلى آدم عليه السلام من هذه الغريزة فقال له ولزوجته: **﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا من سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا منَ الْخَالِدِينَ﴾** (سورة الأعراف، آية: ٢٠) وأكد لهما ادعاءه بالحلف بالله بأنه لهما لمن الناصحين وما قلناه لا يعني الاستسلام لهذه الغرائز والميول والرغبات، بل لا بد للمسلم من أن يضبطها ويكبح جماحها ويجعلها تابعة لأحكام الشرع الشريف، وهذه الميول والغرائز والرغبات هي ما تهواه النفس وغالبًا ما تكون منفلتة ومتجاوزة حدودها، ولا يمكن ضبطها إلا بالالتزام بأحكام الشرع، ولذلك يأتي ذم الهوى ويراد به ما تهواه النفس من أمر مذموم، قال (تعالى): **﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾** (سورة النازعات، الآيات: ٤٠-٤١). فقد أطلق الهوى، ومدح ما ينهى نفسه عن الهوى، لأنه ينصرف عند الإطلاق إلى ما هو مذموم[١٨٧].

٤- خطيئة آدم تعلم المسلم ضرورة التوكل على ربه:

إن خطيئة آدم عليه السلام تظهر عظيم استعداد الإنسان للوقوع في الخطيئة، وتثير الخوف والفزع في النفوس، وبالتالي تزيد من توكل المسلم على ربه، واعتماده عليه، ليكفيه شر

(١٨٦) انظر: في ظلال القرآن (٣/١٢٦٩).

(١٨٧) انظر: المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، د. عبدالكريم زيدان (١/٢٨).

الشيطان الرجيم.

وبيان ذلك أن الله (تعالى) أسجد الملائكة لآدم إظهارًا لفضله وعلو منزلته عند ربه وطرد إبليس من الجنة، لامتناعه من السجود له، وأسكنه وزوجه في الجنة، وأمره بالأمر الصريح بعدم الاقتراب من شجرة معينة وأباح له ما عداها من نعيم الجنة وثمارها قال (تعالى): ﴿**وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ (سورة الأعراف، الآية: ١٩). وحذرهما من الشيطان، ومن خداعه وكيده، ليخرجهما من الجنة، قال (تعالى): ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى * فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى**﴾ سورة طه، آية: ١١٦-١١٧) ومع هذا كله فإن الشيطان استزلهما وغرهما، فأكلا من الشجرة، ووقعا في المعصية، فأخرجهما مما كانا فيه.

إن خطيئة آدم عليه السلام أثارت في نفوس الصحابة الكرام الخوف والفزع من هذا العدو الخبيث، وهذا الخوف من الشيطان وإغوائه دفعهم إلى الالتجاء الدائم إلى الله (تعالى)، والتوكل عليه والاستعانة به على هذا الشيطان الرجيم الذي لا همّ له إلا إغواء الإنسان، وجرّه إلى الخطيئة، وهذا الذي فهموه من قول الله (تعالى): ﴿**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا**﴾ (سورة الإسراء، آية: ٦٥).

وقوله (تعالى): ﴿**إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾ (سورة النحل، الآية: ٩٩). فلا تأثير ولا قدرة للشيطان على إغواء الذين آمنوا بالله إيمانًا عميقًا وجّه قلوبهم إلى الله (تعالى)، وحرّك جوارحهم في طاعته، وجعل اعتمادهم وثقتهم به، فليس للشيطان على هؤلاء من سلطان، فهم يحاربون أمانيه الباطلة، ويهدمون ما يلقيه في نفوسهم، لأن إيمانهم بالله يمنحهم النور الكاشف عن مكره، والتوكل عليه يفيدهم التقوية بالله فيضعف الشيطان، وينخذل أمام قوة الإيمان بالله والتوكل عليه[١٨٩].

٥- ضرورة التوبة والاستغفار:

تعلم الصحابة رضي الله عنهم من هذه القصة ضرورة التوبة والاستغفار عند الوقوع في الذنب أو المعصية، فقد سارع آدم وزوجه إلى المغفرة وطلب الرحمة من ربهم الكريم عندما وقعوا في المعصية: ﴿**فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ * قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ (سورة الأعراف، الآية: ٢٢-٢٣) فهذا اعتراف بالذنب سريع، مقرون بندم شديد، فهم من قوله (تعالى): ﴿**ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا**﴾ وتوبة خالصة مقرونة برجاء قبولها، لئلا يكونا من الخاسرين الهالكين، وهذا يفهم من قولهما ﴿**وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ فإذا كان آدم وزوجه لم يستغنيا عن التوبة، وطلب المغفرة من الله (تعالى) مع علو منزلتهما فغيرهما

(١٨٨) انظر: المستفاد من قصص القرآن (١/ ٧١).

أولى بذلك[١٨٩].

٦- الاحتراز من الحسد والكبر:

إن إبليس وقع فيما وقع فيه بسبب الحسد والكبر، فكان بدء الذنوب: الكبر، استكبر إبليس أن يمتثل لأمر ربه بالسجود لآدم، ولهذا جاء التحذير من الكبر، والوعيد للمتكبرين. قال (ﷺ): «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر**»[١٩٠] وفي كتاب الله العزيز آيات كثيرة تذم الكبر والمتكبرين، وتبين سوء عاقبتهم يوم الدين.

وحقيقة الكبر: بطر الحق، وغمط الناس، وبطر الحق: رده ودفعه، وعدم الخضوع له وعدم الانقياد له استخفافًا به، وترفعًا عليه، وعنادًا له، وغمط الناس، احتقارهم والازدراء بهم[١٩١]، ومن أعظم مظاهر بطر الحق رفض أوامر الله، والتمرد عليها، لأن ما يأمر به الله هو الحق، فالتمرد على هذا الحق ودفعه يمثل حقيقة الكبر، فكان الصحابة رضي الله عنهم أبعد خلق الله (تعالى) عن جرائيم الحسد والكبر، والابتعاد عن الحديث عن النفس وتزكيتها وشعروا بخطورة ذلك من قوله (تعالى): ﴿**أنا خير منه**﴾ لأن فيها معنى التكبر والله قال لهم: ﴿ **الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى**﴾ (سورة النجم، الآية: ٣٢) وتعلموا أنه لا فخر بالأصل والنسب وإنما بالتقوى والطاعات والخيرات ابتغاء رب الأرض والسموات، لأن إبليس افتخر بسبب أصله ﴿**خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ**﴾.

٧- إبليس هو العدو لآدم وزوجه وذريتهما:

تعلم الصحابة من القرآن المكي أن إبليس عدوهم الأول، لأنه بسبب امتناعه عن السجود لأبيهم آدم طرده الله من رحمته، ولعنه، فأصبح عدوًا لآدم وزوجته وذريته قال (تعالى): ﴿**وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ (سورة الحجر، الآية: ٤٣) وقال (تعالى): ﴿**قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ (سورة الإسراء، الآية: ٦٢) وقد أعلن إبليس عزمه وتصميمه على إضلال بني آدم وإغوائهم، وطلب من الله (تعالى) إمهاله وإبقاءه إلى يوم القيامة، لتنفيذ ما عزم وصمم عليه، مما يدل على شدة عداوته لآدم وبنيه قال (تعالى) حكاية عن قول إبليس: ﴿ **قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**﴾ (سورة الحجر، الآيات: ٣٦-٤٠).

لقد أيقن الصحابة رضي الله عنهم من خلال المنهج القرآني أن طبيعة علاقة الشيطان بالبشر هي العداوة ولا يمكن تبديلها ولا تغييرها، ولا يمكن إجراء المصالحة بينهما لإزالة هذه

---

(١٨٩) نفس المصدر (١/ ٣٠).

(١٩٠) مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر (١/ ٩٣) رقم ٩١.

(١٩١) المستفاد من قصص القرآن (١/ ٣٣).

العداوة، لأن الشيطان لا همّ له ولا عمل ولا غرض في حياته سوى إضلال الإنسان، ودفعه إلى معصية الله، بواسطة تزيين الذنوب كما قال (تعالى): ﴿فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (سورة الأنعام، آية: ٤٣)، وقال (تعالى) حكاية عما قاله الهدهد لسليمان عليه السلام بشأن ملكة سبأ: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ﴾ (سورة النمل، الآية: ٢٤) أي وزين لهم الشيطان أعمالهم، أي حسّن لهم ما هم فيه من الكفر، ث ج ح، أي عن طريق التوحيد[١٩٢] ومن هذا الباب وبهذا الأسلوب، أسلوب التزيين، يزين الشيطان البدع في الدين في أعين المبتدعين[١٩٣] ولذلك جعل الصحابة إبليس عدوهم الأكبر وامتثلوا قول الله (تعالى): ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (سورة فاطر، الآية: ٦) فعادوه ولم يطيعوه وحذروه وحذّروا منه الناس.

٨- التخاطب بأحسن الكلام بين الصحابة الكرام:

من الوسائل التي استخدمها الصحابة الكرام لمحاربة الشيطان امتثالهم قول الله (تعالى): ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ (سورة الإسراء، الآية: ٥٣). لقد أمر الله (تعالى) رسوله (ﷺ) الكريم أن يأمر المؤمنين بأن يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن، والكلمة الطيبة، لأنهم إن لم يفعلوا ذلك نزغ الشيطان بينهم، أي أفسد فيما بينهم وهيّج الشر والمراء، لتقع بينهم العداوة والبغضاء ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ أي: شديد العداوة للإنسان ولذلك فهو لا يريد إلا الشرّ لهم، والعداوة فيما بينهم، وقد تربى الصحابة الكرام على خلق رفيع وأسلوب جميل في معاملة الناس من قوله (تعالى): ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ (سورة المؤمنون، الآيات: ٩٦-٩٨) وقوله (تعالى): ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي بالخلة التي هي أحسن الخلال، أي بالصفح ومكارم الأخلاق، ادفع إساءة من يسيء إليك، فبهذا تعود عداوته صداقة وبغضه محبة[١٩٤] وقوله (تعالى): ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ أي أعوذ بك من وساوسهم المغرية على الباطل والشرور والفساد والصد عن الحق، لأن الشياطين لا ينفع معهم شيء ولا ينقادون بالمعروف[١٩٥] ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ أي أعوذ بك رب أن يحضروني في شأن من شؤوني أو في شيء من أمري، ولهذا أمر الشرع بذكر الله في ابتداء الأمور وذلك لطرد الشيطان.

---

(١٩٢) تفسير القرطبي (١٢/ ١٨٥).

(١٩٣) انظر: المستفاد من قصص القرآن (١/ ٥١).

(١٩٤) تفسير القاسمي (١٢/ ١٠٠).

(١٩٥) انظر: المستفاد من قصص القرآن (١/ ٨٥).

وقال (تعالى): ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (سورة فصلت، الآيات: ٣٤-٣٦) وقوله (تعالى): ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي من أساء إليك فادفعه عنك بالإحسان إليه، وقوله (تعالى): ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ كأنه ولي أي: صديق أو قريب، حميم أي: شديد الولاء، ومعنى ذلك أنك إذا أحسنت إلى من أساء إليك قادته تلك الحسنة إليه إلى مصافاتك ومحبتك والحنو عليك حتى يصير كأنه ولي لك حميم، أي قريب إليك من الشفقة عليك والإحسان إليك، ثم قال (تعالى): ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي وما يقبل هذه الوصية وهي مقابلة الإساءة بالإحسان ويعمل بها إلا من صبر على ذلك، فإنه يشق على النفوس، وما يقبل هذه الوصية ﴿إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا والآخرة[١٩٦].

ثم قال (تعالى): ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي وإما يلقين الشيطان في نفسك وسوسة، ليحملك على مجازاة المسيء بالإساءة والانتقام منه، فاستجر بالله من وساوس هذا الشيطان ونزغه وشره، فإنه يسمع استعاذتك ويعلم بحالك، فالشيطان لا تنفع معه مداراة ولا مقابلة إساءته بإحسان، لأن الإحسان الذي يرضيه هو فقط أن تطيعه في معصية الله، ولا يقبل منك غير هذا أبدًا، أما عدو الإنس فقد ينفع معه إحسانك إليه، وعدم مقابلة إساءته بإساءة مثلها، ولذلك حثنا الشرع على مقابلة إساءة المسيء من الإنس بالإحسان إليه، أما بالنسبة لنزغ الشيطان وتحرشه بالإنسان فلا ينفع معه إلا الاستعاذة بالله ليخلصك من شره[١٩٧]، إن المنهج القرآني الكريم وضح حقيقة العلاقة بين الإنسان والشيطان، وبين سبل علاجها، ووسائل الشيطان لإغواء بني آدم ومضى القرآن يتحدث عن الشيطان وهو في جهنم يتبرأ ممن أغواهم وأضلهم من بني الإنسان قال (تعالى): ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ * وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ * وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (سورة إبراهيم، الآيات: ٢٠-٢٢).

هذه صورة موجزة عن حقيقة إبليس وتصور الصحابة رضي الله عنهم لهذا العدو اللعين.

---

(١٩٦) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ١٠٠، ١٠١).

(١٩٧) انظر: المستفاد من قصص القرآن (١/ ٨٦).

تاسعاً: نظرة الصحابة إلى الكون والحياة وبعض المخلوقات:

ظل رسول الله (ﷺ) يعلم الصحابة كتاب الله (تعالى) ويربيهم على التصور الصحيح في قضايا العقائد والنظر السليم للكون والحياة من خلال الآيات القرآنية الكريمة، فبين بدء الكون ومصيره قال (تعالى): ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (سورة فصلت، الآيات: ٩-١٢).

فقد أشارت الآيات الكريمة إلى ثلاث حقائق كونية:

١- خلق الأرض وتقدير الأقوات فيها في أربعة أيام قبل السماء.

٢- أصل الكون المادي من الدخان.

٣- الدورات التكوينية للأرض والسماء مجموعها ستة أيام[١٩٨].

وبين القرآن الكريم حقيقة مهمة استحالة تحديد الحالة الأولية لهذه المواد التي كانت عليها قبل تجمعها في مجموعات من النجوم والكواكب والمجرّات ولن يستطيع الناس معرفة ذلك إلا ظنًا وتخمينًا قال (تعالى): ﴿مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ (سورة الكهف، الآية: ٥١).

وأشار القرآن الكريم إلى هذا الأصل الموحد وساق حقائق كونية في غاية الوضوح، قال (تعالى): ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ (سورة فصلت، الآية: ١٠).

لقد فهم الصحابة من الآيات التي في سورة فصلت أن الله خلق الأرض ووضع البركة فيها وقدر أقواتها في أربعة أيام، كل ذلك قبل تشكيل السماء وجعلها سبع سماوات، وهذه الحقيقة وصل إليها الصحابة من طريق الوحي من خالق السماوات والأرض[١٩٩].

قال ابن عباس رضي الله عنه: .. وخلق الأرض في يومين ثم خلق السماء ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين، ثم دحى الأرض ودحيها أن أخرج منها الماء والمرعى وخلق الجبال والرمال والجماد والآكام وما بينهما في يومين آخرين، فذلك قوله (تعالى): ﴿دَحَاهَا﴾ وقوله: ﴿خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ فخلق الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام وخلق السماوات في يومين. ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ سمى نفسه بذلك وذلك ،قوله: أي لم يزل كذلك فإن الله (تعالى) لم يرد شيئًا إلا أصاب به الذي أراد[٢٠٠].

---

(١٩٨) انظر: مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم ص١٧٧ .

(١٩٩) نفس المصدر ص١٧٧ إلى ١٧٩ .

(٢٠٠) البخاري، كتاب التفسير (٦/ ٣٥) .

وبين لهم القرآن الكريم في آيات عظيمة بأن الله هو الذي خلق السماوات وألقى في الأرض رواسي وتحدث عن حقائق في الكون، وعن الشمس والقمر والنجوم وفصل في الجبال وبين فوائدها وضرب بها الأمثال ودعا إلى التأمل فيها وأخبر بأنه سوف ينسفها نسفًا، وتحدث القرآن الكريم عن البحار وما فيها من السفن، والأرزاق، وتكلم القرآن الكريم عن الظواهر الجوية، كالرياح، والسحب، والمطر، والرعد والبرق قال (تعالى): ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (سورة الروم، آية: ٤٨)، وقال (تعالى): ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ (سورة الحجر، الآية: ٢٢) وقرر القرآن الكريم حقائق عن الحيوان لا تقل في الأهمية والدقة عن الحقائق التي قررها في كل جوانب الكون والحياة، فهو يلفت النظر تارة إلى المنافع التي يحصل عليها الإنسان من تسخير هذه الدواب ركوبًا وحملاً ولباسًا وطعامًا وشرابًا وزينة، فهي مسخرة للإنسان مذللة له منقادة، كان الرعيل الأول قبل البعثة نظرته إلى الكون والحياة، والمخلوقات من شمس وقمر ونجوم مضطربة غير واضحة في معالمها التصورية والعقدية ولا يستشعرون بالمنظومة التي خلقها الله بأنها تسبح لله ولها حكمة من خلقها، فأرشدهم القرآن الكريم إلى التأمل والتدبر في هذا الكون وما فيه من مخلوقات وبين لهم حقيقة بأن مخلوقاته العظيمة تسبح له (سبحانه وتعالى)، ولكن لا تفقهون تسبيحهم قال (تعالى): ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (سورة الإسراء، الآية: ٤٤).

فحدثهم القرآن الكريم عن ظاهرة التذليل وانقياد الحيوان للإنسان بأنها ظاهرة تستدعي شكر المنعم الذي جعل فيها هذه الطبائع، ولولا وجود هذا الطبع فيها لما استطاع الإنسان إلى التغلب عليها سبيلاً[٢٠١].

قال (تعالى): ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ (سورة يس، الآيات: ٧١-٧٣).

ولفت القرآن الكريم الأنظار إلى مسألة رزق الحيوان، وأن الإنسان يعقل ويفكر ويخطط ويسعى في سبيل تحصيل معيشته وكسبه وإذا حصل على الكسب بطريقة ما فكر في ادخاره وخزنه للمستقبل، أما الحيوان فليست عنده القدرة على التفكير والتخطيط، وليس من طبعه ذلك، ولكن قدرة الحكيم الخبير المحيطة بكل شيء قد تكفلت بأرزاقها، وتوفر سبل البقاء أمامها. قال (تعالى): ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (سورة العنكبوت، الآية: ٦٠).

هكذا شأن الألوهية في المخلوقات: العلم والإحاطة بالمكان وتكفل الرزق في جميع

(٢٠١) انظر: مباحث في إعجاز القرآن ص٢١٤ .

الظروف، فالحيوان مرزوق في كل مكان، في أعماق البحار والمحيطات، وفي الصحراء المحرقة، والأصقاع المتجمدة، تحت الصخور الصماء وفي أجواء الفضاء، كل ذلك في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى، قال (تعالى): ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (هود، الآية: ٦).

وقد لفت القرآن الكريم النظر إلى أن هذه المخلوقات من الدواب والحشرات المتباينة في الأشكال والحجوم وطريقة الحركة والسير أمم وفصائل أمثال الناس(٢٠٢) قال (تعالى): ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (سورة الأنعام، الآية: ٣٨).

وهكذا نظم القرآن الكريم أفكار وتصورات الرعيل الأول عن الكون وما فيه من مخلوقات وعجائب، وعن حقيقة هذه الحياة الفانية واستمر النبي (ﷺ) في غرس حقيقة المصير وسبيل النجاة في نفوس أصحابه موقنًا أن من عرف منهم عاقبته وسبيل النجاة والفوز سيسعى بكل ما أوتي من قوة ووسيلة لسلوك السبيل، حتى يظفر غدًا بهذه النجاة وذلك الفوز.

وركز (ﷺ) في هذا البيان على الجوانب التالية:

١- إن هذه الحياة الدنيا مهما طالت فهي إلى زوال، وأن متاعها مهما عظم، فإنه قليل حقير ،ووضح لهم قول الله (تعالى): ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (يونس، الآية: ٢٤).

إن الآية الكريمة السابقة فيها عشر جمل وقع التركيب من مجموعها بحيث لو سقط منها شيء اختل التشبيه، إذ المقصود تشبيه حال الدنيا في سرعة تقضيها، وانقراض نعيمها، واغترار الناس بها، بحال ماء نزل من السماء، وأنبت أنواع العشب وزين بزخرفها وجه الأرض كالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة، حتى إذا طمع أهلها فيها وظنوا أنها مسلمة من الجوائح أتاها بأس الله فجأة، فكأنها لم تكن بالأمس(٢٠٣).

وبين لهم الرسول (ﷺ) قول الله (تعالى): ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ (سورة الكهف، الآية: ٤٥)، أي: واضرب يا محمد للناس ﴿مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ في زوالها وفنائها وانقضائها ﴿كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ أي ما فيها من الحب، فشب ونما وحسن وعلاه الزهر والنضرة، ثم بعد هذا كله ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ يابسًا

---

(٢٠٢) انظر: مباحث في إعجاز القرآن ص٢١٦ .
(٢٠٣) انظر: الإتقان للسيوطي (٢/ ٧٠) .

﴿تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ أي تفرقه، وتطرحه ذات اليمين وذات الشمال﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾ أي هو قادر على الإنشاء والإفناء[٢٠٤].

وقال (تعالى): ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (سورة الحديد، الآية: ٢٠) يقول الله موهنًا أمر الحياة الدنيا ومحقرًا لها ﴿أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ﴾ أي تفريح نفس، ﴿وَلَهْوٌ﴾ باطل، ﴿وَزِينَةٌ﴾ أي منظر جميل، ﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾ أي بالحسب والنسب ﴿وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ أي مطر ﴿أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ أي يعجب الزرّاع نبات ذلك الزرع الذي نبت بالغيث، وكما يعجب الزرّاع ذلك، كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار، فإنهم أحرص شيء عليها وأميل الناس إليها﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾ أي ثم يجف بعد خضرته ونضرته، فتراه مصفرًا أي من اليبس، ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ ثم يكون بعد ذلك كله حطامًا أي هشيمًا منكسرًا، وكذلك الدنيا لا تبقى كما لا يبقى النبات الذي وصفناه، ولما كان هذا المثل دالًا على زوال الدنيا وانقضائها لا محالة وأنّ الآخرة كائنة وآتية لا محالة حذرنا الله (تعالى) من أمرها، ورغبنا فيما فيها من الخير، فقال (تعالى): ﴿وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ أي وليس في الآخرة الآتية إلا: إما هذا وإما هذا: أي إما عذاب شديد وإما مغفرة من الله ورضوان. وقوله (تعالى): ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ أي هي متاع زائل يغرّ ويخدع من يركن إليها وإلى متاعها، فيغترّ بها وتعجبه من يعتقد أنه لا دار سواها، ولا معاد وراءها، مع أنها حقيرة قليلة المتاع بالنسبة إلى الدار الآخرة[٢٠٥].

إن هذه الحقيقة التي أشارت إليها الآيات الكريمة هي حقيقة الدنيا بكل متاعها وزينتها وما تشتهيه النفس منها، وإن كل ذلك بالنسبة لنعيم الآخرة شيء تافه وقليل وزائل هكذا فهم الرعيل الأول حقيقة الدنيا، فكان رسول الله (ﷺ) يبصرهم ويذكرهم بدورهم ورسالتهم في الأرض، ومكانتهم عند الله وظل (ﷺ) معهم على هذه الحال من التبصير والتذكير حتى انقدح في ذهنهم ما لهم عند الله وما دورهم ورسالتهم في الأرض، وتأثرًا بتربيته الحميدة تولد الحماس والعزيمة في نفوس أصحابه، فانطلقوا عاملين بالليل والنهار بكل ما في وسعهم، وما في طاقتهم دون فتور أو توان، ودون كسل أو ملل، ودون خوف من أحد إلا من الله، ودون طمع في مغنم أو جاه إلا أداء هذا الدور وهذه الرسالة، لتحقيق السعادة في الدنيا والفوز والنجاة في الآخرة[٢٠٦].

إن كثيرًا من العاملين في مجال الدعوة بهتت في نفوسهم هذه الحقيقة، لأنهم انغمسوا

(٢٠٤) انظر: تفسير القاسمي (١١/٤٩).
(٢٠٥) انظر: تفسير ابن كثير (٤/٣١٢-٣١٣).
(٢٠٦) انظر: منهج الرسول في غرس الروح الجهادية ص١٩ ـ ٣٤.

في هذه الحياة الدنيا ومتاعها وشغفتهم حبًا، فهم يلهثون وراءها، وكلما حصل على شيء من متاعها طلب المزيد، فهو لا يشبع ولا يقنع، بسبب التصاقه بالدنيا وإنها لكارثة عظيمة على الدعوة والنهوض بالأمة، أما التمتع بهذه الحياة في حدود ما رسمه الشرع واتخاذها مطية للآخرة، فذلك فعل محمود.

•••



المبحث الرابع

البناء التعبدي والأخلاقي في العهد المكي

أولاً: تزكية أرواح الرعيل الأول بأنواع العبادات:

قال (تعالى): ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ (سورة الإسراء، الآية: ٨٥) وقال (تعالى): ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (سورة ص، آية: ٧٢)، وقال (تعالى): ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (سورة السجدة، آية: ٩). وقد ربى رسول الله (ﷺ) أصحابه على تزكية أرواحهم وأرشدهم إلى الطريق التي تساعدهم على تحقيق ذلك المطلب من خلال القرآن الكريم ومن أهمها:

١- التدبر في كون الله ومخلوقاته، وفي كتاب الله (تعالى)، حتى يشعروا بعظمة الخالق وحكمته (سبحانه وتعالى): قال (تعالى): ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة الأعراف، الآية: ٥٤).

٢- التأمل في علم الله الشامل وإحاطته الكاملة بكل ما في الكون، بل ما في عالم الغيب والشهادة؛ لأن ذلك يملأ الروح والقلب بعظمة الله، ويطهر النفس من الشكوك والأمراض.

قال (تعالى): ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ * وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (سورة الأنعام، الآيات: ٥٩-٦٠).

٣- عبادة الله عز وجل، من أعظم الوسائل لتربية الروح وأجلها قدرًا، إذ العبادة غاية التذلل لله سبحانه ولا يستحقها إلا الله وحده ولذلك قال سبحانه: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾ (سورة الإسراء، آية: ٢٣).

والعبادات التي تسمو بالروح وتطهر النفس نوعان:

أ- النوع الأول: العبادات المفروضة كالطهارة، والصلاة، والصيام، والزكاة، والحج وغيرها.

ب- النوع الثاني: العبادات بمعناها الواسع، الذي يشمل كل عمل يعمله الإنسان أو يتركه، بل كل شعور يقبل عليه الإنسان تقربًا به إلى الله (تعالى)، بل يدخل فيها كل

شعور، يطرده الإنسان من نفسه تقربًا به إلى الله (تعالى)، ما دامت نية المتعبد بهذا العمل، هي إرضاء الله (سبحانه وتعالى)، فكل الأمور، مع نية التقرب إلى الله (سبحانه وتعالى) عبادة يثاب صاحبها، وتربى روحه تربية حسنة(٢٠٧).

إن تزكية الروح بالصلاة وتلاوة القرآن وذكر الله (تعالى) والتسبيح له سبحانه أمر مهم في الإسلام، فإن النفس البشرية إذا لم تتطهر من أدرانها وتتصل بخالقها لا تقوم بالتكاليف الشرعية الملقاة عليها، والعبادة والمداومة عليها تعطي الروح وقودًا وزادًا ودافعًا قويًا إلى القيام بما تؤمر به ،يدل على هذا أمر الله والرسول (ﷺ) في ثالث سورة نزلت عليه بالصلاة والذكر وترتيل القرآن قال (تعالى): ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا * إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا * إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا * وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا**﴾ (سورة المزمل، الآيات: ١-٨).

فالاستعداد للأمر الثقيل والتكاليف الشاقة هو بقيام الليل والمداومة على الذكر والتلاوة وقد حرص رسول الله (ﷺ) بتوجيه من ربه عز وجل على تربية الصحابة من أول إسلامهم على تطهير أرواحهم وتزكيتها بالعبادة(٢٠٨).

وكان أصحاب رسول الله (ﷺ) إذا صلوا ذهبوا في الشعاب واستخفوا بصلاتهم(٢٠٩) ولما خاف (ﷺ) في بداية الإسلام على أصحابه وعرف أن الكفار لا يقرونهم يمارسون الصلاة وقراءة القرآن علنًا دخل بهم دار الأرقم وصار يصلي بهم ويعلمهم كتاب الله عز وجل، ولولا أهمية تزكية الروح بالعبادة والصلاة والتلاوة لأمرهم بتركها عند الخوف، حتى بعد أن اكتشفت قريش المكان الذي يصلي فيه الرسول (ﷺ) بأصحابه لم يترك الرسول (ﷺ) الصلاة والتلاوة لأجل الخوف(٢١٠).

وقد حض الله (تعالى) في القرآن المكي على إقامة الصلاة وأثنى على الذين يخشعون في صلاتهم والذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع لأجل إحياء ليلهم بذكر الله وعلى الذين يدعون الله ويسبحونه ويذكرونه. قال (تعالى): ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ**﴾ (سورة المؤمنون، الآية ١-٤) وقال (تعالى): ﴿**إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ***

(٢٠٧) فقه الدعوة، عبدالحليم محمود (١/ ٤٧١، ٤٧٢).
(٢٠٨) انظر: أهمية الجهاد في نشر الدعوة ص٦٩.
(٢٠٩) انظر: سبل الهدى والرشاد للصالحي (٢/ ٤٠٤).
(٢١٠) انظر: أهمية الجهاد في نشر الدعوة ص٧٠.

أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لاَّ يَسْتَوُونَ * أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ *وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ * وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ * وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ *أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ﴾ (سورة السجدة، الآيات: ١٥-٢٦). وقال (تعالى): ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ (سورة هود، الآية: ١١٤) وقال (تعالى): ﴿ أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (سورة الاسراء، الآيات: ٧٨-٧٩) وقال (تعالى): ﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى *وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى * وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ (سورة طه، الآيات: ١٣٠-١٣٢).

قال (تعالى): ﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ *وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴾ (سورة ق، الآيات: ٣٩-٤٠) وهذه الآيات الأخيرة تدلَ على أن العدة في حال الضيق والشدة هي الإكثار من الصلاة والذكر وتلاوة القرآن والالتجاء إلى الله سبحانه وحده والاكثار من الدعاء[٢١١].

إن الصلاة تأتي في مقدمة العبادات التي لها أثر عظيم في تزكية روح المسلم ولعل من أبرز آثارها التي أصابت الرعيل الأول:

١- الاستجابة لأمر الله (تعالى) وإظهار العبودية له سبحانه:

وقد أثنى الله (تعالى) على عباده المؤمنين الذين استجابوا لأمره، فقال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (سورة الشورى: آية ٣٨).

ولا تتحق معاني العبودية الصادقة لله سبحانه إلا إذا اقترنت بصدق التوجه إليه سبحانه والإخلاص له سبحانه، قال (تعالى): ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (سورة الأنعام، الآيات:

(٢١١) انظر: أهمية الجهاد في نشر الدعوة إلى الله ص٧٢ .

(١٦٢، ١٦٣).

وكان الرعيل الأول يرى أن لكل عمل من أعمال الصلاة عبودية خاصة، وتأثير في النفس وتزكية للروح، فقراءة سورة الفاتحة مع التدبر تشعرهم بعبوديتهم لله (تعالى)، فعندما يتلو العبد قول الله (تعالى): **﴿الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** يثبت كل كمال لله (سبحانه وتعالى) ويحمده على ما وفقه إليه من الطاعة وما أنعم عليه من النعم وأثنى عليه بصفاته وأسمائه الحسنى(٢١٢).

وكذلك عندما يتلو قوله (تعالى): **﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾** يقر بالتوحيد والاستعانة بالله وحده، فالله هو المعبود وهو المستعان، وكل استعانة لا تكون بالله فهي خذلان وذل.

وعندما يقول: **﴿اهدنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾** فهو إقرار من العبد بأنه مفتقر إلى الهداية والثبات على طريق الحق، وأنه محتاج إلى ثمار الهداية والاستزادة منها، والبعد عن سبيل المغضوب عليهم والضالين(٢١٣).

وعندما ينحني للركوع يكبّر ربه معظمًا له ناطقًا بتسبيحه، فيجتمع في هذا الركن خضوع الجوارح وخضوع القلب، ثم يأتي السجود فيجعل العبد أشرف أعضائه وأعزها متذللاً لله سبحانه، ويتبع هذا إنكسار القلب وتواضعه فيسجد القلب لربه كما سجد الجسد(٢١٤)، وحري به في هذه الحال أن يكون أقرب ما يكون من ربه، وكلما ازداد تواضعًا وخشوعًا لربه في سجوده ازداد منه قربًا منه، كما في قوله (تعالى): **﴿كَلاَّ لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾** (سورة العلق، آية: ١٩).

وفي الحديث: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد؛ فأكثروا الدعاء**»(٢١٥).

وعندما يعتدل جالسًا يتمثل جاثيًا بين يدي ربه ملقيًا نفسه بين يديه معتذرًا إليه مما جناه راغبًا إليه أن يغفر له ويرحمه وهكذا تتجلى في كل أفعال الصلاة العبودية لله سبحانه، وإقبال العبد على ربه، وتوحيده وتقوية الإيمان به الذي هو أساس التزكية، وهذه أعظم ثمرة من ثمرات الصلاة، وهي التي تنير للعبد طريق حياته وتمنحه طهارة القلب وطمأنينة النفس(٢١٦).

٢- مناجاة العبد لربه:

وقد بين رسول الله (ﷺ) مشهدًا من مشاهد هذه المناجاة، قال رسول الله (ﷺ): «قال الله (تعالى): **قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد:**

---

(٢١٢) انظر: منهج الإسلام في تزكية النفس، د. أنس احمد (١/ ٢٢١).
(٢١٣) الموازنة بين ذوق السماع والصلاة لابن الجوزي ص٣٥-٤٠.
(٢١٤) نفس المصدر ص٤٣، ٤٦ وانظر: الخشوع في الصلاة لابن رجب ص٢٠-٢٢.
(٢١٥) مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود رقم ٤٨٢.
(٢١٦) انظر: منهج الإسلام في تزكية النفس (١/ ٢٢٢).

الحمد لله رب العالمين، قال الله (تعالى): حمدني عبدي.

وإذا قال: الرحمن الرحيم، قال الله (تعالى): أثنى علي عبدي.

وإذا قال: مالك يوم الدين، قال: مجّدني عبدي.

فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل»[٢١٧].

تعلم الصحابة رضي الله عنهم من النبي (ﷺ) أن هذه المناجاة من أعظم أسباب تزكية النفس وتقوية الإيمان، إذا هيأ العبد نفسه لها، وأقبل عليها إقبال العبد المتشوق للوقوف بين يدي ربه الوافد عليه، المنتظر لرحمته وفضله يستمد العون منه سبحانه في كل أموره وأعماله.

٣- طمأنينة النفس وراحتها:

كان رسول الله (ﷺ) إذا حزبه أمر صلى[٢١٨]، وقد جعلت قرة عينه في الصلاة[٢١٩] وقد علم الرسول (ﷺ) الصحابة كثيرًا من السنن والنوافل ليزدادوا صلة بربهم، وتأمن بها نفوسهم وتصبح الصلاة سلاحًا مهمًا لحلِّ همومهم ومشاكلهم.

٤- الصلاة حاجز عن المعاصي:

قال (تعالى): ﴿ **اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ** ﴾ (سورة العنكبوت، (الآية :٤٥).

كان الصحابة رضي الله عنهم عندما يؤدون صلاتهم ترتاح بها نفوسهم وتمدهم بقوة دافعة لفعل الخيرات والابتعاد عن المنكرات، وتغرس في نفوسهم مراقبة الله عز وجل ورعاية حدوده والتغلب على نوازع الهوى، ومجاهدة النفس، فكانت لهم سياج منيع حماهم من الوقوع في المعاصي[٢٢٠]، كما أيقن الصحابة رضي الله عنهم أن الصلاة تكفر السيئات وترفع الدرجات قال (تعالى): ﴿ **وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ** ﴾ سورة هود، آية: ١١٤). وغير ذلك من الآثار التربوية والنفسية الطيبة التي تتظافر فيغنمها العبد المصلي، فتؤدي الصلاة دورها في تزكية النفس، وطهارتها، ويتحقق قول رسول الله (ﷺ): «**والصلاة نور**»[٢٢١]؛ فهي نور تضيء لصاحبها طريق الهداية وتحجزه عن المعاصي وتهديه إلى العمل الصالح، وهي نور في قلبه بما يجد من حلاوة الإيمان ولذة المناجاة لربه، وهي نور بما تمنح النفس من تزكية وطمأنينة

---

(٢١٧) مسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة رقم ٣٩٥ .

(٢١٨) أبو داود في الصلاة رقم ١٣١٩ .

(٢١٩) الحاكم (٢/ ١٦٠) وأقره الذهبي .

(٢٢٠) انظر: منهج الإسلام في تزكية النفس (١/ ٢٢٧) .

(٢٢١) مسلم رقم ٢٢٣ .

وراحة وبما تمدُّ من أمن وسكينة، وهي نور ظاهر على وجه المقيم لها في الدنيا، تتجلى بها وضاءة الوجه وبهاؤه بخلاف تارك الصلاة[٢٢٢]، وهي نور له يوم القيامة[٢٢٣]، قال (تعالى): ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (سورة الحديد، آية: ١٢).

كان الصحابة يكثرون من الذكر والدعاء وتلاوة القرآن الكريم والاستماع إليه، واغتنام الساعات الفاضلة في قيام الليل، ومجاهدة النفس على الخشوع والتدبر وحضور القلب، فكان ذلك من أعظم القربات إلى الله (تعالى) وله آثار عظيمة في تزكية النفس وسمو الروح وترقيتها في مقامات الكمال؛ فمن أعظم ما ظفر به الصحابة من آثار الذكر والدعاء والتلاوة، مناجاة الله وتحقيقهم في مقامات العبودية التي تعلي مكانتهم عند الله (تعالى)، قال رسول الله (ﷺ): **«يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني. إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب مني شبراً تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرب اليّ ذراعًا تقربت منه باعًا، وإن أتاني يمشي آتيته هرولة»**[٢٢٤].

ومن أعظم أنواع الذكر التي مارسها الصحابة الكرام رضي الله عنهم تلاوة القرآن الكريم، فقد عظمت محبة الله في قلوبهم وازدادت خشيتهم له (سبحانه وتعالى)، فقد شفى القرآن نفوسهم من أمراضها، وتحقق فيهم قول الله (تعالى): ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا﴾ (سورة الاسراء، آية: ٨٢) ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (سورة فصلت، الآية: ٤٤) وقال (تعالى): ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (سورة الرعد، الآية: ٢٨).

وكان للصحابة مع الدعاء شأنًا عظيمًا، فقد علمهم النبي (ﷺ) بأنه من أجلى مظاهر العبودية والمناجاة لله (سبحانه وتعالى)، قال رسول الله (ﷺ): «الدعاء هو العبادة»[٢٢٥] ولقد أمر (سبحانه وتعالى) عباده بالدعاء وتوعد من يستكبر فيترك الدعاء وكأنه مستغنٍ عن ربه قال (تعالى): ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (سورة غافر، آية: ٦٠).

وقال ابن كثير -رحمه الله- (يستكبرون عن عبادتي، أي: عن دعائي

---

(٢٢٢) انظر: منهج الإسلام في تزكية النفس (١/ ٢٣٣).

(٢٢٣) أشار إلى هذا المعنى النووي في شرحه على مسلم (٣/ ١٠٠) والإمام ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم ص١٩٠.

(٢٢٤) مسلم في الذكر والدعاء رقم ٢٦٧٥.

(٢٢٥) أبو داود رقم ١٤٧٩.

وتوحيدي)[٢٢٦].

كـان النبي (ﷺ) يبين لهم حاجـة القلب إلى غذاء دائم من ذكر ودعـاء وتلاوة قرآن، ليكون ذلك تحصينًا لهم من الأمـراض والآفات، وبين لهم ما يستحب للمسلم من الأدعية والأذكار في الصـباح والمساء، وعند دخـول المنزل أو الخروج منه، وعند دخـول السوق أو الأكل أو اللبس وغيـر ذلك من الأعمال اليوميـة حتى يبقى في وقاية دائـمة من كل مرض، فإذا أصيب بمرض عارض كالقلق والكآبة والاضطراب العـصبي أو غيرها كانت تلك الأذكار والدعوات البلسم الشـافي الذي تطمئن به القلوب وتحيا به النفـوس، ومن بين تلك الأذكار والدعوات المأثورة التي علمها رسول الله (ﷺ) لأصحابه: كان (ﷺ) يقول في الشدة وعند الكـرب: **«لا إله إلا الله العظيم الحليـم لا إله إلا الله رب العـرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم»**[٢٢٧].

فـقد علم رسـول الله (ﷺ) أصحابه، كـيف يلجؤون إلى الله سبحـانه وقت الضيق؟ ليجدوا المأمن والسكينة، فلا يفزعوا ولا يقـلقوا وهم موقنون بأن الله معهم، وأنه ناصرهم ومتولي أمرهم ومؤيدهم وأنه يجيب دعاء المضطرين[٢٢٨].

قال (تعالى): **﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾** (سورة النمل، الآية: ٦٢).

إن الذكر والدعـاء وتلاوة القرآن وقيام الليل والنوافـل بأنواعها لها أثر عظيم في تزكـية النفس وسمو الروح ،ومهما كتبنا في هذا الموضوع فلا يمكن أن تحيط به صفحات ولا كتب، وإنما هذا جزء من كل وفيض من غيض.

ثانيًا: التربية العقلية:

كانت تربيـة النبي لأصحـابه شاملة لأنهـا مستـمدة من القرآن الـكريم، الذي خاطب الإنسان، ككل يتكون من الـروح، والجسد، والعقل. فـقد اهتمت التـربية النبوية بتـربية الصحـابي على تنميـة قدرته في النظر والتـأمل والتفكر والتـدبر؛ لأن ذلك هو الذي يؤهله لحمل أعـباء الدعوة إلى الله، وهذا مطلـب قرآني أرشد إليـه ربنا (سبحـانه وتعالى)، وفي محكم تنزيله قال (تعالى): **﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾** (سورة يونس، آية: ١٠١). وقوله سبحانه: **﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** (سـورة العنكبوت، آية: ٢٠). وقـوله (تعالى): **﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾** (سورة ص، آية: ٢٩).

---

(٢٢٦) تفسير ابن كثير (٤/ ٨٦).

(٢٢٧) البخاري في الدعوات، باب الدعاء عند الكرب (٧/ ١٥٤).

(٢٢٨) منهج الإسلام في تزكية النفس (١/ ٣٣١).

وقوله جل شأنه: ﴿فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ إِلَى طَعَامِه * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا * فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ (سورة عبس، الآيات: ٢٤-٣٢).

والعقل يعتبر أحد طاقات الإنسان المهمة، وقد جعله المولى عز وجل مناط بالتكليف، فمن حرم العقل لجنونه أو غيره، فهو غير مكلف، أو سقط عنه التكليف قال (تعالى): ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ (كما يعتبر العقل نعمة مَنَّ اللهُ على الإنسان يتمكن بها من قبول العلم واستيعابه ولذلك وضع القرآن الكريم منهجًا لتربية العقل سار عليه رسول الله (ﷺ) لتربية أصحابه ومن أهم نقاط هذا المنهج:

١- تجريد العقل من المسلّمات المبنية على الظن والتخمين، أو التبعية والتقليد، فقد حذر القرآن الكريم من ذلك في الآيات الكريمة التالية، قال (تعالى): ﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ (سورة النجم، الآية: ٢٨).

٢- إلزام العقل بالتحري والتثبت، قال (تعالى): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (سورة الحجرات، آية: ٦).

٣- دعوة العقل إلى التدبر والتأمل في نواميس الكون قال (تعالى): ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ (سورة الحجر، آية: ٨٥).

٤- دعوة العقل إلى التأمل في حكمة ما شرع الله لعباده من عبادات، ومعاملات، وأخلاق، وآداب، وأسلوب حياة كامل، في السلم والحرب، في الإقامة والسفر؛ لأن ذلك ينضج العقل وينميه، وبتعرفه على تلك الحكم، يعطيه أحسن الفرص ليطبق الشرع الرباني في حياته، ولا يبغي عنه حولا، لما فيه من السكينة والطمأنينة والسعادة والبشرية، ولأن الله (سبحانه وتعالى) إنما شرع ما شرع لذلك، قال سبحانه: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ (سورة الأنعام، الآية: ١١٩).

٥- دعوة العقل إلى النظر إلى سنة الله في الناس عبر التاريخ البشري، ليتعظ الناظر في تاريخ الآباء والأجداد والأسلاف، ويتأمل في سنن الله في الأمم والشعوب والدول؛ قال (تعالى): ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ (سورة الأنعام، الآية: ٦).

وقال (تعالى): ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا

كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (سورة يونس، الآيتان: ١٣-١٤).

وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (سورة الروم، الآية: ٩). فكانت هذه الآيات الكريمة ترشد الصحابة في استخدام عقولهم وفق المنظور الرباني لكي لا تضل عقولهم في التيه، الذي ضل فيه كثير من الفلاسفة الذين قدسوا العقل وأعطوه أكثر مما يستحق[٢٢٩].

وكانت لهذه التربية القرآنية آثاراً عملية من أهمها:

ثالثاً: التربية الجسدية:

حرص النبي (ﷺ) على تربية أصحابه جسديًا واستمد أصول تلك التربية من القرآن الكريم، بحيث يؤدي الجسم وظيفته التي خلق لها من دون إسراف أو تقتير، ودون محاباة لطاقة من طاقاته على حساب طاقة أخرى.

إن القرآن الكريم أرشد العباد إلى ما أحله الله من الطيبات، واجتناب ما حرمالله من الخبائث، وأنكر على أولئك الذين يحرمون أبدانهم من تلبية حاجاتها على الوجه المشروع، فقد قال (تعالى): ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة الأعراف، الآية: ٣٢).

ولا شك أن الإنسان عندما يلبي حاجاته البدنية بإمكانه بعد ذلك من أداء وظائفه التي كلفه الله بها في الدنيا من عبادة الله واستخلاف في الأرض، وإعمارها وتعارف وتعاون على البر والتقوى مع إخوانه في الدين، **ولذلك ضبط القرآن الكريم حاجات الجسم البشري على النحو التالي:**

١- ضبط حاجته إلى الطعام والشراب بقوله (تعالى): ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (سورة الأعراف، الآية: ٣١).

٢- وضبط حاجته إلى الملبس والمأوى، بأن أوجب من اللباس ما يستر العورة، ويحفظ الجسم من عاديات الحر والبرد، وأوجب ما يكون زينة عند الذهاب إلى المسجد، قال (تعالى): ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (سورة الأعراف، الآية: ٣١).

٣- وضبط الحاجة إلى المأوى بقوله (تعالى): ﴿وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا

(٢٢٩) انظر: فقه التمكين في القرآن الكريم ص٣٥٤ للصلابي.

وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾ (سورة النحل، الآية: ٨٠).

٤- وضبط حاجته إلى الزواج والأسرة بإباحة النكاح، بل إيجابه في بعض الأحيان وتحريم الزنا والمخادنة، واللواط، قال (تعالى): ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ (سورة المؤمنون، الآيات: ٥-٧)

٢- وضبط حاجته إلى التملك والسيادة، وأباح التملك للمال والعقار وفق ضوابط شرعية، قال (تعالى): ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ (سورة الكهف، الآية: ٤٦).

٦- وضبط الإسلام السيادة بتحريم الظلم والعدوان والبغي قال (تعالى): ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (سورة الانعام، الآية: ٢١). وقال (تعالى): ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (سورة الفرقان، الآية: ٣٧).

٧- وضبط حاجته إلى العمل والنجاح؛ بأن جعل من اللازم أن يكون العمل مشروعًا، وغير ضار بأحد من الناس، ونادى على المسلمين أن يعملوا في هذه الدنيا ما يكفل لهم القيام بعبء الدعوة والدين، وما يدخرون عند الله سبحانه، قال (تعالى): ﴿ قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (سورة الأعراف، الآية: ١٢٩). وربط العلم بالإيمان في كثير من آيات القرآن الكريم، وشرط في العمل أن يكون صالحًا قال (سبحانه وتعالى): ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ (سورة الكهف، آية: ٣٠)، وطالب بالإحسان في العمل فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (سورة النحل، الآية: ٩٠).

٩- وحذر سبحانه من الدعة والبطر، والاغترار بالنعمة، فقال سبحانه: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ (سورة القصص، الآية: ٥٨).

هذه بعض الأسس التي قامت عليها التربية النبوية للأجسام، حتى تستطيع أن تتحمل أثقال الجهاد، وهموم الدعوة، وصعوبة الحياة.

لقد ربى النبي (ﷺ) صحابته على المنهج الكريم منهج تزكية الأرواح وتنوير العقول، والمحافظة على الأجساد وتقويتها لإعداد الشخصية الإسلامية الربانية المتوازنة ولقد نجحت تربيته (ﷺ) في تحقيق أهدافها المرسومة.

رابعًا: تربية الصحابة على مكارم الأخلاق، وتنقيتهم من الرذائل:

إن الأخلاق الرفيعة جزء مهم من العقيدة، فالعقيدة الصحيحة لا تكون بغير خلق، وقد ربى رسول الله (ﷺ) صحابته على مكارم الأخلاق بأساليب متنوعة، وكان (ﷺ) يتلو عليهم ما ينزل من قرآن فإذا سمعوه وتدبروه عملوا بتوجيهاته.

والمتدبر للقرآن المكي يجده مليئًا بالحث على مكارم الأخلاق وعلى تنقية الروح وتصفيتها من كل ما يعيق سيرها إلى الله (تعالى) ورسول الهدى عليه الصلاة والسلام القدوة الكاملة والمربي الناصح للأمة كان في غاية الخلق[٢٣٠] قال (تعالى): ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (سورة القلم، الآية: ٤) .معنى الآية واضح أي: ما كان يأمر به من أمر الله، وينهى عنه من نهي الله، والمعنى أنك لعلى الخلق الذي آثرك الله به في القرآن[٢٣١].

وعن عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عن خُلُق رسول الله (ﷺ)؟ قالت: (كان خُلُقه القرآن)[٢٣٢]. وقد جمع الله (تعالى) لنبينا مكارم الأخلاق في قوله (تعالى): ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (سورة الأعراف، الآية: ١٩٩).

قال مجاهد في معنى الآية: يعني خذ العفو من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تخسيس، مثل قبول الأعذار، والعفو والمساهلة، وترك الاستقصاء في البحث، التفتيش عن حقائق بواطنهم[٢٣٣].

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله (تعالى): ‹‹ وهو كل معروف وأعرفه التوحيد، ثم حقوق العبودية وحقوق العبيد[٢٣٤]. ثم قال (تعالى): ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾. ويعني إذا سفه عليك الجاهل فلا تقابله بالسفه، كقوله (تعالى): ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (سورة الفرقان، الآية: ٦٣).

وهكذا كان خلقه (ﷺ): (كان رسول الله (ﷺ) أحسن الناس خُلُقًا)[٢٣٥].

وكان النبي (ﷺ) يربي أصحابه على حسن الخلق ويحثهم عليه، فعن النبي (ﷺ) قال: **«ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق، وإن الله (تعالى) ليبغض الفاحش البذيء»**[٢٣٦].

(٢٣٠) انظر: أهمية الجهاد في نشر الدعوة ص٦٤ ، ٦٥ .
(٢٣١) انظر: تهذيب مدارج السالكين (٢/٦٥٣) .
(٢٣٢) انظر: تفسير الطبري (١٤/١٨) .
(٢٣٣) تهذيب مدارج السالكين (٢/ ٦٥٥) .
(٢٣٤) نفس المصدر (٢/ ٦٥٥) .
(٢٣٥) البخاري ، كتاب الآداب ، باب الكنية للصبي (٧/ ١٥٤) رقم ٦٢٠٣ .
(٢٣٦) الترمذي ، كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في حسن الخلق رقم ٢٠٠٢ .

وسئل رسول الله عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ فقال: «**تقوى الله، وحسن الخلق، وسئل عن أكثر ما يدخل النار؟ فقال: الفم والفرج**»[٢٣٧]، وقد بين (ﷺ) لأصحابه: «**إن من أحبكم إلي، وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحسنكم أخلاقًا، وإن أبغضكم الي وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون، المتشدقون، والمتفيهقون**»، قالوا: يا رسول الله، قد علمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيقهون؟ قال: «المتكبرون»[٢٣٨].

الثرثار: هو كثير الكلام بغير فائدة دينية، والمتشدق: المتكلم بملء فيه تفاصحًا وتعاظمًا وتطاولاً، وإظهارًا لفضله على غيره، وأصله: من الفهق، وهو الامتلاء[٢٣٩].

لقد سار النبي (ﷺ) على المنهج القرآني في تربية أصحابه على الأخلاق الكريمة وكانت الأخلاق تعرض مع العبادة والعقائد في وقت واحد، لأن العلاقة بين الأخلاق والعقيدة واضحة في كتاب الله (تعالى)، وقد بين سبحانه لرسوله (ﷺ) وللمسلمين الأخلاقيات الإيمانية التي ينبغي أن يكون عليها المؤمنون بلا إله إلا الله، والأخلاقيات الجاهلية التي ينبغي أن ينبذها المؤمنون، والحقيقة أن التنديد بأخلاقيات الجاهلية قد بدأ منذ اللحظة الأولى، مع التنديد بفساد تصوراتهم الاعتقادية، واستمر معه حتى النهاية.

إن الأخلاق ليست شيئًا ثانويًا في هذا الدين، وليست محصورة في نطاق معين من نطاقات السلوك البشري، إنما هي ركيزة من ركائزه، كما أنها شاملة للسلوك البشري كله، كما أن المظاهر السلوكية كلها ذات الصبغة الخلقية الواضحة، هي الترجمة العملية للاعتقاد والإيمان الصحيح، لأن الإيمان ليس مشاعر مكنونة في داخل الضمير فحسب؛ إنما هو عمل سلوكي ظاهر كذلك، بحيث يحق لنا حين لا نرى ذلك السلوك العملي أو حين نرى عكسه، أن نتساءل أين :الإيمان إذن؟ وما قيمته إذا لم يتحول إلى سلوك[٢٤٠]؟.

ولذلك نجد القرآن الكريم يربط الأخلاق بالعقيدة ربطًا قويًا، والأمثلة على ذلك كثير منها:

قوله (تعالى): ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ (سورة المؤمنون، الآيات: ١ - ١١). سورة تبدأ بتقرير الفلاح للمؤمنين بهذا التوكيد: ف ق ء!! ثم تصف هؤلاء المؤمنين ذلك الوصف المطول المفصل الذي يعني بإبراز الجانب الخلقي لأولئك المؤمنين،

---

(٢٣٧) الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق رقم ٢٠٠٤.

(٢٣٨) الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معالي الأخلاق رقم ٢٠١٨.

(٢٣٩) تهذيب مدارج السالكين (٢/ ٦٥٧).

(٢٤٠) انظر: دراسات قرآنية، لمحمد قطب ص ١٣٠.

موحيًا إيحاءً واضحًا أن هذه الأخلاقيات من جهة هي ثمرة الإيمان، وأن الإيمان -من جهة أخرى- هو سلوك ملموس يترجم عن العقيدة المكنونة.

إنهم بادئ ذي بدء خاشعون في صلاتهم، فذلك أول مظهر للمؤمن الصادق: أن تكون صلاته -وهي اللحظة التي يقف فيها متعبدًا لربه، ذاكرًا له في قلبه، متصلاً به بروحه- تكون صلاته خاشعة بما ينبئ عن صدق الصلة بالله، التي يرتفع نبضها وحرارتها في أثناء الصلاة ،ثم تثني الصورة بصفة سلوكية أخرى ذات دلالة، هي أنهم عن اللغو معرضون؛ فاللغو لا ينبئ عن نفس جادة. والإيمان الصحيح يورث النفس الجد بما يشعرها من ثقل التكاليف وجديته والجد ليس تقطيبًا دائمًا ولا عبوسًا، ولكن اللغو من جانب آخر لا يستقيم مع جدية الشعور بعظم الأمانة التي يحملها الإنسان أمام خالقه ،ثم إن هؤلاء المؤمنين لا بد أن تكون في قلوبهم الحساسية لحق الله في أموالهم، وهو الزكاة.

ولا بد أن يكونوا ملتزمين بأوامر الله في علاقات الجنس فلا يتعدوا حدود الله وملتزمين بأوامره في علاقتهم الاجتماعية فيحفظوا الأمانة ويرعوا العهد، وبهذا نفهم أن فهم الصحابة للأخلاق بأنها ثمرة طبيعية للعقيدة الصحيحة، وكذلك العبادة الحية الخاشعة لله، هكذا تعلموا من القرآن الكريم ومن هدي حبيبهم الصادق الأمين.

لقد رسم القرآن الكريم لهم صورة تفصيلية للشخصية المؤمنة، فكانت العبادة أول مَعْلَم واضح فيها؛ فنظروا كيف جعل الله في أوصاف المؤمنين، أول وصف لهم الخشوع في الصلاة وآخر أوصافهم المحافظة عليها، ووصفهم بفعل الزكاة وهي عبادة، مع الفضائل الخلقية الأخرى.

إن القرآن الكريم يبرز جانب العبادة أحيانًا، وجانب الأخلاق أحيانًا أخرى لمناسبات واعتبارات توجب هذا الإبراز، ففي سورة الذاريات كانت العناية بالعبادة في وصف المتقين: ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (سورة الذاريات، الآيات: ١٦-١٩).

وفي سورة الرعد كانت العناية بالجانب الأخلاقي في وصف أصحاب العقول قال (تعالى): ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَلاَ يِنقُضُونَ الْمِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ * وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (سورة الرعد، الآيات: ١٩-٢٢).

ومع أن معظم الأوصاف هنا أخلاقية -لمناسبة أولي الألباب- مثل الوفاء والصلة والصبر والإنفاق .. لكن الملحوظ فيها أنها ليست مجرد أخلاق (مدنية) وإنما هي أخلاق ربانية أخلاق فيها معنى العبادة والتقوى، فهم إنما يوفون (بعهد الله) وإنما يصلون ما أمر الله به أن

يوصل، وهم إنما يفعلون ويتركون لأنهم ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ﴾ وهم إنما يصبرون ﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ فهم في كل أخلاقهم وسلوكهم يرجون الله، ويرجون اليوم الآخر(٢٤١).

لقد تربى الصحابة رضي الله عنهم على أن العبادة نوع من الأخلاق؛ لأنها من باب الوفاء لله، والشكر للنعمة، والاعتراف بالجميل، والتوقير لمن هو أهل التوقير والتعظيم وكلها من مكارم الأخلاق(٢٤٢) كانت أخلاق الصحابة ربانية، باعثها الإيمان بالله، وحاديها الرجاء في الآخرة وغرضها رضوان الله ومثوبته، فكانوا يصدقون في الحديث، ويؤدون الأمانة، ويوفون بالعهود، ويصبرون في البأساء والضراء وحين البأس ويغيثون الملهوف ويرحمون الصغير، ويوقرون الكبير، ويرعون الفضيلة في سلوكهم كل ذلك ابتغاء وجه الله، وطلبًا لما عنده (تعالى)؛ فقد كانت بواعثهم وطوايا نفوسهم، كما قال (تعالى): ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا * وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ (سورة الإنسان، الآيتان: ١١-١٢).

إن أخلاق المؤمن عبادة، لأن مقياسه في الفضيلة والرذيلة، ومرجعه فيما يأخذ وما يدع هو أمر الله ونهيه فالضمير وحده ليس بمعصوم، وكم من أفراد وجماعات رضيت ضمائرهم بقبائح الأعمال(٢٤٣).

والعقل وحده ليس بمأمون، لأنه محدود بالبيئة والظروف، ومتأثر بالأهواء والنزاعات، وفي الاختلاف الشاسع للفلاسفة الأخلاقيين في مقياس الحكم الخلقي دليل واضح على ذلك، والعرف لا ثبات له ولا عموم، لأنه يتغير من جيل إلى جيل، وفي الجيل الواحد من بلد إلى بلد، وفي البلد الواحد من إقليم إلى إقليم ولذلك التجأ المؤمن إلى المصدر المعصوم المأمون الذي لا يضل ولا ينسى، ولا يتأثر ولا يجور(٢٤٤).

إن الأخلاق في التربية النبوية شيء شامل يعم كل تصرفات الإنسان وكل أحاسيسه ومشاعره وتفكيره، فالصلاة لها أخلاق هي الخشوع، والكلام له أخلاق هي الإعراض عن اللغو، والجنس له أخلاق هي الالتزام بحدود الله وحرماته، والتعامل مع الآخرين له أخلاق هي التوسط بين التقتير والإسراف، والحياة الجماعية لها أخلاق هي أن يكون الأمر شورى بين الناس، والغضب له أخلاق هي العفو والصفح، ووقوع العدوان من الأعداء يستعتبه أخلاق هي الانتصار أي رد العدوان، وهكذا لا يوجد شيء واحد في حياة المسلم ليست له أخلاق تكيفه ولا شيء واحد ليست له دلالة أخلاقية مصاحبة.

هذا أمر .. والأمر الآخر -وهو الأهم- أن الأخلاق في المفهوم القرآني هي لله وليست

(٢٤١) انظر: العبادة في الإسلام للقرضاوي ص١٢٣.
(٢٤٢) انظر: الوسطية في القرآن الكريم ص٥٩١.
(٢٤٣) انظر: الإيمان والحياة للقرضاوي ص٢٥٦.
(٢٤٤) انظر: الوسطية في القرآن ص٥٩٢.

للبشر، ولا لأحد غير الله: فالصدق لله، والوفاء بالعهد لله، واتقاء المحرمات في علاقات الجنس لله، والعفو والصفح لله، والانتصار من الظلم لله، وإتقان العمل لله كلها عبادة لله، تقدم لله وحده خشية لله وتقوى، وتطلعًا إلى رضاه. إنها ليست صفقة بشرية للكسب والخسارة، إنما هي صفقة تعقد مع الله[٢٤٥].

قال (تعالى): ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (سورة الأنعام، الآيات: ١٥١-١٥٣). ذلك هو الميثاق الأخلاقي الشامل الذي التزم به الصحابة ومن سار على هديهم اتباعًا لصراط الله المستقيم، فهو إذن من العقيدة، مرتبط بها ارتباطًا أساسيًا لا ينفصل عنها بحال.

إن الأعمال الخلقية تدخل في جميع الجوانب، ويرتقي بها الوحي الإلهي إلى ذروة متفردة حين يجعلها دينًا، وعبادة ومحلاً لثواب الله (تعالى)؛ أو عقابه الأليم عند المخالفة[٢٤٦] وإذا تأملنا في الآيات السابقة من سورة الأنعام نجدها قد اشتملت على العناية بالضروريات الخمس وهي: (ما لا بد منها في قيام مصالح الدين والدنيا حيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة، بل على فساد وتهارج وفوت حياة وفي الآخرى فوت النجاة والنعيم، والرجوع بالخسران المبين)[٢٤٧] إن دعوة النبي (ﷺ) من أهدافها إرجاع الناس إلى مقاصد الشريعة والتي من ضمنها المحافظة على الضروريات الخمس، فقد اشتملت الآيات الكريمة السابقة على:

أ- العناية بالضروريات: فقد ورد في حفظ الدين وذلك في قوله (تعالى): ﴿أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا﴾ وفي قوله: ﴿وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ لأنه لا يستقيم دين مع الشرك بالله (تعالى)، فأمر سبحانه عباده أن يوحدوه بالعبادة، وأن يتبعوا صراطه المستقيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ونهاهم عن اتباع سبل الشيطان فإنها غي وضلال وفي سلوكها إعراض عن دين الحق واتباع لأهواء النفوس ووسواس الشيطان[٢٤٨]، وقد قام النبي (ﷺ) بالمحافظة على الدين من خلال العمل به، والجهاد من أجله، والدعوة إليه، والحكم به، ورد كل ما يخالفه[٢٤٩].

(٢٤٥) انظر: دراسات قرآنية ص١٣٩.

(٢٤٦) انظر: الوسطية في القرآن الكريم ص٥٩٤.

(٢٤٧) الموافقات للشاطبي (٨/٢).

(٢٤٨) مقاصد الشريعة، د. محمد اليوبي ص١٨٨.

(٢٤٩) نفس المصدر ص١٩٤.

ب- وحفظ النفس: في قوله (تعالى): ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ﴾ وقوله: ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إلاَّ بِالْحَقِّ﴾ وقد وضعت الشريعة الوسائل الكفيلة بإذن الله -بحفظ النفس من التعدي عليها- ومن هذه الوسائل[٢٥٠]؛ تحريم الاعتداء عليها، وسد الذرائع المؤدية إلى القتل، القصاص، ضرورة إقامة البينة في قتل النفس، ضمان النفس، تأخير تنفيذ القتل وجب عليه إذا خشي من قتله على غيره، العفو عن القصاص، إباحة المحظورات حال الضرورة[٢٥١].

ج- وحفظ النسل: في قوله (تعالى): ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ ومن أعظم الفواحش الزنا الذي وصفه الله (تعالى) في آية أخرى بأنه فاحشة كما قال (تعالى): ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً﴾ (سورة الإسراء، الآية: ٣٢). إن حفظ النسل من الركائز الأساسية في الحياة ومن أسباب عمارة الأرض، وفيه تكمن قوة الأمة وبه تكون مرهوبة الجانب، عزيزة القدر تحمي دينها، وتحفظ نفسها، وتصون عرضها ومالها ولذلك عنيت الشريعة بحماية النسل ومنع كل ما من شأنه أن يقف في طريق سلامته ووضعت ضوابط وأصولاً شرعية مهمة في هذا الباب[٢٥٢].

ح- **حفظ المال:** في قوله (تعالى): ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ وقوله: ﴿وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾. ومن وسائل حفظ المال في الشريعة؛ تحريم الاعتداء عليه، تحريم إضاعة المال، ما شرع من الحدود في العهد المدني (حد السرقة، وحد الحرابة، ضمان المتلفات، مشروعية الدفاع عن المال، توثيق الديون والإشهاد عليها، تعريف اللقطة ومايتبعه)[٢٥٣].

د- حفظ العقل: وأما حفظ العقل، فمطلوب أيضًا لأن التكليف بهذه الأمور لا يكون إلا لمن سلم عقله، ولا يقوم بها فاسد العقل، وفي قوله (تعالى): ﴿ك﴾ إشارة إلى ذلك والله أعلم[٢٥٤]، وقد حرم الإسلام كل مامن شأنه إفساد العقل وإدخاله الخلل عليه[٢٥٥].

وهكذا القرآن الكريم يعلم ويربي الصحابة على العقائد، والعبادة، والأخلاق، ومقاصد الشريعة في وقت واحد إن الأخلاق الربانية تصدر من القرآن الكريم بتقرير التوحيد والعبودية لله (تعالى)، وهذا بدوره تأكيد أساسي على حقائق وأصول هذا المنهج القرآني، التي تتبع جميعها هذا المدخل التأسيسي وبذلك يتقرر:

١- أن الله (تعالى) هو وحده مصدر الشرائع جميعًا، وهو شارع القيم والمعايير

(٢٥٠) الموافقات (٤/ ٢٧).

(٢٥١) مقاصد الشريعة ص٢١٢.

(٢٥٢) نفس المصدر ص٢٥٧.

(٢٥٣) المصدر السابق ص٢٨٧.

(٢٥٤) مقاصد الشريعة ص١٨٩.

(٢٥٥) انظر: مقاصد الشريعة ص٢٣٦.

الأخلاقية، والتي تنسجم مع الفطرة، وتوافق العقل النير.

٢- أن الاخلاق دين ملتزم به، بل هي أصل من أصول المنهاج الرباني، وليست مجرد فضائل فردية، أو آداب اجتماعية، أو أذواق حضارية..

٣- أن الأخلاق قيم أساسية في حياة البشر ينبغي أن تحظى بالثبات والاستقرار، وبالتالي يمنع الطواغيت من التلاعب بها، أو تشكيلها حسب المصالح والأهواء(٢٥٦).

وقد احتوى القرآن الكريم على العديد من الآداب الفذة التي تعطي أسمى التوجيهات في باب الفضائل، والآداب الفردية والاجتماعية، ففي سورة الإسراء جاءت آيات كريمة هي من أجمع الآيات لنوعي الخلق المحمود والمذموم، قال (تعالى): ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا * رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا * وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا * وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا * وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا * إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا * وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْءًا كَبِيرًا * وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً * وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا * وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً * وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِالقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً * وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً * وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً * كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيٍّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ (سورة الإسراء، الآيات: ٣٣ -٣٨).

إن الله (سبحانه وتعالى)، قد جعل التوحيد، أي: إفراد الله بالعبادة على رأس هذا المنهج الخُلقي الذي رسمته الآيات مدحًا وذمًا، لأن التوحيد له في الحقيقة جانب أخلاقي أصيل، إذ الاستجابة إلى ذلك ترجع إلى خلق العدل والإنصاف، والصدق مع النفس، كما أن الإعراض عن ذلك يرجع في الحقيقة إلى بؤرة سوء الأخلاق في المقام الأول، مثل الكبر عن قبول الحق، والاستكبار عن اتباع الرسل غرورًا وأنفة، أو الولوع بالمراء والجدل بالباطل مغالبة وتطالعًا للظهور، أو تقليدًا وجمودًا على الإلف والعرف مع ضلاله وبهتانه، وكلها -وأمثالها- أخلاق سوء تهلك أصحابها، وتصدهم عن الحق بعد ما تبين، وعن سعادة الدارين مع استيقان أنفسهم بأن طريق الرسل هو السبيل إليها.

(٢٥٦) انظر: المنهج القرآني في التشريع، عبد الستار فتح سعيد ص٤٢٥ إلى ٤٣٣ .

والآيات بعد ذلك تذكر أنماطًا خُلُقية متعددة الجوانب في شؤون الأسرة مثل بر الوالدين، وما جاء فيه من وصايا غاية في السمو والإحسان والوفاء بالجميل، ومثل بر الأقارب والضعفاء، وفي شئون المال والإنفاق بالنهي عن التبذير، والأمر بالاعتدال بين الشح المطبق والبسط المستغرق، وقد نفّر الله (تعالى) عن التبذير بإضافته إلى شر الخلق: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً﴾ (سورة الإسراء، الآية: ٢٧). ونفّر من الحرص والإمساك عن الإنفاق بتصويره على أبشع مثال: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾.

وتأمر الآيات الكريمة بخلق جميل غاية في السمو وهو الحرص على الكلمة الطيبة، والعدة الجميلة إذا لم يجد الإنسان من المال ما يسع به الناس: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً﴾ وهي وصية ذات أثر بالغ في إحسان العلائق بين النّاس، بل ربما فضلوها على العطاء المادي خاصة إذا اقترن بالمن والأذى، ثم تتحدث الآيات عن سوء الخلق بالبغي والاستطالة، وقساوة القلب، وجفاف الرحمة، وجمود العاطفة الكريمة، ويتمثل ذلك في مظهره الجنائي وهو القتل، وخاصة قتل الابنة الصغيرة.

نعم القتل جريمة جنائية تسلك في قانون العقوبات القصاصية، ولكنها هنا تعالج من زاويتها الأخلاقية التي تستهدف الوقاية، وتعمل على تغيير الإرادة، وتوجيهها وجهة صالحة لتحريم الفعل، وتجريمه، وإصلاح عقيدة صاحبه ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم﴾ وبهدم القيم الاجتماعية الجائرة التي صنعت هذا المنكر، وسوغته بلا نكير وتنهى الآيات عن الزنا وهو بنفس المقياس جريمة خلقية أساسها البغي والاستطالة على الأعراض والحرمات، وإهدار العفاف والشرف، والاستهتار بكل كريم من القيم الإنسانية العليا، وتأمر الآيات وتنهى عن أمور مردها إلى خلق الأمانة أو الخيانة، والجد أو العبث، والتواضع العزيز أو الكبر الغرور: فمن الأمانة حفظ مال اليتيم حتى يبلغ أشده، والوفاء بالعهد وتوفية الكيل والميزان والخيانة أضدادها، ومن الجد اشتغال الإنسان بما يعنيه، وعدم تتبعه ما ليس به شأن ولا علم: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ (سورة الاسراء، الآية: ٣٦). والعبث كل العبث اشتغال الإنسان بما نهى عنه. ومن التواضع العزيز شعور الإنسان بحدوده، ومعرفته قدر نفسه فيضعها في مواضعها الصحيحة، ومن الكبر والغرور ذلك التطاول المبني على الجهل والطيش والحماقة: ﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ (سورة الإسراء، الآية: ٣٨).

ولأن هذه الوصايا جامعة لكلٍّ ما يصلح شأن الإنسان ختمها الله (تعالى) بقوله الحكيم: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللّهِ إِلَـهاً آخَرَ﴾ (سورة الإسراء، الآية: ٣٩).

فسماها حكمة وختمها بالدعوة إلى التوحيد والنهي عن الشرك كما بدأها؛ لأن الإيمان

بالله (تعالى) مفتاح كل خير وحافظه وحارسه، والكفر به مفتاح كل شر وباعثه[٢٥٧].

هكذا كانت تربية القرآن الكريم للصف المؤمن على التخلق بمحاسن الأخلاق ونبذ سيئها.

خامسًا: تربية الصحابة على مكارم الأخلاق من خلال القصص القرآني:

إن القصص القرآني غني بالمواعظ والحكم والأصول العقدية، والتوجيهات الأخلاقية، والأساليب التربوية، والاعتبار بالأمم والشعوب، والقصص القرآني ليس امورًا تاريخية لا تفيد إلا المؤرخين، وإنما هي أعلى وأشرف وأفضل من ذلك فالقصص القرآني مليء بالتوحيد، والعلم، ومكارم الأخلاق، والحجج العقلية، والتبصرة والتذكرة، والمحاورات العجيبة.

وأضرب لك مثلاً من قصة يوسف عليه السلام متأملاً في جانب الأخلاق التي عرضت في مشاهدها الرائعة، قال علماء الأخلاق والحكماء: (لا ينتظم أمر الأمة إلا بمصلحين، ورجال أعمال قائمين، وفضلاء مرشدين هادين، لهم شروط معلومة، وأخلاق معهودة؛ فإن كان القائم بالأعمال نبيًا فله أربعون خصلة ذكروها، كلها آداب وفضائل لها يسوس أمته، وإن كان رئيسًا فاضلاً، اكتفوا من الشروط الأربعين ببعضها، وسيدنا يوسف عليه السلام حاز من كمال المرسلين وجمال النبيين، ولقد جاء في سيرته هذه ما يتخذه عقلاء الأمم هدى لاختيار الأكفاء في مهام الأعمال إذ قد حاز الملك والنبوة! ونحن لا قبل لنا بالنبوة لانقطاعها، وإنما نذكر ما يليق بمقام رئاسة المدينة الفاضلة، ولنذكر منها ثلاثة عشرة خصلة هي أهم خصال رئيس المدينة الفاضلة لتكون ذكرى لمن يتفكر في القرآن، وتنبيهًا للمتعلمين الساعين للفضائل)[٢٥٨].

أهم ما شرطه الحكماء في رئيس المدينة الفاضلة:

١- العفة عن الشهوات، ليضبط نفسه وتتوافر قوته النفسية: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (سورة يوسف، الآية: ٢٤).

٢- الحلم عند الغضب، ليضبط نفسه: ﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ (سورة يوسف، الآية: ٧٧).

٣- وضع اللين في موضعه، والشدة في موضعها: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ * فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ تَقْرَبُونِ﴾ (سورة يوسف، الآيتان: ٥٩-٦٠) فبداية الآية لين، ونهايتها للشدة.

---

(٢٥٧) انظر: المنهاج القرآني للتشريع ص٤٣٣.
(٢٥٨) انظر: تفسير القاسمي (٩/ ٣١٠).

٤- ثقته بنفسه بالاعتماد على ربه: ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة يوسف، الآية: ٥٥).

٥- قوة الذاكرة ليمكنه تذكر ما غاب ومضى له سنون، ليضبط السياسات، ويعرف للناس أعمالهم: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة يوسف، الآية: ٥٨).

٦- جودة المصورة والقوة المخيلة حتى تأتي بالأشياء تامة الوضوح: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ (سورة يوسف، الآية: ٤).

٧- استعداده للعلم، وحبه له، وتمكنه منه: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾ سورة يوسف، الآية: ٣٨). ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (سورة يوسف، الآية: ١٠١).

٨- شفقته على الضعفاء وتواضعه مع جلال قدره وعلو منصبه، فخاطب الفتيين المسجونين بالتواضع فقال: ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (سورة يوسف، الآية ٣٩). وحادثهما في أمور دينهما ودنياهما بقوله: ﴿قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ (سورة يوسف، الآية: ٣٧) والثاني بقوله: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (سورة يوسف، الآية: ٣٧). وشهدا له بقولهما: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة يوسف، الآية: ٣٦).

٩- العفو مع المقدرة: ﴿قَالَ لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (سورة يوسف، الآية: ٩٢).

١٠- إكرام العشيرة: ﴿اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (سورة يوسف، الآية: ٩٣).

١١- قوة البيان والفصاحة بتعبير رؤيا الملك، واقتداره على الأخذ بأفئدة الراعي والرعية والسوقة، ما كان هذا إلا بالفصاحة المبنية على الحكمة والعلم: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ﴾ (سورة يوسف، الآية: ٥٤).

١٢- حسن التدبير: ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ (سورة يوسف، الآية: ٤٧) تالله، ما أجمل القرآن، وما أبهج العَلَم.

لا شك أن العلاقة بين القصص القرآني والأخلاق متينة، لأن من أهداف القصص

القرآني التذكير بالأخلاق الرفيعة التي تفيد الفرد، والأسرة، والجماعة، والدولة، والأمة، والحضارة، كما أن من أهداف القصص القرآني التنفير من الأخلاق الذميمة التي تكون سببًا في هلاك الأمم والشعوب، ولقد استفاد الصحابة الكرام من تربية النبي (ﷺ) لهم ومن المنهج الذي سار عليه، فهذا جزء من الأخلاق القرآنية النبوية أردت به التمثيل وليس الاستقصاء، وفي سنّة رسول الله (ﷺ) وهديه مزيد من التفصيل والبيان، وإن المنهج النبوي القرآني الرباني في الأخلاق نمط فريد وعجيب، ليس له مقارب ولا نظير، لأنه من رب العالمين، وقد تفرد بأمور وخصائص زاد من قوتها واكتمالها وجودها مجتمعة على هذا الوجه المحكم ومنها:

١- وجود المرجع الوافي للأخلاق في المنهج الرباني متمثلاً في الكتاب والسنّة، وقد حددا ما يحمد أو يذم.

٢- وجود ما يضبط السلوك ويبعث على العلم، وهو رجاء الله والدار الآخرة.

٣- وجود القدوة العملية وهي من أسس التربية الخلقية، وقد تمثل ذلك بأوفى معانيه في رسول الله (ﷺ)[٢٥٩] كما قال (تعالى): ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (سورة القلم، الآية: ٤).

لقد أولى المنهاج النبوي الكريم المستمد من كتاب رب العالمين الأخلاق أهمية كبيرة، وحث على التمسك بفضائلها بمختلف الأساليب، وحذر من ارتكاب مرذولها بشتى الطرق، ونظرة القرآن إلى الأخلاق منبثقة من نظرته إلى الكون والحياة والإنسان، فإذا كانت العقائد تشكل أركان الصرح الإسلامي، فإن التشريعات تكون تقسيمات حجراته وممراته ومداخله، والأخلاق تضفي البهاء والرونق والجمال على الصرح المكتمل، وتصبغه الصبغة الربانية المتميزة، وإذا كانت العقيدة الإسلامية تشكل جذور الدوحة الإسلامية وجذعها، فإن الشريعة تمثل أغصانها وتشعباتها، والأخلاق تكون ثمارها اليانعة وظلالها الوارفة، ومنظرها البهيج النضر[٢٦٠].

لقد استخدم المنهاج النبوي أساليب التأثير والاستجابة والالتزام في تربيته للصحابة؛ لكي يحول الخلق من دائرة النظريات إلى صميم الواقع التنفيذي والعمل التطبيقي، سواء كانت اعتقادية، كمراقبة الله (تعالى) ورجاء الآخرة، أو عبادية كالشعائر التي تعمل على تربية الضمائر، وصقل الإرادات، وتزكية النفس، ومع تطور الدعوة الإسلامية ووصولها إلى الدولة أصبحت هناك حوافز إلزامية تأتي من خارج النفس متمثلة في:

أ- التشريع:

الذي وضع لحماية القيم الخلقية كشرائع الحدود والقصاص التي تحمي الفرد والمجتمع من رذائل البغي على الغير: (بالقتل أو السرقة) وانتهاك الأعراض: (بالزنا، والقذف) أو البغي

(٢٥٩) انظر: الوسطية في القرآن الكريم ص٦٠٣ .

(٢٦٠) انظر: المنهاج القرآني في التشريع ص٤٢٥ .

على النفس وإهدار العقل: (بالخمر، والمسكرات المختلفة).

ب- سلطة المجتمع:

التي تقوم على أساس ما أوجبه الله (تعالى) من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتناصح بين المؤمنين، ومسؤولية بعضهم على بعض، وقد جعل الله (تعالى) هذه المسئولية قرينة الزكاة، والصلاة، وطاعة الله ورسوله، ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة التوبة، الآية: ٧١).

بل جعلها المقوم الأصلي لخيرية هذه الأمة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (سورة آل عمران، الآية: ١١٠).

وقد ظهرت هذه السلطة وأثرها في الفترة المدنية.

ج- سلطة الدولة:

التي وجب قيامها، وأقيمت على أسس أخلاقية وطيدة، ولزمها أن تقوم على رعاية هذه الأخلاق وبثها في سائر أفرادها ومؤسساتها، وتجعلها من مهام وجودها ومبرراته[٢٦١].

وبذلك اجتمع للخلق الإسلامي أطراف الكمال كلها وأصبح للمجتمع النبوي نظام واقعي مثالي بسبب الالتزام بالمنهج الرباني.

هذه بعض الخطوط في البناء العقائدي والروحي والأخلاقي في الفترة المكية، ولقد آتت هذه التربية أكلها، فقد كان ما ينوف عن العشرين من الصحابة الكرام مارسوا مسؤوليات قيادية بعد توسع الدعوة وانطلاقها في عهد النبي (ﷺ) وبعد وفاته، وأصبحوا القادة الكبار للأمة، وعشرون آخرون معظمهم استشهدوا أو ماتوا على عهد رسول الله (ﷺ)؛ فكان في الرعيل الأول أعظم شخصيات الأمة على الإطلاق، كان فيه تسعة من المبشرين بالجنة، وهم أفضل الأمة بعد رسول الله (ﷺ)، ومنهم نماذج ساهمت في صناعة الحضارة العظيمة بتضحياتهم الجسيمة، كعمار بن ياسر، وعبد الله بن مسعود، وأبي ذر، وجعفر بن أبي طالب وغيرهم رضي الله عنهم وكان من هذا الرعيل أعظم نساء الأمة خديجة رضي الله عنها، ونماذج عالية أخرى؛ مثل أم الفضل بنت الحارث، وأسماء ذات النطاقين، وأسماء بنت عميس، وغيرهن.

لقد أتيح للرعيل الأول بأكبر قدر من التربية العقدية، والروحية والعقلية، والأخلاقية.. على يد مربي البشرية الأعظم محمد (ﷺ)، فكانوا هم حداة الركب، وهداة الأمة[٢٦٢]، فقد كان رسول الله (ﷺ) يزكيهم ويربيهم، وينقيهم من أوضار

(٢٦١) المنهاج القرآني في التشريع ص٤٣٣.

(٢٦٢) انظر: التربية القيادية (١/ ٢٠١) للغضبان.

الجاهلية، فإذا كان السعيد الذي فاز بفضل الصحبة من رأى رسول الله (ﷺ) ولو مرة واحدة في حياته وآمن به، فكيف بمن كان الرفيق اليومي له، ويتلقى منه، ويعبق من نوره، ويتغذى من كلامه، ويتربى على عينه[٢٦٣].

• • •

(٢٦٣) نفس المصدر، (١/٢٠٢، ٢٠٣).



الفصل الثالث

الجهر بالدعوة، وأساليب المشركين في محاربتها



المبحث الأول

الجهر بالدعوة

بعد الإعداد العظيم الذي قام به النبي (ﷺ) لتربية أصحابه وبناء الجماعة المسلمة المنظمة الأولى على أسس عقدية وتعبدية وخلقية رفيعة المستوى حان موعد إعلان الدعوة بنزول قول الله تعالى: **﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ * وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾** (سورة الشعراء، آية: ٢١٣-٢١٦).

فجمع قبيلته (ﷺ) وعشيرته ودعاهم علانية إلى الإيمان بإله واحد، وخوفهم من العذاب الشديد إن عصوه، وأمرهم بإنقاذ أنفسهم من النار، وبين لهم مسؤولية كل إنسان عن نفسه[(١)]:

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما نزلت: **﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾** صعد النبي (ﷺ) على الصفا فجعل ينادي: «يا بني فهر، يا بني عدي» - لبطون قريش- حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب، وقريش، فقال: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟» قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقًا. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد». فقال أبو لهب: تبًا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: **﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾**[(٢)] وفي رواية - ناداهم بطنًا بطنًا، ويقول لكل بطن: «أنقذوا أنفسكم من النار ...»، ثم قال: «يا فاطمة أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئًا، غير أن لكم رحمًا سأبلها ببلالها»[(٣)] كان القرشيون واقعيين عمليين، فلما رأوا محمدًا (ﷺ) وهو الصادق الأمين، قد وقف على جبل يرى ما أمامه، وينظر إلى ما وراءه، وهم ما يرون إلا ما هو أمامهم، فهداهم إنصافهم وذكاؤهم إلى تصديقه، فقالوا: نعم.

ولما تمت هذه المرحلية الطبيعية البدائية، وتحققت شهادة المستمعين قال رسول الله (ﷺ): «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» وكان ذلك تعريفًا بمقام النبوة، وما ينفرد به من علم بالحقائق الغيبية والعلوم الوهبية، وموعظة وإنذارًا، في حكمة وبلاغة، لا نظير لهما في تاريخ الديانات والنبوات، فلم تكن طريق أقصر من هذا الطريق، ولا أسلوب أوضح من هذا الأسلوب، فسكت القوم[(٤)]، ولكن أبا لهب قال: تبًا لك سائر اليوم أما دعوتنا إلا

---

(١) رسالة الأنبياء ، عمر أحمد عمر (٣/ ٤٦) .
(٢) مسلم ، كتاب الايمان ، (١/ ١٩٤) الآيتان من سورة المسد (١-٢) .
(٣) البخاري مع الفتح ، كتاب التفسير ، سورة الشعراء (٨/ ٥٠١) .
(٤) انظر: السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي ص١٣٨ .

لهذا؟. وبهذا كان النبي (ﷺ) قد وضع للأمة أسس الإعلام فقد اختار مكانًا عاليًا وهو الجبل ليقف عليه وينادي على جميع الناس فيصل صوته إلى الجميع، وهذا ما تفعله محطات الإرسال في عصرنا الحديث لتزيد من عملية الانتشار الإذاعي، ثم اختار لدعوته الأساس المتين ليبني عليه كلامه وهو الصدق، وبهذا يكون (ﷺ) قد علم رجال الإعلام والدعوة أن الاتصال بالناس بهدف إعلامهم أو دعوتهم، يجب أن يعتمد وبصفة أساسية على الثقة التامة بين المرسل والمستقبل: أو بين مصدر الرسالة والجمهور الذي يتلقى الرسالة، كما أن المضمون أو المحتوى يجب أن يكون صادقًا لا كذب فيه[٥].

(ومن الطبيعي أن يبدأ الرسول (ﷺ) دعوته العلنية بإنذار عشيرته الأقربين، إذ أن مكة بلد توغلت فيه الروح القبلية، فبدء الدعوة بالعشيرة قد يعين على نصرته وتأييده، وحمايته، كما أن القيام بالدعوة في مكة لا بد أن يكون له أثر خاص لما لهذا البلد من مركز ديني خطير، فجلبها إلى حظيرة الإسلام لا بد وأن يكون له واقع كبير على بقية القبائل. على أن هذا لا يعني أن رسالة الإسلام كانت في أدوارها الأولى محدودة بقريش، لأن الإسلام، كما يتجلى من القرآن الكريم اتخذ الدعوة في قريش خطوة أولى لتحقيق رسالته العالمية)[٦]، فقد جاءت الآيات المكية تبين عالمية الدعوة، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (سورة الفرقان، آية: ١).

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧) وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة سبأ، الآية: ٢٨).

ثم جاءت مرحلة أخرى بعدها، فأصبح يدعو فيها كل من يلتقي به من الناس على اختلاف قبائلهم وبلدانهم ويتبع الناس في أنديتهم، ومجامعهم ومحافلهم، وفي المواسم ومواقف الحج، ويدعو من لقيه من حر وعبد، وقوي وضعيف، وغني وفقير[٧] حين نزول قوله تعالى: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ (سورة الحجر، الآيتان: ٩٤-٩٧).

كانت النتيجة لهذا الصدع هي الصد والإعراض والسخرية والإيذاء والتكذيب، والكيد المدبر المدروس، وقد اشتد الصراع بين النبي (ﷺ) وصحبه، وبين شيوخ الوثنية وزعمائها وأصبح الناس في مكة يتناقلون أخبار ذلك الصراع في كل مكان، وكان هذا في حد ذاته مكسب عظيم للدعوة، ساهم فيه أشد وألد أعدائها ممن كان يشيعون في القبائل قالة السوء عنها، فليس كل الناس يسلمون بدعاوى زعماء الكفر والشرك.

---

(٥) انظر: الحرب النفسية ضد الإسلام، د. عبد الوهاب كحيل ص١٢١.
(٦) انظر: دراسة في السيرة، عماد الدين خليل ص٦٦.
(٧) انظر: رسالة الأنبياء (٣/٤٨، ٤٩).

كانت الوسيلة الإعلامية في ذلك العصر تناقل الناس للأخبار مشافهة وسمع القاصي والداني بنبوة الرسول (ﷺ) وصار هذا الحدث العظيم حديث الناس في المجالس ونوادي القبائل، وفي بيوت الناس[٨].

كانت أهم اعتراضات زعماء الشرك موجهة نحو وحدانية الله تعالى، والإيمان باليوم الآخر، ورسالة النبي (ﷺ)، والقرآن الكريم الذي أنزل عليه من رب العالمين.

وفيما يلي تفصيل لهذه الاعتراضات والرد عليها:

أولاً: الإشراك بالله:

لم يكن كفار مكة ينكرون بأن الله خلقهم وخلق كل شيء:

قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة لقمان، الآية: ٢٥).

لكنهم كانوا يعبدون الأصنام، ويزعمون أنها تقربهم إلى الله: قال تعالى: ﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى[٩] إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ (سورة الزمر، آية: ٣).

وقد انتقلت عبادة الأصنام إليهم من الأمم المجاورة لهم، ولهذا قابلوا الدعوة إلى التوحيد بأعظم إنكار وأشد استغراب[١٠]: قال تعالى: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ * وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ﴾ (سورة ص، الآيات: ٤-٧).

ولم يكن تصورهم لله تعالى ولعلاقته بخلقه صحيحًا، إذ كانوا يزعمون أن لله تعالى صاحبة من الجن، وأنها ولدت الملائكة، وأن الملائكة بنات الله!

فكانت الآيات تنزل مبينة أن لله عز وجل خلق الجن والملائكة كما خلق الإنس، وأنه لم يتخذ ولدًا، ولم تكن له صاحبة: قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ * بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (سورة الأنعام، الآيتان: ١٠٠-١٠١).

ومبينة أن الجن يقرون لله بالعبودية، وينكرون أن يكون بينهم وبينه علاقة نسب: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ (سورة الصافات،

---

(٨) انظر: الغرباء الأولون ص١٦٧.

(٩) زلفى: قربى.

(١٠) انظر: رسالة الانبياء (٣/ ٥٢).

الآية: ١٥٨).

ومطالبة المشركين باتباع الحق، وعدم القول بالظنون والأوهام: ﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ (سورة النجم، الآيتان: ٢٧-٢٨).

وموضحة أنه لا يعقل أن يمنح الله المشركين البنين، ويكون له بنات، وهن أدنى قيمة في رأيهم من البنين: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا﴾ (سورة الإسراء، الآية: ٤٠).

ومحملة المشركين مسؤولية أقوالهم التي لا تقوم على دليل: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ (سورة الزخرف، الآية: ١٩).

ثانيا: كفرهم بالآخرة:

أما دعوة الرسول (ﷺ) إلى الإيمان باليوم الآخر فقد قابلها المشركون بالسخرية والتكذيب: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ﴾ (سورة سبأ، الآيتان: ٧-٨) فقد كانوا ينكرون بعث الموتى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (سورة الأنعام، الآية: ٢٩).

ويقسمون على ذلك الأيمان المغلظة:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ * لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ (سورة النحل، الآيتان: ٣٨-٣٩) وكانوا يظنون أنه لا توجد حياة في غير الدنيا ويطلبون إحياء آبائهم ليصدقوا بالآخرة: قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ * وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ (سورة الجاثية، الآيات: ٢٤-٢٧).

فاتهم أن الذي خلقهم أول مرة قادر على أن يحييهم يوم القيامة قال مجاهد وغيره: جاء أبي بن خلف[١١] إلى رسول الله (ﷺ) وفي يده عظم رميم، وهو يفتته ويذروه في الهواء، وهو يقول: يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا؟ قال (ﷺ): «نعم، يميتك الله تعالى، ثم يبعثك، ثم يحشرك إلى النار» ونزلت هذه الآيات[١٢] ﴿أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ

(١١) وفي رواية عن ابن عباس أنه العاص بن وائل.
(١٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٨١).

﴿يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (سورة يس، الآيتان: ٧٧-٧٩) كانت أساليب القرآن الكريم في إقناع الناس بالبعث اعتمدت على خطاب العقل، والانسجام مع الفطرة، والتجاوب مع القلوب، فقد ذكرّ الله عباده أن حكمته تقتضي بعث العباد للجزاء والحساب، فإن الله خلق الخلق لعبادته، وأرسل الرسل وأنزل الكتب لبيان الطريق الذي يعبدونه ويطيعونه ويتبعون أمره ويجتنبون نهيه، فمن العباد من رفض الاستقامة على طاعة الله، وطغى وبغى، أفليس بعد ذلك أن يموت الطالح والصالح ولابد أن يجزي الله المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ * إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ (سورة القلم، الآيات: ٣٥-٣٨). إنَ الملاحدة الذين ظلموا أنفسهم هم الذين يظنون الكون خلق عبثًا وباطلاً لا لحكمة، وأنه لا فرق بين مصير المؤمن المصلح والكافر المفسد، ولا بين التقي والفاجر[١٣]، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ (سورة ص، الآيتان: ٢٧-٢٨).

وضرب القرآن الكريم للناس الأمثلة في إحياء الأرض بالنبات وإن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على إعادة الحياة إلى الجثث الهامدة والعظام البالية: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة الروم، الآية: ٥٠).

وذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه من إحياء بعض الأموات في هذه الحياة الدنيا، فأخبر الناس في كتابه عن أصحاب الكهف بأنه ضرب على آذانهم في الكهف ثلاثمائة وتسع سنين ثم قاموا من رقدتهم بعد تلك الأزمان المتطاولة: قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ (سورة الكهف، الآية: ١٢). ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ (سورة الكهف، الآية: ١٩). ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ (سورة الكهف، الآية: ٢٥) وغير ذلك من الأدلة والبراهين التي استخدمها رسول الله (ﷺ) في مناظراته مع زعماء الكفر والشرك.

ثالثًا: اعتراضهم على الرسول (ﷺ):

اعترضوا على شخص الرسول (ﷺ)، فقد كانوا يتصورون أن الرسول لا يكون بشرًا مثلهم، وأنه ينبغي أن يكون ملكًا، أو مصحوبًا بالملائكة: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ (سورة الأنعام، الآية: ٩٨) أي لو

(١٣) انظر: الوسطية في القرآن الكريم ص٤٠٢ .

بعثنا إلى البشر رسولاً من الملائكة لكان على هيئة الرجل يمكنهم مخاطبته والأخذ عنه، ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر كما هم يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة البشر[١٤]
وكانوا يريدون رسولاً لا يحتاج إلى طعام وسعي في الأسواق: (سورة الفرقان، الآيتان: ٧-٨). وكأنهم لم يسمعوا بأن الرسل جميعًا كانوا يأكلون ويسعون ويعملون: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾[١٥] (سورة الفرقان، الآية: ٢٠).

ويريدون أن يكون الرسول كثير المال كبيرًا في أعينهم:

﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (سورة الزخرف، الآية: ٣١).

ويريدون الوليد بن المغيرة بمكة وعروة بن مسعود الثقفي بالطائف[١٦] ونسبوا الرسول (ﷺ) إلى الجنون:

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (سورة الحجر، الآية: ٦-٧).

﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ (سورة الدخان، الآيتان: ١٣-١٤).

ورد الله عليهم بقوله: ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ (سورة القلم، الآية: ٢).

كما نسبوه إلى الكهانة والشعر:

﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ * أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ (سورة الطور، الآيتان: ٢٩-٣٠).

كما أنهم كانوا يعلمون أنه لاينظم الشعر، وأنه راجح العقل، وأن مايقوله بعيد عن سجع الكهان وقول السحرة[١٧].

ونسبوه (ﷺ) إلى السحر والكذب: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ (سورة ص، الآية: ٤).

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا * انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ (سورة الإسراء، الآيتان: ٤٧-٤٨) وكانت الآيات تتنزل على رسول الله (ﷺ) تفند مزاعم المشركين، وتبين له أن الرسل السابقين استهزئ بهم، وأن العذاب عاقبة المستهزئين:

---

(١٤) تفسير ابن كثير (٢/ ١٢٤).
(١٥) اختبرنا بعضكم ببعض.
(١٦) تفسير ابن كثير (٤/ ١٢٦-١٢٧).
(١٧) انظر: رسالة الأنبياء (٣/ ٥٧).

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (سورة الأنعام، الآية: ١٠) وتعلمه أن المشركين لا يكذبون شخصه، ولكنهم يكذبون رسالته، ويدفعون آيات الله بتلك الأقاويل[١٨]: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (سورة الأنعام، الآية: ٣٣).

رابعًا: موقفهم من القرآن الكريم:

كذلك لم يصدقوا أن القرآن الكريم منزل من الله، واعتبروه ضربًا من الشعر الذي كان ينظمه الشعراء، مع أن كل من قارن بين القرآن وبين أشعار العرب يعلم أنه مختلف عنها: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ * لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (سورة يس، الآيتان: ٦٩-٧٠) وكيف يكون القرآن شعرًا وقد نزل فيه ذم للشعراء الذين يضلون الناس ويقولون خلاف الحقيقة[١٩].

﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ[٢٠] * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ[٢١] * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ﴾ (سورة الشعراء، الآيتان: ٢٢٤-٢٢٦) فهو كلام الله المنزل على رسوله(ﷺ)، وليس شبيهًا بقول الشعراء، ولا بقول الكهان: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ * وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة الحاقة، الآيات: ٤٠-٤٣).

وقد أدرك الشعراء قبل غيرهم أن القرآن الكريم ليس شعرًا[٢٢] ومن فرط تكذيبهم وعنادهم قالوا: إن محمدًا يتعلم القرآن من رجل أعجمي[٢٣]، كان غلامًا لبعض بطون قريش، وكان بياعًا يبيع عند الصفا، وربما كان الرسول (ﷺ) يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء. وذاك كان أعجمي اللسان لا يعرف من العربية إلا اليسير، بقدر ما يرد جواب الخطاب فيما لابد منه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ (سورة النحل، الآية: ١٠٣).

أي فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن من فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة من رجل أعجمي؟ لا يقول هذا من له أدنى مسكة من العقل[٢٤].

واعترضوا على طريقة نزول القرآن، فطلبوا أن ينزل جملة واحدة، مع أن نزوله مفرقًا أدعى لتثبيت قلوب المؤمنين به وتيسير فهمه وحفظه وامتثاله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ

(١٨) انظر: رسالة الأنبياء (٣/٥٨).

(١٩) نفس المصدر (٣/٥٩).

(٢٠) يعني: الضالون.

(٢١) انظر: رسالة الأنبياء (٣/٥٩).

(٢٢) نفس المصدر (٣/٥٩).

(٢٣) انظر: تهذيب السيرة (١/٧٤، ٩٠).

(٢٤) انظر: تفسير ابن كثير (٢/٥٨٦).

عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ (سورة الفرقان، الآية: ٣٢).

فلما اعترض المشركون على القرآن وعلى من أنزل عليه بهذه الاعتراضات تحداهم الله بأن يأتوا بمثله، وأعلن عن عجز الإنسان والجن مجتمعين عن ذلك: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ (سورة الإسراء، الآية: ٨٨).

بل هم عاجزون عن أن يأتوا بعشر سور مثله:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلِ بِعِلْمِ اللّهِ وَأَن لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ سورة هود، الآيتان: ١٣-١٤).

وحتى السورة الواحدة هم عاجزون عنها: ﴿وَمَا كَانَ هَـذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (سورة يونس، الآيتان: ٣٧-٣٨).

فعجزهم مع أن الفصاحة كانت من سجاياهم، وكانت أشعارهم ومعلقاتهم في قمة البيان دليل على أن القرآن كلام الله الذي لا يشبهه شيء في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله وأقواله، وكلامه لا يشبه كلام المخلوقين[٢٥].

خامسًا: دوافع إنكار دعوة الإسلام في العهد المكي :

تحدث بعض الباحثين[٢٦] عن دوافع إنكار دعوة الإسلام في العهد المكي، فذكروا منها:

١- ضعف تأثير النبوات في جزيرة العرب:

كان العرب الذين بُعث فيهم النبي (ﷺ) بعيدين عن الديانات السماوية، فلم يكونوا يدينون بدين، ولم ينشغلوا بدراسة كتاب سماوي كما كانت تفعل اليهود والنصارى، ولهذا احتج الله عليهم ببعثة محمد (ﷺ): ﴿وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * أَن تَقُولُواْ إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ﴾ (سورة الأنعام، الآيات: ١٥٥-١٥٧).

وكان لتغلغل المعتقدات الوثنية في حياتهم وعقولهم، وسيطرتها على تفكيرهم أثر عظيم في تصلبهم أمام الحق، وإبائهم الانقياد والإذعان لدعوته، هذا- فضلاً عن أن طبيعة النفس

(٢٥) انظر: رسالة الأنبياء (٣/ ٦٦).

(٢٦) مثل، سلمان العودة، ومحمد العبدة، وعبد الرحمن الملاحي.

البشرية حين لا تدين بدين سماوي فإنها تبتعد عن التجرد والصفاء العقدي، وتميل إلى التجسيم المادي الحسي، ولذلك أقدم عبّاد الأصنام على بذل نفوسهم وأموالهم وأبنائهم دونها وهم يشاهدون مصارع إخوانهم وما حلّ بهم، ولا يزيدهم ذلك إلا حبًا لها وتعظيمًا، ويوصي بعضهم بعضًا بالصبر عليها، وتحمل أنواع المكاره في نصرتها وعبادتها، وهم يسمعون أخبار الأمم التي فُتنت بعبادتها وما حل بهم من عاجل العقوبات[٢٧].

٢- العصبية لتراث الآباء والأجداد:

كان أكبر طاغوت تحارب به دعوات الرسل والأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- هو طاغوت التقليد والعادة المتبعة، وهي من أكبر العوامل في الصدّ عن دين الله، ومن الصعب على الإنسان الخروج عن مألوفاته ،وإن ذهاب روحه أهون عليه من تغييرها إلا أن يدخل في قلبه ما يقتلعها وقد أشار القرآن الكريم إلى مرض تقليد الآباء في الباطل في الأمم السابقة[٢٨]؛ فهذا إبراهيم عليه السلام يخاطب قومه قائلاً: **﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾** (سورة الشعراء، الايات: ٧٠-٧٤).

وهذا المنهج هو دأب المشركين والمعارضين لدين الله على مر الأجيال، وإذا استنكر عليهم الدعاة الأطهار المصلحون ولوغهم في الشهوات وانهماكهم في الفواحش وسألوهم عن ذلك، قالوا: **﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾** (سورة الأعراف، الآية ٢٨). ما ذلك إلا لفقدان الدليل، وانقطاع الحجة؛ إذ أنهم لا يعتمدون على عقل يرشدهم، ولا كتاب يؤيدهم؛ ولذلك قال تعالى: **﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾** (سورة لقمان، الآيتان: ٢٠، ٢١) وإنما أوقع الكفار في هذا التقليد المنحرف، استدراج الشيطان لهم من خلال فطرة مركوزة في الإنسان أصلاً، تدعوه إلى الوفاء للآباء والأجداد، وتربطه بتاريخه وتراثه، وهذا من أعظم وسائل الشيطان في الكيد؛ أن يأتي الإنسان من قبل غريزة مطبوعة فيه من حب الشهوة والوطن والمال وغيرها؛ قال رسول الله (ﷺ): **«إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام فقال: تسلم وتذر دينك، ودين آبائك، وآباء أبيك، فعصاه، فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال: تهاجر وتدع أرضك، وسماءك، وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطّوَل[٢٩]!، فعصاه فهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد، فقال: تجاهد! فهو جهْد النفس والمال، فتقاتل، فتقتل،**

---

(٢٧) انظر: إغاثة اللهفان عن مصايد الشيطان لابن القيم (٢/ ٢٢٥).

(٢٨) انظر: الطريق إلى المدينة لمحمد العبده ص٤٣.

(٢٩) الطول: هو الحبل.

فتنكح المرأة! ويقسَّم المال! فعصاه فجاهد».

فقال رسول الله (ﷺ): «**فمن فعل ذلك كان حقًا على الله عز وجل أن يدخله الجنة، ومن قتل كان حقًا على الله عز وجل أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقًا على الله أن يدخله الجنة أو وقصته**[٣٠] **دابته كان حقًا على الله أن يدخله الجنة**»[٣١].

فلما بعث النبي (ﷺ) كان من التهم التي وجهت إليه بأنه كان يدعو إلى خلاف ما عهدوا عليه الآباء والأجداد، وبذلك نفرّوا منه العامة والدهماء، وفرضوا على الدعوة نوعًا من الحصار المؤقت[٣٢].

٣- موقف أهل الكتاب المساند للوثنية:

كانت بيئة العرب الوثنية مستعدة لمواجهة دعوة التوحيد، ومحاربتها ووجدت في موقف أهل الكتاب الرافض للدعوة مستندًا قويًا لهذه المعارضة، فهما هم أهل التوراة والإنجيل، وورثة الكتب السماوية ينكرون دعوة محمد (ﷺ) ويردونها ويكذبونها، وهم أدرى منا بالدين، وهذا كان مصدر دعم وتقوية وتثبيت لموقف المشركين: **﴿وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ﴾** (سورة ص، الآيتان: ٦، ٧).

فمن عوامل الصبر على الآلهة في مواجهة الدعوة الجديدة أنهم لم يسمعوا بما جاء به (ﷺ) في الملة الآخرة، وهي النصرانية، قال ابن عباس، والسدي، ومحمد بن كعب القرظي، وقتادة ومجاهد[٣٣]، وهذا مبني على شهادة أهل الكتاب للمشركين ضد الرسول (ﷺ) وإلا فما كان للعرب من علم بالكتب السماوية وما فيها من الحقائق والأخبار[٣٤].

٤- سيطرة الأعراف، والعوائد القبلية:

كان الصراع القبلي، والتنافس على الرياسة والشرف، والسؤدد متجذرًا في الأعراف والعوائد القبلية، ولذلك تجد المعارضين للدعوة المنتسبين للبطن الذي ينتسب إليه الرسول (ﷺ) يحتجون على رسول الله (ﷺ) بأنه ليس شيخًا ذا رياسة، وتقدم فيهم، والمعارضين من البطون الأخرى يرفضون الإسلام خوفًا على مناصبهم ومكانتهم، والمعارضين من القبائل الأخرى يرفضونها حفاظًا على مراكز قبائلهم، وتكبرًا على اتباع فرد من قبيلة أخرى، فعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: (إن أول يوم عرفت فيه رسول الله (ﷺ) كنت أنا وأبو جهل بن هشام في بعض أزقة مكة، إذ لقينا رسول الله (ﷺ) فقال رسول الله (ﷺ) لأبي

---

(٣٠) أي سقط عنها فاندقت عنقه فمات.

(٣١) النسائي، كتاب الجهاد، ١٩ (٦/٢١-٢٢).

(٣٢) انظر: الغرباء الأولون ص٨٣.

(٣٣) تفسير الطبري (٢٣/١٢٦)، والدر المنثور (٧/١٤٦).

(٣٤) انظر: الغرباء الأولون ص٨٦.

جـهل: **«يا أبا الحكم هلّم إلى الله وإلى رسـوله، إني أدعـوك إلى الله»**، فقـال أبو جهل: يا محـمد، هل أنت منته عن سب آلهـتنا؟ هل تريد إلا أن نشهد أن قـد بلغت؟ فوالله لو أني لأعلم أن ما تقول حقًا ما تـبعتك! فانصرف رسول الله (ﷺ)، وأقبل عليّ فـقال: والله إني لأعلم ما يقول حق، ولكن بني قصي قالوا: فينـا الحجابة، فقلنا: نعم، قالوا: فينا الندوة، قلنا: نعم، قـالوا: فينا اللواء، قلنا: نعم، قـالوا: فينا السـقاية، قلنا: نعم، ثم أطعـموا، وأطعمنا حتى إذا تحاكت الركب قالوا: منا نبي! فلا والله لا أفعل[٣٥].

٥- حرصهم على مصالحهم ومكانتهم وتأثيرهم على العرب:

فقد كانوا يريدون أن تبقى لهم منزلتهم المرمـوقة، وأمجادهم العريقة، ويريدون أن تبقى لمكة قداسـتها عند القبـائل العربية؛ إذ كانوا يـظنون أن الإسلام يسلبها هذه الميـزة، ويجعل العرب يغـزونها، ويمتنعون عن جلب الرزق إلى أسـواقها، وينسـون أن الله هو المنعم عليهم بالأمن والرزق[٣٦]: **﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾** (سورة القصص، الآية: ٥٧).

ويضاف إلى تخوف قريش على مكانتها عند العـرب، كان منطق العرب يقول إن القبيلة أعلم وأدرى بصـاحبـها وأخـبر بشـأنه، فلم تكن لنفثـات عليهم فـيه، وقـد قامت قـريش بالإعراض عن الدعوة ورفضت قبولها، ونظمـت حربًا إعلامية على الدعوة وقائدها (ﷺ)، ولم تكتف قريش ببث الشائعات، وإطلاقها من مكة، بل كانت تلاحق الداعي المختار (ﷺ) حيثـما ذهب، وتجند من سفهائها من ذوي الأحـلام الطائشة، والنفوس المريضة ليسـيئوا إلى النـبي (ﷺ) يشوهوا سمعته بين القبائل، كـيلا يجرؤ أحد على إيوائه، أو اتباعه، وقد ظن طغاة مكة وخُيِّل لهم أن بإمكانهم أن يطفئوا نور الله بأفواههم، وأن يحجبوا الشمس بأيديهم الصغيرة وأن يقضـوا على هذه الدعوة في بدايتها[٣٧]، ولكن خاب سعيـهم وتحقق قول الله تعالى: **﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ﴾** سورة الصافات، الآيات: ١٧١-١٧٢).

●●●

---

(٣٥) البـيهـقي، دلائل النبوة، باب اعـتراف مـشركي قـريش بما في كـتاب الله تعـالى من الإعجـاز (٢٠٧/٢).

(٣٦) انظر: الغرباء الأولون ص٩٦-١٠٦.

(٣٧) نفس المصدر ص٩٦ - ١٠٦.



المبحث الثاني

سنة الابتلاء

الابتلاء -بصفة- عامة -سنّة الله- في خلقه وهذا واضح في تقريرات القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأنعام، الآية: ١٦٥). وقال سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (سورة الكهف، الآية: ٧). وقال جل شأنه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (سورة الإنسان، الآية: ٢).

الابتلاء مرتبط بالتمكين ارتباطًا وثيقًا؛ فلقد جرت سنّة الله تعالى ألا يُمكن لأمة إلا بعد أن تمر بمراحل الاختبار المختلفة، وإلا بعد أن ينصهر معدنها في بوتقة الأحداث، فيميز الله الخبيث من الطيب وهي سنّة جارية على الأمة الإسلامية لا تتخلف، فقد شاء الله -تعالى- أن يبتلي المؤمنين، ويختبرهم، ليمحص إيمانهم، ثم يكون لهم التمكين في الأرض بعد ذلك، ولذلك جاء هذا المعنى على لسان الإمام الشافعي رضي الله عنه حين سأله رجل: أيهما أفضل للمرء، أن يُمكن أو يبتلى؟ فقال الإمام الشافعي: لا يُمكن حتى يبتلى، فإن الله -تعالى- ابتلى نوحًا وإبراهيم، وموسى وعيسى، ومحمدًا -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- فلما صبروا مكنهم فلا يظن أحد أن يخلص من الألم البتة[٣٨].

وابتلاء المؤمنين قبل التمكين أمر حتمي من أجل التمحيص؛ ليقوم بنيانهم بعد ذلك على تمكن ورسوخ، وهذا الابتلاء للمؤمنين ابتلاء الرحمة لا ابتلاء الغضب، وابتلاء الاختيار لا مجرد الاختبار[٣٩].

إن طريق الابتلاء سنة الله في الدعوات كما أنه الطريق إلى الجنة وقد **«حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»**[٤٠]، كما أخبر النبي (ﷺ) ثم إنه الطريق الذي لا طريق غيره لإنشاء الجماعة التي تحمل هذه الدعوة، وتنهض بتكاليفها، طريق التربية للأمة الإسلامية وإخراج مكنوناتها من الخير والقوة والاحتمال، وهو طريق المزاولة العملية للتكاليف، والمعرفة لحقيقة الناس، وحقيقة الحياة، وذلك ليثبت على هذه الدعوة أصلب أصحابها عودًا وأقواهم شكيمة، فهؤلاء هم الذين يصلحون لحملها، والصبر عليها، فهم عليها مؤتمنون[٤١].

(٣٨) الفوائد لابن القيم ص٢٨٣ .

(٣٩) انظر: التمكين للأمة الإسلامية، محمد السيد محمد يوسف ص٢٣٥ .

(٤٠) مسلم (٤/ ٢١٧٤) .

(٤١) في ظلال القرآن (١/ ٥٩٣) .

حكمة الابتلاء وفوائده:

للابتلاء حكم كثيرة من أهمها:

١- تصفية الصفوف:

جعل الله الابتلاء وسيلة لتصفية نفوس الناس، ومعرفة المحق منهم والمبطل، وذلك لأن المرء قد لا يكشف في الرخاء، لكنه تكشفه الشدة، قال تعالى: ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾ (سورة العنكبوت، الآية ٢).

٢- تربية الجماعة المسلمة:

وفي هذا يقول سيد قطب رحمه الله: (ثم إنه الطريق الذي لا طريق غيره لإنشاء الجماعة التي تحمل هذه الدعوة وتنهض بتكاليفها، طريق التربية لهذه الجماعة، وإخراج مكنوناتها من الخير والقوة والاحتمال، وهو طريق المزاولة العملية للتكاليف والمعرفة الواقعية لحقيقة الناس وحقيقة الحياة، ذلك ليثبت على هذه الدعوة أصلب أصحابها عودًا، فهؤلاء هم الذين يصلحون لحملها إذن بالصبر عليها، فهم عليها مؤتمنون)[٤٢].

٣- الكشف عن خبايا النفوس:

وفي هذا المعنى: (والله يعلم حقيقة القلوب قبل الابتلاء، ولكن الابتلاء يكشف في عالم الواقع ما هو مكشوف لعلم الله، مغيبٌ ما يعلمه سبحانه من أمرهم، وهو فضل من الله من جانب، وعدل من جانب، وتربية للناس من جانب، فلا يأخذوا أحدًا إلا بما استعلن من أمره وبما حققه فعله، فليسوا بأعلم من الله بحقيقة قلبه)[٤٣].

٤- الإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة:

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظلال: (وما بالله -حاشا لله- أن يعذب المؤمنين بالابتلاء، وأن يؤذيهم بالفتنة، ولكنه الإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة، فهي في حاجة إلى إعداد خاص لا يتم إلا بالمعاناة العملية للمشاق، وإلاّ بالثقة الحقيقية في نصر الله وثوابه على الرغم من طول الفتنة وشدة الابتلاء، والنفس تصهرها الشدائد فتنفي عنها الخبث وتستجيش كامن قواها المذخورة فتستيقظ وتتجمع، وتطرقها بعنف وشدة فيشتد عودها ويصلب ويُصقل، وكذلك تفعل الشدائد بالجماعات، فلا يبقى صامدًا إلا أصلبها عودًا، وأقواها طبيعة، وأشدها اتصالاً بالله، وثقة فيما عنده من الحسنيين النصر أو الأجر، وهؤلاء هم الذين يسلمون الراية في النهاية مؤتمنين عليها بعد الاستعداد والاختبار)[٤٤].

٥- معرفة حقيقة النفس:

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظلال: (وذلك لكي يعرف أصحاب الدعوة حقيقتهم هم

(٤٢) في ظلال القرآن (٢/ ١٨٠).
(٤٣) نفس المصدر (٦/ ٣٨٧).
(٤٤) في ظلال القرآن (٦/ ٣٨٩).

أنفسهم، وهم يزاولون الحياة والجهاد مزاولة عملية واقعية، ويعرفوا حقيقة النفس البشرية وخباياها، حقيقة الجماعات والمجتمعات، وهم يرون كيف تصطرع مبادئ دعوتهم مع الشهوات في أنفسهم، وفي أنفس الناس، ويعرفون مداخل الشيطان إلى هذه النفوس، ومزالق الطريق، ومسارب الظلال)[٤٥].

٦- معرفة قدر الدعوة:

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظلال: (وذلك لكي تعز هذه الدعوة عليهم، وتغلو بقدر ما يصيبهم في سبيلها من غث وبلاء، وبقدر ما يضحون في سبيلها من عزيز وغال، فلا يفرطون فيها بعد ذلك مهما كانت الأحوال)[٤٦].

٧- الدعاية لها:

فصبر المؤمنين على الابتلاء دعوة صامتة لهذا الدين وهي التي تدخل الناس في دين الله، ولو وهنوا أو استكانوا لما استجاب لهم أحد، لقد كان الفرد الواحد يأتي إلى النبي (ﷺ) ثم يأتيه أمر النبي (ﷺ) أن يمضي إلى قومه، يدعوهم، ويصبر على تكذيبهم وأذاهم، ويتابع طريقه حتى يعود بقومه إلى رسول الله (ﷺ)[٤٧] وسنرى ذلك في الصفحات القادمة إن شاء الله.

٨- جذب بعض العناصر القوية إليها:

وأمام صمود المسلمين وتضحياتهم، تتوق النفوس القوية إلى هذه العقيدة، ومن خلال الصلابة الإيمانية، تكبر عند هذه الشخصيات الدعوة وحامليها، فيسارعون إلى الإسلام دون تردد، وأعظم الشخصيات التي يعتز بها الإسلام دخلت إلى هذا الدين من خلال هذا الطريق[٤٨].

٩- رفع المنزلة والدرجة عند الله، وتكفير السيئات:

قال رسول الله (ﷺ): «**ما يصيب المؤمن من شوكة فما فوقها إلا رفعه الله بها درجة، وحط عنه خطيئة**»[٤٩]، فقد يكون للعبد درجة عند الله تعالى لا يبلغها بعمله فيبتليه الله تعالى حتى يرفعه إليها، كما أن الابتلاء طريق لتكفير سيئات المسلم[٥٠].

كما أن للابتلاء فوائد عظيمة منها؛ معرفة عز الربوبية وقهرها، معرفة ذل العبودية وكسرها، الإخلاص، الإنابة إلى الله والإقبال عليه، التضرع والدعاء، الحلم عمن صدرت

---

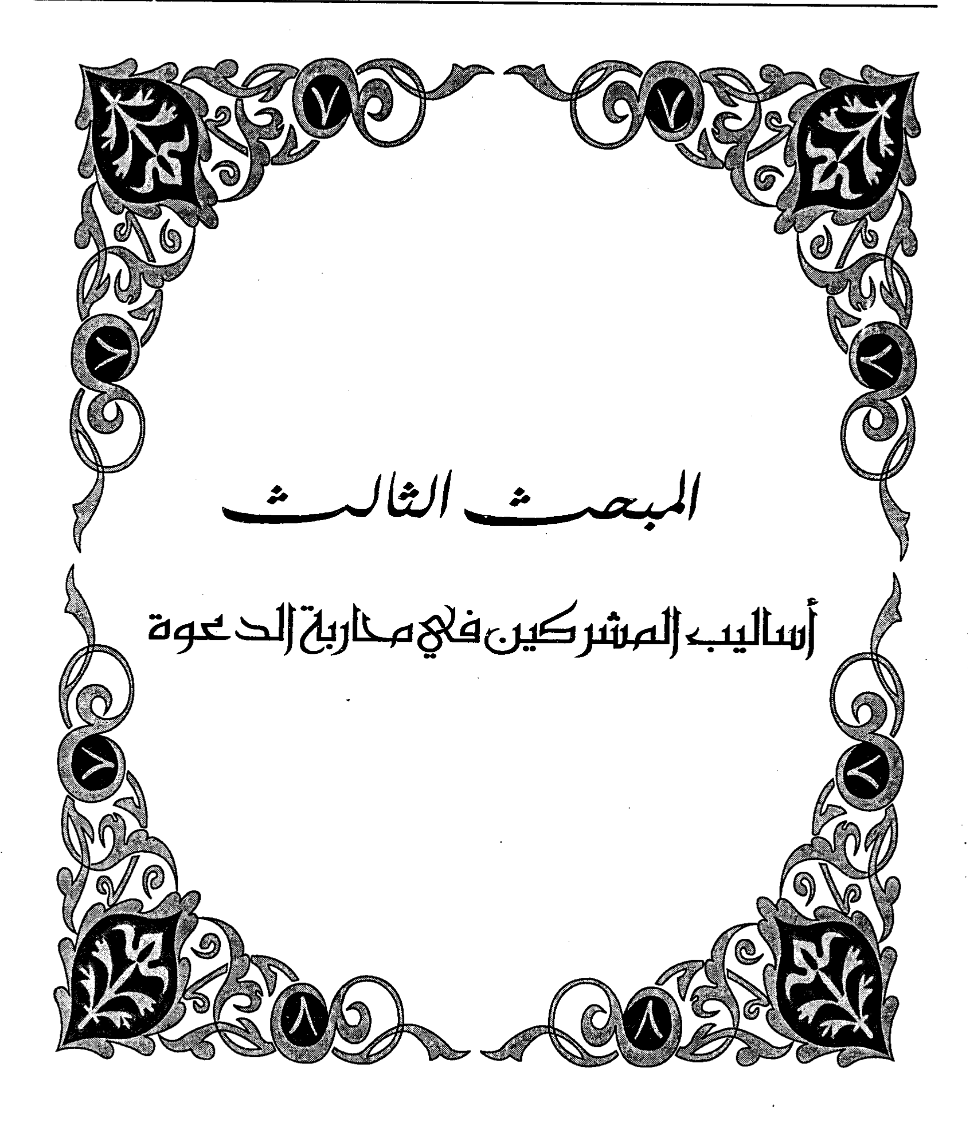
(٤٥) نفس المصدر (٢/ ١٨١).
(٤٦) المصدر السابق (٢/ ١٨٠).
(٤٧) انظر: فقه السيرة النبوية ص١٩٢، ١٩٣.
(٤٨) انظر: فقه السيرة النبوية ص١٩٣، ١٩٤.
(٤٩) مسلم شرح النووي (٦/ ١٢٧-١٢٨)، كتاب البر والصلة، باب ثواب المؤمن.
(٥٠) انظر: التمكين للأمة الإسلامية ص٢٤٤، وانظر: فقه الابتلاء، محمد أبو صعيليك (ص٨ - ١١).

عنه المصيبة، العفو عن صاحبها، الصبر عليها، الفرح بها لأجل فوائدها، الشكر عليها، رحمة أهل البلاء ومساعدتهم على بلواهم، معرفة قدر نعمة العافية والشكر عليها، ما أعده الله تعالى على هذه الفوائد من ثواب الآخرة على اختلاف مراتبها، وغير ذلك من الفوائد ومن أراد التوسع فليراجع كتاب فقه الابتلاء(٥١).

وقد تعرض النبي (ﷺ) وأصحابه لأشكال وأنواع وأصناف متعددة من الابتلاء، كمحاولة قريش لإبعاد أبي طالب عن مناصرة رسول الله، وتشويه الدعوة، وإيذائه (ﷺ) وإيذاء أصحابه، وعرض المغريات والمساومات لترك الدعوة، ومطالبته بجعل الصفا ذهبًا، والاستعانة باليهود في مجادلة رسول الله (ﷺ)، والدعاية الإعلامية في المواسم ضد الدعوة وشخص الرسول (ﷺ)، والحصار الاقتصادي الذي تعرض له رسول الله وبني هاشم وبني المطلب من قبل كفار مكة، والإيذاء الجسدي وغير ذلك من أنواع الابتلاء، وسنبين في الصفحات القادمة أساليب المشركين في محاربة الإسلام، وكيف تصدى لها رسول الله (ﷺ) وأصحابه، وكيف دفع رسول الله (ﷺ) قدر سنّة الابتلاء، بسنّة الأسباب، وكيف تعامل رسول الله (ﷺ) مع سنّة الأخذ بالأسباب، حتى أقام دولة الإسلام في المدينة.

●●●

(٥١) انظر: فقه الابتلاء، محمد أبو صعيليك ص١٥ إلى ٢٨.



المبحث الثالث

أساليب المشركين في محاربة الدعوة

أجمع المشركون على محاربة الدعوة التي عرت واقعهم الجاهلي وعابت آلهتهم وسفهت أحلامـهم -أي آراءهم وأفكارهم- وتصوراتهم عن الله والحياة والإنسان والكون، فـاتخذوا العديد من الوسائل والمحاولات لإيقاف الدعوة وإسكات صوتها، أو تحجيمها، وتحديد مجال انتشارها.

أولاً: محاولة قريش لإبعاد أبي طالب عن مناصرة وحماية رسول الله (ﷺ):

فقد جاءت قريش إلى أبي طالب فقـالوا: إن ابن أخيك هذا قد آذانا في نادينا ومسجدنا فانهه عنا، فـقال أبو طالب لرسول الله (ﷺ): إن بني عمك هؤلاء زعـموا أنك تؤذيهم في ناديهم ومسجدهم، فانته عن أذاهم، فحلّق رسول الله (ﷺ) ببصره إلى السماء فقال: «**ترون هذه الشـمس**». قالوا: نـعم، قال: «**فما أنا بأقـدر أن أدع ذلك منكم على أن تشعلوا منها بشعلة**» وفي رواية: «**والله ما أنا بأقدر أن أدع ما بعثت به من أن يشعل أحد من هذه الشمس شـــعلة مـن نار**» فقـال أبو طالب: (والله ما كـذب ابن أخي قط، فارجعـوا راشدين)[٥٢] وحاولت قريش مرات عديدة الضغط على رسول الله (ﷺ) بواسطة عائلته ولكنها فشلت.

ذاع أمر حماية أبي طالب لابن أخيه وتصميمه على مناصرته وعدم خذلانه، فاشتد ذلك على قريش غـمًا وحسدًا ومكرًا فمـشوا إليه بعمـارة بن الوليد بن المغيرة، فـقالوا له: (يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد أنهد فـتى في قريش وأجمله، فلك عقله[٥٣] ونصره، واتـخذه ولدًا فهو لك، وأسلم إلـينا ابن أخيك هذا الذي خالف دينك، ودين آبائك، وفرّق جـماعة قومك وسفه أحلامنا، فنقتله فأنما هو رجل برجل) قال: (والله لبئس ما تسومونني أتعطونني ابنكم أغذوه لكم؟ وأعطيكم ابني فتقتلونه، هذا والله ما لا يكون أبدًا)[٥٤].

وإن المرء ليسمع عجبًا، ويقف مذهولاً أمام مروءة أبي طالب مع رسول الله (ﷺ)، فقد ربط أبو طالب مصيره بمصير ابن أخيه محمد (ﷺ)، بل واستفـاد من كونه زعيم بني هاشم أن ضم بني هاشم وبني المطلب إليـه في حلف واحد على الحياة والموت، تأييـدًا لرسول الله (ﷺ) مسلمهم ومشـركهم على السواء[٥٥]، وأجار ابن أخيه محمد إجـارة مفتوحة لا تقبل التردد أو الإحجام، كانت هذه الأعراف الجاهلية والتـقاليد العربية تُسخر من قبل النبي (ﷺ) لخدمت الإسـلام، وقد قام أبو طالب حـين رأى قريشًا تصنع مـا تصنع في بني هاشم وبني المطلب، فدعاهم إلى مـا هو عليه، من منع رسول الله (ﷺ) والقيام دونه؛ فاجـتمعوا إليه

---

(٥٢) صحيح السيرة النبوية ، إبراهيم العلي ص٧٨ .

(٥٣) فلك عقله: أي ديته إذا قتل .

(٥٤) البداية والنهاية (٣/٤٨) .

(٥٥) انظر: فقه السيرة النبوية ص١٨٤ .

وقاموا معه، وأجابوه إلى ما دعاهم إليه، إلا ما كان من أبي لهب عدو الله اللعين.

فلما رأى أبو طالب من قومه ماسرّه من جُهدهم معه، وحدبهم عليه، جعل يمدحهم، ويذكر قديمهم، ويذكر فضل رسول الله (ﷺ) فيهم، ومكانه منهم ليشد لهم رأيهم، وليحدبوا معه على أمره فقال:

إذا اجتمعت يومًا قريش لمفخر ... فعبد مناف سرها وصميمها
وإن حصلت أشراف عبد منافها ... ففي هاشم أشرافها وقديمها
وإن فخرت يومًا فإن محمدًا ... هو المصطفى من سرٍّ وكريمها
تداعت قريش غثها وثمينها ... علينا فلم تظفر وطاشت حلومها
وكنا قديمًا لا نقر ظلامة ... إذا ما ثنوا صعر الخدود نقيمها[٥٦]

وحين حاول أبو جهل أن يخفر جوار أبي طالب تصدى له حمزة، فشجه بقوسه وقال له: تشتم محمدًا وأنا على دينه، فرد ذلك إن استطعت.

إنها ظاهرة فذة أن تقوم الجاهلية بحماية من يسب آلهتها، ويعيب دينها، ويسفه أحلامها، وباسم هذه القيم يقدمون المهج والأرواح، ويخوضون المعارك والحروب، ولا يمس محمد (ﷺ) بسوء.

ولما خشي أبو طالب دَهماءَ العرب أن يركبوه مع قومه، قال قصيدته التي تعوَّذ فيها بحرمة مكة، وبمكانه منها، وتودد فيها أشراف قومه، وهو على ذلك يخبرهم في ذلك من شعره، أنه غير مسلّم رسول الله (ﷺ)، ولا تاركه لشيء أبدًا حتى يهلك دونه فقال:

ولما رأيت القوم لا ود فيهم ... وقد قطعوا كل العرى والوسائل
وقد صارحونا بالعداوة والأذى ... وقد طاوعوا أمر العدو المزايل
وقد حالفوا قومًا علينا أظنة ... يعضون غيظًا خلفنا بالأنامل
صبرت لهم نفسي بسمراء[٥٧] سمحة ... وأبيض عضب[٥٨] من ترات المقاول
وأحضرت عند البيت رهطي وإخوتي ... وأمسكت من أثوابه بالوصائل[٥٩]

وتعوذ بالبيت وبكل المقدسات التي فيه، وأقسم بالبيت بأنه لن يسلم محمدًا ولو سالت الدماء أنهارًا واشتدت المعارك مع بطون قريش:

---

(٥٦) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٦٩).
(٥٧) سمراء: كناية عن الرمح.
(٥٨) أبيض عضب: كناية عن السيف.
(٥٩) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٧٣).

كـذبتم وبيت الله نبـزي مـحـمـداً ... ولما نطاعـن دونـه ونـناضـل
ونسلمـه حتى نصـرّع حـوله[٦٠] ... ونذهل عن أبنائنا والحلائل[٦١]
وينهض قـوم في الحـديد إليكم ... نهوض الروايا[٦٢] تحت ذات الصلاصل

وقرّع زعماء بني عبد مناف بأسمائهم لخذلانهم إياه، فلعتبة بن ربيعة يقول:

فـعتـبـة لا تسـمع بنا قـول كـاشح ، حسودٍ كذوب مـبغضٍ ذي دغاول[٦٣]

ولأبي سفيان بن حرب يقول:

ومـر أبـو سـفـيـان عَنيَّ مـعـرضًـا ... كـمـا قـيْل[٦٤] من عـظام المقـاول
يضـر إلى نجـد وبرد مـيـاهه ... ويزعم أني لست عنكم بغـافل[٦٥]

وللمطعم بن عدي سيد بني نوفل يقول:

أمطعـم لم أخـذلـك في يـوم نجـدة ... ولا مـعظم عند الأمـور الجـلائل
أمطعـم إن الـقـوم سـامـوك خـطة ... فـإنـي مـتى أوكل فلست بوائل[٦٦]
جـزى الله عنا عـبـد شـمس ونوفـلاً ... عـقـوبة شـرٍ عاجـلاً غـيـر آجل[٦٧]

لقـد كان كـسب النبي (ﷺ) عمه في صُـفَّة الدفاع عنه، فكان ذلك نصرًا عظيـمًا وقد استفاد (ﷺ) من العرف القبلي فتمتع بحماية العشيرة، ومُنع من أي اعتداء يقع عليه وأعطى حرية التحرك والتفكير ،وهذا يدل على فهم النبي (ﷺ) للواقع الذي يتحرك فيه، وفي ذلك درس بالغ للدعاة إلى الله تعـالى للتعامل مع بيئتهم ومـجتمعـاتهم والاستفـادة من القوانين والأعراف والتقاليد لخدمة دين الله.

ثانيًا: محاولة تشويه لدعوة الرسول (ﷺ):

قام مشركوا مكة بتشويه دعوة الرسول (ﷺ)؛ ولذلك نظمت قريش حرب إعلامية ضده لتشويهـه قادها الوليد بن المغيـرة حيث اجتمع مع نفـر من قومه، وكان ذا سن فـيهم، وقد حضر موسم الحج فقال لهم: يا معشر قريش! إنه قد حضر الموسم، وإن وفود العرب ستقدم

(٦٠) ونسلمه حتى نصرع حوله: أي كذبتم أن نسلمه قبل أن نصرع حوله.
(٦١) الحلائل: الزوجات.
(٦٢) الروايا: الإبل التي تحمل الماء للساقية.
(٦٣) الدغاول: الدواهي.
(٦٤) قَيْل: الرئيس الكبير في اليمن.
(٦٥) انظر: فقه السيرة النبوية ص٢١٢.
(٦٦) بوائل: ناج.
(٦٧) انظر: فقه السيرة النبوية ص٢١٢.

عليكم، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيًا واحدًا، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضًا، ويرد قول بعضكم بعضًا.

- فقالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأيًا نقول به.
- قال: بل أنتم قولوا أسمع.
- فقالوا: نقول كاهن.
- فقال: ما هو بكاهن، لقد رأيت الكهان فما هو بزمزمة(٦٨) الكاهن وسجعه.
- فقالوا: نقول مجنون.
- فقال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو تخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته.
- فقالوا: نقول شاعر.
- فقال: ما هو بشاعر، قد عرفنا الشعر برجزه وقريضة ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر.
- قالوا: فنقول ساحر.
- قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحّار وسحرهم، فما هو بنفثه ولا عقده.
- قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟

قال: والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق(٦٩)، وإن فرعه لجناة (٧٠) وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عُرف أنه باطل، وإن أقرب القول لأن تقولوا: ساحر، فقولوا: ساحر يفرق بين المرء وبين أبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته (٧١).

فأنزل الله تعالى في الوليد: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً * وَبَنِينَ شُهُوداً * وَمَهَّدتُ لَهُ تَمْهِيداً * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً * سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٧٢) * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٧٣) * إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ (سورة المدثر، الآيات: ١١-٢٦).

---

(٦٨) الزمزمة: كلام خفي لا يسمع.
(٦٩) العذق: النخلة.
(٧٠) الجناة: ما يجني من الثمر.
(٧١) السير والمغازي لابن إسحاق ص١٥٠-١٥١، تهذيب السيرة (١/ ٦٤-٦٥).
(٧٢) أي قبض بين عينيه وكلح وقطّب.
(٧٣) أي هذا سحر ينقله محمد عن غيره ممن قبله ويحكيه عنهم.

ويتضح من هذه القصة أن الحرب النفسية المضادة للرسول (ﷺ) لم تكن توجه اعتباطًا وإنما كانت تعد بإحكام ودقة بين زعماء الكفار، وحسب قواعد معينة هي أساس القواعد المعمول بها في تخطيط الحرب النفسية في العصر الحديث، كاختيار الوقت المناسب، فهم يختارون وقت تجمع الناس في موسم الحج، والاتفاق وعدم التناقض وغير ذلك من هذه الأسس حتى تكون حملتهم منظمة، وبالتالي لها تأثير على وفود الحجيج، فتؤتي ثمارها المرجوة منها، ومع اختيارهم للزمان المناسب فقد اختاروا أيضًا مكانًا مناسبًا حتى تصل جميع الوفود القادمة إلى مكة [(٧٤)]، ويتضح من هذا الخبر عظمة النبي (ﷺ) وقوته في التأثير بالقرآن على سامعيه، فالوليد بن المغيرة كبير قريش ومن أكبر ساداتهم، ومع ما يحصل عادة للكبراء من التكبر والتعاظم فإنه قد تأثر بالقرآن ورق له واعترف بعظمته ووصفه بذلك الوصف البليغ [(٧٥)] وهو في حالة استجابة لنداء العقل .

ولم تستطع تلك الحرب الإعلامية المنظمة أن تحاصر دعوة رسول (ﷺ) بل استطاع محمد (ﷺ) أن يخترق حصار الأعداء الذين لم يكتفوا بتنفير ساكني مكة من رسول الله (ﷺ) وتشويه سمعته عندهم بل صاروا يتلقون الوافدين إليهم ليسمّموا أفكارهم وليحولوا بينهم وبين سماع كلامهم، والتأثر بدعوته، فقد كان رسول الله (ﷺ) عظيم النجاح في دعوته، بليغًا في التأثير على من خاطبه، حيث يؤثر على من جالسه بهيئته وسمته ووقاره قبل أن يتكلم، ثم إذا تحدث أسر سامعيه بمنطقه البليغ المتمثل في العقل السليم والعاطفة الجياشة بالحب والصفاء والنية الخالصة في هداية الأمة بوحي الله تعالى [(٧٦)]، ومن أبرز الأمثلة على قوته في التأثير بالكلمة المعبرة والأخلاق الكريمة وقدرته على اختراق الجدار الحديدي الذي حاول زعماء مكة ضربه عليه ما كان من موقفه مع ضماد الأزدي، وعمرو بن الطفيل الدوسي، وأبي ذر، وعمرو بن عبسة رضي الله عنهم.

١- إسلام ضماد الأزدي رضي الله عنه:

وفد ضماد الأزدي إلى مكة وتأثر بدعاوي المشركين عن رسول الله (ﷺ) حتى استقر في نفسه أنه مصاب بالجنون كما يتهمه بذلك زعماء مكة؛ وكان ضماد من أزد شنوءه وكان يُعالج من الجنون، فلما سمع سفهاء مكة يقولون: إن محمدًا (ﷺ) مجنون فقال: لو أني رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي.

قال: فلقيه. فقال: يا محمد إني أرقي من هذاه الريح، وإن الله يشفي على يدي من شاء فهل لك؟ فقال رسول الله (ﷺ): «إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله، أما بعد».

(٧٤) انظر: الحرب النفسية ضد الإسلام ، د . عبد الوهاب كحيل ص١٠٣ .
(٧٥) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (١/ ١٢٣) .
(٧٦) المصدر السابق نفسه (١/ ١٢٧ ، ١٣٧) .

فقال: أعد علي كلماتك هؤلاء، فأعادهن عليه رسول الله (ﷺ) ثلاث مرات، قال فقال: لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن قاموس البحر(٧٧)، فقال لرسول الله (ﷺ): هات يدك أبايعك على الإسلام قال: فبايعه، فقال رسول الله (ﷺ): **«وعلى قومك»**، قال: وعلى قومي.

وعندما قامت دولة الإسلام في المدينة، وكانت سرايا رسول الله تبعث، فمروا على قوم ضماد فقال صاحب السرية للجيش: هل أصبتم من هؤلاء شيئًا؟ فقال رجل من القوم: أصبت منهم مطهرة، فقال: ردوها فإن هؤلاء قوم ضماد(٧٨).

دروس وفوائد:

أ- دعاية قريش وتشويه شخص الرسول (ﷺ) واتهامه بالجنون حمل ضماد على السير للرسول (ﷺ) من أجل رقيته، فكانت الحرب الإعلامية المكية ضد الرسول (ﷺ) سببًا في إسلامه وإسلام قومه.

ب- تتضح صفتي الصبر والحلم في شخص النبي (ﷺ)، فقد عرض ضماد على رسول الله (ﷺ) معالجته من مرض الجنون وهذا موقف يثير الغضب، ولكن رسول الله (ﷺ) استقبل الأمر بحلم وهدوء، مما أثار إعجاب ضماد واحترامه لرسول الله (ﷺ).

ج- أهمية هذه المقدمة التي يستفتح بها رسول الله (ﷺ) بعض خطبه فقد اشتملت على تعظيم الله وتمجيده وصرف العبادة له سبحانه؛ ولذلك كان رسول الله (ﷺ) كثيرًا ما يجعلها بين يدي خطبه ومواعظه.

د- تأثر ضماد بفصاحة الرسول (ﷺ) وقوة بيانه، لأن حديث الرسول (ﷺ) انبعث من قلب مُليء إيمانًا ويقينًا وحكمة، فأصبح حديثه يصل إلى القلوب ويجذبها إلى الإيمان.

هـ- في سرعة إسلام ضماد دليل على أن الإسلام دين الفطرة، وأن النفوس إذا تجردت من الضغوط الداخلية والخارجية، فإنها غالبًا تستأثر وتستجيب، إما بسماع قول مؤثر، أو الإعجاب بسلوك قويم.

و- حرص الرسول (ﷺ) على انتشار دعوته حيث رأى في ضماد صدق إيمانه، وحماسته للإسلام، وقوة قناعته به، فدفعه ذلك إلى أخذ البيعة منه لقومه.

ز- وفي هذا بيان واضح لأهمية الدعوة إلى الله تعالى، حيث جعلها النبي (ﷺ) قرينة الالتزام الشخصي، فقد بايع رسول الله (ﷺ) على الالتزام بالدين، فلم يكتف رسول الله بذلك بل أخذ منه البيعة على دعوة قومه إلى الإسلام.

ح- حفظ المعروف والود لأهل السابقة والفضل (ردوها فإن هؤلاء من قوم ضماد)(٧٩).

(٧٧) قاموس البحر: معناه وسطه، أو لجته أو قعره الأقصى.

(٧٨) مسلم، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة رقم ٨٦٨.

(٧٩) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (١/ ١٣٢، ١٣٣). وانظر: الوحي وتبليغ الرسالة ص١١١، ١١٣، د. يحيى اليحيى.

ط- في الحديث بعض الوسائل التربوية التي استعملها النبي (ﷺ) مع ضماد، كالتأني في الحديث، وأسلوب الحوار، التوجيه المباشر، وتظهر بعض الصفات في شخصية رسول الله (ﷺ) كمربي، كالحلم والصبر، والتشجيع على الإكثار من الخيرات.

٢- إسلام عمرو بن عبسة رضي الله عنه:

قال: عمرو بن عبسة السلمي: كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة، وأنهم ليسوا على شيء وهم يعبدون الأوثان فسمعت برجل بمكة يخبر أخبارًا، فقعدت على راحلتي، فقدمت عليه، فإذا رسول الله (ﷺ) مستخفيًا، جرءاءٌ عليه قومه، فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة فقلت له: ما أنت؟ قال: **«أنا نبي»** فقلت: وما نبي؟ قال: **«أرسلني الله»** فقلت: وبأي شيء أرسلك؟ قال: **«أرسلني بصلة الأرحام وكسر الأوثان وأن يوحد الله لا يشرك به شيء»** قلت له: فمن معك على هذا؟ قال: **«حر وعبد»** قال: ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به فقلت: إني متبعك. قال: **«إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا، ألا ترى حالي وحال الناس؟ ولكن ارجع إلى أهلك، فإذا سمعت بي قد ظهرت فائتني»**.

قال: فذهبت إلى أهلي، وقدم رسول الله (ﷺ) المدينة، وكنت في أهلي، فجعلت أتخير الأخبار وأسأل الناس حين قدم المدينة، حتى قدم عليَّ نفر من أهل يثرب من أهل المدينة، فقلت: ما فعل هذا الرجل الذي قدم المدينة؟ فقالوا: الناس إليه سراع. وقد أراد قومه قتله فلم يستطيعوا ذلك. فقدمت المدينة فدخلت عليه، فقلت: يا رسول الله أتعرفني؟ قال: **«نعم، أنت الذي لقيتني بمكة»**.

وذكر بقية الحديث وفيه أنه سأله عن الصلاة والوضوء [٨٠].

دروس وعبر:

أ- عمرو بن عبسة كان من الحنفاء [٨١] المنكرين لعبادة غير الله تعالى في الجاهلية.

ب- كانت الحروب الإعلامية الضروس التي شنتها قريش على رسول الله (ﷺ) سببًا في تتبع عمرو بن عبسة لأخبار الرسول (ﷺ).

ج- جرأة وشدة قريش على رسول الله (ﷺ) فقد وجده عمرو بن عبسة مستخفيًا وقومه جرءاء عليه.

د- الأدب في الدخول على أهل الفضل والمنزلة قال عمرو بن عبسة: (فتلطفت حتى دخلت عليه).

هـ- الرسالة المحمدية تقوم على ركيزتين: حق الله، وحق الخلق قال (ﷺ): **«أرسلني بصلة الأرحام وكسر الأوثان»**.

وفي هذا دليل على أهمية صلة الأرحام حيث كان هذا الخلق العظيم من أوليات دعوة الإسلام، مع اقترانه بالدعوة إلى التوحيد، وقد ظهر في هذا البيان الهجوم على الأوثان بقوة

(٨٠) انظر: صحيح مسلم، رقم ٨٣٢، كتاب صلاة المسافرين. (٨١) المائل عن ملة الشرك.

مع أنها كانت أقدس شيء عند العرب، وفي هذا دلالة على أهمية إزالة معالم الجاهلية، وأن دعوة التوحيد لا تستقر ولا تنتشر إلا بزوال هذه المعالم.

و- وفي اهتمام النبي (ﷺ) المبكر بإزالة الأوثان مع عدم قدرته على تنفيذ ذلك في ذلك الوقت دلالة على أن أمور الدين لا يجوز تأخير بيانها للناس بحجة عدم القدرة على تطبيقها، فالذين يبينون للناس من أمور الدين ما يستطيعون تطبيقه بسهولة وأمن، ويحجمون عن بيان أمور الدين التي يحتاج تطبيقها إلى شيء من المواجهة والجهاد هؤلاء دعوتهم ناقصة ولم يقتدوا برسول الله (ﷺ) الذي واجه الجاهلية وطغاتها وهو في قلة من أنصاره، والسيادة في بلده لأعدائه(٨٢).

ز- حرص الرسول (ﷺ) على أمان صحابته وتوفير الجو الآمن، والسير بهم إلى بر الأمان وإبعادهم عن التعرض للمضايقات، قال لعمرو بن عبسة: «**إنك لا تستطيع يومك هذا...**».

ح- تذكر رسول الله (ﷺ) لأحوال أصحابه وعدم نسيان مواقفهم، قال: «**أنت الذي لقيتني بمكة**».

ط- لم يكن برسول الله (ﷺ) ليعطي كل من أسلم قائمة بأسماء أتباعه، فهذا ليس للسائل منه مصلحة ولا يتعلق به بلاغ، ولذلك لما سأل عمرو بن عبسة عن من تبعه قال: «**حر وعبد**» وهذه تورية كما قال ابن كثير بأن هذا اسم جنس فهم منه عمرو أنه اسم عين(٨٣).

وممن أسلم بسبب الحرب الإعلامية ضد الرسول (ﷺ) الطفيل بن عمرو الدوسي وجاءت قصته مفصلة في كتب السيرة، ويرى الدكتور أكرم ضياء العمري، أنه لم يثبت منها إلا أنه دعا رسول الله (ﷺ) للالتجاء إلى حصن دوس المنيع فأبى رسول الله ذلك(٨٤)، وأشارت رواية صحيحة إلى أن الطفيل دعا قومه إلى الإسلام ولقي منهم صدودًا حتى طلب الطفيل من رسول الله (ﷺ) أن يدعو عليهم لكن رسول الله (ﷺ) دعا لهم بالهداية(٨٥). وكان الرسول آنئذ بالمدينة المنورة (٨٦).

ي- في قوله (ﷺ): «**ارجع إلى أهلك، فإذا سمعت بي ظهرت فأتني**». نأخذ منه درسًا في الدعوة: أن تكديس المريدين والأعضاء حيث المحنة والإيذاء ليس هو الأصل، فهذا رسول الله (ﷺ) يوجه نحو الرجوع إلى الأقوام، وأمر كما نرى بالهجرتين إلى الحبشة،

---

(٨٢) انظر: التاريخ الإسلامي (١/ ١٠٩) للحميدي.
(٨٣) انظر: الوحي وتبليغ الرسالة ص١٠٦ إلى ١٠٩.
(٨٤) صحيح مسلم (١/ ١٠٩).
(٨٥) صحيح البخاري فتح الباري (٦/ ١٠٧).
(٨٦) السيرة النبوية، ابن كثير (٢/ ٧٦)، انظر: السيرة النبوية الصحيحة للدكتور العمري (١/ ١٤٦).

فذلك تخفيف عن المسلمين وإبعاد عن مواطن الخطر وستر لقوة المسلمين، وإعطاء فرصة للقائد حتى لا ينشغل، وضمان للسرية، وإفادة للمكان المرسل إليه، وإعداد للمستقبل، وملاحظة لضمان الاستمرار وتجنب الاستئصال[٨٧].

٣- إسلام الحصين والد عمران رضي الله عنهما:

جاءت قريش إلى الحصين -وكانت تعظمه- فقالوا له: كلم لنا هذا الرجل ، فإنه يذكر آلهتنا، ويسبهم فجاءوا معه حتى جلسوا قريبًا من باب النبي (ﷺ) فقال: «**أوسعوا للشيخ**». وعمران وأصحابه متوافرون فقال حصين: ما هذا الذي بلغنا عنك أنك تشتم آلهتنا، وتذكرهم، وقد كان أبوك حصينة[٨٨] وخيرًا؟ فقال: «**يا حصين، إن أبي وأباك في النار يا حصين، كم تعبد من إله؟**» قال: سبعًا في الأرض، وواحد في السماء. فقال: «فإذا أصابك الضر من تدعو؟» قال: الذي في السماء. قال: «**فإذا هلك المال من تدعو؟**» قال: الذي في السماء. قال: «**فيستجيب لك وحده، وتشركهم معه، أرضيته في الشكر أم تخاف أن يغلب عليك؟**» قال: ولا واحدة من هاتين. قال: وعلمت أني لم أكلم مثله. قال: «**يا حصين، أسلم تسلم**». قال: إن لي قومًا وعشيرة، فماذا أقول؟ قال: «**قل: اللهم أستهديك لأرشد أمري، وزدني علمًا ينفعني**». فقالها حصين فلم يقم حتى أسلم. فقام إليه عمران فقبل رأسه ويديه ورجليه، فلما رأى ذلك النبي (ﷺ) بكى، وقال: «**بكيت من صنيع عمران دخل حصين وهو كافر فلم يقم إليه عمران، ولم يلتفت ناحيته، فلما أسلم قضى حقه فدخلني من ذلك الرقة**». فلما أراد حصين أن يخرج قال لأصحابه: «**قوموا فشيعوه إلى منزله**» فلما خرج من سدة الباب رأته قريش، فقالوا: صبأ، وتفرقوا عنه)[٨٩].

ولعل الذي حدا بالحصين والد عمران أن يسلم بهذه السرعة، سلامة فطرته، وحسن استعداده من ناحية، وقوة حجة الرسول (ﷺ) وسلامة منطقه من ناحية أخرى[٩٠].

ونلاحظ أن رسول الله (ﷺ) استخدم أسلوب الحوار مع الحصين رضي الله عنه لغرس معاني التوحيد في نفسه ونسف العقائد الباطلة التي كان يعتقدها.

٤- إسلام أبي ذر رضي الله عنه:

كان أبو ذر رضي الله عنه منكرًا لحال الجاهلية، ويأبى عبادة الأصنام وينكر على من يشرك بالله، وكان يصلي لله قبل إسلامه، بثلاث سنوات، دون أن يخص قبلة بعينها بالتوجه، ويظهر أنه كان على نهج الأحناف، ولما سمع بالنبي (ﷺ) قدم إلى مكة وكره أن يسأل عنه حتى أدركه الليل، فاضطجع فرآه عليٌّ رضي الله عنه، فعرف أنه غريب فاستضافه

(٨٧) انظر: الأساس في السنّة (١/ ١٢٦) ، سعيد حوى .

(٨٨) حصينة: يعني عاقلاً متحصنًا بدين آبائه وأجداده ، ومعتقداتهم . انظر: النهاية .

(٨٩) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (١/ ٣٣٧) وعنه نقل الشيخ محمد يوسف في : حياة الصحابة (١/ ٧٥، ٧٦) .

(٩٠) انظر: فقه الدعوة الفردية ، د . السيد محمد نوح ص١٠٤ .

ولم يسأله عن شيء، ثم غادره صباحًا إلى المسجد الحرام فمكث حتى أمسى، فرآه عليّ فاستضافه لليلة ثانية، وحدث مثل ذلك في الليلة الثالثة ثم سأله عن سبب قدومه، فلما استوثق منه أبو ذر أخبره بأنه يريد مقابلة الرسول (ﷺ)، فقال له علي: فإنه حق وهو رسول الله فإذا أصبحت فاتّبعني فإني إن رأيت شيئًا أخف عليك قمت كأني أريق الماء، فإن مضيت فاتبعني، فتبعه وقابل الرسول (ﷺ) واستمع إلى قوله فأسلم، فقال له النبي (ﷺ): **«ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري»**. فقال: والذي نفسي بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم، فخرج حتى أتى المسجد، فنادى بأعلى صوته، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وثار القوم حتى أضجعوه، فأتى العباس بن عبد المطلب فحذرهم من انتقام غفار والتعرض لتجارتهم التي تمر بديارهم إلى الشام، فأنقذه منهم[٩١]، وكان أبو ذر قبل مجيئه قد أرسل أخيه، ليعلم له علم النبي (ﷺ) ويسمع من قوله ثم يأتيه، فانطلق الأخ حتى قدمه وسمع من قوله، ثم رجع إلى أبي ذر فقال له: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، وكلامًا ما هو بالشعر. فقال: ما شفيتني[٩٢] مما أردت [٩٣] وعزم على الذهاب بنفسه لرسول الله (ﷺ)، فقال أخوه له: (وكن على حذر من أهل مكة فإنهم قد شَنِفوا له وتجهموا)[٩٤].

دروس وعبر وفوائد:

* شيوع ذكر رسول الله (ﷺ) بين القبائل وأكثر من ساهم في ذلك مشركوا قريش بما اتخذوه من منهج التحذير والتشويه لرسول الله (ﷺ) ولما جاء به، حتى وصل ذكره قبيلة غفار.

* تميز أبي ذر بأنه رجل مستقل في رأيه لا تؤثر عليه الإشاعات، ولا تستفزه الدعايات فيقبل كل ما تنشره قريش، ولذلك أرسل أخاه يستوثق له من خبر رسول الله (ﷺ) بعيدًا عن التأثيرات الإعلامية.

* شدة اهتمام أبي ذر بأمر الرسول (ﷺ)، فلم يكتف بالمعلومات العامة التي جاء بها أخوه أنيس، بل أراد أن يقف على الحقيقة بعينها؛ حيث إن مجال البحث ليس عن رجل يأمر بالخير فحسب وإنما عن رجل يذكر أنه نبي ولذلك تحمل المشاق والمتاعب وشظف العيش، والغربة عن الأهل والوطن في سبيل الحق، فأبو ذر ترك أهله واكتفى من الزاد بجراب وارتحل إلى مكة لمعرفة أمر النبوة[٩٥].

* التأني والتريث في الحصول على المعلومة، حيث تأنى أبو ذر رضي الله عنه، لما يعرفه

---

(٩١) صحيح البخاري (فتح الباري) (٧/ ١٧٣).

(٩٢) ما شفيتني مما أردت: ما بلغتني غرضي وأزلت عني هم.

(٩٣) صحيح السيرة النبوية، إبراهيم العلي ص٨٣.

(٩٤) صحيح مسلم (٤/ ١٩٢٣) وشنفوا له أي أبغضوه. وانظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ١٤٥).

(٩٥) انظر: الوحي وتبيلغ الرسالة، د. يحيى اليحيى ص٩١ - ٩٣.

من كراهية قريش لكل من يخاطب الرسول (ﷺ)، وهذا التأني تصرف أمني تقتضيه حساسية الموقف، فلو سأل عنه، لعلمت به قريش، وبالتالي قد يتعرض للأذى والطرد، ويخسر الوصول إلى هدفه الذي من أجله ترك مضارب قومه وتحمل في سبيله مصاعب ومشاق السفر.

* الاحتياط والحذر قبل النطق بالمعلومة: حين سأل علي رضي الله عنه أبا ذر رضي الله عنه عن أمره وسبب مجيئه إلى مكة، لم يخبره بالرغم من أنه استضافه ثلاثة أيام، إمعانًا في الحذر، فاشترط عليه قبل أن يخبره أن يكتم عنه، وفي ذات الوقت أن يرشده، فهذا غاية في الاحتياط، وتم ما أراده.

* التغطية الأمنية للتحرك: تم الاتفاق بين علي وأبي ذر رضي الله عنهما على إشارة، أو حركة معينة، كأنه يصلح نعله، أو كأنه يريق الماء وذلك عندما يرى علي رضي الله عنه من يترصدهم، أو يراقبهم، فهذه تغطية أمنية لتحركهم اتجاه المقر (دار الأرقم)، هذا إلى جانب أن أبا ذر كان يسير على مسافة من علي، فيُعد هذا الموقف احتياطًا، وتحسبًا لكل طارئ، قد يحدث أثناء التحرك.

* هذه الإشارات الأمنية العابرة تدل على تفوق الصحابة رضي الله عنهم في الجوانب الأمنية، وعلى مدى توفر الحس الأمني لديهم وتغلغله في نفوسهم، حتى أصبح سمة مميزة لكل تصرف من تصرفاتهم الخاصة والعامة، فأتت تحركاتهم منظمة ومدروسة فما أحوجنا لمثل هذا الحس الذي كان عند الصحابة بعد أن أصبح للأمن في عصرنا أهمية بالغة في زوال واستمرار الحضارات [٩٦] وأصبحت له مدارسه الخاصة وتقنياته المتقدمة، وأساليبه ووسائله المتطورة، وأجهزته المستقلة، وميزانياته ذات الأرقام الكبيرة، وأضحت المعلومات عامة والمعلومات الأمنية خاصة، تباع بأغلى الأثمان، ويضحى في سبيل الحصول عليها بالنفس إذا لزم الأمر.

وما دام الأمر كذلك، فعلى المسلمين الاهتمام بالناحية الأمنية، حتى لا تصبح قضايانا مستباحة للأعداء، وأسرارنا في متناول أيديهم[٩٧].

* صدق أبي ذر في البحث عن الحق ورجاحة عقله وقوة فهمه، فقد أسلم بعد عرض الإسلام عليه.

* حرص رسول الله (ﷺ) واهتمامه بأمن أصحابه وسلامتهم، حيث أمر أبا ذر بالرجوع إلى أهله وكتمان أمره حتى يُظهره الله.

* شجاعة أبي ذر وقوته في الحق فقد جهر بإسلامه في نوادي قريش ومجتمعاتهم تحديًا لهم وإظهارًا للحق[٩٨]، وكأنه فهم أن أمر النبي (ﷺ) بالكتمان ليس على الإيجاب بل على

(٩٦) انظر: في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية، د. إبراهيم علي ص٥٨، ٥٩.

(٩٧) انظر: دروس في الكتمان، محمود خطاب ص٩.

(٩٨) انظر: الوحي وتبليغ الرسالة ص٩٥.

سبيل الشفقة عليه فأعلمه أن به قوة على ذلك ولهذا أقره النبي (ﷺ) على ذلك، ويؤخذ منه جواز قـول الحق عند من يخشى منه الأذية لمن قاله وإن كـان السكوت جائزًا، والتحـقيق أن ذلك مختلف باختلاف الأحوال، والمقاصد وبحسب ذلك يترتب وجود الأجر وعدمه(٩٩).

* كان موقف أبي ذر مفيدًا للدعوة وساهم في مقـاومة الحرب النفسية التي شنتها قريش ضـد الرسـول (ﷺ)، وكانت ضربة معنـوية أصابت كفار مكة في الصميم بسـبب شجاعة ورجولة أبي ذر وقدرته على التحمل، فقد سالت الدماء من جسده ثم عاد مرة أخرى للصدع بالشهادة.

* مدافـعة العـباس عن المسلمين وسـعيـه لتخليص أبي ذر من أذى قـريش دليل على تعاطفه مع المسلمين، وكان أسلوبه في رد الاعتداء يدل على خبرته بنفوس كفار مكة ،حيث حذرهم من الأخطار التي ستواجهها تجاراتهم عندما تمر بديار غفار(١٠٠).

* امتثل أبو ذر للترتيبات الأمنية التي اتخذها رسول الله (ﷺ) في مكة، فمع تعلق أبي ذر بالرسول (ﷺ) وحبه له وحرصه على لقائه، إلا أنه امتثل أمر رسول الله (ﷺ) في مغادرة مكة إلى قومه واهتم بصلاح وهداية الأهل ودعوتهم للإسلام، فبدأ بأخيه، وأمه وقومه.

* أثر أبي ذر الدعوي على قومه وقدرته في هدايتهم وإقناعهم بالإسلام، ومع ذلك فلا يصلح للإمارة، روى مسلم في صحيحه عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده على منكبي ثم قال: «**يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقـها وأدى الذي عليه فيها**»(١٠١)، فلكل شخص مجاله الذي سخره الله فيه وميدانه الذي يقوم بواجبه فيه، فلا يعني أنه نجح في الدعوة، وإقناع الناس أنه يصلح لكل شيء.

* تفويض أبي ذر الإمامة إلى سيد غـفار (إيماء بن رحضة)، ومع تقدم أبي ذر عليه في الإسلام وعلو منزلتـه يدل على مهارة إدارية وهي عـدم جمع كل الأعمـال في يده، وتقدير الناس وإنزالهم منازلهم(١٠٢).

* نجاح أبي ذر البـاهر في الدعوة حيث أسلمت نصف غفـار وأسلم نصفها الثـاني بعد الهجرة(١٠٣).

لقد فـشلت محاولات التشـويه والحرب الإعلامـية، والحجر الفكري الذي كـان الكفار يمارسونه على الدعوة الإسلامية في بداية عهدها، لأن صوت رسول الله (ﷺ) كان أقوى من

---

(٩٩) انظر: فتح الباري (٧/ ١٣٤).
(١٠٠) انظر: الوحي وتبليغ الرسالة ص٩٤، ٩٥.
(١٠١) مسلم، كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة (٣/ ١٤٥٧) رقم ١٨٢٥.
(١٠٢) انظر: الوحي وتبليغ الرسالة ص١٠٠.
(١٠٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ٤٥).

أصواتهم، ووسائله في التبليغ كانت أبلغ من وسـائلهم، وثباته على مبدئه السامي كان أعلى بكثير مما كـان يتوقعه أعـداؤه، فالرسول (ﷺ) لم يجلس في بيتـه، ولم ينزو في زاوية من زوايا المسجد الحرام، ليستخفي بدعوته، وليقي نفسه من سهام أعدائه المسمومة، بل إنه غامر بنفسه، فكان يخرج في مضارب العرب قبل أن يفدوا إلى مكة، وكان يجهر بتلاوة القرآن في المسجد الحـرام ليسمع من كان في قلبه بقـية من حياة، وأثارة من حرية وإباء، فيـتسرب نور الهدى إلى مـجامع لبه، وسـويداء قلبه[١٠٤]، وكان من هؤلاء ضـماد الأزدي، وعـمرو بن عبسة، وأبي ذر الغفاري، والطفيل بن عمرو الدوسي وحصين والد عمران بن الحصين رضي الله عنهم وهذا دليل قاطع، وبرهان ساطع على فشل حملات التشويه التي شنتها قريش ضد رسول الله (ﷺ)، فعلينا أن نعتبر ونستفيد من الدروس والعبر.

ثالثاً: ما تعرض له رسول الله (ﷺ) من الأذى والتعذيب:

لم يفتر المشركون عن أذى رسول الله (ﷺ) منذ أن صدع بدعوته إلى أن خرج من بين أظهرهم وأظهره الله عليهم، ويدل على ذلك مبلغ هذا الأذى تلك الآيات الكثيرة التي كانت تتنزل عليه في هذه الفترة تأمره بالصبـر، وتدله على وسائله، وتنهاه عن الحزن، وتضرب له أمثلة من واقع إخوانه المرسلين مـثل قوله تعالى: **﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً﴾** (سورة المزمل، الآية: ١٠).

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ (سورة الإنسان، الآية: ٢٤).

﴿وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (سورة النمل، الاية ٧٠).

﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ (سورة فصلت، الآية: ٤٣).

وهذه أمثلة تدل على ماتعرض له (ﷺ) من الإيذاء:

١- قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه[١٠٥] بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم فقال: واللات والعزى! لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبتـه أو لأعفرنّ وجهه في التراب. قال: فأتـى رسول الله (ﷺ) وهو يصلي، زعم ليطأ على رقبته، قـال: فما فجأهم[١٠٦] منـه إلا وهو ينكص على عـقبـيه[١٠٧] ويتقي بيديـه. قال: فقيل له: مالك، فـقال: إن بيني وبينه لخندقًا من نار وهو لا وأجنحة، فقال رسول الله (ﷺ): «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً»[١٠٨].

(١٠٤) التاريخ الإسلامي للحميدي (١/ ١٤٤).
(١٠٥) يعفر وجهه: أي يسجد ويلصق وجهه بالعفر وهو التراب.
(١٠٦) فجأهم: بغتهم.
(١٠٧) عقبيه: رجع يمشي إلى الوراء.
(١٠٨) مسلم، كتاب صفات المنافقين، رقم ٢٧٩٧.

وفي حديث ابن عباس قال: كان النبي يصلي فجاء أبو جهل: فقال: (ألم أنهك عن هذا؟ ألم أنهك عن هذا؟ فانصرف النبي (ﷺ) فزبره(١٠٩)، فقال: أبو جهل: إنك لتعلم ما بها ناد أكثر مني، فأنزل الله تعالى: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَه * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴾ (سورة العلق، الآيتان: ١٧، ١٨) قال ابن عباس: لو دعا ناديه لأخذته زبانية الله)[١١٠].

٢- وعن ابن مسعود رضي الله عنه: (بينما رسول الله (ﷺ) قائم يصلي عند الكعبة، وجمع من قريش في مجالسهم إذ قال قائل منهم: ألا تنظرون إلى هذا المرائي؟ أيكم يقوم إلى جزور آل فلان، فيعمد إلى فرثها ودمها وسلاها، فيجيء به ثم يمهله حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه؟ فانبعث أشقاهم، فلما سجد رسول الله (ﷺ) وضعه بين كتفيه، وثبت النبي (ﷺ) ساجدًا، فضحكوا حتى مال بعضهم إلى بعض من الضحك، فانطلق منطلق إلى فاطمة عليها السلام -وهي جويرية- فأقبلت تسعى، وثبت النبي (ﷺ) حتى ألقته عنه، وأقبلت عليهم تسبهم، فلما قضي رسول الله (ﷺ) الصلاة قال: **«اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش»**. ثم تسمّى: **«اللهم عليك بعمرو بن هشام وعتبة ابن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط وعمارة بن الوليد»**، قال ابن مسعود: فوالله لقد رأيتهم صرعى يوم بدر، ثم سحبوا إلى القليب[١١١] -قليب بدر- ثم قال رسول الله (ﷺ): **«وأتبع أصحاب القليب لعنة»**[١١٢].

وقد بينت الروايات الصحيحة الأخرى أن الذي رمى الرفث عليه هو عقبة بن أبي معيط، وأن الذي حرضه هو أبو جهل[١١٣]، وأن المشركين تأثروا لدعوة الرسول، وشق عليهم الأمر، لأنهم يرون أن الدعوة بمكة مستجابة[١١٤].

٣- اجتماع الملأ من قريش وضربهم الرسول (ﷺ):

اجتمع أشراف قريش يومًا في الحجر، فذكروا رسول الله (ﷺ) فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط، سفّه أحلامنا وسب آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمر عظيم! فبينما هم في ذلك طلع عليهم رسول الله (ﷺ) فوثبوا وثبة رجل واحد وأحاطوا به يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا -لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم- فيقول: «نعم، أنا الذي أقول ذلك»، ثم أخذ رجل منهم بمجمع ردائه، فقام أبو بكر رضي الله عنه دونه وهو يبكي ويقول: أتقتلون رجلاً أن يقول: ربي الله [١١٥].

---

(١٠٩) زبره: نهره.

(١١٠) الترمذي رقم ٣٣٤٩، حسن صحيح غريب.

(١١١) القليب: البئر المفتوح.

(١١٢) البخاري (فتح الباري ١/ ٥٩٤)، مسلم (٣/١٤١٨-١٤٢٠).

(١١٣) صحيح مسلم (٣/ ١٤٢٠).

(١١٤) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/١٤٩).

(١١٥) صحيح السيرة النبوية، إبراهيم العزي من طرق أخرى ص٩٦.

٤- كـان أبو لهـب عم النبي (ﷺ) من أشد الناس عـداوة له وكذلك كـانت امرأته أم جميل من أشد الناس عداوة للنبي (ﷺ)؛ وكانت تسعى بالإفساد بينه وبين الناس بالنميمة، وتضع الشوك في طريقه، والقذر على بابه فلا عجب أن نزل فيهم قول الله تعالى: **﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾** (سورة المسد)، فحين سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن أتت رسول الله (ﷺ) وهو جالس عند الكعبة، ومعه أبو بكر الصديق، وفي يدها فهر من حجارة، فلما وقفت عليهما قالت: يا أبا بكر! أين صاحبك؟ فقد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه! ثم انصرفت؛ فقال أبو بكر: يا رسول الله أما تراها رأتك؟ فقال: «**لقد أخذ الله ببصرها عني**» وكانت تنشد: مذمم أبينا، ودينه قلينا، وأمره عصينا، وكان رسول الله (ﷺ) يفرح لأن المشركين يسبون مذممًا يقول: «**ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم، يشتمون مذممًا ويلعنون مذممًا وأنا محمد**»(١١٦).

وقد بلغ من أمر أبي لهب أنه كان يتبع رسول الله (ﷺ) في الأسواق والمجامع، ومواسم الحج ويكذبه(١١٧).

هذا بعض ما لاقاه رسول الله (ﷺ) من أذية المشركين وقد ختم المشركون أذاهم لرسول الله (ﷺ) بمحاولة قتله في أواخر المرحلة المكية(١١٨)، وكان رسول الله (ﷺ) يذكر ما لاقاه من أذى قريش قبل أن ينال الأذى أحدًا من أتباعه، يقول: «**لقد أُخفت في الله عز وجل وما يخاف أحد، ولقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد، ولقد أتت عليّ ثلاثون من بين يوم وليلة وما لي ولا لبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال**»(١١٩).

ومع ما له (ﷺ) من عظيم القدر ومنتهى الشرف، إلا أنه قد حظي من البلاء بالحمل الثقيل والعناء الطويل منذ أول يوم صدع فيه بالدعوة، ولقد لقي النبي (ﷺ) من سفهاء قريش أذى كثيرًا، فكان إذا مر على مجالسهم بمكة استهزؤوا به، وقالوا ساخرين: هذا ابن أبي كبشة(١٢٠)، يُكلم من السماء، وكان أحدهم يمر على الرسول (ﷺ)، فيقول له ساخرًا: أما كُلمت اليوم من السماء؟(١٢١)

ولم يقتصر الأمر على مجرد السخرية والاستهزاء والإيذاء النفسي، بل تعداه إلى الإيذاء البدني بل قد وصل الأمر إلى أن يبصق عدو الله أمية بن خلف في وجه النبي (ﷺ)(١٢٢)،

(١١٦) صحيح البخاري (فتح الباري ٦/ ٥٥٤، ٥٥٥).
(١١٧) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٢٩٣).
(١١٨) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ١٥٣).
(١١٩) سنن الترمذي (٤/ ٦٤٥) صححه الألباني صحيح الجامع (٥٠٠١).
(١٢٠) والد الرسول من الرضاعة.
(١٢١) الروض الأنف (٢/ ٣٣) وما بعدها.
(١٢٢) المصدر السابق نفسه (٢/ ٤٨).

وحتى بعد هجـرته عليه السلام إلى المدينة لم تتوقف حـدة الابتلاء والأذى، بل أخذت خطًا جديدًا، بظهور أعداء جـدد، فبعد أن كانت العداوة تكاد تكون مـقصورة على قريش بمكة؛ صار له (ﷺ) أعداء من المنافقين المجاورين بالمدينة، ومن اليهود والفرس والروم، وأحلافهم، وبعد أن كان الأذى بمكة شتمًا وسخرية، وحصارًا، وضربًا، صار مواجهة عسكرية مسلحة، حامـية الوطيس، فـيها كـر وفر وضرب وطعن؛ فكان ذلك بلاء فـي الأموال والأنفس على السواء[١٢٣]، وهكذا كانت فترة رسالته (ﷺ) وحياته سلسلة متصلة من المحن والابتلاء، فما وهن لما أصابه في سبيل الله، بل صبر، واحتسب حتى لقي ربه[١٢٤].

لقد واجـه الرسول (ﷺ) من الفتن والأذى والمحن ما لا يخطـر على بال، في مواقف متـعددة، وكان ذلك على قدر الرسـالة التي حُمِّلها، ولذلك اسـتحق المقام المحـمود والمنزلة الرفيعة عند ربه، وقد صبر على ما أصابه، إشفاقًا على قومه أن يصيبهم مثل ما أصاب الأمم الماضية من العذاب، وليكون قدوة للدعاة والمصلحين[١٢٥]، فإذا كان الاعتداء الأثيم، قد نال رسول الله (ﷺ) فلم يعد هناك أحد لكرامته هو أكبر من الابتلاء والمحنة، وتلك سنّة الله في الدعوات ،فعن أبي سعيـد بن أبي وقاص رضي الله عنه قلت: يا رسول الله أي الناس أشد بلاءً؟ قال: **«الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقـة ابتلي حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبـد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة»**

رابعًا: ما تعرض له أصحاب رسول الله (ﷺ) من الأذى والتعذيب:

١- ما لاقاه أبو بكر الصديق رضي الله عنه:

تحمل الصـحابة رضوان الله علـيهم من البلاء العظيم مـا تنوء به الرواسي الشامـخات، وبذلوا أموالـهم ودماءهم في سبـيل الله، وبلغ بهم الجـهد ما شـاء الله أن يبلغ، ولم يسلم أشـراف المسلمين من هذا الابتـلاء، فلقد أوذي أبو بكر رضـي الله عنه، وحُثي على رأسـه التراب، وضرب في المسجد الحرام بالنعال، حتى مـا يعرف وجهه من أنفه، وحمل إلى بيته في ثوبه، وهو مـا بين الحيـاة والموت[١٢٧]، فقـد روت عائشة رضي الله تعـالى عنها أنه لما اجتـمع أصحـاب النبي (ﷺ) وكانوا ثمـانية وثلاثين رجـلاً ألحّ أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله (ﷺ) في الظهور، فقال: **«يا أبا بكر إنا قليل»**. فلم يزل أبو بكر يلح حتى ظهر رسـول الله (ﷺ)، وتفرق المسلمون في نواحي المسجـد كل رجل في عشيرته، وقام أبو بكر في الناس خطيـبًا ورسـول الله (ﷺ) جالـس، فكان أوّل خطيب دعا إلى الله تعـالى وإلى

(١٢٣) زاد اليقين لأبي شنب ص١٣٧ .
(١٢٤) التمكين للأمة الإسلامية ص٢٤٣ .
(١٢٥) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي ، د .سليمان السويكت ص١٩٧ .
(١٢٦) ابن ماجه باب الصبر على البلاء رقم الحديث ٤٠٢٣ .
(١٢٧) التمكين للأمة الإسلامية ص٢٤٣ .

رسوله (ﷺ)، وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين، فضربوه في نواحي المسجد ضربًا شديدًا، ووطئ أبو بكر وضرب ضربًا شديدًا، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ويُحرِّفهما لوجهه، ونزا على بطن أبي بكر رضي الله عنه، حتى ما يعرف وجهه من أنفه، وجاءت بنو تيم يتعادون فأجلت المشركين عن أبي بكر، وحَمَلَتْ بنو تيم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله، ولا يشكون في موته، ثم رجعت بنو تيم فدخلوا المسجد وقالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة فرجعوا إلى أبي بكر فجعل أبو قحافة (والده) وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتى أجاب، فتكلم آخر النهار، فقال: ما فعل رسول الله (ﷺ)؟ فمسوا منه بألسنتهم وعذلوه، وقالوا لأمه أم الخير: انظري أن تطعميه شيئًا أو تسقيه إياه. فلما خلت به ألحت عليه، وجعل يقول: مافعل رسول الله (ﷺ)؟ فقالت: والله ما لي علم بصاحبك. فقال: اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه؛ فخرجت حتى جاءت أم جميل؛ فقالت: إن أبا بكر سألك عن محمد بن عبد الله. فقالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك. قالت: نعم، فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعًا دَنِفًا، فدنت أم جميل، وأعلنت بالصياح، وقالت: والله إن قومًا نالوا هذا منك لأهل فسقَ وكفر إنني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم؛ قال: فما فعل رسول الله (ﷺ)؟ قالت: هذه أمك تسمع، قال: فلا شيء عليك منها، قالت: سالم صالح. قال: أين هو؟ قالت: في دار الأرقم. قال: فإن لله عليّ ألا أذوق طعامًا ولا أشرب شرابًا أو آتي رسول الله (ﷺ)، فأمهلتا حتى إذا هدأت الرِّجل وسكن الناس، خرجتا به يتكئ عليهما، حتى أدخلتاه على رسول الله (ﷺ)، فقال: فأكب عليه رسول الله (ﷺ) فقبله، وأكب عليه المسلمون، ورقّ له رسول الله (ﷺ) رقة شديدة، فقال أبو بكر: بأبي وأمي يا رسول الله، ليس بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي، وهذه أمي برة بولدها وأنت مبارك فادعها إلى الله، وادع الله لها عسى الله أن يستنقذها بك من النار. قال: فدعا لها رسول الله (ﷺ) ودعاها إلى الله فأسلمت(١٢٨).

دروس وعبر وفوائد:

* حرص أبي بكر رضي الله عنه على إعلان الإسلام وإظهاره أمام الكفار، وهذا يدل على قوة إيمانه وشجاعته وقد تحمل الأذى العظيم حتى أن قومه كانوا لا يشكون في موته.

* مدى الحب الذي كان يكنه أبو بكر لرسول الله (ﷺ)، حيث إنه وهو في تلك الحال الحرجة يسأل عنه ويُلح إلحاحًا عجيبًا في السؤال، ثم يحلف ألا يأكل ولا يشرب حتى يراه، كيف يتم ذلك وهو لا يستطيع النهوض بل المشي؟ ولكنه الحب الذي في الله، والعزائم التي تقهر الصعاب، وكل مصاب في سبيل الله ومن أجل رسوله (ﷺ) هين ويسير.

* إن العصبية القبلية كان لها في ذلك الحين دور في توجيه الأحداث والتعامل مع الأفراد حتى مع اختلاف العقيدة، فهذه قبيلة أبي بكر تهدد بقتل عتبة إن مات أبو بكر(١٢٩).

(١٢٨) السيرة النبوية لابن كثير (١/ ٤٣٩-٤٤١)؛ البداية والنهاية (٣/ ٣٠) .

(١٢٩) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي ص٧٩ .

* الحس الأمني لأم جميل رضي الله عنها، فقد برز في عدة تصرفات لعل من أهمها:

• إخفاء الشخصية والمعلومة عن طريق الانكار:

عندما سألت أم الخير أم جميل، عن مكان الرسول (ﷺ) أنكرت أنها تعرف أبا بكر ومحمد بن عبد الله، فهذا تصرف حذر سليم، إذ لم تكن أم الخير ساعتئذ مسلمة، وأم جميل كانت تخفي إسلامها ولا تود أن تعلم به أم الخير، وفي ذات الوقت أخفت عنها مكان الرسول (ﷺ) مخافة أن تكون عينًا لقريش(١٣٠).

• استغلال الموقف لإيصال المعلومة:

فأم جميل أرادت أن تقوم بإيصال المعلومة بنفسها لأبي بكر رضي الله عنه، وفي ذات الوقت لم تظهر ذلك لأم الخير إمعانًا في السرية والكتمان، فاستغلت الموقف لصالحها قائلة: (إن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك فعلت). وقد عرضت عليها هذا الطلب بطريقة تنم عن الذكاء وحسن التصرف، فقولها: (إن كنت تحبين) -وهي أمه- وقولها: (إلى ابنك)، ولم تقل لها: إلى أبي بكر، كل ذلك يحرك في أم الخير عاطفة الأمومة، فغالبًا ما ترضخ لهذا الطلب، وهذا ما تم بالفعل، حيث أجابتها بقولها: (نعم) وبالتالي نجحت أم جميل في إيصال المعلومة بنفسها.

• استغلال الموقف في كسب عطف أم أبي بكر:

يبدو أن أم جميل حاولت أن تكسب عطف أم الخير، فاستغلت وضع أبي بكر رضي الله عنه، الذي يظهر فيه صريعًا دنفًا، فأعلنت بالصياح، وسبت من قام بهذا الفعل بقولها: (إن قومًا نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر). فلا شك أن هذا الموقف من أم جميل يشفي بعض غليل أم الخير، من الذين فعلوا ذلك بابنها، فقد تُكنّ شيئًا من الحب لأم جميل وبهذا تكون أم جميل كسبت عطف أم الخير، وثقتها، الأمر الذي يسهل مهمة أم جميل في إيصال المعلومة إلى أبي بكر رضي الله عنه(١٣١).

• الاحتياط والتأني قبل النطق بالمعلومة:

لقد كانت أم جميل في غاية الحيطة والحذر من أن تتسرب هذه المعلومة الخطيرة، عن مكان قائد الدعوة، فهي لم تطمئن بعد إلى أم الخير، لأنها ما زالت مشركة آنذاك، وبالتالي لم تأمن جانبها، لذا ترددت عندما سألها أبو بكر رضي الله عنه عن حال رسول الله (ﷺ)، فقالت له: هذه أمك تسمع؟ فقال لها: لاشيء عليك منها، فأخبرته ساعتها بأن الرسول (ﷺ) سالم صالح(١٣٢)، وزيادة في الحيطة والحذر، والتكتم، لم تخبره بمكانه إلا بعد أن سألها عنه قائلاً: أين هو؟ فأجابته في دار الأرقم.

(١٣٠) انظر: السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية ص٥٠ .
(١٣١) انظر: السيرة النبوية قراءة في جوانب الحذر والحماية ص٥٠ .
(١٣٢) نفس المصدر ص٥١ .

• تخير الوقت المناسب لتنفيذ المهمة:

حين طلب أبو بكر رضي الله عنه الذهاب إلى دار الأرقم، لم تستجب له أم جميل على الفور، بل تأخرت عن الاستجابة، حتى إذا هدأت الرِّجل وسكن الناس، خرجت به ومعها أمه يتكئ عليهما، فهذا هو أنسب وقت للتحرك وتنفيذ هذه المهمة، حيث تنعدم الرقابة من قبل أعداء الدعوة، مما يقلل من فرص كشفها، وقد نفذت المهمة بالفعل دون أن يشعر بها الأعداء حتى دخلت أم جميل وأم الخير بصحبة أبي بكر إلى دار الأرقم، وهذا يؤكد أن الوقت المختار كان أنسب الأوقات(١٣٣).

• قانون المنحة بعد المحنة:

حيث أسلمت أم الخير أم أبي بكر بسبب رغبة الصديق في إدخال أمه إلى حظيرة الإسلام وطلبه من الرسول (ﷺ) الدعاء لها، لما رأى من برّها به، وقد كان رضي الله عنه حريصًا على هداية الناس الآخرين فكيف بأقرب الناس إليه(١٣٤).

إن من أكثر الصحابة الذين تعرضوا لمحنة الأذى والفتنة بعد رسول الله (ﷺ) أبا بكر الصديق رضي الله عنه، نظرًا لصحبته الخاصة له، والتصاقه به في المواطن التي كان يتعرض فيها للأذى من قومه، فينبري الصديق مدافعًا عنه وفاديًا إياه بنفسه، فيصيبه من أذى القوم وسفههم، هذا مع أن الصديق يعتبر من كبار رجال قريش المعروفين بالعقل والإحسان(١٣٥).

٢- بلال رضي الله عنه:

تضاعف أذى المشركين لرسول الله (ﷺ) ولأصحابه حتى وصل إلى ذروة العنف وخاصة في معاملة المستعضفين من المسلمين، فنكلت بهم لتفتنهم عن عقيدتهم وإسلامهم، ولتجعلهم عبرة لغيرهم، ولتنفس عن حقدها وغضبها بما تصبه عليهم من العذاب.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (أول من أظهر الإسلام سبعة، رسول الله (ﷺ)، وأبو بكر ، وعمار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد، فأما رسول الله (ﷺ)، فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد، وصهروهم في الشمس، فما منهم إنسان إلا وقد واتاهم على ما أرادوا إلا بلال، فإنه هانت عليه نفسه في الله وهان على قومه، فأعطوه الولدان وأخذوا يطوفون به شعاب مكة وهو يقول: أحدٌ أحد)(١٣٦) لم يكن لبلال رضي الله عنه ظهر يسنده، ولا عشيرة تحميه، ولا سيوف تذود عنه، ومثل هذا الإنسان في المجتمع الجاهلي المكي يعادل

---

(١٣٣) انظر: السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية ص٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ . وقد استفدت من هذا الكتاب في هذه الدروس الأمنية .

(١٣٤) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي ص٧٩ .

(١٣٥) نفس المصدر ص٧٥ .

(١٣٦) مسند أحمد (١/ ٤٠٤) بإسناد حسن .

رقمًا من الأرقام، فليس له دور في الحياة إلا أن يخدم ويطيع، ويباع ويشترى كالسائمة، أما أن يكون له رأي أو يكون صاحب فكر، أو صاحب دعوة أو صاحب قضية، فهذه جريمة شنعاء في المجتمع الجاهلي المكي تهز أركانه وتزلزل أقدامه، ولكن الدعوة الجديدة التي سارع لها الفتيان وهم يتحدون تقاليد وأعراف آبائهم الكبار لامست قلب هذا العبد المرمي المنسي، فأخرجته إنسانًا جديدًا على الوجود(١٣٧)، فقد تفجرت معاني الإيمان في أعماقه بعد أن آمن بهذا الدين وانضم إلى محمد (ﷺ) وإخوانه في موكب الإيمان العظيم وها هو الآن يتعرض للتعذيب من أجل عقيدته ودينه فقصد وزير رسول الله (ﷺ) الصديق موقع التعذيب وفاوض أمية بن خلف وقال له: (ألا تتقي الله في هذا المسكين؟ حتى متى! قال: أنت الذي أفسدته فأنقذه مما ترى؛ فقال أبو بكر: أفعل، عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى على دينك أعطيكه به؛ قال: قد قبلت؛ فقال: هو لك فأعطاه أبو بكر الصديق رضي الله عنه غلامه ذلك وأخذه فأعتقه) (١٣٨)، وفي رواية اشتراه بسبع أواق أو بأربعين أوقية ذهبًا(١٣٩)، ما أصبر بلالاً وما أصلبه رضي الله عنه! فقد كان صادق الإسلام، طاهر القلب؛ ولذلك صَلُبَ ولم تَلِن قناته أمام التحديات وأمام صنوف العذاب، وكان صبره، وثباته مما يغيظهم ويزيد حنقهم، خاصة أنه كان الرجل الوحيد من ضعفاء المسلمين الذي ثبت على الإسلام فلم يوات الكفار فيما يريدون مرددًا كلمة التوحيد بتحد صارخ، وهانت عليه نفسه في الله وهان على قومه(١٤٠).

وبعد كل محنة منحة فقد تخلص بلال من العذاب والنكال، وتخلص من أسر العبودية، وعاش مع رسول الله (ﷺ) بقية حياته ملازمًا له، ومات راضيًا عنه مبشرًا إياه بالجنة، فقد قال (ﷺ) لبلال: «.... **فإني سمعت خشف نعليك بين يدي في الجنة**»(١٤١).

وأما مقامه عند الصحابة، فقد كان عمر رضي الله عنه يقول: (أبو بكر سيدنا، وأعتق سيدنا) يعني بلالاً(١٤٢).

وأصبح منهج الصديق في فك رقاب المستضعفين ضمن الخطة التي تبنتها القيادة الإسلامية لمقاومة التعذيب الذي نزل بالمستضعفين، فمضى يضع ماله في تحرير رقاب المؤمنين المنضمين إلى هذا الدين الجديد من الرق: (... ثم اعتق معه على الإسلام قبل أن يهاجر إلى المدينة ست رقاب بلال سابعهم:

عامر بن فهيرة شهد بدرًا وأحدًا، وقتل يوم بئر معونة شهيدًا، وأم عبيس، وزنِّيرة وأصيب بصرها حين أعتقها، فقالت قريش: ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى. فقالت:

---

(١٣٧) انظر: التربية القيادية (١/ ١٣٦).

(١٣٨) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٩٤).

(١٣٩) التربية القيادية (١/ ١٤٠).

(١٤٠) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي ص٩٢.

(١٤١) صحيح مسلم (٢/ ١٩١٠) رقم الحديث ٢٤٥٨.

(١٤٢) الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/ ٢٣٢) ورجاله ثقات.

كذبوا وبيت الله ما تضر اللات والعزى وما تنفعان، فرد الله بصرها)[١٤٣] وأعتق النهدية وبنتها وكانتا لامرأة من بني عبد الدار مرّ بهما، وقد بعثتهما سيدتهما بطحين لها وهي تقول: والله لا أعتقكما أبدًا: فقال أبو بكر رضي الله عنه حلٍّ[١٤٤] يا أم فلان. فقالت: حل أنت، أفسدتهما فأعتقهما؛ قال: فبكم هما؟ قالت: بكذا وكذا. قال: قد أخذتهما وهما حرتان إليها طيحنها. قالتا: أو نفرغ منه يا أبا بكر ثم نرده إليها؟ قال: وذلك إن شئتما[١٤٥].

وهنا وقفة تأمل ترينا كيف سوى الإسلام بين الصديق والجاريتين حتى خاطبتاه، خطاب الند للند، لا خطاب المسود للسيد، وتقبل الصديق على شرفه وجلالته في الجاهلية والإسلام -منهما ذلك، مع أن له يدًا عليهما بالعتق، وكيف صقل الإسلام الجاريتين حتى تخلقتا بهذا الخلق الكريم، وكان يمكنهما وقد أعتقتا وتحررتا من الظلم أن تدعا لها طحينها يذهب أدراج الرياح، أو يأكله الحيوان والطير، ولكنهما أبتا -تفضلاً، إلا أن تفرغا منه، وترداه إليها[١٤٦].

ومر الصديق بجارية بني مؤمل حي من بني عدي بن كعب وكانت مسلمة، وعمر بن الخطاب يعذبها لتترك الإسلام، وهو يومئذ مشرك يضربها، حتى إذا ملَّ قال: إني أعتذر إليك إني لم أتركك إلا عن ملالة فتقول: كذلك فعل الله بك فابتاعها أبو بكر فأعتقها)[١٤٧].

هكذا كان واهب الحريات، ومحرر العبيد، شيخ الإسلام الوقور، الذي عرف بين قومه بأنه يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق، لم ينغمس في إثم في جاهليته، أليف مألوف، يسيل قلبه رقة ورحمة على الضعفاء، والأرقاء، أنفق جزء كبير من ماله في شراء العبيد، وعتقهم لله، وفي الله، قبل أن تنزل التشريعات الإسلامية المحببة في العتق، والواعدة عليه أجزل الثواب[١٤٨].

كان المجتمع المكي يتندر بأبي بكر رضي الله عنه الذي يبذل هذا المال كله لهؤلاء المستضعفين، أما في نظر الصديق، فهؤلاء إخوانه في الدين الجديد، فكل واحد من هؤلاء لا يساوي عنده مشركي الأرض وطغاتها، وبهذه العناصر وغيرها تبن دولة التوحيد، وتصنع حضارة الإسلام الرائدة والرائعة[١٤٩] ولم يكن الصديق يقصد بعمله هذا محمدة، ولا جاهًا، ولا دنيا، وإنما كان يريد وجه الله ذا الجلال والإكرام، لقد قال له أبوه ذات يوم: (يا بني إني أراك تعتق رقابًا ضعافًا، فلو أنك إذ فعلت أعتقت رجالاً جلد يمنعونك، ويقومون دونك؟

(١٤٣) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٩٣).
(١٤٤) حل: تحللي من يمينيك.
(١٤٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٩٣).
(١٤٦) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٣٤٦).
(١٤٧) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٩٣).
(١٤٨) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٣٤٥).
(١٤٩) انظر: التربية القيادية (١/ ٣٤٢).

فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا أبت إني إنما أريد ما أريد لله عز وجل، فلا عجب إذا كان الله سبحانه أنزل في شأن الصديق قرآنًا يتلى إلى يوم الدين، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى * وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى * إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى * وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى * فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى * لا يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى * وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى * إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾[١٥٠] (سورة الليل، الآيات: ٥-٢١).

كان هذا التكافل بين أفراد الجماعة الإسلامية الأولى قمة من قمم الخير والعطاء، وأصبح هؤلاء العبيد بالإسلام أصحاب عقيدة وفكرة يناقشون بها وينافحون عنها، ويجاهدون في سبيلها، وكان إقدام أبي بكر رضي الله عنه على شرائهم ثم إعتاقهم دليلاً على عظمة هذا الدين ومدى تغلغله في نفسية الصديق رضي الله عنه، وما أحوج المسلمين اليوم أن يحيوا هذا المثل الرفيع، والمشاعر السامية ليتم التلاحم والتعايش والتعاضد بين أبناء الأمة التي يتعرض أبناؤها للإبادة الشاملة من قبل أعداء العقيدة والدين.

٣- عمار بن ياسر وأبوه وأمه رضي الله عنهم:

كان والد عمار ياسر من بني عنس من قبائل اليمن، قدم مكة وأخواه الحارث ومالك يطلبون أخًا لهم، فرجع الحارث ومالك إلى اليمن، وأقام ياسر بمكة، وحالف أبا حذيفة بن المغيرة المخزومي[١٥١]، فزوجه أبو حذيفة أمة له يقال لها: سُميَّة بنت خياط، فولدت له عمارًا، فأعتقه أبو حذيفة الذي لم يلبث أن مات، وجاء الإسلام فأسلم ياسر وسمية وعمار وأخوه عبد الله بن ياسر، فغضب عليهم مواليهم -بنو مخزوم- غضبًا شديدًا صبّوا عليهم العذاب صبًا، كانوا يخرجونهم إذا حميت الظهيرة فيعذبونهم برمضاء مكة[١٥٢]، ويقلبونهم ظهرًا لبطن[١٥٣]، فيمر عليهم الرسول (ﷺ) وهم يعذبون، فيقول: **«صبرًا آل ياسر فإن موعدكم الجنة»**[١٥٤]، وجاء أبو جهل إلى سمية فقال لها: ما آمنتِ بمحمد إلا لأنك عشقته لجماله، فأغلظت له القول، فطعنها بالحربة في ملمس العفة فقتلها، فهي أول شهيدة في الإسلام رضي الله عنها[١٥٥]، وبذلك سطرت بهذا الموقف الشجاع أعلى وأغلى ما تقدمه امرأة في سبيل الله؛ لتبقى كل امرأة مسلمة حتى يرث الله الأرض ومن عليها ترنوا إليها، ويهفو قلبها في الاقتداء بها، فلا تبخل بشيء في سبيل الله بعد أن جادت سمية بنت خُياط

(١٥٠) سيرة ابن هشام (١/ ٣١٩)، تفسير الآلوسي (٣٠/ ١٥٢).
(١٥١) انظر: أنساب الأشراف للبلاذري (١/ ١٠٠، ١٥٧).
(١٥٢) ابن هشام السيرة النبوية (٢/ ٦٨).
(١٥٣) بهجة المحافل للعامري (١/ ٩٢).
(١٥٤) صحيح السيرة النبوية، إبراهيم العلي ص٩٧، ٩٨.
(١٥٥) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي ص٩٩.

بدمها في سبيل الله[١٥٦].

وقد جاء في حديث عثمان رضي الله عنه قال: (أقبلت مع رسول الله (ﷺ) آخذًا بيدي نتمشى بالبطحاء، حتى أتى على آل عمار بن ياسر، فقال أبو عمار: يا رسول الله الدهر هكذا؟ فقال له النبي (ﷺ): **«اصبر»** ثم قال: **«اللهم اغفر لآل ياسر، وقد فعلت»**[١٥٧]، ثم لم يلبث ياسر أن مات تحت العذاب.

لم يكن في وسع النبي (ﷺ) أن يقدم شيئًا لآل ياسر رموز الفداء والتضحية فليسوا بأرقاء حتى يشتريهم ويعتقهم، وليست لديه القوة ليستخلصهم من الأذى والعذاب، فكل ما يستطيعه (ﷺ) أن يزف لهم البشرى بالمغفرة والجنة ويحثهم على الصبر لتصبح هذه الأسرة المباركة قدوة للأجيال المتلاحقة ويشهد الموكب المستمر على مدار التاريخ هذه الظاهرة **«صبرًا آل ياسر فإن موعدكم الجنة»**[١٥٨].

أما عمار رضي الله عنه فقد عاش بعد أهله زمنًا يكابد من صنفوف العذاب ألوانًا، فهو يُصنَّف في طائفة المستضعفين الذين لا عشائر لهم بمكة تحميهم، وليست لهم منعة ولا قوة، فكانت قريش تعذبهم في الرمضاء بمكة أنصاف النهار ليرجعوا عن دينهم، وكان عمار يعذب حتى لا يدري ما يقول[١٥٩] ولما أخذه المشركون ليعذبوه لم يتركوه حتى سبَّ النبي (ﷺ)، وذكر آلهتهم بخير، فلما أتى النبي (ﷺ) قال: ما وراءك؟ قال: شر، والله ما تركني المشركون حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير، قال: كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئنًا بالإيمان، قال: فإن عادوا فعد[١٦٠]، ونزل الوحي بشهادة الله تعالى على صدق إيمان عمار، قال تعالى: **﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾** (سورة النحل، الآية: ١٠٦) وقد حضر المشاهد كلها مع رسول الله (ﷺ)[١٦١].

وفي حادثة بلال وعمار فقه عظيم يتروح بين العزيمة والرخصة يحتاج من الدعاة أن يستوعبوه ويضعوه في إطاره الصحيح وفي معاييره الدقيقة دون إفراط وتفريط.

٤- سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه:

تعرض للفتنة من قبل والدته الكافرة، فامتنعت على الطعام والشراب حتى يعود إلى دينها. روى الطبراني أن سعدًا قال: أُنزلت فيَّ هذه الآية: **﴿وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا﴾** (سورة العنكبوت، الآية: ٨).

---

(١٥٦) التربية القيادية (١/٢١٧).
(١٥٧) صحيح السيرة النبوية ص٩٨.
(١٥٨) التربية القيادية (١/٢١٧، ٢١٨).
(١٥٩) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي ص١٠٠.
(١٦٠) انظر: فقه السيرة للغزالي ص١٠٣.
(١٦١) المصدر السابق نفسه ص١٠٣.

قال: كنت رجلاً برًا بأمي فلما أسلمت قالت: يا سعد ما هذا الدين الذي أراك قد أحدثت، لتدعنّ دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعيّر بي فيقال يا قاتل أمه، فقلت: لا تفعلي يا أمه فإني لا أدع ديني لشيء فمكثت يومًا وليلة لم تأكل فأصبحت قد جهدت، فمكثت آخر وليلة لم تأكل، فأصبحت قد جهدت، فمكثت يومًا وليلة أخرى لا تأكل فأصبحت قد اشتد جهدها، فلما رأيت ذلك قلت يا أمه تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسًا نفسًا ما تركت ديني هذا لشيء، فإن شئت فكلي وإن شئت لا تأكلي، فأكلت(١٦٢).

وروى مسلم: أن أم سعد حلفت ألا تكلمه أبدًا حتى يكفر بدينه، ولا تأكل ولا تشرب، قالت: زعمت أن الله وصّاك بوالديك، وأنا أمك وأنا آمرك بهذا، قال: مكثت ثلاثًا حتى غشي عليها من الجهد، فقام ابن لها يقال له: عمارة، فسقاها فجعلت تدعوا على سعد، فأنزل الله عز وجل في القرآن الكريم هذه الآية: **﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي﴾** وفيها **﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾**.

قال: فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها بعصًا ثم أوجروها(١٦٣)، فمحنة سعد محنة عظيمة، وموقفه موقف فذ يدل على مدى تغلغل الايمان في قلبه، وأنه لا يقبل فيه مساومة مهما كانت النتيجة(١٦٤).

ومن خلال تتبع القرآن المكي نجد أنه رغم قطع الولاء سواء في الحب أو النصرة بين المسلم وأقاربه الكفار، فإن القرآن أمر بعدم قطع صلتهم وبرهم والإحسان إليهم ومع ذلك فلا ولاء بينهم، لأن الولاء لله ورسوله ودينه والمؤمنين(١٦٥).

٥- مصعب بن عمير رضي الله عنه:

كان مصعب بن عمير رضي الله عنه أنعم غلام بمكة، وأجوده حلة، وكان أبواه يحبانه، وكانت أمه مليئة كثيرة المال تكسوه أحسن ما يكون من الثياب وأرقه، وكان أعطر أهل مكة، يلبس الحضرمي، من النعال(١٦٦)، وبلغ من شدة كلف أمه به أنه يبيت وقعْبُ الحيس(١٦٧) عند رأسه فإذا استيقظ من نومه أكل(١٦٨)، ولما علم أن رسول الله (ﷺ) يدعو إلى الإسلام في دار الأرقم بن أبي الأرقم دخل عليه فأسلم وصدّق به، وخرج فكتم إسلامه خوفًا من أمه وقومه، فكان يختلف إلى رسول الله (ﷺ) سرًا، فبصر به عثمان بن طلحة(١٦٩) يصلي

---

(١٦٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٤٦).

(١٦٣) صحيح مسلم (٢/ ١٨٧٧، ١٨٧٨).

(١٦٤) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي ص١٠٦.

(١٦٥) انظر: الولاء والبراء، محمد القحطاني ص١٧٤، ١٧٥.

(١٦٦) الطبقات الكبرى (٣/ ١١٦).

(١٦٧) القعب: القدح الغليظ، والحيس: تمر وأقط وسمن تخلط وتعجن.

(١٦٨) الروض الأنف (٢/ ١٩٥).

(١٦٩) سير أعلام النبلاء للذهبي (٣/ ١٠-١٢).

فأخبـر أمه وقومه، فأخـذوه وحبسوه، فلم يزل محـبوسًا حتى خرج إلى أرض الحـبشة في الهجرة الأولى[١٧٠].

قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: لقد رأيته جـهد في الإسلام جهدًا شديدًا حتى لقد رأيت جلده يتـحشّف، أي يتطاير، تحشُّف جلد الحـية عنها، حتى إن كنا لنعـرضه على قسبنا فنحمله مما به من الجهد[١٧١]، وكان رسول الله (ﷺ) كلما ذكره، قال: **«ما رأيت بمكة أحدًا أحسن لمة ولا أرق حلة ولا أنعم نعمة من مـصعب بن عمير»**[١٧٢]، ومع كل ما أصابه رضي الله عنه من بلاء ومـحنة، ووهن في الجسم والقوة، وجـفاء من أقـرب الناس إليه لم يقصر عن شيء مما بلغـه أصحاب رسول الله (ﷺ) من الخير والفضل والجـهاد في سبيل الله تعالى حتى أكرمه الله تعالى بالشهادة يوم أحد[١٧٣].

يعتبر مصعب رضي الله عنه نموذجًا عن تربيـة الإسلام للمترفين الشباب، للمنعمين من أبناء الطبقات الغنية المرفهة، لأبناء القصور والمال والجاه، للمعجبين بأشخاصهم، المبالغين في تأنقهم، السـاعين وراء مظاهر الحياة كيف تغـيرت؟ ووقف بعد إسلامه قـويًا لا يضعف ولا يتكاسل ولا يتخاذل، ولا تقهره نفسه وشهواته فيسقط في جحيم النعيم الخادع[١٧٤].

لقد ودع مـاضيـه بكل ما فـيه من راحة ولـذة وهناءة، يوم دخل هذا الدين وبايع تلك البيعة، وكان لاب د له من المرور في درب المحنة، لكي يصـقل إيمانه، ويتعمق يقينه، وكان مصعب مطمـئنًا راضيًا، رغم ما حـوله من جبروت ومخاوف، ورغم مـا نزل به من البؤس والفقر والعذاب، ورغم مـا فقده من مظاهر النعم والراحة[١٧٥]، فقد تعـرض لمحنة الفقر، ومحنة فـقد الوجاهة والمكانة عـند أهله، ومحنة الأهل والأقارب والعـشيرة، ومـحنة الجوع والتعـذيب، ومحنة الغـربة والابتعـاد عن الوطن، فخـرج من كل تلك المحن منتصـرًا بدينه وإيمانه، مطمئنًا أعمق الاطمئنان، ثابتًا أقوى الثبات[١٧٦] ولنا معه وقفات في المدينة بإذن- **الله** (تعالى).

٦- خباب بن الأرت رضي الله عنه:

كان خباب رضي الله عنه قينًا[١٧٧] بمكة، وأراد الله له الهداية مبكرًا، فدخل في الإسلام قبل دخول دار الأرقم بن أبي الأرقم[١٧٨]، فكان من المستضعفين الذين عُذبوا بمكة لكي يرتد

(١٧٠) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي ص١٠٧ .
(١٧١) السير والمغازي لابن إسحاق ص١٩٣ .
(١٧٢) الطبقات الكبرى (٣/ ١١٦) .
(١٧٣) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي ص١٠٨ .
(١٧٤) انظر: مصعب بن عمير الداعية المجاهد ، محمد بريغش ص١٠٥ .
(١٧٥) المصدر السابق نفسه ص١٠٥ ، ١٠٧ .
(١٧٦) انظر: مصعب بن عمير الداعية المجاهد ص١٢٦ .
(١٧٧) قينًا: حدادًا .
(١٧٨) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٧٩) .

عن دينه، وصل به العذاب بأن ألصق المشركون ظهره بالأرض على الحجارة المحماة حتى ذهب ماء مَتْنه(١٧٩).

وكان الرسول (ﷺ) يألف خبابًا ويتردد عليه بعد أن أسلم، فلما علمت مولاته بذلك، وهي أم أنمار الخزاعية، أخذت حديدة قد أحمتها، فوضعتها على رأسه، فشكا خبابًا ذلك إلى رسول الله (ﷺ)، فقال: اللهم انصر خبابًا، فاشتكت مولاته رأسها، فكانت تعوي مع الكلاب، فقيل لها: اكتوي، فجاءت إلى خباب ليكويها، فكان يأخذ الحديدة قد أحماها فيكوي بها رأسها، وإن في ذلك لعبرة لمن أراد أن يعتبر، ما أقرب فرج الله ونصره من عباده المؤمنين الصابرين، فانظر كيف جاءت إليه بنفسها تطلب منه أن يكويها في رأسها(١٨٠) ولما زاد ضغط المشركين على ضعفاء المسلمين ولقوا منهم شدة، جاء خباب إلى رسول الله (ﷺ) وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، فقال له: ألا تستنصر لنا ألا تدعو الله لنا، فقعد الرسول (ﷺ) وهو محمرٌ وجهه، قال: **«كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه، فيُشق باثنتين وما يصده ذلك عن دينه، ويُمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»**(١٨١).

وللشيخ سلمان العودة حفظه الله تعليق لطيف على هذا الحديث: يا سبحان الله ماذا جرى حتى احمر وجه المصطفى (ﷺ)، وقعد من ضجعته؟ وخاطب أصحابه بهذا الأسلوب القوي المؤثر، ثم عاتبهم على الاستعجال؟.

لأنهم طلبوا الدعاء منه (ﷺ)؟.

كلا: حاشاه من ذلك، وهو الرؤوف الرحيم بأمته.

إن أسلوب الطلب: ألا تدعو لنا؟ ألا تستنصر لنا؟ يوحي بما وراءه، وأنه صادر من قلوب أمضها العذاب، وأنهكها الجهد، وهدتها البلوى فهي تلتمس الفرج العاجل، وتستبطئ النصر، فتستدعيه.

وهو (ﷺ) يعلم أن الأمور مرهونة بأوقاتها، وأسبابها، وأن قبل النصر البلاء، فالرسل تبتلى ثم تكون لها العاقبة.

﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (سورة يوسف، الآية: ١١٠).

ويلمس عليه السلام من واقع أصحابه، وملابسات أحوالهم، برمهم بالعذاب الذي

(١٧٩) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي ص٩٥ .

(١٨٠) المصدر السابق نفسه ص٩٦ .

(١٨١) البخاري ، مناقب الأنصار ، باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه (٤/٢٣٨) .

يلاقون، حتى يفتنون عن دينهم، ويستعلي عليهم الكفرة، ويموت منهم من يموت تحت التعذيب.

وقد لا يكون من الميسور أن يدرك المرء - بمجرد قراءة النص - حقيقة الحال التي كانوا عليها حين طلبوا منه - عليه الصلاة والسلام - الدعاء والاستنصار، ولا أن يعرف المشاعر والإحساسات التي كانت تثور في نفوسهم إلا أن يعيش حالاً قريبًا من حالهم ويعاني - في سبيل الله - بعض ما عانوا.

لقد كان (ﷺ) يربيهم على:

أ- التأسي بالسابقين من الأنبياء والمرسلين وأتباعهم في تحمل الأذى في سبيل الله ويضرب لهم الأمثلة في ذلك.

ب- التعلق بما أعده الله في الجنة للمؤمنين الصابرين من النعيم، وعدم الاغترار بما في أيدي الكافرين من زهرة الحياة الدنيا.

ج- التطلع للمستقبل الذي ينصر الله فيه الإسلام في هذه الحياة الدنيا، ويذل فيه أهل الذل والعصيان.

وثمت أمر آخر كبير ألا وهو: أنه (ﷺ) مع هذه الأشياء كلها كان يخطط ويستفيد من الأسباب المادية المتعددة لرفع الأذى والظلم عن أتباعه، وكف المشركين عن فتنتهم، وإقامة الدولة التي تجاهد في سبيل الدين، وتتيح الفرصة لكل مسلم أن يعبد ربه حيث شاء، وتزيل الحواجز والعقبات التي تعترض طريق الدعوة إلى الله(١٨٢).

وقد تحدث خباب رضي الله عنه عن بعض ما كانوا يلقون من المشركين من عنت وسوء معاملة ومساومة على الحقوق حتى يعودوا إلى الكفر، قال: كنت قينا وكان لي على العاص ابن وائل دين، فأتيته اقتضيه، فقال لي: لن أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: لن أكفر حتى تموت وتبعث، قال: وإني لمبعوث بعد الموت؟ فإن كان ذلك فلسوف أقضيك إذا رجعت إلى مالي وولدي، فنزلت فيه: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا﴾ إلى قوله ﴿فَرْدًا﴾ (١٨٣).

وذكر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته سأل خبابًا عما لقي في ذات الله تعالى، فكشف خباب عن ظهره، فإذا هو قد برص، فقال عمر: ما رأيت كاليوم، فقال خباب: يا أمير المؤمنين لقد أوقدوا لي نارًا ثم سلقوني فيها، ثم وضع رَجُلٌ رِجلَه على صدري فما اتقيت الأرض أو قال: برد الأرض إلا بظهري وما أطفأ تلك النار إلا شحمي(١٨٤).

---

(١٨٢) انظر: الغرباء الأولون ص١٤٥ ، ١٤٦ .

(١٨٣) مسند أحمد (١١١/٥) .

(١٨٤) الروض الأنف (٩٨/٢) .

٧- عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

كـان منهج رسـول الله (ﷺ) في معاملتـه للناس حكيمًا، وكان يعامل الأكـابر وزعماء القبائل بلطف وترفق وكذلك الصبيان الصغار فهذا ابن مسعود رضي الله عنه يحدثنا عن لقائه اللطيف برسول الله (ﷺ): كنت غلامًا يافعًا أرعى غنمًا لعقبة بن أبي مُعيط فمرّ بي رسول الله (ﷺ) وأبو بكر فقال: «**يا غلام هل من لبن؟**» قلت: نعم ولكني مؤتمن، قال: «**فهل من شاة لم ينز عليها فحل؟**» فأتيته بشاة فمسح ضرعها فنزل لبن فحلبه في إناء فشرب وسقي أبا بكر، ثم قـال للضرع: «**أقـلـص**»، فقلص قال: ثم أتيتـه بعد هذا فقلت: يا رسول الله علمني من هذا القول، قال: فمسح رأسي وقال: «**يرحمك الله فإنك غُلَيِّم معلم**»(١٨٥).

وهكذا كان مفتـاح إسلامه كلمتين عظيمتين: الأولى قـالها عن نفسه: «**إني مـؤتمن**»، والثانية كانت من الصـادق المصدوق حيث قال له: «**إنك غـلام مـعلَّم**». ولقد كـان لهاتين الكلمتين دور عظيم في حياته، وأصبح فيما بعد من أعيان علماء الصحابة رضوان الله عليهم ودخل عبد الله في ركب الايمان، وهو يمخر بحـار الشرك في قلعة الأصنام، فكان واحد من أولئك السابقين الذين مدحهم الله في قرآنه العظيم(١٨٦)، قال عنه ابن حجر: (أحد السابقين الأولين، أسلم قديمًا، وهاجـر الهجرتين، وشهد بدرًا والمشـاهد بعدها، ولازم النبي (ﷺ)، وكان صاحب نعليه)(١٨٧).

● **أول من جهر بالقرآن الكريم:**

بالرغم من أنّ ابن مسعود كان حليفًا وليس له عشـيرة تحميه، ومع أنه كان ضئيل الجسم دقيق الساقين، فإن ذلك لم يَحُلْ دون ظهور شجاعته وقوة نفسه رضي الله عنه، وله مواقف رائعة في ذلك منها ذلك المشهد المثير في مكة، وإبان الدعوة وشدة وطأة قريش عليها، فلقد وقف على مَلَئهم وجهر بالقرآن، فقرع به أسماعهم المقفلة وقلوبهم المغلّفة(١٨٨)، فكـان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله (ﷺ) بمكة: اجتمع يومًا أصحاب رسول الله فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط، فمن رجل يسمعهموه؟ فقال عبد الله بن مسعود: أنا! قالوا: إنا نخشـاهم عليك، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعـونه من القوم إن أرادوه! قال: دعوني فإن الله سـيمنعني! قال: فغدا ابن مـسعود حتى أتى المقـام في الضحى، وقريش في أنديتهـا، حتى قام عند المقـام ثم قرأ: ﴿**بسم الله الـرحـمن الرحـيم**﴾ رافعًـا بها صـوته - ﴿**الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ**﴾، قال: ثم استقبلها يقرؤها، قال: فتأملوه فجعلوا يقولون: ماذا قال ابن أمِّ عـبد؟ قال: ثم قـالوا: إنه ليتلو بعض مـا جاء به محـمد! فقـاموا إليه فـجعلوا يضربونه في وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ، ثم انصرف إلى أصحابه

(١٨٥) البداية والنهاية (٣/ ٣٢)، سير أعلام النبلاء (١/ ٤٦٥).
(١٨٦) انظر: عبد الله بن مسعود، عبد الستار الشيخ ص٤٣.
(١٨٧) الإصابة (٦/ ٢١٤).
(١٨٨) انظر: عبد الله بن مسعود ص٤٥.

وقد أثَّروا في وجهه، فقالوا له: هذا الذي خشينا عليك! فقال: ما كان أعداء الله أهون علي منهم الآن، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غدًا! قالوا: لا، حسبك، قد أسمعتهم ما يكرهون(١٨٩).

وبهذا كان عبد الله بن مسعود أول من جهر بالقرآن بمكة بعد رسول الله (ﷺ)، ولا غرو أن هذا العمل الذي قام به عبد الله يعتبر تحديًا عمليًا لقريش التي ما كانت لتتحمل مثل هذا الموقف، ويلاحظ جرأة عبد الله عليهم بعد هذه التجربة على الرغم مما أصابه من أذى(١٩٠).

٨- خالد بن سعيد بن العاص رضي الله عنه:

كان إسلام خالد قديمًا، لرؤيا رآها عند أول ظهور النبي (ﷺ) إذ رأى كأنه وقف على شفير النار، وهناك من يدفعه فيها والرسول يلتزمه لئلا يقع، ففزع من نومه، معتقدًا أن هذه الرؤيا حق، فقصها على أبي بكر الصديق، فقال له: أريد بك خيرًا، هذا رسول الله (ﷺ) فاتبعه، فذهب إليه فأسلم، وأخفى إسلامه خوفًا من أبيه، لكن أباه علم لما رأى كثرة تغيبه عنه، فبعث إخوته الذين لم يكونوا قد أسلموا بعد في طلبه، فجيء به، فأنّبه وضربه بمقرعة أو عصًا كانت في يده حتى كسرها على رأسه، ثم حبسه بمكة، ومنع أخوته من الكلام معه، وحذرهم من عمله، ثم ضيق عليه الخناق فأجاعه وقطع عنه الماء ثلاثة أيام، وهو صابر محتسب، ثم قال له أبوه: والله لأمنعنك القوت، فقال خالد: إن منعتني فإن الله يرزقني ما أعيش به، وانصرف إلى رسول الله (ﷺ) فكان يكرمه، ويكون معه، ثم رأى أن يهاجر إلى الحبشة مع من هاجر إليها من المسلمين في المرة الثانية(١٩١).

٩- عثمان بن مظعون رضي الله عنه:

لما أسلم عدى عليه قومه بنو جمح فآذوه، وكان أشدهم عليه، وأكثرهم إيذاءً له أمية بن خلف، ولذلك قال بعد أن خرج إلى الحبشة يعاتبه(١٩٢).

أأخرجتني من بطن مكة آثمًا	وأسكنتني في صرح بيضاء نقذع
تريش نبالاً لا يواتيك ريشها	وتبرى نبالا ريشها لك أجمع
وحاربت أقوامًا كرامًا أعزة	وأهلكت أقوامًا بهم كنت تفزع
ستعلم إن نابتك يومًا مُلمَّة	وأسلمك الأوباش ما كانت تصنع

وبقي عثمان بن مظعون فترة في الحبشة، لكنه لم يلبث أن عاد منها ضمن من عاد من المسل

مين في المرة الأولى، ولم يستطيع أن يدخل مكة إلا بجوار من الوليد بن المغيرة حيث

(١٨٩) انظر: ابن هشام (١/ ٣١٤-٣١٥)، أسد الغابة (٣/ ٣٨٥-٣٨٦).

(١٩٠) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي ص٨٨.

(١٩١) انظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٢٦٠).

(١٩٢) السيرة النبوية للذهبي ص١١٢.

ظل يغدو في جواره آمنًا مطمئنًا، فلما رأى ما يصيب أصحاب النبي (ﷺ) من البلاء وما هو فيه من العاقبة أنكر ذلك على نفسه وقال: والله إن غدوي ورواحي آمنا بجوار رجل من أهل الشرك وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبني لنقص كبير في نفسي[١٩٣] فذهب إلى الوليد بن المغيرة وقال له: يا أبا عبد شمس وفت ذمتك، وقد رددت إليك جوارك، فقال: لم يا ابن أخي؟ فلعلك أوذيت، أو انتهكت، قال: لا، ولكني أرضى بجوار الله تعالى ولا أريد أن استجير بغيره، قال: فانطلق إلى المسجد فاردد علي جواري علانية، كما أجرتك علانية، فانطلقا إلى المسجد فرد عليه جواره أمام الناس ثم انصرف عثمان إلى مجلس من مجالس قريش فجلس معهم، وفيهم لبيد بن ربيعة [١٩٤]، الشاعر ينشدهم، فقال لبيد: (ألا كل شيء ما خلا الله باطل)، فقال عثمان: صدقت، واستمر لبيد في إنشاده فقال: (وكل نعيم لا محالة زائل)، فقال عثمان: كذبت، نعيم الجنة لا يزول، قال لبيد: يا معشر قريش، والله ما كان يؤذى جليسكم فمتى حدث هذا فيكم؟ فقال رجل من القوم: إن هذا سفيه في سفهاء معه قد فارقوا ديننا، فلا تجدن في نفسك من قوله، فرد عليه عثمان حتى شرى أمرهما، فقام إليه ذلك الرجل فلطم عينه فاخضرت، والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ من عثمان، فقال: أما والله يا ابن أخي إن عينك لغنية عما أصابها، ولقد كنت في ذمة منيعة، فقال عثمان: والله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله، وإني لفي جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس، ثم عرض عليه الوليد الجوار مرة أخرى فرفض[١٩٥].

وهذا يدل على مدى قوة إيمانه رضي الله عنه، ورغبته في الأجر، والمثوبة عند الله ولذلك لما مات رأت امرأة في المنام أن له عينًا تجري فجاءت رسول الله (ﷺ) فأخبرته، فقال: ذلك عمله[١٩٦].

وغير ذلك من الصحابة الكرام تعرض للتعذيب، وهكذا نرى أولئك الرهط من الشباب القرشي قد أقبلوا على دعوة الرسول (ﷺ) واستجابوا لها والتفوا حول صاحبها، على الرغم من مواقف آبائهم وذويهم وأقربائهم المتشددة تجاههم، فضحوا بكل ما كانوا يتمتعون به من امتيازات قبل دخولهم في الإسلام، وتعرضوا للفتنة رغبة فيما عند الله تعالى من الأجر والثواب، وتحملوا أذىً كثيرًا، وهذا فعل الإيمان في النفوس عندما يخالطها فتستهين بكل ما يصيبها من عنت وحرمان إذا كان ذلك يؤدي إلى الفوز برضا الله تعالى وجنته.

هذا ولم يكن التعذيب والأذى مقصورًا على رجال المسلمين دون نسائهم، وإنما طال النساء أيضًا قسط كبير من الأذى والعنت بسبب إسلامهنّ، كسمية بن خياط، وفاطمة بنت

---

(١٩٣) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٢٠) .

(١٩٤) انظر: طبقات الشعراء لابن سلاّم ص٤٨-٤٩ .

(١٩٥) السير والمغازي لابن اسحاق ص١٧٨-١٨٠ .

(١٩٦) صحيح البخاري (٤/٢٦٥) .

الخطاب، ولبيبة جارية بني المؤمل، وزنيرة الرومية، والنهدية وابنتها، وأم عُبيس، وحمامة أم بلال وغيرهن(١٩٧).

خامسًا: حكمة الكف عن القتال في مكة واهتمام النبي (ﷺ) بالبناء الداخلي:

كان المسلمون يرغبون في الدفاع عن أنفسهم ويبدو أن الموقف السلمي أغاظ بعضهم وخاصة الشباب منهم، وقد أتى عبد الرحمن بن عوف وأصحابه إلى النبي (ﷺ) بمكة فقالوا: يا نبي الله كنا في عزة ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة قال: «**إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم**»(١٩٨) وتعرّض بعض الباحثين للحكمة الربانية في عدم فرضية القتال في مكة ومن هؤلاء الأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى فقد قال: لا نجزم بما نتوصل إليه، لأننا حينئذ نتألى على الله ما لم يبين لنا من حكمة، ونفرض أسبابًا وعللاً قد لا تكون هي الأسباب والعلل الحقيقية، أو قد تكون.

ذلك أن شأن المؤمن أمام أي تكليف، أو أي حكم من أحكام الشريعة هو التسليم المطلق لأن الله سبحانه هو العليم الخبير، وإنما نقول هذه الحكمة والأسباب من باب الاجتهاد وعلى أنه مجرد احتمال لأنه لا يعلم الحقيقة إلا الله، ولم يحددها هو لنا ويطلعنا عليها بنص صريح(١٩٩) ومن هذه الأسباب والحكم والعلل بإيجاز:

١- أن الكف عن القتال في مكة ربما لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد، في بيئة معينة، لقوم معينين، وسط ظروف معينة، ومن أهداف التربية في مثل هذه البيئة: تربية الفرد العربي على الصبر على ما لا يصبر عليه عادة من الظلم حين يقع عليه أو على من يلوذون به: ليخلص من شخصه، ويتجرد من ذاته، فلا يندفع لأول مؤثر، ولا يهتاج لأول مهيج ومن ثم يتم الاعتدال في طبيعته وحركته. ثم تربيته على أن يتبع نظام المجتمع الجديد بأوامر القيادة الجديدة، حيث لا يتصرف إلا وفق ما تأمره -مهما يكن مخالفًا لمألوفه وعادته- وقد كان هذا هو حجر الأساس في إعداد شخصية العربي المسلم لإنشاء (المجتمع المسلم).

٢- وربما كان ذلك أيضًا لأن الدعوة السلمية أشد أثرًا وأنفذ في مثل بيئة قريش ذات العنجهية والشرف، والتي قد يدفعها القتال معها - في مثل هذه الفترة- إلى زيادة العناد ونشأة ثارات دموية جديدة كثارات العرب المعروفة أمثال داحس والغبراء وحرب البسوس، وحينئذ يتحول الإسلام من دعوة إلى ثارات تنسى معها فكرته الأساسية.

٣- وربما كان ذلك أيضًا اجتنابًا لإنشاء معركة ومقتلة داخل كل بيت، فلم تكن هناك سلطة نظامية عامة هي التي تعذب المؤمنين، وإنما كان ذلك موكولاً إلى أولياء كل فرد، ومعنى الإذن بالقتال - في مثل هذه البيئة- أن تقع معركة ومقتلة في كل بيت ثم يقال: هذا هو الإسلام!! ولقد قيلت حتى والإسلام يأمر بالكف عن القتال! فقد كانت دعاية قريش في

(١٩٧) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي ص١١٦ ، ١١٧ .
(١٩٨) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/١٥٨) .
(١٩٩) الظلال (٢/ ٧١٤) .

المواسم، إن محمدًا يفرق بين الوالد وولده فوق تفريقه لقومه وعشيرته؛ فكيف لو كان كذلك يأمر الولد بقتل الوالد، والمولى بقتل الولي؟

٤- وربما كان ذلك أيضًا لما يعلمه الله من أن كثيرًا من المعاندين الذين يفتنون المسلمين عن دينهم ويعذبونهم هم بأنفسهم سيكونون من جند الإسلام المخلص، بل من قادته، ألم يكن عمر بن الخطاب من بين هؤلاء؟

٥- وربما كان ذلك أيضًا؛ لأن النخوة العربية في بيئة قبلية من عادتها أن تثور للمظلوم الذي يحتمل الأذى، ولا يتراجع، وبخاصة إذا كان الأذى واقعًا على كرام الناس فيهم؛ وقد وقعت ظواهر كثيرة تثبت صحة هذه النظرة في هذه البيئة؛ فابن الدغنة [(٢٠٠)] لم يرض أن يترك أبا بكر -وهو رجل كريم- يهاجر ويخرج من مكة، ورأى في ذلك عارًا على العرب! وعرض عليه جواره وحمايته، وآخر هذه الظواهر نقض صحيفة الحصار لبني هاشم في شعب أبي طالب.

٦- وربما كان ذلك أيضًا لقلة عدد المسلمين حينئذ وانحصارهم في مكة حيث لم تبلغ الدعوة إلى بقية الجزيرة، أو بلغت ولكن بصورة متناثرة، حيث كانت القبائل تقف على الحياد من معركة داخلية بين قريش وبعض أبنائها، لترى ماذا يكون مصير الموقف؟ ففي مثل هذه الحالة قد تنتهي المعركة المحدودة إلى قتل المجموعة المسلمة القليلة -حتى ولو قتلوا هم أضعاف من سيقتل منهم- ويبقى الشرك، ولا يقوم للإسلام في الأرض نظام، ولا يوجد له كيان واقعي، وهو دين جاء ليكون منهج حياة ونظام دنيا وآخرة.

٧- إنه لم تكن هناك ضرورة قاهرة ملحة، لتجاوز هذه الاعتبارات كلها، والأمر بالقتال، ودفع الأذى، لأن الأمر الأساسي في هذه الدعوة كان قائمًا ومحققًا وهو (وجود الدعوة) ووجودها في شخص الداعية محمد (ﷺ)، وشخصه في حماية سيوف بني هاشم، فلا تمتد إليه يد إلا وهي مهددة بالقطع؛ ولذلك لا يجرؤ أحد على منعه من إبلاغ الدعوة وإعلانها في ندوات قريش حول الكعبة، ومن فوق جبل الصفا، وفي الاجتماعات العامة، ولا يجرؤ أحد على سجنه أو قتله، أو أن يفرض عليه كلامًا بعينه يقوله.

إن هذه الاعتبارات كلها -فيما نحسب- كانت بعض ما اقتضت حكمة الله -معه- أن يأمر المسلمين بكف أيديهم وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، لتتم تربيتهم، وإعدادهم، وليقف المسلمون في انتظار أمر القيادة، في الوقت المناسب، وليخرجوا أنفسهم من المسألة كلها، فلا يكون لذواتهم فيها حظ؛ لتكون خالصة وفي سبيل الله[(٢٠١)].

---

(٢٠٠) ابن الدغنة: رجل جاهلي أجار أبا بكر عندما أخرجه قومه وأراد الهجرة إلى الحبشة. انظر: الإصابة (٢/ ٣٤٤).

(٢٠١) الولاء والبراء، محمد القحطاني، لخص نقاط من الظلال ص١٦٩، ١٧٠، ١٧١. وفي ظلال القرآن (٢/ ٧١٤، ٧١٥). وفي معالم في الطريق ص٦٩-٧١).

وقد تعلّم الصحابة من القرآن الكريم فقه المصالح والمفاسد وكيفية التعامل مع هذا الفقه من خلال الواقع قال تعالى: ﴿وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (سورة الأنعام، الآية: ١٠٨).

وهكذا تعلم الصحابة رضي الله عنهم أن المصلحة إن أدت إلى مفسدة أعظم تترك(٢٠٢)، وفي هذا تهذيب أخلاقي، وسمو إيماني، وترفع عن مجاراة السفهاء الذين يجهلون الحقائق، وتخلو أفئدتهم من معرفة الله وتقديسه، وقد ذكر العلماء بأن الحكم باق في الأمة على كل حال، فمتى كان الكافر في منعة وغير خاضع لسلطان الإسلام والمسلمين، وخيف أن يسب الإسلام أو النبي (ﷺ) أو الله عز وجل، فلا يحل لمسلم أن يسب صلبانهم ولا دينهم ولا كنائسهم، ولا يتعرض إلى ما يؤدي إلى ذلك؛ لأنه فعل بمنزلة التحريض على المعصية، وهذا نوع من الموادعة، ودليل على وجوب الحكم بسد الذرائع(٢٠٣).

والناظر في الفترة المكية والتي كانت ثلاثة عشر عامًا كلها في تربية وإعداد وغرس لمفاهيم لا إله إلا الله يدرك ما لأهمية هذه العقيدة من شأن في عدم الاستعجال واستباق الزمن، فالعقيدة بحاجة إلى غرس يتعهد بالرعاية والعناية والمداومة بحيث لا يكون للعجلة والفوضى فيها نصيب وما أجدر الدعاة إلى الله أن يقفوا أمام تربية المصطفى (ﷺ) لأصحابه على هذه العقيدة وقفة طويلة، فيأخذوا منها العبرة والأسوة، لأنه لا يقف في وجه الجاهلية أيا كانت قديمة أو حديثة أم مستقبلة إلا رجال اختلطت قلوبهم ببشاشة العقيدة الربانية، وتعمقت جذور شجرة التوحيد في نفوسهم(٢٠٤).

كان رسول الله (ﷺ) قد أمر أصحابه بضبط النفس والتحلي بالصبر، وكان يربي أصحابه على عينه ويوجههم نحو توثيق الصلة بالله، والتقرب إليه بالعبادة، وقد نزلت الآيات في المرحلة المكية: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ (سورة المزمل، الآيات: ١-٤)، فقد أرشدت سورة المزمل الصحابة إلى حاجة الدعاة إلى قيام الليل، والدوام على الذكر، والتوكل على الله في جميع الأمور، وضرورة الصبر، ومع الصبر الهجر الجميل، والاستغفار بعد الأعمال الصالحة.

كانت الآيات الأولى من سورة المزمل تأمر النبي (ﷺ) أن يخصص شطرًا من الليل للصلاة، وقد خيره الله تعالى أن يقوم للصلاة نصف الليل أو يزيد عليه أو ينقص منه، فقام النبي (ﷺ) وأصحابه معه قريبًا من عام حتى ورمت أقدامهم فنزل التخفيف عنهم بعد أن علم الله منهم اجتهادهم في طلب رضاه، وتشميرهم لتنفيذ أمره ومبتغاه، فرحمهم ربهم

---

(٢٠٢) انظر: تفسير المنير للزحيلي (٧/ ٣٢٥).
(٢٠٣) المصدر السابق نفسه (٧/ ٣٢٦).
(٢٠٤) انظر: الولاء والبراء ص١٧١.

فخفف عنهم فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة المزمل، الآية ٢٠).

كان امتحانهم في الفرش ومقاومة النوم ومألوفات النفس لتربيتهم على المجاهدة، وتحريرهم من الخضوع لأهواء النفس، تمهيدًا لحمل زمام القيادة والتوجيه في عالمهم، إذ لا بد من إعداد روحي عال لهم، وقد اختارهم الله لحمل رسالته، وائتمنهم على دعوته، واتخذ منهم شهداء على النّاس، فالعشرات من المؤمنين في هذه المرحلة التاريخية كانت أمامهم المهمات العظيمة في دعوة الناس إلى التوحيد، وتخليصهم من الشرك، وهي مهمة عظيمة يقدر على تنفيذها أولئك الذين ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ وقد وصفالله قيام الليل والصلاة فيه وقراءة القرآن ترتيلاً - أي مع البيان والتؤده - بأنه: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْءًا وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ فهو أثبت أثرًا في النفس مع سكون الليل وهدأة الخلق، حيث تخلو من شواغلها وتفرغ للذكر والمناجاة بعيدًا عن علائق الدنيا وشواغل النهار وبذلك يتحقق الاستعداد اللازم لتلقي الوحي الإلهي ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ والقول الثقيل هو القرآن الكريم، وقد ظهر أثر هذا الإعداد الدقيق للمسلمين الأوائل في قدرتهم على تحمل أعباء الجهاد وإنشاء الدولة بالمدينة وفي إخلاصهم العميق للإسلام وتضحيتهم من أجل إقامته في دنيا الناس ونشره بين العالمين[٢٠٥].

لقد كان النبي (ﷺ) مهتمًا بجبهته الداخلية وحريصًا على تعبئة أصحابه بالعقيدة القوية التي لا تتزعزع ولا تلين، وكان هذا مبعثًا لروح معنوية مرتفعة وقوية للدفاع وتحمل العذاب والأذى في سبيل الدعوة، وأصبحت الجماعة الأولى وحدة متماسكة لا تؤثر فيها حملات العدو النفسية، ولا تجد لها مكانًا في هذه الجماعة عن طريق المآخاة بين المسلمين فقد أصبحت رابطة الأخوة في الله تزيد على رابطة الدم والنسب وتفضلها في الدين الإسلامي، وتعايش الرعيل الأول بمعاني الأخوة الرفيعة القائمة على الحب والمودة والإيثار، وكانت أحاديث رسول الله (ﷺ) تفعل فعلها في نفوس الصحابة، فكان (ﷺ) يحث المسلمين على الأخوة والترابط والتعاون وتفريج الكرب لا لشيء إلا لرضى الله سبحانه لا نظير خدمة مقابلة أو نحو ذلك، وإنما يفعل المسلم ذلك ابتغاء وجه الله وحده، وهذه المبادئ هي سر استمرار الأخوة الإسلامية وتماسك المجتمع الإسلامي[٢٠٦] وبين لهم الرسول (ﷺ) في الحديث القدسي الذي يرويه عن ربه سبحانه وتعالى: «**المتحابون في جلالي، لهم منابر من**

---

(٢٠٥) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ١٦٠).

(٢٠٦) انظر: الحرب النفسية ضد الإسلام، د. عبد الوهاب كحيل ص١٢٨.

نور يغبطهم النبيون والشهداء»[٢٠٧].

وهكذا أصبحت الأخوة الصادقة من مقاييس الأعمال، وأصبحت المحبة فيالله من أفضل الأعمال، ولها أفضل الدرجات عند الله، وحذر الرسول (ﷺ) المسلمين من أن تهون عليهم هذه الرابطة، ووضع لهم أساس الحفاظ عليها فقال لهم: «**لا تحاسدوا ولا تدابروا، ولا تقاطعوا، وكونوا عباد الله إخوانًا**»[٢٠٨].

واستعان النبي (ﷺ) في ربط المجتمع الداخلي وتوحيد جبهته لتكون قوية في مواجهة الحرب النفسية الموجهة ضدها بالمساواة بين أفراد هذه الجبهة وإعطائهم الحرية، فهم لا يدخلون إلى هذا المجتمع إلا بالحرية، ثم كانت لهم في داخله حرية الرأي وحرية التعبير والمشورة، أتى محمد (ﷺ) بمبدأ المساواة بين جميع الناس، الحاكم والمحكوم والغني والفقير، وبين جميع الطبقات، وقد كان لهذا المبدأ العظيم، أكبر الأثر في نفوس أتباع النبي (ﷺ) وجعلهم يتحابون ويتماسكون ويفتدون بأرواحهم، ويدافعون عنه بكل ما أوتوا من قوة وعزيمة ،فهو (ﷺ) لم يقر تفاوتا بين البشر بسبب مولد أو أصل أو حسب أو نسب أو وراثة، أو لون، والاختلاف في الأنساب والأجناس والألوان، لا يؤدي إلى الاختلاف في الحقوق والواجبات أو العبادات، فالكل أمام الله سواسية، وعندما طلب أشراف مكة من رسول الله (ﷺ) أن يجعل لهم مجلسًا غير مجلس العبيد والضعفاء حتى لا يضمهم وإياهم مجلس واحد، بين الرسول (ﷺ) أن جميع الناس متساوون في تلقي الوحي والهداية، ورفض كفار مكة وساداتها في ذلك الوقت أن يجلسوا مع العبيد ومن يعتبرونهم ضعفاء أذلاء من أتباع محمد (ﷺ) فنزل القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا * وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا**﴾ (سورة الكهف، الآيتان: ٢٨-٢٩) بل إن النبي (ﷺ) لما أعرض عن ابن أم مكتوم الأعمى، منشغلاً بمحاورة بعض الأشراف، عاتبه الله أشد العتاب.

وكان من أكبر أساليب النبي (ﷺ) في ربطه المجتمع الإسلامي وتوحيده، وتقويته للجبهة الداخلية وجعلها قوية البنيان متماسكة، ما دعا إليه (ﷺ) من التكافل المادي والمعنوي بين المسلمين، ليعين منهم القوي الضعيف، وليعطف الغني على الفقير، ولم يترك (ﷺ) ثغرة واحدة تنفذ منها الحرب النفسية إلى هذا الصف الإسلامي الأول وأصبحت الجماعة الأولى صخرة عظيمة تحطمت عليها كل الجهود والخطط التي بذلها زعماء مكة للقضاء على الدعوة[٢٠٩].

---

(٢٠٧) أخرجه الترمذي وصححه ، كتاب الزهد (٤/ ٥١٥) رقم ٢٣٩٠ .

(٢٠٨) البخاري ، كتاب الأدب رقم ٦٠٧٦ (٧/ ١١٩) .

(٢٠٩) انظر: الحرب النفسية ضد الإسلام ص١٢٥ إلى ١٤٠ .

سادسًا: أثر القرآن الكريم في رفع معنويات الصحابة:

كان للقرآن الكريم أثر عظيم في شد أزر المؤمنين من جانب وتوعده الكفار بالعذاب من جانب آخر، مما كان له وقع القنابل على نفوسهم، وقد كان دفاع القرآن الكريم عن الصحابة يتمثل في نقطتين: الأولى حث الرسول (ﷺ) على رعايتهم وحسن مجالستهم واستقبالهم ومعاتبته على بعض المواقف التي ترك فيها بعض الصحابة، لانشغاله بأمر الدعوة أيضًا.

الثانية: التخفيف عن الصحابة بضرب الأمثلة والقصص لهم من الأمم السابقة، وأنبيائها، وكيف لاقوا من قومهم الأذى والعذاب، ليصبروا ويستخفوا بما يلاقون، وأيضًا بمدح بعض تصرفاتهم، ثم بوعدهم بالثواب والنعيم المقيم في الجنة، وكذلك بالتنديد بأعدائهم الذين كانوا يذيقونهم الألم والأذى[٢١٠].

أما النقطة الأولى: حينما كان النبي (ﷺ) يجلس في المسجد مع المستضعفين من أصحابه: خباب وعمار، وابن فكيهة يسار مولى صفوان بن أمية وصهيب وأشباههم، فكانت قريش تهزأ بهم، وقال الكفار بعضهم لبعض: هؤلاء أصحابه كما ترون، ثم يقولون: أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا بالهدى والحق، لو كان ما جاء به محمد خيرًا ما سبقنا هؤلاء إليه، وما خصهم الله به دوننا[٢١١].

ورد الله سبحانه وتعالى على استهزاء هؤلاء الكفار مبينًا لهم أن رضي الله لبعض عباده، لا يتوقف على منزلته ولا مكانته بين الناس في الدينا، كما يؤكد لرسوله (ﷺ) هذا المفهوم، حتى لايتأثر بما يقوله الكفار، من محاولات الانتقاص من شأن هؤلاء الصحابة، ومبينًا له أيضًا مكانتهم فيقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ * وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُواْ أَهَؤُلاء مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ * وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة الأنعام، الآيات: ٥٢-٥٤).

وهكذا بين الله لرسوله شأن هؤلاء الصحابة، وقيمتهم ومنزلتهم التي يجهلها أو يتجاهلها الكفار، ويحاولون أن ينالوا منها، بل ويزيد الله على ذلك أن ينهى الرسول عن طردهم، كما يأمره بحسن تحيتهم، ويأمره أيضًا أن يبشرهم بأن الله سبحانه، قد توعد بمغفرة ذنوبهم بعد توبتهم.

كيف تكون الروح المعنوية لهؤلاء؟ كيف يجدون الأذى من الكفار بعد ذلك؟ إنهم يفرحون بهذا الأذى الذي وصلوا بسببه إلى هذه المنازل العظيمة[٢١٢].

---

(٢١٠) انظر: الحرب النفسية ضد الإسلام ص٢٦٩.
(٢١١) نفس المصدر ص٢٧٠، ٢٧١.
(٢١٢) انظر: الحرب النفسية ضد الإسلام ص٢٧٠، ٢٧١.

ثم نرى عتـاب الله لرسوله (ﷺ) في آيات تتلى إلى يوم القيامـة، وكان هذا العتاب في شأن رجل فقير أعمى من الصحابة، أعرض عنه الرسول (ﷺ) مرة واحدة، ولم يجبه على سؤاله لانشغاله بدعوة بعض أشراف مكة(٢١٣).

فنزل قول الله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَن جَاءهُ الأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى * وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ (سورة عبس، الآيات: ١ - ١٠).

إنه لا مجال للامتيازات في دعـوة الحق بسبب الحسب والنسب أو المال والجاه، فهي إنما جاءت لتأصيل النظرة إلى الإنسان وبيان وحدة الأصل ومـا تقتضيه من المساواة والتكافؤ، من هنا يمكن تعليل شـدة أسلوب العتاب الذي وجـهه الله تعالى لرسـوله للاهتمام الكبـير الذي أظهره لأبي بن خلف على حساب استقـباله لابن أم مكتوم الضعيف رضي الله عنه، فابن أم مكتوم يرجح في ميزان الحق على البلايين من أمثال أبي بن خلف(٢١٤) لعنه الله.

وكانت لـهذه القصـة دروس وعبـر استـفاد منها الـرعيل الأول، ومن جاء بعـدهم من المسلمين: ومن أهم هذه الدروس الإقبـال على المؤمنين: على الدعـاة البلاغ وليس عليـهم الهداية، في قـصة الأعمى دليل على نبوة مـحمد (ﷺ)، فلو لم يكن نبـينا محـمد (ﷺ) رسول الله لكتم هذه الحادثة، ولم يخبر الناس بهـا لما فيها من عتاب له (ﷺ) ولو كان كاتمًا شيئًا من الوحي لكتم هذه الآيـات، وآيات قصة زيد وزينب بنت جحش(٢١٥)، على الدعـاة تقديم أهل الخير والإيمان(٢١٦).

أما النقطة الثـانية في دفاع القـرآن الكريم عن الصحابة: فقـد كانت بالتخـفيف عنهم، وكانت أهم وسائل التخفيف بإظهار أن هذا الأذى الذي يلقونه لم يكن فريدًا من نوعه، وإنما حدث قـبل ذلك مثله وأشد منه، كـانت القصص التي تتـحدث عن حيـاة الرسل في القرآن الكريم من لدن نوح وإبراهيم ومـوسى وعيـسى عليـهم السلام، تثـبيـتًا للمـسلمين ولروح التضـحية والصبـر فيهم من أجل الدين، وبينت لهم القـدوة الحسنة التي كانت في العـصور القديمة من أنجح الوسائل في ميـادين الإعلام والتربية والتعليم والعلاقات العـامة، فالقصص القرآني يحوي الكثير من العبر والحكم والأمثال.

كان أيضًا من أساليب القرآن في تخفيـفه عن الصحابة والدفاع عنهم أسلوبه في مدحهم ومدح أعـمالهم في القـرآن الكريم يقرأها الناس إلى أن يرث الله الأرض ومن عليـها، كـما حدث مع الصديق لما أعتق سبع رقاب من الصـحابة لينقذهم من الأذى والتعذيب، في نفس الوقت الذي يندد فيه بأمـية بن خلف الذي كان يعذب بلال بن أبي رباح، فالقـرآن بدستوره

---

(٢١٣) نفس المصدر ص٢٧١ .

(٢١٤) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/١٦٧) مع تصرف في العدد بدل مائة بلايين .

(٢١٥) تفسير ابن عطية (١٥/٣١٦)؛ القاسمي (١٧/٥٤) .

(٢١٦) انظر: المستفاد من قصص القرآن ، عبد الكريم زيدان (٢/٨٩) .

الأخلاقي قد قدم قواعد الثواب والعقاب وشجع المؤمنين وحذر المخالفين، وحمل هذا التحديد مغزى عميقًا، فقد أنار الطريق للصحابة، وكان غمّة وكربًا على نفوس الكفار المترددين، إذ جاء قول الله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى * لا يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى * وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى * إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ (سورة الليل، الآيات: ١٤-٢١).

وكذلك خلّد القرآن ثبات وفد نصارى نجران على الإسلام رغم استهزاء الكفار ومحاولاتهم لصدهم عن الإسلام، لذا نزلت فيهم بعض الآيات كما يذكر بعض المؤرخين[٢١٧]، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ (سورة القصص، الآيات: ٥٢-٥٥).

وكانت الآيات بعد ذلك تبشر الصحابة بالثواب العظيم وبالنعيم المقيم في الجنة، جزاءً بما صبروا وما تحملوا من الأذى، وتشجيعًا لهم على الاستمرار في طريق الدعوة غير مبالين بما يسمعونه وما يلاقونه، فالنصر والغلبة لهم في النهاية كما بين لهم النبي (ﷺ) في أحاديثه، وكما بين لهم القرآن، كما بين القرآن الكريم في نفس الوقت مصير أعدائهم كفار مكة قال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ * يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ (سورة غافر، الآيتان: ٥١-٥٢).

وبين فضل تمسكهم بالقرآن وإيمانهم به قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (سورة فاطر، الآيتان: ٢٩-٣٠).

وبين سبحانه فضل التمسك بعبادته رغم الأذى والتعذيب، وبين جزاء الصبر على ذلك قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ * قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (سورة الزمر، الآيتان: ٩-١٠).

وهكذا كان القرآن الكريم يخفف عن الصحابة ويدافع عنهم، ويحضهم ضد الحرب النفسية، وبذلك لم تؤثر تلك الحملات ووسائل التعذيب على قلوب الصحابة بفضل المنهج القرآني، والأساليب النبوية الحكيمة، لقد تحطمت كل أساليب المشركين في محاربة الرسول (ﷺ) وأصحابه أمام العقيدة الصحيحة والمنهج السليم الذي تشربه الرعيل الأول.

---

(٢١٧) انظر: السيرة النبوية لابن كثير (٢/ ٤).

سابعًا: أسلوب المفاوضات:

اجتمع المشركون يومًا، فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر، فليأت هذا الرجل الذي فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وعاب ديننا، فليكلمه، ولينظر ماذا يرد عليه؟ فقالوا: ما نعلم أحدًا غير عتبة بن ربيعة، فقالوا: أنت يا أبا الوليد، فأتاه عتبة فقال: يا محمد أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله (ﷺ). قال: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم، فتكلم، حتى نسمع قولك. إنا والله ما رأينا سخلة قد أشأم على قومك منك، فرّقت جماعتنا، وشتت أمرنا، وعبت ديننا، وفضحتنا في العرب حتى لقد طار فيهم، أن في قريش ساحرًا، وأن في قريش كاهنًا، والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى، أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى.

أيها الرجل: إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك من أموالنا، حتى تكون أغنى قريش رجلاً، وإن كان إنما بك الباه فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوجك عشرًا، فقال رسول الله (ﷺ): (فرغت؟) قال: نعم! فقال رسول الله ﴿حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ إلى أن بلغ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ فقال عتبة: حسبك! ما عندك غير هذا؟ قال: (لا) فرجع إلى قريش فقالوا: ما وراءك؟ قال: ما تركت شيئًا أرى أنكم تكلمونه إلا كلمته، قالوا: فهل أجابك؟ فقال: نعم[٢١٨] وفي رواية ابن إسحاق: فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة .. يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوا، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه. قال: هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم[٢١٩].

دروس وعبر وفوائد:

أ- لم يدخل الرسول (ﷺ) في معركة جانبية حول أفضليته على أبيه وجده أو أفضليتهما عليه، ولو فعل ذلك لقضي الأمر دون أن يسمع عتبة شيئًا.

ب- لم يخض (ﷺ) معركة جانبية حول العروض المغرية، وغضبه الشخصي لهذا الاتهام، إنما ترك ذلك كله لهدف أبعد، وترك عتبة يعرض كل ما عنده، وبلغ من أدبه (ﷺ) أن قال: أفرغت يا أبا الوليد؟ فقال: نعم[٢٢٠].

ج- كان جواب رسول الله (ﷺ) حاسمًا، إن اختياره لهذه الآيات لدليل على حكمته،

(٢١٨) البداية والنهاية لابن كثير (٣/٦٨، ٦٩).

(٢١٩) السيرة النبوية لابن هشام (١/٢٩٤).

(٢٢٠) انظر: التحالف السياسي في الإسلام، منير الغضبان ص٣٣.

وقد تناولت الآيات الكريمة قضايا رئيسية كان منها: إن هذا القرآن تنزيل من الله، بيان موقف الكافرين وإعراضهم، بيان مهمة الرسول وأنه بشر، بيان أن الخالق واحد هو الله وأنه خالق السماوات والأرض، بيان تكذيب الأمم السابقة وما أصابها، وإنذار قريش صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود[٢٢١].

د- خطورة المال، والجاه، والنساء على الدعاة، فكم سقط من الدعاة على الطريق تحت بريق المال، وكم عرضت الآلاف من الأموال على الدعاة ليكفوا عن دعوتهم، والذين ثبتوا أمام إغراء المال هم المقتدون بالنبي (ﷺ)، وخطورة الجاه واضحة لأن الشيطان في هذا المجال يزين ويغوي بطرق أكبر وأمكر وأفجر، والداعية الرباني هو الذي يتأسى برسول الله (ﷺ) في حركته وأقواله وأفعاله ولا ينسى الهدف الذي عاش له ويموت من أجله **﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾** (سورة الأنعام، الآيتان: ١٦٢-١٦٣) وأما النساء فقد قال (ﷺ): **«ما تركت فتنة على أمتي أضر على الرجال من النساء»**[٢٢٢] سواء كانت زوجة تثبط الهمة عن الدعوة والجهاد، أو تسليط بعض الفاجرات عليه ليسقطنه في شباكهن، أو في تهيئة أجواء البغي والإثم والمجون ليرتادها بعد خطوة، أيًا كانت فإنها فتنة عظيمة في الدين، فها هي قريش تعرض على رسول الله (ﷺ) نسائها، يختار عشرًا منها، أجملهن وأحسنهن يكن زوجات له إن كان عاجزًا عن الزواج من أكثر من واحدة، إن خطر المرأة حين لا تستقيم على منهج الله أشد من خطر السيف المصلت على الرقاب[٢٢٣]، فعلى الدعاة أن يقتدوا بسيد الخلق ويتذكروا دائمًا قول يوسف عليه السلام: **﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ * فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾** (سورة يوسف، الآيتان: ٣٣-٣٤).

هـ- تأثر عتبة من موقف النبي (ﷺ) وكان هذا التأثير واضحًا لدرجة أن أصحابه أقسموا على ذلك التأثير قبل أن يخبرهم، فبعد أن كان العدو ينوي القضاء على الدعوة، إذا به يدعو لعكس ذلك، فيطلب من قريش أن تخلي بين محمد (ﷺ) وما يريد[٢٢٤].

و- استمع الصحابة لما حدث بين النبي (ﷺ) وبين عتبة، وكيف رفض حبيبهم (ﷺ) كل عروضه المغرية، فكان ذلك درسًا تربويًا خالط أحشاءهم، تعلموا منه الثبات على المبدأ، والتمسك بالعقيدة، ووضع المغريات تحت أقدام الدعاة.

ز- تعلم الصحابة من الرسول الكريم (ﷺ) الحلم ورحابة الصدر فقد استمع (ﷺ) إلى ترهات عتبة بن ربيعة ونيله منه وقوله عنه: (إن في قريش ساحرًا) و (إن في قريش كاهنًا)،

(٢٢١) انظر: معين السيرة للشامي ص٧٥ ,

(٢٢٢) صحيح الجامع الصغير (١٣٨/٥) .

(٢٢٣) انظر: فقه السيرة النبوية للغضبان ص١٦٩ .

(٢٢٤) انظر: في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر ص٨٧ .

(ما رأينا سخلة أشأم على قومك منك) و (إن كان بك ريئا من الجن)، فقد أعرض عنه (ﷺ) وأغض عن هذا السباب بحيث لايصرفه ذلك عن دعوته وتبليغه إياها لسيد بني عبد شمس فقد كانت كل كلمة تصدر من سيد الخلق (ﷺ) مبدأ يحتذى، وكل تصرف دينا يتبع، وكل إغضاء خلقًا يتأسى به(٢٢٥).

وذكرت بعض كتب السيرة بأن قيادات مكة دخلوا في مفاوضات بعد ذلك مع رسول الله (ﷺ) وعرضوا عليه إغراءات تلين أمامها القلوب البشرية ممن أراد الدنيا وطمع في مغانمها، إلا أن رسول الله (ﷺ) اتخذ موقفًا حاسمًا في وجه الباطل دون مراوغة أو مداهنة أو دخول في دهاء سياسي أو محاولة وجود رابطة استعطاف أو استلطاف مع زعماء قريش(٢٢٦)، لأن قضية العقيدة تقوم على الوضوح والصراحة والبيان بعيدة عن المداهنة والتنازل ولذلك رد رسول الله (ﷺ) :**«ما بي ما تقولون ،ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليّ كتابًا وأمرني أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا، فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم من الدنيا والآخرة، وإن تردوا عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم»**(٢٢٧).

بهذا الموقف الإيماني الثابت رجع كيدهم في نحورهم، وثبتت قضية من أخطر قضايا العقيدة الإسلامية وهي خلوص العقيدة من أي شائبة غريبة عنها سواء في جوهرها أو في الوسيلة الموصلة إليها(٢٢٨).

لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ

ولما رأى المشركون صلابة المسلمين واستعلاءهم بدينهم ورفعة نفوسهم فوق كل باطل ولما بدأت خطوط اليأس في نفوسهم من أن المسلمين يستحيل رجوعهم عن دينهم سلكوا مهزلة أخرى من مهازلهم الدالة على طيش أحلامهم ورعونتهم الحمقاء، فأرسلوا إلى النبي (ﷺ) الأسود بن عبد المطلب والوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، فقالوا: يا محمد، هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد، كنا قد أخذنا بحظنا منه، وان كان ما نعبد خيرًا مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه)(٢٢٩)، فأنزل الله فيهم: **﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ *وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ* لَكُمْ دِينُكُمْ**

(٢٢٥) انظر: التربية القيادية (١/ ٣٠٤) .
(٢٢٦) انظر: الوفود في العهد المكي ، لعلي الأسطل ص٣٧ .
(٢٢٧) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٩٧) ، التربية القيادية (١/ ٣٠٥) .
(٢٢٨) تاريخ صدر الإسلام ، عبد الرحمن الشجاع ص٣٩ .
(٢٢٩) ابن هشام (١/ ٣٦٢) .

وَلِيَ دِينِ ﴾ (سورة الكافرون، الآيات: ١-٦).

ومثل هذه السورة آيات أخرى تشابهها في إعلان البراء من الكفر وأهله مثل قوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (سورة يونس، الآية: ٤١).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ * قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾ (سورة الأنعام، الآيتان: ٥٦-٥٧).

ولقد بينت سورة الكافرون بأن طريق الحق واحد لا عوج فيه، ولا فجاج له، إنها العبادة الخالصة لله وحده رب العالمين، فنزلت هذه السورة على الرسول (ﷺ) للمفاصلة الحاسمة بين عبادة وعبادة، ومنهج ومنهج، وتصور وتصور، وطريق وطريق، نعم نزلت نفيًا بعد نفي وجزمًا بعد جزم، وتوكيدًا بعد توكيد، بأنه لا لقاء بين الحق والباطل، ولا اجتماع بين النور والظلام، فالاختلاف جوهري كامل يستحيل معه اللقاء على شيء في منتصف الطريق، والأمر لا يحتاج إلى مداهنة أو مرواغة. نعم فالامر هنا ليس مصلحة ذاتية، ولا رغبة عابرة، ولا سم في عسل، وليس الدين لله والوطن للجميع كما تزعم الجاهلية المعاصرة، ويدّعي المنافقون، والمستغربون الذين يتبعون الضالين والمغضوب عليهم، والملحدين أعداء الله سبحانه في كل مكان، كان الرد حاسمًا على زعماء قريش المشركين، ولا مساومة، ولا مشابهة، ولا حلول وسط، ولا ترضيات شخصية؛ فإن الجاهلية جاهلية والإسلام إسلام، في كل زمان ومكان، والفارق بينهم بعيد كالفرق بين التبر والتراب، والسبيل الوحيد هو الخروج عن الجاهلية بجملتها إلى الإسلام بجملته عبادة وحكمًا، وإلا فهي البراءة التامة والمفاصلة الكاملة والحسم الصريح بين الحق والباطل في كل زمان [٢٣٠].

وجاء وفد آخر بعد فشل الوفد السابق، يتكون من عبد الله بن أبي أمية، والوليد بن المغيرة، ومكرز بن حفص، وعمرو بن عبد الله بن أبي قيس، والعاص بن عامر [٢٣١]، جاء ليقدم عرضًا آخر للتنازل عن بعض ما في القرآن، فطلبوا من النبي (ﷺ) أن ينزع من القرآن ما يغيظهم من ذم آلهتهم، فأنزل الله لهم جوابًا حاسمًا، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (سورة يونس، الآية: ١٥). وهذه الوفود والمفاوضات تبين مدى الفشل الذي أصاب زعماء قريش في عدم حصولها على التنازل الكلي عن الإسلام، الأمر الذي جعلها تلجأ إلى طلب الحصول على شيء من التنازل، ويلاحظ أن التنازل الذي طلبوه في المرة الأولى، أكبر مما

---

(٢٣٠) انظر: في ظلال القرآن (٦/).

(٢٣١) أسباب النزول للواحدي ص٢٠٠، ونور اليقين للخضري ص٦١.

طلبوه في المرة الثانية، وهذا يدل على تدرجهم في التنازل من الأكبر إلى الأصغر، عله يجد آذانًا صاغية لدى قائد الدعوة، كما أنهم كانوا يغيرون الأشخاص المتفاوضين، فالذين تفاوضوا مع الرسول (ﷺ) في المرة الأولى غير الذين، تفاوضوا معه في المرة الثانية، ما خلا الوليد بن المغيرة وذلك حتى لا تتكرر الوجوه، وفي ذات الوقت تنويع الكفاءات والعقول المفاوضة، فربما أثر ذلك في نظرهم بعض الشيء، وفي هذا درس للدعاة إلى يوم القيامة بأن لا تنازل عن الإسلام ولو كان هذا التنازل شيئًا يسيرًا، فالإسلام دعوة ربانية، ولا مجال فيها للمساومة إطلاقًا، مهما كانت الأسباب، والدوافع، والمبررات، (وعلى الدعاة اليوم الحذر من مثل هذه العروض، والإغراءات المادية، التي قد لا تعرض بطريق مباشر، فقد تأخذ شكلاً غير مباشر، في شكل وظائف عليا، أو عقود عمل مجزية، أو صفقات تجارية مربحة، وهذا ما تخطط له المؤسسات العالمية المشبوهة، لصرف الدعاة عن دعوتهم، وبخاصة القياديين منهم، وهناك تعاون تام في تبادل المعلومات بين هذه المؤسسات، التي تعمل من مواقع متعددة لتدمير العالم الإسلامي)(٢٣٢) ولقد جاء في التقرير الذي قدمه (ريتشارد ب. ميشيل)، أحد كبار العاملين في مجال الشرق الأوسط، لرصد الصحوة الإسلامية، وتقديم النصح بكيفية ضربها جاء في هذا التقرير وضع تصور لخطة جديدة يمكن من خلالها تصفية الحركات الإسلامية، فكان من بين فقرات هذا التقرير فقرة خاصة بإغراء قيادات الدعوة، فاقترح لتحقيق ذلك الإغراء ما يلي:

أ- تعيين من يمكن إغراؤهم بالوظائف العليا، حيث يتم شغلهم بالمشروعات الإسلامية فارغة المضمون، وغيرها من الأعمال التي تستنفذ جهدهم، وذلك مع الإغداق عليهم أدبيًا وماديًا، وتقديم تسهيلات كبيرة لذويهم، وبذلك يتم استهلاكهم محليًا، وفصلهم عن قواعدهم الجماهيرية.

ب- العمل على جذب ذوي الميول التجارية والاقتصادية إلى المساهمة في المشروعات ذات الأهداف المشبوهة، التي تقام في المنطقة العربية لصالح أعدائها.

ج- العمل على إيجاد فرص عمل وعقود مجزية في البلاد العربية الغنية، الأمر الذي يؤدي إلى بُعدهم عن النشاط الإسلامي(٢٣٣).

فالمتدبر في النقاط الثلاثة السابقة، يلاحظ أنها إغراءات مادية غير مباشرة، وبنظرة فاحصة للعالم الإسلامي اليوم، نلاحظ أن هذه النقاط تنفذ بكل هدوء، فقد أشغلت المناصب العليا بعض الدعاة، واستهلكت بعض الدول العربية الغنية جمًا غفيرًا من الدعاة، وألهت التجارة بعضهم(٢٣٤).

---

(٢٣٢) في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية ص٨٩ .

(٢٣٣) مجلة المجتمع الكويتية عدد رقم ٤٢٨ ، ١٧ صفر ١٣٩٩هـ . نقلاً عن السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية .

(٢٣٤) انظر: في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية ص٩١ .

ثامنًا: أسلوب المجادلة ومحاولة التعجيز:

كان النبي (ﷺ) قد أقام الحجج والبراهين والأدلة على صحة دعوته، وكان (ﷺ) يتقن اختيار الأوقات، وانتهاز الفرص والمناسبات، ويقوى على الرد على الشبهات مهما كان نوعها، وقد استخدم في مجادلته مع الكفار أساليب كثيرة استنبطها من كتاب الله تعالى في إقامة الحجة العقلية واستخدام الأقيسة المنطقية واستحضار التفكير والتأمل، ومن الأساليب التي استخدمها (ﷺ) مع كفار مكة:

١- أسلوب المقارنة:

وذلك بعرض أمرين أحدهما هو الخير المطلوب الترغيب فيه، والآخر هو الشر المطلوب الترهيب منه، وذلك باستثارة العقل للتفكر في كلا الأمرين وعاقبتهما للوصول -بعد المقارنة- إلى تفضيل الخير واتباعه:

قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ سورة الأنعام، الآية: (١٢٢).

قال ابن كثير في تفسيره: (هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذي كان ميتًا أي في الضلالة هالكًا حائرًا، فأحياه الله أي أحيا قلبه بالإيمان وهداه له ووفقه لاتباع رسله)[٢٣٥].

٢- أسلوب التقرير:

وهو أسلوب يؤول بالمرء بعد المحاكمة العقلية إلى الإقرار بالمطلوب الذي هو مضمون الدعوة، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ * أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ * أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ * أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ * أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ * أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ * فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ (سورة الطور، الآيات: ٣٥-٤٥).

قال ابن كثير في تفسيره: (هذا المقام في إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية، فقال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ أي أوجدوا من غير موجد؟ أم هم أوجدوا أنفسهم؟ أي لا هذا ولا هذا بل الله هو الذي خلقهم، وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورًا)[٢٣٦].

وهذه الآية في غاية القوة من حيث الحجة العقلية؛ لأن (وجودهم هكذا من غير شيء

(٢٣٥) تفسير ابن كثير (٢/ ١٧٢).
(٢٣٦) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٤٤).

أمر ينكره منطق الفطرة ابتداءً ولا يحتاج إلى جدل كثير أو قليل، أما أن يكونوا هم الخالقين لأنفسهم فأمر لم يدّعوه، ولا يدّعيه مخلوق، وإذا كان هذان الفرضان لا يقومان بحكم منطق الفطرة فإنه لا يبقى سوى الحقيقة التي يقولها القرآن وهي أنهم من خلق الله جميعًا)[٢٣٧]، والتعبير بالفطرة مضمون الأمر المقرر بداهة في العقل.

وتأمل هذا الإلزام بالإقرار بربوبية الله وألوهيته فيما ذكره السعدي في تفسيره حيث قال: (هذا استدلال عليهم بأمر لا يمكنهم فيه إلا التسليم للحق أو الخروج عن موجب العقل والدين، وبيان ذلك أنهم منكرون لتوحيد الله مكذبون لرسوله وذلك مستلزم لإنكارهم أن الله خلقهم وقد تقرر في العقل مع الشرع أن ذلك لا يخلو من ثلاثة أمور: إما أنهم خلقوا في من غير شيء أي لا خالق خلقهم، بل وجدوا من غير إيجاد ولا موجود وهذا عين المحال، أم هم الخالقون لأنفسهم وهذا أيضًا محال، فإنه لا يتصور أن يوجد أحد نفسه، فإذا بطل هذان الأمران وبان استحالتهم تعين القسم الثالث، وهو أن الله هو الذي خلقهم، وإذا تعين ذلك، عُلم أن الله هو المعبود وحده الذي لا تنبغي العبادة ولا تصلح إلا له تعالى)[٢٣٨].

٣- أسلوب الإمرار والإبطال:

وهو أسلوب قوي في إفحام المعاندين أصحاب الغرور والصلف بإمرار أقوالهم وعدم الاعتراض على بعض حججهم الباطلة منعًا للجدل والنزاع خلوصًا إلى الحجة قاطعة تدمغهم وتبطل بها حجتهم تلك فتبطل الأولى بالتبع، وفي قصة موسى عليه السلام مع فرعون، نموذج مطول لهذا الأسلوب حيث أعرض موسى عن كل اعتراض وشبهة أوردها فرعون، ومضى إلى إبطال دعوى الألهية لفرعون من خلال إقامة الحجة العقلية الظاهرة على ربوبية الله وألوهية الله[٢٣٩]، وذلك في الآيات من سورة الشعراء قال تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ * قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ (سورة الشعراء، الآيات: ٢٣-٢٩).

وهكذا كانت الأساليب القرآنية الكريمة هي الركيزة في مجادلة رسول الله (ﷺ) للمشركين، ولما احتار المشركون في أمر الرسول (ﷺ) ولم يكونوا على استعداد في تصديقه أنه رسول من عند الله ليس لأنهم يكذبونه وإنما عنادًا وكفرًا، كما قال تعالى: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ ﴾(سورة

---

(٢٣٧) في ظلال القرآن (٦/ ٣٣٩٩).

(٢٣٨) تفسير السعدي (٧/ ١٩٥، ١٩٦).

(٢٣٩) انظر: مقومات الداعية الناجح، د. علي بادحدح ص٥٩ إلى ٦٨، الأساليب السابقة من هذا الكتاب.

الأنعام، الآية: ٣٣).

لذلك هداهم تفكيرهم المعوج أن يطلبوا من الرسول عليه السلام مطالب ليس الغرض منها التأكد من صدق النبي (ﷺ) ولكن غرضهم منها التعنت والتعجيز وهذا ما طلبوه من الرسول عليه الصلاة والسلام:

أ- أن يفجر لهم من الأرض ينبوعًا: أي يجري لهم الماء عيونًا جارية.

ب- أو تكون له جنة من نخيل وأعناب يتفجر الأنهار خلالها تفجيرًا، أي تكون له حديقة فيها النخل والعنب والأنهار تتفجر بداخلها.

ج- أو يسقط السماء كسفًا: أي يسقط السماء قطعًا كما سيكون يوم القيامة.

ح- أو يأتي بالله والملائكة قبيلاً.

س- أو يكون له، بيت من زخرف: أي ذهب.

ش- أو يرقى في السماء: أي يتخذ سلمًا يرتقي عليه ويصعد إلى السماء.

د- إنزال كتاب من السماء يقرؤه. يقول مجاهد: أي مكتوب فيه إلى كل واحد صحيفة هذا كتاب من الله لفلان ابن فلان تصبح موضوعة عند رأسه[٢٤٠].

و- طلبوا من رسول الله (ﷺ) أن يدعوا لهم فيسير لهم الجبال، ويقطع الأرض، ويبعث من مضى من آبائهم من الموتى[٢٤١].

إن عملية طلب الخوارق والمعجزات هي خطة متبعة على مدى تاريخ البشرية الطويل، ورغم حرص النبي (ﷺ) على إيمان قومه، وتفانيه في ذلك، لكن التربية الربانية التي تلقاها من ربه، والأدب النبوي الذي تأدب عليه، جعله يرفض طلب المعجزة[٢٤٢]، وإنما كانت اجابته (ﷺ): **«ما بهذا بعثت إليكم، إنما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ، أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم»**[٢٤٣].

وانصرف رسول الله (ﷺ) إلى أهله حزينًا أسفًا لما فاته مما طمع فيه من قومه حين دعوه، ولما رأى من مباعدتهم إياه[٢٤٤]، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى هذه التعنتات والرد عليها في قوله سبحانه: **﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا**

---

(٢٤٠) انظر: المعوقون للدعوة الإسلامية، د. سميرة محمد ص١٧١، ١٧٢.

(٢٤١) انظر: التربية القيادية (١/ ٣١١).

(٢٤٢) نفس المصدر (١/ ٣١١).

(٢٤٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٤٥٩).

(٢٤٤) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٣١٧).

كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً * وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً * قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً * قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (سورة الإسراء، الآيات: ٩٠-٩٦).

ونزل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾[٢٤٥] (سورة الرعد، آية: ٣١).

إن الحكمة في أنهم لم يجابوا لما طالبوا، لئنهم لم يسألوا مسترشدين وجادين، وإنما سألوا متعنتين ومستهزئين وقد علم الحق سبحانه أنهم لو عاينوا وشاهدوا ما طلبوا لما آمنوا، وللجوا في طغيانهم يعمهون، ولظلوا في غيهم وضلالهم يترددون، قال سبحانه: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ * وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ (سورة الأنعام، الآيات: ١٠٩-١١١).

ولهذا اقتضت الحكمة الإلهية والرحمة الربانية ألا يجابوا على ما سألوا، لأن سنته سبحانه أنه إذا طلب قوم آيات فأجيبوا، ثم لم يؤمنوا عذّبهم عذاب الاستئصال، كما فعل بعاد وثمود وقوم فرعون.

وليس أدل على أن القوم كانوا متعنتين وساخرين، ومعوّقين لا جادين من أن عندهم القرآن وهو آية من الآيات، وبينة البينات؛ ولذلك لما سألوا ما اقترحوا من هذه الآيات وغيرها ردّ عليهم سبحانه[٢٤٦] بقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (سورة العنكبوت: ٥٠-٥٢).

وقد ذكر عبد الله بن عباس رضي الله عنه رواية مفادها: أن قريش قالت للنبي (ﷺ) ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبًا ونؤمن بك قال: «وتفعلون؟» قالوا: نعم. قال فدعا:

(٢٤٥) يعني لو أن هناك قرآنًا بهذه المثابة لكان هذا القرآن الكريم ، فهو ليس له مثيل لا من قبل ولا من بعد ، جواب (لو) محذوف دل عليه المقام .

(٢٤٦) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٣٢٠ ، ٣٢١) .

فأتاه جبريل فقال: إن ربك -عز وجل- يقرأ عليك السلام، ويقول: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهبًا، فمن كفر بعد ذلك منهم عذبته عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين، وإن شئت فتحت لهم أبواب التوبة والرحمة. فقال: بل باب التوبة والرحمة؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا﴾ (سورة الإسراء، الآية: ٥٩)[٢٤٧].

لقد كان هدف زعماء قريش من تلك المطالب هو شن حرب إعلامية ضد الدعوة والداعية وتآمر على الحق كي تبتعد القبائل العربية عنه (ﷺ)؛ لأنهم يطالبون بأمور يدركون أنها ليست طبيعة هذه الدعوة ولهذا أصروا عليها، بل لقد صرحوا بأن لو تحقق شيء من ذلك فلن يؤمنون أيضًا بهذه الدعوة، وهذا كله محاولة منهم لإظهار عجز الرسول (ﷺ) واتخاذ ذلك ذريعة لمنع الناس عن أتباعه[٢٤٨].

تاسعًا: دور اليهود في العهد المكي واستعانة مشركي مكة بهم:

تحدث القرآن الكريم عن بني إسرائيل طويلاً في سور كثيرة بلغت خمسين سورة في المرحلة المكية وفي المرحلة المدنية كان دور اليهود كبير في محاولة إطفاء نور الله والقضاء على دعوة الإسلام وعلى حياة رسول الله (ﷺ)، ولم تحظ ملة من الملل ولا قوم من الأقوام بالحديث عنهم بمثل هذا الشمول وهذه التفصيلات ما حظي به اليهود، وحديث القرآن عنهم يتسم بمنهج دقيق يتناسب مع المراحل الدعوية التي مرت بها دعوة الإسلام، فقد جاءت الآيات الكريمة تشير إلى أن غفلة المشركين عن الحق الذي جاء به رسول الله (ﷺ) وعدم اكتراثهم به وبدعوته له نماذج بشرية تقدمتهم ، مثل عاد وثمود وفرعون وبني اسرائيل وقوم تبع، وأصحاب الرس[٢٤٩]، اقرأ معي تلك الإشارات في قوله تعالى في سورة المزمل -وهي السورة الثالثة في ترتيب النزول[٢٥٠]: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً * فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً * فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا * السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً * إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ (سورة المزمل، الآيات: ١٥-١٩).

وكذلك ما ورد في سورة الأعلى وهي السورة الثامنة في ترتيب النزول، فبعد أن ذكرت بعض الصفات الجليلة لله جل جلاله وما أسبغ به من النعم الدنيوية والأخروية على عباده وذكر طريق الفلاح في الدنيا وأن الآخرة خير وأبقى ختمت السورة بقوله تعالى: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى * بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى * إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ سورة الأعلى، الآيتان: ١٨، ١٩).

(٢٤٧) صحيح السيرة النبوية ص٩٠ .
(٢٤٨) انظر: الوفود في العهد المكي ص٤٠-٥١ .
(٢٤٩) معالم قرآنية في الصراع مع اليهود ص٣٠ ، ٣١ ، مصطفى مسلم .
(٢٥٠) انظر: معالم قرآنية في الصراع مع اليهود ص٣٠ ، ٣١ .

وفي سورة الفجر: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ (سورة الفجر، الآيات: ٦-١٤).

وجاء في سورة النجم ذكر بني إسرائيل كنماذج بشرية تعرضت للفتنة والاضطهاد فمنهم من انحراف وسقط في هذا الابتلاء، ومنهم من صمد ونجح في الابتلاء[٢٥١].

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى * وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى * الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى * أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى * وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى * أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى * أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى * أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى * وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾ (سورة النجم، الآيات: ٢٩-٤٢).

إن تلك المبادئ مقررة في صحف موسى عليه السلام المرسل إلى بني إسرائيل فليرجعوا إليها إن كانوا في شك من أمر محمد (ﷺ)، وكذلك في صحف إبراهيم وهم (أي قريش) يزعمون أنهم ينتمون إليه ويعظمون شرائعه التي توارثوها كما هو حالهم في القيام على سدانة الكعبة وخدمة الحجيج[٢٥٢].

وفي سورة (ص، ويس، ومريم، وطه) عرض نماذج من قصص الأنبياء مع أقوامهم وما أصابهم من الفتنة والابتلاء، وكيف أوذوا فصبروا، وبيان سنة الله تعالى في أولئك المتحزبين المناهضين لدعوة الحق: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأَحْزَابِ * كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ * وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ أُولَئِكَ الأَحْزَابُ * إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ * وَمَا يَنظُرُ هَؤُلاءِ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ * وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ * اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (سورة ص، الآيات: ١١-١٧).

إنها إشارة ذات دلالة تربوية لأصحاب النبي (ﷺ) مأخوذة من سيرة هؤلاء الأقوام الذين تحزبوا ضد دعوة الحق لقد كذبوا أنبياءهم فحق عليهم كلمة العذاب وانتصر أهل الحق عليهم.

لم يسلم أحد من الأنبياء من إيذاء الأقوام مهما كانت مكانتهم وعزتهم في مجتمعاتهم،

---

(٢٥١) نفس المصدر ص٣٦ .

(٢٥٢) انظر: معالم قرآنية في الصراع مع اليهود ص٣١٦ .

فلئن كان نوح وهود وموسى وصالح ولوط وشعيب من عامة الناس، فما قولك في داود صاحب القوة والسلطة والملك، الذي كانت معجزاته بارزة للعيان من تسبيح الجبال معه وحشر الطيور لسماع مزاميره وتلاوته... ماذا تقول عنه بنو إسرائيل؟ وماذا دونوا في كتبهم عن سيرته؟ إنهم لم يتركوا نقيصة إلا ألصقوها فيه وهو النبي العابد الأوّاب، ومثل ذلك ما قالوه عن مريم البتول عليها وعلى ابنها السلام، وقد أورد القرآن الكريم حملها وولادتها والخوارق التي حصلت لهما حيث جعلها وابنها آية للعالمين: ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾ (سورة مريم، الآية: ٢١)؛ فإذا كان هذا شأن بني إسرائيل مع أنبيائهم وهم أهل الكتاب وبين أيديهم التوراة (فيه هدىً ونور)، فلا غرابة أن تقول قريش عن دعوة الحق ما يدل على ضلالها وجهلها، إنها تهيئة للنفوس، وتثبيت لها على الحق لملاقاة أعداء الله المفترين المكذبين من المشركين ومن أهل الكتاب، ولم يكن هذا موقفهم من الأنبياء الذين كذبوهم ولم يؤمنوا لهم؛ بل كانت لهم مواقف غريبة مشينة مع أعظم أنبيائهم الذين يفتخرون بنسبتهم إليه وهم يزعمون أنهم أهل كتابه الذي أنزل عليه وحملة شرائعه وهداياته، إنه نبيهم موسى عليه السلام أعظم أنبياء بني إسرائيل قاطبة، وتذكر لنا سورة طه كيف كان الحال معه وما عاناه من سفههم وتمردهم على أوامر الله وعصيانهم المتعمد، فما كاد موسى عليه السلام يغادرهم لمناجاة ربه وقد ترك في ظهرانيهم أخاه هارون ليصلح من شأن القوم ولا يتبع سبيل المفسدين، إلا وتآمروا عليه وجمعوا زينة القوم ليخرج لهم السامري عجلاً جسدًا له خوار فيقوم الناس بالطواف به لعبادته وليقولوا كلمتهم الكبيرة ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ (سورة طه، الآية:٨٨). ولما عرف الحقيقة استدعى السامري ليسأل عن الدافع له على هذا التصرف السفيه، قال: ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ (سورة طه، الآية: ٩٦).

إن قومًا يصل بهم السفه إلى هذا الحد من الزيغ والضلال، والإفساد، فهل يؤمن جانبهم ويتوقع منهم الخير، أو مناصرة الحق؛ لقد كان لقصص بني إسرائيل في هذه المرحلة المكية المتقدمة آثار بعيدة الدلالة في تكوين الشخصية الإسلامية المتميزة عن هذه الطوائف والنحل[٢٥٣] ومن لطائف الأسرار القرآنية ومن جميل وجوه المناسبات أن يأتي الحديث عن عالمية الدعوة الإسلامية من خلال ذكر العهد والميثاق المأخوذ على بني إسرائيل أنفسهم لكي يؤمنوا بالنبي الأمي عندما يأتيهم بدعوته العالمية، وكان ذلك في سورة الأعراف، وكان إيراد التفصيلات في انحرافات بني إسرائيل لتهيئة نفوس المؤمنين بألا يتأثروا بموقف اليهود إن هم تنكروا لهم فإنهم قوم بهت وتلك سيرتهم مع أنبيائهم، فإن أعرضوا عن دعوة الإسلام وكذبوا محمدًا (ﷺ) وقد وجدوا أوصافه في كتبهم فلا يستغرب ذلك من القوم المفسدين[٢٥٤].

---

(٢٥٣) انظر: معالم قرآنية في الصراع مع اليهود ص٣٩، ٤٠.

(٢٥٤) نفس المصدر ص٥٤.

قال تعالى: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (سورة الأعراف، الآيات: ١٥٦-١٥٨).

نعم إنها نقلة من صعيد مكة وشعابها وجبالها إلى أقطار العالم جميعًا، إنها نقلة روحية نفسية كبيرة حيث نلاحظ سياق الآيات يرسم معالم الدعوة العالمية عندما تخرج من مكة إلى الصعيد العالمي كما أن الآيات في سورة الأعراف مليئة بالدروس التربوية العظيمة لأمة محمد (ﷺ) من خلال السرد التاريخي لحياة بني إسرائيل وما اعتورها من أحداث عظام وهذه المداخلات التي تلفت النظر إلى أمة رسول الله (ﷺ) ودورها ومهمتها في قيادة العالم، وفي نفس الوقت تحذير لها لكي تتجنب ما وقعت فيه بنو إسرائيل ويمضي السياق في الحديث عن الأمم التي تكونت من الأسباط، وكيف فكت ضائقتهم في المطعم والمشرب بتفجير الينابيع وإنزال المن والسلوى عليهم، وتوفير الظلال الوارفة لهم بتظليل الغمام عليهم، ولكن هل أدوا شكر هذه النعم؟ وماذا كان موقفهم من التكاليف الشرعية؟ لقد كان العناد والتحريف، والتحايل والتمرد دائمًا.

إن إنسانية الإنسان تتحقق باتباعه الوحي الرباني المنزل من خالق السماوات والأرض، والعبودية لله تعالى تحقق الكمال الإنساني، حيث تتحقق الغاية التي خلق الإنسان من أجلها، وأي إهمال لهذه المهمة وأي ابتعاد عن نور الوحي يبعد الإنسان عن الكمال البشري ويلحقه بالدواب والأنعام، وقد يكون أضل منها لأنه يسخر عقله لمزيد من الإسفاف والانحطاط بينما البهائم لا تتحايل في الإسفاف والانحطاط وإنما هي مفطورة على غرائز معينة تدفعها لتصرف محدد.

كانت سورة الأعراف المكية تعرض لمحات تربوية، وتبين توجيهات ربانية وتوضح سنن إلهية من خلال الاعتبار بقصص بني إسرائيل[٢٥٥].

عندما وجدت قريش نفسها عاجزة أمام دعوة الحق وكان المعبر عن هذا العجز النضر بن الحارث الذي صرح قائلاً: (يا معشر قريش إنه والله قد نزل بكم أمر ما أوتيتم له بحيلة بعد ... فانظروا في شأنكم، فإنه والله لقد نزل بكم أمرٌ عظيم) فقرروا بعد ذلك إرسال النضر ابن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة لمعرفة حقيقة هذه الدعوة لا لكي

(٢٥٥) انظر: معالم قرآنية في الصراع مع اليهود ص٥٥ إلى ٦٠.

يتبعوها ولكن لإدراكهم أن اليهود قد يمدونهم بأشياء تظهر عجز الرسول (ﷺ) ولمعرفة زعماء مكة بحقد اليهود المنصب على الأنبياء جميعًا وأصحاب الحق أينما كانوا، كانت بعثة المصطفى صدمة قوية لليهود؛ وذلك لأنهم عاشوا في جزيرة العرب على حلم توارثوه طوال السنين الماضية، وهو أنه سيبعث نبي مُخلِّص في ذلك الزمان والمكان، فرجوا أن يكون منهم، آملين أن يخلصهم من الفرقة والشتات الذي كانوا فيه(٢٥٦).

كان التقارب بين معسكر الكفر والشرك مع اليهود ينسجم مع أهدافهم المشتركة للقضاء على دعوة الإسلام؛ ولذلك زودوا الوفد المكي ببعض الأسئلة محاولة لتعجيز النبي (ﷺ).

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة، فقالوا لهم: سلوهم عن محمد وصفوا لهم صفته وأخبروهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى قدما المدينة، فسألا أحبار يهود عن رسول الله (ﷺ) ووصفا لهم أمره وبعض قوله وقالا: إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، قال: فقالت لهم أحبار يهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقول، فقرروا فيه رأيكم، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم؟ فإنه قد كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طوّاف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هو؟ فإن أخبركم بذلك فإنه نبي فاتبعوه، وإن هو لم يخبركم فهو رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم.

فأقبل النضر وعقبة حتى قدما مكة على قريش فقالا: يا معشر قريش، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور، فأخبروهم بها، فجاؤوا رسول الله (ﷺ) فقالوا: يا محمد، أخبرنا، فسألوه عما أمروهم به، فقال لهم رسول الله (ﷺ): أخبركم غدًا بما سألتهم عنه، ولم يستثن(٢٥٧)، فانصرفوا عنه، فمكث رسول الله (ﷺ) خمس عشرة ليلة لا يحدث الله إليه في ذلك وحيًا، ولا يأتيه جبرائيل عليه السلام، حتى أرجف أهل مكة وقالوا: وعدنا محمد غدًا واليوم خمس عشرة، قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه، وحتى أحزن رسول الله (ﷺ) مُكْثُ الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل عليه السلام من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطوّاف، وقول الله عز وجل: **﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾** (سورة الإسراء، الآية: ٨٥).

ولما سمع اليهود قول الله تعالى: **﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾** (سورة الكهف، الآية ١٠٩).

(٢٥٦) انظر: اليهود في السنّة المطهرة، د. عبد الله الشقاري (١/ ١٨٨).
(٢٥٧) أي لم يقل: (إن شاء الله).

كانت سورة الكهف قد احتوت على الإجابة لأسئلتهم وإشارة إلى أن كهفًا من عناية الله سوف يأوي هؤلاء المستضعفين من أصحاب محمد (ﷺ)، كما آوى الكهف الجبلي الفتية المؤمنين الفارين بدينهم من الفتنة.

وأن نفوسًا ستبش في وجوه هذه العصبة من أنصار دين الله في يثرب بالقرب من الذين عاضدوا قريشًا في شكهم، وحاولوا معهم طمس نور الحق بتلقينهم المنهج التعجيزي في التثبت في أمر النبوة وهو منهج غير سليم، فمتى كانت الأسئلة التعجيزية وسيلة التحقق من صدق الرسالة وصاحبها، فهذا نبي الله موسى عليه السلام وهو من أعظم أنبياء بني إسرائيل لم يعلم تأويل الأحداث الثلاثة التي جرت أمامه، وأنكر على الخضر تصرفاته على الرغم من تعهده ألا يسأله عن شيء حتى يحدث له منه ذكرًا، على الرغم من كل ذلك لم تؤثر الأحداث وما دار حولها في نبوة موسى عليه السلام شيئًا، ولم يشكك بنو إسرائيل في نبوته فلم يجعلوا مثل هذه الأسئلة أسلوبًا للتحقق من صدق الرسالة[٢٥٨].

جعل الله هذه المناسبة وسيلة للإشارة إلى قرب الفرج للعصبة المؤمنة ليجدوا مأوى كما وجد الفتية المأوى، وليبش في وجوههم أهل المدينة كما بش أهل المدينة في وجه أحد الفتية ثم ذهبوا إليهم ليكرموهم وليخلدوا ذكراهم[٢٥٩].

إن القرآن الكريم نزل ليكوّن خير أمة أخرجت للناس، لها مقوماتها الذاتية ومصادرها المعرفية، ولقد نزل من أوائل ما نزل في المرحلة المكية سورة الفاتحة وفيها التضرع إلى الله تعالى بهداية المؤمن إلى الصراط المستقيم، وتجنبه صراط المغضوب عليهم -وهم اليهود- وصراط الضالين -وهم النصارى- كما جاء في حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه[٢٦٠].

فتحديد هذا النهج وبيان الصراط المستقيم يستدعي بيان المناهج الضالة حتى تتجنب السبل الأخرى المتفرقة التي تؤدي بصاحبها إلى المزالق والمهالك، فكان التعرض لعقائد اليهود وانحرافاتهم ومواقفهم مع أنبيائهم أمرًا تقتضيه دواعي التكوين للشخصية الإسلامية المتميزة، إن معركتنا مع اليهود معركة مستمرة، لأنها معركة بين المنهج الرباني والصراط المستقيم ضد المناهج البشرية الجاهلية المحرفة لكلمات الله الساعية للإفساد في الأرض[٢٦١].

عاشرًا: الحصار الاقتصادي والاجتماعي في آخر العام السابع من البعثة:

ازداد إيذاء المشركين من قريش أمام صبر الرسول (ﷺ) والمسلمين على الأذى، وإصرارهم في الدعوة إلى الله، وإزاء فشو الإسلام في القبائل، وبلغ الأذى قمته في الحصار المادي والمعنوي الذي ضربته قريش ظلمًا وعدوانًا على النبي (ﷺ) وأصحابه ومن عطف

(٢٥٨) انظر: مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم ص١٨٩ .

(٢٥٩) انظر: تأملات في سورة الكهف للشيخ أبي الحسن الندوي ص٤٦؛ وانظر: معالم قرآنية في الصراع مع اليهود ص٦١ .

(٢٦٠) مسند الإمام أحمد (٣٧٨/٤) .

(٢٦١) معركة الوجود بين القرآن والتلمود ص٧٨ ، ٧٩ نقلاً عن معالم قرآنية ، لمصطفى مسلم ص٢٩ .

عليهم من قرابتهم[٢٦٢].

قال الزهري: (ثم إن المشركين اشتدوا على المسلمين كأشد ما كانوا حتى بلغ المسلمين الجهد، واشتد عليهم البلاء، واجتمعت قريش في مكرها أن يقتلوا رسول الله (ﷺ) علانية؛ فلما رأى أبو طالب عمل القوم جمع بني عبد المطلب وأمرهم أن يدخلوا رسول الله (ﷺ) شعبهم ويمنعوه ممن أراد قتله، فاجتمعوا على ذلك مسلمهم وكافرهم، فمنهم من فعله حمية، ومنهم من فعله إيمانًا ويقينًا، فلما عرفت قريش أن القوم قد منعوا رسول الله (ﷺ) فأجمعوا أمرهم أن لا يجالسوهم ولا يبايعوهم ولا يدخلوا بيوتهم حتى يسلموا رسول الله (ﷺ) للقتل، وكتبوا في مكرهم صحيفة وعهودًا ومواثيق؛ لا يتقبلوا من بني هاشم أبدًا صلحًا، ولا يأخذهم بهم رأفة حتى يسلموه للقتل[٢٦٣].

وفي رواية: (.... على ألا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم، لا يبيعوهم شيئًا، ولا يبتاعوا منهم، ولا يدعوا سببًا من أسباب الرزق يصل إليهم، ولا يقبلوا منهم صلحًا، ولا تأخذهم بهم رأفة، ولا يخالطوهم، ولا يجالسوهم، ولا يكلموهم، ولا يدخلوا بيوتهم، حتى يسلموا إليهم رسول الله للقتل، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيدًا على أنفسهم[٢٦٤].

فلبثت بنو هاشم في شعبهم ثلاث سنين، وأشتد عليهم البلاء والجهد، وقطعوا عنهم الأسواق، فلا يتركوا طعامًا يقدم من مكة ولا بيعًا إلا بادروهم إليه فاشتروه، يريدون بذلك أن يدركوا سفك دم رسول الله (ﷺ)[٢٦٥].

وكان أبو طالب إذا أخذ الناس مضاجعهم أمر رسول الله (ﷺ) فأتى فراشه حتى يراه من أرد به مكرًا أو غائلة، فإذا نام الناس أخذ أحد بنيه أو أخواته أو بني عمه فاضطجع على فرش رسول الله (ﷺ)، وأمر رسوله أن يأتي بعض فرشهم فيرقد عليها[٢٦٦].

واشتد الحصار على الصحابة وبني هاشم وبني المطلب حتى اضطروا إلى أكل ورق الشجر، وحتى أصيبوا بظلف العيش وشدته، إلى حد أن أحدهم يخرج ليبول فيسمع بقعقعة شيء تحته، فإذا هي قطعة من جلد بعير فيأخذها فيغسلها، ثم يحرقها ثم يسحقها، ثم يستفها، ويشرب عليها الماء فيتقوى بها ثلاثة أيام[٢٦٧]، وحتى لتسمع قريش صوت الصبية يتضاغون من وراء الشعب من الجوع[٢٦٨]!

(٢٦٢) انظر: ظاهرة الإرجاء، د. سفر الحوالي (١/ ٥٠).
(٢٦٣) تفاصيل قصة الشعب وماتخللها من أحداث، دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٨٠-٨٥). السيرة النبوية لابن كثير (٢/ ٤٣-٧٢). الروض الأنف (٢/ ١٠١-١٢٩).
(٢٦٤) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٥٠)، زاد المعاد (٢/ ٤٦).
(٢٦٥) انظر: ظاهرة الإرجاء (١/ ٥١).
(٢٦٦) انظر: فقه السيرة النبوية للغضبان ص١٨٠.
(٢٦٧) انظر: الغرباء الأولون ص١٤٨ نقلاً عن حلية الأولياء ترجم رقم ٧.
(٢٦٨) المصدر السابق نفسه ص١٤٨.

فلما كان رأس ثلاث سنين، قيض الله سبحانه وتعالى لنقض الصحيفة أناسًا من أشراف قريش وكان الذي تولى الانقلاب الداخلي لنقض الصحيفة هشام بن عمرو الهاشمي، فقصد زهير بن أمية المخزومي، وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب، فقال له: يا زهير، أقد رضيت أن تأكل الطعام، وتلبس الثيات وتنكح النساء، وأخوالك حيث قد علمت؟ لا يتاعون، ولا يبتاع منهم، ولا ينكحون ولا ينكح إليهم، أما إني أحلف بالله لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام، ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبدًا، قال: ويحك يا هشام، فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها، فقال له: قد وجدت رجلاً، قال: من هو؟ قال: أنا، فقال له زهير: ابغنا ثالثًا.

فذهب إلى المُطْعِم بن عدي فقال له: أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف، وأنت شاهد على ذلك، موافق لقريش فيهم؟ أما والله لو أمكنتموهم من هذه لتجدنَّهم إليها منكم سراعًا قال: ويحك فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، قال: قد وجدت لك ثانيًا، قال من ؟ قال: أنا، قال: ابغنا ثالثًا، قال : قد فعلت، قال: من؟ قال زهير بن أبي أمية، فقال ابغنا رابعًا، فذهب إلى أبي البختري بن هشام، فقال له نحو ما قال للمطعم بن عدي، فقال له: ويحك وهل نجد أحد يعين على ذلك؟ قال: نعم، زهير بن أبي أمية، والمطعم بن عدي، وأنا، فقال: أبغنا خامسًا، فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد، فكلمه وذكر له قرابته وحقهم، فقال له: وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟ قال: نعم ، ثم سمّى له القوم؛ فاتّعدوا خطم الحَجون ليلاً بأعلى مكة، فاجتمعوا هناك، وأجمعوا أمرهم، وتعاقدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها، وقال زهير: أنا أبدؤكم فأكون أول من يتكلم، فلما أصبحوا غدا إلى أنديتهم، وغدا زهير بن أبي أمية عليه حلة، فطاف بالبيت سبعًا، ثم أقبل على الناس فقال: أنأكل الطعام، ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى لا يبتاعون، ولا يبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة، فقال أبو جهل، وكان في ناحية المسجد: كذبت والله لا تشق، فقال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب ما رضينا كتابتها حين كتبت، فقال أبو البختري: صدق زمعة لا نرضى ما كتب فيها، ولا نُقرّ به، فقال المطعم بن عدي: صدقتما، وكذلك من قال غير ذلك، نبرأ من الله منها ومما كَتب فيها، وقال هشام بن عمرو نحوًا من ذلك؟ فقال أبو جهل: هذا أمر قضي بليل، تشور فيه في غير هذا المكان، وأبوطالب جالس في ناحية المسجد لا يتكلم.

وقام المطعم بن عدي إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا (باسمك اللهم)[٢٦٩] وروى ابن إسحاق إن الله عز وجل أرسل على الصحيفة الأرضة فلم تدع فيها اسمًا لله عز وجل إلا أكلته، وبقي فيها الظلم والقطعية والبهتان وأخبر رسول الله (ﷺ) بذلك عمه فذهب أبو طالب إلى قومه وأخبرهم بذلك وقال لهم: فإن كان كاذبًا فلكم علي أن أدفعه إليكم تقتلونه وإن كان صادقًا فهل ذلك ناهيكم عن تظاهركم علينا؟ فأخذ عليهم

(٢٦٩) انظر: السيرة النبوية لابن كثير (٢/٤٣-٥٠ ، ٦٧-٦٩) .

المواثيق وأخذوا عليه، فلما نشروها فإذا هي كما قال رسول الله (ﷺ) فقال المطعم بن عدي وهشام بن عمرو: نحن براء من هذه الصحيفة القاطعة العادية الظالمة، ولن نمالئ أحدًا في فساد أنفسنا وأشرافنا. وتتابع على ذلك ناس من أشراف قريش فخرجوا من الشعب(٢٧٠).

دروس وعبر وفوائد:

١- إن المتأمل لبنود هذه الاتفاقية يجد أن قريشًا قد أحكمت البنود ولم تدع فيها ثغرة يمكن النفاذ من خلالها، مما يؤكد أنها وضعت بعد مداولات ومشاورات على نطاق واسع، وشاركت في وضعها عقول مفكرة امتزجت معها خبرات عديدة، وحبكها ذكاء مفرط.

٢- في عدم الزواج بين الطرفين جانب اجتماعي مهم، فالزواج غالبًا ما يؤدي إلى التآلف، والتآخي، والتراحم، والتواصل، والتزاور بين أهل الزوجين، فإذا تم شيء من ذلك، فسيؤدي إلى فشل الحصار وحتى لا يحدث ذلك نصت الوثيقة على عدم الزواج بين الطرفين.

٣- وفي النهي عن البيع، والشراء منهم يظهر جانب اقتصادي بالغ الأهمية، فالبيع والشراء عصب الحياة الاقتصادية، ويقوم عليه تبادل المنافع بين بني البشر، فإذا انعدم ذلك التعامل، انهار البناء الاقتصادي، وباتت الحياة الاقتصادية مهددة بالخطر، فيصبح الإنسان مفتقدًا لضروريات الحياة مما يعرضه إلى الرضوخ والانصياع لأوامر من يملك تلك الضروريات، ومعلوم أثر ذلك على الجماعة والأفراد، فأرادت قريش من ذلك البند تجويع المسلمين، وهذا ما وقع فعلاً فقد جاء: أنهم جهدوا حتى كانوا يأكلون ورق الشجر والجلود(٢٧١).

٤- وزيادة في الحصار الاقتصادي، وضعوا بندًا يسد الطريق أمام المسلمين في التعامل مع التجار الوافدين من خارج مكة، فكانوا يغلون على المسلمين في السعر حتى لا يدرك الصحابة شيئًا يشترونه، فيرجعون إلى أطفالهم، الذين يتضاغون جوعًا، وليس في أيديهم شيء يشغلونهم به، فكان يُسمع بُكاء الأطفال من بعيد(٢٧٢)، كل هذا التضييق بسبب البند الذي يقول: (ولا يدعوا شيئًا من أسباب الرزق يصل إليهم)، كما أن هذا البند يفوت الحجة على من أراد أن يهدي .... شيئًا لأهل الشِّعب، بحجة أنه لا يبيع وإنما يهدي، وحتى لا تبقى ذريعة، لإيصال الطعام إليهم تحت أي مسمى، وضعت قريش هذا البند(٢٧٣).

٥- والبند التالي: (ولا تقبلوا منهم صلحًا)، يسد الطريق أمام أي خيار آخر سوى تسليم محمد (ﷺ)، فلا مجال لأنصاف الحلول عندهم، أما البند الذي يقضي (بألا تأخذهم بهم رأفة)، فهو بند يضع قيودًا حتى على العواطف، كي لا يكون للرأفة والرحمة وجود بين

(٢٧٠) السير والمغازي لابن إسحاق ص١٥٦-١٦٢.

(٢٧١) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٧٧)، الرحيق المختوم ص١٢٩.

(٢٧٢) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٧٧)، السيرة النبوية للندوي ص١٢٠.

(٢٧٣) انظر: السيرة النبوية جوانب الحذر والحيطة ص٩٦.

أهل الصحيفة تجاه المؤمنين لأن الرحمة والرأفة قد تقودان إلى فك الحصار، الذي يؤدي بدوره إلى فشل جهود قريش، وهو ما لا تهواه، لذا عملت على إبطال مفعول الرأفة بوضعها لهذا البند في الصحيفة.

٦- وفي (عدم مجالستهم ومخالطتهم وكلامهم)، سد ثغرة هامة، ربما جاء من قبلها خطر على المقاطعة، والحصار، لأن المجالسة، والمخالطة، والكلام مع المسلمين يؤدي إلى النقاش، وتبادل الآراء ووجهات النظر، فقد يقنع المسلمون بعض أهل الصحيفة بخطأ ما هم عليه، لأن المسلمين يملكون من الحق والأدلة ما يمكن أن يقنعوا بها سواهم. . . وحتى لا يتم ذلك، نصت الصحيفة على عدم المجالسة، والمخالطة، والكلام.

٧- قولهم: (لا يدخلوا بيوتهم)، بند لا يختلف عما سبقه، لأن دخولهم البيوت يحرك الجوانب الإنسانية في النفس، فالإنسان عندما يرى بيتًا يخلو من أبسط مقومات الحياة، وأصاب أهله الجوع والعري والمرض، ليس لذنب سوى أنهم اختاروا دينا غير دين قريش، لا شك أن العاطفة تتحرك عنده، ويحاول رفع هذا الظلم، وتلك المعاناة . . وحتى لا تقع قيادة قريش في مثل هذا الموقف، نصت على عدم دخول البيوت.

٨- وتعليق الصحيفة في الكعبة، يعطيها قدسية، ويجعل بنودها تأخذ طابع القداسة، التي يجب التقيد والالتزام بها، فالعرب قاطبة تقدس الكعبة، وتضع لها مكانًا ساميًا من الحرمة والقدسية، لذا عمدت قريش إلى تعليق الصحيفة داخل الكعبة[٢٧٤].

٩- إن مشركي بني هاشم وبني المطلب تضامنوا مع رسول الله (ﷺ) وحموه كأثر من أعراف الجاهلية، ومن هنا ومن غيره نأخذ أنه يسع المسلم أن يستفيد من قوانين الكفر فيما يخدم الدعوة على أن يكون ذلك مبنيًا على فتوى صحيحة من أهلها[٢٧٥].

١٠- إن حقوق الإنسان في عصرنا ضمان للمسلم، والحرية الدينية في كثير من البلدان يستفاد منها، وقوانين كثيرة من أقطار العالم تعطي للمسلمين فرصًا، وعلى المسلمين أن يستفيدوا من ذلك وغيره من خلال موازنات دقيقة[٢٧٦].

١١- من المهم أن تعلم بأن حماية أقارب رسول الله (ﷺ) له، لم تكن حماية للرسالة التي بعث بها، وإنما كانت لشخصه من الغريب، وإذا أمكن أن تستغل هذه الحماية من قبل المسلمين كوسيلة من وسائل الجهاد والتغلب على الكافرين والرد لمكائدهم وعدوانهم فأنعم بذلك من جهد مشكور وسبيل ينتبهون إليها[٢٧٧].

١٢- لم يستطع أبو طالب أن يقاوم هذا التحالف الباغي إلا بالحرب السياسية من جهة

(٢٧٤) انظر: السيرة النبوية جوانب الحذر والحيطة ص٩٦ ، ٩٧ .
(٢٧٥) انظر: الأساس في السنّة وفقهها السيرة النبوية ، سعيد حوى (١/ ٢٦٤) .
(٢٧٦) انظر: الأساس في السنّة وفقهها السيرة النبوية ص٢٦٤ .
(٢٧٧) انظر: فقه السيرة النبوية ، للبوطي ص٨٨ .

ومحاولة تفتيت هذا التحالف، فعمل قصيدته اللامية المشهورة وفي بدايتها قال:

ولما رأيت القوم لا ودّ عندهم وقد قطعوا كل العرى والوسائل

وقد حالفوا قومًا علينا أظنة يعضون غيظًا خلفنا بالأنامل(٢٧٨)

وكان لهذه القصيدة أثر خطير زلزل أوضاع مكة، واستطاعت أن تحرك كامن العصبية عند أقارب بني هاشم، حيث ائتمروا سرًا ودعوا إلى نقض الصحيفة(٢٧٩).

١٣- انتصر أبو طالب في غزو المجتمع القرشي بقصائده الضخمة التي هزت كيانه هزًا وتحرك لنقض الصحيفة من ذكرنا من قبل، أولئك الخمسة الذين يمتون بصلة قرابة أو رحم لبني هاشم وبني المطلب، واستطاعوا أن يرفعوا هذا الظلامة وهذا الحيف عن المسلمين وأنصارهم وحلفائهم، وخططوا له ونجحوا به وفي هذا الموقف إشارة إلى أن كثير من النفوس والتي تبدو في ظاهر الأمر من أعمدة الحكم الجاهلي، قد تملك في أعماقها رفضًا لهذا الظلم والبغي، وتستغل الفرصة المناسبة لإزاحته، وعلى أبناء المسلمين أن يهتموا بهذه الشرائح، وتنفذ إلى أعماقها، وتوضح لهم حقيقة القرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة، وتبين لها طبيعة العداء بين الإسلام واليهود والنصارى والعلمانية، فقد يستفاد منهم في خدمة الإسلام(٢٨٠).

١٤- وظاهرة أبي لهب تستحق الدراسة والعناية، لأنها تتكرر في التاريخ الإسلامي، فقد يجد الدعاة من أقرب حلفائهم من يقلب لهم ظهر المجن، ويبالغ في إيذاء الدعاة، وحربهم أكثر بكثير ممن تلقاه من خصومها الألداء الأشداء(٢٨١).

١٥- كانت تعليمات الرسول (ﷺ) لأفراد المسلمين ألا يواجهوا العدو، وأن يضبطوا أعصابهم، فلا يشعلوا فتيل المعركة أو يكونوا وقودها؛ وإن أعظم تربية في هذه المرحلة هي صبر أبطال الأرض على هذا الأذى دون مقاومة، حمزة وعمر، وأبي بكر وعثمان، وغيرهم رضي الله عنهم، سمعوا وأطاعوا، فلقوا كل هذا الأذى وهذا الحقد، وهذا الظلم، فكفوا أيديهم، وصبروا ليس على حادثة واحدة فقط، أو يومًا واحدًا فقط بل ثلاث سنين عجاف، تحترق أعصابهم ولا يسمح لهم برمية سهم أو شجة رأس(٢٨٢).

١٦- أثبتت الأحداث عظمة الصف المؤمن في التزامه بأوامر قائده، وبعده عن التصرفات الطائشة؛ فلم يكن شيء أسهل من اغتيال أبي جهل، وإشعال معركة غير مدروسة لا يعلم إلا الله مداها، وغير متكافئة.

---

(٢٧٨) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٤٥).

(٢٧٩) انظر: التحالف السياسي، للغضبان ص٣٥ إلى ٣٧.

(٢٨٠) انظر: فقه السيرة النبوية، للغضبان ص١٨٥.

(٢٨١) نفس المصدر ص١٨٦.

(٢٨٢) انظر: التربية القيادية (١/ ٣٧١).

١٧- كانت الدعوة الإسلامية تحقق انتصارات رائعة في الحبشة، وفي نجران، وفي أزد شنؤة، وفي دوس، وفي غفار، وكانت تتم في خط واضح سيكون سندًا للإسلام والمسلمين ومراكز قوى يمكن أن تتحرك في اللحظة الحاسمة، وامتدادات للدعوة، تتجاوز حدود مكة الصلدة المستعصية.

١٨- كانت هذه السنوات الثلاثة للجيل الرائد زادًا عظيمًا في البناء والتربية، حيث ساهم بعضه في تحمل آلام الجوع والخوف، والصبر على الابتلاء، وضبط الأعصاب، والضغط على النفوس والقلوب، ولجم العواطف عن الانفجار.

١٩- كانت بعض الشخصيات في الصف المشرك تبنى في داخلها بالتربية النبوية، وتتأثر بعظمة شخصية النبي (ﷺ)، وتتفاعل في أعماقها مع المبادئ التي يقدمها الدين الجديد، لكن سيطرة الملأ وسطوة الكبراء كانت تحول دون إبراز هذا التفاعل وهذا الحب وهذه التربية، وختام قصة الصحيفة تقدم لنا أجلى بيان عن ذلك[٢٨٣].

٢٠- قيام الحجج الدامغة والبراهين الساطعة والمعجزات الخارقة لا يؤثر في أصحاب الهوى وعبدة المصالح والمنافع، لأنهم يلغون عقولهم ويغلقون قلوبهم وعقولهم عن التدبر، ويصمون آذانهم عن سماع الحق، ويغمضون أعينهم عن النظر والتأمل والاهتداء إلى الحق بعد قيام الأدلة عليه، فلقد أخبرهم أبو طالب بما أخبر به الرسول (ﷺ) بما حدث للصحيفة من أكل الأرضة لها وبقاء اسم الله فقط (باسمك اللهم) ورأوا ذلك بأم أعينهم فما آمن منهم أحد، إنه الهوى الذي يغشي عن الحق، ويصم الآذان عن سماعه[٢٨٤].

٢١- كانت حادثة المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية سببًا في خدمة الدعوة والدعاية لها بين قبائل العرب، فقد ذاع الخبر في كل القبائل العربية من خلال موسم الحج ولفت أنظار جميع الجزيرة العربية إلى هذه الدعوة التي يتحمل صاحبها وأصحابه الجوع والعطش والعزلة لكل هذا الوقت، أثار ذلك في نفوسهم أن هذه الدعوة حق، ولولا ذلك لما تحمل صاحب الرسالة وأصحابه كل هذا الأذى والعذاب.

٢٢- أثار هذا الحصار سخط العرب على كفار مكة لقسوتهم على بني هاشم وبني المطلب، كما أثار عطفهم على النبي (ﷺ) وأصحابه، فما أن إنفك الحصار حتى أقبل الناس على الإسلام، وحتى ذاع أمر هذه الدعوة وتردد صداها في كل بلاد العرب، وهكذا ارتد بسلاح الحصار الاقتصادي على أصحابه، وكان عاملاً قويًا من عوامل انتشار الدعوة الإسلامية عكس ما أراد زعماء الشرك تمامًا[٢٨٥].

٢٣- كان لوقوف بني هاشم وبني المطلب مع رسول الله وتحملهم معه الحصار

---

(٢٨٣) نفس المصدر (١/ ٣٨٤ ، ٣٨٥) .

(٢٨٤) السيرة النبوية لابي فارس ص١٦٧ .

(٢٨٥) انظر: الحرب النفسية ضد الإسلام ، د . عبد الوهاب كحيل ص١٠١

الاقتصادي والاجتماعي أثر في الفقه الإسلامي حيث أن سهم ذوي القربى من الخمس يعطي لبني هاشم وبني المطلب ويوضح ابن كثير هذا الحكم لدى تفسيره قوله تعالى في سورة الأنفال.

فيقول: (وأما سهم ذوي القربى فإنه يصرف إلى بني هاشم وبني المطلب؛ لأن بني المطلب وازروا بني هاشم في الجاهلية وفي أول الإسلام، ودخلوا معهم في الشعب غضبًا لرسول الله (ﷺ) وحماية لهم، مسلمهم طاعة لله ورسوله وكافرهم حمية للعشيرة وأنفة وطاعة لأبي طالب، وأما بنو عبد شمس وبنو نوفل وإن كانوا بني عمهم فلم يوافقوهم على ذلك بل حاربوهم ونابذوهم ومالؤوا بطون قريش على حرب الرسول (ﷺ)؛ ولهذا كان ذم أبي طالب لهم في قصيدته اللامية أشدّ من غيرهم لشدة قربهم... وفي بعض الروايات هذا الحديث: «**إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام**»، وهذا قول جمهور العلماء أنهم بنو هاشم وبنو المطلب)[٢٨٦].

٢٤- لما أذن الله بنصر دينه، وإعزاز رسوله، وفتح مكة، ثم حجة الوداع، كان النبي (ﷺ) يؤثر أن ينزل في خيف بني كنانة ليتذكر ما كانوا فيه من الضيق والاضطهاد، فيشكر الله على ما أنعم عليه من الفتح العظيم، ودخولهم مكة -التي أخرجوا منها-، وليؤكد قضية انتصار الحق واستعلائه، وتمكين الله لأهله الصابرين[٢٨٧]، فعن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله! أين تنزل غدًا؟ في حجته -، قال: «وهل ترك لنا عقيلاً منزلاً؟» ، ثم قال: «نحن نازلون غدًا بخيف بني كنانة، المحصب، حيث قاسمت قريش على الكفر»، وذلك أن بني كنانة حالفت قريش على بني هاشم أن لايبايعوهم ولا يؤوهم. قال الزهري: والخيف الوادي[٢٨٨].

٢٥- على كل شعب في أي وقت، يسعى لتطبيق شرع الله عليه، أن يضع في حسبانه احتمالات الحصار والمقاطعة من أهل الباطل، فالكفر ملة واحدة، فعلى قادة الأمة الإسلامية تهيئة أنفسهم وأتباعهم لمثل هذه الظروف، وعليهم وضع الحلول المناسبة لها إذا حصلت، وأن تفكر بمقاومة الحصار بالبدائل المناسبة كي تتمكن الأمة من الصمود في وجه أي نوع من أنواع الحصار[٢٨٩].

●●●

---

(٢٨٦) تفسير ابن كثير.

(٢٨٧) انظر: الغرباء الأولون ص١٤٩ .

(٢٨٨) البخاري ، كتاب الجهاد ١٨٠ ، باب إذا أسلم قوم في دار الحرب (٤/ ٣٣) .

(٢٨٩) انظر: في السيرة النبوية قراءة في جوانب الحذر والحماية ص٩٨ .



الفصل الرابع

هجرة الحبشة ومحنة الطائف ومنحة الإسراء





المبحث الأول

تعامل النبي (ﷺ) مع سنة الأخذ بالأسباب

من السنن الربانية التي تعامل معها النبي (ﷺ) سنّة الأخذ بالأسباب، والأسباب جمع سبب وهو كل شيء يتوصل به إلى غيره، وسنّة الأخذ بالأسباب مقررة في كون الله تعالى، بصورة واضحة، فلقد خلق الله هذا الكون بقدرته، وأودعه من القوانين والسنن ما يضمن استقراره واستمراره، وجعل المسببات مرتبطة بالأسباب بعد إرادته تعالى؛ فجعل عرشه سبحانه محمولاً بالملائكة، وأرسى الأرض بالجبال، وأنبت الزرع بالماء . . . . . وغير ذلك.

ولو شاء الله رب العالمين لجعل كل هذه الأشياء وغيرها -بقدرته المطلقة- غير محتاجة إلى سبب، ولكن هكذا اقتضت مشيئة الله تعالى وحكمته، الذي يريد أن يوجه خلقه إلى ضرورة مراعاة هذه السنّة ليستقيم سير الحياة على النحو الذي يريده سبحانه، وإذا كانت سنة الأخذ بالأسباب مبرزة في كون الله تعالى بصورة واضحة، فإنها كذلك مقررة في كتاب الله تعالى، ولقد وجه الله عباده المؤمنين إلى وجوب مراعاة هذه السنّة في كل شؤونهم، الدنيوية، والأخروية سواء، قال تعالى: ﴿**وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ (سورة التوبة، الآية: ١٠٥).

وقال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**﴾ (سورة الملك، الآية: ١٥).

ولقد أخبرنا القرآن الكريم أن الله تعالى طلب من السيدة مريم أن تباشر الأسباب وهي في أشد حالات ضعفها قال تعالى: ﴿**وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا**﴾ (سورة مريم، الآية: ٢٥).

وهكذا يؤكد الله تعالى على ضرورة مباشرة الأسباب في كل الأمور والأحوال. ورسول الله (ﷺ) كان أوعى الناس لهذه السنّة الربانية، فكان وهو يؤسس لبناء الدولة الإسلامية يأخذ بكل ما في وسعه من أسباب، ولا يترك شيئًا يسيرًا جزافًا، وقد لمسنا ذلك في ما مضى وسنلمس ذلك فيما بقي بإذن الله تعالى.

وكان -عليه الصلاة والسلام- يوجه أصحابه دائمًا إلى مراعاة هذه السنّة الربانية في أمورهم الدنيوية والأخروية على السواء[1] وقد كان في حس الأمة الإسلامية في صدرها الزاهر أن إيمانها بقدرة الله تعالى المطلقة وقضائه وقدره لا يتعارض مع اتخاذ الأسباب، لقد كانوا يدركون أن لله تعالى سننًا في هذا الكون وفي حياة البشر غير قابلة للتغيير. ومع أن لله تعالى سننًا خارقة تملك أن تصنع كل شيء، ولا يعجزها شيء إلا أن الله تعالى جلت

---

(١) انظر: التمكين للأمة الإسلامية ص٢٤٨ إلى ٢٤٩ ، ٢٥٠ .

قدرته قد قضى بأن تكون سنته الجارية ثابتة في الحياة الدنيا، وأن تكون سنته الخارقة استثناء لها، وكلتاهما معلقة بمشيئة الله، لذلك كان في حسهم أنه لا بد لهم من مجاراة السنن الجارية إذا رغبوا في الوصول إلى نتيجة معينة في واقع حياتهم، أي أنه لا بد من اتخاذ الأسباب المؤدية إلى النتائج بحسب تلك السنن الجارية [٢].

وإن تخلف المسلمين اليوم عن ركب الزعامة العالمية لم يكن ظلمًا نزل بهم، بل كان العدل الإلهي مع قوم نسوا رسالتهم، وحطوا مكانتها، وشابوا معدنها بركام هائل من الأهواء والأوهام في مجال العلم والعمل على سواء، وأهملوا السنن الربانية وظنوا أن التمكين قد يكون بالأماني والأحلام ولكن هيهات: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (سورة آل عمران، الآية: ١٨٢) وربما سائل يقول: ولكن إذا كان هذا عقابَ اللهَ للمؤمنين الذين عصوه، فما بال الكافرين الذين جحدوه سبحانه بالمرة، ومع ذلك فإنهم ممكنين في الأرض -من الناحية المادية- غاية التمكن؟

إن هؤلاء الكفار لم يبلغوا ما بلغوه لأنهم أقرب من الله أو أرضى له، ولم يبلغوا ما بلغوا بسحر أو بمعجزة أو لأنهم خلق آخر متميز، ولم يقيموا الصناعات أو يجوبوا البحار، أو يخترقوا أجواء الفضاء لأن عقيدتهم حق، أو لأن فكرهم سليم... إنهم بلغوا ذلك لأن السبيل إلى هذا التقدم درب مفتوح لجميع خلق الله مؤمنهم وكافرهم، برهم وفاجرهم قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ﴾ (سورة هود، الآية: ١٥).

إن الله سبحانه وتعالى -جعل التمكين في الحياة يمضي بالجهد البشري، وبالطاقة البشرية على سنن ربانية ثابتة، وقوانين لا تتبدل ولا تتحول؛ فمن يقدم الجهد الصادق ويخضع لسنن الحياة يصل على قدر جهده وبذله وعلى قدر سعيه وعطائه.

إنها السنة التي أردها الله في هذه الحياة، إنها مشيئته وسنته، وإرادته؛ صحيح أن هذا التقدم كله لا يفتح للكافرين أبواب الجنة ولا يغني عنهم شيئًا، ولكن التقصير من جانب المسلم إثم يحاسب عليه [٣].

التوكل على الله والأخذ بالأسباب:

التوكل على الله -تعالى- لا يمنع من الأخذ بالأسباب، فالمؤمن يتخذ الأسباب من باب الإيمان بالله وطاعته فيما يأمر به من اتخاذها، ولكنه لا يجعل الأسباب هي التي تنشىء النتائج فيتوكل عليها.

إن الذي ينشئ النتائج -كما ينشئ الأسباب- هو قدر الله ولا علاقة بين السبب والنتيجة في شعور المؤمن... اتخاذ السبب عبادة بالطاعة وتحقق النتيجة قدر منالله مستقل عن السبب

(٢) انظر: مفاهيم ينبغي أن تصحح ص٢٦٢ وما بعدها، بتصرف لمحمد قطب.
(٣) انظر: لقاء المؤمنين، عدنان النحوي (٢/ ١٢٤) وما بعدها بتصرف.

لا يقدر عليه إلا الله وبذلك يتحرر شعور المؤمن من التعبد للأسباب والتعلق بهذا، وفي الوقت ذاته هو يستوفيها بقدر طاقته لينال ثواب طاعة الله في استيفائها [٤].

ولقد قرر النبي (ﷺ) في أحاديث كثيرة ضرورة الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله تعالى، كما نبه -عليه السلام- على عدم تعارضهما.

يروي أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلاً وقف بناقته على باب المسجد وهمّ بالدخول، فقال يا رسول الله، أرسل راحلتي وأتوكل؟ . . وكأنه كان يفهم أن الأخذ بالأسباب ينافي التوكل على الله تعالى، فوجهه النبي (ﷺ) إلى أن مباشرة الأسباب أمر مطلوب ولا ينافي -بحال من الأحوال- التوكل على الله تعالى ما صدقت النية في الأخذ بالأسباب، فقال له (ﷺ) : «بل قيدها وتوكل» [٥].

وهذا الحديث من الأحاديث التي تبين أنه لا تعارض بين التوكل والأخذ بالأسباب، بشرط عدم الاعتقاد في الأسباب والاعتماد عليها ونسيان التوكل على الله، وروى عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله (ﷺ) : «**لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خماصًا وتروح بطانا**» [٦].

وفي هذا الحديث الشريف حث على التوكل مع الإشارة إلى أهمية الأخذ بالأسباب حيث أثبت الغدو والرواح للطير مع ضمان الله تعالى الرزق لها.

ويمكن تلخيص نظرة الإسلام في هذه القضية في النقاط التالية:

١- يقرر الإسلام مبدأ الأخذ بالأسباب . . . . ذلك؛ لأن تعطيل الأخذ بالأسباب تعطيل للشرع، ولمصالح الدنيا.

٢- الاعتماد على الأخذ بالأسباب وحدها مع ترك التوكل على الله شرك.

٣- يربط الإسلام اتخاذ الأسباب بالتوحيد، مع الاعتقاد بأن أمر الأسباب كلها بيد الله.

٤- المطلوب من المسلم إذا هو اتخاذ الأسباب مع التوكل على الله تعالى [٧].

ولابد للأمة الإسلامية أن تدرك أن الأخذ بالأسباب للوصول إلى التمكين أمر لا محيص عنه، وذلك بتقرير الله تعالى حسب سنته التي لا تتخلف، ومن رحمة الله تعالى أنه لم يطلب من المسلمين فوق ما يستطيعونه من الأسباب، ولم يطلب منهم أن يُعدوا العدة التي تكافئ تجهيز الخصم ولكنه سبحانه قال: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ**﴾ (سورة الأنفال، الآية: ٦٠).

---

(٤) في ظلال القرآن (٣/١٤٧٦) .

(٥) رواه الترمذي (٤/٥٧٦) كتاب صفة القيامة باب ما جاء في التوكل .

(٦) رواه أحمد في مسنده (١/٥٢) ، وكتاب الزهد ص٢٥ وقال الشيخ أحمد شاكر إسناده صحيح .

(٧) انظر: التمكين للأمة الإسلامية ص٢٥٤ .

فكأنه تعالى يقول لهم: افعلوا أقصى ما تستطيعون احشدوا أقصى إمكاناتكم ولو كانت دون إمكانات الخصوم، فالاستطاعة هي الحد الأقصى المطلوب، وما يزيد على ذلك يتكفل الله تعالى به بإمكاناته التي لا حدود لها وذلك لأن فعل أقصى المستطاع هو برهان الإخلاص، وهو الشرط المطلوب لينزل عون الله ونصره (٨).

إن النداء اليوم موجه لجماهير الأمة الإسلامية بأن يتجاوزوا مرحلة الوهن والغثاء إلى مرحلة القوة والبناء وأن يودّعوا الأحلام والأمنيات وينهضوا للأخذ بكل الأسباب التي تعينهم على إقامة دولة الإسلام، وصناعة حضارة الإنسان الموصول برب العالمين.

وعلى الأمة أن تراعي سنن الله المبثوثة في كونه، والظاهرة في قرآنه الكريم وذلك لتسير على طريق النهوض بنور من الله تعالى.

إن النبي (ﷺ) أخذ بسنن الله تعالى منذ البعثة حتى وفاته ولم يفرط في أي منها، فتعامل مع سنّة الله في تغيير النفوس، وسنّة التدافع مع الباطل، وسنّة التدرج في بناء الجماعة ثم الدولة، وسنّة الابتلاء، واستفرغ (ﷺ) جهده في الأخذ بالأسباب التي توصل للتمكين، فكانت هجرتي الحبشة، وذهابه للطائف، وعرضه للدعوة على القبائل، ثم هجرته إلى المدينة، فأقام الدولة وحافظ عليها وسار أصحابه من بعده على نهجه وتعاملوا مع السنن بوعي وبصيرة وصنعوا حضارة لم يعرف التاريخ البشري مثلها حتى يومنا هذا.

إن حركة النبي (ﷺ) في تربية الأمة وإقامة الدولة، نور يهتدي به، وسنّة يقتدى بها في هذه البحور المتلاطمة والمناهج المتغايرة، والظلام البهيم وإنها ليسيرة على من يسرها الله له.

• • •

(٨) انظر: الإسلام في خندق، مصطفى محمود ص٦٤ .



المبحث الثاني
الهجرة إلى الحبشة

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة النحل، الآية: ٤١).

فقد نقل القرطبي -رحمه الله- قول قتادة -رحمه الله- : (المراد أصحاب محمد (ﷺ)، ظلمهم المشركون بمكة وأخرجوهم حتى لحق طائفة منهم بالحبشة ثم بوأهم الله تعالى دار الهجرة وجعل لهم أنصارًا من المؤمنين) [٩].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (سورة الزمر، الآية ١٠).

قال ابن عباس -رضي الله عنهما- : يريد جعفر بن أبي طالب والذين خرجوا معه إلى الحبشة [١٠].

قال تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ (سورة العنكبوت، الاية: ٥٦).

قال ابن كثير -رحمه الله-: هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرون فيه على إقامة الدين إلى أرض الله الواسعة حتى يمكن إقامة الدين ... إلى أن قال: ولهذا ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ليأمنوا على دينهم هناك، فوجدوا خير المنزل هناك أصحمة النجاشي ملك الحبشة، -رحمه الله تعالى- [١١].

أولاً: الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة:

١- أسباب الهجرة إلى الحبشة:

اشتد البلاء على أصحاب رسول الله (ﷺ) وجعل الكفار يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش ورمضاء مكة والنار ليفتنوهم عن دينهم، فمنهم من يفتتن من شدة البلاء وقلبه مطمئن بالإيمان، ومنهم من تصلب في دينه ويعصمه الله منهم؛ فلما رأى رسول الله (ﷺ) ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية، لمكانه من الله، ومن عمه أبي طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: **«لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكًا لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق حتى يجعل لكم فرجًا مما أنتم فيه»**

---

(٩) الجامع لأحكام القرآن (١٠/١٠٧).

(١٠) نفس المصدر (١٥/ ٢٤٠).

(١١) سيرة ابن هشام (١/٣٤٣)، السيرة لابن كثير (٢/٣)، الهجرة في القرآن الكريم، أحزمي سامعون ص٢٩٠.

(فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله (ﷺ) إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة، وفرارًا إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة كانت في الإسلام)[١٢]، وقد ذكر الباحثون أسبابًا عديدة في سبب هجرة المسلمين إلى الحبشة منها ما ذكرت.

ومنها :ظهور الإيمان:

حيث كثر الداخلون في الإسلام، وظهر الإيمان، وتحدث الناس به، قال الزهري في حديثه عن عروة في هجرة الحبشة: فلما كثر المسلمون، وظهر الإيمان، فتُحدث به، ثار المشركون من كفار قريش بمن آمن من قبائلهم يعذبونهم ويسجنونهم وأرادوا فتنتهم عن دينهم فلما بلغ ذلك رسول الله (ﷺ) قال للذين آمنوا به: «**تفرقوا في الأرض**»، قالوا: فأين نذهب يا رسول الله؟ قال: «**ها هنا**»، وأشار إلى أرض الحبشة [١٣].

ومنها: الفرار بالدين:

كان الفرار بالدين خشية الافتتان فيه سببًا مهمًا من أسباب هجرتهم للحبشة؛ قال ابن إسحاق: (فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله (ﷺ) إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفرارًا إلى الله بدينهم) [١٤].

ومنها: نشر الدعوة خارج مكة:

قال الأستاذ سيد قطب: (ومن ثم كان يبحث الرسول (ﷺ) عن قاعدة أخرى غير مكة، قاعدة تحمي هذه العقيدة وتكفل لها الحرية، ويتاح فيها أن تتخلص من هذا التجميد الذي انتهت إليه في مكة، حيث تظفر بحرية الدعوة وحماية المعتنقين لها من الاضطهاد والفتنة، وهذا في تقديري كان هو السبب الأول والأهم للهجرة، ولقد سبق الاتجاه إلى الحبشة، حيث هاجر إليها كثير من المؤمنين الأوائل، والقول بأنهم هاجروا إليها لمجرد النجاة بأنفسهم لا يستند إلى قرائن قوية، فلو كان الأمر كذلك لهاجر إذن أقل الناس وجاهة وقوة ومنعة من المسلمين، غير أن الأمر كان على الضد من هذا، فالموالي المستضعفون الذين كان ينصب عليهم معظم الاضطهاد والتعذيب والفتنة لم يهاجروا، إنما هاجر رجال ذوو عصبيات، لهم من عصبيتهم -في بيئة قبلية- ما يعصمهم من الأذى ويحميهم من الفتنة، وكان عدد القرشيين يؤلف غالبية المهاجرين...) [١٥].

ووافق الغضبان سيدًا في ما ذهب إليه: (وهذه اللفتة العظيمة من «سيد» - رحمه الله - لها في السيرة ما يعضدها ويساندها، وأهم ما يؤكدها في رأيي هو الوضع العام الذي انتهى إليه أمر مهاجرة الحبشة، فلم نعلم أن رسول الله قد بعث في طلب مهاجرة الحبشة حتى

(١٢) الهجرة في القرآن الكريم، أحزمي سامعون ص٢٩٠.
(١٣) المغازي النبوية، للزهري، تحقيق: سهيل زكار ص٩٦.
(١٤) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٩٨).
(١٥) في ظلال القرآن (١/ ٢٩).

مضت هجرة يثرب وبدر وأحد والخندق والحديبية، لقد بقيت يثرب معرضة لاجتياح كاسح من قريش خمس سنوات وكان آخر هذا الهجوم والاجتياح في الخندق، وحين اطمأن رسول الله (ﷺ) إلى أن المدينة قد أصبحت قاعدة أمينة للمسلمين وانتهى خطر اجتياحها من المشركين عندئذ بعث في طلب المهاجرين من الحبشة، ولم يعد ثمة ضرورة لهذه القاعدة الاحتياطية التي كان من الممكن أن يلجأ إليها رسول الله (ﷺ) لو سقطت يثرب في يد العدو(١٦).

ويميل الأستاذ دروزة إلى أن فتح مجال للدعوة في الحبشة سببًا من أسباب هجرة الحبشة حيث يقول: (بل إنه ليخطر بالبال أن يكون من أسباب اختيار الحبشة النصرانية أمل وجود مجال للدعوة فيها، وأن يكون هدف انتداب جعفر متصلاً بهذا الأمل) (١٧)، وذهب إلى هذا القول الدكتور سليمان بن حمد العودة: ومما يدعم الرأي القائل بكون الدعوة للدين الجديد في أرض الحبشة سببًا وهدفًا من أسباب الهجرة إسلام النجاشي، وإسلام آخرين من أهل الحبشة، وأمر آخر، فإذا كان ذهاب المهاجرين للحبشة بمشورة النبي (ﷺ)، وتوجيهه فبقاؤهم في الحبشة إلى فتح خيبر بأمر النبي (ﷺ) وتوجيهه، وفي صحيح البخاري: فقال جعفر: للأشعريين- حين وافقوه بالحبشة: (إن رسول الله (ﷺ) بعثنا هنا، وأمرنا بالإقامة فأقيموا معنا)(١٨).

وهذا يعني أنهم ذهبوا لمهمة معينة ، ولا أشرف من مهمة الدعوة لدين الله، وأن هذه المهمة قد انتهت حين طلب المهاجرون (١٩).

ومنها، البحث عن مكان آمن للمسلمين:

كانت الخطة الأمنية للرسول (ﷺ) تستهدف الحفاظ على الصفوة المؤمنة ولذلك رأى الرسول (ﷺ) أن الحبشة تعتبر مكانًا آمنًا للمسلمين ريثما يشتد عود الإسلام وتهدأ العاصفة، وقد وجد المهاجرون في أرض الحبشة ما أمنهم وطمأنهم، وفي ذلك تقول أم سلمة رضي الله عنها: (لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشي، أمنا على ديننا وعبدنا الله تعالى لا نؤذى. .)(٢٠).

٢- لماذا اختار النبي (ﷺ) الحبشة؟

هناك عدة أسباب تساعد الباحث للإجابة على لماذا اختار النبي (ﷺ) الحبشة؟ منها:

أ- النجاشي العادل:

أشار النبي (ﷺ) إلى عدل النجاشي بقوله لأصحابه: «**لو خرجتم إلى أرض الحبشة،**

---

(١٦) المنهاج الحركي للسيرة (١/ ٦٧ ، ٦٨) .

(١٧) سيرة الرسول ((١/ ٢٦٥) عن الشامي ص١١١ .

(١٨) الصحيح مع الفتح (٦/ ٢٣٧) .

(١٩) انظر: الهجرة الأولى في الإسلام ، د . سليمان العودة ص٣٤ .

(٢٠) السيرة النبوية لابن هشام تحقيق همام أبو صعليك (١/ ٤١٣) .

فإن بها ملكًا لا يظلم عنده أحد»[٢١].

ب- النجاشي الصالح:

فقد ورد على النبي (ﷺ) ثناءه على ملك الحبشة بقوله: **«وكان بالحبشة ملك صالح يقال له النجاشي، لا يظلم أحد بأرضه، وكان يثني عليه مع ذلك صلاح - أي يشيع عنه ذلك»**[٢٢] ويظهر هذا الصلاح في حمايته للمسلمين، وتأثره بالقرآن الكريم عندما سمعه من جعفر رضي الله عنه، وكان معتقده في عيسى عليه السلام صحيحًا.

ج- الحبشة متجر قريش:

إن التجارة كانت عماد الاقتصاد القرشي، والحبشة تعتبر من مراكز التجارة في الجزيرة، فربما عرفها بعض المسلمين عندما ذهبوا إليها في التجارة، أو ذكرها لهم من ذهب إليها قبلهم وقد ذكر الطبري في معرض ذكره لأسباب الهجرة للحبشة: (وكانت أرض الحبشة متجرًا لقريش، يتجرون فيها، يجدون فيها رفاغًا من الرزق وأمنًا، ومتجرًا حسنًا)[٢٣].

كما ذكر ابن عبد البر أن رسول الله (ﷺ) حين دخل الشعب، أمر من كان بمكة من المؤمنين أن يخرجوا إلى أرض الحبشة، وكان متجرًا لقريش..)[٢٤].

وذكر ابن حبان - ضمن اختيار الحبشة مكانًا للهجرة - أنها كانت أرض دفئة ترحل إليها قريش رحلة الشتاء[٢٥].

د- الحبشة البلد الآمن:

كانت قبائل العرب في تلك الفترة تدين بالولاء والطاعة لقريش وتسمع وتطيع لأمرها في الغالب، إذ لها نفوذ عليها، وكانت القبائل في حاجة لقريش في حجها وتجارتها، ومواسمها، وفوق ذلك كانوا يشاركون قريش في حرب الدعوة وعدم الاستجابة للنبي (ﷺ)، وقد أشار ابن إسحاق إلى نماذج من هؤلاء العرب الذين رفضوا عرضه ودعوته[٢٦]، فإذا كان هذا في داخل الحزيرة، فلم يكن في حينها في خارج الجزيرة بلد أكثر أمنًا من بلاد الحبشة، ومن المعلوم بعد الحبشة عن سطوة قريش من جانب، وهي لا تدين لقريش بالاتباع كغيرها من القبائل[٢٧]، وفي حديث ابن إسحاق عن أسباب اختيار الحبشة مكانًا للهجرة أنها: أرض صدق، وأن بها ملكًا لا يظلم عنده أحد[٢٨]، فهي أرض صدق، وملكها عادل،

---

(٢١) نفس المصدر (١/ ٣٩٧).

(٢٢) انظر: تاريخ الأمم والملوك للطبري (٢/ ٣٢٨).

(٢٣) مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم لعروة بن الزبير ص١٠٤.

(٢٤) انظر: الدرر في اختصار المغازي والسير ص٢٧.

(٢٥) انظر: السيرة النبوية وأخبار الخلفاء ص٧٢.

(٢٦) السير والمغازي، تحقيق سهيل زكار ص٢٣٢.

(٢٧) انظر: هجرة الرسول وأصحابه في القرآن والسنّة ص٩٧، أحمد الجمل.

(٢٨) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٩٧).

وتلك من أهم سمات البلد الآمن[٢٩].

هـ- محبة الرسول (ﷺ) للحبشة ومعرفته بها:

ففي حديث الزهري أن الحبشة كانت أحب الأرض إلى رسول الله (ﷺ) أن يهاجر إليها[٣٠] **ولعل تلك المحبة لها أسباب منها:**

* حكم النجاشي العادل.

* التزام الأحباش بالنصرانية، وهي أقرب إلى الإسلام من الوثنية، ولذلك فرح المؤمنون بانتصار النصارى على فارس المجوس المشركين في الفترة المكية سنة ثمان في البعثة كما في القرآن [٣١].

* معرفة الرسول (ﷺ) بأخبار الحبشة من خلال حاضنته أم أيمن رضي الله عنها، وأم أيمن هذه ثبت في صحيح مسلم وغيره أنها كانت حبشية [٣٢]، ونقل ذلك عن ابن شهاب، وفي سنن ابن ماجه أنها كانت تصنع للنبي (ﷺ) طعامًا فقال: «ما هذا؟» فقالت: طعام نصنعه بأرضنا، فأحببت أن أصنع لك منه رغيفًا ..[٣٣].

ولم تستطع أن تغير لكنتها الحبشية، ورخص لها النبي (ﷺ) فيما لا تستطيع نطقه، فلا يستبعد حديثها للنبي (ﷺ) عن طبيعة أرضها ومجتمعها وحكامها[٣٤]؟ ، كما أن النبي (ﷺ) كان خبيرًا بطبائع وأحوال الدول التي في زمانه.

٣- وقت خروج المهاجرين، وسرية الخروج والوصول إلى الحبشة:

غادر أصحاب رسول الله (ﷺ) مكة في رجب من السنة الخامسة للبعثة، وكانوا عشرة رجال، وأربع نسوة، وقيل خمس نسوة، وحاولت قريش أن تدركهم لتردهم إلى مكة وخرجوا في أثرهم حتى وصلوا البحر، ولكن المسلمين كانوا قد أبحروا متوجهين إلى الحبشة[٣٥].

وعند التأمل في فقه المرويات يتبين لنا سرية المهاجرين ففي رواية الواقدي: (فخرجوا متسللين سرًا)[٣٦] وعنه الطبري[٣٧] وممن ذكر السرية في الهجرة، ابن سيد الناس[٣٨]، وابن

---

(٢٩) الهجرة الأولى في الإسلام ص٤٦ .
(٣٠) مغازي الزهيري ص٩٦ .
(٣١) صحيح السيرة النبوية للطرهوني (٢/ ١٥٢) .
(٣٢) صحيح مسلم (٣/ ١٣٩٢) ، تهذيب الأسماء واللغات للنووي (٣/ ٣٥٧) .
(٣٣) سنن ابن ماجه ، كتاب الأطعمة رقم ٣٣٣٦ .
(٣٤) انظر: الهجرة الأولى في الإسلام ص٤٨ . يعتبر مبحث الحبشة جله أخذ من هذا الكتاب والذي بعده .
(٣٥) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ، أحزمي سامعون ص٢٩٠ ، ٢٩١ .
(٣٦) الطبقات (١/ ٢٠٤) .
(٣٧) تاريخ الطبري (٢/ ٣٢٩) . (٣٨) عيون الأثر (١/ ١١٦) .

القيم[٣٩]، والزرقاني [٤٠]، ولما وصل المسلمون إلى أرض الحبشة أكرم النجاشي مثواهم، وأحسن لقاءهم ووجدوا عنده من الطمأنينة بالأمن ما لم يجدوه في وطنهم وأهليهم، فعن أم سلمة زوج النبي (ﷺ) قالت: (لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار - النجاشي - أمنا على ديننا وعبدنا الله لا نؤذى ولا نسمع شيئًا نكرهه)[٤١].

● - أسماء أصحاب الهجرة الأولى إلى الحبشة من الرجال:

- عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس.
- عبد الله بن عوف بن عوف بن عبد بن الحرث بن زهرة.
- الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد.
- أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس.
- مصعب بن عمير بن هشام بن عبد مناف بن عبد الدار.
- أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم.
- عثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح.
- عامر بن ربيعة، حليف آل الخطاب، من عنز بن وائل.
- سهيل بن بيضاء وهو: سهيل بن وهب بن ربيعة بن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث.
- أبو سبرة بن أبي رهم بن عبد العزى بن أبي قيس عبد وُدّ بن نصر بن مالك بن حسل ابن عامر.

فكان هؤلاء العشرة أول من خرج من المسلمين إلى أرض الحبشة ومن النساء:

- رقية بنت النبي (ﷺ).
- سهلة بنت سهيل بن عمرو، أحد بني عامر بن لؤي، ولدت له بأرض الحبشة محمد ابن أبي حذيفة.
- أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، امرأة أبي سلمة.
- ليلى بنت أبي حثمة بن حذيفة بن غانم بن عامر بن عبد الله بن عوف بن عبيد بن عويج بن عدي بن كعب، امرأة عامر بن ربيعة.
- أم كلثوم بنت سهل بن عمرو بن عبد شمس، امرأة أبي سبرة بن أبي رهم[٤٢].

(٣٩) زاد المعاد (٣/ ٢٣).
(٤٠) شرح المواهب (١/ ٢٧١).
(٤١) انظر: مسند الإمام أحمد (١/ ٢٠١-٢٠٢).
(٤٢) البداية والنهاية (٣/ ٩٦-٩٧)، سيرة ابن هشام (١/ ٣٤٤-٣٥٢). الهجرة في القرآن الكريم ص٢٩٢ - ٢٩٤.

وكان أول من هاجر منهم عثمان بن عفان وامرأته رقية بنت رسول الله (ﷺ)، روى يعقوب بن سفيان رحمه الله: «**إن عثمان لأول من هاجر بأهله بعد لوط**»(٤٣).

إن المتأمل في الأسماء السالفة الذكر لا يجد فيهم أحدًا من الموالي الذين نالهم من أذى قريش وتعذيبها أشد من غيرهم، كبلال، وخباب، وعمار رضي الله عنهم، بل نجد غالبيتهم من ذوي النسب والمكانة في قريش، ويمثلون عددًا من القبائل، صحيح أن الأذى شمل ذوي النسب والمكانة كما طال غيرهم، ولكنه كان على الموالي أشد في بيئة تقيم وزنًا للقبيلة وترعى النسب، وبالتالي فلو كان الفرار من الأذى وحده هو السبب في الهجرة، لكان هؤلاء الموالي المعذبون أحق بالهجرة من غيرهم، ويؤيد هذا أن ابن إسحاق وغيره ذكر عدوان المشركين على المستضعفين، ولم يذكر هجرتهم للحبشة(٤٤).

ويصل الباحث إلى حقيقة مهمة ألا وهي أن ثمة أسبابًا أخرى تدفع للهجرة غير الأذى اختار لها النبي (ﷺ) نوعية من أصحابه، تمثل عددًا من القبائل، وقد يكون لذلك أثر في حمايتهم لو وصلت قريش إلى إقناع أهل الحبشة بإرجاعهم من جانب، وتهز هجرتهم قبائل قريش كلها أو معظمهم حدث هجرتهم من جانب آخر، فمكة ضاقت بأبنائها ولم يجدوا بدًا من الخروج عنها بحثًا عن الأمن في بلد آخر، ومن جانب ثالث يرحل هؤلاء المهاجرون بدين الله لينشروه إلى الآفاق، وقد تكون محلاً أطيب وأبرك للدعوة إلى الله فتفتح عقول وقلوب حين يستغلق سواها(٤٥).

ثانيًا: أسباب عودة المسلمين إلى مكة بعد هجرتهم الأولى:

١- شبهة عودة المهاجرين بسبب قصة الغرانيق:

يعزو بعض المؤرخين والمفسرين عودة المسلمين من الحبشة -بعد الهجرة- إلى مكة لأسطورة راجت كثيرًا، واحتلت مساحات واسعة من كتب المستشرقين يقصدون بذلك ترويجها وجعلها حقيقة واقعة في تاريخ الدعوة الإسلامية.

إن الذين تعرضوا لذكر تلك الأسطورة ينهجون خيالها مناهج شتى، فمنهم من يذكرها ويسكت عليها لا ينفيها ولا يثبتها، ومنهم من يحاول إثباتها، ومنهم من يورد الأدلة على بطلانها(٤٦).

وتلك الأسطورة تتلخص في أن رسول الله (ﷺ) جلس يومًا عند الكعبة، وقرأ سورة النجم حتى بلغ قوله تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى**﴾ (سورة النجم، الآيتان: ١٩-٢٠).

---

(٤٣) السنّة لابن عاصم ص٥٩٢ ، البداية والنهاية (٣/ ٦٧) . نقلاً من الهجرة في القرآن الكريم ص٢٩٤

(٤٤) البلاذري ، الأنساب (١/ ١٥٦-١٩٨) ، ابن هشام (١/ ٣٩٢-٣٩٦) .

(٤٥) انظر: الهجرة الأولى في الإسلام ص٣٧ ,

(٤٦) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ص٢٩٥ .

قرأ بعدها :(تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترجى) فقال المشركون: ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم، وقد علمنا أن الله يرزق ويحيى ويميت ولكن آلهتنا تشفع عنده، فلما بلغ السجدة سجد، وسجد معه المسلمون والمشركون كلهم. إلا شيخًا من قريش، رفع إلى جبهته كفًا من حصى فسجد عليه(٤٧).

وصافى المشركون رسول الله، وكفوا عن أذى المسلمين، وشاع في ذلك حتى بلغ من في الحبشة، فاطمأنوا إلى حسن إقامتهم في مكة، وممارستهم عباداتهم آمنين، فعادوا إلى مكة.

تلك خلاصة الأسطورة، والذين ذكروا القصة على خلال مواقفهم منها يقولون: إن رسول الله (ﷺ) لما قالت قريش: (أما جعلت لآلهتنا نصيبًا فنحن معك) كبر عليه ذلك وجلس في بيته حتى أمسى، ثم أتاه جبريل فقرأ عليه سورة النجم فقال جبريل: أوجئتك بهاتين الكلمتين؟ - يقصد (تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترجى) -فحزن الرسول حزنًا شديدًا وخاف من ربه، فأنزل الله عليه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(٤٨) (سورة الحج، الآية: ٥٢) وحينئذ عاد الرسول إلى عيب آلهتهم وتسفيه عقولهم، وعادوا هم كذلك إلى إيذاء المسلمين.

٢- تفنيد القصة الباطلة:

أنكر هذه القصة الكثير من علماء الإسلام السابقين والمحدثين، نقلاً وعقلاً، وذلك لأنها تتنافى مع عصمة الرسول (ﷺ) بل وتطعن في نبوته عليه الصلاة والسلام كما أنها تتهاوى أمام البحث العلمي، ومن الأدلة النقلية على بطلانها:

أ- أن القرآن الكريم بين بوضوح أن النبي (ﷺ) لا يستطيع أن يتقول على الله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ (سورة الحاقة، الآيات: ٤٤-٤٦)

ب- والله عز وجل قد أخبر بأنه يحفظ القرآن من أن يدخل عليه ما ليس منه أو ينقص منه شيء أو يحرف عن مواضعه، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (سورة الحجر، آية: ٩).

ولو صح أن الرسول نطق أثناء قراءته بالكلمتين المذكورتين لدخل في القرآن ما ليس منه فلا يكون هناك حفظ وهو مخالف للنص.

ج- قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (سورة النحل، الآية: ٩٩). وهل هناك بشر أصدق إيمانًا وأشد توكلاً على الله من الأنبياء ولا سيما

(٤٧) انظر: مختصر سير الرسول صلى الله عليه وسلم، لمحمد عبد الوهاب ص٨٤ .

(٤٨) فتح القدير (٣/ ٤١٦) ، فتح الباري (٨/ ٣٥٥) ، أسباب النزول للسيوطي على هامش=

خاتمهم (ﷺ)، وقد أقر رئيس الشياطين بأنه لاسلطان له على عباد الله المخلصين، فقال تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (سورة ص، الآيتان: ٨٢-٨٣).

ومن أحق من الأنبياء بالاصطفاء؟ أو من أشد إخلاصًا منهم لله؟ ونبينا محمد (ﷺ) على رأس المصطفين الأخيار، وفي الذروة منهم إخلاصًا لله(٤٩).

وقد ذكر القاضي عياض: إن من ذكرها من المفسرين وغيرهم لم يسندها أحد منهم ولا رفعها إلى صاحب إلا رواية البزار، وقد بين البزار: أنه لا يعرف من طريق يجوز ذكره، سوى ما ذكره، وفيه ما فيه(٥٠).

ورأى ابن حجر: وما قيل من ذلك أن السجود من المشركين بسبب إلقاء الشيطان في أثناء قراءة الرسول (ﷺ) لا صحة له عقلاً ونقلاً(٥١).

ورأى ابن كثير: قد ذكر كثير من المفسرين ها هنا قصة الغرانيق، وما كان من رجوع كثير من المهاجرين إلى أرض الحبشة ظنًا منهم أن مشركي قريش قد أسلموا، ولكنها من طرق كلها مرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح والله أعلم(٥٢).

(وأما بطلان القصة من جهة العقل فقد قام الدليل العقلي وأجمعت الأمة على عصمته (ﷺ) من مثل هذا، إذ لو جاز هذا من الرسول لجاز عليه الكذب، والكذب على الرسول محال، إذ صدور مثل هذه القصة عن الرسول محال، ولو قاله عمدًا أو سهوًا لم يكن هناك عصمة وهو مردود، كما أن القصة تخالف عقيدة التوحيد التي من أجلها بعث الله نبيه).

(وأما بطلان القصة لغويًا فلأنه لم يرد قط عن العرب أنهم وصفوا آلهتهم (بالغرانيق) في الشعر ولا في النثر، والذي تعرفه اللغة أن الغرنوق، والغرنيق اسم لطائر مائي أسود أو أبيض، ومن معانيه الشاب الأبيض الجميل(٥٣)، ولا شيء من معانيه اللغوية يلائم معنى الآلهة والأصنام حتى يطلق عليهما في فصيح الكلام الذي يعرض على أمراء الفصاحة والبيان، فكيف يفرح به المشركون ويعتبرونه ذكرًا لآلهتهم بالخير)(٥٤).

إن قصة الغرانيق لا تثبت من جهة النقل، وهي مخالفة للقرآن الكريم، ولما قام عليه الدليل العقلي، كما أنكرتها اللغة، وهذا مما يدلنا على أن حديث الغرانيق مكذوب اختلقته

= الجلالين (٢/ ١٦)؛ الهجرة في القرآن الكريم ص٢٩٦ .
(٤٩) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ص٢٩٨ .
(٥٠) انظر: الشفا (٢/ ١١٧) .
(٥١) فتح الباري (٨/ ٦١٤) .
(٥٢) تفسير ابن كثير والبغوي (٦/ ٦٠٠ وما بعدها) . نقلاً عن الهجرة في القرآن ص٢٩٨ .
(٥٣) القاموس المحيط (٣/ ٢٨١) مادة (الغرنوق) .
(٥٤) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ص٢٩٨ ، ٢٩٩ .

الزنادقة الذين يسعون لإفساد العقيدة والدين، والطعن في سيد الأنبياء وإمام المرسلين[٥٥].

٢- الأسباب الحقيقية لعودة المسلمين:

عاش المسلمون ثلاثة أشهر من بدء الهجرة وحدث تغير كبير على حياة المسلمين في مكة، وظروفًا نشأت لم تكن موجودة من قبل، بعثت في المسلمين الأمل في إمكان نشر الدعوة في مكة، حيث أسلم في تلك الفترة حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله (ﷺ) عصبية لابن أخيه ثم شرح الله صدره للإسلام فثبت عليه وكان حمزة أعز فتيان قريش وأشدهم شكيمة، فلما دخل في الإسلام عرفت قريش أن رسول الله (ﷺ) قد عز وامتنع وأن عمه سيمنعه ويحميه، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه[٥٦].

وبعد إسلام حمزة رضي الله عنه أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان عمر ذا شكيمة لا يرام، فلما أسلم امتنع به أصحاب رسول الله (ﷺ) وبحمزة حتى عازوا قريشًا[٥٧].

كان إسلام الرجلين العظيمين بعد خروج المسلمين إلى الحبشة، فكان إسلامهما عزة للمسلمين وقهرًا للمشركين وتشجيعًا لأصحاب رسول الله (ﷺ) على المجاهرة بعقيدتهم.

قال ابن مسعود: إن إسلام عمر كان فتحًا، وإن هجرته كانت نصرًا، وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنا ما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشًا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه[٥٨].

وعن ابن عمر قال: لما أسلم عمر قال: أي قريش أنقل للحديث؟ قيل له: جميل بن معمر الجمحي، قال: فغدا عليه، قال عبد الله: وغدوت معه أتبع أثره وأنظر ماذا يفعل حتى جاءه فقال له: أعلمت يا جميل أني أسلمت ودخلت في دين محمد؟ قال: فوالله ما راجعه حتى قام يجر رداءه وتبعه عمر، واتبعت أبي حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش وهم في أنديتهم حول الكعبة - ألا إن ابن الخطاب قد صبأ[٥٩] قال: يقول عمر من خلفه: كذب، ولكني أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله. وثاروا إليه فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم وطلع فقعد وقاموا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم فأحلف بالله أن لو كنا ثلاثمائة لقد تركناها أو تركوها لنا[٦٠] (لقد أصبح المسلمون إذًا في وضع غير الذي كانوا فيه قبل الهجرة إلى الحبشة، فقد امتنعوا بحمزة وعمر - رضي الله عنهما - واستطاعوا أن يصلوا عند الكعبة

(٥٥) انظر: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنّة لأبي شهبة (١/ ٣٧٢).
(٥٦) مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، محمد عبد الوهاب ص٩٠.
(٥٧) السيرة النبوية (١/ ٢٩٤)، وهازوا قريشًا: أي غلبوهم.
(٥٨) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٦٥).
(٥٩) صبأ: خرج من دين إلى دين آخر: القاموس المحيط، باب الهمزة (١/ ٢٠).
(٦٠) سبل الهدى والرشاد للصالحي (٢/ ٤٩٨-٤٩٩).

بعد أن كانوا لا يقدرون على ذلك، وخرجوا من بيت الأرقم بن أبي الأرقم مجاهرين حتى دخلوا المسجد، وكفت قريش عن إيذائهم بالصورة الوحشية التي كانت تعذبهم بها قبل ذلك، فالوضع قد تغير بالنسبة للمسلمين، والظروف التي كانوا يعيشون فيها قبل الهجرة قد تحولت إلى أحسن، فهل ترى هذا يخفى على أحد؟ وهل تظن أن هذه التغييرات التي جرت على حياة المسلمين في مكة لم تصل إلى أرض الحبشة، ولو عن طريق البحارة الذين كانوا يمرون بجدة؟

لا بد أن كل ذلك قد وصلهم، ولا شك أن هؤلاء الغرباء قد فرحوا بذلك كثيرًا، ولايستغرب أحد بعد ذلك أن يكون الحنين إلى الوطن - وهو فطرة فطر الله عليها جميع المخلوقات - قد عاودهم ورغبت نفوسهم في العودة إلى حيث الوطن العزيز مكة أم القرى، وإلى حيث يوجد الأهل والعشيرة، فعادوا إلى مكة في ظل الظروف الجديدة والمشجعة، وتحت إلحاح النفس وحنينها إلى حرم الله وبيته العتيق)(٦١).

لقد رجع المهاجرون إلى مكة بسبب ما علموا من إسلام حمزة وعمر واعتقادهم أن إسلام هذين الصحابيين الجليلين سيعتز به المسلمون وتقوى شوكتهم.

ولكن قريش واجهت إسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما بتدبيرات جديدة يتجلى فيها المكر والدهاء من ناحية، والقسوة والعنف من ناحية أخرى، فزادت في أسلحة الإرهاب التي تستعملها ضد النبي (ﷺ) وأصحابه رضي الله عنهما سلاحًا قاطعًا وهو سلاح المقاطعة الاقتصادية - وقد تحدثت عنه - وكان من جراء ذلك الموقف العنيف أن رجع المسلمون إلى الحبشة مرة ثانية، وانضم إليهم عدد كبير ممن لم يهاجروا قبل ذلك(٦٢).

ثالثًا: هجرة المسلمين الثانية إلى الحبشة:

قال ابن سعد: قالوا: لما قدم أصحاب النبي (ﷺ) مكة من الهجرة الأولى اشتد عليهم قومهم وسطت بهم عشائرهم ولقوا منهم أذى شديدًا، فأذن لهم رسول الله (ﷺ) في الخروج إلى أرض الحبشة مرة ثانية، فكانت خرجتهم الثانية أعظمها مشقة، ولقوا من قريش تعنيفًا شديدًا ونالوهم بالأذى واشتد عليهم ما بلغهم عن النجاشي من حسن جواره لهم، فقال عثمان بن عفان: يا رسول الله فهجرتنا الأولى وهذه الآخرة ولست معنا؟ فقال رسول الله (ﷺ): «**أنتم مهاجرون إلى الله تعالى وإلي، لكم هاتان الهجرتان جميعًا**» قال عثمان: فحسبنا يا رسول الله(٦٣).

(٦١) تأملات في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، لمحمد سيد الوكيل ص٥٩، الهجرة في القرآن الكريم ص٣٠٢.

(٦٢) انظر: القول المبين في سيرة سيد المرسلين، د. محمد النجار ص١١١، الهجرة في القرآن الكريم ص٣٠٢.

(٦٣) طبقات ابن سعد (١/٢٠٧) (ط. بيروت)، الهجرة في القرآن الكريم ص٣٠٣.

وهاجر معهم كثيرون غيرهم أكثر منهم، وعدتهم - كما قال ابن إسحاق وغيره- ثلاثة وثمانون رجلاً إن كان عمار بن ياسر فيهم واثنان وثمانون رجلاً إن لم يكن فيهم، قال السهيلي :وهو الأصح عند أهل السير كالواقدي، وابن عقبة وغيرهما[٦٤]، وثمان عشرة امرأة: إحدى عشرة قرشيات، وسبع غير قرشيات، وذلك عدا أبنائهم الذين خرجوا معهم صغارًا، ثم الذين ولدوا لهم فيها[٦٥].

١- سعي قريش لدى النجاشي في رد المهاجرين:

لما رأت قريش أن أصحاب رسول الله (ﷺ) قد آمنوا، واطمأنوا بأرض الحبشة، وأنهم قد أصابوا بها دارًا واستقرارًا، وحسن جوار من النجاشي، وعبدوا الله لا يؤذيهم أحد، ائتمروا فيما بينهم أن يبعثوا وفدًا للنجاشي لإحضار من عنده من المسلمين إلى مكة بعد أن يوقعوا بينهم وبين ملك الحبشة، إلا أن هذا الوفد خدم الإسلام والمسلمين من حيث لا يدري، فقد أسفرت مكيدته عند النجاشي عن حوار هادف دار بين أحد المهاجرين وهو جعفر ابن أبي طالب، وبين ملك الحبشة أسفر هذا الحوار عن إسلام النجاشي، وتأمين المهاجرين المسلمين عنده[٦٦].

فعن أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة زوج النبي (ﷺ) قالت: لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار (النجاشي) أمنا على ديننا وعبدنا الله تعالى لا نؤذى ولا نسمع شيئًا نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشًا ائتمروا أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين جلدين[٦٧]، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها إليه الأدم[٦٨]، فجمعوا له أدمًا كثيرًا، ولم يتركوا من بطارقته [٦٩] بطريقًا إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي، وعمرو بن العاص بن وائل السهمي، وأمروهما أمرهم، وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلموا النجاشي فيهم، ثم قدموا للنجاشي هداياه، ثم سلوه أن يسلمهم إليكم قبل أن يكلمهم قال: فخرجا فقدما على النجاشي، ونحن عنده بخير دار وخير جار. فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي، ثم قالا لكل بطريق منهم: إنه صبأ إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشرف قومهم، لنردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم فإن قومهم أعلى[٧٠] بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم،

---

(٦٤) انظر: الروض الأنف للسهيلي (٣/٢٢٨) .

(٦٥) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ص٣٠٣ .

(٦٦) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ص٣٠٤ .

(٦٧) الجلد ، القوة والشدة .

(٦٨) الأدم: جمع أديم وهو الجلد المدبوغ .

(٦٩) جمع بطريق: وهو الحاذق بالحرب وأمورها بلغة الروم .

(٧٠) أعلى بهم عينًا: قال السهيلي: أي أبصر بهم ، أي عينهم وأبصارهم فوق عين غيرهم في =

فقالوا لهما: نعم .ثم إنهما قربا هداياهم إلى النجاشي فقبلها منهما، ثم كلماه فقالا: أيها الملك إنه قد صبأ إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنت ،وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم لتردهم إليهم فهم أعلى بهم عينًا وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

قالت: ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص من أن يسمع النجاشي كلامهم، فقالت بطارقته حوله: صدقوا أيها الملك قومهم أعلى بهم عينًا وأعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهما فليردانهم إلى بلادهم وقومهم.

قالت: فغضب النجاشي ثم قال: لا هايم(٧١) الله إذا لا أسلمهم إليهما ولا أكاد(٧٢)، قومًا جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي حتى أدعوهم فأسألهم ما يقول هذان في أمرهم؟ فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما، وأحسنت جوارهم، ما جاوروني(٧٣).

٢- حوار بين جعفر والنجاشي:

ثم أرسل النجاشي إلى أصحاب رسول الله (ﷺ) فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول، والله ما علمنا وما أمرنا به نبينا (ﷺ) كائنًا في ذلك ما هو كائن، فلما جاءه وقد دعا النجاشي أساقفته (٧٤)، فنشروا مصاحفهم (٧٥) حوله، سألهم فقال: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا ديني ولا دين أحد من هذه الأمم؟

قالت :فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه فقال له: أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، يأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه، وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.

قالت: فعدد عليه أمور الإسلام ،فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئًا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا،

= أمرهم: الروض الأنف (١/ ٩٢) .

(٧١) كما لو قيل: هاوالله .

(٧٢) لا أكاد: قال في اللسان: يقولون إذا حمل أحدهم ما يكره: لا والله ولا كيد .

(٧٣) أخرجه أحمد (٥/ ٢٩٠) إسناده صحيح .

(٧٤) أساقفته: جمع الأسقف ، وهو العالم والرئيس من علماء النصارى .

(٧٥) أي أناجيلهم وكانوا يسمونها مصاحف .

فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا، وشقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلدك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك(٧٦).

قالت: فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله شيء؟ قال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقرأه عليّ؟

فقرأ عليه صدرًا من ﴿كهيعص﴾، قالت: فبكى والله النجاشي، حتى أخضل(٧٧) لحيته، وبكت أساقفته، حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم.

ثم قال النجاشي: إن هذا والله والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكم أبدًا ولا أكاد(٧٨).

٣- محاولة أخرى للدس بين المهاجرين والنجاشي:

فلما خرج كل من عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة من عند النجاشي قال عمرو ابن العاص: لأنبئهم غدًا عيبهم عندهم، ثم أستأصل به خضراءهم(٧٩)، قالت: فقال له عبد الله بن أبي ربيعة -وكان أتقى الرجلين - لا تفعل، فإن لهم أرحامًا، وإن كانوا قد خالفونا.

قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبد، قالت: ثم غدا عليه الغد فقال له: أيها الملك إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيمًا فأرسل إليهم فاسألهم عما يقولون فيه، قالت: فارسل إليهم يسألهم عنه قالت: ولم ينزل بنا مثله، فاجتمع القوم فقال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول، والله فيه، ما قال الله، وما جاء به نبينا كائنًا في ذلك ما هو كائن، فلما دخلوا عليه، قال لهم: ما تقولون في عيسى ابن مريم؟

فقال له جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاء به نبينا: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء، البتول(٨٠).

قالت: فضرب النجاشي يده إلى الأرض فأخذ منها عودًا، ثم قال: ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود، فتناخرت(٨١) بطارقته حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم

---

(٧٦) مسند الإمام أحمد (١/٢٠٢، ٢٠٣).

(٧٧) ابتلت بالدموع: يقال خضل وأخضل إذا ندي. النهاية (٣/٤٣).

(٧٨) مسند الإمام أحمد (١/٢٠٢، ٢٠٣).

(٧٩) استأصل به خضراءهم: أي أقضي به على دهمائهم وسوادهم، الهجرة في القرآن الكريم ص٣٠٧

(٨٠) العذراء: الجارية التي لم يمسها رجل وهي البكر يقال امرأة بتول: منقطعة عن الرجال لا شهوة لها فيهم.

(٨١) فتناخرت: أي تكلمت وكأنه كلام مع غضب ونفور.

والله، اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي (والشيوم الآمنون) من يسبكم غَرِمَ، ثم من سبكم غرم، فما أحب أن لي دبرًا ذهبًا، وإني آذيت رجلاً منكم، والدبر بلسان الحبشة الجبل، ردوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لنا بها، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد عليّ ملكي؛ فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس في أطيعهم فيه، قالت: فخرجا من عنده مقبوحين مردودًا عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار[٨٢].

٤- إسلام النجاشي:

وقد أسلم النجاشي، وصدق بنبوة النبي (ﷺ) وإن كان قد أخفى إيمانه عن قومه، لما علمه فيهم من الثبات على الباطل وحرصهم على الضلال، وجمودهم على العقائد المنحرفة وإن صادمت العقل والنقل[٨٣]، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: «أن رسول الله (ﷺ) نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه، وخرج بهم إلى المصلى، فصف بهم وكبر عليه أربع تكبيرات»[٨٤]، وعن جابر رضي الله عنه قال: قال النبي (ﷺ) حين مات النجاشي: **«مات اليوم رجل صالح، فقوموا فصلوا على أخيكم أصحمة»**[٨٥].

رضي الله عنه وأرضاه وكانت وفاته -رحمه الله- سنة تسع عند الأكثر وقيل سنة ثمان قبل فتح مكة[٨٦].

دروس وعبر وفوائد:

١- إن ثبات المؤمنين على عقيدتهم بعد أن يُنزل بهم الأشرار والضالون أنواع العذاب والاضطهاد، دليل على صدق إيمانهم وإخلاصهم في معتقداتهم، وسمو نفوسهم وأرواحهم، بحيث يرون ما هم عليه من راحة الضمير واطمئنان النفس والعقل، وما يأملونه من رضا الله جل شأنه أعظم بكثير مما ينال أجسادهم من تعذيب وحرمان واضطهاد، لأن السيطرة في المؤمنين الصادقين والدعاة المخلصين، تكون دائمًا وأبدًا لأرواحهم لا لأجسادهم، وهم يسرعون إلى تلبية مطالب أرواحهم من حيث لا يبالون بما تتطلبه أجسامهم من راحة وشبع ولذة، وبهذا تنتصر الدعوات وبهذا تتحرّر الجماهير من الظلمات والجهالات[٨٧].

٢- مما يتبادر إلى الذهن من هذه الهجرة العظيمة، هو شفقة هذا الرسول الكريم (ﷺ) على أصحابه، ورحمته بهم، وحرصه الشديد للبحث عما فيه أمنهم وراحتهم، ولذلك أشار عليهم بالذهاب إلى الملك العادل الذي لا يظلم أحد عنده، فكان الأمر كما قال صلوات الله وسلامه عليه، فأمنوا في دينهم ونزلوا عنده في خير منزل[٨٨]، فالرسول (ﷺ) هو الذي

(٨٢) مسند الإمام أحمد (١/ ٢٠٣) ورجاله رجال الصحيح .

(٨٣) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ص٣٠٩ .

(٨٤) البخاري، كتاب الجنائز، باب التكبير على الجنازة (٥/ ٦٤) رقم ١٣٣٣ .

(٨٥) البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب موت النجاشي، حديث رقم ٣٨٧٧ .

(٨٦) أسد الغابة (١/ ٩٩)، الإصابة (١/ ١٠٩) .

(٨٧) السيرة النبوية للدكتور مصطفى السباعي ص٥٧ .

(٨٨) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ص٣١٢ .

وجّه الأنظار إلى الحبشة، وهو الذي اختار المكان الآمن لجماعته ودعوته؛ كي يحميها من الإبادة، وهذه تربية نبوية لقيادات المسلمين في كل عصر أن تخطط بحكمة وبعد نظر لحماية الدعوة والدعاة، وتبحث عن الأرض الآمنة التي تكون عاصمة احتياطية للدعوة، ومركزًا من مراكز انطلاقها فيما لو تعرض المركز الرئيسي للخطر، أو وقع احتمال اجتياحه، فجنود الدعوة هم الثروة الحقيقية، وهم الذين تنصب الجهود كلها لحفظهم وحمايتهم، دون أن يتم أي تفريط بأرواحهم وأمنهم، ومسلم واحد يعادل ما على الأرض من بشر خارجين عن دين الله وتوحيده(٨٩).

٣- كانت الأهداف من هجرة الحبشة متعددة، ولذلك حرص النبي (ﷺ) على اختيار نوعيات معينة لتحقيق هذه الأهداف، كشرح قضية الإسلام وموقف قريش منه، وإقناع الرأي العام بعدالة قضية المسلمين، على نحو ما تفعله الدول الحديثة من تحرك سياسي يشرح قضاياها وكسب الرأي العام إلى جوارها (٩٠)، وفتح أرض جديدة للدعوة، فلذلك هاجر سادات الصحابة في بداية الأمر ثم لحق بهم أكثر الصحب وأوكل الأمر إلى جعفر رضي الله عنه(٩١).

٤- إن وجود ابن عم رسول الله (ﷺ) جعفر، وصهره عثمان، وابنته رقية رضيالله عنهم جميعًا في مقدمة المهاجرين له دلالة عميقة تشير إلى أن الأخطار لا بد أن يتجشمها المقربون إلى القائد وأهله ورحمه، أما أن يكون خواص القائد في منأى عن الخطر، ويدفع إليه الأبعدون غير ذوي المكانة، فهو منهج بعيد عن نهج النبي (ﷺ)(٩٢).

٥- مشروعية الخروج عن الوطن وإن كان الوطن مكة على فضلها إذ كان الخروج فرارًا بالدين وإن لم يكن إلى بلد إسلام، فإن الحبشة كانوا نصارى يعبدون المسيح ولا يقولون: هو عبد الله، وقد تبين ذلك في هذا الحديث -يعني حديث أم سلمة المتقدم- وسموا بهذه مهاجرين وهم أصحاب الهجرتين الذين أثنى عليهم بالسبق فقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ﴾ وجاء في التفسير: إنهم هم الذين شهدوا بيعة الرضوان(٩٣)، فانظر كيف أثنى الله عليهم بهذه الهجرة وهم قد خرجوا من بيت الله الحرام إلى دار الكفر، لما كان فعلهم ذلك احتياطًا على دينهم ورجاء أن يخلي بينهم وبين عبادة ربهم يذكرونه آمنين مطمئنين، وهذا حكم مستمر متى غلب المنكر في بلد وأوذى على الحق مؤمن ورأى الباطل قاهرًا للحق ورجا أن يكون في بلد آخر-أي بلد كان- خلي بينه وبين دينه ويظهر فيه عبادة ربه فإن الخروج على هذا الوجه حتى على المؤمن، هذه الهجرة التي لا تنقطع إلى يوم القيامة ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ

(٨٩) انظر: التربية القيادية للغضبان (١/٣٣٣).
(٩٠) أضواء على الهجرة، توفيق محمد سبع ص٤٢٧.
(٩١) انظر: التربية القيادية (١/٣٣٣).
(٩٢) نفس المصدر (١/٣٣٣).
(٩٣) تفسير الطبري (١١/٦)، تفسير ابن كثير (٢/٣٣١).

﴿وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة، الآية : ١١٥)[٩٤].

٦- يجوز للمسلمين أن يدخلوا في حماية غير المسلمين إذا دعت الحاجة إلى ذلك، سواء كان المجير من أهل الكتاب كالنجاشي إذ كان نصرانيًا عندئذ، ولكنه أسلم بعد ذلك، أو كان مشركًا كأولئك الذين عاد المسلمون إلى مكة في حمايتهم عندما رجعوا من الحبشة، وكأبي طالب عم رسول الله (ﷺ)، وكالمطعم بن عدي الذي دخل الرسول (ﷺ) مكة في حمايته عندما رجع من الطائف[٩٥].

وهذا مشروط -بحكم البداهة- بألا تستلزم مثل هذه الحماية إضرارًا بالدعوة الإسلامية، أو تغييرًا لبعض أحكام الدين، أو سكوتًا على اقتراف بعض المحرمات، وإلا لم يجز على المسلم الدخول فيها، ودليل ذلك ما كان من موقفه (ﷺ) حينما طلب منه أبو طالب أن يبقى على نفسه ولا يحمله ما لا يطيق فلا يتحدث عن آلهة المشركين بسوء، فقد وطن نفسه إذ ذاك للخروج من حماية عمه وأبى أن يسكت عن شيء مما يجب عليه بيانه وإيضاحه[٩٦].

٧- إن اختيار الرسول (ﷺ) إلى اختيار الحبشة يشير إلى نقطة استراتيجية هامة، تمثلت في معرفة الرسول (ﷺ) بما حوله من الدول والممالك، فكان يعلم طيبها من خبيثها، وعادلها من ظالمها، الأمر الذي ساعد على اختيار دار آمنة لهجرة أصحابه، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه حال قائد الدعوة، الذي لا بد أن يكون ملمًا بما يجري حوله، مطلعًا على أحوال وأوضاع الأمم والحكومات[٩٧].

٨- يظهر الحس الأمني عند الرعيل الأول في هجرتهم الأولى وكيفية الخروج، فيتمثل في كونه تم تسللاً وخفية، حتى لا تفطن له قريش فتحبطه، كما أنه تم على نطاق ضيق لم يزد على ستة عشر فردًا، فهذا العدد لا يلفت النظر في حالة تسللهم فردًا أو فردين، وفي ذات الوقت يساعد على السير بسرعة، وهذا ما يتطلبه الموقف فالركب يتوقع المطاردة والملاحقة في أي لحظة، ولعل السرِّية المضروبة على هذه الهجرة، فوتت على قريش العلم بها في حينها، فلم تعلم بها إلا مؤخرًا، فقامت في إثرهم لتلحق بهم، لكنها أخفقت في ذلك، فعندما وصلت البحر لم تجد أحدًا، وهذا مما يؤكد على أن الحذر هو مما يجب أن يلتزمه المؤمن في تحركاته الدعوية، فلا تكون التحركات كلها مكشوفة ومعلومة للعدو بحيث يترتب عليها الإضرار به وبالدعوة[٩٨].

٩- لم ترض قريش بخروج المسلمين إلى الحبشة وشعرت بالخطر الذي يهدد مصالحها في المستقبل، فربما تكبر الجالية هناك وتصبح قوة خطرة، ولذلك جد المشركون وشرعوا في

(٩٤) الروض الأنف للسهيلي (٢/ ٩٢)، الهجرة في القرآن الكريم ص٣١٢.

(٩٥) الهجرة في القرآن الكريم ص٣١٦.

(٩٦) فقه السيرة للبوطي ص١٢٦، الهجرة في القرآن الكريم ص٣١٧.

(٩٧) انظر: في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحيطة ص١٠١.

(٩٨) نفس المصدر ص١٠١.

الأخذ بالأسباب لإعادة المهاجرين، وبدأت قريش تلاحق المهاجرين لكي تنزع هذا الموقع الجديد منهم في تخطيط محكم ذكي؛ فالهدايا إلى النجاشي والهدايا إلى بطارقته ووضعت الخطة داخل مكة، وكيف توزع الهدايا، وما نوعية الكلام الذي يرافق الهدايا، وصفات السفراء، فعمرو من أصدقاء النجاشي ومعروف بالدهاء؟ وما أحوجنا إلى ألا نستصغر عدونا، وألا ننام عن مخططاته، وأن نعطيه حجمه الحقيقي، وندرس تحركاته، لنستعد لمواجهة مخططاته الماكرة[٩٩].

١٠- نفذت خطة قريش بحذافيرها كاملة، ولكنها فشلت؛ لأن شخصية النجاشي التي- تم جوارها -رفضت أن تسلم المسلمين قبل السماع منهم؛ وبذلك أتاحت الفرصة للمسلمين إلى أن يعرضوا قضيتهم العادلة ودينهم القويم.

١١- اجتمع الصحابة حين جاءهم رسول النجاشي وطلب منهم الحضور، وتدارسوا الموقف، وهكذا كان أمر المسلمين شورى بينهم، وكل أمر يتم عن طريق الشورى هو أدعى إلى نجاحه، لأنه يضم خلاصة عقول كثيرة، وتبدو مظاهر السمو التربوي في كون الصحابة لم يختلفوا، بل أجمعوا على رأي واحد، ألا وهو أن يعرض الإسلام كما جاء به رسول الله (ﷺ) كائنًا في ذلك ما هو كائن، وعزموا على عرض الإسلام بعزة وإن كان في ذلك هلاكهم[١٠٠].

١٢- كان وعي القيادة النبوية على مستوى الأحداث ولذلك وضع جعفر بن أبي طالب على إمارة المسلمين في الهجرة، وتم اختياره من قبل المسلمين المهاجرين ليتحدث بأسمهم بين يدي الملك، وليتمكن من مواجهة داهية العرب عمرو بن العاص، **وقد امتازت شخصية جعفر بعدة أمور جعلتها تتقدم لسد هذه الثغرة العظيمة، منها:**

* فجعفر بن أبي طالب ألصق الناس برسول الله (ﷺ)، فقد عاش معه في بيت واحد، فهو أخبر الناس بقائد الدعوة وسيد الأمة من بين كل المهاجرين إلى الحبشة.

* وهذا الموقف بين يدي النجاشي يحتاج إلى بلاغة وفصاحة، وبنو هاشم قمة قريش نسبًا وفضلاً، وجعفر في الذؤبة من بني هاشم، والله تعالى قد اختار هاشمًا من كنانة، واختار نبيه من بني هاشم؛ فهم أفصح الناس لسانًا وأوسطهم نسبًا.

* وهو ابن عم رسول الله (ﷺ)، وهذا يجعل النجاشي أكثر اطمئنانًا وثقة بما يعرض عن ابن عمه[١٠١].

* خلق جعفر المقتبس من مشكاة النبوة، وجمال خلقه المنحدر من أصلاب بني هاشم، فقد قال رسول الله (ﷺ) لجعفر: «أشبهت خَلقي وخُلُقي»[١٠٢]، فالسفير بين يدي النجاشي

---

(٩٩) انظر: التربية القيادية (١/ ٣١٧).

(١٠٠) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٢/ ٩٢).

(١٠١) انظر: التربية القيادية (١/ ٣٣٥).

(١٠٢) نفس المصدر (١/ ٣٣٦).

كان قدوة لسفراء المسلمين على مر الزمان وكر العصور، فقد اتصف بسمات السفراء المسلمين، كالإسلام والانتماء إليه، الفصاحة، العلم، حسن الخلق، الصبر، الشجاعة، الحكمة، سعة الحيلة، المظهر الجذاب[١٠٣].

١٣- كان عمرو بن العاص رضي الله عنه وهو يمثل في تلك المرحلة عداوة الله ورسوله (ﷺ) على مستوى كبير من الذكاء والدهاء والمكر، وكان قبل دخول جعفر وحديثه قد شحن كل ما لديه من حجة ، وألقى بها بين يدي النجاشي من خلال النقاط الآتية:

* تحدث عن بلبلة جو مكة وفساد ذات بينها من خلال دعوة محمد (ﷺ)، وهو سفير مكة وممثلها بين يدي النجاشي، فكلامه مصدق لا يعتريه الشك، وهو عند النجاشي موضع ثقة.

* تحدث عن خطورة اتباع محمد (ﷺ) وربما سيزلزلون الأرض تحت قدمي النجاشي، كما أفسدوا جو مكة ولولا حب قريش للنجاشي وصداقتها معه ما تعنوا هذا العناء لنصحه (وأنت لنا عيبة صدق، تأتي إلى عشيرتنا بالمعروف، ويأمن تاجرنا عندك) فلا أقل من رد المعروف بمثله، ولا أقل من وفاء حسن الجوار والعلاقة بين مكة والحبشة من تحذيره من هذه الفتنة المخيفة.

* وأخطر ما في أمرهم هو خروجهم على عقيدة النجاشي وكفرهم بها (فهم لا يشهدون أن عيسى ابن مريم إلهًا، فليسوا على دين قومهم وليس على دينك) فهم مبتدعة دعاة فتنة.

* ودليل استصغارهم لشأن الملك، واستخفافهم به، أن كل الناس يسجدون للملك لكنهم لا يفعلون ذلك، فكيف يتم إيواؤهم عندك، وهو عودة إلى إثارة الرعب في نفسه من عدم احترام الدعاة له حين يستخفون بملكه، ولا يسجدون له، فكان على جعفر أن يفند كل الاتهامات الباطلة التي ألصقها سفير قريش بالمهاجرين[١٠٤].

١٤- كان رد جعفر على أسئلة النجاشي في غاية الذكاء وقمة المهارة السياسية، والإعلامية، والدعوية، والعقدية؛ فقام بالتالي:

* عدد عيوب الجاهلية وعرضها بصورة تنفر السامع وقصد بذلك تشويه صورة قريش في عين الملك، وركز على الصفات الذميمة التي لا تنتزع إلا بنبوة.

* عرض شخصية الرسول (ﷺ) في هذا المجتمع الآسن المليء بالرذائل، وكيف كان بعيدًا عن النقائص كلها، ومعروفًا بنسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فهو المؤهل للرسالة.

* أبرز جعفر محاسن الإسلام وأخلاقه التي تتفق مع أخلاقيات دعوات الأنبياء، كنبذ عبادة الأوثان وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن

(١٠٣) انظر: سفراء النبي صلى الله عليه وسلم ، لمحمود شيت خطاب (٢/ ٢٥٢ إلى ٣١٧) .
(١٠٤) انظر: التربية القيادية (١/ ٣١٩ ، ٣٤٠) .

المحارم والدماء، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وكون النجاشي وبطارقته موغولين في النصرانية فهم يدركون أن هذه رسالات الأنبياء التي بعثوا بها من لدن موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام.

* فضح ما فعلته قريش لهم؛ لأنهم رفضوا عبادة الأوثان، وآمنوا بما نزل على محمد (ﷺ)، وتخلقوا بخلقه.

* أحسن الثناء على النجاشي بما هو أهله، بأنه لا يظلم عنده أحد وأنه يقيم العدل في قومه.

* وأوضح أنهم اختاروه هدفًا من دون الناس، فرارًا من ظلم هؤلاء الذين يريدون تعذيبهم، وبهذه الخطوات البينة الواضحة دحر بها بلاغة عمرو وفصاحته، واستأثر بلب النجاشي وعقله، وكذلك استأثر بلب وعقل البطارقة والقسيسين الحاضرين .

* وعندما طلب الملك النجاشي شيئًا مما نزل على محمد (ﷺ)، جاء صدر سورة مريم في غاية الإحكام والروعة والتأثير، حتى بكى النجاشي وأساقفته، وبللوا لحاهم ومصاحفهم من الدموع، واختيار جعفر لسورة مريم، يظهر بوضوح حكمة وذكاء مندوب المهاجرين، فسورة مريم تتحدث عن مريم وعيسى عليهما السلام(١٠٥).

* إن عبقرية جعفر رضي الله عنه في حسن اختيار الموضوع، والزمن المناسب، والقلب المتفتح، والشحنة العاطفية، أدت إلى أن يربح الملك إلى جانبه(١٠٦).

* كان رده في قضية عيسى عليه السلام دليل على الحكمة والذكاء النادر، فرد بأنهم لا يألهون عيسى ابن مريم، ولكنهم كذلك لا يخوضون في عرض مريم -عليها السلام- كما يخوض الكاذبون -بل عيس ابن مريم كلمته وروحه ألقاها إلى مريم البتول العذراء الطاهرة، وليس عند النجاشي زيادة عما قال جعفر، ولا مقدار هذا العود(١٠٧).

* هم لا يسجدون للنجاشي، فهم معاذ الله أن يعدلوه بالله، ولا ينبغي السجود إلا لله، لكنهم لا يستخفون بالملك، بل يوقرونه ويسلمون عليه كما يسلمون على نبيهم، ويحيونه بما يحيي أهل الجنة أنفسهم به في الجنة(١٠٨).

* انتهى الأمر بأن أعلن النجاشي صدق القوم، وأيقن بأن هؤلاء صديقون وعزم على أن يكون في خدمة رسول الله (ﷺ) الذي يأتيه الناموس كناموس موسى، وأن يتقرب إلى الله بحماية أصحابه وأكد لعمرو أنه لا يضيره تجارة قريش، ولا مال قريش، ولا جاهها، ولو قطعت علاقتها معه(١٠٩).

---

(١٠٥) انظر: السيرة النبوية جوانب الحذر والحيطة ص١٠٦ .
(١٠٦) انظر : التربية القيادية (١/ ٣٣٧) .
(١٠٧) نفس المصدر (١/ ٣٤٢) .
(١٠٨) المصدر السابق (١/ ٣٤٢) .
(١٠٩) انظر: التربية القيادية (١/ ٣٤٢) .

١٥- وبذلك انهزمت قريش في هذه الجبهة سياسيًا ومعنويًا وإعلاميًا، أمام مقاومة المسلمين الموفقة وخطواتهم، وأساليبهم الرصينة.

١٦- كان موقف جعفر وإخوانه مثالاً تطبيقيًا لقول رسول الله (ﷺ): «**من التمس رضى الله بسخط الناس كفاه الله مُؤنة الناس، ومن التمس رضى الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس**»[١١٠] فهؤلاء الصحابة رضي الله عنهم قد التمسوا رضي الله عز وجل، مع أن الظاهر في الأمر أنه يترتب عليه في هذه القضية سخط أولئك النصارى وهم الذين لهم الهيمنة عليهم، فكانت النتيجة أن الله عز وجل سخر لهم ملك الحبشة حتى نطق بالحق الموافق لدعوة النبي (ﷺ) مع مخالفته الصريحة لمعتقدهم المنحرف الذي قام عليه ملكهم وما يغلب على الظن من ثورة النصارى المتعصبين[١١١].

١٧- كان عند بعض النصارى إيمان صحيح بدينهم، ولكنهم يكتمون ذلك لكون الغلبة والسيادة في الأرض لأصحاب الدين المحرّف، ومن الذين كانوا على الاعتقاد الصحيح ملك الحبشة، وكان يخفي إيمانه هذا مداراة لقومه إبقاء على نفسه وملكه، فلما وقع في هذا الابتلاء أظهر إيمانه، إرضاء لربه وإراحة لضميره وانتصارًا لحزب الله المؤمنين مهما ترتب على ذلك من نتائج؛ فكان بهذا الموقف من عظماء التاريخ[١١٢].

١٨- ومن دروس هجرة الحبشة أن الجهل ببعض أحكام الإسلام لمصلحة راجحة لا يضر، قال ابن تيمية رحمه الله وهو يقرر العذر بالجهل: (ولما زيد في صلاة الحضر حين هاجر إلى المدينة كان من كان بعيدًا عنه مثل من كان بمكة، وبأرض الحبشة يصلون ركعتين، ولم يأمرهم النبي (ﷺ) بإعادة الصلاة)[١١٣].

وقال الذهبي: (فلا يأثم أحد إلا بعد العلم وبعد قيام الحجة.. وقد كان سادة الصحابة بالحبشة ينزل الواجب والتحريم على النبي (ﷺ) فلا يبلغهم إلا بعد أشهر فهم في تلك الأمور معذورون بالجهل حتى يبلغهم النص...)[١١٤].

١٩- ومن دروس هجرة الحبشة؛ تفاضل الجهاد حسب الحاجة، فإذا كانت الهجرة للمدينة جهادًا ميزّ الله أصحابها وخصهم بالذكر والفضيلة، فقد نال هذا الفضل أصحاب هجرة الحبشة وإن تأخر لحوقهم بالنبي (ﷺ) حتى فتح خيبر، وذلك للحاجة لبقائهم في الحبشة، وهذا ما أكده النبي لأصحاب السفينتين[١١٥]، عن أبي موسى الأشعري رضي الله

---

(١١٠) سنن الترمذي، كتاب الزهد تحفة الأحوذي (٧/٩٧) صحيح الجامع الصغير رقم ٥٩٧٣ ,

(١١١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٢/١٠٥).

(١١٢) نفس المصدر (٢/١٠٦).

(١١٣) الفتاوى (٢٢/٤٣).

(١١٤) الكبائر ص١٢.

(١١٥) انظر: الهجرة الأولى في الإسلام ص٢٠٥.

عنه قال: ودخلت أسماء بنت عميس - وهي ممن قدم معنا - على حفصة زوج النبي (ﷺ) زائرة، فدخل عمر على حفصة، وأسماء عندها، فقال عمر حين رأى أسماء: من هذه؟ قالت أسماء بنت عميس، قال عمر: آلحبشية هذه، آلبحرية هذه؟ قالت أسماء: نعم، قال: سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله (ﷺ) منكم، فغضبت، وقالت: كلا والله كنتم مع رسول الله (ﷺ) يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم وكنا في دار أو في أرض البعداء البغضاء بالحبشة، وذلك في الله وفي رسوله (ﷺ) ونحن كنا نؤذى ونخاف، وسأذكر ذلك للنبي (ﷺ) وأسأله، والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه، فلما جاء النبي (ﷺ) قالت: يا نبي الله إن عمر قال كذا وكذا، قال: **«فما قلت له؟»** قالت: قلت له: كذا وكذا، قال: **«ليس بأحق بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان»**، قالت: فلقد رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة يأتونني أرسالاً يسألوني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيء هم به أفرح ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم النبي (ﷺ)[١١٦].

٢٠- كانت بداية إسلام عمرو بن العاص رضي الله عنه بأرض الحبشة، وهذا بلا شك أثر من آثار الهجرة للحبشة، وبرهان على ما حققه المهاجرون من مكاسب للدعوة من خلال مكوثهم بأرض الحبشة، وإن كانت كثير من المرويات تتجه إلى أن بداية إسلام عمرو بن العاص كانت على يد النجاشي وهو المشهور كما يقول ابن حجر[١١٧]، وهي لطيفة لا مثل لها إذ أسلم صحابي على يد تابعي، كما يقول الزرقاني[١١٨]، وهناك ما يفيد إسلام عمرو على يد جعفر رضي الله عنهم.

٢١- يرتبط زواج الرسول (ﷺ) بأم حبيبة بهجرة الحبشة ارتباطًا وثيقًا، ويحمل هذا الزواج منه (ﷺ) لأحد المهاجرات الثابتات معنى كبيرًا وكان عقد الزواج على أم حبيبة رضي الله عنها وهي في أرض الحبشة وجاء تأكيده في كتب السنة، فقد روى أبو داود في سننه بسند صحيح عن أم حبيبة رضي الله عنها أنها كانت تحت عبيد الله بن جحش، فمات بأرض الحبشة، فزوجها النجاشي النبي (ﷺ) وأمهرها عنه أربعة آلاف، وبعث بها إلى الرسول (ﷺ) مع شرحبيل بن حسنة[١١٩].

ويستنتج الباحث من دلالات هذا الحدث المهم متابعة الرسول (ﷺ) لأحوال المهاجرين، ومشاركتهم في مصابهم، وتطييب أنفس الصابرين، وتقدير ثبات الثابتين وبالتتبع لأحوال المهاجرات لا نجد (أم حبيبة) رضي الله عنها هي الوحيدة التي يُعنى الرسول الكريم (ﷺ) بأمرها، ويواسيها في مصابها، بل سبق ذلك صنيعه مع (سودة) رضي الله عنها[١٢٠]، فلما

(١١٦) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٥/٨).
(١١٧) انظر: الهجرة الأولى في الإسلام ص١٦٧.
(١١٨) انظر: شرح المواهب (١/٢٧١).
(١١٩) صحيح سنن أبي داود للألباني (٢/٣٩٦).
(١٢٠) انظر: الهجرة الأولى في الإسلام ص١٨٨.

رجعت مع زوجها إلى مكة من الحبشة توفي زوجها السكران بن عمرو، فلما حلّت أرسل إليها (ﷺ) وخطبها، فقالت: أمري إليك يا رسول الله، فقال رسول الله (ﷺ): «**مري رجلاً من قومك يزوجك**»، فأمرت حاطب بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ودّ فزوجها، فكانت أول امرأة تزوجها رسول الله (ﷺ) بعد خديجة(١٢١).

وهذان الحدثان مؤشران من مؤشرات حكم تعدده (ﷺ) في الزواج بشكل عام، ولهما دلالتهما وحكمتهما بالاهتمام بالنساء المجاهدات بشكل خاص هذا فضلاً عن ما يمكن أن يقال أن الرسول (ﷺ) كان يهدف أيضًا من وراء الزواج بأم حبيبة تخفيف عداوة (بني أمية) بشكل عام، وتخفيف عداوة زعيمهم أبي سفيان (والدها) بشكل أخص للإسلام ونبيه والمسلمين(١٢٢).

فالتأليف للإسلام وارد في السيرة والرسول (ﷺ) كان حريصًا على قومه بكل وسيلة لا تتنافى مع قيم الإسلام(١٢٣).

٢٢- يرى بعض الباحثين أن النبي (ﷺ) لم يكن يحب أن يهاجر إلى الحبشة، لأسباب كثيرة:

- **منها:** أنه ثبت - كما سيجيء - رؤية النبي (ﷺ) دار الهجرة أرضًا ذات نخل بين حرتين وأنه ظنها هجر(١٢٤).
- **ومنها:** طبيعة الوضع الجغرافي للحبشة الذي يعوق انتشار الدعوة وبسط سلطانها على العالم.
- **ومنها:** أن اختيار الجزيرة العربية - ومكة بالذات، ثم المدينة- لنزول الوحي وانطلاق الدين لم يكن اتفاقيًا، بل كان لمميزات كثيرة(١٢٥).
- **ومنها:** أن هذه البيئة الحبشية لم تكن لتسمح لهذا الدين اللاجئ أن ينمو إلى جوار المسيحية، ولم تكن الرومان وهي المهيمنة على المسيحية في العالم لتسمح للحبشة بذلك(١٢٦).

٢٣- كانت الهجرة إلى الحبشة لها أثر في الحط من مكانة القرشيين عند سائر العرب، وإدانة موقفهم من الدعوة وحملتها، إذ كانت البيئة العربية تفتخر بإيواء الغريب وإكرام الجار وتتنافس في ذلك، وتحاذر السبة والعار في خلافه، فها هم الأحباش يسبقون قريش ويؤوون من طردتهم وأساءت إليهم من أشراف الناس، ومن ضعفائهم، ومن غربائهم(١٢٧).

---

(١٢١) الطبقات (٨/٣).
(١٢٢) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، د. مهدي رزق الله ص٧٠٦، ٧٠٧.
(١٢٣) انظر: الهجرة الأولى ص١٨٨.
(١٢٤) هجر: هي الإحساء.
(١٢٥) انظر: الغرباء الأولون ص١٦٩، ١٧٠.
(١٢٦) انظر: أضوء على الهجرة ص١٥٦ إلى ١٦١، الهجرة في القرآن الكريم ص٣٢٠.
(١٢٧) انظر: الغرباء الأولون ص١٧٠، ١٧١.



المبحث الثالث

عام الحزن ومحنة الطائف

أولاً: عام الحزن:

١- وفاة أبي طالب:

كانت وفـاة أبي طالب بعد مغـادرة بني هاشم شعـبه وذلك في آخر السنة العـاشرة من المبعث[١٢٨]، وقد كان أبو طالب (يحوط النبي ويغضب له)[١٢٩] و (ينصره)[١٣٠]، وكانت قريش تحتـرمه، وعندما حضـرته الوفاة جاء زعماء الشـرك وحرضوه على الاستـمساك بدينه وعدم الدخـول في الإسلام قائلين: أترغب عن ملة عـبد المطلب؟ وعرض عليـه رسول الله (ﷺ) الإسلام قـائلاً: «**قل لا إله إلا الله أشهد لك بهـا يوم القيامة**»، فقال أبو طالب: لولا تعيرني بها قريش يقولون إنما حمله عليـها الجزع، لأقررت بها عينك، فأنزل الله: ﴿**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ (سـورة القـصص، الآيَة: ٥٦) كانت أفكارَ الجاهليـة رَاسخة في عقل أبي طالبَ، ولمَ يتمكن من تغيـيرها، فهو شيخ كبير يصـعب عليه تغيير فكره وما ألفه عن آبائه، وكان أقرانه حـاضرين وقت احتضاره فأثّروا عليه خوفا من شيوع خبر إسلامه وتأثير ذلك على قومه[١٣١].

٢- وفاة خديجة رضي الله عنها:

أما السيدة خـديجة أم المؤمنين رضي الله عنها فقد توفيت قبـل الهجرة إلى المدينة بثلاث سنين[١٣٢] في نفس عام وفاة أبي طالب[١٣٣].

وبموت أبي طالب الذي أعقبـه موت خديجة رضي الله (تعالـى) عنها، تضاعف الأسى والحزن على رسول الله (ﷺ) بفقد هذين الحبيبين اللذين كانا دعامتين من دعائم سير الدعوة في أزماتهـا، كان أبو طالب السنـد الخارجي الذي يدفع عنه القـوم، وكانت خديجـة السند الداخلي الذي يخفف عنه الأزمات والمحن، فتجرأ كفار قريش على رسول الله (ﷺ) ونالوا منه مـا لم يكونوا يطمعـون به في حيـاة أبي طالب[١٣٤] وابتدأت مرحـلة عصيبة فـي حياة الرسـول (ﷺ) واجه فيهـا كثيرًا من المشكلات والمصاعب والمحن والفتن حـينما أصبح في الساحة وحيدًا لا ناصر له إلا الله (سبحانه وتعالى)، ومع هذا فقد مضى في تبليغ رسالة ربه

(١٢٨) فتح الباري (٧/ ١٩٤) .
(١٢٩) صحيح البخاري (فتح الباري ٧/ ١٩٣) .
(١٣٠) صحيح مسلم (١/ ١٩٥) .
(١٣١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ١٨٤) .
(١٣٢) نفس المصدر (١/ ١٨٥) .
(١٣٣) المصدر السابق (١/ ١٨٥) .
(١٣٤) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي ص٣٤ .

إلى الناس كافة على ما يلقى من الخلاف والأذى الشديد الذي أفاضت كتب الحديث وكتب السير بأسانيدها الصحيحة الثابتة في الحديث عنه، وتحمّل (ﷺ) من ذلك ما تنوء الجبال بحمله ،ولما تكالبت الفتن والمحن على رسول الله (ﷺ) في بلده الذي نبت فيه وبين قومه الذين يعرفون عنه كل صغيرة وكبيرة عزم (ﷺ) على أن ينتقل إلى بلد غير بلده وقوم غير قومه يعرض عليهم دعوته ويلتمس منهم نصرتهم رجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل، فخرج إلى الطائف وهي من أقرب البلاد إلى مكة[١٣٥].

ثانيا: رحلة الرسول (ﷺ) إلى الطائف:

كان النبي (ﷺ) يقتدي بالأنبياء والمرسلين الذين سبقوه في الدعوة إلى الله، فهذا نوح لبث في قومه داعيًا **﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا﴾** (سورة العنكبوت، الآية: ١٤)، فكانت هذه الأعوام الطويلة عملاً دائبًا، وتنويعًا متكررًا **﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾** (سورة نوح، الآيات: ١-٩) رغم امتداد الزمن الطويل، ما توقف عن الدعوة ولا أضعفت همته في تبليغها، ولا ضعفت بصيرته وحيلته في تنويع أوقاتها وأساليبها، قال الآلوسي في تفسيره: **﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي﴾** أي إلى الإيمان والطاعة **﴿لَيْلاً وَنَهَارًا﴾** أي دائمًا من غير فتور ولا توان، ثم وصف إعراضهم الشديد، وإصرارهم العنيد، ثم علق على قوله (تعالى): **﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾** فقال: أي دعوتهم مرة بعد مرة، وكرة غب كرة، على وجوه مختلفة وأساليب متفاوتة، وهو تعميم لوجوه الدعوة، بعد تعميم الأوقات، وقوله: **﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾** يشعر بمسبوقية الجهر بالسر، وهو الأليق بمن همه الإجابة لأنه أقرب إليها لما فيه من اللطف بالمدعو[١٣٦].

فكان النبي (ﷺ) ينوّع ويبتكر في أساليب الدعوة ودعا سرًا وجهرًا، وسلمًا وحربًا، وجمعًا وفردًا، وسفرًا وحضر، كما أنه عليه الصلاة والسلام قص القصص، وضرب الأمثال، واستخدم وسائل الإيضاح بالخط على الأرض، وغيره، كما رغّب وبشّر، ورهب وأنذر، ودعا في كل آن، وعلى كل حال وبكل أسلوب مؤثر فعال[١٣٧]، فها هو عليه الصلاة والسلام ينتقل إلى الطائف ثم يتردد على القبائل ثم يهاجر ويستمر في دعوة الخلق إلى الله (تعالى).

---

(١٣٥) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي ص٣٦ إلى ٤٥ .

(١٣٦) انظر: تفسير الآلوسي (٨٩/١٠) .

(١٣٧) انظر: مقومات الدعوة والداعية ، بادحدح ص١٢٣ .

كان رسول الله (ﷺ) يسعى لإيجاد مركز جديد للدعوة، وطلب النصرة من ثقيف، لكنها لم تستجب له وأغرت به صبيانها فرشقوه بالحجارة، وفي طريق عودته من الطائف التقى بعداس الذي كان نصرانيًا فأسلم، وأرّخ الواقدي الرحلة في شوال سنة عشر من المبعث بعد موت أبي طالب وخديجة، وذكر أن مدة إقامته بالطائف كانت عشرة أيام[١٣٨].

١- لماذا اختار الرسول (ﷺ) الطائف؟

كانت الطائف تمثل العمق الاستراتيجي لملأ قريش، بل كانت لقريش أطماع في الطائف، ولقد حاولت في الماضي أن تضم الطائف إليها ووثبت على وادي وج وذلك لما فيه من الشجر والزرع، حتى خافتهم ثقيف وحالفتهم وأدخلت معهم بني دوس[١٣٩]، وقد كان كثير من أغنياء مكة يملكون الأملاك في الطائف ويقضون فيها فصل الصيف، وكانت قبيلة بني هاشم وعبد شمس على اتصال مستمر مع الطائف، كما كانت تربط مخزوم مصالح مالية مشتركة بثقيف[١٤٠]، فإذا اتجه الرسول (ﷺ) إلى الطائف فذلك توجه مدروس وإذا استطاع أن يجد له فيها موضع قدم وعصبة تناصره، فإن ذلك سيفزع قريشًا ويهدد أمنها ومصالحها الاقتصادية تهديدًا مباشرًا، بل قد يؤدي لتطويقها وعزلها عن الخارج. وهذا التحرك الدعوي السياسي الاستراتيجي الذي يقوم به الرسول (ﷺ) يدل على حرصه في الأخذ بالأسباب لإيجاد دولة مسلمة أو قوة جديدة تطرح نفسها داخل حلبة الصراع، لأن الدولة أو إيجاد القوة التي لها وجودها من الوسائل المهمة في تبليغ دعوة الله إلى الناس.

عندما وصل النبي (ﷺ) إلى الطائف اتجه مباشرة إلى مركز السلطة وموضع القرار السياسي في الطائف[١٤١].

٢- أين كان موضع السلطة في الطائف؟

كان بنو مالك والأحلاف - بحكم أسبقيتهما الزمنية للاستيطان- هما المسيطرين عليها وتنتهي إليهما قيادتها، فكانت لهما الرئاسة الدينية المتمثلة في رعاية المسجد، بالإضافة إلى الزعامة السياسية العامة والعلاقة الخارجية والنفوذ الاقتصادي، إلا أنهما مع ذلك لم يكونا في وضع يمكنهما من الدفاع عن منطقة الطائف التي كانت من أخصب بلاد العرب وأكثرها جذبًا للأنظار والأطماع، فكانا يخافان قبيلة هوازن، ويخافان قريش ويخافان بني عامر، وكلها قبائل قوية وقادرة على الانقضاض والاستلاب، ولذلك فقد اعتمد زعماء الطائف على سياسة المهادنة وحفظ الاستقرار السياسي عن طريق المعاهدات والموازنات وهي عين الطريقة التي كانت تسير عليها قريش، فصار بنو مالك يوثقون علاقاتهم مع هوازن ليأمنوا شرها، وصار الأحلاف يرتبطون بقريش لتأمين جانبها[١٤٢].

---

(١٣٨) طبقات ابن سعد (١/ ٢٢١) نقلاً عن السيرة النبوية الصحيحة (١/ ١٨٥).

(١٣٩) انظر: شرح العسقلاني لصحيح البخاري، كتاب الكفالة (٤/ ٣٧٣).

(١٤٠) انظر: أصول الفكر السياسي ص١٧٣.

(١٤١) المصدر السابق نفسه ص١٧٤. (١٤٢) انظر: أصول الفكر السياسي في القرآن ص١٧٤.

هذا ولم يكن الرسول (ﷺ) غافلاً عن هذه الشبكة من العلاقات والمعاهدات وهو يتجه إلى الطائف، بل كان يعرف أن الطائف لم تكن توجد بها سلطة مركزية واحدة، وإنما يقتسم السلطة فيها بطنان من بطون العرب بموجب اتفاقية داخلية، وأن أيا منهما كان يدور في فلك قبيلة خارجية أقوى، فإذا استطاع أن يستميل إليه أيًا منهما فسوف يكون لذلك أثر كبير في ميزان القوى السياسية، هذا على وجه العموم، أما إذا استطاع على وجه الخصوص أن يستميل إليه الأحلاف، وهو المعسكر المتحالف مع قريش، فإن خطته تكون قد بلغت تمامها وهو أمر غير مستحيل، فهو يعلم أن موادة هذا المعسكر لقريش لا تقوم على القناعة المذهبية أو الولاء الديني بقدر ما تقوم على أساس التخوف من قريش، وعلى هذا التقدير للوضع السياسي اتجه الرسول (ﷺ) مباشرة - حينما دخل الطائف - إلى بني عمرو بن عمير الذين يترأسون الأحلاف ويرتبطون بقريش، ولم يذهب إلى بني مالك الذين يتحالفون مع هوازن[١٤٣]، قال ابن هشام في السيرة: (لما انتهى رسول الله (ﷺ) إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم، وهم إخوة ثلاثة، عبد ياليل بن عمرو، ومسعود ابن عمرو، حبيب بن عمرو وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جمح[١٤٤] غير أن بني عمرو كانوا شديدي الحذر وكثيري التخوف، فلم يستجيبوا لدعوة الرسول (ﷺ)، بل بالغوا في السفه وسوء الأدب معه، فقام رسول الله (ﷺ) من عندهم، وقد يئس من خير ثقيف وقال لهم: «إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني»[١٤٥] وكره رسول الله (ﷺ) أن يبلغ قومه عنه فيؤزرهم ذلك عليه، فقد كان رسول الله (ﷺ) يود أن تتم اتصالاته تلك في جو من السرية وألا تنكشف تحركاته لقريش[١٤٦]، فقد كان النبي (ﷺ) يهتم كثيراً بجوانب الحيطة والحذر، فقد:

أ- كان خروجه من مكة على الأقدام حتى لا تظن قريش أنه ينوي الخروج من مكة، لأنه لو خرج راكبًا فذلك مما يثير الشبهة والشكوك، وأنه ينوي الخروج والسفر إلى جهة ما، مما قد يعرضه للمنع من الخروج من مكة دون اعتراض من أحد.

ب- واختيار الرسول (ﷺ) زيدًا كي يرافقه في رحلته، فيه جوانب أمنية، فزيد هو ابن رسول الله (ﷺ) بالتبني، فإذا رآه معه أحد، لا يثير ذلك أي نوع من الشك، لقوة الصلة بينهما، كما أنه (ﷺ) عرف زيدًا عن قرب، فعلم فيه الإخلاص والأمانة والصدق، فهو إذن مأمون الجانب، فلا يفشي سرًا، ويعتمد عليه في الصحبة، وهذا ما ظهر عندما كان يقي النبي (ﷺ) الحجارة بنفسه، حتى أصيب بشجاج في رأسه.

ج- وعندما كان رد زعماء الطائف ردًا قبيحًا مشوبًا بالاستهزاء والسخرية، تحمله

(١٤٣) انظر: أصول الفكر السياسي في القرآن ص١٧٥ .
(١٤٤) سيرة ابن هشام (٢/ ٧٨) .
(١٤٥) سيرة ابن هشام (٢/ ٧٨) .
(١٤٦) انظر: أصول الفكر السياسي في القرآن المكي .

الرسـول (ﷺ) ولم يغضب أو يثور، بل طلب منهم أن يكتمـوا عنه، فهذا تصرف غاية في الحيطة، فإذا علمت قريش بهذا الاتصال، فإنهـا لا تسخر منه فحسب، بل ربما شددت عليه في العذاب والاضطهاد، وحاولت رصد تحركاته داخل وخارج مكة[١٤٧].

٣- تضرع ودعاء:

كان بنو عمرو لئامًا فلـم يكتموا خبر الرسول (ﷺ)، بل أغروا به سفهـاءهم وعبيدهم يسبونه ويرمون عراقيبه بالحجارة، حتى دمت، عقباه وتلطخت نعلاه، وسال دمه الزكي على أرض الطائف، وما زالوا به وبزيد بن حارثة حتى ألجأوهما إلى حائط -بسـتان- لعتبة وشيبة ابني ربيعة وهما فيه، فكره مكانهما لعداوتهما الله ورسوله، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد إلى ظل شجرة من عنب، فجلس فيه هو وصاحبه زيد، ريثما يستريحا من عنائهما، وما أصابهما، وابنا ربيعا ينظران إليه، ويريان ما لقي من سفهاء أهل الطائف، ولم يحركا ساكنًا، وفي هذه الغمرة من الأسى والحزن، والآلام النفسية والجسمانية توجه الرسول (ﷺ) إلى ربه بهذا الدعاء الذي يفيض إيمانًا ويقيـنًا، ورضًا بما ناله في الله، واسترضاء الله: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حـيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيـد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي.

أعوذ بنور وجـهك الذي أشرقت له الـظلمات، وصلح عليـه أمر الدنيـا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل عليّ سـخطك لك العُتبى[١٤٨] حتى ترضى، ولا حـول ولا قوة إلا بالله»[١٤٩].

وإنا لنلمح في هذا الدعاء عمق توحيد النبي (ﷺ) ومبلغ تجرده لله جل وعلا، فهو لم يشعر لهـذا الحزن المفضي والهم المتواصل ليدرأ عن نفـسه الأذى أو ليجلب لنفسه شـيئًا من حياة الهدوء والنعيم، بل هو يستعـذب كل هذا الأذى من أجل الله (تعالى)، غير أنه مشفق من غضب ربه سبـحانه أن يكون قصّر في أمر من أمور الدعـوة من غير أن يشعر فـيتعرض لشيء من غضب مـولاه جل وعلا، فرضوان الله (تعالى) إذًا هو الهـدف الأعلى عند رسول الله (ﷺ)، وهو المطلب الأعظم الذي تُسَخَّر له كل المطالب، وإذا كان البلاء من الله (تعالى) من أجل أن يحل رضاه وينجلي سخطه فحيهلا بالبلاء، وهو ساعتئذ نعمة ورخاء.

---

(١٤٧) السيرة النبوية جوانب الحيطة والحذر ص١٠٩ ، ١١٠ .

(١٤٨) العتبى: الاسترضاء .

(١٤٩) ذهب الدكتور العمري إلى تضعيف الحديث في كتـابه السيرة النبوية الصحيحة وذهب إبراهيم العلي إلى صحـته وبين أن للحديث شاهد يقـويه ولذلك اعتبـره صحيح وذكره في كـتابه صحيح السـيرة النبوية ص١٣٦ ، وذهب الدكتور عبد الرحمن عبد الحـميد البر مدرس الحديث وعلومه في جامعة الأزهر أن الحديث بطريقيه قوي مقبول وخرّج طرقه في كتابه الهجرة النبوية المباركة ص٣٨ .

ثم يختم رسول الله (ﷺ) دعاءه بالكلمة العظيمة التي يقولها وعلمً أصحابه أن يقولوها عند حلول المكاره (ولا حـول ولا قوة إلا بك) فلا تحـوُّل للمؤمن من حال الشـدة إلى حال الرخاء، ولا من الخوف إلى الأمن إلا بالله (تـعالى)، ولا قوة على مواجهـة الشدائد وتحمُّل المكاره إلا بالله جل وعلا(١٥٠).

إن الدعاء من أعظم العبادات، وهو سلاح فعّال في مجال الحماية للإنسان وتحقيق أمنه، فمهما بلغ العقل البشري من الذكاء والدهاء فهو عرضة للزلل والإخفاق وقد تمر على المسلم مواقف يعجـز فيها عن التفكير والتـدبير تمامًا، فليس له مخرج منهـا سوى أن يجأر إلى الله بالدعاء، ليجد فرجًا ومخرجًا، فعندما لحق برسول الله (ﷺ) من أهل الطائف الأذى والطرد والسخرية والاستهزاء وأصبح هائمًا على وجهه، لجأ إلى الله بالدعاء فما أن انتهى من الدعاء حتى جاءت الإجابة من رب العالمين مع جبريل وملك الجبال(١٥١).

٤- الرحمة والشفقة النبوية:

كانت رحمته وشفقته العظيمـة هي التي تغلب في المواقف العصيبة التي تبلغ فيها المعاناة أشد مراحلها وتضـغط بعنف على النفس لتشتد وتقسو، وعلى الصدر ليـضيق ويتبرم، ومع ذلك تبقى نفسه الكبيرة ورحمته العظيمة هي الغالبة(١٥٢).

فعن عائشـة رضي الله عنها زوج النبي (ﷺ) أنها سـألت رسول الله (ﷺ): هل أتـى عليك يوم كان أشد من أحد؟ قال: **«لقد لقيت من قومك ما لقيت وكان أشدَّ ما لقيت منهم يوم العـقبـة إذ عرضت نفـسي على ابن عبـد ياليل بن عـبد كُـلال فلم يجبني إلى مـا أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب (١٥٣)، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فـإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله قـد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجـبال لتأمره بما شئت، فناداني ملك الجـبال، فسلَّم عليَّ ثم قال: يا محمد فقال: ذلك فيما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين»**

فقال النبي (ﷺ): **«بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعـبد الله وحده لا يشرك به شيئًا»**(١٥٤).

كان إصابته (ﷺ) يوم أحد أبلغ من الناحية الجسمية، أما من الناحية النفسية فإن إصابته يوم الطائف أبلغ وأشد؛ لأن فيها إرهاقًا كبيرًا لنفسه ومعاناة فكرية شديدة جعلته يستغرق في التفكير من الطائف إلى قرن الثعالب(١٥٥).

(١٥٠) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٣/ ٢٠).
(١٥١) انظر: السيرة النبوية جوانب الحيطة والحذر ص١١٢ ، ١١٣ .
(١٥٢) انظر: مقومات الداعية الناجح ص٧٦ .
(١٥٣) هو قرن المنازل ميقات أهل نجد ويسمى الآن السيل الكبير .
(١٥٤) صحيح البخاري رقم ٣٢٣١ .
(١٥٥) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٣/ ٢٦ ، ٢٧) .

٥- من مناهج التغيير:

كان مقترح ملك الجبال أن يطبق عليهم الأخشبين، وهو يدخل تحت أسلوب الاستئصال وقد نفذ في قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط قال (تعالى): **﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾** (سورة العنكبوت، الآية: ٤٠).

وكان هناك اقتراح آخر وهو أن يستمر في هجرته والابتعاد عن مكة والطائف الكافرتين؛ فالأولى أخرجته والثانية خذلته وعرض ذلك الأمر زيد بن حارثة على رسول الله (ﷺ) قال ابن القيم: (إن رسول الله (ﷺ) بعد أن لم يجد ناصرًا في الطائف، انصرف إلى مكة ومعه مولاه زيد بن حارثة محزونًا وهو يدعو بدعاء الطائف المشهور، فأرسل ربه تبارك وتعالى ملك الجبال يستأمره أن يطبق الأخشبين على أهل مكة، وهما جبلاها اللذان كانت بينهما، فقال: **«لا، بل أستأني بهم لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبده ولا يشرك به شيئًا»**، وأقام بنخلة أيامًا، فقال له زيد بن حارثة: (كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك. يعني قريشًا، وخرجت تستنصر فلم تنصر، يعني الطائف) فقال: **«يا زيد، إن الله جاعل لما ترى فرجًا ومخرجًا، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه ..»**[١٥٦].

إن النبي (ﷺ) رفض منهج الاستئصال وامتنع عن فكرة الاعتزال أو الهجرة المستمرة، ونظر إلى المستقبل بنور الإيمان وقرر الدخول إلى مكة الكافرة ليواصل جهاده الميمون ويستثمر كل ما يستطيعه من أجل دعوة التوحيد لم يحتار النبي (ﷺ) بين المنهجين السابقين بل تقدم نحو المنهج البديل الذي عزم عليه وهو منهج يقوم على فكرة دخول مكة الكافرة وليس الانسحاب منها ويقوم على ضرورة الوجود على ذات الأرض التي يقف عليها الكافرون، واعتصار مؤسساتها واستثمار علاقاتها، وتحوير غاياتها ليتغذى بكل ذلك مجتمع المؤمنين الذي سيولد من أحشائها؛ أي أنه كان (ﷺ) يريد أن يتخذ من أصلاب الكافرين مصانع بشرية تخرج أجيالاً من المسلمين المقاتلين في سبيل الله، فالنظر النبوي هنا مصوب نحو المستقبل بصورة جلية، ولم يكن ذلك يعني الانسحاب من الحاضر[١٥٧]، كان النبي (ﷺ) قد عزم على دخول مكة مرة ثانية؛ غير أن ظاهر الأحوال يدل على أن دخول مكة لم يكن أمرًا هينًا ولا آمنًا، وهنالك احتمال كبير للغدر به ولاغتياله من قبل قريش، التي لا يمكن أن تصبر أكثر؛ وهو قد أعلن الخروج عليها وذهب يستنصر بالقبائل الأخرى ويوقع بينها وبين حلفائها؛ ثم إنه حتى لو لم تكن هناك خطورة على شخصه، فإن دخوله إلى مكة بصورة (عادية) وقد طردته الطائف، سيجعل أهل مكة يصورون الأمر كهزيمة كبيرة أصابت المسلمين ويجترئون عليهم ويزدادون سفهًا؛ ولذلك فقد اتجه نظر الرسول (ﷺ) هذه المرة إلى تفجير مكة من الداخل بدلاً من تطويقها من الخارج؛ أي أراد أن يتغلغل في داخل بطون قريش

---

(١٥٦) انظر: زاد المعاد (٢/٤٦).

(١٥٧) انظر: أصول الفكر السياسي في القرآن المكي ص١٧٦.

ذاتها، ويوجد له حلفاء من بينهم ويكوّن له وجودًا في قلبها[(١٥٨)].

يذكر ابن القيم في كتابه زاد المعاد: (ثم إنه (ﷺ) لما انصرف من الطائف ولم يجيبوه إلى ما دعاهم إليه من تصديقه ونصرته، صار إلى حراء ثم بعث إلى الأخنس بن شريق ليجيره فقال: أنا حليف والحليف لا يجير، فبعث إلى سهيل بن عمرو، فقال له: إن بني عامر لا تجير على بني كعب؛ فبعث إلى المطعم بن عدي سيد قبيلة بني نوفل بن عبد مناف، بعث إليه رجلاً من خزاعة، أأدخل في جوارك؟ فقال: نعم: ودعا بنيه وقومه فقال: البسوا السلاح وكونوا عند أركان البيت فإني قد أجرت محمدًا، فدخل رسول الله (ﷺ) ومعه زيد ابن حارثة حتى انتهى إلى المسجد الحرام، فقام المطعم بن عدي على راحلته فنادى (يا معشر قريش إني قد أجرت محمدًا فلا يهجه أحد منكم)، فانتهى رسول الله (ﷺ) إلى الركن فاستلمه وصلى ركعتين وانصرف إلى بيته والمطعم بن عدي وولده محدقون بالسلاح حتى دخل بيته)[(١٥٩)].

وفي جواب الأخنس وسهيل نظر، لأنهما لو لم يكونا ممن يجير لما سألهما رسول الله (ﷺ) ذلك؛ لمعرفته (ﷺ) لأعراف قومه وعاداتهم كيف وعامر الذي هو جد سهيل، وكعب أخوان، أبوهما لؤي، فهما سواء في مكانهما، يجير أحدهما على الآخر هكذا قال الزرقاني[(١٦٠)].

لقد تغير الوضع كثيرًا بسبب منهجية الرسول (ﷺ) الجديدة، فبدلاً من أن يدخل مكة منهزمًا مختفيًا، دخلها ويحرسه بالسلاح سيد من سادات قريش على مسمع منهم ومرأى، هذا ونلاحظ أن الرسول (ﷺ) قد اختار رجلاً من خزاعة فبعثه رسولاً، وفي هذين الاختيارين حنكة سياسية مدهشة، ووعي تاريخي ودبلوماسي عميق، لأن نوفل، وهو الأب الأكبر لقبيلة بني نوفل التي يتزعمها المطعم بن عدي آنئذ، كان خصيمًا لعبد المطلب جد رسول الله (ﷺ) في الجاهلية، فقد وثب على أفنية وساحات كانت لعبد المطلب واغتصبها؛ فاضطرب عبد المطلب لذلك واستنهض قومه فلم ينهض كبير أحد منهم؛ فكتب إلى أخواله من بني النجار من الخزرج قصيدة يستنصرهم؛ قالوا: فقدم عليه منهم جمع كثيف فأناخوا بفناء الكعبة وتنكبوا القسي وعلقوا التراس؛ فلما رآهم نوفل، قال: لشر ما قدم هؤلاء؟ فكلموه فخافهم ورد أركاح عبد المطلب إليه؛ فلما نصر بنو الخزرج عبد المطلب قالت خزاعة وهم قد قووا وعزوا: والله ما رأينا بهذا الوادي أحد أحسن وجهًا ولا أتم خلقًا ولا أعظم حلمًا من هذا الإنسان -يعنون عبد المطلب- وقد نصره أخواله من الخزرج، ولقد ولدناه كما ولدوه وإن جده عبد مناف لابن حبي بنت حليل بن حبشية سيد خزاعة، ولو بذلنا له نصرنا وحالفنا، انتفعنا به وبقومه وانتفع بنا، فأتاه وجوههم، فقالوا: يا أبا الحارث إنا قد ولدناك

---

(١٥٨) نفس المصدر ص١٧٧ ، ١٧٨ .

(١٥٩) زاد المعاد (٢/ ٤٧) .

(١٦٠) محمد رسول الله ، لصادق عرجون (٢/ ٣٢٤) .

كما ولدك قوم من بني النجار، ونحن بعد متجاورون في الدار، وقد أماتت الأيام ما يكون في قلوب بعضنا على قريش من الأحقاد، فهلم فنحالفك فأعجب ذلك عبد المطلب وقبله وسارع إليه، ولم يحضر أحد من بني نوفل ولا عبد شمس[١٦١].

هذا النص يشير إلى جذور الصراع التاريخي القديم بين خزاعة وقريش، حينما جمع قصي بن كلاب قريشًا من متفرقات المواقع، وقاتل بهم خزاعة التي كانت لديها رئاسة البيت وسيادة العرب، فأخرج خزاعة من البيت وقسم مكة أرباعًا على قريش، فما زالت خزاعة مبغضة لقريش كارهين لها؛ ولما اضطرب الأمر بين قريش وعبد المطلب تحالفت خزاعة مع عبد المطلب نكاية بقريش وإضعافًا لها؛ وليس صحيحًا أن الأيام قد أماتت ما كان في قلوب بعضهم على قريش من الأحقاد، كما ذكر وفدهم، بل الصحيح أن الأحقاد لم تزل حية والصراع لم يزل مستمرًا، ومما يدل على ذلك أن بني نوفل وبني عبد شمس لم يدخلا ولم يحضرا هذا الحلف؛ إذ أنه حلف مضاد لهما.

فإذا بعث الرسول (ﷺ) رجلاً من خزاعة إلى سيد قبيلة بني نوفل فإن هذا الفعل إشارة ظاهرة إلى تلك الوقائع التاريخية التي ذكرناها، كما فيها تذكير بالحلف القديم بين عبد المطلب وخزاعة، ضد بني نوفل وعبد شمس ليفهم من ذلك أن الرسول (ﷺ) لا يقف معزولاً في مكة، وأنه قد يفعل ما فعله جده عبد المطلب، فيتحالف مع خزاعة، أو يستنصر بالخزرج؛ فالرسول (ﷺ) لم يكن في الواقع (يستعطف) المطعم بن عدي سيد بني نوفل ليدخل في جواره، بقدر ما كان يهدده ويثير مخاوفه، وحماية المطعم بن عدي لرسول الله (ﷺ) لم تكن مجرد (أريحية) ونبل، بقدر ما كانت رعاية لمصلحته وحماية لوضعه، وصمت قريش وهي ترى محمدًا (ﷺ) يدخل في جوار بني نوفل ويحرسونه بالسلاح لم يكن خوفًا من سلاح نوفل، وإنما خوفًا من سلاح خزاعة وقسي الخزرج[١٦٢].

كما لا ننسى أن المطعم ممن قام بنقض الصحيفة الظالمة مع من ذكرنا فيما مضى، وممن تحسن موقفه بعد تقريع أبي طالب له، عندما قال:

أمطعم لم أخذلك في يوم نجدة ... ولا معظم عند الأمور الجلائل
جزى الله عنا عبد شمس ونوفلاً ... عقوبة شر عاجلاً غير آجل[١٦٣]

وقد حفظ رسول الله (ﷺ) صنيع مطعم بن عدي، وعرف مدى الخطورة التي عرض نفسه وولده وقومه لها من أجله، فقال عن أسارى بدر السبعين يوم أسرهم: **«لو كان المطعم بن عدي حيًا ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم»**[١٦٤].

---

(١٦١) انظر: أنساب الأشراف للبلاذري (١/ ٧١) تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف بمصر بدون تاريخ.
(١٦٢) انظر: أصول الفكر السياسي في القرآن المكي ص١٨٠.
(١٦٣) انظر: التحالف السياسي في الإسلام ص٣٦.
(١٦٤) البخاري، كتاب ٦٤ باب شهود الملائكة (٣/ ١١٠).

فرغم العداء العقدي فرسول الله (ﷺ) يفرق بين من يعادي هذه العقيدة ويحاربها، ومن يناصرها ويسالمها، إنهم وإن كانوا كفارًا فليس من سمة النبوة أن تتنكر للجميل(١٦٥).

وقد أثنى شاعر الرسول (ﷺ) حسان بن ثابت على موقف مطعم فقال في مدحه:

فلو كـان مجدٌ مـخلد اليـوم واحدًا ... من الناس نجّي مجـده اليوم مطعـمًا
أجرت رسـول الله منهم فـأصبـحوا ... عـبادك مـا لَبّـى مُـحلٌ وأحَـرَمـا
فلو سُـئلت عنه مـعـد بأسـرها ... وقـحطان أو باقي بـقـيـة جـرهـمـا
لقـالوا هو المُوفي بخُـفـرة جـاره ... وذمـتـه يـومًـا إذا مـا تجـشّـمـا
ومـا تطلع الشـمس المنيـرة فوقـهم ... على مـثله فـيـهم أعـزَّ وأكـرمـا
إباء إذا يـأبى وألين شـيـمـة ... وأنوم عن جار إذا الليل أظلما(١٦٦)

وكـون النبي (ﷺ) أقرّ حسان بن ثابت رضي الله عنه في ثنائه البالغ على المطعم بن عدي، وكونه (ﷺ) أثنى عليه أيضًا إلى حدّ أنه أبدى استعداده لأن يتنازل عن الأسرى لو كان المطعم حيًا وكلمه فيهم؛ دليل واضح على أن من شريعة الإسلام الاعتراف بفضل أهل الفضل والثناء عليهم بمآلهم من معروف وإن كانوا غير مسلمين(١٦٧).

وهكـذا (ﷺ) كان يوظف الأعراف والتقاليد التي في مـجتمعه لمصلحة الإسلام، فكان ينظر للبناء الاجتماعي القائم، باعتباره حقيقة موضوعية تاريخية، وينظر للإنسان الكافر ليس باعتباره رقمًا حسابيًا فرديًا منقطعًا، وإنما ينظر إليه كفرد في شبكة اجتماعية متداخلة العلاقات ومتنوعة الدوافع وإن الإنسان يملك الفرصة والإمكانية لأن يتحول هو نفسه وطوع إرادته إلى قوة اجتماعية مؤثرة، وله وزن في اتخاذ القرار ونقضه، وفقًا للقيم التي يختارها، والمطعم بن عدي لم يكن فردًا وإنما كـان مؤسسة، وهي مؤسة لـم تولد بميلاده وإنما يرجع وجودها إلى تاريخ قديم، تصارعت فـيها قيم التوحيـد والإشراك، فإن صارت مؤسسة خـالصة للكافرين الآن، فلا يعني ذلك استحالة الانتفاع بها وتسخيرها للعودة للإيمان والتوحيد(١٦٨).

٦- قصة عداس النصراني وإسلام الجن:

لقد حـققت رحلة النبي (ﷺ) انتصارات دعوية رفيعة المسـتوى فقد تأثر بالدعوة الغلام النصراني عـدّاس، الذي أسلم(١٦٩)، كما وصلت الدعوة إلى الجنِّ السـبعة الذين أسلموا ثم انطلقوا إلى قومهم منذرين.

---

(١٦٥) انظر: التحالف السياسي ص٤٤ .
(١٦٦) البداية والنهاية (٣/ ١٣٦) .
(١٦٧) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٣/ ٣٢) .
(١٦٨) انظر: أصول الفكر السياسي ص١٨١ .
(١٦٩) انظر: الرسول المبلغ للخالدي ص٣٩ ، ٤٠ .

أ- قصة عداس:

لما تعرض رسول الله (ﷺ) للأذى من أهل الطائف وخرج من عندهم وألجؤوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه، فلما رآه عتبة وشيبة رقًا له، ودَعَوا غلامًا لهما نصرانيًا يقال له: عداس، فقالا له: خذ قطفًا من هذا العنب، فضعه في هذا الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل، فقل له يأكل منه، ففعل عداس، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله (ﷺ) ثم قال له: كل.

فلما وضع رسول الله (ﷺ) فيه يده، قال: «**باسم الله**»، ثم أكل، فنظر عداس في وجهه، ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله (ﷺ): «**ومن أهل أي البلاد أنت يا عداس؟ وما دينك؟**» قال: نصراني، وأنا رجل من أهل نينوى.

فقال رسول الله (ﷺ): «**من قرية الرجل الصالح يونس بن متى**»، فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسول الله (ﷺ): «**ذاك أخي، كان نبيًا وأنا نبي**»، فأكب عداس على رسول الله (ﷺ) يقبل رأسه ويديه وقدميه. قال: يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أما غلامك فقد أفسده عليك، فلما جاءهما عداس قالا له: ويلك يا عداس! مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا سيدي ما في الأرض شيء خير من هذا، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي، قالا له: ويحك يا عداس، لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه[(١٧٠)].

* إن تسمية النبي (ﷺ) قبل الأكل تطبيق لسنّة من سنّة الإسلام الظاهرة، وقد كان من بركة ذلك انجذاب الرجل النصراني إلى الإسلام، فما أن ذكر رسول الله (ﷺ) اسم الله (تعالى) قبل الأكل حتى اهتز كيان ذلك المولى النصراني وجاشت مشاعره، فأخبر النبي (ﷺ) بعجبه من ذلك حيث لا يعرف أهل تلك البلاد ذكر اسم الله (تعالى).

* إن التسمية قبل الأكل كسائر السنن الظاهرة من أسباب تميز المسلمين على من حولهم من الوثنيين، وهذا التمييز يلفت أنظار الكفار ويدفعهم إلى السؤال عن سبب ذلك، ثم يقودهم ذلك إلى فهم الدين الإسلامي والانجذاب إليه[(١٧١)].

* كان يقين عداس بنبوة رسول الله (ﷺ) قويًا حيث كان يدل على ذلك موقفه من سيِّديه عتبة وشيبة بن ربيعة لما أرادا الخروج إلى بدر وأمراه بالخروج معهما حيث قال لهما: قتال ذلك الرجل الذي رأيت في حائطكما تريدان؟ فوالله لا تقوم له الجبال، فقالا: ويحك يا عداس قد سحرك بلسانه[(١٧٢)].

* في قول عداس: والله ما على الأرض خير من هذا مواساة عظيمة، فلئن آذاه قومه،

---

(١٧٠) صحيح السيرة النبوية ص١٣٦ ، ١٣٧ .
(١٧١) انظر: التاريخ الإسلامي (٣/ ٢٢).
(١٧٢) انظر: سبل الهدى والرشاد (٢/ ٥٧٨) .

فهذا وافد من العراق من نينوى يكب على يديه ورجليه، ويقبلهما، ويشهد له بالرسالة وإن هذا لقدر رباني يسوق من نينوى من يؤمن بالله ورسوله حيث كان الصد من أقرب الناس إليه(١٧٣).

ب- إسلام الجن:

لما انصرف النبي (ﷺ) من الطائف راجعًا إلى مكة حين يئس من خبر ثقيف، حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصلي، فمر به النفر من الجن الذين ذكرهم الله (تعالى)، وكانوا سبعة نفر من جن أهل نصيبين، فاستمعوا لتلاوة الرسول (ﷺ)؛ فلما فرغ من صلاته، ولّوا إلى قومهم منذرين؛ قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا فقص الله (تعالى) خبرهم على النبي (ﷺ) فقال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (سورة الأحقاف، الآيتان: ٢٩، ٣٠).

هبط هؤلاء الجن على النبي (ﷺ) وهو يقرأ ببطن نخلة، فلما سمعوه قالوا: ÷ .

هذه الدعوة التي رفضها المشركون بالطائف تنتقل إلى عالم آخر هو عالم الجن، فتلقوا دعوة النبي (ﷺ) ومضوا بها إلى قومهم، كما مضى بها أبو ذر الغفاري إلى قومه، والطفيل ابن عمرو إلى قومه، وضماد الأزدي إلى قومه، فأصبح في عالم الجن دعاة يبلغون دعوة الله (تعالى): ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (سورة الأحقاف، الآية: ٣١).

وأصبح اسم محمد (ﷺ) تهفو به قلوب الجن، وليس قلوب المؤمنين من الإنس فقط، وأصبح من الجن حواريون حملوا راية التوحيد ووطنوا أنفسهم دعاة إلى الله ونزل في حقهم قرآنًا يتلى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها قال (تعالى): ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا * وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا * وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا * وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا * وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا * وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا * وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا * وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا * وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا * وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا * وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ (سورة الجن، الآيات: ١-١٣).

(١٧٣) انظر: التربية القيادية (١/ ٤٣٧).

كان هذا الفتح الرباني في مجال الدعوة ورسول الله (ﷺ) ببطن نخلة عاجز عن دخول مكة، فهل يستطيع عتاة مكة وثقيف أن يأسروا هؤلاء المؤمنين من الجن، وينزلوا بهم ألوان التعذيب؟[١٧٤] وعندما دخل النبي (ﷺ) مكة في جوار المطعم بن عدي كان يتلو على صحابته سورة الجن فتتجاوب أفئدتهم خشوعًا وتأثرًا من روعة الفتح العظيم في عالم الدعوة وارتفاع راياتها، فليسوا هم وحدهم في المعركة، هناك إخوانهم من الجن يخوضون معركة التوحيد مع الشرك.

وبعد عدة أشهر من لقاء الوفد الأول من الجن برسول الله (ﷺ) جاء الوفد الثاني متشوقًا لرؤية الحبيب المصطفى (ﷺ) والاستماع إلى كلام رب العالمين[١٧٥]، فعن علقمة قال: سألت ابن مسعود فقلت: هل شهد أحد منكم مع رسول الله (ﷺ) ليلة الجن؟ قال: لا ولكننا كنا مع رسول الله (ﷺ) ذات ليلة ففقدناه فالتمسناه في الأودية والشعاب، فقلنا: استطير أو اغتيل، قال: فبتنا بشر ليلة بات فيها قوم، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء فقلنا: يا رسول الله، فقدناك فطلبناك فلم نجدك، فبتنا شر ليلة بات بها قوم، فقال: «**أتاني داعي الجن فذهبت معه، فقرأت عليهم القرآن**»، قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيراهم. وسألوه الزاد فقال: «**لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحمًا، وكل بعرة علف لدوابكم**» فقال رسول الله (ﷺ): «**فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم**»[١٧٦].

كان هذا الفتح العظيم والنصر المبين في عالم الجن إرهاصًا وتمهيدًا لفتوحات وانتصارات عظيمة في عالم الانس، فقد كان اللقاء مع وفد الأنصار بعد عدة أشهر[١٧٧].

وقد علق الدكتور البوطي على سماع الجن من رسول الله (ﷺ) في عودته من الطائف فقال: (والذي يهمنا أن نعلمه بعد هذا كله هو أن على المسلم أن يؤمن بوجود الجن وبأنهم كائنات حية كلفها الله عز وجل بعبادته كما كلفنا بذلك، ولئن كانت حواسنا ومداركنا لا تشعر بهم فذلك لأن الله عز وجل جعل وجودهم غير خاضع للطاقة البصرية التي بثها في أعيننا ومعلوم أن أعيننا إنما تبصر أنواعًا معينة من الموجودات بقدر معين وبشروط معينة.

ولما كان وجود هذه الخليقة مسندًا إلى أخبار يقينية متواترة وردت إلينا من الكتاب والسنّة، وكان أمرها معلومًا من الدين بالضرورة، عدا أنه يتضمن تكذيب الخبر الصادق المتواتر إلينا عن الله عز وجل وعن رسوله (ﷺ).

ولا ينبغي أن يقع العاقل في أشد مظاهر الغفلة والجهل من حيث يزعم انه لا يؤمن إلا بما يتفق مع العلم، فيمضى يتبجح بأنه لا يعتقد بوجود الجان، من أجل أنه لم ير الجان ولم

(١٧٤) انظر: التربية القيادية (١/٤٤٣).
(١٧٥) نفس المصدر (١/٤٤٥).
(١٧٦) مسلم، كتاب الصلاة (١/٣٣٢) رقم ١٥٠.
(١٧٧) انظر: التربية القيادية (١/٤٤٥).

يحس بهم.

إن من البداهة بمكان أن مثل هذا الجهل المتعالم، يستدعي إنكار كثير من الموجودات اليقينية لسبب واحد هو عدم إمكان رؤيتها، والقاعدة العلمية المشهورة تقول: عدم الوجدان لا يستلزم عدم الوجود؛ أي عدم رؤيتك لشيء تفتش عنه لا يستلزم أن يكون بحد ذاته مفقودًا أو غير مفقود(١٧٨).

وبعد هذا التكرم الرباني الذي خص به النبي (ﷺ) في عالم الثقلين -الإنس والجن- حان وقت الحديث عن رحلته (ﷺ) إلى عالم السموات العلى، إلى عالم الملائكة، إلى حضرة الجليل سبحانه، إلى أن يرفعه إليه من بين هذه الخلائق جميعًا، ثم يعيده إليهم فيحدثهم بما رأى في هذه الرحلة الميمونة الخالدة، التي لم تعرف البشرية لها مثيلاً، ولن تعرف حتى يرث الله الأرض ومن عليها(١٧٩).

●●●

(١٧٨) انظر: فقه السيرة النبوية ص١٠٥ ، ١٠٦ .

(١٧٩) انظر: التربية القيادية (١/٤٤٦) .



المبحث الرابع

الإسراء والمعراج... ذروة التكريم

كان وجود أبي طالب بجانب رسول الله سياجًا واقيًا لرسول الله (ﷺ) يمنع عنه أذى قريش، لأن قريشًا ما كانت تريد أن تخسر أبا طالب، ولما توفي أبو طالب انهار هذا الحاجز، ونال رسول الله من الضر الجسدي الشيء الكثير.

وكانت خديجة زوجة رسول الله البلسم الشافي لما يصيب رسول الله من الجراح النفسية التي يلحقها به المشركون، ولما توفيت فقد رسول الله هذا البلسم.

وخرج رسول الله (ﷺ) إلى الطائف -بعد ما اشتد عليه أذى قريش وأمعنوا في التضييق عليه- يطلب من زعمائها نصرة الحق الذي يدعو إليه وحمايته حتى يبلغ دين الله، فما كان جوابهم إلا أن ردوه أقبح رد، ولم يكتفوا بذلك، بل أرسلوا إلى قريش رسولاً يخبرهم بما جاء به محمد، فتجهمت له قريش وضمرت له الشر، فلم يستطع رسول الله دخول مكة إلا بجوار رجل كافر، لقد تجهمت له قريش وأحدقت برسول الله (ﷺ)، فزاد حزنه وهمه حتى سمي ذلك العام بالنسبة لرسول الله (ﷺ) بـ(عام الحزن)[١٨٠].

أما هدف هذه المعجزة؛ يتمثل في أمور من أهمها:

* إن الله عز وجل أراد أن يتيح لرسوله فرصة الاطلاع على المظاهر الكبرى لقدرته حتى يملأ قلبه ثقة فيه وإستنادًا إليه حتى يزداد قوة في مهاجمة سلطان الكفار القائم في الأرض، كما حدث لموسى عليه السلام فقد شاء الله أن يريه عجائب قدرته.

فلما ملأ قلبه بمشاهدة هذه الآيات الكبرى قال له بعد ذلك: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى * قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى * وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى * لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ (سورة طه، الآيات: ١٩-٢٣).

* فثمرت الاسراء والمعراج أطلع الله نبيه على هذه الآيات الكبرى، توطئة للهجرة ولأعظم مواجهة على مدى التاريخ للكفر والضلال والفسوق، والآيات التي رآها رسول الله (ﷺ) كثيرة: الذهاب إلى بيت المقدس، العروج إلى السماء، رؤية الغيب الذي دعا إليه: الأنبياء والمرسلين، الملائكة، السماوات، الجنة والنار، نماذج من النعيم والعذاب...

* كان حديث القرآن الكريم عن الإسراء في سورة الإسراء وعن المعراج في سورة النجم وذكر حكمة الإسراء في سورة الإسراء بقوله: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ (سورة الاسراء، الآية: ١). وفي سورة النجم بقوله: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ (سورة النجم، الآية: ١٨). وفي الإسراء والمعراج علوم وأسرار ودقائق ودروس وعبر[١٨١]، يقول الأستاذ أبو الحسن

(١٨٠) انظر: دراسة تحليلية لشخصية الرسول، د. قلعجي ص١٢٨.

(١٨١) انظر: الأساس في السنّة، سعيد حوى (١/ ٢٩١، ٢٩٢).

الندوي: (لم يكن الإسراء مجرد حادث فردي بسيط رأى فيه رسول الله (ﷺ) الآيات الكبرى، وتجلى له ملكوت السموات والأرض مشاهدة وعيانًا بل -زيادة إلى ذلك- اشتملت هذه الرحلة النبوية الغيبية على معان دقيقة كثيرة، وشارات حكيمة بعيدة المدى، فقد ضمت قصة الإسراء، وأعلنت السورتان الكريمتان اللتان نزلتا في شأنه تسميان (الإسراء) وسورة (النجم) أن محمدًا (ﷺ) هو نبي القبلتين، وإمام المشرقين والمغربين، ووارث الأنبياء قبله، وإمام الأجيال بعده، فقد التقت في شخصه وفي إسرائه مكة بالقدس، والبيت الحرام بالمسجد الأقصى، وصلى بالأنبياء خلفه، فكان هذا إيذانًا بعموم رسالته وخلود إمامته وإنسانية تعاليمه، وصلاحيتها لاختلاف المكان والزمان، وأفادت هذه السورة الكريمة تعيين شخصية النبي (ﷺ) ووصف إمامته وقيادته وتحديد مكانة الأمة التي بعث فيها وآمنت به، وبيان رسالتها ودورها الذي ستمثله في العالم، ومن بين الشعوب والأمم)[١٨٢].

أولاً: قصة الإسراء والمعراج كما جاءت في بعض الأحاديث:

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): «**أُتيت بالبراق وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه قال: فركبته حتى أتيت بيت المقدس قال: فربطته بالحلقة**[١٨٣] **التي يربط بها الأنبياء. قال: ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت فجاءني جبرئيل عليه السلام بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن، فقال: جبريل اخترت الفطرة**»[١٨٤] فذكر الحديث[١٨٥].

* وفي حديث مالك بن صعصعة: إن نبي الله (ﷺ) حدثهم عن ليلة أسري به، قال: «**بينما أنا في الحطيم**[١٨٦] -وربما قال: **في الحجر- مضطجعًا إذ أتاني آت**[١٨٧]، فقد قال: وسمعته يقول: **فشق ما بين هذه إلى هذه**، فقلت للجارود- وهو إلى جانبي: (ما يعني به؟) قال: من ثغرة نحره[١٨٨] إلى شعرته[١٨٩] وسمعته يقول: **من قصه**[١٩٠] **إلى شعرته، فاستخرج قلبي، ثم أتيت بطست من ذهب مملوء إيمانًا، فغسل قلبي، ثم حشي، ثم أعيد، ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض** فقال له الجارود: هو البراق يا أبا حمزة؟ قال أنس: نعم، يضع خطوه عند أقصى طرفه[١٩١]، **فحملت عليه فانطلق بي جبريل حتى أتيت**

(١٨٢) انظر: الأساس في السنّة (١/ ٢٩٢).
(١٨٣) الحلقة: المراد باب مسجد بيت المقدس.
(١٨٤) الفطرة: الإسلام، والاستقامة.
(١٨٥) مسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله (ﷺ) رقم ١٦٢.
(١٨٦) الحطيم: هو ما بين الركن والمقام.
(١٨٧) آت: هو جبريل عليه السلام.
(١٨٨) ثغرة النحر: الموضع المنخفض في أدنى الرقبة من الأمام.
(١٨٩) شعرته: شعر عانته وهو ما ينبت حول العانة.
(١٩٠) القص: رأس عظام الصدر.
(١٩١) يصنع خطوه عند أقصى طرفه: يضع رجله عند منتهى بصره.

السماء الدنيا فاستفتح[١٩٢]. قيل: من هذا ؟

قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد ، قيل: وقد أرسل إليه؟

قال: نعم. قيل: مرحبًا به[١٩٣]، فنعم المجيء جاء، ففتح، فلما خلصت فإذا فيها آدم، فقال: هذا أبوك آدم فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد السلام، ثم قال: مرحبًا بالابن الصالح، والنبي الصالح ثم صعد بي حتى أتى السماء الثانية فاستفتح: قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قال: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به، فنعم المجيء جاء، ففتح، فلما خلصت إذا يحيى وعيسى، وهما ابنا خالة، قال: هذا يحيى وعيسى، فسلم عليهما فسلمت، فردا، ثم قالا: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صُعد بي إلى السماء الثالثة، فاستفتح: قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به فنعم المجيء جاء، ففتح فلما خلصت إذا يوسف، قال: هذا يوسف فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صُعد بي حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح: قيل: من هذا ؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أو قد أرسل إليه قال: نعم، قيل: مرحبًا به فنعم المجيء جاء، ففتح فلما خلصت فإذا إدريس، قال : هذا إدريس فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صُعد بي حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح: قيل: من هذا؟ قال جبريل: قيل: ومن معك؟ قال: محمد (ﷺ)! قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل مرحبًا به فنعم المجيء جاء، ففتح، فلما خلصت فإذا هارون، قال: هذا هارون، فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صُعد بي حتى أتى السماء السادسة فاستفتح: قيل: من هذا ؟

قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قال: مرحبًا به ، فنعم المجيء جاء. فلما خلصت، فإذا موسى، قال: هذا موسى فسلم عليه، فرد ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح، والنبي الصالح؛ فلما تجاوزت بكى، قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلامًا[١٩٤] بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي.

ثم صعد بي إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل: قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قال: مرحبًا به ونعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا إبراهيم، قال: هذا أبوك فسلم عليه، قال فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال:

(١٩٢) استفتح: طلب فتح باب السماء الدنيا .

(١٩٣) مرحبًا به: أصاب رحبًا وسعة .

(١٩٤) أبكي لأن غلامًا: . . . ليس هذا على سبيل النقص بل على سبيل التنويه بقدرة الله وعظم كرمه .

مرحبًا بالابن الصالح والنبي الصالح ثم رفعت لي[١٩٥] سدرة فإذا نبقها مثل[١٩٦] قلال هجر[١٩٧]، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، قال: هذه سدرة المنتهى، وإذا أربعة أنهار، نهران باطنان ونهران ظاهران، فقلت: ما هذان ياجبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات ثم رفع لي البيت المعمور.

ثم أُتيت بإناء من خمر، وإناء من لبن، وإناء من عسل، فأخذت اللبن، فقال: هي الفطرة[١٩٨] التي أنت عليها وأمتك.

ثم فرضت عليّ الصلاة خمسين صلاة كل يوم، فرجعت فمررت على موسى فقال: بما أمرت؟ قال: أمرت بخمسين صلاة كل يوم. قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإني والله قد جربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة[١٩٩]، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فرجعت، فوضع عني عشرًا، فرجعت إلى موسى فقال: مثله، فرجعت فوضع عني عشرًا، فرجعت إلى موسى فقال: مثله، فرجعت ، فوضع عني عشرًا، فرجعت اليموسى فقال مثله، فرجعت فأمرت بعشر صلوات كل يوم، فرجعت فقال مثله، فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى فقال: بما أمرت؟ قلت: أمرت بخمس صلوات كل يوم قال: إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم، وإني قد جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك قال: سألت ربي حتى استحييت ولكن أرضى وأسلم، قال: فلما جاوزت نادى مناد: أمضيت فريضتي، وخففت عن عبادي[٢٠٠] .

* كانت حادثة الإسراء والمعراج قبل هجرته عليه السلام بسنة، هكذا قال القاضي عياض في الشفا[٢٠١].

* فلما رجع رسول الله (ﷺ) من رحلته الميمونة أخبر قومه بذلك فقال لهم في مجلس حضره المطعم بن عدي، وعمرو بن هشام والوليد بن المغيرة، فقال: «**إني صليت الليلة العشاء في هذا المسجد، وصليت به الغداة، وأتيت فيما دون ذلك بيت المقدس، فَنُشر لي رهط من الأنبياء منهم إبراهيم، وموسى وعيسى، وصليت لهم وكلمتهم**»، فقال عمرو بن هشام كالمستهزئ به: صفهم لي، فقال: «**أما عيسى، ففوق الربعة، ودون الطول، عريض الصدر، ظاهر الدم، جعد، أشعر تعلوه صهبة**[٢٠٢]، **كأنه عروة بن مسعود الثقفي. وأما موسى**

---

(١٩٥) رفعت لي: قربت لي .

(١٩٦) النبق: هو ثمر السدر .

(١٩٧) قلال هجر: يضرب بها المثل لكبرها ، وهجر قرية في البحرين والقلة : الجرة الكبيرة .

(١٩٨) الفطرة: دين الإسلام .

(١٩٩) عالجتهم أشد المعالجة: مارست بني اسرائيل أشد الممارسة .

(٢٠٠) البخاري في مناقب الأنصار ، باب في المعراج ، رقم ٣٨٨٧ .

(٢٠١) انظر: الشفا بحقوق المصطفى (١٠٨/١) .

(٢٠٢) صهبة : بياض بحمرة .

فضخم آدم، طوال، كأنه من رجال شنوءة متراكب الأسنان، مقلص الشفة، خارج اللثة، عابس، وأما إبراهيم فوالله إنه لأشبه الناس بي، خَلْقًا وخُلُقًا»[٢٠٣].

فقالوا: يامحمد! فصف لنا بيت المقدس، قال: «**دخلت ليلاً، وخرجت منه ليلاً**» فأتاه جبريل بصورته في جناحه، فجعل يقول: «**باب منه كذا، في موضع كذا، وباب منه كذا، في موضع كذا**».

ثم سألوه عن عيرهم، فقال لهم: «**أتيت على عير بني فلان بالرّوحاء، قد أضلوا ناقة لهم، فانطلقوا في طلبها، فانتهيت إلى رحالهم، ليس بها منهم أحد، وإذا قدح ماء فشربت منه، فاسألوهم عن ذلك**» - قالوا: هذه والإله آية- **ثم انتهيت إلى عير بني فلان، فنفرت مني الإبل، وبرك منها جمل أحمر، عليه جُوالق**[٢٠٤] **مخطط ببياض، لا أدري أكسر البعير، أم لا فاسألوهم عن ذلك**» - قالوا: هذه والإله آية - «**ثم انتهيت إلى عير بني فلان في التنعيم، يقدمها جمل أورق**[٢٠٥]**، وها هي تطلع عليكم من الثنية** [٢٠٦] فقال الوليد بن المغيرة: ساحر فانطلقوا فنظروا، فوجدوا الأمر كما قال، فرموه بالسحر، وقالوا: صدق الوليد بن المغيرة فيما قال[٢٠٧].

* كانت هذه الحادثة فتنة لبعض الناس ممن كانوا آمنوا وصدقوا بالدعوة، فارتدوا، وذهب بعض الناس إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه فقالوا: هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس.

قال: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟

قال: نعم إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة، فلذلك سُميَّ أبو بكر الصديق[٢٠٨].

ثانيًا: فوائد ودروس وعبر:

١- بعد كل محنة منحة، وقد تعرض رسول الله (ﷺ) لمحن عظيمة، فهذه قريش قد سدت الطريق في وجه الدعوة في مكة، وفي ثقيف، وفي قبائل العرب، وأحكمت الحصار ضد الدعوة ورجالاتها من كل جانب، وأصبح النبي (ﷺ) في خطر بعد وفاة عمه أبي طالب أكبر حماته، ورسول الله (ﷺ) ماض في طريقه، صابر لأمر ربه لا تأخذه في الله

---

(٢٠٣) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٣/ ٣٧).

(٢٠٤) الجُوالق: هو العدل الذي يوضع فيه المتاع.

(٢٠٥) أورق: أي لونه أبيض وفيه سواء.

(٢٠٦) الثنية: أي الطريق الجبلي.

(٢٠٧) المطالب العالية للحافظ ابن حجر (٤/ ٢٠١-٢٠٤) وعيون الأثر (١/ ١٤٠-١٤٢)، وابن هشام بلاغًا عن أم هانئ رضي الله عنها (٢/ ١١).

(٢٠٨) المستدرك (٣/ ٦٢) قال الحاكم: هذا الحديث صحيح الإسناد وأقره الذهبي.

لومة لائم ولا حرب محارب، ولا كيد مستهزئ، فقد آن الأوان للمنحة العظيمة، فجاءت حادثة الإسراء والمعراج على قدر من رب العالمين، فيعرج به من دون الخلائق جميعًا، ويكرمه على صبره وجهاده، ويلتقي به مباشرة دون رسول ولا حجاب، ويطلعه على عوالم الغيب دون الخلق كافة، ويجمعه مع إخوانه من الرسل في صعيد واحد فيكون الإمام والقدوة لهم وهو خاتمهم وآخرهم(٢٠٩).

٢- إن الرسول (ﷺ) كان مُقدمًا على مرحلة جديدة، مرحلة الهجرة، والانطلاق لبناء الدولة، يريد الله (تعالى) للّبنات الأولى في البناء أن تكون سليمة قوية متراصة متماسكة، فجعل الله هذا الاختبار والتمحيص، ليخلص الصف من الضعاف المترددين، والذين في قلوبهم مرض، ويثبّت المؤمنين الأقوياء والخلّص الذين لمسوا عيانًا صدق نبيهم بعد أن لمسوه تصديقًا، وشهدوا مدى كرامته على ربه، فأي حظ يحوطهم وأي سعد يغمرهم وهم حول هذا النبي المصطفى وقد آمنوا به وقدموا حياتهم فداء له ولدينهم، كم يترسخ الإيمان في قلوبهم أمام هذا الحدث الذي تم بعد وعثاء الطائف، وبعد دخول مكة بجوار وبعد أذى الصبيان والسفهاء(٢١٠).

٣- إن شجاعة النبي (ﷺ) العالية تتجسد في مواجهته للمشركين بأمر تنكره عقولهم ولا تدركه في أول الأمر تصوراتهم ،ولم يمنعه من الجهر به الخوف من مواجهتهم وتلقي نكيرهم واستهزائهم، فضرب بذلك (ﷺ) لأمته أروع الأمثلة في الجهر بالحق أمام أهل الباطل وإن تحزبوا ضد الحق وجندوا لحربه كل ما في وسعهم وكانت من حكمة النبي (ﷺ) في إقامة الحجة على المشركين بأن حدثهم عن إسرائه إلى بيت المقدس، وأظهر الله له علامات تلزم الكفار بالتصديق وهذه العلامات هي:

* وصف النبي (ﷺ) بيت المقدس، وبعضهم قد سافر إلى الشام ورأى المسجد الأقصى، فقد كشف الله لنبيه (ﷺ) المسجد الأقصى حتى وصفه للمشركين، وقد أقروا بصدق الوصف ومطابقته للواقع الذي يعرفونه.

* إخباره عن العير التي بالروحاء، والبعير الذي أضلوه، وما قام به من شرب الماء الذي في القدح.

* إخباره عن العير الثانية التي نفرت فيها الإبل ووصفه الدقيق لأحد جمالهم.

* إخباره عن العير الثالثة التي بالأبواء ووصفه الجمل الذي يقدمها، وإخباره بأنها تطلع ذلك الوقت من ثنية التنعيم، وقد تأكد المشركون فوجدوا أن ما أخبرهم به الرسول (ﷺ) كان صحيحًا، فهذه الأدلة الظاهرة كانت مفحمة لهم ولا يستطيعون معها أن يتهموه بالكذب.

(٢٠٩) انظر: التربية القيادية (٤٤٧/١).
(٢١٠) نفس المصدر (٤٥١/١).

كانت هذه الرحلة العظيمة تربية ربانية رفيعة المستوى وأصبح (ﷺ) يرأى الأرض كلها بما فيها من مخلوقات نقطة صغيرة في ذلك الكون الفسيح، ثم ما مقام كفار مكة في هذه النقطة؟ إنهم لا يمثّلون إلا جزءًا يسيرًا جدًا من هذا الكون، فما الذي سيفعلونه تجاه من اصطفاه الله (تعالى) من خلقه وخصه بتلك الرحلة العلوية الميمونة وجمعه بالملائكة والأنبياء عليهم السلام، وأراه السموات السبع وسدرة المنتهى والبيت المعمور وكلمه جلا وعلا[٢١١]؟

٤- يظهر إيمان الصديق رضي الله عنه القوي في هذا الحدث الجلل، فعندما أخبره الكفار قال بلسان الواثق، لئن كان قال ذلك لقد صدق، ثم قال: إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة، وبهذا استحق لقب الصديق، وهذا منتهى الفقه واليقين حيث وازن بين هذا الخبر ونزول الوحي من السماء، فبين لهم أنه إذا كان غريبًا على الإنسان العادي فإنه في غاية الإمكان بالنسبة للنبي (ﷺ)[٢١٢].

٥- إن الحكمة في شق صدر النبي (ﷺ) وملء قلبه إيمانًا وحكمة استعدادًا للإسراء تظهر في عدم تأثر جسمه بالشق وإخراج القلب مما يؤمنه من جميع المخاوف العادية الأخرى ومثل هذه الأمور الخارقة للعادة يجب التسليم له دون التعرض لصرفه عن حقيقته، لمقدرة الله (تعالى) التي لا يستحيل عليها شيء[٢١٣].

٦- إن شرب رسول الله (ﷺ) اللبن حين خيّر بينه وبين الخمر، وبشارة جبريل - عليه الصلاة والسلام: هديت للفطرة، تؤكد أن هذا الإسلام دين الفطرة البشرية التي ينسجم معها، فالذي خلق الفطرة البشرية خلق لها هذا الدين الذي يلبي نوازعها واحتياجاتها ويحقق طموحاتها ويكبح جماحها ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة الروم، الآية: ٣٠).

٧- كان إسراء النبي (ﷺ) بالروح والجسد يقظة إلى بيت المقدس وعلى هذا جماهير السلف والخلف، ولا يُعوّل على من قال بأن الإسراء كان بروحه، وأنه رؤيا منام، إذ لو كان الإسراء منامًا لما كانت فيه آية ولا معجزة ولما استبعده الكفار ولا كذبوه، إذ مثل هذا من المنامات لا ينكر[٢١٤]، ثم إن في قوله (تعالى): ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ والمقصود بعبده سيدنا محمد (ﷺ)، وكلمة (بعبده) تشمل روحه وجسده[٢١٥].

٨- إن صلاة النبي (ﷺ) بالأنبياء دليل على أنهم سلموا له بالقيادة والريادة، وأن شريعة الإسلام نسخت الشرائع السابقة، وأنه وسع أتباع هؤلاء الأنبياء ما وسع أنبياءهم، أن يسلموا

---

(٢١١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٣/ ٤١، ٤٢).
(٢١٢) نفس المصدر (٣/ ٤٣).
(٢١٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ١٨٩).
(٢١٤) انظر: المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، زيدان (٢/ ٩١).
(٢١٥) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٣)، تفسير القاسمي (١٠/ ١٨٩).

بالقيادة لهذا الرسول ولرسالته التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.

إن على الذين يعقدون مؤتمرات التقارب بين الأديان أن يُدركوا هذه الحقيقة، ويدعوا إليها، وهي ضرورة الانخلاع من الديانات المنحرفة والإيمان بهذا الرسول (ﷺ) ورسالته، وعليهم أن يدركوا حقيقة هذه الدعوات المشبوهة التي تخدم وضعًا من الأوضاع أو نظامًا من الأنظمة الجاهلية.

وأي تقريب بين عقيدة منحرفة تعتقد أن الله هو المسيح، وأن المسيح ابن الله وأن الله ثالث ثلاثة أو بين من يعتقد أن عزير ابن الله، ويحرف كلام الله وبين من يعتقد أن الله واحد لا شريك له، ولا والد ولا ولد ولا زوجة له[٢١٦].

٩- إن الربط بين المسجد الأقصى والمسجد الحرام وراءه حكم ودلالات وفوائد منها:

* أهمية المسجد الأقصى بالنسبة للمسلمين، إذ أصبح مسرى رسولهم (ﷺ)، ومعراجه إلى السموات العلى، وكان لا يزال قبلتهم الأولى طيلة الفترة المكية، وهذا توجيه وإرشاد للمسلمين بأن يحبوا المسجد الأقصى وفلسطين لأنها مباركة ومقدسة.

* الربط يشعر المسلمين بمسؤوليتهم نحو المسجد الأقصى، بمسؤولية تحرير المسجد الأقصى من أوضار الشرك وعقيدة التثليث، كما هي أيضًا مسؤوليتهم تحرير المسجد الحرام من أوضار الشرك وعبادة الأصنام، لأن المسجدين يقعان تحت الاحتلال، احتلال الطاغوت العربي واحتلال الطاغوت الصليبي، فهما بحاجة إلى التحرير والمسلمون مخاطبون بذلك.

* الربط يشعر بأن التهديد للمسجد الأقصى هو تهديد للمسجد الحرام وأهله، وأن النيل من المسجد الأقصى توطئه للنيل من المسجد الحرام، فالمسجد الأقصى بوابة الطريق إلى المسجد الحرام، وزوال المسجد الأقصى من أيدي المسلمين ووقوعه في أيدي اليهود يعني أن المسجد الحرام والحجاز قد تهدد الأمن فيهما، واتجهت أنظار الأعداء إليهما لاحتلالهما.

والتاريخ قديمًا وحديثًا يؤكد هذا، فإن تاريخ الحروب الصليبية يخبرنا أن أرناط الصليبي صاحب مملكة الكرك أرسل بعثة للحجاز للاعتداء على قبر الرسول (ﷺ) وعلى جُثمانه في المسجد النبوي، وحاول البرتغاليون (النصارى الكاثوليك) في بداية العصور الحديثة الوصول إلى الحرمين الشريفين لتنفيذ ما عجز عنه أسلافهم الصليبيون، ولكن المقاومة الشديدة التي أبداها المماليك ومن ثم العثمانيون حالت دون إتمام مشروعهم الجهنمي، وبعد حرب (١٩٦٧م) التي احتل اليهود فيها بيت المقدس صرخ زعماؤهم بأن الهدف بعد ذلك احتلال الحجاز وفي مقدمة ذلك مدينة رسول الله (ﷺ) وخيبر.

لقد وقف دافيد بن غوريون زعيم اليهود بعد دخول الجيش اليهودي القدس يستعرض جنودًا وشبانًا من اليهود بالقرب من المسجد الأقصى ويُلقي فيهم خطابًا ناريًا يختتمه بقوله: (لقد استولينا على القدس ونحن في طريقنا إلى يثرب)[٢١٧].

---

(٢١٦) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس ص٢١٣.

(٢١٧) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس ص٣١٤.

ووقفت غولدا مائير رئيسة وزراء اليهود بعد احتلال بيت المقدس وعلى خليج إيلات العقبة، تقول: (إنني أشم رائحة أجدادي في المدينة والحجاز، وهي بلادنا التي سوف نسترجعها)(٢١٨).

وبعد ذلك نشر اليهود خريطة لدولتهم المنتظرة التي شملت المنطقة من الفرات إلى النيل، بما في ذلك الجزيرة العربية والأردن وسوريا والعراق ومصر واليمن والكويت والخليج العربي كله. ووزعوا خريطة دولتهم هذه بعيد انتصارهم في حرب (١٩٦٧م) في أوربا(٢١٩).

١٠- يرى القارئ في سورة الإسراء أن الله ذكر قصة الإسراء في آية واحدة فقط قال (تعالى): ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (سورة الإسراء، الآية: ١) ثم أخذ في ذكر فضائح اليهود وجرائمهم، ثم نبههم بأن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، والارتباط بين الآيات في سورة الإسراء يشير إلى أن اليهود سيعزلون عن منصب قيادة الأمة الإنسانية لما ارتكبوا من الجرائم التي لم يبق معها مجال لبقائهم على هذا المنصب وأنه سيصير إلى رسوله (ﷺ)، ويجمع له مركزي الدعوة الإبراهيمية كليهما(٢٢٠). إن سورة الإسراء تعرضت للاستبداد الإسرائيلي وكيف تهاوى بين مخالب القوى الدولية الكبرى في ذلك الزمان (الفرس والروم) ولذلك من الفوائد العظيمة في رحلة الإسراء لرسول الله (ﷺ) وأمته رؤية بعض آيات الله، فإن من أوضح آيات الله المتعلقة بالمسجد الأقصى هي آياته التاريخية التي كان يعكسها الصراع الروماني الفارسي الإسرائيلي قبل الإسراء(٢٢١) قال (تعالى): ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً * ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا * وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا * إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا﴾ (سورة الإسراء، الآيات: ٢-٧).

ذكر ابن كثير في البداية والنهاية: أن (بختنصر) بأمر من ملك الفرس(٢٢٢) قد قام بتخريب مملكة اليهود وجاس خلال الديار، وتفرقت بسبب ذلك بنو إسرائيل فنزلت طائفة

---

(٢١٨) جريدة الدستور الأردنية العدد (٤٦١٣) بقلم أميل الغوري. نقلاً عن السيرة النبوية لأبي فارس ص٣١٤.

(٢١٩) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس ص٢١٥.

(٢٢٠) انظر: الرحيق المختوم، المباركفوري ص١٢٠.

(٢٢١) انظر: أصول الفكر السياسي في القرآن المكي ص١٤٩.

(٢٢٢) يرى الدكتور فرست مرعي أستاذ التاريخ في جامعة صنعاء أن بختنصر كلداني وليس فارسي والأمر من الملك الكلداني.

الحجاز وطائفة يثرب وطائفة بواد القرى وذهبت شرذمة لمصر[٢٢٣]، وقد وقع هذا الدمار الفارسي لدولة اليهود في القرن السادس قبل الميلاد (٥٩٧ ق.م) [٢٢٤].

أما الدمار الثاني وهو الدمار الروماني للدولة اليهودية (بعد أن أعيد بناؤها)، فقد وقع في القرن الميلادي الأول (٧٠م) وذلك حين هدم القائد الروماني (تيتوس) هيكل أورشليم وفر اليهود من وجه الاضطهاد الروماني السياسي الديني، وتتابعت هجرتهم وانتهى بعضهم إلى جنوب الجزيرة العربية حيث سبقهم أجدادهم الأوائل[٢٢٥].

فالشتات اليهودي في أطراف الجزيرة العربية ما زال يحمل جرثومة الفساد في الأرض، فإذا كان الرسول (ﷺ) قد استوعب الظاهرة القرشية واستعد لها، فعليه أن يحلل الظاهرة اليهودية ويستعد لها[٢٢٦]، فاليهود ليسوا مجرد أمة تاريخية كعاد وثمود تورد أخبارها للإرشاد والاعتبار، وإنما هم أمة لها حضور كثيف في الواقع العربي الذي يعيش فيه الرسول (ﷺ) ويتحرك فيه لإقامة دولة الإسلام، فقد كانوا يشكلون فوق مكانتهم الاقتصادية مركز سلطة فكرية لما لهم من أحبار وأخبار وكتب تراث نبوي، تؤهلهم لتحديد مواصفات النبوة، وطلب المعجزات ووضع الشروط لصدق الرسل وصحة الرسالات، فإذا كانت قريش تستخدم الكعبة لمحاربة الإسلام، فإن اليهود قد كانوا يستخدمون التوراة لمحاربة القرآن، وإذا كان محمد (ﷺ) يتوقع معركة مع قريش فعليه أن يتوقع معارك مع اليهود[٢٢٧]، لقد صورت سورة الإسراء جانبًا من الصراع الدولي بين الفرس والروم واليهود، ونزلت بعدها سورة الروم وهي كذلك تحدثت عن الصراع الدولي قال (تعالى): ﴿**الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ**﴾ (سورة الروم، الآيات: ١-٧).

كان مشركو قريش يحبون أن يظهر أهل فارس على الروم لأنهم وإياهم أهل أوثان. بينما كان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب، كما أورد المفسرون تفاصيل كثيرة عن الرهان الذي جرى بين أبي بكر الصديق وبعض مشركي مكة حول المعركة القادمة بين الفرس والروم التي جزم فيها القرآن بانتصار الروم وهزيمة الفرس[٢٢٨].

وذهب ابن عطية إلى رأي آخر يستحق التدبر حيث قال: (الأقرب أن يعلل ذلك - أي

(٢٢٣) انظر: أصول الفكر السياسي ص١٥١ .
(٢٢٤) نفس المصدر ص١٥٢ .
(٢٢٥) ابن خلدون (٢/٢٠٦) .
(٢٢٦) انظر: أصول الفكر السياسي ص١٥٢ .
(٢٢٧) نفس المصدر ص١٥٣ .
(٢٢٨) انظر: تفسير الطبري (٢١/١٢) .

فرح المؤمنين - بما يقتضيه النظر من محبة أن يغلب العدو الأصغر - الروم - لأنه أيسر مؤنة - ومتى غلب الأكبر - الفرس - كثر الخوف منه، فتأمل هذا المعنى مع ما كان رسول الله (ﷺ) يرجوه من ظهور دينه وشرع الله الذي بعثه به وغلبته على الأمم، وإرادة كفار مكة أن يرميه بملك يستأصله ويريحهم منه[٢٢٩].

فابن عطية يرى أن فرح المؤمنين الأكبر ليس سببه أن الروم أهل كتاب، أو أن انتصارهم على الفرس سيكون دليلاً ماديًا على صدق الخبر القرآني، وإنما سببه هو أن الله وظف القوة الجهازية الرومانية لصالح المسلمين (الذين لم يقم لهم سلطان جهازي بعد)، إذ إنه بعد أن يسلط الروم على الدولة الفارسية فيحطموها ويخضدوا شوكتها سيخرجون من المعارك منتصرين ولكنهم منهكو القوة، مما سيمهد طريقًا لنصر المسلمين عليهم، وينفتح للإسلام بذلك طريق للبروز كقوة عالمية جديدة على أنقاض القوتين المندحرتين[٢٣٠].

١١- أهمية الصلاة وعظيم منزلتها: وقد ثبت في السنة النبوية أن الصلاة فرضت على الأمة الإسلامية في ليلة عروجه (ﷺ) إلى السماوات، وفي هذا كما قال ابن كثير:)اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها)[٢٣١]، فعلى الدعاة أن يؤكدوا على أهمية الصلاة والمحافظة عليها وأن يذكروا فيما يذكرون من أهميتها ومنزلتها كونها فرضت في ليلة المعراج وأنها من آخر ما أوصى به رسول الله (ﷺ) قبل موته[٢٣٢].

١٢- سئل رسول الله (ﷺ) إن كان قد رأى ربه فقال: «نور أنى أراه»[٢٣٣].

١٣- تحدث الرسول (ﷺ) عن مخاطر الأمراض الاجتماعية وبين عقوبتها، كما شاهد ذلك في ليلة الإسراء والمعراج ومن هذه الأمراض وعقوبتها:

(عقوبة جريمة الغيبة والمغتابين، فقد رأى رسول الله (ﷺ) أناسًا يأكلون الجيف فأخبره جبريل: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس)[٢٣٤].

(عقوبة أكلة أموال اليتامى، فقد رأى رسول الله (ﷺ) رجالاً لهم مشافر شفاه كبيرة كشفاه البعير في أيديهم قطع من نار كالأفهار رأى الحجارة يقذفونها في أفواههم فتخرج من أدبارهم فأخبره جبريل: هؤلاء أكلة أموال اليتامى ظلمًا)[٢٣٥].

(أكلة الرِّبا، فقد أتى النبي (ﷺ) - على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات ترى من

---

(٢٢٩) تفسير ابن عطية (١١/ ٤٢٥).
(٢٣٠) انظر: أصول الفكر السياسي ص١٥٨.
(٢٣١) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٣).
(٢٣٢) انظر: المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة (٢/ ٩٣).
(٢٣٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ١٩٠) صحيح مسلم (١/ ١٦١).
(٢٣٤) الفتح الرباني للساعاتي (٢٠/ ٢٥٥) إسناده صحيح.
(٢٣٥) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (٨/ ٢٠٠).

خارج بطونهم، فأخبر جبريل هؤلاء أكلة الربا)[٢٣٦].

(وذكرت الروايات عقوبة الزناة ومانعي الزكاة وخطباء الفتنة والتهاون في الأمانة)[٢٣٧].

(ثواب المجاهدين، ففي ليلة الإسراء والمعراج مرّ رسول الله (ﷺ) على قوم يزرعون في يوم ويحصدون في يوم، كلما حصدوا عادوا كما كان، فأخبر جبريل: (هؤلاء المجاهدون في سبيل الله تضاعف لهم الحسنات بسبعمائة ضعف وما أنفقوا من شيء فهو يُخلف)[٢٣٨].

١٤- إدراك الصحابة لأهمية المسجد الأقصى: أدرك الصحابة رضي الله عنهم مسؤوليتهم نحو المسجد الأقصى وهو يقع أسيرًا تحت حكم الرومان، فحرروه في عهد عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، وظل ينعم بالأمن والأمان حتى عاث الصليبيون فسادًا فيه بعد خمسة قرون من هجرة المصطفى ومكثوا ما يعادل قرنًا يعيثون فسادًا فحرره المسلمون بقيادة صلاح الدين الأيوبي، وها هو ذا يقع تحت الاحتلال اليهودي فما الطريق إلى تخليصه[٢٣٩]؟

الطريق إلى تخليصه الجهاد في سبيل الله على المنهج الذي سار عليه الصحابة الكرام رضي الله عنهم.

●●●

---

(٢٣٦) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٧٤).

(٢٣٧) تفسير الطبري (١٥/ ٧)، والفتح الرباني (٢٠/ ٢٥٧).

(٢٣٨) انظر: الخصائص الكبرى (١/ ١٧١)، والسيرة النبوية لأبي فارس ص٢٢٠.

(٢٣٩) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس ص٢٢٠.



الفصل الخامس

الطواف على القبائل وهجرة الصحابة إلى المدينة





المبحث الأول

الطواف على القبائل طلبًا للنصرة

بعد رجوعه (ﷺ) من الطائف، بدأ يعرض نفسه على القبائل في المواسم يشرح لهم الإسلام، ويطلب منهم الإيواء والنصرة، حتى يبلغ كلام الله (عز وجل) وكان رسول الله (ﷺ) يتحرك في المواسم التجارية ومواسم الحج التي تجتمع فيها القبائل وفق خطة سياسية دعوية واضحة المعالم ومحددة الأهداف، وكان يصاحبه أبو بكر الصديق الرجل الذي تخصص في معرفة أنساب العرب وتاريخها، وكانا يقصدان (غرر الناس ووجوه القبائل، وكان أبو بكر رضي الله عنه، يسأل وجوه القبائل ويقول لهم: كيف العدد فيكم؟ وكيف المنعة فيكم؟ وكيف الحرب فيكم؟ وذلك قبل أن يتحدث رسول الله (ﷺ) ويعرض دعوته)[١].

يقول المقريزي: (ثم عرض (ﷺ) نفسه على القبائل أيام الموسم، ودعاهم إلى الإسلام، وهم بنو عامر، وغسان، وبنو فزارة، وبنو مرة، وبنو حنيفة، وبنو سليم، وبنو عبس، وبنو نصر، وثعلبة بن عكابة، وكندة، وكلب، وبنو الحارث بن كعب، وبنو عذرة وقيس بن الخطيم، وأبو اليسر أنس بن أبي رافع) وقد اقتص الواقدي أخبار هذه القبائل قبيلة، قبيلة ويقال إنه (ﷺ) بدأ بكندة فدعاهم إلى الإسلام ثم أتى كلبًا ثم بني حنيفة ثم بني عامر، وجعل يقول: **«من رجل يحملني إلى قومه فيمنعني حتى أبلغ رسالة ربي فإن قريشًا قد منعوني أن أبلغ رسالة ربي؟»** هذا وأبو لهب وراءه يقول للناس: لا تسمعوا منه فإنه كذاب[٢].

وقد تعرض (ﷺ) للأذى العظيم، فقد روى الترمذي عن جابر رضي الله عنه قال: كان النبي (ﷺ) يعرض نفسه بالموقف فقال: **«ألا رجل يحملني إلى قومه؟ فإن قريشًا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي»** وظل النبي (ﷺ) في تردده على القبائل يدعوهم، فيردون عليه أقبح الرد ويؤذونه ويقولون: قومه أعلم به، وكيف يصلحنا من أفسد قومه فلفظوه[٣] وكانت الشائعات التي تنشرها قريش في أوساط الحجاج تجد رواجًا وقبولاً مثل الصابئ وغلام بني هاشم الذي يزعم أنه رسول، وغير ذلك، ولا شك أن هذا كان مما يحز في نفس الرسول (ﷺ) ويضاعف ألم التكذيب وعدم الاستجابة[٤].

ولم يقتصر الأذى على ذلك بل واجه الرسول (ﷺ) ما هو أشد وأقسى، فقد روى البخاري في تاريخه والطبراني في الكبير عن مدرك بن منيب أيضًا عن أبيه عن جده رضي

---

(١) انظر: الأنساب للسمعاني (١/ ٣٦).
(٢) المقريزي في إمتاع الأسماع (١/ ٣٠، ٣١).
(٣) انظر: الدرر لابن عبد البر ص٣٥ ، ابن كثير السيرة النبوية (٢/ ١٨٥).

الله (تعالى) عنه قال: رأيت رسول الله (ﷺ) في الجاهلية وهو يقول: **«يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»**، فمنهم من تفل في وجهه، ومنهم من حثا عليه التراب، ومنهم من سبّه، حتى انتصف النهار، فأقبلت جارية بعسٍّ من ماء فغسل وجهه ويديه، وقال: **«يا بنية لا تخشي على أبيك غلبة ولا ذلة»**، فقلت: من هذه؟ قالوا: زينب بنت رسول الله (ﷺ)، وهي جارية وضيئة(٥).

وقد كان أبو جهل وأبو لهب لعنهما الله يتناوبان على أذية رسول الله (ﷺ) عندما يدعو في الأسواق والمواسم وكان يجد منهما عنتًا كبيرًا، إضافة إلى ما يلحقه من المدعوين أنفسهم(٦).

أولاً: من أساليب النبي (ﷺ) في الرد على مكائد أبي جهل والمشركين أثناء الطواف على القبائل:

١- مقابلة القبائل في الليل:

فكان (ﷺ) من حكمته العالية يخرج لمقابلة القبائل في ظلام الليل، حتى لا يحول بينه وبينهم أحد من المشركين(٧) وقد نجح هذا العمل في إبطال مفعول الدعاية المضادة، التي كانت تتبعها قريش، كلما اتصل الرسول (ﷺ) بقبيلة من القبائل، والدليل على نجاح هذا الأسلوب المضاد، اتصال الرسول (ﷺ) بالأوس والخزرج ليلاً، ومن ثم كانت العقبة الأولى والثانية ليلاً(٨).

٢- ذهاب الرسول (ﷺ) إلى القبائل في منازلهم:

فقد أتى كلبًا وبني حنيفة، وبني عامر في منازلهم(٩) . . . وبذلك يحاول أن يبتعد عن مطاردة قريش، فيستطيع أن يتفاوض مع القبائل بالطريقة المناسبة دونما تشويش أو تشويه من قريش.

٣- اصطحاب الأعوان:

كان أبو بكر وعلي رضي الله عنهما يرافقان الرسول (ﷺ) في بعض مفاوضاته مع بعض القبائل، وربما كانت هذه الرفقة لأجل ألا يظن المدعوون أنه وحيد، ولا أعوان له من أشراف قومه وأقاربه، هذا إلى جانب معرفة أبي بكر رضي الله عنه بأنساب العرب(١٠)، الأمر الذي

---

(٤) انظر: المحنة في العهد المكي ص٥٣ .
(٥) انظر: المحنة في العهد المكي ص٥٣ .
(٦) نفس المصدر ص٥٣ .
(٧) تاريخ إسلام النجيب آبادي (١/ ١٢٩) نقلاً عن الرحيق المختوم .
(٨) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٤٤ ، ٥٢) ، السيرة النبوية جوانب الحذر والحماية ص١١٦ .
(٩) البداية والنهاية لابن كثير (٣/ ١٤٠) .
(١٠) السيرة النبوية لجوانب الحذر والحماية ص١١٦ .

يساعـد الرسول (ﷺ) في التعرف على معادن القبائل، فيـقع الاختيار على أفضلها، لتحمل تبعات الدعوة.

٤- التأكد من حماية القبيلة:

ومن الجوانب الأمنية المهـمة، سؤاله (ﷺ) عن المنعة والقوة لدى القـبائل قبل أن يوجه إليهم الدعوة، ويطلب منهم الحـماية، فقوة ومنعة القبيلة الـتي تحمي الدعوة، شيء ضروري ومهم لا بد منه، لأن هذه القبيلة ستواجه كل قوى الشر والباطل، فلا بد أن تكون أهلاً لهذا الدور من حيث الاسـتعداد المعنوي والمادي، الـذي يرهب الأعداء، ويحمي حـمى الدعوة، ويتحمل تبعات نشرها، مزيلاً لكل العقبات التي تقف في طريقها[١١].

ثانيًا: المفاوضات مع بني عامر:

اخـتار الرسـول (ﷺ) أن يجري مفـاوضات مع بني عامر قامت تـلك المفاوضات على دراسة وتخطيط، فالرسول وصاحبه أبو بكر كانا يعلمان أن بني عامر قبيلة مقاتلة كبيرة العدد وعزيزة الجـناب، بل هي من القبـائل الخمس التي لم يمسـها سـباء ولم تتـبع الملك ولم تؤد أتاوة[١٢]، مثلها مثل قريش وخزاعة[١٣] كما أن الرسول (ﷺ) كان يعلم أن هنالك تضادًا قديمًا بين بني عامر وثقيف، فإذا كانت ثقيف امتنعت عليه من الداخل فلماذا لا يحاول أيضًا تطويقهـا من الخارج، والاستفـادة في ذلك من بني عامر بن صـعصعة، فـإذا استطاع النبي (ﷺ) أن يبرم حلفًا مع بني عـامر فإن موقف ثقيف سـيكون على حافة الخطر[١٤]. يذكـر أصحاب السيرة أن الرسول (ﷺ) لما أتى بني عامر بن صعصعة، فدعا إلى الله وعرض عليهم نفسه، قال له رجل منهم يقال له بحيرة بن فراس: (والله لو أني أخذت هذا الفتى لأكلت به العرب، ثم قال له: أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: **«الأمر لله يضعـه حيث يشاء»**، فقال له: أفنهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا؟ لا حاجة لنا بأمرك[١٥].

ثالثًا: المفاوضات مع بني شيبان:

في رواية علي بن أبي طالب رضـي الله عنه قال: لما أمـر الله عـز وجل نبيـه (ﷺ) أن يعرض نفســه على قبائل العرب خـرج وأنا معه . . .إلى أن قال: ثم دفعنـا إلى مجلس آخر عليه السكينة والوقار فتقدم أبو بكر فسلم فقال: من القوم؟ قالوا: شيبان بن ثعلبة فالتفت أبو

---

(١١) نفس المصدر ص١١٦ ، ١١٧ .

(١٢) انظر: أصول الفكر السياسي ص١٨٢ . سباء: لم تسبى نسائها في الحروب .

(١٣) نفس المصدر ص١٨٢ .

(١٤) انظر: أصول الفكر السياسي ص١٨٢ .

(١٥) انظر: سيرة ابن هشام (٢/٣٨) .

بكر إلى رسول الله (ﷺ) وقال: بأبي وأمي هؤلاء غرر الناس وفيهم مفروق قد غلبهم لسانًا وجمالاً، وكانت له غديرتان تسقطان على تريبته وكان أدنى القوم مجلسًا من أبي بكر، فقال أبو بكر: كيف العدد فيكم فقال مفروق: إنا لا نزيد على الألف ولن تغلب ألف من قلة، فقال أبو بكر: وكيف المنعة فيكم، فقال مفروق: إنا لأشد ما نكون غضبًا حين نلقى وأشد ما نكون لقاء حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد على الأولا، والسلاح على اللقاح والنصر من عند الله يديلنا مرة ويديل علينا أخرى لعلك أخا قريش، فقال أبو بكر: إن كان بلغكم أنه رسول الله (ﷺ) فهـا هو ذا. فقال: مـفروق إلام تدعونا يا أخـا قريش؟ فقـال رسول الله (ﷺ): **«أدعـوكم إلى شهـادة أن لا إله إلا الله وحـده لا شـريك له، وأني عبـد الله ورسـوله، وإلى أن تؤووني وتنصروني؛ فإن قريشًا قد تظاهرت على الله، وكذبت رسوله، واستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغني الحميد»**، فقال مفروق: وإلام تدعو أيضًا يا أخا قريش؟ فوالله ماسمعت كلامًا أحسن من هذا، فتـلا رسول الله (ﷺ): **﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾** (سورة الأنعام، الآية: ١٥١).

فقال مفروق: دعوت والله إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك ثم رد الأمر إلى هانئ بن قبيصة فقال: وهذا هانئ شيخنا وصاحب ديننا فقال هانئ: قد سمـعت مقالتك يا أخا قريش وإني أرى تـركنا ديننا واتباعنا دينك لمجلس جلست إلينا لا أول له ولا آخر لذل في الرأي وقلة نظر في العاقبة، إن الزلة مع العجلة وأنا نكره أن نعقـد على من وراءنا عقدًا ولكـن نرجع وترجع وننظر، ثم كأنه أحب أن يشـركه المثنى بن حارثـة، فقال: وهـذا المثنى شيـخنا وصاحب حـربنا فقـال المثنى - وأسلم بعد ذلـك: قد سمعت مقـالتك يا أخا قريش والجواب فيـه جواب هانئ بن قبيصة في تركنا ديننا ومـتابعتنا دينك وإنا إنما نزلنا بين صريين أحـدهما اليمامة والآخـر السمامة فـقال له رسول الله (ﷺ): **«مـا هذان الصـريان»** قال: أنهار كسـرى ومياه العرب، فأما ما كان من أنهـار كسرى فذنب صاحبـه غير مغـفور وعذره غيـر مقبول، وإنـا إنما نزلنا على عهد أخذه علينـا كسرى إن لا نحدث حدثًا ولا نؤوي مـحدثًا وإني أرى هذا الأمر الذي تدعونا إليـه يا أخا قريش مما تكره الملوك فإن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلي مياه العرب فعلنا، فقال رسول الله (ﷺ): **«ما أسأتم في الرد إذ أفصحتم بالصدق، وإن دين الله عـز وجل لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه، أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتى يورثكم الله (تعالى) أرضهم وديارهـم ويفرشكم نساءهم، أتسبحون الله وتقدسونه؟»** فقال النعمان: اللهم فلك ذاك[١٦].

رابعًا: فوائد ودروس وعبر:

كانت النصرة التي طلبها النبي (ﷺ) ذات صفة مخصوصة، وذلك على النحو التالي:

(١٦) انظر: البداية والنهاية (٣/ ١٤٢، ١٤٣، ١٤٥) وفيها زيادات ليست عند الصالحي في سبيل الرشاد (٢/ ٥٩٦-٥٩٧).

١- كان طلب الرسول (ﷺ) للنصرة من خارج مكة إنما بدأ ينشط بشكل ملحوظ بعد أن اشتد الأذى عليه عَقِبَ وفاة عمه أبي طالب الذي كان يحميه من قريش، وذلك لأن من يحمل الدعوة لن يستطيع أن يتحرك التحرك الفعَّال في النشاط في حمل الدعوة، وتوفير الاستجابة لها، في جوّ من العنف، والضغط والإرهاب.

٢- كان عرض الرسول (ﷺ) نفسه على القبائل يطلب منهم النصرة، إنما هو بأمر من الله عز وجل له في ذلك، وليس مجرد اجتهاد من قبل نفسه اقتضته الظروف التي وصلت إليها الدعوة.

٣- حصر رسول الله (ﷺ) طلب النصرة بزعماء القبائل، وذوي الشرف والمكانة ممن لهم أتباع يسمعون لهم، ويطيعون، لأن هؤلاء القادرون على توفير الحماية للدعوة وصاحبها.

٤- يلاحظ في سيرة النبي (ﷺ) بخصوص طلب النصرة إنه كان يطلبها لأمرين اثنين:

أ- كان يطلب النصرة من أجل حماية تبليغ الدعوة، حتى تسير بين الناس محمية الجانب، بعيدة عن الإساءة إليها وإلى أتباعها.

ب- كان يطلب النصرة من أجل أن يتسلم النبي (ﷺ) مقاليد الحكم والسلطان على أساس تلك الدعوة، وهذا ترتيب طبيعي للأمور.

٥- رفض النبي (ﷺ) أن يعطي القوى المستعدة لتقديم أية ضمانات بأن يكون لأشخاصهم شيء من الحكم والسلطان على سبيل الثمن، أو المكافأة لما يقدمونه من نصرة وتأييد للدعوة الإسلامية، وذلك لأن الدعوة الإسلامية بما هي دعوة إلى الله، فالشرط الأساسي فيمن يؤمن بها ويستعد لنصرتها أن يكون الإخلاص لله، ونشدان رضاه، هما الغاية التي يسعى إليها من النصرة والتضحية، وليس طمعًا في نفوذ أو رغبة في سلطان، وذلك لأن الغاية التي يضعها الإنسان للشيء، هي التي تكيف نشاط الإنسان في السعي إليه، فلا بد إذن من أن تتجرد الغاية المستهدفة من وراء نصرة الدعوة عن أي مصلحة مادية لضمان دوام التأييد لها، وضمان المحافظة عليها من أي انحراف، وضمان أقصى ما يمكن من بذل الدعم لها، وتقديم التضحيات في سبيلها[١٧]، فيجب على كل من يريد أن يلتزم بالجماعة التي تدعو إلى الله، ألا يشترط عليها منصبًا أو عرضًا من أعراض الدنيا، لأن هذه الدعوة لله، والأمر لله يضعه حيث يشاء، والداخل في أمر الدعوة إنما يريد ابتداءً وجه الله، والعمل من أجل رفع رايته، أما إذا كان المنصب هو همه الشاغل، فهذه علامة خطيرة تنبئ عن دخن في نية صاحبه[١٨]، لذا قال يحيى بن معاذ الرازي: (لا يفلح من شممت منه رائحة الرياسة)[١٩].

(١٧) انظر: الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، لمحمد خير (٤١١/١).
(١٨) انظر: وقفات تربوية من السيرة النبوية، عبد الحميد البلالي ص٧٢.
(١٩) انظر: صفة الصفوة (٤/ ٩٤).

٦- ومن صفة النصرة التي كان رسول الله (ﷺ) يطلبها لدعوته من زعماء القبائل: أن يكون أهل النصرة غير مـرتبطين بمعاهدات دولية تتناقض مع الدعوة، ولا يستطيعون التحرر منها، وذلك لأن احتضانهم للدعوة والحالة هذه يُعرِّضها لخطر القضاء عليها من قبل الدول التي بينهم وبينها تلك المعاهدات، والتي تجد في الدعوة الإسلامية خطرًا عليها وتهديدًا لمصالحها[٢٠].

إن الحماية المشروطة أو الجزئية لا تحقق الهدف المقصود فلن يخوض بنو شيبان حربًا ضد كسرى لو أراد القبض على رسول الله (ﷺ) وتسليمه، ولن يخوضوا حربًا ضد كسرى لو أراد مهاجمة محمد رسول الله (ﷺ) وأتباعه، وبذلك فشلت المباحثات[٢١].

٧- **(إن دين الله لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه)**، كان هذا الرد من النبي (ﷺ) على المثنى بن حارثة حين عرض على النبي (ﷺ) حمايته على مياه العرب دون مياه الفرس، فمن يسبر أغوار السياسة البعيدة يرى بعد النظر الإسلامي النبوي الذي لا يسامى[٢٢].

٨- كان موقف بني شيبان يتسم بالإريحية والخلق والرجولة وينم عن تعظيم هذا النبي، وعن وضوح في العرض، وتحديد مدى قدرة الحماية التي يملكونها وقد بينوا أن أمر الدعوة مما تكرهه الملوك، وقدّر الله لشيبان بعد عشر سنين أو تزيد أن تحمل هي ابتداءً عبء مواجهة الملوك بعد أن أشرق قلبها بنور الإسلام، وكان المثنى بن حارثة الشيباني صاحب حربهم وبطلهم المغوار الذي قاد الفتوح في أرض العراق، في خلافة الصديق رضي الله عنه[٢٣]، فكان وقومه من أجرأ المسلمين بعد إسلامهم على قتال الفرس، بينما كانوا في جاهليتهم يرهبون الفرس ولا يفكرون في قتالهم، بل إنهم ردوا دعوة النبي (ﷺ) بعد قناعتهم بها لاحتمال أن تلجئهم إلى قتال الفرس، الأمر الذي لم يكونوا يفكرون به أبدًا، وبهذا نعلم عظمة هذا الدين الذي رفع الله به المسلمين في الدنيا، حيث جعلهم سادة الأرض، مع ما ينتظرون في أخراهم من النعيم الدائم في جنات النعيم[٢٤].

• • •

(٢٠) انظر: الجهاد والقتال في السياسة الشرعية (١/ ٤١٢).
(٢١) انظر: التحالف السياسي في الإسلام، منير الغضبان ص٥٣.
(٢٢) نفس المصدر ص٦٤.
(٢٣) انظر: التربية القيادية (٢/ ٢٠).
(٢٤) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٣/ ٦٩).



المبحث الثاني

مواكب الخير وطلائع النور

قال جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه: (مكث رسول الله (ﷺ) بمكة عشر سنين يتبع الناس في منازلهم بعُكاظ ومجَنّة وفي المواسم بمنى يقول: «من يؤويني؟ من ينصرني حتى أبلّغ رسالة ربي وله الجنة؟» حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو مضر، فيأتيه قومه فيقولون: احذر غلام قريش لا يفتننك، ويمشي بين رجالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع، حتى بعثنا الله إليه من يثرب فآويناه وصدقناه، فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه، حتى لم يبقى دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام[٢٥].

أولاً: الاتصالات الأولى بالأنصار في مواسم الحج والعمرة:

١- إسلام سويد بن الصامت:

كان رسول الله (ﷺ) لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب، له اسم وشرف إلا تصدّى له ودعاه إلى الله وعرض عليه ما جاء به من الهدى والحق، فقدم سويد بن الصامت أخو بني عمرو بن عوف مكة حاجًا أو معتمرًا، وكان سويد يسميه قومه فيهم الكامل، لجَلَده، وشعْره، وشرفه، ونسبه، فتصدى له رسول الله (ﷺ) حين سمع به، فدعاه إلى الله والإسلام، فقال له سويد: فلعل الذي معك مثل الذي معي؟ فقال له رسول الله (ﷺ): **«وما الذي معك؟»** قال: مجلة[٢٦] لقمان، فقال له رسول الله: **«اعرضها علي»** فعرضها عليه فقال: **«إن هذا الكلام حسن، والذي معي أفضل من هذا، قرآن أنزله الله علي، هو هدى ونور»**، فتلا عليه رسول الله (ﷺ) القرآن، ودعاه إلى الإسلام، فلم يُبعد منه، وقال: إن هذا القول حسن، ثم انصرف عنه فقدم المدينة على قومه فلم يلبث أن قتله الخزرج. وقد كان رجال من قومه يقولون: إنا لنراه قتل وهو مسلم، وكان قتله يوم بُعاث[٢٧] وعلى أية حال لا توجد دلائل على قيام سويد بن الصامت بالدعوة إلى الإسلام وسط قومه[٢٨].

٢- إسلام إياس بن معاذ:

لما قدم أبو الحيسر بن رافع مكة ومعه فتيان من بني عبد الأشهل فيهم إياس بن معاذ، يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، سمع بهم رسول الله (ﷺ)، فأتاهم فجلس إليهم، فقال: **«هل لكم في خير مما جئتم له؟»** قالوا: وما ذاك؟ قال: **«أنا رسول الله إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله، ولايشركوا به شيئًا، وأنزل علي الكتاب»**، ثم ذكر لهم

(٢٥) مسند أحمد (٣/ ٣٢٢، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٣٩-٣٤٠) بإسناد حسن.

(٢٦) المجلة: الصحيفة، وتطلق على الحكمة أي حكمة لقمان.

(٢٧) سيرة ابن هشام (٢/ ٤٠) إسناد حسن.

(٢٨) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ١٩٥).

الإسلام، وتلا عليهـم القرآن، فقال إياس بن معـاذ - وكان غلامًا حـدثًا : هذا والله خير مما جئتم له، فـأخذ أبو الحيسر كـفًا من تراب، وضرب به وجهه، وقـال: دعنا منك، فلعمري لقد جئنا لغير هذا. فصـمت إياس، وقام رسول الله عنهم، وانصرفـوا إلى المدينة، وكانت وقعة بُعاث بين الأوس والخزرج، ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك، وقد روي من حضره من قومه أنه ما زال يهلل الله ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات، فما كانوا يشكّون أنه مات مسلمًا، لقـد كان استشعر الإسـلام في ذلك المجلس حين سمع من رسول الله (ﷺ) مـا سمع[٢٩].

ثانيًا: بدء إسلام الأنصار:

كانت البداية المثمرة مع وفد من الخزرج في موسم الحج عند عقبة منى، قال لهم رسول الله (ﷺ): «من أنتم؟».

قالوا: نفر من الخزرج.

قال: «أمن موالي يهود؟».

قالوا: نعم.

قال: «أفلا تجلسون أكلمكم؟».

قالوا: بلـى، فجلسوا مـعه، فـدعاهم إلى الله عـز وجل وعرض عليـهم الإسلام وتلا عليهم القرآن[٣٠].

فلما كلم رسول الله (ﷺ) أولئك النفر، ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض: يا قوم تعلمون والله أنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليـه، فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدقوه وقـبلوا منه ما عرض عليـهم من الإسلام، وقالوا: إنا قد تركنا قـومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشـر ما بينهم، فعسى أن يجـمعهم الله بك، فسنقدم عليـهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعـرض عليهم الذي أجـبناك إليه من هذا الدين، فإن يـجمعـهم الله عليك فلا رجل أعـز منك. ثم انصـرفـوا عن رسـول الله (ﷺ) راجــعين إلى بلادهم، وقـد آمنوا وصدقوا[٣١]، وكانوا ستة نفر: وهم، أبو أمامة أسعد بن زرارة، وعوف بن الحارث من بني النجار، ورافع بن مالك، وقطبـة بن عامر، وعقبة بن عامـر، وجابر بن عبد الله بن رباب[٣٢] فلما قدموا المدينة إلى قـومهم ذكروا لهم رسول الله (ﷺ) ودعوهم إلى الإسلام حـتى فشا بينهم، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر لرسول الله (ﷺ)[٣٣].

(٢٩) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٤١) بإسناد حسن.
(٣٠) نفس المصدر(٢/ ٤١ ، ٤٢).
(٣١) البداية والنهاية (٣/ ١٤٨ ، ١٤٩).
(٣٢) انظر: شرح الواهب للزرقاني (١/ ٣٦١).
(٣٣) انظر: البداية والنهاية (٣/ ١٤٧).

فهذا أول موكب من مواكب الخير، لم يكتف بالإيمان وإنما أخذ العهد على نفسه أن يدعو إليه قومه، وقد وفى كل منهم لدينه ورسوله، فإنهم حين رجعوا نشطوا في الدعوة إلى الله وعرضوا كلمة الهدى على أهلهم وذويهم فلم تبقَ دار من دور المدينة إلا وفيها ذكر لمحمد (ﷺ)، وهكذا عندما يأذن الله تأتي ساعة الحسم الفاصلة، فقد كان لقاء هؤلاء مع الرسول على غير موعد، لكنه لقاء هيأه الله ليكون نبع الخير المتجدد الموصول، ونقطة التحول الحاسم في التاريخ . . . وساعة الخلاص المحقق من عبادة الأحجار، بل إنها على التحقيق ساعة الحسم في مصير العالم كله ونقل الحياة من الظلمات إلى النور.

أكان معقولاً في لحظة يسيرة أن يتحول هؤلاء من وثنيين متعصبين إلى أنصار للدعوة متفتحين، وجنود للحق مخلصين ،ودعاة إلى الله متجردين يذهبون إلى أقوامهم وبين جوانحهم نور، وعلى وجوههم نور، وإنهم لعلى نور؟ تلك مشيئة القدر العالي هيأت للدعوة مجالها الخصب، وحماها الأمين . . . والسنوات العجاف التي قضاها الرسول نضالاً مستمرًا، وكفاحًا دائمًا، وتطوافًا على القبائل، والتماسًا للحليف . . . قد ولت إلى غير رجعة . . . سيكون بعد اليوم للإسلام قوته الرادعة، وجيشه الباسل وسيلتقي الحق بالباطل ليصفي معه حساب الأيام الخوالي، والعاقبة للمتقين، وستتوالى على مكة منذ اليوم مواكب الخير وطلائع النور التي هيأها الله للخير لتتصل بالهداية وتسبح في النور، وتغترف من الخير، وترجع إلى يثرب بما وعت من خير، وبما حملت من نور[٣٤].

ومن الجدير بالتنبيه أن هذه المقابلة التي حدثت عند العقبة وتلاقى فيها فريق من الخزرج بالنبي (ﷺ) وأسلموا على يديه لم تكن فيها بيعة[٣٥]، لأنها كانت من نفر صغير لم يروا لأنفسهم الحق في أن يلتزموا بمعاهدة دون الرجوع إلى قبائلهم في المدينة ولكنهم أخلصوا في تبليغ رسالة الإسلام[٣٦].

ثالثا: بيعة العقبة الأولى:

بعد عام من المقابلة الأولى التي تمت بين الرسول (ﷺ) وأهل يثرب عند العقبة وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً فلقوه (ﷺ) بالعقبة وبايعوه العقبة الأولى، عشرة من الخزرج واثنان من الأوس، مما يشير إلى أن نشاط وفد الخزرج الذين أسلموا في العام الماضي تركز على وسطهم القبلي بالدرجة الأولى لكنهم تمكنوا بنفس الوقت من اجتذاب رجال الأوس وكان ذلك بداية ائتلاف القبيلتين تحت راية الإسلام[٣٧].

وقد تحدث عبادة بن الصامت الخزرجي عن البيعة في العقبة الأولى، فقال: (كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله (ﷺ) على بيعة النساء –

(٣٤) انظر: أضواء على الهجرة لتوفيق محمد سبع ص٢٧٣ ، ٢٧٤ .
(٣٥) انظر: هجرة الرسول وصحابته للجمل ص١٤٣ .
(٣٦) نفس المصدر ص١٤٣ .
(٣٧) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/١٩٧) .

وذلك قبل أن يفترض علينا الحرب: على ألا نشرك بالله، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا ولانأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ولانعصيه في معروف، فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئًا فأمركم إلى الله (عز وجل) إن شاء غفر وإن شاء عذب)[٣٨].

وبنود هذه البيعة هي التي بايع الرسول (ﷺ) عليها النساء فيما بعد ولذلك عرفت باسم بيعة النساء[٣٩]، وقد بعث الرسول (ﷺ) مع المبايعين مصعب بن عمير يعلمهم الدين ويقرؤهم القرآن، فكان يسمى بالمدينة (المقرئ) وكان يؤمهم في الصلاة وقد اختاره رسول الله (ﷺ) عن علم بشخصيته من جهة، وعلم بالوضع القائم في المدينة من جهة أخرى، حيث كان رضي الله عنه بجانب حفظه لما نزل من القرآن، يملك من اللباقة والهدوء، وحسن الخلق والحكمة، قدرًا كبيرًا، فضلاً عن قوة إيمانه وشدة حماسه للدين، ولذلك تمكن خلال أشهر أن ينشر الإسلام في سائر بيوتات المدينة وأن يكسب للإسلام أنصارًا من كبار زعمائها، كسعد بن معاذ وأسيد بن الحضير، وقد أسلم بإسلامهما خلق كثير من قومهما[٤٠].

لقد نجحت سفارة مصعب بن عمير رضي الله عنه في شرح تعاليم الدين الجديد، وتعليم القرآن الكريم وتفسيره وتقوية الروابط الأخوية بين أفراد القبائل المؤمنة من ناحية، وبين النبي (ﷺ) وصحبه بمكة المكرمة، لإيجاد القاعدة الأمينة لانطلاق الدعوة.

وقد نزل مصعب بن عمير رضي الله عنه في يثرب على أسعد بن زرارة رضي الله عنه[٤١]، ونشط المسلمون في الدعوة إلى الله، يقود تلك الحركة الدعوية الرائدة مصعب رضي الله عنه وقد انتهج منهج القرآن الكريم في دعوته وهذا الذي تعلمه من أستاذه (ﷺ) وقد شرح لنا بعض الآيات القرآنية المكية بصورة عملية حية قال (تعالى): ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (سورة النحل، الآية: ١٢٥).

رابعًا: قصة إسلام أسيد بن حضير وسعد بن معاذ رضي الله عنهما:

كان سعد بن معاذ وأسيد بن حضير سيِّديْ قومهما من بني عبد الأشهل، وكانا مشركين على دين قومهما، فلما سمعا بمصعب بن عمير ونشاطه في الدعوة إلى الإسلام قال سعد لأسيد: لا أبا لك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما، وانههما أن يأتيا دارينا، فإنه لولا أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت كفيتك ذلك، هو ابن خالتي ولا أجد عليه مقدمًا، فأخذ أسيد حربته ثم أقبل عليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة قال: هذا سيد قومه وقد جاءك فاصدق الله فيه، قال مصعب: إن يجلس أكلمه، فوقف

(٣٨) صحيح مسلم (٣/ ١٣٣٣) رقم ١٧٠٩ .
(٣٩) انظر: الغرباء الأولون ص١٨٥ .
(٤٠) نفس المصدر ص١٨٦ ، ١٨٧ .
(٤١) انظر: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنّة (١/ ٤٤١) .

عليهما متشتمًا فقال: ما جاء بكما تسفّهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصعب بلسان المؤمن الهادئ الواثق من سماحة دعوته: أو تجلس فتسمع. فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته كفّ عنك ما تكره؟

قال أسيد: أنصفت، ثم ركز حربته، وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن، فقالا فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهّله، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له: تغتسل فتطهّر وتطهّر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق؟ ثم تصلّي، فقام فاغتسل وطهّر ثوبيه وتشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه وسأرسله إليكم الآن: سعد بن معاذ. ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد مقبلاً قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بن حضير بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم !!

فما وقف على النادي قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأسًا، وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حُدِّثت أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد ابن زرارة ليقتلوه وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليحقروك[٤٢].

فقام سعد مغضبًا مبادرًا مخوفًا للذي ذكر له من أمر بني حارثة، وأخذ الحربة في يده ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئًا، ثم خرج إليهما سعد فوجدهما مطمئنين، فعرف أن أسيدًا إنما أراد أن يسمع منهما، فوقف متشتمًا، ثم قال لأسعد بن زرارة: والله يا أبا أمامة لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رُمْتَ هذا مني، أتغشانا في دارنا بما نكره، وكان أسعد قد قال لمصعب: لقد جاء -والله سيد من وراءه من قومه، إن يتبعك لا يتخلف منهم اثنان، فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع؟ فإن رضيت أمرًا ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره، فقال سعد: أنصفت، ثم ركز الحربة وجلس فعرض عليه الإسلام، وقرأ القرآن، وذكر موسى بن عقبة أنه قرأ عليه أول سورة الزخرف، قالا: فعرفنا - والله - في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهله.

ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم، ودخلتم في هذا الدين؟ قالا: تغتسل، فتطهّر وتطهّر ثوبيك، ثم تشهّد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين، فقام فاغتسل، وطهر ثوبيه، ثم تشهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته فأقبل عائدًا إلى نادي قومه ومعه أسيد بن حضير، فلما رآه قومه مقبلاً قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيًا وأيمننا نقيبة، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، قال: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلمًا أو مسلمة. ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة فأقام عنده يدعو الناس

(٤٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٤٤٢).

إلى الإسلام حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال مسلمون ونساء مسلمات، إلا ما كان من الأصيرم، وهو عمرو بن ثابت بن وقش، فإنه تأخر إسلامه إلى يوم أحد فأسلم، واستشهد بأحد، ولم يصلِّ لله بسجدة قط، وأخبر رسول الله (ﷺ) أنه من أهل الجنة.

وقد روى ابن اسحاق بإسناد حسن عن أبي هريرة أنه كان يقول: (حدِّثوني عن رجل دخل الجنة لم يصلِّ صلاة قط، فإذا لم يعرفه الناس قال: هو أصيرم بني عبد الأشهل)[٤٣].

خامسًا: فوائد ودروس وعبر:

١- اتجه التخطيط النبوي للتركيز على يثرب بالذات وكان للنفر الستة الذين أسلموا دور كبير في بث الدعوة إلى الإسلام خلال ذلك العام.

٢- كانت هناك عدة عوامل ساعدت على انتشار الإسلام في المدينة:

منها: ما طبع الله عليه قبائل الخزرج والأوس من الرقة واللين وعدم المغالاة في الكبرياء وجحود الحق، وذلك يرجع إلى الخصائص الدموية والسلالية التي أشار إليها رسول الله (ﷺ) حين وفد وفد من اليمن، بقوله: «**أتاكم أهل اليمن أرق أفئدة وألين قلوبًا**»[٤٤] وهما ترجعان في أصليهما إلى اليمن، نزح أجدادهم منها في الزمن القديم[٤٥] فيقول القرآن الكريم مادحًا لهم: ﴿**وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ (سورة الحشر، الآية: ٩).

* منها: التشاحن والتطاحن الموجود بين قبيلتي المدينة، الأوس والخزرج، وقد قامت بينهما الحروب الطاحنة كيوم بعاث وغيره وقد أفنت هذه الحرب كبار زعمائهم ممن كان نظراؤهم في مكة والطائف وغيرها حجر عثرة في سبيل الدعوة، ولم يبق إلا القيادات الشابة الجديدة المستعدة لقبول الحق، إضافة إلى عدم وجود قيادة بارزة معروفة يتواضع الجميع على التسليم لها، وكانوا بحاجة إلى من يأتلفون عليه، ويلتئم شملهم تحت ظله فكان يوم بعاث أمرًا قدمه الله (تعالى) لنبيه (ﷺ)، فقدم رسول الله (ﷺ) وقد افترق ملؤهم، وقتلت سرواتهم وجُرحوا, فقدمه الله لرسوله (ﷺ) في دخولهم الإسلام[٤٦].

* منها: مجاورتهم لليهود مما جعلهم على علم - ولو يسير - بأمر الرسالات السماوية، وخبر المرسلين السابقين، وهم - في مجتمعهم - يعايشون هذه القضية في حياتهم اليومية وليسوا مثل قريش التي لا يساكنها أهل كتاب، وإنما غاية أمرها أن تسمع أخبارًا متفرقة عن الرسالات والوحي الإلهي، دون أن تلح عليها هذه المسألة، أو تشغل تفكيرها باستمرار، وكان اليهود يهددون الأوس والخزرج بنبي قد أظل زمانه، ويزعمون أنهم

---

(٤٣) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٤٤٤)؛ صحيح السيرة النبوية ص٢٩١ .
(٤٤) البخاري ، كتاب المغازي ، باب قدوم الأشعريين رقم ٤٣٨٨ .
(٤٥) انظر: السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي ص١٥٤ .
(٤٦) البخاري ، كتاب المناقب ، باب مناقب الأنصار (٤/ ٢٦٧) رقم ٣٧٧٧ .

سيتبعونه، ويقتلونهم به قتل عاد وإرم!، مع أن الأوس والخزرج كانوا أكثر من اليهود[٤٧]، وقد حكى الله عنهم ذلك في كتابه العزيز قال (تعالى): ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (سورة البقرة، الآية: ٨٩).

وكان الأوس والخزرج قد علوا اليهود دهرًا في الجاهلية، وهم أهل شرك وهؤلاء أهل الكتاب، فكانوا يقولون: إن نبيًا قد أظل زمانه، يقاتلكم قتل عاد وإرم[٤٨].

فلما أراد الله إتمام أمره بنصر دينه، قيض ستة نفر من أهل المدينة للنبي (ﷺ) فالتقى بهم عند العقبة - عقبة منى - فعرض عليهم الإسلام، فاستبشروا وأسلموا، وعرفوا أنه النبي الذي توعدهم به اليهود، ورجعوا إلى المدينة، فأفشوا ذكر النبي (ﷺ) في بيوتها[٤٩] وكان هذا هو (بدء إسلام الأنصار) كما يسميه أهل السير[٥٠].

٣- حضر بيعة العقبة الأولى اثنان من الأوس، وهذا تطور مهم لمصلحة الإسلام، فبعد الحرب العنيفة في بعاث استطاع النفر الستة من الخزرج أن يتجاوزوا قصة الصراعات الداخلية، ويحضروا معهم سبعة جددًا، فيهم اثنان من الأوس، وهذا يعني أنهم وفوا بالتزاماتهم التي قطعوها على أنفسهم في محاولة رأب الصدع، وتوجيه التيار لدخول الإسلام في المدينة أوسها وخزرجها وتجاوز الصراعات القبلية القائمة.

٤- كان التطور الجديد الذي أثمرته بيعة العقبة بعث مصعب بن عمير ممثلاً شخصيًا للرسول (ﷺ) إلى المدينة يعلم الناس القرآن الكريم، ومبادئ الإسلام واستطاع مصعب بحكمته وحصافته وذكائه السياسي أن يحقق انتصارات كبيرة للإسلام[٥١].

٥- استطاع سفير رسول الله (ﷺ)، أن يفعل في عام ما لم يفعله رسل كرام في عشرات الأعوام وما ذلك إلا بتوفيق الله (تعالى) ثم صدق ذلك الداعية وإخلاصه، فأين سفراء دول المسلمين اليوم من سفير رسول الله (ﷺ)، فعلى ولاة الأمر أن يختاروا السفير المؤمن الملتزم الموهوب الذي يستطيع أن يمثل بلاده ودينه قولاً وعملاً، وخلقًا وسلوكًا، فيرى الناس ويسمعون من خلاله.

٦- استطاع السفير مصعب رضي الله عنه أن يهيئ البيئة الصالحة، لانتقال الدعوة والدولة إلى مقرها الجديد، حيث استطاع ترجمة روح بيعة العقبة الأولى عمليًا وسلوكيًا والتي تعني الالتزام التام بنظام الإسلام[٥٢].

---

(٤٧) انظر: الغرباء الأولون ص١٨٣ .

(٤٨) الدر المنثور للسيوطي (١/٢١٦) .

(٤٩) انظر: ابن هشام (١/٤٤) .

(٥٠) نفس المصدر (١/٣٩ ، ٤٤) .

(٥١) انظر: التحالف السياسي ص٧١ .

(٥٢) انظر: دولة الرسول من التكوين إلى التمكين ص٣٥٦ .

٧- بذل الرسول (ﷺ) كل ما يملك من جهد لتعبئة الطاقات الإسلامية في المدينة، ولم يكن هناك أدنى تقصير للجهد البشري الممكن في بناء القاعدة الصلبة التي تقوم على أكتافها الدولة الجديدة واحتمل هذا الجهد سنتين كاملتين من الدعوة والتنظيم(٥٣).

٨- نجحت التعبئة الإيمانية في نفوس من أسلم من الأنصار وشعرت الأنصار بأنه قد آن الأوان لقيام الدولة الجديدة، وكما يقول جابر رضي الله عنه وهو يمثل هذه الصورة الرفيعة الرائعة: (حتى متى نترك رسول الله (ﷺ) يطوف ويطرد في جبال مكة ويخاف)(٥٤).

٩- وصل مصعب رضي الله عنه إلى مكة قبيل الموسم الثالث عشر للبعثة، ونقل الصورة الكاملة التي انتهت إليها أوضاع المسلمين هناك، والقدرات والإمكانات المتاحة، وكيف تغلغل الإسلام في جميع قطاعات الأوس والخزرج، وأن القوم جاهزون لبيعة جديدة قادرة على حماية رسول الله (ﷺ) ومنعته(٥٥).

١٠- كان اللقاء الذي غيَّر مجرى التاريخ في موسم الحج في السنة الثالثة عشرة من البعثة، حيث حضر لأداء مناسك الحج بضع وسبعون نفسًا من المسلمين من أهل يثرب، فلما قدموا مكة جرت بينهم وبين النبي (ﷺ) اتصالات سرية أدت إلى اتفاق الفريقين على أن يجتمعوا في أوسط أيام التشريق في الشعب الذي عند العقبة حيث الجمرة الأولى من منى، وأن يتم هذا الاجتماع في سرية تامة في ظلام الليل(٥٦).

●●●

(٥٣) انظر: التحالف السياسي ص٧١.
(٥٤) انظر: التحالف السياسي ص٧١.
(٥٥) نفس المصدر ص٧٢.
(٥٦) المصدر السابق ص٧٣.



المبحث الثالث

بيعة العقبة الثانية

قال جابر بن عبد الله: (... فقلنا: حتى متى نترك رسول الله (ﷺ) يطرد في جبال مكة ويخاف، فرحل إليه منا سبعون رجلاً حتى قدموا عليه في الموسم، فواعدناه شعب العقبة فاجتمعنا عليه من رجل ورجلين حتى توافينا فقلنا: يا رسول الله نبايعك:

قال: «**تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله لا تخافون في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة**» .

قال: فقمنا إليه فبايعناه، وأخذ بيده أسعد بن زرارة - وهو من أصغرهم - فقال: رويدًا يا أهل يثرب، فإنا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله (ﷺ)، وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك وأجركم على الله، وإما أنتم تخافون من أنفسكم جبينة، فبينوا ذلك فهو عذر لكم عند الله قالوا: أمط عنا يا أسعد، فوالله لا ندع هذه البيعة أبدًا ولا نسلبها قال:)فقمنا إليه فبايعناه، فأخذ علينا وشرط، ويعطينا على ذلك الجنة)[٥٧].

وهكذا بايع الأنصار رسول الله (ﷺ) على الطاعة والنصرة والحرب؛ لذلك سماها عبادة ابن الصامت بيعة الحرب[٥٨] أما رواية الصحابي كعب بن مالك الأنصاري - وهو أحد المبايعين في العقبة الثانية- ففيها تفاصيل مهمة. قال: (خرجنا في حجاج قومنا من المشركين، وقد صلينا وفقهنا ... ثم خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله (ﷺ) العقبة من أوسط أيام التشريق... وكنا نكتم من معنا من المشركين أمرنا، فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله، نتسلل تسلل القطا مستخفين، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، ومعنا امرأتان من نسائنا، نسيبة بنت كعب ...، وأسماء بنت عمرو، فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله (ﷺ) حتى جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له، فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب: (فبين أن الرسول في منعة من قومه بني هاشم ولكنه يريد الهجرة إلى المدينة، ولذلك فإن العباس يريد التأكد من حماية الأنصار له وإلا فليدعوه، فطلب الأنصار أن يتكلم رسول الله، فيأخذ لنفسه ولربه ما يحب من الشروط.

---

(٥٧) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ١٩٩) .

(٥٨) مسند الإمام أحمد (٥/ ٣١٦) بإسناد صحيح لغيره .

قال: «**أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم**»، فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم، والذي بعثك بالحق لنمنعنّك مما نمنع منه أُزرنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أهل الحرب، وأهل الحلقة، ورثناها كابرًا عن كابر، فقاطعه أبو الهيثم بن التيهان متسائلاً: (يا رسول الله إن بيننا وبين القوم حبالاً وإنا قاطعوها (يعني اليهود)، فهل عسيتم إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله (ﷺ) ثم قال: «**بل الدم بالدم، والهدم بالهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم**».

ثم قال: «**أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيبًا ليكونوا على قومهم بما فيهم**»، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيبًا، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس.

وقد طلب الرسول (ﷺ) منهم الانصراف إلى رحالهم، وقد سمعوا الشيطان يصرخ منذرًا قريشًا، فقال العباس بن عبادة بن نضلة: والله الذي بعثك بالحق، إن شئت لنميلنّ على أهل منى غدًا بأسيافنا.

فقال رسول الله (ﷺ): «**لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم**»، فرجعوا إلى رحالهم، وفي الصباح جاءهم جمع من كبار قريش، يسألونهم عما بلغهم من بيعتهم للنبي ودعوتهم له للهجرة، فحلف المشركون من الخزرج والأوس بأنهم لم يفعلوا والمسلمون ينظرون إلى بعضهم[٥٩] قال: ثم قام القوم وفيهم الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي، وعليه نعلان جديدان قال: فقلت له كلمة - كأني أريد أن أشرك القوم فيما قالوا: يا أبا جابر أما تستطيع أن تتخذ وأنت سيد من ساداتنا مثل نعلي هذا الفتى من قريش؟ قال: فسمعهما الحارث فخلعهما من رجليه ثم رمى بها إليّ وقال: والله لتنعلهما، قال: يقول أبو جابر: مه أحفظت والله الفتى فاردد إليه نعليه. قال: قلت: لا والله لا أردهما فأل والله صالح، لئن صدق الفأل لأسلبنه[٦٠].

دروس وعبر وفوائد:

١- كانت هذه البيعة العظمى بملابساتها، وبواعثها، وآثارها، وواقعها التاريخي (فتح الفتوح)؛ لأنها كانت الحلقة الأولى في سلسلة الفتوحات الإسلامية التي تتابعت حلقاتها في صور متدرجة، مشدودة بهذه البيعة، منذ اكتمل عقدها بما أخذ فيها رسول الله (ﷺ) من عهود ومواثيق على أقوى طليعة من طلائع أنصار الله الذين كانوا أعرف الناس بقدر مواثيقهم وعهودهم، وكانوا أسمح الناس بالوفاء بما عاهدوا الله ورسوله عليه من التضحية مهما بلغت متطلباتها من الأرواح والدماء والأموال، فهذه البيعة في بواعثها هي بيعة الإيمان بالحق ونصرته، وهي في ملابساتها قوة تناضل قوى هائلة تقف متألبة عليها، ولم يغب عن أنصار

---

(٥٩) انظر: ابن هشام (٢/ ٦١)، بإسناد حسن وانظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ٢٠١).

(٦٠) انظر: مجمع الزوائد (٦/ ٤٢-٤٦)، وقال الألباني في تحقيق فقه السيرة: وهذا سند صحيح وصححه ابن حبان كما في الفتح (٧/ ٤٧٥).

الله قدرها ووزنها في ميادين الحروب والقتال، وهي في آثارها تشمير ناهض بكل ما يملك أصحابها من وسائل الجهاد القتالي في سبيل إعلاء كلمة الله على كل عالٍ مستكبر في الأرض حتى يكون الدين كله لله، وهي في واقعها التاريخي صدق وعدل ونصر واستشهاد وتبليغ لرسالة الإسلام(٦١).

٢- إن حقيقة الإيمان وأثره في تربية النفوس تظهر آثارها في استعداد هذه القيادات الكبرى، لأن تبذل أرواحها ودماءها في سبيل الله ورسوله، ولا يكون لها الجزاء في هذه الأرض كسبًا ولا منصبًا ولا قيادة ولا زعامة، وهم الذين أفنوا عشرات السنين من أعمارهم يتصارعون على الزعامة والقيادة، إنه أثر الإيمان بالله وبحقيقة هذا الدين عندما يتغلغل في النفوس(٦٢).

٣- يظهر التخطيط العظيم في بيعة العقبة حيث تمت في ظروف غاية في الصعوبة، وكانت تمثل تحديًا خطيرًا وجريئًا لقوى الشرك في ذلك الوقت، ولذلك كان التخطيط النبوي لنجاحها في غاية الإحكام والدقة، على النحو التالي(٦٣).

أ- سرية الحركة والانتقال لجماعة المبايعين، حتى لا ينكشف الأمر، فقد كان وفد المبايعة المسلم سبعين رجلاً وامرأتين، من بين وفد يثربي قوامه نحو خمسمائة، مما يجعل حركة هؤلاء السبعين صعبة، وانتقالهم أمرًا غير ميسور، وقد تحدد موعد اللقاء في ثاني أيام التشريق بعد ثلث الليل، حيث النوم قد ضرب أعين القوم، وحيث قد هدأت الرِّجْل، كما تم تحديد المكان في الشعب الأيمن، بعيدًا عن عين من قد يستيقظ من النوم لحاجة(٦٤).

ب- الخروج المنظم لجماعة المبايعين إلى موعد ومكان الاجتماع، فخرجوا يتسللون مستخفين، رجلاً رجلاً، أو رجلين رجلين.

ج- ضرب السرية التامة على موعد ومكان الاجتماع، بحيث لم يعلم به سوى العباس ابن عبد المطلب الذي جاء مع النبي (ﷺ) ليتوثق له(٦٥)، وعلي بن أبي طالب الذي كان عينًا للمسلمين على فم الشعب، وأبو بكر الذي كان على فم الطريق وهو الآخر عينًا للمسلمين(٦٦)، أما من عداهم من المسلمين وغيرهم فلم يكن يعلم عن الأمر شيئًا، وقد أمر جماعة المبايعين ألا يرفعوا الصوت وألا يطيلوا في الكلام، حذرًا من وجود عين يسمع صوتهم، أو يجس حركتهم(٦٧).

---

(٦١) انظر: محمد رسول الله، محمد الصادق عرجون (٢/ ٤٠٠).
(٦٢) انظر: التربية القيادية (٢/ ١٠٣).
(٦٣) انظر: الهجرة النبوية المباركة، د. عبد الرحمن البر ص٦١.
(٦٤) انظر: الهجرة النبوية المباركة ص٦١.
(٦٥) نفس المصدر ص٦٢.
(٦٦) انظر: التربية النبوية (٢/ ١٠٩).
(٦٧) انظر: الهجرة النبوية المباركة ص٦٢.

د- متابعة الإخفاء والسرية، حين كشف الشيطان أمر البيعة، فأمرهم النبي (ﷺ) أن يرجعوا إلى رحالهم ولا يحدثوا شيئًا، رافضًا الاستعجال في المواجهة المسلحة التي لم تتهيأ لها الظروف بعد، وعندما جاءت قريش تستبرئ الخبر موّه المسلمون عليهم بالسكوت، أو المشاركة بالكلام الذي يشغل عن الموضوع(٦٨).

هـ- اختيار الليلة الأخيرة من ليالي الحج، وهي ليلة الثالثة عشر من ذي الحجة، حيث سينفر الحجاج إلى بلادهم ظهر اليوم التالي وهو يوم الثالث عشر، ومن ثم تضيق الفرصة أمام قريش في اعتراضهم أو تعويقهم إذا انكشف أمر البيعة، وهو أمر متوقع وهذا ما حدث(٦٩).

٤- كانت البنود الخمسة للبيعة من الوضوح والقوة بحيث لا تقبل التمييع والتراخي، إنه السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في اليسر والعسر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقيام في الله لا تأخذهم فيه لومة لائم . . . ونصر لرسول الله وحمايته إذا قدم المدينة(٧٠).

٥- سرعان ما استجاب قائد الأنصار دون تردد، البراء بن معرور قائلاً: والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحرب وأهل الحلقة، ورثناها كابرًا عن كابر. فهذا زعيم الوفد يعرض إمكانيات قومه على رسول الله (ﷺ)، فقومه أبناء الحرب والسلاح(٧١) يجدر الإشارة إليه في أمر البراء أنه عندما جاء مع قومه من يثرب قال لهم: إني قد رأيت رأيًا فوالله ما أرى أتوافقوني عليه أم لا؟

فقالوا: وما ذاك؟ قال: قد رأيت ألا أدع هذه البَنِيَّة - يعني الكعبة - مني بظهر، وأن أصلي إليها، فقالوا له: والله ما بلغنا أن النبي (ﷺ) يصلي إلا إلى الشام -بيت المقدس- وما نريد أن نخالفه، فكانوا إذا حضرت الصلاة صلوا إلى بيت المقدس، وصلّى هو إلى الكعبة، واستمروا كذلك حتى قدموا مكة، وتعرفوا إلى رسول الله (ﷺ) وهو جالس مع عمه العباس بالمسجد الحرام، فسأل النبي (ﷺ) العباس: «**هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل؟**» قال: نعم، هذا البراء بن معرور سيد قومه، وهذا كعب بن مالك، فقال النبي (ﷺ): «**الشاعر؟**» قال: نعم، فقص عليه البراء ما صنع في سفره من صلاته إلى الكعبة. قال: فماذا ترى يا رسول الله؟ قال: «**قد كنت على قبلة لو صبرت عليها**»(٧٢) قال كعب: فرجع البراء إلى قبلة رسول الله (ﷺ)، وصلّى معنا إلى الشام فلما حضرته الوفاة أمر أهله أن يوجهوه قبل الكعبة، ومات في صفر قبل قدومه (ﷺ) بشهر، وأوصى بثلث ماله إلى النبي، فقبله وردّه

(٦٨) انظر: الهجرة النبوية المباركة ص٦٥ .
(٦٩) نفس المصدر ص٦٧ .
(٧٠) انظر: التحالف السياسي ص٨٢ .
(٧١) نفس المصدر ص٨٢ .
(٧٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٤٤٤) .

على ولده، وهو أول من أوصى بثلث ماله[٧٣] ويستوقفنا في هذا الخبر:

أ- الانضباط والالتزام من المسلمين بسلوك رسولهم وأوامره، وإن أي اقتراح مهما كان مصدره يتعارض مع ذلك يعتبر مرفوضًا، وهذه من أولويات الفقه في دين الله، تأخذ حيزها من حياتهم وهم بعد ما زالوا في بداية الطريق.

ب- إن السيادة لم تعد لأحد غير رسول الله (ﷺ)، وإن توقير أي إنسان واحترامه إنما هو انعكاس لسلوكه والتزامه بأوامر الرسول (ﷺ)، وهكذا بدأت تنزاح تقاليد جاهلية لتحل محلها قيم إيمانية فهي المقاييس الحقة التي بها يمكن الحكم على الناس تصنيفًا وترتيبًا[٧٤].

٦- كان أبو الهيثم بن التيهان صريحًا عندما قال للرسول (ﷺ) : إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عسيتم إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله (ﷺ) وقال: «**بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم**» وهذا الاعتراض يدلنا على الحرية العالية التي رفع الله (تعالى) المسلمين إليها بالإسلام، حيث عبر عما في نفسه بكامل حريته[٧٥]، وكان جواب سيد الخلق (ﷺ) عظيمًا، فقد جعل نفسه جزءًا من الأنصار والأنصار جزءًا منه[٧٦].

٧- يؤخذ من اختيار النقباء دروس مهمة منها:

أ- أن الرسول (ﷺ) لم يعين النقباء إنما ترك طريق اختيارهم إلى الذين بايعوا، فإنهم سيكونون عليهم مسؤولين وكفلاء، والأولى أن يختار الإنسان من يكفله ويقوم بأمره، وهذا أمر شوري وأراد الرسول (ﷺ) أن يمارسوا الشورى عمليًا من خلال اختيار نقبائهم.

ب- التمثيل النسبي في الاختيار، من المعلوم أن الذين حضروا البيعة من الخزرج أكثر من الذين حضروا البيعة من الأوس، ثلاثة أضعاف من الأوس بل يزيدون، ولذلك كان النقباء ثلاثة من الأوس وتسعة من الخزرج[٧٧].

ج- جعل رسول الله (ﷺ) النقباء مشرفين على سير الدعوة في يثرب، حيث استقام عود الإسلام هناك، وكثر مثقفوه، وأراد الرسول (ﷺ) أن يشعرهم أنهم لم يعودوا غرباء لكي يبعث إليهم أحدًا من غيرهم، وأنهم غدوا أهل الإسلام وحماته وأنصاره[٧٨].

٨- تأكد زعماء مكة من حقيقة الصفقة التي تمت بين رسول الله (ﷺ) والأنصار،

(٧٣) نفس المصدر (١/ ٤٤٥) .

(٧٤) انظر: معين السيرة النبوية للشامي ص١٣٥ .

(٧٥) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٣/ ٩٧) .

(٧٦) انظر: التربية القيادية (٢/ ٦٧) .

(٧٧) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس ص٢٠٩ .

(٧٨) انظر: دراسات في السيرة النبوية ، د . عماد الدين خليل ص١٣٢ .

فخرجوا في طلب القوم فأدركوا سعد بن عبادة بأذخر، والمنذر بن عمرو وكلاهما كان نقيبًا، فأما المنذر فأعجز القوم، وأما سعد فأخذوه، فربطوا يديه إلى عنقه بنسع رحله، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ويجذبونه بجمته وكان ذا شعر كثير[٧٩]، واستطاع أن يتخلص من قريش بواسطة الحارث بن حرب بن أمية وجبير بن مطعم، لأنه كان يجير تجارتهم ببلده؛ فقد أنقذته أعراف الجاهلية، ولم تنقذه سيوف المسلمين، ولم يجد في نفسه غضاضة من ذلك، فهو يعرف أن المسلمين مطاردون في مكة، وعاجزون عن حماية أنفسهم[٨٠]، وقد قيل في هذه الحادثة أول شعر في الهجرة بيتين قالهما ضرار بن الخطاب بن مرداس حيث قال:

تداركت سعدًا عنوة فأخذته ... وكان شفاءً لو تداركت منذرًا

ولو نلته طُلَّت[٨١] هناك جراحه ... وكان حريًا أن يهان ويهدرا

وكان حسان بن ثابت رضي الله عنه بالمرصاد ورد عليه بأبيات من الشعر تناقلتها الركبان:

ولست إلى سعد ولا المرء منذر ... إذا ما مطايا القوم أصبحن ضُمّرا[٨٢]

فلا تك كالوسنان يحلم أنه ... بقرية كسرى أو بقرية قيصرا

فإنا ومن يهدي القصائد نحونا ... كَمُستبضع تمرا إلى أرض خيبرا[٨٣]

٩- في قول العباس بن عبادة بن نضلة: والله الذي بعثك بالحق إن شئت لنميلنَّ على أهل منى غدًا بأسيافنا، وقول رسول الله (ﷺ): «**لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم**»، درس تربوي بليغ وهو أن الدفاع عن الإسلام، والتعامل مع أعداء هذا الدين ليس متروكًا لاجتهاد أتباعه وإنما هو خضوع لأوامر الله (تعالى) وتشريعاته الحكيمة فإذا شرع الجهاد فإن أمر الإقدام أو الإحجام متروك لنظر المجتهدين بعد التشاور ودراسة الأمر من جميع جوانبه[٨٤]، وكلما كانت عبقرية التخطيط السياسي أقوى أدّت إلى نجاح المهمات أكثر، وإخفاء المخططات وتنفيذها عن العدو هو الكفيل -بإذن الله- بنجاحها «**ولكن ارجعوا إلى رحالكم**»[٨٥].

١٠- كانت البيعة بالنسبة للرجال ببسط رسول الله (ﷺ) يده وقالوا: له ابسط يدك، فبسط يده فبايعوه وأما بيعة المرأتين اللتين شهدتا الوقعة فكانت قولاً، ما صافح رسول الله (ﷺ) امرأة أجنبية قط، فلم يتخلف أحد في بيعته (ﷺ) حتى المرأتين بايعتا بيعة الحرب،

---

(٧٩) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٣/ ١٠٧).

(٨٠) انظر: التربية القيادية (٢/ ١١٦).

(٨١) أي أهدرت.

(٨٢) جمع ضامر: الضامر من الخيل والإبل الخفيف اللحم من التدريب.

(٨٣) سيرة ابن هشام (٢/ ٦٥).

(٨٤) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٣/ ١٠٤).

(٨٥) انظر: التحالف السياسي في الإسلام ص٩٦.

وصدقتا عـهدهما، فأما نسيبـة بنت كعب (أم عمارة) فقد سقطت في أحـد وقد أصابها اثنا عشر جرحًا، وقد خرجت يوم أحد مع زوجها زيد بن عاصم بن كعب ومعها سقاء تسقي به المسلمين، فلما انهزم المسلمـون انحازت إلى رسول الله (ﷺ)، فكانت تباشـر القتال وتذب عنه بالسيف وقد أصيبت بجراح عمـيقة وشهدت بيعة الرضوان[٨٦]، وقطع مسـيلمة الكذاب ابنها إربًا إربًا فما وهنت وما استكانت[٨٧] وشهدت معركة اليمامة في حروب الردة مع خالد ابن الوليد فقاتلت حتى قطعت يدها وجرحت اثنا عشر جُرحًا[٨٨]، وأما أسماء ابنة عمرو من بني سلمـة قيل: هي والدة معـاذ بن جبل وقـيل: ابنة عمـة معاذ بن جـبل رضي الله عنهم جميعًا[٨٩].

١١- عندما نراجع تراجم أصحاب الـعقبة الثانية من الأنصار في كـتب السير والتراجم نجد أن هؤلاء الثلاثة والسبعين قد استشهد قرابة ثلثهم على عهد النبي (ﷺ) وبعده، ونلاحظ أنه قد حضر المشـاهد كلها مع رسول الله (ﷺ) قرابة النصف، فثـلاثة وثلاثون منهم كانوا بجوار الرسول (ﷺ) في جميع غزواته، وأما الذين حضروا غزوة بدر فكانوا قرابة السبعين.

لقد صدق هؤلاء الأنصار عهدهم مع الله ورسوله (ﷺ)، فمنهم من قضى نحبه ولقي ربه شهيـدًا، ومنهم من بقي حتى ساهم في قيـادة الدولة المسلمة وشارك في أحداثهـا الجسام بعد وفاة رسول الله (ﷺ)، وبمثل هذه النماذج قامت دولة الإسلام، النماذج التي تعطي ولا تأخذ، والتي تقدم كل شيء، ولا تطلب شيئًا إلا الجنة، ويتصاغر التاريخ في جميع عصوره ودهوره أن يحوي في صفحاته أمثال هؤلاء الرجال[٩٠].

●●●

(٨٦) انظر: المرأة في العهد النبوي، دكتورة عصمة الدين ص١٠٨.

(٨٧) انظر: التحالف السياسي ص٨٧.

(٨٨) ابن هشام (٢/ ٨٠)، أسد الغابة (٥/ ٣٩٥)، البداية والنهاية (٣/ ١٥٨-١٦٦)، الإصابة (٨/ ٨) رقم ٤٨، ٤٩ نقلاً عن المرأة في العهد النبوي ص١٠٨.

(٨٩) انظر: المرأة في العهد النبوي ص١٠٨.

(٩٠) انظر: التربية القيادية (٢/ ١٤٠).



المبحث الرابع

الهجرة إلى المدينة

أولاً: التمهيد والإعداد لها:

إن الهجرة إلى المدينة سبقها تمهيد وإعداد وتخطيط من النبي (ﷺ) وكان ذلك بتقدير الله (تعالى) وترتيبه، وكان هذا الإعداد في اتجاهين، إعداد في شخصية المهاجرين، وإعداد في المكان المهاجر إليه.

١- إعداد المهاجرين:

لم تكن الهجرة نزهة أو رحلة يروِّح فيها الإنسان عن نفسه، ولكنها مغادرة الأرض والأهل، ووشائج القربى، وصلات الصداقة والمودة، وأسباب الرزق، والتخلي عن كل ذلك من أجل العقيدة، ولهذا احتاجت إلى جهد كبير حتى وصل المهاجرون إلى قناعة كاملة بهذه الهجرة، ومن تلك الوسائل:

- التربية الإيمانية العميقة التي تحدثنا عنها في الصفحات الماضية.

- الاضطهاد الذي أصاب المؤمنين حتى وصلوا إلى قناعة كاملة بعدم إمكانية المعايشة مع الكفر.

- تناول القرآن المكي التنويه بالهجرة، ولفت النظر إلى أن أرض الله واسعة، قال (تعالى): ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (سورة الزمر، الآية: ١٠).

ثم تلا ذلك نزول سورة الكهف، وتحدثت عن الفتية الذين آمنوا بربهم وعن هجرتهم من بلدهم إلى الكهف، وهكذا استقرت صورة من صور الإيمان في نفوس الصحابة وهي تترك أهلها ووطنها من أجل عقيدتها.

ثم تلا ذلك آيات صريحة تتحدث عن الهجرة في سورة النحل، قال (تعالى): ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ * الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ *وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (سورة النحل، الآيتان: ٤١-

وفي أواخر السورة يؤكد المعنى مرة أخرى بقوله (تعالى): ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة النحل، الآية: ١١٠).

وكانت الهجرة إلى الحبشة تدريبًا عمليًا على ترك الأهل والوطن[٩١].

---

(٩١) انظر: السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة صالح الشامي ص١١٨ .

٢- الإعداد في يثرب:

نلاحظ أن الرسول (ﷺ) لم يسارع بالانتقال إلى الأنصار من الأيام الأولى وإنما أخَّر ذلك لأكثر من عامين، حتى تأكد من وجود القاعدة الواسعة نسبيًا، كما كان في الوقت نفسه يتم إعدادها في أجواء القرآن الكريم وخاصة بعد انتقال مصعب إلى المدينة.

وقد تأكد أن الاستعداد لدى الأنصار قد بلغ كماله وذلك بطلبهم هجرة الرسول الكريم إليهم، كما كانت المناقشات التي جرت في بيعة العقبة الثانية تؤكد الحرص الشديد من الأنصار على تأكيد البيعة والاستيثاق للنبي (ﷺ) بأقوى المواثيق على أنفسهم، وكان في رغبتهم أن يميلوا على أهل منى ممن آذى رسول الله (ﷺ) بأسيافهم لو أذن الرسول الكريم بذلك ولكنه قال لهم: «**لم أؤمر بذلك**».

وهكذا تم الإعداد لأهل يثرب ليكونوا قادرين على استقبال المهاجرين وما يترتب على ذلك من تبعات(٩٢).

ثانيًا: تأملات في بعض آيات سورة العنكبوت:

تعتبر سورة العنكبوت من أواخر ما نزل في المرحلة المكية، وتحدثت السورة عن سنة الله في الدعوات وهي سنة الابتلاء قال (تعالى): **﴿الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ * أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾** (سورة العنكبوت، الآيات: ١-٤) وفي سورة العنكبوت ثلاثة أمور تلفت النظر وهي:

١- ذكر كلمة المنافقين، ومن المعلوم أن النفاق لا يكون إلا عندما تكون الغلبة للمسلمين، حيث يخشى بعض الناس على مصالحهم فيظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، ومن المعلوم أن المجتمع كان جاهليًا في مكة وكانت القوة والغلبة لأهل الشرك، فما مناسبة مجيء المنافقين في هذه السورة في قوله (تعالى): **﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾** (سورة العنكبوت، الآية: ١١).

وهي سورة مكية كما قلنا، فهل كانت الآمال قد قويت عند الفئة المؤمنة بحيث تراءى لهم الفرج والنصر قاب قوسين أو أدنى، أم أن هذه الآية مدنية وضعت في سورة مكية، لأن النفاق لم يحن وقته بعد كما ذهب بعض المفسرين(٩٣).

٢- ورد الأمر بمجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن، وكأنه تهيئة للنفوس للمرحلة القادمة التي سيكون بين المسلمين وبين أهل الكتاب احتكاك، فلا يكونوا البادئين بالشدة، فيأتي التنبيه على هذا الأمر في قوله (تعالى): **﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**

---

(٩٢) انظر: السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة ص١٢٠، ١٢١.

(٩٣) انظر: في ذلك صنيع محمد فؤاد عبد الباقي في المعجم المفهرس حيث رمز الآية بـ (م) وهو رمز الآيات المدنية وما ذكره القرطبي من خلاف العلماء في الآية (٣٢٣/١٣).

إلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ﴾ (سورة العنكبوت، الآيتان: ٤٦، ٤٧).

٣- تهيئة النفوس للهجرة في أرض الله الواسعة، وربما كانت المدينة قد بدأت تستقبل المهاجرين من المؤمنين بعد بيعة العقبة الأولى، ومهما كان الأمر وأنى كان وقت نزول سورة العنكبوت فإن الإشارة واضحة والحث على الهجرة أيضًا واضح ببيان تكفل الله الرزق للعباد في أي أرض وفي أي زمان[٩٤].

قال (تعالى): ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ (سورة العنكبوت، الآية: ٥٦).

فهذه الآية الكريمة نزلت في تحريض المؤمنين الذين كانوا بمكة على الهجرة، لأن البقاء في بقعة على أذى الكفار ليس بصواب، بل الصواب أن يلتمس عبادة الله في أرضه مع صالحي عباده، أي إن كنتم في ضيق من إظهار الإيمان بها فهاجروا إلى المدينة فإنها واسعة لإظهار التوحيد[٩٥]، ثم أخبرهم (تعالى) أن الرزق لا يختص ببقعة معينة، بل رزقه (تعالى) عام لخلقه حيث كانوا، وأين كانوا، بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا أكثر وأوسع وأطيب، فإنهم بعد قليل صاروا حكام البلاد في سائر الأقطار والأمصار[٩٦]، ولهذا قال (تعالى): ﴿وَكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (سورة العنكبوت، الآية: ٦٠).

كما ذكرهم (تعالى) أن كل نفس واجدة مرارة الموت، فقال جل شأنه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (سورة العنكبوت، الآية: ٥٧).

أي واجدة مرارته وكربه كما يجد الذائق طعم المذوق ومعناه: إنكم ميتون فواصلون إلى الجزاء، ومن كانت هذه عاقبته لم يكن له بد من التزود لها والاستعداد بجهده[٩٧]، وهذا تشجيع للنفس على الهجرة، لأن النفس إذا تيقنت بالموت سهل عليها مفارقة وطنها[٩٨].

قال ابن كثير في الآية: أي أينما كنتم يدرككم الموت، فكونوا في طاعة الله، وحيث أمركم الله فهو خير لكم، فإن الموت لا بد منه، ولا محيد عنه، ثم إلى الله المرجع والمآب، فمن كان مطيعًا له جازاه أفضل الجزاء، ووافاه أتم الثواب[٩٩] ولهذا قال (تعالى): ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ

---

(٩٤) انظر: معالم قرآنية في الصراع مع اليهود، د. مصطفى مسلم ص٦٢، ٦٣.

(٩٥) انظر: تفسير القرطبي (٦/ ٥٠٧٣).

(٩٦) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٦٠).

(٩٧) انظر الكشاف للزمخشري (٣/ ٣١٠)، تفسير أبي السعود (٧/ ٤٥) وتفسير فتح القدير (٤/ ٢١٠).

(٩٨) انظر: الأساس في التفسير لسعيد حوى (٨/ ٤٢٢٣).

(٩٩) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٥٩).

أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (سورة العنكبوت، الآيتان: ٥٨-٥٩). أي صبروا على دينهم وهاجروا إلى الله، ونابذوا الأعداء، وفارقوا الأهل والأقرباء ابتغاء وجه الله ورجاء ما عنده وتصديق موعوده، ولم يتوكلوا في جميع ذلك إلا على الله[١٠٠].

ثالثا: طلائع المهاجرين:

لما بايعت طلائع الخير ومواكب النور من أهل يثرب النبي (ﷺ) على الإسلام والدفاع عنه ثارت ثائرة المشركين، فازدادوا ايذاءً للمسلمين، فأذن النبي (ﷺ) للمسلمين بالهجرة إلى المدينة وكان المقصود من الهجرة إلى المدينة، إقامة الدولة الإسلامية التي تحمل الدعوة، وتجاهد في سبيلها، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله[١٠١] وكان التوجيه إلى المدينة من الله (تعالى)، عن عائشة رضي الله عنها قالت: (لما صدر السبعون من عند رسول الله (ﷺ) طابت نفسه، وقد جعل الله له منعة وقومًا أهل حرب وعدة، ونجدة، وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين لما يعلمون من الخروج، فضيقوا على أصحابه وتعبثوا[١٠٢] بهم ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالون من الشتم والأذى، فشكا ذلك أصحاب رسول الله (ﷺ) واستأذنوه في الهجرة فقال: «**قد أريت دار هجرتكم، أريت سبخة ذات نخل بين لابتين وهما الحرتان، ولو كانت السراة أرض نخل وسباخ لقلت هي هي**» ثم مكث أيامًا ثم خرج إلى أصحابه مسرورًا فقال: «**قد أخبرت بدار هجرتكم، وهي يثرب، فمن أراد الخروج فيخرج إليها**».

فجعل القوم يتجهون ويتوافقون ويتواسون ويخرجون ويخفون ذلك، فكان أول من قدم المدينة من أصحاب رسول الله (ﷺ) أبو سلمة بن عبد الأسد ثم قدم بعده عامر بن ربيعة معه امرأته ليلى بنت أبي خيثمة، فهي أول ظعينة قدمت المدينة، ثم قدم أصحاب رسول الله (ﷺ) أرسالاً، فنزلوا على الأنصار في دورهم فآووهم ونصروهم وآسوهم، وكان سالم مولى أبي حذيفة يؤم المهاجرين بقباء قبل أن يقدم النبي (ﷺ) فلما خرج المسلمون في هجرتهم إلى المدينة، كلبت[١٠٣] قريش عليهم وحربوا واغتاظوا على من خرج من فتيانهم، وكان نفر من الأنصار بايعوا رسول الله (ﷺ) في البيعة الآخرة، ثم رجعوا إلى المدينة، فلما قدم أول من هاجر إلى قباء خرجوا إلى رسول الله (ﷺ) بمكة حتى قدموا مع أصحابه في الهجرة فهم مهاجرون أنصاريون، وهم ذكوان بن عبد قيس، وعقبة بن وهب بن كلدة والعباس بن عبادة بن نضلة وزياد بن لبيد، وخرج المسلمون جميعًا إلى المدينة فلم يبقَ بمكة فيهم إلا رسول الله (ﷺ) وأبو بكر، وعلي، أو مفتون أو مريض أو ضعيف عن الخروج[١٠٤].

---

(١٠٠) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ص٣٢٥ .

(١٠١) انظر: الهجرة النبوية المباركة ص٣٣ ، ٣٤ .

(١٠٢) عبث: عبثًا: لعب فهو عابث لاعب لما لا يعنيه . انظر: لسان العرب (١٦٦/٢).

(١٠٣) كلبت قريش عليهم: أي غضبت عليهم .

(١٠٤) انظر: طبقات ابن سعد (٣٢٥/١) .

رابعًا: من أساليب قريش في محاربة المهاجرين ومن مشاهد العظمة في الهجرة:

عملت قيادة قريش ما في وسعها للحيلولة دون خروج من بقي من المسلمين إلى المدينة واتبعت في ذلك عدة أساليب منها:

١- أسلوب التفريق بين الرجل وزوجه وولده:

ونترك أم المؤمنين أم سلمة هند بنت أبي أمية تحدثنا عن روائع الإيمان وقوة اليقين في هجرتها وهجرة زوجها أبي سلمة. قالت رضي الله عنها: (لما أجمع أبي سلمة الخروج إلى المدينة رحل لي بعيره، ثم حملني عليه، وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري، ثم خرج بي يقود بعيره، فلما رأته رجال بني المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم قاموا إليه فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتنا هذه علام نتركك تسير بها إلى البلاد؟

قالت: فتركوا خطام البعير من يده فأخذوني منه.

قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبي سلمة.

قالوا: لا والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا.

قالت: فتجاذبوا ابني سلمة بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة.

قالت: ففُرق بيني وبين زوجي وبين ابني.

قالت: فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح، فما أزال أبكي حتى أمسي، سنة أو قريبًا منها، حتى مرّ بي رجل من بني عمي - أحد بني المغيرة - فرأى ما بي، فرحمني، فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة فرّقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها؟

قالت: فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت.

قالت: وردّ بنو عبد الأسد إليّ عند ذلك ابني.

قالت: فارتحلت بعيري، ثم أخذت ابني فوضعته في حجري ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة وما معي أحد من خلق الله.

قالت: فقلت: أتبلغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجي، حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة أخا بني عبد الدار.

فقال لي: إلى أين يا بنت أبي أمية؟

قالت: فقلت: أريد زوجي بالمدينة.

قال: أو ما معك أحد؟

قالت: فقلت: لا والله إلا الله وبنيَّ هذا.

قال: والله مالك من مترك.

فأخذ بخطام البعير، فانطلق معي يهوي بي، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط

أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني، حتى إذا نزلت عنه استأخر ببعيري فحط عنه، ثم قيَّده في الشجرة، ثم تنحى إلى الشجرة فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فقدمه فرحله ثم استأخر عني فقال: اركبي، فإذا ركبت فاستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه، فقاد بي حتى ينزل بي، فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء قال: زوجك في هذه القرية، وكان أبو سلمة بها نازلاً، فادخليها على بركة الله. ثم انصرف راجعًا إلى مكة.

قال فكانت تقول: والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحبًا قط أكرم من عثمان بن طلحة)[١٠٥].

فهذا مثل على الطرق القاسية التي سلكتها قريش لتحول بين أبي سلمة والهجرة، فرجل يفرق بينه وبين زوجه عنوة، وبينه وبين فلذة كبده، على مرأى منه، كل ذلك من أجل أن يثنوه عن الهجرة ولكن متى ما تمكن الإيمان من القلب، استحال أن يقدم صاحبه على الإسلام والإيمان شيئًا، حتى لو كان ذلك الشيء فلذة كبده، أو شريكة حياته لذا انطلق أبو سلمة رضي الله عنه إلى المدينة لا يلوي على أحد، وفشل معه هذا الأسلوب وللدعاة إلى الله فيه أسوة[١٠٦].

وهكذا أثر الإيمان حين يخالط بشاشة القلوب، فهذه أسرة فرق شملها، وامرأة تبكي شدة مصابها، وطفل خلعت يده وحُرِم من أبويه، وزوج وأب يسجل أروع صور التضحية والتجرد، ليكون أول مهاجر يصل أرض الهجرة، محتسبين في سبيل الله ما يلقون، مصممين على المضي في طريق الإيمان والانحياز إلى كتيبة الهدى فماذا عسى أن ينال الكفر وصناديده من أمثال هؤلاء؟

وأما صنيع عثمان بن طلحة رضي الله عنه، فقد كان يومئذ كافرًا (وأسلم قبل الفتح)، ومع ذلك تشهد له أم سلمة رضي الله عنها بكرم الصحبة، وذلك شاهد صدق على نفاسة هذا المعدن، وكمال مروءته، وحمايته للضعيف[١٠٧]، (فقد أبت عليه مروءته وخلقه العربي الأصيل أن يَدَع امرأة شريفة تسير وحدها في هذه الصحراء الموحشة، وإن كانت على غير دينه، وهو يعلم أنها بهجرتها تراغمه وأمثاله من كفار قريش!.

فأين من هذه الأخلاق - يا قومي المسلمين - أخلاق الحضارة في القرن العشرين، من سطو على الحريات، واغتصاب للأعراض، بل وعلى قارعة الطريق، وما تطالعنا به الصحافة كل يوم من أحداث يندى لها جبين الإنسانية، ومن تفنن في وسائل الاغتصاب، وانتهاك الأعراض، والسطو على الأموال.

---

(١٠٥) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٠٢، ٢٠٣).

(١٠٦) انظر: في السيرة النبوية، د. إبراهيم علي محمد ص١٣٠، ١٣١. تقسيم الأساليب أخذت من هذا الكتاب ومشاهد العظمة من الهجرة النبوية المباركة.

(١٠٧) انظر: الهجرة النبوية المباركة ص١٢٤.

إن هذه القصة - ولها مُثُل ونظائر - لتشهد أن ما كان للعرب من رصيد من الفضائل كان أكثر من مثالبهم ورذائلهم، فمن ثم اختار الله منهم خاتم أنبيائه ورسله، وكانوا أهلاً لحمل الرسالة، وتبليغها للناس كافة(١٠٨).

وتظهر عناية الله (تعالى) بأوليائه وتسخيره لهم، فهو جل وعلا الذي سخر قلب عثمان ابن طلحة للعناية بأم سلمة ولذلك بذل الجهد والوقت من أجلها(١٠٩)، كما تظهر سلامة فطرة عثمان بن طلحة التي قادته أخيرًا إلى الإسلام بعد صلح الحديبية، ولعل إضاءة قلبه بدأت منذ تلك الرحلة في مصاحبته لأم سلمة رضي الله عنهم(١١٠).

٢- أسلوب الاختطاف:

لم تكتف قيادة قريش بالمسلمين داخل مكة، لمنعهم من الهجرة، بل تعدت ذلك إلى محاولة إرجاع من دخل المدينة مهاجرًا، فقامت بتنفيذ عملية اختطاف أحد المهاجرين، ولقد نجحت هذه المحاولة وتم اختطاف المهاجرين من المدينة وأعيد إلى(١١١) مكة، وهذه الصورة التاريخية للاختطاف يحدثنا بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث قال: (اتعدت لما أردنا الهجرة إلى المدينة أنا وعيَّاش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاص بن وائل السهمي، التناضب(١١٢)، من أضَاة(١١٣) بني غفار، فوق سَرِف(١١٤)، وقلنا: أينا لم يصبح عندها فقد حُبس، فليمض صاحباه.

قال: فأصبحت أنا وعياش بن أبي ربيعة عند التَّناضب، وحُبس عنا هشام، وفُتن فافتتن(١١٥).

فلما قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف بقباء، وخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام إلى عيَّاش بن أبي ربيعة، وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما، حتى قدما علينا المدينة، ورسول الله (ﷺ) بمكة، فكلَّماه وقالا: إن أمك قد نذرت ألا يمسَّ رأسها مُشطٌ حتى تراك، ولا تستظلَّ من شمس حتى تراك، فرقَّ لها، فقلت له: عياش، إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك، فاحذرهم، فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت.

قال: أبرُّ قسم أمي، ولي هناك مال فآخذه.

---

(١٠٨) انظر: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنّة، د. محمد أبو شهبة (١/ ٤٦١).
(١٠٩) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٣/ ١٢٨).
(١١٠) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٠٤).
(١١١) انظر: في السيرة النبوية ص١٣٢.
(١١٢) التناضب: جمع تنضيب وهو شجر.
(١١٣) الأضاة: على عشرة أميال من مكة.
(١١٤) سرف: وادي متوسط الطول من أودية مكة.
(١١٥) انظر: الهجرة النبوية المباركة ص١٢٩.

قال: فقلت: والله إنك لتعلم أني لمن أكثر قريش مالاً، فلك نصف مالي ولا تذهب معهما. قال: فأبى عليَّ إلا أن يخرج معهما، فلما أبى إلا ذلك، قال: قلت له: أما إذ قد فعلت ما فعلت، فخذ ناقتي هذه، فإنها ناقة نجيبة ذلول[116]، فالزم ظهرها، فإن رابك من القوم ريب فانج عليها فخرج عليهما معهما، حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل: يا أخي، والله لقد استغلظت بعيري هذا، أفلا تُعقبني[117] على ناقتك هذه؟ قال: بلى. قال: فأناخ، وأناخ، ليتحول عليها، فلما استووا بالأرض عدوا عليه، فأوثقاه، ثم دخلا به مكة، وفتناه فافتتن[118].

قال: فكنا نقول: ما الله بقابل ممن افتتن صرفًا ولا عدلاً ولا توبة، قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم قال: وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم فلما قدم رسول الله (ﷺ) المدينة أنزل الله (تعالى) فيهم وفي قولنا وقولهم لأنفسهم: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ * وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ (سورة الزمر، الآيات: ٥٣-٥٥).

قال عمر بن الخطاب: فكتبتها بيدي في صحيفة، وبعثت بها إلى هشام بن العاص قال: فقال هشام: فلّما أتتني جعلت أقرؤها بذي طوى[119] أصَعِّد بها فيه، وأصَوِّب، ولا أفهمها، حتى قلت: اللهمَّ فهِّمنيها، قال: فألقى الله (تعالى) في قلبي أنها إنما أنزلت فينا، وفيما كنا نقول في أنفسنا ويقال فينا. قال: فرجعت إلى بعيري فجلست عليه، فلحقت برسول الله (ﷺ)، وهو بالمدينة[120].

هذه الحادثة تظهر لنا كيف أعد عمر رضي الله عنه خطة الهجرة له، ولصاحبيه عياش ابن أبي ربيعة وهشام بن العاص بن وائل السهمي، وكان ثلاثتهم كل واحد من قبيلة، وكان مكان اللقاء الذي اتعدوا فيه بعيدًا عن مكة وخارج الحرم على طريق المدينة، ولقد تحدد الزمان والمكان بالضبط بحيث إنه إذا تخلف أحدهم فليمض صاحباه ولا ينتظرانه، لأنه قد حبس، وكما توقعوا، فقد حبس هشام بن العاص رضي الله عنه بينما مضى عمر وعيّاش بهجرتهما ونجحت الخطة كاملة ووصلا المدينة سالمين[121].

إلا أن قريشًا صممت على متابعة المهاجرين ولذلك أعدت خطة محكمة قام بتنفيذها أبو

---

(١١٦) الذلول: أذلها العمل، فصارت سهلة الركوب والانقياد.

(١١٧) تُعقبني: تجعلني أعقبك عليها لركوبها.

(١١٨) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/٢٠٥).

(١١٩) ذو طوى: واد من أودية مكة.

(١٢٠) المجمع للهيثمي (٦/٦١)، الهجرة النبوية المباركة ص١٣١.

(١٢١) انظر: التربية القيادية (٢/١٥٩).

جهل، والحارث وهما أخوة عياش من أمه، الأمر الذي جعل عياشًا يطمئن لهما، وبخاصة إذا كان الأمر يتعلق بأمه، فاختلق أبو جهل هذه الحيلة لعلمه بمدى شفقة ورحمة عياش بأمه، والذي ظهر جليًا عندما أظهر موافقته على العودة معهم، كما تظهر الحادثة الحس الأمني الرفيع الذي كان يتمتع به عمر رضي الله عنه، حيث صدقت فراسته في أمر الاختطاف(١٢٢).

كما يظهر المستوى العظيم من الأخوة التي بناها الإسلام في هذه النفوس، فعمر يضحي بنصف ماله حرصًا على سلامة أخيه، وخوفًا عليه من أن يفتنه المشركون بعد عودته، ولكن غلبت عياش عاطفته نحو أمه، وبره بها؛ ولذلك قرر أن يمضي لمكة فيبر قسم أمه ويأتي بماله هناك، وتأبى عليه عفته أن يأخذ نصف مال أخيه عمر رضي الله عنه وماله قائم في مكة لم يمس، غير أن أفق عمر رضي الله عنه كان أبعد، فكأنه يرى رأي العين المصير المشؤوم الذي سينزل بعياش لو عاد إلى مكة، وحين عجز عن إقناعه أعطاه ناقته الذلول النجيبة، وحدث لعياش ما توقعه عمر من غدر المشركين به(١٢٣).

وساد في الصف المسلم أن الله (تعالى) لا يقبل صرفًا ولا عدلاً من هؤلاء الذين فتنوا فافتتنوا وتعايشوا مع المجتمع الجاهلي، فنزل قول الله (تعالى): ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ**﴾ . . . وما إن نزلت هذه الآيات حتى سارع الفاروق رضي الله عنه فبعث بهذه الآية إلى أخيه الحميم عياش وهشام ليجددا محاولاتهما في مغادرة معسكر الكفر، أي سمو عظيم عند ابن الخطاب رضي الله عنه. لقد حاول مع أخيه عياش، أعطاه نصف ماله على ألا يغادر المدينة، وأعطاه ناقته ليفر عليها، ومع هذا كله، فلم يشمت بأخيه، ولم يتشفَّ منه لأنه خالفه، ورفض نصيحته، وألقى برأيه خلف ظهره، إنما كان شعور الحب والوفاء لأخيه هو الذي يسيطر عليه، فما أن نزلت الآية حتى سارع ببعثها إلى أخويه من مكة لكل المستضعفين هناك ليقوموا بمحاولات جديدة للانضمام إلى المعسكر الإسلامي(١٢٤).

٣- أسلوب الحبس:

لجأت قريش إلى الحبس، كأسلوب لمنع الهجرة، فكل من تقبض عليه وهو يحاول الهجرة، كانت تقوم بحبسه داخل أحد البيوت، مع وضع يديه ورجليه في القيد، وتفرض عليه رقابة وحراسة مشددة، حتى لا يتمكن من الهرب، وأحيانًا يكون الحبس داخل حائط بدون سقف، كما فعل مع عياش وهشام بن العاص، رضي الله عنهما، حيث كانا محبوسين في بيت لا سقف له(١٢٥). وذلك زيادة في التعذيب، إذ يضاف إلى وحشة الحبس حرارة

---

(١٢٢) انظر: في السيرة النبوية ص١٣٤ .
(١٢٣) انظر: التربية القيادية (٢/ ١٦٠) .
(١٢٤) انظر: التربية القيادية (٢/ ١٦٠) .
(١٢٥) انظر: في السيرة النبوية ص١٣٢ .

الشمس وسط بيئة جبلية شديدة الحرارة مثل مكة.

فقيادة قريش تريد بذلك تحقيق هدفين: أولهما منع المحبوسين من الهجرة، والآخر أن يكون هذا الحبس درسًا وعظة لكل من يحاول الهجرة من أولئك الذين يفكرون بها ممن بقي من المسلمين بمكة، ولكن لم يمنع هذا الأسلوب المسلمين من الخروج إلى المدينة المنورة، فقد كان بعض المسلمين محبوسين في مكة مثل عياش، وهشام رضي الله عنهما، ولكنهم تمكنوا من الخروج واستقروا بالمدينة(١٢٦).

كان النبي (ﷺ) بعد هجرته يقنت ويدعو للمستضعفين في مكة عامة ولبعضهم بأسمائهم خاصة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي (ﷺ) كان إذا رفع رأسه من الركعة الأخيرة يقول: «**اللهم أنج عيّاش بن أبي ربيعة، اللهم أنج سلمة بن هشام، اللهم أنج الوليد ابن الوليد، اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين، اللهم أشدد وطأتك على مضر، اللهم اجعلها سنين كسني يوسف**»(١٢٧).

ولم يترك المسلمون أمر اختطاف عياش، فقد ندب الرسول (ﷺ) أحد أصحابه وفعلاً استعد للمهمة ورتب لها ما يحقق نجاحها، وجاء إلى مكة واستطاع بكل اقتدار وذكاء أن يصل إلى البيت الذي حُبسا فيه وأطلق سراحهما ورجع بهما إلى المدينة المنورة(١٢٨).

٤- أسلوب التجريد من المال:

كان صهيب بن سنان النَّمري من النِّمر بن قاسط أغارت عليهم الروم، فسُبي وهو صغير، وأخذ لسان أولئك الذي سَبَوْه، ثم تقلَّب في الرِّق، حتى ابتاعه عبد الله بن جدعان ثم اعتقه، ودخل الإسلام هو وعمار بن ياسر رضي الله عنهما في يوم واحد(١٢٩).

وكانت هجرة صهيب رضي الله عنه عملاً تتجلى فيه روعة الإيمان، وعظمة التجرد لله، حيث ضحّى بكل ما يملك في سبيل الله ورسوله واللحوق بكتيبة التوحيد والإيمان(١٣٠)، فعن أبي عثمان النهدي رحمه الله قال: (بلغني أن صهيبًا حين أراد الهجرة إلى المدينة قال له أهل مكة: أتيتنا ها هنا صُعْلُوكًا(١٣١)، حقيرًا، فكثر مالك عندنا، وبلغت ما بلغتَ، ثم تنطلق بنفسك ومالك؟ والله لا يكون ذلك. فقال: أرأيتم إن تركت مالي تخلون أنتم سبيلي؟ قالوا: نعم، فجعل لهم ماله أجمع فبلغ ذلك النبي (ﷺ) فقال: «**ربح صهيب، ربح صهيب**»(١٣٢)، وعن عكرمة رحمه الله قال: (لما خرج صهيب مهاجرًا تبعه أهل مكة،

---

(١٢٦) نفس المصدر ص١٣٢

(١٢٧) البخاري ، باب الاستسقاء (٢/ ٣٣) رقم ١٠٠٦ .

(١٢٨) انظر: في السيرة النبوية ص١٣٥ .

(١٢٩) انظر: الهجرة النبوية المباركة ص١١٩ .

(١٣٠) نفس المصدر ص١٢٠ .

(١٣١) الصعلوك: الفقير .

(١٣٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٤٧٧) .

فنشل[١٣٣] كنانته، فأخرج منها أربعين سهمًا، فقال: لا تصلون إليَّ حتى أضع في كل رجل منكم سهمًا، ثم أصير بعد إلى السيف فتعلمون أني رجل، وقد خلَّفت بمكة قينتين، فهما لكم)[١٣٤]، وقال عكرمة: ونزلت على النبي (ﷺ): ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (سورة البقرة، الآية: ٢٠٧). فلما رآه النبي (ﷺ) قال: «أبا يحيى، ربح البيع» قال: وتلا عليه[١٣٥] الآية.

لكأني[١٣٦] بصهيب رضي الله عنه يقدم الدليل القاطع على فساد عقل أولئك الماديين، الذين يزنون حركات التاريخ وأحداثه كلها بميزان المادة، فأين هي المادة التي سوف يكسبها صهيب في هجرته والتي ضحى من أجلها بكل ما يملك؟

هل تراه ينتظر أن يعطيه محمد (ﷺ) منصبًا يعوِّضه عما فقده؟ أم هل ترى محمدًا (ﷺ) يُمنِّيه بالعيش الفاخر في جوار أهل يثرب؟

إن صهيب ما فعل ذلك، وما انحاز إلى الفئة المؤمنة إلا ابتغاء مرضاة الله بالغًا ما بلغ الثمن، ليضرب لشباب الإسلام مثلاً في التضحية عزيزة المنال، عساهم يسيرون على الدرب، ويقتفون الأثر[١٣٧].

إن هذه المواقف الرائعة لم تكن هي كلَّ مواقف العظمة والشموخ في الهجرة المباركة، بل امتلأ هذا الحدث العظيم بكثير من مشاهد العظمة والتجرد والتضحية التي تعطي الأمة دروسًا بليغة في بناء المجد وتحصيل العزة[١٣٨].

خامسًا: البيوتات الحاضنة وأثرها في النفوس:

لقد كان من نتائج إيمان الأنصار ومبايعتهم وتعهدهم بالنصرة أن دعا رسول الله (ﷺ) المسلمين إلى الهجرة إلى المدينة، كما كان من نتائج ذلك أن ظهرت ظاهرة عظيمة من التكافل بين المسلمين، ففتحت بيوت الأنصار أبوابها وقلوب أصحابها لوفود المهاجرين، واستعدت لاحتضانهم - رجالاً ونساءً- إذ أصبح المسكن الواحد يضمّ المهاجر والأنصاري والمهاجرة والأنصارية، يتقاسمون المال والمكان والطعام والمسؤولية الإسلامية، فمن هذه البيوتات الحاضنة:

١- دار مبشّر بن عبد المنذر بن زنبر بقباء، ونزل بها مجموعة من المهاجرين نساء ورجالاً، وقد ضمت هذه الدور عمر بن الخطاب ومن لحق به من أهله وقومه وابنته حفصة

---

(١٣٣) نشل: استخرج ما فيها من النبل والسهام.

(١٣٤) مرسل أخرجه الحاكم (٣/٣٩٨).

(١٣٥) أخرجه الحاكم (٣/٣٩٨) صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وسكت عليه الذهبي.

(١٣٦) انظر: الهجرة النبوية المباركة، د. عبد الرحمن البر ص١٢١.

(١٣٧) نفس المصدر ص١٢١.

(١٣٨) انظر: الهجرة النبوية المباركة ص١١٩.

وزوجها وعيّاش بن ربيعة.

٢- دار خُبيب بن أساف أخي بني الحارث بن الخزرج بالسنح[١٣٩]، نزل بها طلحة بن عبيد الله بن عثمان وأمه وصهيب بن سنان.

٣- دار أسعد بن زرارة من بني النّجار، قيل: نزل بها حمزة بن عبد المطلب.

٤- دار سعد بن خيثمة أخي بني النجار وكان يسمّى بيت العزاب، ونزل بها الأعزب من المهاجرين.

٥- دار عبد الله بن سلمة أخي بني عجلان بقباء، نزل بها عبيدة بن الحارث وأمّه سخيلة، ومصبح بن أثاثة بن عبّاد بن المطلب، والطفيل بن الحارث، وطليل بن عمير، والحصين بن الحارثي نزلوا جميعًا على عبد الله بن سلمة بقباء.

٦- دار بني جحجبي والمحتضن هو منذر بن محمد بن عقبة، نزل عنده الزبير بن العوام، وزوجه أسماء بنت أبي بكر، وأبو سبرة بن أبي وهب وزوجته أم كلثوم بنت صهيب[١٤٠].

٧- دار بني عبد الأشهل والمحتضن هو سعد بن معاذ بن النعمان من بني عبد الأشهل، نزل بها مصعب بن عمير وزوجته حمنة بنت جحش.

٨- دار بني النجار والمحتضن هو أوس بن ثابت بن المنذر نزل بها عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله (ﷺ)[١٤١].

فهذه المقاسمة وهذا التكافل الإجتماعي كان من أهم العناصر التي مهدت لإقامة رسول الله (ﷺ) وصحابته المهاجرين معه وبعده إقامة طيبة تنبض بالأثرة على النفس وودّ الأخوة الصادقة المؤمنة[١٤٢].

بهذه الروح العالية والإيمان الوثيق والصدق في المعاملة تمت المؤاخاة وتم الوفاق بين المهاجرين والأنصار. وقد يحدث تساؤلاً فيقال: لماذا لم نسمع ولم تسجل المصادر ولم تكتب المراجع أن خلافات وقعت في هذه البيوت؟ وأين النساء وما اشتهرن به من مشاكسات؟.

إنه الدين الحق الذي جعل تقوىالله أساسًا لتصرف كل نفس والأخلاق السامية التي فرضت الأخوة بين المسلمين ونصرة الدعوة، إنها المبايعة وأثرها في النفوس، إنه الصدق، والعمل من أجل المجموعة، خوفًا من العقاب ورهبة من اليوم الآخر، ورغبة في الثواب، وطمعًا في الجنة، إنه دفء حضانة الإيمان واستقامة النفس والسلوك وصدق الطوية، .. فكل من أسلم وكل من بايع وكل من أسلمت وبايعت يعملون جميعهم بما يؤمرون به ويخلصون فيما

(١٣٩) المرأة في العهد النبوي ص١١٦ .

(١٤٠) انظر: المرأة في العهد النبوي ص١١٧ .

(١٤١) انظر: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنّة لأبي شهبة (١/٤٦٨ ، ٤٦٩) .

(١٤٢) انظر: المرأة في العهد النبوي ص١١٨ .

يقولون، يخافون الله في السر والعلن، آمنت نفوسهم فاحتضنت المهاجرة المناصرة فالكل يعمل من أجل مصلحة الكل، فهذا هو التكافل الاجتماعي في أجلى صورة، وأقدس واقعة رغّب الكل في الثواب حتى أن الواحد منهم يخاف ذهاب المناصر بالأجر كله(١٤٣).

إن جانب البذل والعطاء ظاهرة نحن بحاجة إلى الإشارة إليها في كل وقت، إننا في عالمنا المعاصر، وفي الصف الإسلامي وفي رحلة لبضعة أيام تتكشف النفوس والعيوب والحزازات والظنون، وهذا مجتمع يبنى ولمّا يصل رسول الله بعد، ومع ذلك تفتح البيوت للوافدين الجدد ليس على مستوى فرد فقط، بل على مستوى جماعي كذلك، ويقيم المهاجرون في بيوت الأنصار أشهرًا عدة، والمعايشة اليومية مستمرة، والأنصار يبذلون المال والحب والخدمات لإخوانهم القادمين إليهم، نحن أمام مجتمع إسلامي بلغ الذروة في لحمته وانصهاره ،ولم يكن المهاجرون إلا القدوة للأنصار بالبذل والعطاء، فلم يكونوا أصلاً فقراء، بل كانوا يملكون المال، ويملكون الدار وتركوا ذلك كله ابتغاء مرضات الله، وبذلوه كله لطاعته جل وعلا، فكانوا كما وصفهم القرآن الكريم: ﴿**لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾ (سورة الحشر، الآية:٨).

كان هذا المجتمع المدني الجديد يتربى على معاني الإيمان والتقوى ولم يصل النبي (ﷺ) بعد، ولكن تحت إشراف النقباء الإثنى عشر الذين كانوا في كفالتهم لقومهم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، وبإشراف قيادات المهاجرين الكبرى التي وصلت المدينة والذين استقوا جميعًا من النبع النبوي الثر، واقتبسوا من هديه(١٤٤).

ومن معالم هذا المجتمع الجديد ذوبان العصبية، فقد كان إمام المسلمين سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنه، لأنه كان أكثرهم قرآنًا، فهذا المجتمع الذي يوجد فيه علية أصحاب محمد (ﷺ) من المهاجرين والأنصار وسادة العرب من قريش والأوس والخزرج يقوده ويؤمه حامل القرآن، فالكرامة العليا فيه لقارئ كتاب الله وحامله، وحامل القرآن في المجتمع الإسلامي هو نفسه حامل اللواء في الحرب، فليس بينهما ذلك الانفصام الذي نشهده اليوم من حملة القرآن من الحفاظ، وبين المجاهدين في سبيل الله، فقد كان حامل لواء المهاجرين في معركة اليمامة سالم مولى أبي حذيفة وكان شعاره بئس حامل القرآن - يعني إن فررت - فقطعت يمينه، فأخذ اللواء بيساره، فقطعت، فاعتنقه إلى أن صرع واستشهد في سبيل الله(١٤٥).

ومن معالم المجتمع الإسلامي الجديد: حرية الدعوة إلى الله علانية، فقد أصبح واضحًا عند الجميع أن معظم قيادات يثرب دخلت في هذا الدين، ونشط الشباب والنساء والرجال

(١٤٣) انظر: المرأة في العهد النبوي ص١٣٢ .
(١٤٤) انظر: التربية القيادية (٢/ ١٧١ ، ١٧٢) .
(١٤٥) نفس المصدر (١/ ١٧٤ ، ١٧٥) .

في الدعوة إلى الله، والتبشير بقدوم رسول الله (ﷺ) على قدم وساق.

ولا بد من المقارنة بين المجتمع الذي قام بالحبشة من المسلمين، وبين المجتمع الإسلامي في يثرب، لقد كانت الحبشة تحمل طابع اللجوء السياسي، والجالية الأجنبية، أكثر مما كانت تحمل طابع المجتمع الإسلامي الكامل، صحيح أن المسلمين ملكوا حرية العبادة هناك، لكنهم معزولون عن المجتمع النصراني، لم يستطيعوا أن يؤثروا فيه التأثير المنشود، وإن كانت هجرة الحبشة خطوة متقدمة على جو مكة، حيث لا تتوفر حرية الدعوة وحرية العبادة، ولكنه دون المجتمع الإسلامي في المدينة بكثير، ولذلك شرع مهاجري الحبشة بمجرد سماع خبر هجرة المدينة بالتوجه نحوها مباشرة أو عن طريق مكة ،إلا من طلبت منه القيادة العليا البقاء هناك، لقد أصبحت المدينة مسلمة بعد أن عاشت قرونًا وثنية مشركة.

لقد أصبح المجتمع المدني مسلمًا وبدأ نموه وتكوينه الفعلي بعد عودة الاثنى عشر صحابيًا في البيعة الأولى، والتي كان على رأسها الصحابي الجليل أسعد بن زرارة والتي حملت المسؤولية الدعوية فقط، دون الوجود السياسي، وبلغ أوج توسعه وبنائه بعد عودة السبعين الذين ملكوا الشارع السياسي والاجتماعي وقرروا أن تكون بلدهم عاصمة المسلمين الأولى في الأرض، وهم على استعداد أن يواجهوا كل عدو خارجي يمكن أن ينال من هذه السيادة حتى قبل قدوم رسول الله (ﷺ) إليهم في المدينة.

إن القاعدة الصلبة التي بذل رسول الله (ﷺ) وقتًا وجهدًا في تربيتها بدأت تعطي ثمارها أكثر بعد أن التحمت بالمجتمع المدني الجديد وانصهر كلاهما في معاني العقيدة وأخوة الدين.

لقد أعد رسول الله (ﷺ) الأفراد وصقلهم في بوتقة الجماعة وكوّن بهم القاعدة الصلبة، ولم يقم المجتمع الإسلامي الذي تقوم عليه الدولة إلا بعد بيعة الحرب وبذلك نقول: بأن المجتمع الإسلامي قام بعدما تهيأت القوة المناسبة لحمايته في الأرض[١٤٦].

وهكذا انتقلت الجماعة المسلمة المنظمة القوية إلى المدينة والتحمت مع إخوانها الأنصار، وتشكل المجتمع المسلم الذي أصبح ينتظر قائده الأعلى عليه الصلاة والسلام ليعلن ولادة دولة الإسلام التي صنعت فيما بعد حضارة لم يعرف التاريخ مثلها حتى يومنا هذا.

سادسًا: لماذا اختيرت المدينة كعاصمة للدولة الإسلامية؟

كان من حكمة الله (تعالى) في اختيار المدينة، دارًا للهجرة، ومركزًا للدعوة هذا عدا ما أراده الله من إكرام أهلها، أسرار لا يعلمها إلا الله، إنها امتازت بتحصن طبيعي حربي، لا تزاحمها في ذلك مدينة قريبة في الجزيرة، فكانت حرة الوبرة، مطبقة على المدينة من الناحية الغربية وحرة واقم، مطبقة على المدينة من الناحية الشرقية، وكانت المنطقة الشمالية من المدينة، هي الناحية الوحيدة المكشوفة (وهي التي حصنها رسول الله (ﷺ) بالخندق سنة خمس في غزوة الأحزاب) وكانت الجهة الأخرى من أطراف المدينة محاطة بأشجار النخيل

(١٤٦) انظر: التربية القيادية (١/ ١٤٦، ١٤٧).

والزروع الكثيفة، لا يمر منها الجيش إلا في طرق ضيقة لا يتفق فيها النظام العسكري، وترتيب الصفوف.

وكانت خفارات عسكرية صغيرة، كافية بإفساد النظام العسكري ومنعه من التقدم، يقول ابن إسحاق: (كان أحد جانبي المدينة عورة، وسائر جوانبها مشككة بالبنيان والنخيل، لا يتمكن العدو منها)(١٤٧).

ولعل النبي (ﷺ) قد أشار إلى هذه الحكمة الإلهية في اختيار المدينة بقوله لأصحابه قبل الهجرة: «**إني رأيت دار هجرتكم، ذات نخيل بين لابتين وهما الحرتان**»(١٤٨)، فهاجر من هاجر قبل المدينة.

وكان أهل المدينة من الأوس والخزرج أصحاب نخوة وإباء وفروسية وقوة وشكيمة ألفوا الحرية، ولم يخضعوا لأحد، ولم يدفعوا إلى قبيلة أو حكومة إتاوة أو جباية، يقول ابن خلدون: ولم يزل هذان الحيان قد غلبوا على يثرب، وكان الاعتزاز والمنعة تعرف لهم في ذلك، ويدخل في ملتهم من جاورهم من قبائل مضر.

وكان بنو عدي بن النجار أخواله (ﷺ)، فأم عبد المطلب بن هاشم بن عدي بن النجار إحدى نسائهم، فقد تزوج هاشم بسلمى بنت عمرو أحد بني عدي بن النجار، وولدت لهاشم عبد المطلب، وتركه هاشم عندها، حتى صار غلامًا دون المراهقة، وتركه عمه المطلب، فجاء به إلى مكة، وكانت الأرحام يحسب لها حساب كبير في حياة العرب الاجتماعية، ومنهم أبو أيوب الأنصاري الذي نزل رسول الله (ﷺ) في داره في المدينة.

وكان الأوس والخزرج من قحطان، والمهاجرون ومن سبق إلى الإسلام في مكة وما حولها من عدنان ،ولما هاجر رسول الله (ﷺ) إلى المدينة، وقام الأنصار بنصره اجتمعت بذلك عدنان وقحطان تحت لواء الإسلام، وكانوا كجسد واحد، وكانت بينهما مفاضلة ومسابقة في الجاهلية، وبذلك لم يجد الشيطان سبيلاً إلى قلوبهم لإثارة الفتنة والتعزي بعزاء الجاهلية باسم الحمية القحطانية أو العدنانية، فكانت لكل ذلك مدينة يثرب أصلح مكان لهجرة الرسول (ﷺ) وأصحابه واتخاذهم لها دارًا وقرارًا، حتى يقوى الإسلام ويشق طريقه إلى الأمام، ويفتح الجزيرة ثم يفتح العالم المتمدن(١٤٩).

سابعًا: من فضائل المدينة:

لقد عظم شرف المدينة المنورة المباركة بهجرة النبي (ﷺ) إليها، حتى فضلت على سائر بقاع الأرض حاشا مكة المكرمة، وفضائلها كثيرة منها:

---

(١٤٧) انظر: السيرة النبوية للندوي ص١٥٧ .
(١٤٨) انظر: الهجرة النبوية المباركة ص٥٢ .
(١٤٩) انظر: الأساس في السنّة (١/ ٣٣٣) .

١- كثرة أسمائها:

إن كثرة الأسماء تدل على شرف المُسمّى ولا توجد بلدة في الدنيا لها من الأسماء مثل ما للمدينة المنورة، إو نصفه، أو حتى ربعه، و قد بلغ العلماء بأسمائها حوالي مائة اسم[١٥٠]، وقد ذكر هذه الأسماء الزركشي في (إعلام الساجد بأحكام المساجد)[١٥١] والمجد الفيروز آبادي صاحب القاموس المحيط[١٥٢]، ونور الدين السمهودي في (وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى)، ومحمد بن يوسف الصالحي في (سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد)[١٥٣].

وأشهر هذه الأسماء:

- يثرب: قال (تعالى): ﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا﴾ (سورة الأحزاب، الآية: ١٣).

وقد ورد النهي عن تسميتها بهذا الاسم، وأما تسميتها في القرآن (يثرب) فذلك حكاية عن قول المنافقين.

- طابة: فعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): **«من سمّى المدينة يثرب فليستغفر الله، فإنما هي طابة»** وفي رواية: **«هي طابة، هي طابة، هي طابة»**[١٥٤].

- **المدينة:** وهذا أشهر أسمائها، وهذا الاسم إذا أطلق أريدت به المدينة المنورة دون غيرها من مدن الدنيا، وقد جاءت الآيات الكثيرة بهذا الإسم، كقوله (تعالى): ﴿مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللّهِ وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة التوبة، الآية: ١٢٠).

وقد وصفت المدينة بالمباركة والمنورة، والمشرّفة، وغير ذلك من الأوصاف الفاضلة[١٥٥].

٢- محبته (ﷺ) لها ودعاؤه برفع الوباء عنها:

دعا النبي (ﷺ) ربه قائلاً: **«اللهم حبِّب إلينا المدينة كحبِّنا مكة أو أشد»**[١٥٦]، وعن

(١٥٠) انظر: الهجرة النبوية المباركة ص١٥٥ . هذا الكتاب هو المرجع الأساسي في فضائل المدينة .
(١٥١) نفس المصدر ص١٥٥ .
(١٥٢) ذكر السخاوي له في الضوء اللامع (١/ ٧٩:٨٦) مؤلفات منها المغانم .
(١٥٣) الطابة في معالم طابة .
(١٥٤) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٥) وضعفه الشوكاني في فتح القدير (٤/ ٢٦٨) .
(١٥٥) انظر: الهجرة النبوية المباركة ص١٥٦ .
(١٥٦) نفس المصدر ص١٥٧ .

أنس رضي الله عنه: (أن النبي (ﷺ) كان إذا قدم من سفر، فنظر إلى جُدُران المدينة[١٥٧]، أوضع راحلته[١٥٨]، وإن كان على دابة حرَّكها من حبِّها)[١٥٩].

٣- دعاء النبي (ﷺ) لها بضعفي ما في مكة من البركة:

فعن أنس رضي الله عنه عن النبي (ﷺ) قال: **«اللهم اجعل بالمدينة ضعْفي ما جعلت بمكة من البركة»**[١٦٠]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (كان الناس إذا رأوا أوّل الثمر جاؤوا به إلى النبي (ﷺ)، فإذا أخذه رسول الله (ﷺ) قال: **«اللهم بارك لنا في ثمرنا، وبارك لنا في مدينتنا وبارك لنا في صاعنا، وبارك لنا في مدنا، اللهم إن إبراهيم عبدُك وخليلُك ونبيك وإني عبدك ونبيك، وإنه دعاك لمكة، وإني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه»** قال: ثم يدعو أصغر وليد له فيعطيه ذلك الثمر[١٦١].

٤- عصمتها من الدّجال والطاعون ببركته (ﷺ):

إن الله (تعالى) قيَّض لها ملائكة يحرسونها، فلا يستطيع الدجال إليها سبيلا، بل يلقى إليه بإخوانه من الكفار والمنافقين، كما أن من لوازم دعاء النبي (ﷺ) بالصحة ورفع الوباء ألا ينزل بها الطاعون، كما أخبر بذلك المعصوم[١٦٢] (ﷺ).

٥- فضيلة الصبر على شدّتها:

فقد وعد النبي (ﷺ) من صبر على شدة المدينة وضيق عيشها بالشفاعة يوم القيامة[١٦٣]، فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال رسول الله (ﷺ): **«المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون لا يدعها أحد رغبة عنها إلا أبدل الله فيها من هو خير منه، ولا يثبت أحد على لأوائها[١٦٤] وجَهْدها إلا كنت له شفيعًا أو شهيدًا يوم القيامة»**[١٦٥].

٦- فضيلة الموت فيها:

فعن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): **«من استطاع أن يموت بالمدينة فليَمت بها، فإني أشفع لمن يموت بها»**[١٦٦]، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يدعو بهذا الدعاء: (اللهم ارزقني شهادة في سبيلك، واجعل موتي في بلد رسولك (ﷺ))[١٦٧].

(١٥٧) جُدران: جمع جدار وهو الحائط.
(١٥٨) أوضع راحلته: حثها على السرعة.
(١٥٩) البخاري، كتاب العمرة، باب من أسرع ناقته (٣/ ٦٢٠) رقم ١٨٠٢.
(١٦٠) البخاري، كتاب فضائل المدينة (٤/ ٩٧) رقم ١٨٨٥.
(١٦١) مسلم، كتاب الحج، باب فضل المدينة (٢/ ١٠٠٠).
(١٦٢) انظر: الهجرة النبوية المباركة ص١٥٨.
(١٦٣) انظر: الهجرة النبوية المباركة ص١٦٠.
(١٦٤) اللأواء: الشدة وضيق العيش.
(١٦٥) مسلم، كتاب الحج، باب فضل المدينة (٢/ ٩٩٢) رقم ١٣٦٣.
(١٦٦) أخرجه أحمد (٢/ ٧٤، ١٠٤) بإسناد صحيح، وصححه ابن حبان رقم ٣٧٤١.
(١٦٧) البخاري، كتاب فضائل المدينة، (٤/ ١٠٠) رقم ١٨٩٠.

وقد استجاب الله للفاروق رضي الله عنه فاستشهد في محراب رسول الله (ﷺ) وهو يؤم المسلمين في صلاة الفجر.

٧- هي كهف الإيمان وتنفي الخبث عنها:

فالإيمان يلجأ إليها مهما ضاقت به البلاد، والأخباث والأشرار لا مقام لهم فيها ولا استقرار، ولا يخرج منها أحد رغبة عنها إلا أبدلها الله خيرًا منه من المؤمنين الصادقين[١٦٨]، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): «**إن الإيمان ليأرز[١٦٩] إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها**»[١٧٠]، وقال (ﷺ): «... **والذي نفسي بيده لا يخرج منها أحد رغبة عنها إلا أخلف الله فيها خيرًا منه، ألا إن المدينة كالكير، تخرج الخبث لا تقوم الساعة حتى تنفي المدينة شرارها كما ينفي الكيرُ خَبَثَ الحديد**»[١٧١].

٨- تنفي الذنوب والأوزار:

عن زيد بن ثابت رضي الله عنها قال رسول الله (ﷺ): «**إنها - أي المدينة - طيبة تنفي الذنوب[١٧٢]، كما تنفي النار خبث الفضة**»[١٧٣].

٩- حفظ الله إياها ممن يريدها بسوء:

فقد تكفل الله بحفظها من كل قاصد إياها بسوء، وتوعد النبي (ﷺ) من أحدث فيها حدثًا، أو آوى فيها مُحدثًا، أو أخاف أهلها، بلعنة الله وعذابه، وبالهلاك العاجل[١٧٤]، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): «**لا يكيد أهل المدينة أحد إلا انماع[١٧٥]، كما ينماع الملح في الماء**»[١٧٦]، وقال (ﷺ): «**المدينة حرم، فمن أحدث فيها حدثًا[١٧٧] أو آوى محدثًا[١٧٨]، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يُقْبَلُ منه يوم القيامة عَدْلٌ، ولا صَرْفٌ**»[١٧٩].

---

(١٦٨) انظر: الهجرة النبوية المباركة ص١٦١.

(١٦٩) يأرز: ينضم ويجتمع. انظر: فتح الباري (٤/ ٩٣).

(١٧٠) البخاري، كتاب فضائل المدينة (٤/ ٩٣) رقم ١٨٧٦.

(١٧١) مسلم، كتاب الحج، باب المدينة تنفي شرارها (٢/ ١٠٠٥) رقم ١٣٨١.

(١٧٢) في رواية (تنفي الخبث) وفي رواية (تنفي الرجال).

(١٧٣) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة أحد (٧/ ٣٥٦) رقم ٤٠٥٠.

(١٧٤) انظر: الهجرة النبوية المباركة ص١٦٢.

(١٧٥) انماع: ذاب وسال.

(١٧٦) البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب إثم من كاد أهل المدينة (٤/ ٩٤) رقم ١٨٧٧.

(١٧٧) الحدث: الأمر المنكر الذي ليس بمعروف في السنّة.

(١٧٨) مسلم، كتاب الحج، باب فضل المدينة (٢/ ٩٩٩) رقم ١٣٧١.

(١٧٩) انظر: الهجرة النبوية المباركة ص١٦٤.

١٠- تحريمها:

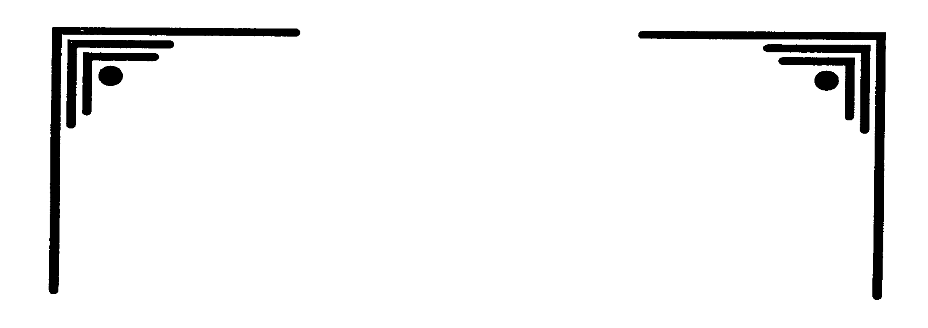
فقد حرّمها النبي (ﷺ) بوحي من الله، فلا يُراق فيها دم، ولا يُحمل فيها سلاح، ولا يروع فيها أحد، ولا يقطع فيها شجر، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد وغير ذلك ما يدخل في[180] تحريمها قال (ﷺ): «**إن إبراهيم حرّم مكة ودعا لأهلها، وإني حرمت المدينة كما حرّم إبراهيم مكة، وإني دعوت لها في صاعها ومدها بمثلي ما دعا به إبراهيم لأهل مكة**»[181].

وقال (ﷺ): «**هذا جبل يحبنا ونحبه. اللهم إن إبراهيم حرّم مكة، وإني أحرّم ما بين لابتيها**» يعني المدينة، وقال (ﷺ): «**لا يُختلى خلالها[182]، ولا ينفّر صيدها[183]، ولا تحل لقطتها إلا لمن أشادها[184]، ولا يصلح لرجل أن يحمل فيها السلاح لقتال، ولا يصلح أن يقطع منها شجر إلا أن يعلف رجل بعيره**»[185].

إن هذه الفضائل العظيمة جعلت الصحابة يتعلقون بها، ويحرصون على الهجرة إليها، والمقام فيها، وبذلك تجمعت طاقات الأمة فيها ثم توجهت نحو القضاء على الشرك بأنواعه، والكفر بأشكاله وفتحوا مشارق الأرض ومغاربها.

• • •

(١٨٠) البخاري ، كتاب البيوع ، باب بركة صاع النبي ومده (٤/ ٣٤٦) رقم ٢١٢٩ .
(١٨١) البخاري ، كتاب المغازي ، باب أحد جبل يحبنا ونحبه (٧/ ٣٧٧) رقم ٤٨٤ .
(١٨٢) لا يَختَلى خَلاَهَا: لا يُجز ولا يقطع الحشيش الرطب فيها .
(١٨٣) لا ينفَّر صيدُها: لا يُزجر ويمنع من الرعي .
(١٨٤) أشادها : أشاعها ، والإشادة: رفع الصوت ، والمراد تعريف اللقطة .
(١٨٥) أخرجه أحمد (١/ ١١٩) .



الفصل السادس

هجرة النبي (ﷺ) وصاحبه الصديق رضي الله عنه



المبحث الأول

فشل خطة المشركين والترتيب النبوي الرفيع للهجرة

أولاً: فشل خطة المشركين لاغتيال النبي (ﷺ):

بعد أن منيت قريش بالفشل في منع الصحابة رضي الله عنهم من الهجرة إلى المدينة على الرغم من أساليبهم الشنيعة والقبيحة ،فقد أدركت قريش خطورة الموقف، وخافوا على مصالحهم الاقتصادية، وكيانهم الاجتماعي القائم بين قبائل العرب، لذلك اجتمعت قيادة قريش في دار الندوة للتشاور في أمر القضاء على قائد الدعوة، وقد تحدث ابن عباس في تفسيره لقول الله (تعالى): ﴿ **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** ﴾ (سورة الأنفال، الآية: ٣٠) فقال: فتشاورت قريش بمكة فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوثائق يريدون النبي (ﷺ)، وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: أن أخرجوه، فأطلع الله نبيه على ذلك فبات علي على فراش النبي (ﷺ) تلك الليلة[١]، وخرج النبي (ﷺ) ،فلما أصبحوا ثاروا إليه فلما رأوا عليًا رد الله مكرهم، فقالوا: أين صاحبك هذا؟ قال: لا أدري، فاقتفوا أثره فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم الأمر، فصعدوا الجبل فمروا بالغار فرأوا على بابه نسيج العنكبوت، فقالوا: لو دخل ها هنا لم يكن ينسج العنكبوت على بابه، فمكث فيه ثلاثًا[٢].

قال سيد قطب في تفسيره للآيات التي تتحدث عن مكر المشركين بالنبي (ﷺ): (إنه التذكير بما كان في مكة، قبل تغير الحال، وتبدل الموقف. وإنه ليوحي بالثقة واليقين في المستقبل، كما ينبه إلى تدبير قدر الله وحكمته فيما يقضي به ويأمر.. ولقد كان المسلمون الذين يخاطبون بهذا القرآن أول مرة، يعرفون الحالين معرفة الذي عاش ورأى وذاق وكان يكفي أن يذكروا بهذا الماضي القريب، وما كان فيه من خوف وقلق، في مواجهة الحاضر الواقع وما فيه من أمن وطمأنينة، وما كان من تدبير المشركين ومكرهم برسول الله (ﷺ) في مواجهة ما صار إليه من غلبة عليهم، لا مجرد النجاة منهم.

لقد كانوا يمكرون ليوثقوا رسول الله (ﷺ) ويحبسوه حتى يموت، أو ليقتلوه ويتخلصوا منه، أو ليخرجوه من مكة منفيًا مطرودًا.. ولقد ائتمروا بهذا كله ثم اختاروا قتله، على أن يتولى ذلك المنكر فتية من القبائل جميعًا، ليتفرق دمه في القبائل، ويعجز بنو هاشم عن قتل العرب كلها، فيرضوا بالدية وينتهي الأمر. ﴿**يَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**﴾.

إنها صورة ساخرة، وهي في الوقت ذاته صورة مفزعة.. فأين هؤلاء البشر الضعاف

---

(١) انظر: السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية ص١٣٥ .

(٢) انظر: البداية والنهاية (٣/ ١٨١) ، وابن حجر في الفتح وحسن إسناده ، فتح الباري (٧/ ٢٣٦).

المهازيل، من تلك القدرة القادرة . . قدرة الله الجبار، القاهر فوق عباده، الغالب على أمره، وهو بكل شيء محيط[٣].

ثانيًا: الترتيب النبوي للهجرة:

عن عائشة أم المؤمنين قالت: كان لا يخطئ رسول الله (ﷺ) أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار، إما بكرة، وإما عشية، حتى إذا كان اليوم الذي أذن فيه لرسول الله (ﷺ) في الهجرة، والخروج من مكة من بين ظهري قومه، أتانا رسول الله (ﷺ) بالهاجرة[٤]. في ساعة كان لا يأتي فيها: قالت: فلما رآه أبو بكر، قال: ما جاء رسول الله (ﷺ) هذه الساعة إلا لأمر حدث.

قالت: فلما دخل، تأخر له أبو بكر عن سريره، فجلس رسول الله (ﷺ)، وليس عند أبي بكر إلا أنا وأختي أسماء بنت أبي بكر، فقال رسول الله (ﷺ): «**خرج عني من عندك**» فقال: يا رسول الله، إنما هما ابنتاي، وما ذاك، فداك أبي وأمي! فقال: «**إنه قد أذن لي في الخروج والهجرة**». قالت: فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله؟ قال: «**الصحبة**». قالت: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أحدًا يبكي من الفرح، حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ، ثم قال: يا نبي الله، إن هاتين راحلتان قد كنت أعددتهما لهذا ،فاستأجرا عبد الله بن أرقط رجلاً من بني الديل بن بكر، وكانت أمه امرأة من بني سهم بن عمرو، وكان مشركًا، يدلهما على الطريق، فدفعا إليه راحلتيهما فكانتا عنده يرعاها لميعادهما[٥].

وروى البخاري عن عائشة في حديث طويل وفيه: (. . . قالت عائشة: فبينما نحن يومًا جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة قال قائل لأبي: هذا رسول الله (ﷺ) متقنعًا[٦]، في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر، قالت: فقال رسول الله (ﷺ) لأبي بكر: «**أخرج من عندك**»، فقال أبو بكر: إنّما هم أهلك قال: «**فإني قد أُذنَ لي في الخروج**» فقال أبو بكر: الصحبة بأبي أنت يا رسول الله، قال رسول الله (ﷺ): «**نَعم**»، قال أبو بكر: فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحد راحلتي هاتين، قال رسول الله (ﷺ): «**بالثمن**»، قالت عائشة: فجهزناهما أحسن الجهاز، وصنعنا لهم سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب، فبذلك سميت ذات النطاق، ثم لحق رسول الله (ﷺ) وأبو بكر بغار في جبل ثور، فكمنا[٧] فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام، شاب،

---

(٣) انظر: في ظلال القرآن (٣/١٥٠١).

(٤) الهاجرة: نصف النهار عند زوال الشمس مع الظهر أو إلى العصر.

(٥) انظر: السيرة النبوية لابن كثير (٢/٢٣٣-٢٣٤).

(٦) متقنعًا: مغطيًا رأسه.

(٧) كمنا فيه: أي استترا واستخفيا ومنه الكمين في الحرب، النهاية (٤/٢٠١).

ثقف[٨]، لقن[٩]، فيدلج[١٠] من عندهما بسحر، فيصبح مع قريش بمكة كبائت، فلا يسمع أمرًا يكتادان[١١] به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما حين تذهب ساعة من العشاء فيبتان في رسل -وهو لبن منحتهما ورضيفهما[١٢]- ينعق[١٣] بها عامر بن فهيرة بغلس[١٤] يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث، واستأجر رسول الله (ﷺ) وأبو بكر رجلاً من بني الديل وهو من بني عبد بن عدي هاديًا خريتًا والخريت الماهر قد غمس حلفا[١٥] في آل العاص بن وائل السهمي، وهو على دين كفار قريش، فأمناه فدفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل فأخذ بهم طريق السواحل[١٦].

ثالثا: خروج الرسول (ﷺ) ووصوله إلى الغار:

لم يعلم بخروج رسول الله (ﷺ) أحد حين خرج إلا علي بن أبي طالب، وأبو بكر الصديق وآل أبي بكر.

أما علي فإن رسول الله (ﷺ) أمره أن يتخلف حتى يؤدي عن رسول الله (ﷺ) الودائع التي كانت عنده للناس، وكان رسول الله (ﷺ)، وليس بمكة أحد عنده شيء يخشى إلا وضعه عنده، لما يعلم من صدقه وأمانته[١٧] وكان الميعاد بين الرسول (ﷺ) وأبي بكر رضي الله عنه، فخرجا من خوخة[١٨]، لأبي بكر في ظهر بيته، وذلك للإمعان في الاستخفاء حتى لا تتبعهما قريش، وتمنعهما من تلك الرحلة المباركة، وقد اتعدا مع الليل على أن يلقاهما عبد الله بن أريقط في غار ثور بعد ثلاث ليال[١٩].

رابعًا: دعاء النبي (ﷺ) عند خروجه من مكة:

وقد دعا النبي (ﷺ) عند خروجه من مكة إلى المدينة قائلاً:

«الحمد لله الذي خلقني ولم أك شيئًا، اللهم أعني على هول الدنيا وبوائق الدهر، ومصائب الليالي والأيام.

---

(٨) ثقف: ذو فطنة وذكاء والمراد ثابت المعرفة بما يحتاج إليه، النهاية (١/ ٢١٦).
(٩) لقن: فهم حسن التلقي لما يسمعه، النهاية (٤/ ٢٦٦).
(١٠) يدلج: أدلج إذا سار أول الليل وادّلج بالتشديد إذا سار آخره.
(١١) يكتادان: أي يطلب لهما فيه المكروه وهو من الكيد.
(١٢) الرضيف: اللبن المرضوف، وهو الذي طرح فيه الحجارة المحماة ليذهب وفمه.
(١٣) ينعق: نعق بغنمه، أي صاح بها وزجرها، القاموس المحيط (٣/ ٢٩٥).
(١٤) الغلس: ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح، النهاية (٣/ ٣٧٧).
(١٥) غمس حلفًا: أي أخذ بنصيب من عقدهم وحلفهم يأمن به.
(١٦) البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي رقم ٣٩٠٥.
(١٧) السيرة النبوية لابن كثير (٢/ ٢٣٤).
(١٨) الهجرة في القرآن الكريم ص٣٣٤.
(١٩) خاتم النبيين لأبي زهرة (١/ ٦٥٩)، السيرة النبوية لابن كثير (٢/ ٢٣٤).

اللهم اصحبني في سفري، واخلفني في أهلي، وبارك لي فيما رزقتني، ولك فذللني، وعلى خلقي فقومني وإليك رب فحببني، وإلى الناس فلا تكلني.

رب المستضعفين وأنت ربي، أعوذ بوجهك الكريم الذي أشرقت له السماوات والأرض، وكشفت به الظلمات، وصلح عليه أمر الأولين والآخرين، أن تحل علي غضبك، أو تنزل بي سخطك ،أعوذ بك من زوال نعمتك، وفجأة نقمتك، وتحول عافيتك وجميع سخطك لك العتبى [٢٠] عندي خير ما استطعت لا حول ولا قوة إلا بك»[٢١].

ووقف الرسول (ﷺ) عند خروجه بالحزورة في سوق مكة وقال: «والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت»[٢٢].

ثم انطلق رسول الله (ﷺ) وصاحبه من بطش المشركين، وصرفهم عنهما.

روى الإمام أحمد: (أن المشركين اقتفوا الأثر حتى إذا بلغوا الجبل -جبل ثور- اختلط عليهم، فصعدوا الجبل فمروا بالغار، فرأوا على بابه نسيج العنكبوت. فقالوا: لو دخل ها هنا أحد، لم يكن نسج العنكبوت على بابه)[٢٣] وهذه من جنود الله - عز وجل - التي يخذل بها الباطل وينصر به الحق لأن جنود الله - جلّت قدرته - أعم من أن تكون مادية أو معنوية، وإذا كانت مادية فإن خطرها لا يتمثل في ضخامتها فقد تفتك جرثومة لا تراها العين بجيش ذي لجب، قال (تعالى): ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ (سورة المدثر، الآية: ٣١). أي وما يعلم جنود ربك لفرط كثرتها إلا هو، فجنود الله غير متناهية، لأن مقدوراته غير متناهية[٢٤]، كما أنه لا سبيل لأحد إلى حصر الممكنات والوقوف على حقائقها وصفاتها ولو إجمالاً فضلاً عن الاطلاع على تفاصيل أحوالها من كم وكيف ونسبة[٢٥].

خامساً: عناية الله (سبحانه وتعالى) ورعايته لرسوله (ﷺ):

بالرغم من كل الأسباب التي اتخذها رسول الله (ﷺ) فإنه لم يرتكن إليها مطلقًا، وإنما كان كامل الثقة في الله، عظيم الرجاء في نصره وتأييده، دائم الدعاء بالصيغة التي علمه الله إياها[٢٦]، قال (تعالى): ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل

---

(٢٠) الأصل: العقبى.

(٢١) انظر: السيرة النبوية لابن كثير (٢/ ٢٣٠-٢٣٤).

(٢٢) الترمذي، كتاب المناقب، باب فضل مكة (٥/ ٧٢٢).

(٢٣) مسند الإمام أحمد (١/٣٤٨).

(٢٤) انظر: تفسير الرازي (٣٠/٢٠٨).

(٢٥) تفسير أبي السعود (٩/ ٦٠).

(٢٦) انظر: الهجرة النبوية المباركة ص٧٢.

لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ (سورة الإسراء، الآية: ٨٠).

وفي هذه الآية الكريمة دعاء يعلمه الله لنبيه ليدعوه به، ولتتعلم أمته كيف تدعو الله وكيف تتجه إليه؟ دعاء بصدق المدخل وصدق المخرج، كناية عن صدق الرحلة كلها، بدئها وختامها، أولها وآخرها وما بين الأول والآخر، وللصدق هنا قيمته بمناسبة ما حاوله المشركون من فتنته عما أنزله الله عليه ليفتري على الله غيره. وللصدق كذلك ظلاله: ظلال الثبات والاطمئنان والنظافة والإخلاص، ﴿وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ قوة وهيبة استعلى بهما على سلطان الأرض وقوة المشركين، وكلمة ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ تصور القرب والاتصال بالله والاستمداد من عونه مباشرة واللجوء إلى حماه.

وصاحب الدعوة لا يمكن أن يستمد السلطان إلا من الله، ولا يمكن أن يهاب إلا بسلطان الله، لا يمكن أن يستظل بحاكم أو ذي جاه فينصره ويمنعه ما لم يكن اتجاهه قبل ذلك إلى الله. والدعوة قد تغزو قلوب ذوي السلطان والجاه، فيصبحون لها جندًا وخدمًا فيفلحون، ولكنها هي لا تفلح إن كانت من جند السلطان وخدمه، فهي من أمر الله، وهي أعلى من ذوي السلطان والجاه[٢٧].

وعندما أحاط المشركون بالغار، وأصبح منهم رأي العين طمأن الرسول (ﷺ) الصديق بمعية الله لهما: فعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: قلت للنبي (ﷺ) وأنا في الغار: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا. فقال: **«ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما؟»**.

وفي رواية: **«اسكت يا أبا بكر اثنان الله ثالثهما»**[٢٨].

وسجل الحق عز وجل ذلك في قوله (تعالى): ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة التوبة، الآية: ٤٠).

وقد تحدث الطبري في تفسيره عن هذه الآية الكريمة فقال: هذا إعلام من الله أصحاب رسوله (ﷺ) أنه المتكفل بنصر رسوله على أعداء دينه وإظهاره عليهم دونهم، أعانوه أو لم يعينوه، وتذكير منه لهم فعل ذلك به، وهو من العدد في قلة والعدو في كثرة، فكيف به وهو من العدد في كثرة والعدو في قلة يقول لهم جل ثناؤه: إلا تنفروا أيها المؤمنون مع رسولي إذا استنصركم فتنصروه فالله ناصره إذا أخرجه الذين كفروا بالله من قريش من وطنه وداره ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ قول: أخرجوه وهو أحد الاثنين، وإنما عني جل ثناؤه بقوله: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ رسول الله وأبا بكر رضي الله عنه، لأنهما كانا اللذين خرجا هاربين من قريش إذ هموا بقتل رسول الله (ﷺ) واختفيا في الغار، وقوله: ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ يقول: إذ رسول

---

(٢٧) في ظلال القرآن (٤/ ٢٢٤٧).

(٢٨) البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب المهاجرين رقم ٣٦٥٣.

الله (ﷺ) وأبو بكر رحمة الله عليه في الغار[٢٩] ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾ يقول: إذ يقول الرسول (ﷺ) لصاحبه أبي بكر لا تحزن، وذلك أنه خاف من الطلب أن يعلموا بمكانهما فجزع من ذلك، فقال له رسول الله (ﷺ): لا تحزن لأن الله معنا والله ناصرنا، فلن يعلم المشركون بنا، ولن يصلوا إلينا، يقول جل ثناؤه: فقد نصره على عدوه وهو بهذه الحال من الخوف وقلة العدد، فكيف يخذله ويحوجه إليكم وقد كثر الله من أنصاره وعدد جنوده[٣٠].

وقد تحدث الدكتور عبد الكريم زيدان عن المعية في هذه الآية الكريمة فقال: وهذه المعية الربانية المستفادة من قوله (تعالى): ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ أعلى من معيته للمتقين والمحسنين في قوله (تعالى): ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ لأن المعية هنا هي لذات الرسول وذات صاحبه، غير مقيدة بوصف هو عمل لهما، كوصف التقوى والإحسان بل هي خاصة برسوله وصاحبه مكفولة هذه المعية بالتأييد بالآيات وخوارق العادات[٣١].

وتحدث صاحب الظلال عن هذه الآيات فقال: ذلك حين ضاقت قريش بمحمد ذرعًا، كما تضيق القوة الغاشمة دائمًا بكلمة الحق، لا تملك لها دفعًا، ولا تطيق عليها صبرًا، فائتمرت به وقررت أن تتخلص منه، فأطلعه الله على ما أتتمرت به، وأوحى إليه بالخروج وحيدًا إلا من صاحبه الصديق، لا جيش ولا عدة، وأعداؤه كثر، وقوتهم إلى قوته ظاهرة.

ثم ماذا كانت العاقبة، والقوة المادية كلها من جانب، والرسول (ﷺ) مع صاحبه منها مجرد؟ كان النصر المؤزر من عند الله بجنود لم يرها الناس، وكانت الهزيمة للذين كفروا والذل والصغار ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾. وظلت كلمة الله في مكانها العالي منتصرة قوة نافذة.

ذلك مثل على نصرة الله لرسوله ولكلمته، والله قادر على أن يعيده على أيدي قوم آخرين غير الذين يتثاقلون يتباطؤون. وهو مثل من الواقع إن كانوا في حاجة بعد قول الله إلى دليل[٣٢]!

سادسًا: خيمة أم معبد في طريق الهجرة:

وبعد ثلاث ليال من دخول النبي (ﷺ) في الغار خرج رسول الله (ﷺ) وصاحبه من الغار، وقد هدأ الطلب، ويئس المشركون من الوصول إلى رسول الله، وقد قلنا: إن رسول الله (ﷺ) وأبا بكر قد استأجرا رجلاً من بني الديل يسمى عبد الله بن أريقط وكان مشركًا وقد أمناه فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما، وقد جاءهما فعلاً في الموعد المحدد وسلك بهما طريقًا غير معهودة ليخفي أمرهما عمن يلحق بهم من

(٢٩) الغار: الثقب العظيم يكون في الجبل وقيل شبه البيت في الجبل.
(٣٠) تفسير الطبري (١٠/١٣٥).
(٣١) المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٠٠).
(٣٢) انظر: في ظلال القرآن (٣/١٦٥٦).

كفار قريش[٣٣]، وفي الطريق إلى المدينة مرّ النبي (ﷺ) بأم معبد[٣٤]، في قديد[٣٥]، حيث مساكن خزاعة، وهي أخت حبيش بن خالد الخزاعي الذي روى قصتها، وهي قصة تناقلها الرواة وأصحاب السير، وقال عنها ابن كثير: (وقصتها مشهورة مروية من طرق يشد بعضها بعضًا)[٣٦]، فعن خالد بن حبيش الخزاعي رضي الله عنه، صاحب رسول الله (ﷺ): (أن رسول الله (ﷺ) حين خرج من مكة، وخرج منها مهاجرًا إلى المدينة، هو وأبو بكر رضي الله عنه، ومولى أبي بكر عامر بن فهيرة رضي الله عنه، ودليلهما الليثي عبد الله بن الأريقط، مروا على خيمة أم معبد الخزاعية، وكانت برزة[٣٧] جلدة[٣٨]، تحتبي[٣٩] بفناء القبة، ثم تسقي وتطعم، فسألوها لحمًا وتمرًا؛ ليشتروه منها، فلم يصيبوا عندها شيئًا من ذلك، وكان القوم مُرْمِلين[٤٠] مُسنتين[٤١]، فنظر رسول الله (ﷺ) إلى شاة في كسر الخيمة[٤٢]، فقال: «**ما هذه الشاة يا أم معبد؟**».

قالت: خلفها الجهد عن الغنم.

قال: «**فهل بها من لبن؟**».

قالت: هي أجهد من ذلك.

قال: «**أتأذنين أن أحلبها؟**».

قالت: بلى بأبي أنت وأمي، نعم، إن رأيت بها حَلْبًا فاحلبها.

فدعا بها رسول الله (ﷺ)، فمسح بيده ضرعها، وسمّى الله عز وجل، ودعا لها في شاتها، فتفاجّت[٤٣] عليه، ودرّت[٤٤]، واجترت[٤٥] ودعا بإناء يُرْبض[٤٦] الرهط، فحلب فيها ثجًّا[٤٧]، حتى علاه البهاء[٤٨]، ثم سقاها حتى رَويت، وسقى أصحابه حتى رَووا،

---

(٣٣) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٠١).

(٣٤) هي عاتكة بنت كعب الخزاعية.

(٣٥) وادي قديد يبعد عن الطريق المعبدة حوالي ثمانية كليومترات.

(٣٦) البداية والنهاية (٣/ ١٨٨).

(٣٧) برزة: كلهة كبيرة السن، لا تحتجب احتجاب الشواب.

(٣٨) جلدة: قوية صلبة وقيل: عاقلة.

(٣٩) تحتبي: أي تجلس وتضم يديها إحداهما إلى الأخرى، على ركبتيها، وتلك جلسة الأعراب.

(٤٠) مرملين: نفذ زادهم.

(٤١) مسنتين: أي داخلين في سنة وهي الجدب والمجاعة والقحط.

(٤٢) كسر الخيمة: بفتح الكاف وكسرها، وسكون المهملة: أي جانبها.

(٤٣) تفاجّت: فتحت ما بين رجليها للحلب.

(٤٤) دَرّت: أرسلت اللبن.

(٤٥) واجترت: من الجرّة وهي ما تخرجها البهيمة من كرشها تمضغها.

(٤٦) يربض: يرويهم حتى يثقلوا فيربضوا، أي يقعوا على الأرض للنوم والراحة.

(٤٧) ثجّا: السيلان ومعنى ثجّا: لبنًا كثيرًا سائلاً.

(٤٨) علاه البهاء: أي علا الإناء بهاء اللبن.

وشرب آخرهم (ﷺ)، ثم أراضوا[٤٩]، ثم حلب فيها ثانيًا بعد بدء حتى ملأ الإناء، ثم غادره عندها، ثم بايعها، وارتحلوا عنها.

فقلّما لبثت حتى جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزًا عجافا[٥٠]، يتساوكن هُزلا[٥١] ضحى، مخّهن قليل، فلما رأى أبو معبد اللبن عجب، وقال: من أين لك هذا اللبن يا أم معبد، والشاة عازب حيال[٥٢]، ولا حلوبة في البيت؟

قالت: لا والله، إلا أنه مرّ بنا رجلٌ مبارك، من حاله كذا وكذا.

قال: صفيه لي يا أم معبد.

قالت: رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة[٥٣]، أبلج الوجه[٥٤]، حسن الخلق، لم تَعبْه نُحْلَه[٥٥]، .... ولم تُزْر به صَعْلَة[٥٦]، وسيم[٥٧]، في عينيه دعج[٥٨] وفي أشفاره وَطف[٥٩]، وفي صوته صَهل[٦٠]، وفي عنقه سطع[٦١]، وفي لحيته كثاثة، أزج[٦٢]، أقرن[٦٣]، إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سما[٦٤] وعلاه البهاء، أجمل الناس وأبهاه من بعيد، وأحلاه وأحسنه من قريب، حلو المنطق، فصل لا هذر ولا نزر[٦٥]، كأن منطقه خرزات نظم يتحدرن رَبْع[٦٦] لا بأس من طول[٦٧]، ولا تقتحمه العين من قصر[٦٨]، غصن بين غصنين، فهو أنظر الثلاثة منظرًا،

---

(٤٩) أراضوا: أي رَوَوا، فنقعوا بالري، يريد شربوا مرة بعد مرة.

(٥٠) عجافا: ضد السِّمن، وهو جمع عجفاء وهي المهزولة.

(٥١) يتساوكن هُزلا: يتمايلنّ من الضعف.

(٥٢) عازب: بعيدة المرعى لا تأوي إلى البيت إلا في الليل، حيال: لم تحمل.

(٥٣) ظاهر الوضاءة: ظاهر الجمال والحسن.

(٥٤) أبلغ الوجه: مشرق الوجه مضيؤه.

(٥٥) نُحلة: من النحول والدقة والضمور، أي أنه ليس نحَيلاً.

(٥٦) صَعْلة: صغر الرأس وهي تعني الدقة والنحول في البدن.

(٥٧) وسيم: الوسيم المشهور بالحسن كأنه صار الحسن له سمة.

(٥٨) دعج: شدة سواد العين في شدة بياضها.

(٥٩) في أشفاره ظف: الشعر النابت على الجفن.

(٦٠) صَهَل: كالبُحَّة وهو ألا يكون حاد الصوت.

(٦١) سطع: طول العنق.

(٦٢) أزج: دقيق شعر الحاجبين مع طولهما.

(٦٣) أقرن: متصل ما بين حاجبين من الشعر، أو مقرون الحاجبين.

(٦٤) سما: علا برأسه، أو بيده وارتفع.

(٦٥) لا هذر ولا نذر: الهذر من الكلام ما لا فائدة فيه والنزر: القليل.

(٦٦) رَبْع: ليس بالقصير ولا بالطويل.

(٦٧) لا بأس من طول: لا يجاوز الناس طولاً.

(٦٨) لا تقتحمه العين من قصر: لا تزدريه ولا تحتقره.

وأحسنهم قدرًا، وله تبادروا إلى أمره، محفود[٦٩]، محشود[٧٠]، لا عابس ولا مفند[٧١].

قال أبو معبد: هو والله صاحب قريش الذي ذكر لنا من أمره ما ذكر بمكة، ولقد هممت أن أصحبه، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلا.

فأصبح صوت بمكة عاليًا يسمعون الصوت، ولا يدرون من صاحبه، وهو يقول:

جزى الله ربُّ الناس خير جزائه ... رفيقين قالا[٧٢] خيمتي أم معبد

هما نزلا بالهُدى واهتدت به ... فقد فاز من أمس رفيق محمد

فيا لَقُصَيٍّ ما زوى الله عنكم ... به من فعال لا تجاري وسُؤدد[٧٣]

لَيهنِ بني كعب مكانُ فتاتهم ... ومقعدها للمؤمنين بمرصد

سلوا أختكم عن شاتها وإنائها ... فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد

دعاها بشاة حائل[٧٤] فتحلّبت ... عليه صريحًا ضرة الشاة مُزبد[٧٥]

فغادرها رهنًا لديها لحالب ... يرددها في مصدر ثم مورد[٧٦]

سابعًا: سراقة بن مالك يلاحق رسول الله (ﷺ):

أعلنت قريش في نوادي مكة بأنه من يأتي بالنبي (ﷺ) حيًا أو ميتًا، فله مائة ناقة وانتشر هذا الخبر عند قبائل الأعراب الذين في ضواحي مكة ،وطمع سراقة بن مالك بن جعشم في نيل الكسب الذي أعدته قريش لمن يأتي برسول الله (ﷺ) فأجهد نفسه لينال ذلك، ولكن الله بقدرته التي لا يغلبها غالب، جعله يرجع مدافعًا عن رسول الله (ﷺ) بعد ما كان جاهدًا عليه.

قال ابن شهاب: وأخبرني عبد الرحمن بن مالك المدلجي، وهو ابن أخي سراقة بن مالك بن جعشم، أن أباه أخبره، أنه سمع سراقة بن جعشم يقول: جاءنا رسول كفار قريش يجعلون في رسول الله (ﷺ) وأبي بكر دية كل منهما لمن قتله أو أسره، فبينما أنا جالس في مجالس من مجالس قومي بني مدلج، إذ أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس، فقال: يا سراقة إني رأيت آنفًا أسودة[٧٧] بالساحل أراها محمد وأصحابه، قال سراقة: فعرفت أنهم هم، فقلت له: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلانًاوفلانًا انطلقوا بأعيننا، ثم

(٦٩) محفود: مخدوم .

(٧٠) محشود: يجتمع الناس حواليه .

(٧١) لا عابس ولا مفند: ليس عابس الوجه ولا منفد: : ليس منسوبًا إلى الجهل وقلة العقل .

(٧٢) قالا: نزل في وقت القيلولة على الخيمتين .

(٧٣) وسؤدد: من السيادة .

(٧٤) حائل: غير حامل .

(٧٥) مزبد: لصريح ومعناها الخالص ، والضرة: لحم الضرع .

(٧٦) انظر: الهجرة النبوية المباركة ص١٠٧ .

(٧٧) أسودة: جمع قلة لسواد وهو الشخص يرى من بعيد أسود ، الهجرة في القرآن ص٣٤٤ .

لبثت في المجلس ساعة ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي وهو من وراء أكمة[٧٨] فتحبسها علي، وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت فخططت بزجه[٧٩] الأرض خضضت عالية حتى أتيت فرسي فركبتها فعرفتها تقرب بي حتى دنوت منهم، فعثرت بي فرسي فخررت عنها، فقمت فأهويت إلى كنانتي، فاستخرجت منها الأزلام[٨٠]، فاستقسمت بها، أضرهم أم لا، فخرج الذي أكره، فركبت فرسي عصيت الأزلام فقرب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله (ﷺ) وهو لا يلتفت وأبو بكر يكثر الالتفات، ساخت[٨١] يدا فرسي في الأرض، حتى بلغتا الركبتين فخررت عنها ثم زجرتها فنهضت فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة إذ لأثر يديها عثان[٨٢] ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام فخرج الذي أكره، فناديتهم بالأمان فوقفوا، فركبت فرسي حتى جئتهم ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله (ﷺ) فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يرزآني[٨٣] ولم يسألاني إلا أن قال: «**اخف عنا**»، فسألته أن يكتب لي في كتاب أمن، فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أديم[٨٤] ثم مضى رسول الله (ﷺ)[٨٥].

وكان مما اشتهر عند الناس من أمر سراقة ما ذكره ابن عبد البر وابن حجر وغيرهما، قال ابن عبد البر: روى سفيان بن عيينة عن أبي موسى عن الحسن أن رسول الله (ﷺ) قال لسراقة بن مالك: «**كيف بك إذا لبست سواري كسرى؟**» قال: فلما أتي عمر بسواري كسرى ومنطقته وتاجه دعا سراقة بن مالك فألبسه إياها، وكان سراقة رجلاً أزب[٨٦] كثير شعر الساعدين، وقال له: ارفع يديك فقال: **الله أكبر**، الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز الذي كان يقول: أنا رب الناس، وألبسهما سراقة بن مالك بن جعشم أعرابي من بني مدلج، ورفع بها عمر صوته[٨٧]، ثم أركب سراقة، وطيف به المدينة، والناس حوله، وهو يرفع عقيرته مرددًا قول الفاروق: **الله أكبر**، الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز، وألبسهما سراقة بن جعشم أعرابيًا من بني مدلج[٨٨].

---

(٧٨) الأكمة: جمعها إكام، وهي الرابية.

(٧٩) الزج: الحديدة في أسفل الرمح.

(٨٠) الأزلام: الأقداح التي كانت في الجاهلية مكتوب عليها الأمر والنهي افعل ولا تفعل.

(٨١) ساخت يدا فرسي: أي غاصت في الأرض.

(٨٢) عثان: أي دخان، وجمعه عواثن على غير قياس، النهاية (٣/ ١٨٣).

(٨٣) فلم يرزآني: أي لم يأخذا مني شيئًا.

(٨٤) أديم: قطعة من جلد.

(٨٥) البخاري، كتاب مناقب الأنصار، رقم ٣٩٠٦.

(٨٦) التزبب في الإنسان: كثَر الشعر وطوله.

(٨٧) انظر: الروض الأنف (٤/ ٢١٨)، الهجرة في القرآن ص٣٤٦.

(٨٨) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٤٩٥).

ثامنًا: سبحان مقلب القلوب:

كان سراقة في بداية أمره يريد القبض على رسول الله (ﷺ) ويسلمه لزعماء مكة لينال مائة ناقة وإذا بالأمور تنقلب رأسًا على عقب ويصبح يرد الطلب عن رسول الله (ﷺ)، فجعل لا يلقى أحدًا من الطلب إلا رده قائلاً: كفيتم هذا الوجه، فلما اطمأن إلى أن النبي (ﷺ) وصل إلى المدينة المنورة جعل سراقة يقص ما كان من قصته وقصة فرسه، واشتهر هذا عنه، وتناقلته الألسنة حتى امتلأت به نوادي مكة، فخاف رؤساء قريش أن يكون ذلك سببًا لإسلام بعض أهل مكة، وكان سراقة أمير بني مدلج، ورئيسهم فكتب أبو جهل إليهم:

بني مدلج إني أخاف سفيهكم ... سراقة مستغو لنصر محمد
عليكم به، ألا يفرّق جمعكم ... فيصبح شتى بعد عز وسؤدد

فقال سراقة يرد على أبي جهل:

أبا حكم -والله- لو كنت شاهدًا ... لأمر جوادي إذ تسوخ قوائمه
علمت ولم تَشْكُكْ بأن محمدًا ... رسول وبرهان فمن ذا يقاومه
عليك فكُفَّ القوم عنه فإنني ... أرى أمره يومًا ستبدو معالمه
بأمر تود الناس فيه بأسرهم ... بأن جميع الناس طُرًا مسالمه

تاسعًا: استقبال الأنصار لرسول الله (ﷺ):

لما سمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله (ﷺ) من مكة، كانوا يغدون كل غداة إلى الحرة، فينتظرون حتى يردهم حر الظهيرة، فانقلبوا يومًا بعد ما أطالوا انتظارهم فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أطم(٩٠) من آطامهم لأمر ينظر إليه فبصر رسول الله (ﷺ) وأصحابه مبيضين(٩١) يزول بهم السراب(٩٢)، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معشر العرب هذا جدكم(٩٣) الذي تنتظرون، فثار المسلمون إلى السلاح فتلقوا رسول الله (ﷺ) بظهر الحرة فعدل بهم ذات اليمن حتى نزل بهم في بني عوف، وذلك يوم الخميس الاثنين(٩٤) من شهر ربيع الأول(٩٥)، فقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله (ﷺ) صامتًا، فطفق من جاء من الأنصار، ممن لم ير رسول الله (ﷺ) يحيي أبا بكر، حتى أصابت الشمس رسول الله (ﷺ)، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله (ﷺ) عند

(٨٩) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٤٩٤).
(٩٠) أطم: كالحصن.
(٩١) مبيضين: عليهم ثياب بيض.
(٩٢) السراب: أي يزول بهم السراب عن النظر بسبب عروضهم له.
(٩٣) جدكم: حظكم وصاحب دولتكم الذي تتوقعونه.
(٩٤) قال الحافظ بن حجر: هذا هو المعتمد وشذ من قال يوم الجمعة، الفتح (٧/ ٥٤٤).
(٩٥) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ص٣٥١.

ذلك فلبث رسول الله (ﷺ) في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة[٩٦]، وأسس المسجد الذي أسس على التقوى وصلى فيه رسول الله (ﷺ)، ثم ركب راحلته[٩٧].

وبعد أن أقام رسول الله (ﷺ) المدة التي مكثها بقباء وأراد أن يدخل المدينة أرسل إلى الأنصار، فجاؤوا إلى نبي الله (ﷺ) (وهم متقلدون سلاحهم، فسلموا عليهما، وقالوا: اركبا آمنين مطاعين، فركب نبي الله (ﷺ) وأبو بكر وحفوا دونهما بالسلاح[٩٨].

وعند وصوله (ﷺ) إلى المدينة أخذ أهل المدينة يقولون: (جاء نبي الله، جاء نبي الله (ﷺ)، فأشرفوا ينظرون ويقولون: جاء نبي الله)[٩٩].

فكان يوم فرح وابتهاج لم تر المدينة يومًا مثله، ولبس الناس أحسن ملابسهم كأنهم في يوم عيد، ولقد كان حقًا يوم عيد، لأنه اليوم الذي انتقل فيه الإسلام من ذلك الحيز الضيق في مكة إلى رحابة الانطلاق والانتشار بهذه البقعة المباركة المدينة، ومنها إلى سائر بقائع الأرض ،لقد أحس أهل المدينة بالفضل الذي حباهم الله به، وبالشرف الذي اختصهم به أيضًا، فقد صارت بلدتهم موطنًا لإيواء رسول الله (ﷺ) وصحابته المهاجرين، ثم لنصرة الإسلام ،كما أصبحت موطنًا للنظام الإسلامي العام التفصيلي بكل مقوماته، ولذلك خرج أهل المدينة يهللون في فرح وابتهاج ويقولون: يا رسول الله يا محمد، يا رسول الله[١٠٠].

روى الإمام مسلم بسنده قال: (عندما دخل رسول الله (ﷺ) المدينة، صعد الرجال والنساء فوق البيوت وتفرق العلماء والخدم في الطرق ينادون: يا محمد، يا رسول الله، يا محمد، يا رسول الله!!)[١٠١].

وبعد هذا الاستقبال الجماهيري العظيم الذي لم يُر مثله في تاريخ الإنسانية، سار رسول الله (ﷺ) حتى نزل في دار أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، فعن أنس رضي الله عنه في حديث الهجرة الطويل وفيه: (فأقبل يسير حتى نزل جانب دار أبي أيوب فإنه ليحدث أهله[١٠٢] إذ سمع به عبد الله بن سلام وهو في نخل لأهله يخترف[١٠٣] لهم فجعل أن يضع الذي يخترف لهم فيها، فجاء فسمع من نبي الله (ﷺ)، ثم رجع إلى أهله فقال نبي الله (ﷺ): **«أي بيوت أهلنا[١٠٤] أقرب»**، فقال أبو أيوب: أنا يا نبي الله هذه داري وهذا بابي،

---

(٩٦) نفس المصدر ص٣٥٢ .
(٩٧) صحيح البخاري ، كتاب مناقب الأنصار ، باب هجرة النبي (٥/ ٧٧ ، ٧٨) .
(٩٨) البخاري ، كتاب مناقب الأنصار ، رقم ٣٩١١ .
(٩٩) نفس المصدر ، رقم ٣٩١١ .
(١٠٠) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ص٣٥٣ .
(١٠١) مسلم ، كتاب الزهد والرقائق ، باب حديث الهجرة ، رقم ٢٠٠٩ .
(١٠٢) الضمير هنا للنبي (، فتح الباري (٧/ ٢٥١) .
(١٠٣) يخترف: أي يجتبي من ثمارها . انظر: النهاية (٢/ ٢٤) .
(١٠٤) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ص٣٥٤ .

قال: «**فانطلق فهيئ لنا مقيلاً**[١٠٥] ...»[١٠٦]، ثم نزل رسول الله (ﷺ) على أبي أيوب حتى بنى مسجده ومساكنه.

وبهذا قد تمت هجرته (ﷺ) وهجرة أصحابه رضي الله عنهم؛ ولم تنته، الهجرة بأهدافها وغاياتها بل بدأت بعد وصول رسول الله (ﷺ) سالمًا إلى المدينة، وبدأت معها رحلة المتاعب والمصاعب والتحديات، فتغلب عليها رسول الله (ﷺ) للوصول للمستقبل الباهر للأمة والدولة الإسلامية التي استطاعت أن تصنع حضارة إنسانية رائعة على أسس من الإيمان والتقوى والإحسان والعدل بعد أن تغلبت على أقوى دولتين كانتا تحكمان في العالم، وهما: دولة الفرس ودولة الروم[١٠٧].

عاشراً: فوائد ودروس وعبر:

١- الصراع بين الحق والباطل صراع قديم وممتد، وهو سنّة إلهية نافذة، قال عز وجل: **﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾** (سورة الحج، الآية: ٤٠).

ولكن هذا الصراع معلوم العاقبة: **﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾** (سورة المجادلة، الآية: ٢١).

٢- مكر خصوم الدعوة بالداعية أمر مستمر متكرر، سواء عن طريق الحبس أو القتل أو النفي والإخراج من الأرض، وعلى الداعية أن يلجأ إلى ربه وأن يثق به ويتوكل عليه ويعلم أن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله[١٠٨]، كما قال عز وجل: **﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾** (سورة الانفال، الآية: ٣٠).

ومن مكر أهل الباطل وخصوم الدعوة استخدام سلاح المال لإغراء النفوس الضعيفة للقضاء على الدعوة والدعاة؛ ولذلك رصدوا مائة ناقة لمن يأتي بأحد المهاجرين حيًا أو ميتًا، فتحرك الطامعون ومنهم سراقة، الذي عاد بعد هذه المغامرة الخاسرة ماديًا بأوفر ربح وأطيب رزق، وهو رزق الإيمان، وأخذ يعمي الطريق على الطامعين الآخرين الذين اجتهدوا في الطلب، وهكذا يرد الله عن أوليائه والدعاة[١٠٩]، قال (تعالى): **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾** (سورة الأنفال، الآية: ٣٦).

---

(١٠٥) مقيلاً: أي مكانًا تقع فيه القيلولة.

(١٠٦) البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي إلى المدينة (٥/٧٩).

(١٠٧) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ص٣٥٥.

(١٠٨) انظر: الهجرة النبوية المباركة ص١٩٩.

(١٠٩) نفس المصدر ص٢٠٠.

٣- إن من تأمل حادثة الهجرة ورأى دقة التخطيط فيها ودقة الأخذ بالأسباب من ابتدائها إلى انتهائها ومن مقدماتها إلى ما جرى بعدها يدرك أن التخطيط المسدد بالوحي في حياة رسول الله (ﷺ) كان قائمًا وأن التخطيط جزء من السنّة النبوية وهو جزء من التكليف الإلهي في كل ما طولب به المسلم وأن الذين يميلون إلى العفوية بحجة أن التخطيط وإحكام الأمور ليسا من السنّة أمثال هؤلاء مخطئون ويجنون على أنفسهم وعلى المسلمين(١١٠).

فعندما حان وقت الهجرة للنبي (ﷺ) وشرع النبي (ﷺ) في التنفيذ نلاحظ الآتي:

* وجود التنظيم الدقيق للهجرة حتى نجحت رغم ما كان يكتنفها من صعاب وعقبات؛ وذلك أن كل أمر من أمور الهجرة كان مدروسًا دراسة وافية؛ فمثلاً:

* جاء (ﷺ) إلى بيت أبي بكر في وقت شدة الحر -الوقت الذي لا يخرج فيه أحد، بل من عادته لم يكن يأتي له لماذا؟ حتى لا يراه أحد.

* إخفاء شخصيته (ﷺ) أثناء مجيئه للصديق وجاء إلى بيت الصديق متلثمًا، لأن التلثم يقلل مُن إمكانية التعرف على معالم الوجه المتلثم(١١١).

* أمر (ﷺ) أبا بكر أن يخرج من عنده، ولما تكلم لم يبين إلا الأمر بالهجرة دون تحديد الاتجاه.

* وكان الخروج ليلاً ومن باب خلفي في بيت أبي بكر(١١٢).

* بلغ الاحتياط مداه، باتخاذ طرق غير مألوفة للقوم، والاستعانة بذلك بخبير يعرف مسالك البادية ومسارب الصحراء، ولو كان ذلك الخبير مشركًا ما دام على خلق ورزانة وفيه دليل على أن الرسول (ﷺ) كان لا يحجم عن الاستعانة بالخبرات مهما يكن مصدرها(١١٣).

* انتقاء شخصيات عاقلة لتقوم بالمعاونة في شؤون الهجرة، ويلاحظ أن هذه الشخصيات كلها تترابط برباط القرابة، أو برباط العمل الواحد، مما يجعل من هؤلاء الأفراد وحدة متعاونة على تحقيق الهدف الكبير.

* وضع كل فرد من أفراد هذه الأسرة في عمله المناسب الذي يجيد القيام به على أحسن وجه؛ ليكون أقدر على أدائه والنهوض بتبعاته.

* فكرة نوم علي بن أبي طالب مكان الرسول، فكرة ناجحة، قد ضللت القوم وخدعتهم، وصرفتهم عن الرسول (ﷺ) حتى خرج في جنح الليل تحرسة عناية الله وهم نائمون، ولقد ظلت أبصارهم معلقة بعد اليقظة بمضجع الرسول (ﷺ) ،فما كانوا يشكون في أنه ما يزال نائمًا مسجى في بردته، في حين النائم هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

---

(١١٠) انظر: الأساس في السنّة ، سعيد حوى (١/ ٣٥٧) .
(١١١) انظر: في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحيطة ص١٤١ .
(١١٢) انظر: معين السيرة ص١٤٧ .
(١١٣) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ص٣٦١ ,

ونرى احتياجات الرحلة قد دبرت تدبيرًا محكمًا:

* علي رضي الله عنه ينام في فراش الرسول (ﷺ) ليخدع القوم ويَسَلِّمَ الودائع ويلحق بالرسول.

* وعبد الله بن أبي بكر: صاحب المخابرات الصادق، وكاشف تحركات العدو.

* وأسماء ذات النطاقين: حاملة التموين من مكة إلى الغار وسط جنون المشركين بحثًا عن محمد (ﷺ) ليقتلوه.

* وعامر بن فهيرة: الراعي البسيط الذي قدم اللحم واللبن إلى صاحبي الغار وبدد آثار أقدام المسيرة التاريخية بأغنامه كيلا يتفرسها القوم!! لقد كان هذا الراعي يقوم بدور الإمداد والتموين.

* وعبد الله بن أريقط: دليل الهجرة الأمين، وخبير الصحراء البصير، ينتظر في يقظة إشارة البدء من الرسول ليأخذ الركب طريقه من الغار إلى يثرب.

فهذا تدبير للأمور على نحو رائع دقيق، واحتياط للظروف بأسلوب حكيم، ووضع لكل شخص من أشخاص الهجرة في مكانه المناسب، وسد لجميع الثغرات، وتغطية بديعة لكل مطالب الرحلة، واقتصار على العدد اللازم من الأشخاص من غير زيادة ولا إسراف.

لقد أخذ الرسول (ﷺ) بالأسباب المعقولة أخذًا قويًا حسب استطاعته وقدرته... ومن ثم باتت عناية الله متوقعة(١١٤).

٤- الأخذ بالأسباب أمر ضروري:

إن اتخاذ الأسباب أمر ضروري وواجب، ولكن لا يعني ذلك دائمًا حصول النتيجة، ذلك لأن هذا أمر يتعلق بأمر الله، ومشيئته ومن هنا كان التوكل أمرًا ضروريًا وهو من باب استكمال اتخاذ الأسباب.

إن رسول الله (ﷺ) أعد كل الأسباب واتخذ كل الوسائل ولكنه في الوقت نفسه مع الله يدعوه ويستنصره أن يكلل سعيه بالنجاح وهنا يستجاب الدعاء، وينصرف القوم بعد أن وقفوا على باب الغار، وتسيخ فرس سراقة في الأرض ويكلل العمل بالنجاح(١١٥).

٥- الإيمان بالمعجزات الحسية:

وفي هجرة النبي (ﷺ) وقعت معجزات حسية، وهي دلائل ملموسة على حفظ الله ورعايته لرسول الله (ﷺ)، ومن ذلك -على ما روي- نسيج العنكبوت على فم الغار، ومنها ما جرى لرسول الله (ﷺ) مع أم معبد، وما جرى له مع سراقة، ووعده إياه بأن يلبس سواري كسرى، فعلى الدعاة ألا يتنصلوا من هذه الخوارق، بل يذكروها ما دامت ثابتة بالسنّة

(١١٤) انظر: أضواء على الهجرة ، لتوفيق محمد ص٣٩٣-٣٩٧ .
(١١٥) انظر: من معين السيرة ص١٤٨ .

النبوية، على أن ينبهوا الناس على أن هذه الخوارق هي من جملة دلائل نبوته ورسالته عليه السلام[١١٦].

٦- جواز الاستعانة بالكافر المأمون:

ويجوز للدعاة أن يستعينوا بمن لا يؤمن بدعوتهم، ما داموا يثقون بهم ويأتمنونهم على ما يستعينون به معهم، فقد رأينا أن النبي (ﷺ) وأبا بكر استأجرا مشركًا ليدلهم على طريق الهجرة ،ودفعا إليه راحلتيهما وواعداه عند غار ثور، وهذه أمور خطيرة أطلعاه عليها، ولا شك أن النبي (ﷺ) وأبا بكر رضي الله عنه وثقا به وأمناه، مما يدل على أن الكافر أو العاصي أو غير المنتسب إلى الدعاة قد يوجد عند هؤلاء ما يستدعي وثوق الدعاة بهم، كأن تربطهم رابطة القرابة أو المعرفة القديمة أو الجوار أو عمل معروف كان قد قدمه الداعية لهم. أو لأن هؤلاء عندهم نوع جيد من الأخلاق الأساسية مثل الأمانة وحب عمل الخير إلى غير ذلك من الأسباب، والمسألة تقديرية يترك تقديرها إلى فطنة الداعي ومعرفته بالشخص[١١٧].

٧- دور المرأة في الهجرة:

وقد لمعت في سماء الهجرة أسماء كثيرة كان لها فضل كبير ونصيب وافر من الجهاد: منها عائشة بنت أبي بكر الصديق التي حفظت لنا القصة ووعتها وبلَّغتها للأمة، وأم سلمة المهاجرة الصبور، وأسماء ذات النطاقين[١١٨] التي ساهمت في تموين الرسول (ﷺ) وصاحبه في الغار بالماء والغذاء، وكيف تحملت الأذى في سبيل الله؟ فقد حدثتنا عن ذلك فقالت: لما خرج رسول الله (ﷺ) وأبو بكر رضي الله عنه أتانا نفر من قريش، فيهم أبو جهل بن هشام، فوقفوا على باب أبي بكر، فخرجت إليهم، فقالوا: أين أبوك يا بنت أبي بكر؟ قالت: قلت: لا أدري والله أين أبي؟ قالت: فرفع أبوجهل يده -وكان فاحشًا خبيثًا- فلطم خدِّي لطمة طرح منها قرطي قالت: ثم انصرفوا...)[١١٩].

فهذا درس من أسماء رضي الله عنها تعلمه لنساء المسلمين جيلاً بعد جيل كيف تخفي أسرار المسلمين عن الأعداء، وكيف تقف صامدة شامخة أمام قوى البغي والظلم؟ وأما درسها الثاني البليغ، فعندما دخل عليها جدها أبو قحافة، وقد ذهب بصره، فقال: والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه، قالت: كلا يا أبت، ضع يدك على هذا المال. قالت: فوضع يده عليه، فقال: لا بأس، إذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن، وفي هذا بلاغ لكم. ولا والله، ما ترك لنا شيئًا، ولكني أردت أن أسكّن الشيخ بذلك)[١٢٠].

وبهذه الفطنة والحكمة سترت أسماء أباها، وسكّنت قلب جدها الضرير، من غير أن

(١١٦) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/١٠٨).
(١١٧) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/١٠٨).
(١١٨) انظر: الهجرة النبوية المباركة ص٢٠٦.
(١١٩) انظر: الهجرة النبوية المباركة ص١٢٦.
(١٢٠) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/١٠٢) إسناده صحيح.

تكذب، فإن أباها قد ترك لهم حقًا هذه الأحجار التي كوّمتها لتطمئن لها نفس الشيخ! إلا أنه قد ترك لهم معها إيمانًا بالله لا تزلزله الجبال، ولا تحركه العواصف الهوج، ولا يتأثر بقلة أو كثرة في المال، وورثهم يقينًا وثقة به لاحد لها، وغرس فيهم همة تتعلق بمعالي الأمور، ولا تلتفت إلى سفاسفها، فضرب بهم للبيت المسلم مثالاً عزّ أن يتكرر، وقلّ أن يوجد نظيره.

لقد ضربت أسماء رضي الله عنها بهذه المواقف لنساء وبنات المسلمين مثلاً هُنّ في أمس الحاجة إلى الاقتداء به، والنسج على منواله.

وظلت أسماء مع أخواتها في مكة، لا تشكو ضيقًا، ولا تظهر حاجة، حتى بعث النبي (ﷺ) زيد بن حارثة وأبا رافع مولاه، وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم إلى مكة فقدما عليه بفاطمة وأم كلثوم ابنتيه، وسوده بنت زمعة زوجه، وأسامة بن زيد، وأمة بركة المكناة بأم أيمن، وخرج معهما عبد الله بن أبي بكر بعيال أبي بكر، فيهم عائشة وأسماء، فقدموا المدينة، فأنزلهم في بيت حارثة بن النعمان(١٢١).

٨- أمانات المشركين عند رسول الله (ﷺ):

في إيداع المشركين ودائعهم عند رسول الله (ﷺ)، مع محاربتهم له وتصميمهم على قتله، دليل باهر على تناقضهم العجيب الذي كانوا واقعين فيه، ففي الوقت الذي كانوا يكذبونه ويزعمون أنه ساحر أو مجنون أو كذاب، لم يكونوا يجدون فيمن حولهم من هو خير منه أمانة وصدقًا، فكانوا لا يضعون حوائجهم ولا أموالهم التي يخافون عليها إلا عنده! وهذا يدل على أن كفرانهم لم يكن بسبب الشك لديهم في صدقه، وإنما بسبب تكبرهم واستعلائهم على الحق الذي جاء به، وخوفًا على زعامتهم وطغيانهم(١٢٢)، وصدق الله العظيم: ﴿ **قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ** ﴾ (سورة الأنعام، الآية: ٣٣).

وفي أمر الرسول (ﷺ) لعلي رضي الله عنه بتأدية هذه الأمانات لأصحابها في مكة، رغم هذه الظروف الشديدة التي كان من المفروض أن يكتنفها الاضطراب، بحيث لا يتجه التفكير إلا إلى إنجاح خطة هجرته فقط، رغم ذلك فإن الرسول (ﷺ) ما كان لينسى أو ينشغل عن رد الأمانات إلى أهلها، حتى ولو كان في أصعب الظروف التي تنسي الإنسان نفسه فضلاً عن غيره(١٢٣).

٩- الراحلة بالثمن:

لم يقبل رسول الله (ﷺ) أن يركب الراحلة حتى أخذها بثمنها من أبي بكر رضي الله

---

(١٢١) انظر: الهجرة النبوية المباركة ص١٢٨ .
(١٢٢) انظر : فقه السيرة للدكتور محمد سعيد رمضان ص١٩٣ .
(١٢٣) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ص٣٦٤ .

عنه واستقر الثمن دينًا بذمتـه، وهذا درس واضح بأن حملة الدعوة ما ينبغي أن يكونوا عالة على أحد في وقت من الأوقات، فهم مصدر العطاء في كل شيء.

إن يدهم إن لم تكن العليـا، فلن تكون السفلى، وهكذا يصبـر عليه السـلام أن يأخذها بالثمن وسلوكه ذلك هو الترجمة الحقة لقوله (تعالى): ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة الشعراء، الآية: ١٠٩).

إن الذين يحملون العقيدة والإيمان ويبشرون بـهما ما ينبغي أن تمتد أيديهم إلى أحد -إلا الله- لأن هذا يناقض مع ما يدعـون إليه، وقد تعود الناس أن يعوا لغـة الحال لأنها أبلغ من لغة المقـال، وما تأخـر المسلمون وأصابهـم ما أصابهم من الهـوان إلا يوم أصبـحت وسائل الدعوة والعاملين بها خاضعة للغة المادة، ينتـظر الواحد منهم مرتبه، ويومها تحول العمل إلى عمل مادي فقد الروح والحيوية والوضاءة، وأصبح للأمر بالمعروف موظفون، وأصبح الخطباء موظفين، وأصبح الأئمة موظفين.

إن الصوت الذي ينبعث من حنجرة وراءها الخوف من الله والأمل في رضاه غير الصوت الذي ينبعث ليتلقى دراهم معدودة، فإذا توقـفت توقف الصوت، وقديمًا قالوا: ليست النائحة كالثكلى، ولهذا قل التأثير وبعد الناس عن جادة الصواب[١٢٤].

١٠- الداعية يَعُفُّ عن أموال الناس:

لما عفا النبي (ﷺ) عن سراقة عرض عليه سراقة المساعدة فقال: (وهذه كنانتي فخذ منها سهمًـا فإنك ستمر بابـلي وغنمي في موضع كذا وكذا فخـذ منها حاجتك فـقال رسول الله (ﷺ): «**لا حاجة لي فيها**»[١٢٥].

فحين يزهد الدعاة فيما عند الناس يحـبهم الناس، وحين يطمعون في أموال الناس ينفر الناس عنهم، وهذا درس بليغ للدعاة إلى الله (تعالى)[١٢٦].

١١- الجندية الرفيعة والبكاء من الفرح:

تظهـر أثر التـربية النبـوية في جنديـة أبي بكر الصديـق وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما، فـأبو بكر رضي الله عنه عندما أراد أن يهاجر إلى المـدينة وقال له رسول الله (ﷺ): «**لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبًا**» فقد بدأ في الإعداد والتخطيط للهجرة (فابتاع راحلتين واحتبسـهما في داره يعلفهما إعدادًا لذلك) وفي رواية البـخاري، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمـر -وهو الخبط- أربعـة أشهر). لقـد كان يدرك بثاقب بـصره رضي الله عنه وهو الذي تربى ليكون قائدًا، أن لحظة الهـجرة صعبة قـد تأتي فجأة ولذلك هيأ وسـيلة الهجرة، ورتب تموينها، وسخر أسرته لخدمة النبي (ﷺ)، وعندما جاء رسول الله (ﷺ) وأخبره أن

---

(١٢٤) انظر: معين السيرة ص١٤٨، ١٤٩.

(١٢٥) المسند (١/٣) تحقيق أحمد محمد شاكر.

(١٢٦) انظر: في ظلال الهجرة النبوية ص٥٨.

الله قد أذن له في الخروج والهجرة، بكا من شدة الفرح، وتقول عائشة رضي الله عنها في هذا الشأن: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدًا يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ، إنها قمة الفرح البشري؛ أن يتحول الفرح إلى بكاء، كما قال الشاعر عن هذا:

ورد الكتاب من الحبيب بأنه ... سيزورني فاستعبرت أجفاني

غلب السرور عليّ حتى إنني ... من فرط ما قد سرني أبكاني

يا عين صار الدمع عندك عادة ... تبكين من فرح ومن أحزاني

فالصديق رضي الله عنه يعلم أن معنى هذه الصحبة، أنه سيكون وحده برفقة رسول رب العالمين بضعة عشرة يومًا على الأقل ،وهو الذي سيقدم حياته لسيده وقائده وحبيبه المصطفى (ﷺ) ،فأي فوز في هذا الوجود يفوق هذا الفوز: أن يتفرد الصديق وحده من دون أهل الأرض ومن دون الصحب جميعًا برفقه سيد الخلق وصحبته كل هذه المدة[١٢٧]، وتظهر معاني الحب في الله في خوف أبي بكر وهو في الغار من أن يراهما المشركون ليكون الصديق مثلاً لما ينبغي أن يكون عليه جندي الدعوة الصادق مع قائده الأمين حين يحدق به الخطر من خوف وإشفاق على حياته؛ فما كان أبو بكر ساعتئذ بالذي يخشى على نفسه الموت، ولو كان كذلك لما رافق رسول الله (ﷺ) في هذه الهجرة الخطيرة وهو يعلم أن أقل جزائه القتل إن أمسكه المشركون مع رسول الله (ﷺ) ولكنه كان يخشى على حياة الرسول الكريم (ﷺ) ، وعلى مستقبل الإسلام إن وقع الرسول (ﷺ) في قبضة المشركين[١٢٨].

ويظهر الحس الأمني الرفيع للصديق في هجرته مع النبي (ﷺ) في مواقف كثير منها: حين أجاب السائل: من هذا الرجل الذي بين يديك؟ فقال: هذا هاد يهديني السبيل، فظن السائل بأن الصديق يقصد الطريق، وإنما كان يقصد سبيل الخير، وهذا يدل على حسن استخدام أبي بكر للمعاريض فرارًا من الحرج أو الكذب[١٢٩] وفي إجابته للسائل تورية وتنفيذًا للتربية الأمنية التي تلقاها من رسول الله(ﷺ)، لأن الهجرة كانت سرًا وقد أقره الرسول (ﷺ) على ذلك[١٣٠]، وفي موقف علي بن أبي طالب مثال للجندي الصادق المخلص لدعوة الإسلام، حيث فدى قائده بحياته، ففي سلامة القائد سلامة للدعوة، وفي هلاكه خذلانها ووهنها، فما فعله علي رضي الله عنه ليلة الهجرة من بياته على فراش الرسول (ﷺ)، إذ كان من المحتمل أن تهوي سيوف فتيان قريش على رأس علي رضي الله عنه ،ولكن عليًا رضي الله عنه لم يبال بذلك، فحسبه أن يسلم رسول الله (ﷺ) نبي الأمة وقائد الدعوة[١٣١].

---

(١٢٧) انظر: التربية القيادية (٢/ ١٩١ ، ١٩٢) .
(١٢٨) السيرة النبوية دروس وعبر للسباعي ص٧١ .
(١٢٩) انظر: الهجرة النبوية المباركة ص٢٠٤ .
(١٣٠) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس ص٢٥٤ .
(١٣١) انظر : السيرة النبوية للسباعي ص٦٨ .

١٢- فن قيادة الأرواح وفن التعامل مع النفوس:

يظهر الحب العميق الذي سيطر على قلب أبي بكر لرسول الله (ﷺ) في الهجرة، كما يظهر حب سائر الصحابة أجمعين في سيرة الحبيب المصطفى (ﷺ) ،وهذا الحب الرباني كان نابعًا من القلب، وبإخلاص، لم يكن حب نفاق أو نابعًا من مصلحة دنيوية، أو رغبة في منفعة أو رهبة لمكروه قد يقع ،ومن أسباب هذا الحب لرسول الله (ﷺ) صفاته القيادية الرشيدة، فهو يسهر ليناموا، ويتعب ليستريحوا، ويجوع ليشبعوا، كان يفرح لفرحهم ويحزن لحزنهم، فمن سلك سنن الرسول (ﷺ) مع صحابته، في حياته الخاصة والعامة، وشارك الناس في أفراحهم وأتراحهم وكان عمله لوجه الله، أصابه شيء من هذا الحب إن كان من الزعماء أو القادة أو المسؤولين في أمة الإسلام[١٣٢].

وصدق الشاعر الليبي عندما قال:

فإذا أحب الله باطن عبده ... ظهرت عليه مواهب الفتاح
وإذا صفت لله نية مصلح ... مال العباد عليه بالأرواح[١٣٣]

إن القيادة الصحيحة هي التي تستطيع أن تقود الأرواح قبل كل شيء وتستطيع أن تتعامل مع النفوس قبل غيرها، وعلى قدر إحسان القيادة يكون إحسان الجنود وعلى قدر البذل من القيادة يكون الحب من الجنود، فقد كان (ﷺ) رحيمًا وشفوقًا بجنوده وأتباعه، فهو لم يهاجر إلا بعد أن هاجر معظم أصحابه، ولم يبق إلا المستضعفين والمفتونين ومن كانت له مهمات خاصة بالهجرة[١٣٤].

١٣- وفي الطريق أسلم بريدة الأسلمي رضي الله عنه في ركب من قومه:

إن المسلم الذي تغلغلت الدعوة في شغاف قلبه لا يفتر لحظة واحدة عن دعوة الناس إلى دين الله (تعالى)، مهما كانت الظروف قاسية والأحوال مضطربة، والأمن مفقود، بل ينتهز كل فرصة مناسبة لتبليغ دعوة الله (تعالى)، هذا نبي الله (تعالى) يوسف عليه السلام حينما زج به في السجن ظلمًا، واجتمع بالسجناء في السجن، فلم يندب حظه، ولم تشغله هذه الحياة المظلمة عن دعوة التوحيد وتبليغها للناس ومحاربة الشرك وعبادة غير الله والخضوع لأي مخلوق قال (تعالى): ﴿ قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ * يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا

---

(١٣٢) انظر: الهجرة النبوية لأبي فارس ص٥٤ .
(١٣٣) انظر :الحركة السنوسية في ليبيا للصلابي (٢/ ٧) والشاعر هو أحمد رفيق المهدوي .
(١٣٤) انظر: الهجرة النبوية المباركة ص٢٠٥ .

مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة يوسف، الآيات: ٣٧-٤٠).

وسورة يوسف عليه السلام مكية، وقد أمر الله (تعالى) رسوله محمد (ﷺ) أن يقتدي بالأنبياء والمرسلين في دعوته إلى الله، ولذلك نجده (ﷺ) في هجرته من مكة إلى المدينة وقد كان مطاردًا من المشركين قد أهدروا دمه وأغروا المجرمين منهم بالأموال الوفيرة ليأتوا برأسه حيًا أو ميتًا، ومع هذا فلم ينس مهمته ورسالته، فقد لقي (ﷺ) في طريقه رجلاً يقال له بريدة بن الحصيب الأسلمي رضي الله عنه في ركب من قومه، فدعاهم إلى الإسلام فآمنوا وأسلموا[١٣٥].

وذكر ابن حجر العسقلاني -رحمه الله-: (أن النبي (ﷺ) في طريق هجرته إلى المدينة لقي بريدة بن الحصيب بن عبد الله بن الحارث الأسلمي، فدعاه إلى الإسلام، وقد غزا مع الرسول (ﷺ) ست عشرة[١٣٦] غزوة، وأصبح بريدة بعد ذلك من الدعاة إلى الإسلام، وفتح الله لقومه وأسلم على يديه أبواب الهداية، واندفعوا إلى الإسلام وفازوا بالوسام النبوي الذي نتعلم منه منهجًا فريدًا في فقه النفوس[١٣٧]، قال (ﷺ): **«أسلم سالمها الله، وغفار غفر الله لها، أما والله ما أنا قلته، ولكن الله قاله»**[١٣٨].

١٤- وفي طريق الهجرة أسلم لصان على يدي رسول الله (ﷺ):

كان في طريقه (ﷺ) بالقرب من المدينة لصَّان من أسلم يقال لهما: المهانان، فقصدهم (ﷺ) وعرض عليهما الإسلام فأسلما ثم سألهما عن أسمائهما فقالا: نحن المهانان، فقال: **«بل المكرمان»**، وأمرهما أن يقدما عليه المدينة[١٣٩]، وفي هذا الخبر يظهر اهتمامه (ﷺ) بالدعوة إلى الله حيث اغتنم فرصة في طريقه ودعا اللصين إلى الإسلام، فأسلما، وفي إسلام هذين اللصين مع ما ألفاه من حياة البطش والسلب والنهب دليل على سرعة إقبال النفوس على اتباع الحق إذا وجد من يمثله بصدق وإخلاص، وتجردت نفس السامع من الهوى المنحرف، وفي اهتمام الرسول (ﷺ) بتغيير اسمي هذين اللصين من المهانَين إلى المكْرَمَين دليل على اهتمامه (ﷺ) بسمعة المسلمين ومراعاته مشاعرهم إكرامًا لهم ورفعًا لمعنوياتهم.

وإن في رفع معنوية الإنسان تقوية لشخصيته ودفعًا له إلى الامام ليبذل كل طاقته في سبيل الخير والفلاح[١٤٠].

---

(١٣٥) انظر: الهجرة النبوية لأبي فارس ص٥٩ . شرح المواهب (١/ ٤٠٥) .
(١٣٦) انظر: الإصابة (١/ ١٤٦) .
(١٣٧) انظر: المستدرك على الصحيحين (٤/ ٩٢) رقم ٦٩٨١ صحيح الإسناد .
(١٣٨) صحيح الجامع الصغير (١/ ٣٢٨) رقم ٩٨٦ .
(١٣٩) الفتح الرباني للساعاتي (٢٠/ ٢٨٩) .
(١٤٠) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٣/ ١٧٨) .

١٥- الزبير وطلحة رضي الله عنهما ولقاؤهم برسول الله (ﷺ) في طريق الهجرة:

ومما وقع في الطريق إلى المدينة أنه (ﷺ) لقي الزبير بن العوام في ركب من المسلمين كانوا تجارًا قافلين من الشام، فكسى الزبير رسول الله (ﷺ) وأبا بكر ثيابًا بيضاء، رواه البخاري[١٤١]، وكذا روى أصحاب السيَر أن طلحة بن عبيد الله لقيهما أيضًا وهو عائد من الشام وكساهما بعض الثياب[١٤٢].

١٦- أهمية العقيدة والدين في إزالة العداوة والضغائن:

إن العقيدة الصحيحة السليمة والدين الإسلامي العظيم لهما أهمية كبرى في إزالة العداوات والضغائن، وفي التأليف بين القلوب والأرواح، وهو دور لا يمكن لغير العقيدة الصحيحة أن تقوم به، وها قد رأينا كيف جمعت العقيدة الإسلامية بين الأوس والخزرج، وأزالت آثار معارك استمرت عقودًا من الزمن، وأغلقت ملف ثارات كثيرة في مدة قصيرة، بمجرد التمسك بها والمبايعة عليها ،وقد رأينا ما فعلته العقيدة في نفوس الأنصار، فاستقبلوا المهاجرين بصدور مفتوحة، وتآخوا معهم في مثالية نادرة، لا تزال مثار الدهشة ومضرب المثل، ولا توجد في الدنيا فكرة أو شعار آخر فعل مثلما فعلت عقيدة الإسلام الصافية في النفوس.

ومن هنا ندرك السر في سعي الأعداء الدائب إلى إضعاف هذه العقيدة وتقليل تأثيرها في نفوس المسلمين، واندفاعهم المستمر نحو تزكية النعرات العصبية والوطنية والقومية وغيرها، وتقديمها كبديل للعقيدة الصحيحة[١٤٣].

١٧- فرحة المهاجرين والأنصار بوصول النبي (ﷺ) :

كانت فرحة المؤمنين من سكان يثرب من أنصار ومهاجرين بقدوم رسول الله (ﷺ) ووصوله إليهم سالمًا فرحة أخرجت النساء من بيوتهن والولائد، وحملت الرجال على ترك أعمالهم، وكان موقف يهود المدينة موقف المشارك لسكانها في الفرحة ظاهرًا، والمتألم من منافسة الزعامة الجديدة باطنًا، أما فرحة المؤمنين بلقاء رسولهم، فلا عجب فيها، وهو الذي أنقذهم من الظلمات إلى النور، بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، وأما موقف اليهود فلا غرابة فيه، وهم الذين عرفوا بالملق والنفاق للمجتمع الذي فقدوا السيطرة عليه، وبالغيظ والحقد الأسود ممن يسلبهم زعامتهم على الشعوب، ويحول بينهم وبين سلب آمالهم باسم القروض، وسفك دمائها باسم النصح والمشورة، وما زال اليهود يحقدون على كل من يخلص الشعوب من سيطرتهم، وينتهون من الحقد إلى الدس والمؤامرات، ثم إلى الاغتيال إن استطاعوا، ذلك دينهم، وتلك جبلتهم[١٤٤].

---

(١٤١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٤٩٥).

(١٤٢) المصدر السابق نفسه (١/ ٤٩٥)، صحيح السيرة النبوية ص١٨١.

(١٤٣) انظر: الهجرة النبوية المباركة ص٢٠٥.

(١٤٤) انظر: السيرة النبوية للسباعي ص٤٣، الهجرة في القرآن الكريم ص٣٦٧.

ويستفاد من استقبال المهاجرين والأنصار لرسول الله (ﷺ) مشروعية استقبال الأمراء والعلماء، عند مقدمهم بالحفاوة والإكرام، فقد حدث ذلك لرسول الله (ﷺ)، وكان هذا الإكرام وهذه الحفاوة نابعين من حب للرسول، بخلاف ما نراه من استقبال الزعماء والحكام في عالمنا المعاصر، ويستفاد كذلك التنافس في الخير وإكرام ذوي العلم والشرف، فقد كانت كل قبيلة تحرص أن تستضيف رسول الله (ﷺ)، وتعرض أن يكون رجالها حُراسًا له، ويؤخذ من هذا إكرام العلماء والصالحين، واحترامهم وخدمتهم(١٤٥).

١٨- مقارنة بين الهجرة والإسراء والمعراج:

كانت الهجرة النبوية الشريفة على النحو الذي كانت عليه، وسارت على الوضع الذي يسلكه كل مهاجر، حتى توجد القدوة، وتتحقق الأسوة، ويسير المسلمون على نهج مألوف، وسبيل معروف، ولذلك، فلم يرسل الله عز وجل- له (ﷺ) البراق ليهاجر عليه كما حدث في ليلة الإسراء، مع أن الرسول (ﷺ) في يوم هجرته أحوج إلى البراق منه في أي وقت آخر ؛لأن القوم يتربصون به هنا، و لم يكن هناك تربص في ليلة الإسراء، ولو ظفروا به في هجرته لشفوا نفوسهم منه بقتله، والحكمة في ذلك - والله أعلم - أن الهجرة كانت مرحلة طبيعية من مراحل تطور الدعوة ووسيلة من أهم وسائل نشرها وتبليغها، ولم تكن خاصة برسول الله (ﷺ) بل كان غيره من المؤمنين مكلفين بها، حين قطع الإسلام الولاية(١٤٦) بين المهاجرين وغير المهاجرين القادرين على الهجرة، قال (تعالى): ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (سورة الأنفال، الآية٧٢).

أما رحلة الإسراء والمعراج كانت رحلة تشريف وتقدير، كما كانت إكرامًا من الله - عز وجل - لنبيه ليطلعه على عالم الغيب ويريه من آياته الكبرى، فالرحلة من أولها إلى آخرها خوارق ومعجزات ومشاهد للغيبيات، فناسب أن تكون وسيلتها مشابهة لغايتها.

زد على ذلك أن رحلة الإسراء خصوصية للرسول (ﷺ)، وليس لأحد من الناس أن يتطلع لمثلها، ولسنا مطالبين بالاقتداء به فيها، ولذا فإن حصولها على النحو الذي كانت عليه هو أنسب الأوضاع لحدوثها(١٤٧).

١٩- وضوح سنة التدرج:

حيث نلاحظ: أن رسول الله (ﷺ) عندما تقابل مع طلائع الأنصار الأولى لم يفعل

---

(١٤٥) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس ص٣٥٨، ٣٥٩.

(١٤٦) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ص٣٦٥.

(١٤٧) انظر: تأملات في سيرة الرسول، محمد سيد الوكيل ص١٠٣، ١٠٤ بتصرف.

سوى ترغيبهم في الإسلام وتلاوة القرآن عليهم، فلما جاؤوا في العام التالي بايعهم بيعة النساء على العبادات والأخلاق والفضائل، فلما جاؤوا في العام التالي كانت بيعة العقبة الثانية على الجهاد والنصر والإيواء(١٤٨).

وجدير بالملاحظة أن بيعة الحرب لم تتم إلا بعد عامين كاملين، أي بعد تأهيل وإعداد استمر عامين كاملين، وهكذا تم الأمر على تدرج ينسجم مع المنهج التربوي الذي نهجت عليه الدعوة من أول يوم(١٤٩).

إنه المنهج الذي هدى الله نبيه إلى التزامه، ففي البيعة الأولى بايعه هؤلاء الأنصار الجدد على الإسلام عقيدة ومنهاجًا وتربية، وفي البيعة الثانية بايعه الأنصار على حماية الدعوة، واحتضان المجتمع الإسلامي الذي نضجت ثماره، واشتدت قواعده قوة وصلابة.

إن هاتين البيعتين أمران متكاملان ضمن المنهج التربوي للدعوة الإسلامية وإن الأمر الأول هو المضمون، والأمر الثاني وهو بيعة الحرب هو السياج الذي يحمي ذلك المضمون، نعم كانت بيعة الحرب بعد عامين من إعلان القوم الإسلام وليس فور إعلانهم.

بعد عامين إذ تم إعدادهم حتى غدوا موضع ثقة وأهلاً لهذه البيعة، ويلاحظ أن بيعة الحرب لم يسبق أن تمت قبل اليوم مع أي مسلم، إنما حصلت عندما وجدت الدعوة في هؤلاء الأنصار وفي الأرض التي يقيمون فيها المعقل الملائم الذي ينطلق منه المحاربون، لأن مكة لوضعها عندئذ لم تكن تصلح للحرب(١٥٠).

وقد اقتضت رحمة الله بعباده (ألا يحملهم واجب القتال، إلى أن توجد لهم دار إسلام، تكون لهم بمثابة معقل يأوون إليه، ويلوذون به، وقد كانت المدينة المنورة أول دار إسلام)(١٥١).

لقد كانت البيعة الأولى قائمة على الإيمان بالله ورسوله (ﷺ)، والبيعة الثانية على الهجرة والجهاد، وبهذه العناصر الثلاثة: الإيمان بالله، والهجرة، والجهاد، يتحقق وجود الإسلام في واقع جماعي ممكن، والهجرة لم تكن لتتم لولا وجود الفئة المستعدة للإيواء ولهذا قال (تعالى): ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (سورة الأنفال، الآية: ٧٢) وقال (تعالى): ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَـئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ

(١٤٨) انظر: الهجرة النبوية المباركة ص٢٠٢.

(١٤٩) انظر: بناء المجتمع الإسلامي في عصر النبوة، محمد توفيق ص١١٩.

(١٥٠) نفس المصدر ص١٢٢، ١٢٣.

(١٥١) انظر: فقه السيرة للبوطي ص١٧٢.

﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (سورة الأنفال، الآية: ٧٥).

وقد كانت بيعة الحرب هي التمهيد الأخير لهجرة النبي (ﷺ) وأصحابه إلى المدينة، وبذلك وجد الإسلام موطنه الذي ينطلق منه دعاة الحق بالحكمة والموعظة وتنطلق منه جحافل الحق المجاهدة أول مرة، وقامت الدولة الإسلامية المحكمة لشرع الله(١٥٢).

٢٠- الهجرة تضحية عظيمة في سبيل الله:

كانت هجرة النبي (ﷺ) وأصحابه عن البلد الأمين تضحية عظيمة عبّر عنها النبي (ﷺ) بقوله: «والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت»(١٥٣).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لما قدم رسول الله (ﷺ) المدينة قدمها وهي أوبأ أرض الله من الحمى، وكان واديها يجري نجلاً - يعني ماءً آجنًا - فأصاب أصحابه منها بلاء وسقم وصرف الله ذلك عن نبيه. قالت: فكان أبو بكر، وعامر بن فهيرة، وبلال في بيت واحد، فأصابتهم الحمى، فاستأذنت رسول الله (ﷺ) في عيادتهم فأذن، فدخلت إليهم أعودهم وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب وبهم ما لا يعلمه إلا الله من شدة الوعك(١٥٤)، فدنوت من أبي بكر فقلت: يا أبت كيف تجدك؟ فقال:

كل امرئ مصبح في أهله ... والموت أدنى من شراك نعله

قالت: فقلت والله ما يدري أبي ما يقول. ثم دنوت من عامر بن فهيرة فقلت: كيف تجدك يا عامر؟ فقال:

لقد وجدت الموت قبل ذوقه ... إن الجبان حتفه من فوقه
كل امرئ مجاهد بطوقه(١٥٥) ... كالثور يحمي جلده بروقه(١٥٦)

قالت: فقلت: والله ما يدري عامر ما يقول. قالت: وكان بلال إذا أقلع عنه الحمى اضطجع بفناء البيت ثم يرفع عقيرته(١٥٧) ويقول:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... بواد وحولي إذخر(١٥٨) وجليل
وهل أردن يومًا مياه مجنة ... وهل يبدون لي شامة وطفيل(١٥٩)

---

(١٥٢) انظر: الغرباء الأولون ص١٩٨، ١٩٩.
(١٥٣) الترمذي، كتاب المناقب، باب فضل مكة (٥/٧٢٢) رقم ٣٩٢٥.
(١٥٤) الوغك: الحمى.
(١٥٥) بطوقه: بطاقته.
(١٥٦) بروقه: بقرنه.
(١٥٧) عقيرته: صوته، قال الأصمعي: إن رجلاً عُقرت رجله فرفعها على الأخرى وجعل يصيح، فصار كل من رفع صوته يقال له: رفع عقيرته وإن لم يرفع رجله.
(١٥٨) الأذخر: نبات طيب الرائحة.
(١٥٩) شامة وطفيل: جبلان مشرفان على مجنة على بريد مكة.

قالت: فأخبرت رسول الله (ﷺ) بذلك فقال: **«اللهمَّ حبِّب إلينا المدينة كحبنا مكة، أو أشد، اللهمّ وصححها وبارك لنا في مدها وصاعها وانقل حمّاها واجعلها بالجحفة»**(١٦٠).

وقد استجاب الله دعاء نبيه (ﷺ) وعوفي المسلمون بعدها من هذه الحمى، وغدت المدينة موطنًا ممتازًا لكل الوافدين والمهاجرين إليها من المسلمين على تنوع بيئاتهم ومواطنهم(١٦١).

٢١- مكافأة النبي (ﷺ) لأم معبد:

وقد روي أنها كثرت غنمها ونمت حتى جلبت منها جلبًا إلى المدينة، فمر أبو بكر، فرآه ابنها فعرفه، فقال: يا أمه هذا الرجل الذي كان مع المبارك، فقامت إليه فقالت: يا عبد الله من الرجل الذي كان معك؟ قال: أو ما تدرين من هو؟ قالت: لا، قال: هو نبي الله، فأدخلها عليه، فأطعمها رسول الله (ﷺ) وأعطاها، وفي رواية: فانطلقت معي وأهدت لرسول الله (ﷺ) شيئًا من أقط ومتاع الأعراب، فكساها وأعطاها، قال: ولا أعلمه إلا قال: وأسلمت، وذكر صاحب (الوفاء) أنها هاجرت هي وزوجها، وأسلم أخوها حبيش، واستشهد يوم الفتح(١٦٢).

٢٢- أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه ومواقف خالدة:

قال أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه: (ولما نزل عليّ رسول الله (ﷺ) في بيتي نزل في السُّفل وأنا وأم أيوب في العلوّ، فقلت له: يا نبي الله - بأبي أنت وأمي- إني لأكره وأعظم أن أكون فوقك، وتكون تحتي، فاظهر أنت فكن في العلو، وننزل نحن فنكون في السفل. فقال: **يا أبا أيوب: «إنّ أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سفل البيت»** قال: فلقد انكسر جبٌّ لنا فيه ماء، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ما لنا لحاف غيرها ننشف بها الماء تخوفًا أن يقطر على رسول الله (ﷺ) منه شيء يؤذيه(١٦٣).

٢٣- هجرة علي رضي الله عنه وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر في المجتمع الجديد:

بعد أن أدى عن رسول الله (ﷺ) الأمانات التي كانت عنده للناس، لحق برسول الله (ﷺ) وأدركه بقباء بعد وصوله بليلتين أو ثلاث، فكانت إقامته بقباء ليلتين، ثم خرج مع النبي (ﷺ) إلى المدينة يوم الجمعة(١٦٤)، وقد لاحظ سيدنا علي مدة إقامته بقباء امرأة مسلمة لا زوج لها، ورأى إنسانًا يأتيها من جوف الليل، فيضرب عليها بابها، فتخرج إليه، فيعطيها شيئًا معه، فتأخذه، قال: فاستربت بشأنه، فقلت: يا أمة الله، من هذا الذي يضرب عليك بابك كل ليلة فتخرجين إليه، فيعطيك شيئًا لا أدري ما هو؟ وأنت امرأة مسلمة لا زوج لك؟

---

(١٦٠) البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء يرفع الوباء والوجع، رقم ٦٣٧٢.
(١٦١) انظر: التربية القيادية (٢/ ٣١٠).
(١٦٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٤٨٩، ٤٩٠).
(١٦٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ٢٢٠).
(١٦٤) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٤٩٧).

قالت: هذا سهل بن حنيف، وقد عرف أني امرأة لا أحد لي، فإذا أمسى عدا على أوثان قومه فكسرها، ثم جاءني بها، فقال: احتطبي بهذا، فكان علي رضي الله عنه يأثر ذلك من شأن سهل بن حنيف حين هلك عنده بالعراق(١٦٥).

٢٤- الهجرة النبوية نقطة تحول في تاريخ الحياة:

كانت الهجرة النبوية من مكة المشرفة إلى المدينة المنورة أعظم حدث حوّل مجرى التاريخ، وغير مسيرة الحياة ومناهجها التي كانت تحياها، وتعيش محكومة بها في صورة قوانين ونظم وأعراف وعادات وأخلاق وسلوك للأفراد والجماعات وعقائد وتعبدات وعلم ومعرفة، وجهالة وسفه، وضلال وهدى، وعدل وظلم(١٦٦).

٢٥- الهجرة من سنن الرسل الكرام:

إن الهجرة في سبيل الله سنة قديمة، ولم تكن هجرة نبينا محمد (ﷺ) بدعًا في حياة الرسل لنصرة عقائدهم، فلئن كان قد هاجر من وطنه ومسقط رأسه من أجل الدعوة حفاظًا عليها وإيجاد بيئة خصبة تتقبلها وتستجيب لها وتذود عنها، فقد هاجر عدد من إخوانه من الأنبياء قبله من أوطانهم لنفس الأسباب التي دعت نبينا للهجرة.

وذلك أن بقاء الدعوة في أرض قاحلة لا يخدمها، بل يعوق مسارها ويشل حركتها، وقد يعرضها للانكماش داخل أضيق الدوائر، وقد قص علينا القرآن الكريم نماذج من هجرات الرسل وأتباعهم من الأمم الماضية لتبدو لنا في وضوح سنة من سنن الله في شأن الدعوات يأخذ بها كل مؤمن من بعدهم إذا حيل بينه وبين إيمانه وعزته، واستخف بكيانه ووجوده واعتُدي على مروءته وكرامته(١٦٧).

هذه بعض الفوائد والعبر والدروس وأترك للقارئ الكريم أن يستخرج غيرها، ويستنبط سواها من الدروس والعبر والفوائد الكثيرة النافعة من هذا الحدث العظيم.

●●●

(١٦٥) انظر: محمد رسول الله ، محمد الصادق عرجون (٢/ ٤٢١).
(١٦٦) نفس المصدر (٢/ ٤٢٣).
(١٦٧) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ص١٧٥ .



المبحث الثاني

الثناء على المهاجرين بأوصاف حميدة، والوعد لمن هاجر منهم، والوعيد لمن تخلف

تعتبر الهجرة النبوية المباركة من مكة إلى المدينة أهم حدث في تاريخ الدعوة الإسلامية، إذ كانت نقطة تحول في تاريخ المسلمين، كان المسلمون قبل الهجرة أمة دعوة، يبلغون دعوة الله للناس، دون أن يكون لهم كيان سياسي، يحمي الدعاة أو يدفع عنهم الأذى من أعدائهم.

وبعد الهجرة تكونت دولة الدعوة، هذه الدولة التي أخذت على عاتقها نشر الإسلام في داخل الجزيرة العربية وخارجها، ترسل الدعاة إلى الأمصار وتتكفل بالدفاع عنهم وحمايتهم من أي اعتداء قد يقع عليهم ولو أدى ذلك إلى قيام حرب أو حروب(١٦٨).

وبجانب هذا، فإن الهجرة النبوية لها مكانتها في فهم القرآن وعلومه حيث فرق العلماء بين المكي والمدني، فالمكي: ما نزل قبل الهجرة وإن كان بغير مكة، والمدني: ما نزل بعد الهجرة وإن كان بغير المدينة وترتب على ذلك فوائد من أهمها:

١- تذوق أساليب القرآن الكريم والاستفادة منها في أسلوب الدعوة إلى الله.

٢- الوقوف على السيرة النبوية من خلال الآيات القرآنية(١٦٩) ولأهمية الهجرة النبوية نرى أن القرآن الكريم حث المؤمنين على الهجرة في سبيل الله بأساليب متنوعة، مرة بالثناء على المهاجرين بأوصاف حميدة، وأخرى بالوعد للمهاجرين، وتارة بالوعيد للمتخلفين عن الهجرة(١٧٠).

أولاً: الثناء على المهاجرين بأوصاف حميدة:

أثنى الله (سبحانه وتعالى) على المهاجرين في القرآن الكريم، ووصفهم بأوصاف حميدة متميزة، وذلك لأنهم أخرجوا من ديارهم وأموالهم. أكرههم على الخروج الأذى والاضطهاد والتنكر لهم من قرابتهم وعشيرتهم في مكة وما أخرجوا إلا أن يقولوا ربنا الله، فمن أهم الصفات المميزة للمهاجرين(١٧١).

١- الإخلاص:

قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (سورة الحشر، الآية:٨) قوله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ يدل على أنهم لم يخرجوا من ديارهم وأموالهم إلا أن يكونوا مخلصين لله، مبتغين مرضاته ورضوانه(١٧٢).

---

(١٦٨) انظر: الهجرة النبوية، الدكتور محمد أبو فارس ص١٣.
(١٦٩) انظر: مباحث في علوم القرآن للقطان ص٥٩.
(١٧٠) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ص٨٤.
(١٧١) نفس المصدر ص٨٥. هذا المبحث أخذته من هذا الكتاب مع التصرف اليسير.
(١٧٢) المصدر السابق ص٨٦.

٢- الصبر:

ومن صفات المهاجرين وأخلاقهم المتميزة التي أثنى الله عليها بها: الصبر قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ۝ الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (سورة النحل، الآيتان: ٤١-٤٢) وقال عز وجل: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة النحل، الآية: ١١٠).

٣- الصدق:

ومن الصفات الحميدة التي أثنى الله (سبحانه وتعالى) بها على المهاجرين الصدق قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (سورة الحشر، الآية: ٨).

قال البغوي في تفسيره: قوله: ﴿وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ في إيمانهم. قال قتادة: هؤلاء المهاجرون الذين تركوا الديار والأموال والعشائر وخرجوا حبًا لله ولرسوله واختاروا الإسلام على ما كانوا فيه من شدة، حتى ذكر لنا أن الرجل كان يعصب الحجر على بطنه ليقيم به صلبه من الجوع، وكان الرجل يتخذ الحضيرة في الشتاء ما له من دثار[(١٧٣)] غيرها.

٤- الجهاد والتضحية:

قال تعالى:

﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (سورة التوبة، الآية: ٢٠).

تركزت دعوة الرسل على التضحية والفداء إذ أنها تواجه عنادًا وتكذيبًا وعداء مستحكمًا، وهذا لابد من مواجهته بصلابة عود وقوة إيمان ورسوخ عقيدة وعظيم بدل، والحياة في ظل العقيدة حياة جهاد وكفاح ومنذ مطلع الدعوة كان نزول جبريل بالوحي إيذانًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم بإيذاء قومه حيث قال له ورقة بن نوفل: (هذا الناموس الذي أنزل على موسى يا ليتني فيها جذعًا[(١٧٤)] ليتني أكون حيًا حين يخرجك قومك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم **«أومخرجي هم؟»** فقال ورقة: (نعم لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي. وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا)[(١٧٥)].

وقد اشتمل حدث الهجرة على أنواع من التضحية والفداء، وبذل النفس والمال في سبيل الله[(١٧٦)].

---

(١٧٣) انظر: تفسير البغوي (٤/٣١٨).

(١٧٤) جذعًا: شابًا قويًا. انظر: هامش صحيح مسلم (١/١٤٢).

(١٧٥) مسلم، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي حديث رقم ٢٥٢ (١/١٤٢).

(١٧٦) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ص١٠٤.

ولعل الملاحظة الجديرة بالتأمل في هذا المجال، أن التضحية ملازمة للجهاد في سبيل الله، إذ لا جهاد دون تضحية[١٧٧].

٥- نصرهم لله ورسوله:

قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (سورة الحشر، الآية: ٨).

امتدح الله - (سبحانه وتعالى) - في هذه الآية الكريمة المهاجرين بأنهم ينصرون الله ورسوله، ذلك لأنهم ما خرجوا من بين الكفار مراغمين لهم مهاجرين إلى المدينة إلا لنصرة الله تعالى ورسوله.

ونصر الله شرط لتحقيق النصر والتثبت، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (سورة محمد، الآية: ٧).

قال سيد: وكيف ينصر المؤمنون الله، حتى يقوموا بالشرط وينالوا ما شرط لهم من النصر والتثبيت؟

إن لله في نفوسهم أن تتجرد له، وألا تشرك به شيئًا، شركًا ظاهرًا أو خفيًا، وألا تستبقي فيها معه أحدًا ولا شيئًا وأن يكون الله أحب إليها من ذاتها ومن كل ما تحب وتهوى، وأن تحكمه في رغباتها ونزواتها وحركاتها وسكناتها، وسرها وعلانيتها، ونشاطها كله وخلجاتها، فهذا نصر الله في ذوات النفوس.

وإن لله شريعة ومنهاجًا للحياة، تقوم على قواعد وموازين وقيم وتصور خاص للوجود كله وللحياة، ونصر الله يتحقق بنصرة شريعته ومنهاجه، ومحاولة تحكيمها في الحياة كلها بدون استثناء، فهنا نصر الله في واقع الحياة[١٧٨].

٦- التوكل على الله عزوجل:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ * الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (سورة النحل، الآيتان: ٤١-٤٢) يمتدح الله (سبحانه وتعالى) المهاجرين بأنهم يتوكلون على الله لا غيره، والتوكل على الله خاصية الإيمان وعلامته، وأنه منطق الإيمان ومقتضاه، قال تعالى: ﴿قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (سورة المائدة، الآية: ٢٣).

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ (سورة يونس، الآية: ٨٤).

وقال تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ

---

(١٧٧) نفس المصدر ص١٠٦ .

(١٧٨) في ظلال القرآن (٦/٣٢٨٨) .

منْ عبَاده وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَعلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (سورة إبراهيم، الآية: ١١).

وقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام مثالاً يقتدى به على مر الدهور في ترجمة التوكل في واقع الحياة في حادثة الهجرة ولحسن توكلهم على الله - (سبحانه وتعالى) أثنى عليهم وجزاهم أحسن الجزاء[١٧٩].

٧- الرجاء:

ومن صفات المهاجرين الحميدة التي مدحهم الله بها الرجاء قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أُوْلَـئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللّهِ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة البقرة، الآية: ٢١٨).

وإنما قال: ﴿يَرْجُونَ﴾ وقد مدحهم؛ لأنه لا يعلم أحد في هذه الدنيا أنه صائر إلى الجنة ولو بلغ في طاعة الله كل مبلغ لأمرين أحدهما: لا يدري بما يختم له والثاني: لئلا يتكل على عمله، فهؤلاء قد غفر الله لهم ومع ذلك يرجون رحمة الله وذلك زيادة إيمان منهم[١٨٠].

٨- اتباع الرسول (ﷺ):

ومما يدل على أن الهجرة لها مكانة عظيمة في القرآن الكريم أن الله (سبحانه وتعالى) وصف المهاجرين وأنصارهم بأنهم يتبعون الرسول صلى الله عليه وسلم قال تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة التوبة، الآية: ١١٧) فالمهاجرون والأنصار هم الذين يتبعون الرسول صلى الله عليه وسلم في أقواله وأعماله بل في ساعة العسرة مما يدل على أنهم يستحقون بذلك الدرجة العظمى، والتوبة من الله عز وجل.

وقد نزلت هذه الآية في غزوة تبوك، وذلك أنهم خرجوا إليها في شدة من الأمر في سنة مجدبة، وحر شديد وعسر في الزاد والماء.

قال قتادة: خرجوا إلى الشام عام تبوك في لهبان الحر على ما يعلم الله من الجهد أصابهم فيها جهد شديد حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم يمصها هذا ثم يشرب عليها ثم يمصها هذا ثم يشرب عليها، فتاب الله عليهم وأقفلهم[١٨١] من غزوتهم[١٨٢].

---

(١٧٩) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ص١١٤ إلى ١١٧ .

(١٨٠) الجامع لأحكام القرآن (٣/ ٥٠) ، تفسير أبي العود (١/ ٢١٨) .

(١٨١) أقفلهم: بمعنى أرجعهم سالمين .

(١٨٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٩٧) .

إن اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم يدل على حقيقة الإيمان، وحقيقة الدين، ويفرق تفريقًا حاسمًا بين الإيمان والكفر في جلاء ،كما أنه دليل على حب الله، وحب الله ليس دعوى باللسان، ولا هيامًا بالوجدان إلا أن يصاحبه الاتباع لرسول الله، والسير على هداه، وتحقيق منهجه في الحياة، إن الإيمان ليس كلمات تقال، ولا مشاعر تجيش، ولا شعائر تقام. ولكنه طاعة الله والرسول، وعمل بمنهج الله الذي يحمله الرسول، قال تعالى: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ**﴾ (سورة آل عمران، الآيتان: ٣١-٣٢).

قال ابن كثير في تفسيره للآية المذكورة: (هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي، في جميع أقواله وأعماله[١٨٣]، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»[١٨٤].

٩- حق السبق في الإيمان والعمل:

قال تعالى: ﴿**وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ (سورة التوبة، الآية: ١٠٠).

قال الرازي: والسبق موجب للفضيلة، فإقدامهم على هذه الأفعال يوجب اقتداء غيرهم بهم قال صلى الله عليه وسلم: «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة»[١٨٥]. فدواعي الناس تقوى بما يرون من أمثالهم في أحوال الدين والدنيا. وثبت بهذا أن المهاجرين هم رؤساء المسلمين وسادتهم[١٨٦].

وهكذا اختار الله (سبحانه وتعالى) السابقين من المهاجرين من تلك العناصر الفريدة النادرة التي تحتمل الضغوط والفتنة والأذى والجوع والغربة والعذاب والموت في أبشع الصور في بعض الأحيان، ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين في مكة، ثم ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين بعد ذلك في المدينة، مع السابقين من الأنصار الذين وإن كانوا لم يصطلوها في أول الأمر كما اصطلاها المهاجرون، إلا أن بيعتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم (بيعة العقبة) قد دلت على أن عنصرهم ذو طبيعة أصيلة مكافئة لطبيعة هذا الدين.

وبالمهاجرين والأنصار تكونت للإسلام قاعدة صلبة من أصلب العناصر عودًا في المجتمع العربي، فأما العناصر التي لم تحتمل هذه الضغوط فقد فتنت عن دينها وارتدت إلى الجاهلية

---

(١٨٣) نفس المصدر (٣/ ٤٦٦).
(١٨٤) مسلم، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة (٣/ ١٣٤٤)، رقم ١٧١٨.
(١٨٥) مسلم، كتاب العلم، باب من سنة سنّة حسنة أو سيئة، رقم ١٥.
(١٨٦) انظر: تفسير الرازي (١٥/ ٢٠٨).

مرة أخرى، وكان هذا النوع قليلاً، فقد كان الأمر كله معروفًا مكشوفًا من قبل، فلم يكن يقدم ابتداء على الانتقال من الجاهلية إلى الإسلام، وقطع الطريق الشائك الخطر المرهوب، إلا العناصر المختارة الممتازة الفريدة التكوين[١٨٧] وبذلك أيضًا تتضح لنا منزلة المهاجرين وعلو طبقتهم في الفضل حيث أنفقوا وقاتلوا، والعقيدة مطاردة، والأنصار قلة، وليس في الأفق ظل منفعة ولا سلطان ولا رخاء مما يدل على أنهم لا يستوون مع غيرهم من الذين أنفقوا وقاتلوا بعد تلك الظروف الصعبة[١٨٨]، قال تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (سورة الحديد، الآية: ١٠).

وقد تحدث ابن كثير عن آية سورة التوبة التي بينت فضل السابقين من المهاجرين والأنصار فقال: فقد أخبر الله العظيم أنه قد رضي الله عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فيا ويل من أبغضهم أو سبهم أو أبغض أو سب بعضهم، ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول وخيرهم وأفضلهم أعني الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ويبغضونهم ويسبونهم، عياذًا بالله من ذلك، وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة، وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن إذ يسبون من رضي الله عنهم؟ وأما أهل السنة فإنهم يترضون عمن رضي الله عنهم ويسبون من سبه الله ورسوله، يوالون من يوالي الله، ويعادون من يعادي الله وهم متبعون لا مبتدعون، ويقتدون ولا يبتدون، ولهذا هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنون[١٨٩].

١٠- الفوز:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (سورة التوبة، الآية: ٢٠).

قال أبو السعود في تفسيره: قوله تعالى: ﴿ ﴾ أي المختصون بالفوز العظيم أو بالفوز المطلق، كأن فوز من عداهم ليس بفوز بالنسبة إلى فوزهم[١٩٠].

فهذا ثناء من الله العلي العظيم على المهاجرين بأنهم يستحقون الفوز العظيم، والفوز يكون عظيمًا لأنه يأتي من مصدر العظمة وأي فوز أعظم من هذا الفوز، يخبرهم ربهم بأنهم من الفائزين في الآخرة، وذلك بدخولهم الجنة وبعدهم عن النار قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ

(١٨٧) في ظلال القرآن (٣/ ١٧٠٣).
(١٨٨) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ص١٢٤ .
(١٨٩) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٣٢).
(١٩٠) تفسير أبي السعود (٤/ ٥٣).

ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ (سورة آل عمران، الآية: ١٨٥).

١١- الإيمان الحقيقي:

ومن هذه الصفات الحميدة التي أثنى الله على المهاجرين بها في كتابه الكريم صفة الإيمان الحق قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (سورة الأنفال، الآية: ٧٤).

فهذه شهادة من الله العليم الخبير للمهاجرين بأنهم المؤمنون حقًّا، فالمهاجرون-رضوان الله عليهم- هم النموذج الحقيقي الذي يتمثل فيه الإيمان- بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أنهم قدوة حسنة لمن جاء بعدهم، وصورة حقيقية في ترجمة الصفات الحميدة في واقع الحياة، فلذلك استحقوا هذا الثناء الرباني بأنهم المؤمنون حقًّا، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (سورة الأنفال، الآيات: ٢-٤). وهذه الصفات الحميدة تتمثل في حياة المهاجرين- كما أن المتصفين بهذه الصفات هم المؤمنون حق الإيمان[١٩١].

ثانيًا: الوعد للمهاجرين:

ذكر الله تعالى بعض النعم التي وعدها الله عز وجل - للمهاجرين في الدنيا والآخرة ومن هذه النعم:

١- سعة رزق الله لهم في الدنيا:

قال تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللّهِ وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (سورة النساء، الآية: ١٠٠).

ومن سعة رزق الله لهم في الدنيا تخصيصهم بمال الفيء والغنائم قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (سورة الحشر، الآية: ٨) فالمال لهؤلاء لأنهم أخرجوا من ديارهم فهم أحق الناس به[١٩٢].

ومن سعة الله لهم في الرزق أن خلص الله عز وجل الأنصار من شح النفس ووسع صدورهم للمهاجرين قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ

---

(١٩١) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ص١٢٩ .

(١٩٢) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٢٩٥)، وتفسير أبي السعود (٨/ ٢٢٨)، وتفسير فتح القدير (٥/ ٢٠٠)؛ الهجرة في القرآن الكريم ص١٣٢ .

إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (سورة الحشر، الآية: ٩).

إن الله عز وجل وعد المهاجرين سعة الرزق في الدنيا، وتحقق ذلك الوعد الكريم، وذلك لأن الله عز وجل في منهجه الرباني القرآني يعالج هذه النفس في وضوح وفصاحة، فلا يكتم عنها شيئًا من المخاوف، ولا يداري، عنها شيئًا من الأخطار، بما في ذلك خطر الموت - ولكنه يكبسب فيها الطمأنينة بحقائق أخرى وبضمانة الله (سبحانه وتعالى) فهو يحدد الهجرة بأنها (في سبيل الله) . . وهذه هي الهجرة المعتبرة في الإسلام، فليست هجرة للثراء، أو هجرة للنجاة من المتاعب، أو هجرة للذائذ والشهوات، أو هجرة لأي عرض من أعراض الحياة، ومن يهاجر هذه الهجرة في سبيل الله يجد في الأرض فسحة ومنطلقًا فلا تضيق به الأرض، ولا يعدم الحيلة والوسيلة للنجاة وللرزق والحياة[١٩٣]، لئن الله سيكون في عونه ويسدد خطاه.

٢- تكفير سيئاتهم ومغفرة ذنوبهم:

ومن النعم التي وعدها الله - (سبحانه وتعالى) للمهاجرين تكفير سيئاتهم ومغفرة ذنوبهم، قال تعالى: **﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّن عِندِ اللّهِ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾** (سورة آل عمران، الآية: ١٩٥).

وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة في بيان أن الهجرة من أعظم الوسائل المكفرة للسيئات، وأنها سبب لمغفرة ذنوب أهلها ومن هذه الأحاديث، عن أبي شماسة المهري قال: حضرنا عمرو بن العاص وهو في سياقة[١٩٤] الموت فبكى طويلاً وحول وجهه إلى الجدار فجعل ابنه يقول: يا أبتاه أما بشرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بكذا؟ أما بشرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بكذا؟ قال: فأقبل بوجهه فقال: إن أفضل ما نعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله أني كنت على أطباق[١٩٥] ثلاث فقد رأيتني وما أحد أشد بغضًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم مني ولا أحب إلي أن أكون قد استمكنت منه فقتلته فلو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار، فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقلت: أبسط يمينك فلأبايعنك، فبسط يمينه، قال: فقبضت يدي، قال: **«ما لك يا عمرو؟»** قال: قلت: أردت أن أشترط، قال: **«تشترط بماذا؟»** قلت أن يغفر لي، قال: **«أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟ وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله؟»** وما كان أحد أحب إلي من رسول الله صلى الله

(١٩٣) في ظلال القرآن (٢/ ٧٤٥) .

(١٩٤) سياقة الموت: أي النزع ، كأن روحه تساق لتخرج من بدنه .

(١٩٥) أطباق ثلاث: أحوال ثلاث ، واحدها طبق .

عليه وسلم ولا أجل في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه، إجلالاً له، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت لأني لم أكن أملأ عيني منه، ولو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة، ثم ولينا أشياء ما أدري ما حالي فيها، فإذا أنا مت فلا تصحبني نائحة ولا نار، فإذا دفنتموني فشنوا[١٩٦] علي التراب شنًا، ثم أقيموا حول قبري قدر ما تنحر جزور ويقسم لحمها، حتى أستأنس بكم، وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي[١٩٧].

قال النووي فيه: عظم موقع الإسلام والهجرة والحج، وإن كل واحد منهما يهدم ما كان قبله من المعاصي، وفيه استحباب تنبيه المحتضر على إحسان ظنه بالله (سبحانه وتعالى)، وذكر آيات الرجاء وأحاديث العفو عنده، وتبشيره بما أعده الله تعالى للمسلمين، وذكر حسن أعماله عنده ليحسن الظن بالله تعالى ويموت عليه، وهذا الأدب، مستحب بالإتفاق[١٩٨].

٣- ارتفاع منزلتهم وعظمة درجتهم عند ربهم:

وعد الله - (سبحانه وتعالى) - للذين نالوا أفضل الإيمان والهجرة، والجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم الدرجات عند الله، قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ**﴾ (سورة التوبة، الآية: ٢٠).

يقول الفخر الرازي: إن الموصوفين بهذه الصفات الأربعة في غاية الجلالة والرفعة، لأن الإنسان ليس له إلا مجموع أمور ثلاثة: الروح، والبدن، والمال، أما الروح فلما زال عنه الكفر وحصل فيه الإيمان، فقد وصل إلى مراتب العادات اللائقة بها، وأما البدن والمال فبسبب الهجرة وقعا في النقصان وبسبب الاشتغال بالجهاد صارا معرضين للهلاك والبطلان، ولا شك أن كلا من النفس والمال محبوب للإنسان، والإنسان لا يعرض عن مجموعه إلا للفوز بمحبوب أكمل من الأول، فلولا أن طلب الرضوان أتم عندهم من النفس والمال، وإلا لما رجحوا جانب الآخرة على جانب النفس والمال ولما رضوا بإهدار النفس والمال لطلب مرضات الله تعالى.

فثبت أن عند حصول الصفات الأربعة صار الإنسان واصلاً إلى آخر درجات البشرية وأول مراتب درجات الملائكة، وهم بذلك يكونون أفضل من كل من سواهم من البشر على الإطلاق، لأنه لا يعقل حصول سعادة و فضيلة للإنسان أعلى وأكمل من هذه الصفات[١٩٩].

فالذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم وأعلى مقامًا في

---

(١٩٦) فشنوا علي التراب: الصب المنقطع بالشين والعن الصب المتواصل، الهجرة في القرآن الكريم ص١٣٦.

(١٩٧) مسلم، كتاب الايمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله رقم ١٩٢.

(١٩٨) انظر: شرح النووي لصحيح مسلم (٢/ ١٢٥) بتصرف، الهجرة في القرآن الكريم ص١٣٨.

(١٩٩) انظر: تفسير الرازي (١٦/ ١٣) وما بعدها بتصرف.

مراتب الفضل والكمال في حكم الله، وأكبر مثوبة من أهل سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام الذين رأى بعض المسلمين أن عملهم إياهما من أفضل القربات بعد الإسلام.

فالذين نالوا فضل الهجرة والجهاد بنوعيه النفسي والمالي أعلى مرتبة وأعظم كرامة ممن لم يتصف بهما كائنًا من كان، ويدخل في ذلك أهل السقاية والعمارة(٢٠٠).

وأنه تعالى لم يقل: أعظم درجة من المشتغلين بالسقاية والعمارة لأنه لو عين ذكرهم لأوهم أن فضيلتهم إنما حصلت بالنسبة إليهم، ولما ترك ذكر المرجوح، دل ذلك على أنهم أفضل من كل من سواهم على الإطلاق؛ لأنه لا يعقل حصول سعادة وفضيلة للإنسان أعلى وأكمل من هذه الصفات(٢٠١). والتفضيل هنا في قوله: ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ﴾ ليس على وجهه، فهو لا يعني أن للآخرين درجة أقل، إنما هو التفضيل المطلق، فالآخرون ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ فلا مفضلة بينهم وبين المؤمنين المهاجرين المجاهدين في درجة ولا في نعيم(٢٠٢).

٤- استحقاقهم الجنة والخلود فيها:

ومن النعم التي أعدها الله – (سبحانه وتعالى) – للمهاجرين الجنة والخلود فيها قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (سورة التوبة، الآيات: ٢٠، ٢١، ٢٢).

قال الشوكاني في تفسيره: والتنكير في الرحمة والرضوان والجنان للتعظيم، والمعنى أنها فوق وصف الواصفين وتصور المتصورين. والنعيم المقيم: الدائم المستمر الذي لا يفارق صاحبه، وذكر الأبد بعد الخلود تأكيد له(٢٠٣). هذه بشرى ما بعدها بشرى كما وعدها الله -(سبحانه وتعالى)- للمؤمنين والمؤمنات قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (سورة التوبة، الآية: ٧٢).

٥- الفوز العظيم ورضوان الله عليهم:

ومن النعم التي وعد الله (سبحانه وتعالى) – للمهاجرين أنهم سينالون الفوز العظيم، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (سورة التوبة، الآية: ٢٠).

ورضوان الله تعالى عليهم أكبر وأجل وأعظم مما هم فيه من النعيم، وهو نهاية

---

(٢٠٠) تفسير المراغي (١٠/ ٧٨).

(٢٠١) تفسير الرازي (١٦/ ١٤).

(٢٠٢) في ظلال القرآن (٣/ ١٦١٤)، الهجرة في القرآن الكريم ص١٤١.

(٢٠٣) تفسير فتح القدير (٢/ ٣٤٥)، الهجرة في القرآن الكريم ص١٤٢.

الإحسان، وهو أعلى النعم وأكمل الجزاء[٢٠٤]، كما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (سورة التوبة، الآية: ٧٢).

ورضى الله عنهم هو الرضى الذي تتبعه المثوبة، وهو في ذاته أعلى وأكرم مثوبة، ورضاهم عن الله هو الاطمئنان إليه على نعمائه، والصبر على ابتلائه. ولكن التعبير بالرضى هنا وهناك يشيع جو الرضى الشامل الغامر، المتبادل الوافر، الوارد الصادر، بين الله (سبحانه وتعالى) وهذه الصفوة المختارة من عباده، ويرفع من شأن هذه الصفوة - من البشر حتى ليبادلون ربهم الرضى، وهو ربهم الأعلى، وهم عبيده المخلوقون .. وهو حال وشأن وجو لا تملك الألفاظ البشرية أن تعبر عنه، ولكن يتسم ويتشرف ويستجلي من خلال النص القرآني بالروح المتطلع والقلب المتفتح والحس الموصول[٢٠٥].

هذا بعض ما واعد الله به المهاجرين من الجزاء والثواب بسبب جهادهم المرير.

إن المهاجرين بإيمانهم الراسخ، ويقينهم الخالص لم يمكنوا الجاهلية في مكة من وأد الدعوة، وهي في مستهل حياتها، لقد استمسكوا بما أوحى إلى نبيهم ولم تزدهم حماقة قريش إلاّ اعتصامًا بما اهتدوا إليه وآمنوا به، فلما أسرفت الجاهلية في عسفها واضطهادها وأذن الله لهؤلاء المؤمنين الصابرين بالهجرة من مكة خرجوا من ديارهم وأموالهم، ويمموا صوب المدينة ليس رهبة من الكفر ولا رغبة في الدنيا، ولكنهم كانوا بذلك يرجون رحمة الله ويبتغون فضلاً منه ورضوانًا لذلك صاروا أهلاً لما أسبغه الله عليهم من فضل في الدنيا، وما أعده لهم يوم القيامة من ثواب عظيم[٢٠٦].

ثالثاً: الوعيد للمتخلفين عن الهجرة:

إن الأسلوب القرآني في الوعد والوعيد يهدف إلى الخشية والرجاء في النفوس، رجاء يدفعها إلى الطاعة والاستقامة، وخشية تمنعها من المعصية وتسرع بها إلى الاستغفار والتوبة، والمؤمن بينهما في معادلة جد دقيقة لئلا يقع فريسة لليأس والقنوط، ولا يندفع إلى الجراءة على محارم الله، أو التهاون فيما أمر الله، ولقد استطاع القرآن الكريم بسلاحيه هذين أن يحفظ للفرد شخصيته، وللمجتمع مقوماته في الحياة والمال والعقل والعرض والدين[٢٠٧]، وهي كليات تقوم عليها الحياة الرشيدة الفاضلة، ولقد رأت الحياة النور في أجيال عديدة أنارها القرآن بالوعد والرجاء، وبالوعيد والخشية، ولما خفت ذلك النور ببعد الناس عن القرآن اصطدم الفرد بفطرته والمجتمع بواقعه، فاضطربت القيم، وانهارت الأخلاق، وفسدت المعاملات والمناهج والتصورات، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، وأن

---

(٢٠٤) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٢٠)، تفسير المراغي (١٠/ ٧٩)، الهجرة في القرآن الكريم ص١٤٤.

(٢٠٥) في ظلال القرآن (٣/ ١٧٠٥).

(٢٠٦) انظر: هجرة الرسول وصحابته في القرآن والسنّة للجمل ص٣٣٢، ٣٣٣.

(٢٠٧) ولا شك أن سلطان الدولة المسلمة يحافظ على مقاصد الشريعة.

تخشى الله لا تخشى سواه، وأن ترجوه لا ترجو إلا إياه[٢٠٨].

ومن العقوبات التي توعد الله عز وجل - للمتخلفين عن الهجرة سوء المصير، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ (سورة النساء: الآية: ٩٧).

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن ناسًا من المسلمين كانوا مع المشركين، يكثرون سوادهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، يأتي السهم فيرمى به فيصيب أحدهم فيقتله، أو يضرب عنقه فيقتل فأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ﴾ [٢٠٩].

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: (كان قوم من أهل مكة أسلموا وكانوا يستخفون بالإسلام فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم، فأصيب بعضهم، فقال المسلمون: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ﴾ الآية، قال: فكتب إلى من بقي بمكة من المسلمين بهذه الآية، لا عذر لهم، قال: فخرجوا فلحقهم المشركون فأعطوهم الفتنة فنزلت فيهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاء نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة العنكبوت، الآية: ١٠).

فكتب المسلمون إليهم بذلك، فخرجوا وأيسوا من كل خير، ثم نزلت فيهم: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة النحل، الآية: ١١٠)[٢١٠].

لقد وصف الله - سبحانه - المتخلفين عن الهجرة بأنهم ظالموا أنفسهم، وفي المراد بالظلم في هذه الآية، أن الذين أسلموا في دار الكفر وبقوا هناك، ولم يهاجروا إلى المدينة، ظلموا أنفسهم بتركهم الهجرة[٢١١]. وبما أنهم حرموها في دار الإسلام، تلك الحياة الرفيعة النظيفة الكريمة الحرة الطليقة، وألزموها الحياة في دار الكفر تلك الذليلة الخاسئة الضعيفة المضطهدة، وتوعدهم رضي الله عنه ﴿جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ مما يدل على أنها تعني الذين فتنوا عن دينهم بالفعل هناك[٢١٢].

وفي هذه الآية الكريمة وعيد للمتخلفين عن الهجرة بهذا المصير السيء، وبالتالي التزم الصحابة بأمر الله وانضموا إلى المجتمع الإسلامي في المدينة تنفيذًا لأمر الله وخوفًا من عقابه

(٢٠٨) انظر: تفسير سورة فصلت، د. محمد صالح علي، دار النفائس ص٩٨ نقلاً عن الهجرة في القرآن الكريم ص١٥١.

(٢٠٩) البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ﴾.

(٢١٠) زاد المسير لابن الجوزي (٢/ ٩٧)، تفسير القاسمي (٣/ ٣٩٩).

(٢١١) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ص١٦١.

(٢١٢) في ظلال القرآن (٢/ ٤٧٣).

وكان لهذا الوعيد أثره في نفوس الصحابة رضي الله عنهم، فهذا ضمرة بن جندب لما بلغه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ وهو بمكة قال لبنيه: احملوني فإني لست من المستضعفين، وإني لأهتدي الطريق، وإني لا أبيت الليلة بمكة، فحملوه على سرير، متوجهًا إلى المدينة وكان شيخًا كبيرًا، فمات بالتنعيم، ولما أدركه الموت أخذ يصفق بيمينه على شماله، ويقول: اللهم هذه لك وهذه لرسولك صلى الله عليه وسلم، أبايعك على ما بايع عليه رسولك، ولما بلغ خبر موته الصحابة رضي الله عنهم قالوا: ليته مات بالمدينة، فنزل[٢١٣] قوله تعالى: ﴿إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً * فَأُوْلَـئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوّاً غَفُوراً﴾ (سورة النساء، الآيتان: ٩٨-٩٩).

وهذا الموقف يرينا ما كان عليه جيل الصحابة من سرعة في امتثال الأمر، وتنفيذه في النشاط والشدة، كائنة ما كانت ظروفهم، فلا يلتمسون لأنفسهم المعاذير، ولا يطلبون الرخص[٢١٤].

فهذا الصحابي تفيد بعض الروايات أنه كان مريضًا[٢١٥] إلا أنه رأى أنه ما دام له مال يستعين به ويحمل به إلى المدينة، فقد انتفى عذره، وهذا فقه أملاه الإيمان، وزكاه الإخلاص واليقين[٢١٦].

وبعد أن ذكر الله عز وجل وعيده للمتخلفين عن الهجرة بسوء مصيرهم، استثنى في ذلك من لا حيلة لهم في البقاء في دار الكفر، والتعرض للفتنة في الدين، والحرمان من الحياة في دار الإسلام من الشيوخ والضعاف، والنساء والأطفال، فيعلقهم بالرجاء في عفو الله ومغفرته ورحمته بسبب عذرهم البين وعجزهم عن الفرار[٢١٧]، قال تعالى: ﴿إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً * فَأُوْلَـئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوّاً غَفُوراً﴾ (سورة النساء، الآيتان: ٩٨-٩٩).

●●●

(٢١٣) روح المعاني (٥/١٢٨، ١٢٩) للألوسي، أسباب النزول للواحدي ص١٨١.
(٢١٤) انظر: الهجرة النبوية المباركة ص١٢٤.
(٢١٥) نفس المصدر ص١٢٥.
(٢١٦) المصدر السابق ص١٢٦.
(٢١٧) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ص١٦٧.



الفصل السابع

دعائم دولة الإسلام في المدينة



شرع رسول الله (ﷺ) منذ دخوله المدينة يسعى لتثبيت دعائم الدولة الجديدة على قواعد متينة وأسس راسخة، فكانت أولى خطواته المباركة: الاهتمام ببناء دعائم الأمة كبناء المسجد الأعظم بالمدينة، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار على الحب في الله، وإصدار الوثيقة أو الدستور الإسلامي في المدينة الذي ينظم العلاقات بين المسلمين واليهود ومشركي الأنصار، وإعداد جيش لحماية الدولة والسعي لتحقيق أهدافها، والعمل على حل مشاكل المجتمع الجديد وتربيته على المنهج الرباني في كافة شؤون الحياة، فقد استمر البناء التربوي والتعليمي، واستمر القرآن الكريم يتحدث في المدينة عن عظمة الله، وحقيقة الكون والترغيب بالجنة والترهيب من النار ويشرّع الأحكام لتربية الأمة، ودعم مقومات الدولة التي ستحمل نشر دعوة الله بين الناس قاطبة، وتجاهد في سبيل الله وكانت مسيرة الأمة العلمية والتربوية تتطور مع تطور مراحل الدعوة وبناء المجتمع وتأسيس الدولة وعالج رسول الله (ﷺ) الأزمة الاقتصادية بالمدينة من خلال المنهج الرباني، واستمر البناء التربوي، ففرض الصيام، والزكاة وأخذ المجتمع يزدهر والدولة تتقوى على أسس ثابتة وقوية.

●●●



المبحث الأول

الدعامة الأولى
بناء المسجد الأعظم بالمدينة

كان أول ما قام به الرسول (ﷺ) بالمدينة بناء المسجد، وذلك لتظهر فيه شعائر الإسلام التي طالما حوربت، ولتقام فيه الصلوات التي تربط المرء برب العالمين وتنقي القلب من أدران الأرض، وأدناس الحياة الدنيا[١]. روى البخاري بسنده أن رسول الله (ﷺ) دخل المدينة راكبًا راحلته، فسار يمشي معه الناس حتى بركت عند مسجد رسول الله (ﷺ) بالمدينة وهو يصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين، وكان مربدًا[٢] للتمر لسهل وسهيل غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة، فقال رسولالله (ﷺ) حين بركت به راحلته: «هذا إن شاء الله المنزل» ثم دعا رسول الله (ﷺ) الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجدًا فقال: لا، بل نهبه لك يا رسول الله فأبى رسول الله (ﷺ) أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما[٣]، وفي رواية أنس بن مالك: فكان فيه قبور المشركين، وفيه خرَب، وفيه نخل، فأمر النبي (ﷺ) بقبور المشركين فنبشت، ثم بالخرب فسويت، وبالنخل فقطعت، فصفوا النخل قبلة المسجد، وجعلوا عضادتيه الحجارة، وجعلوا ينقلون الصخر، وهم يرتجزون، والنبي معهم (ﷺ) وهو يقول:

اللهم لا خير إلا خير الآخرة
فاغفر للأنصار والمهاجرة[٤]

شرع الرسول (ﷺ) في العمل مع أصحابه، وضرب أول معول في حفر الأساس الذي كان عمقه ثلاثة أذرع، ثم اندفع المسلمون في بناء هذا الأساس بالحجارة، والجدران، التي لم تزد عن قامة الرجل إلا قليلاً، باللبن الذي يعجن بالتراب ويسوّى على شكل أحجار صالحة للبناء[٥]. وفي الناحية الشمالية منه أقيمت ظلة من الجريد على قوائم من جذوع النخل، كانت تسمّى «الصُفّة». أما باقي أجزاء المسجد فقد تركت مكشوفة بلا غطاء[٦].

أما أبواب المسجد فكانت ثلاثة: باب في مؤخرته من الجهة الجنوبية، وباب في الجهة الشرقية كان يدخل منه رسول الله (ﷺ) بإزاء باب بيت عائشة، وباب من الجهة الغربية يقال له باب الرحمة أو باب عاتكة[٧].

---

(١) انظر: فقه السيرة للغزالي ص١٩١ ، وفقه السيرة للبوطي ص١٥١ .
(٢) مربد: الموضع الذي نجفف فيه التمر . القاموس المحيط (١/ ٣٠٤) .
(٣) البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب هجرة النبي وأصحابه (٥/ ٧٨) .
(٤) مسلم - كتاب المساجد ومواضع الصلاة - باب مسجد النبي - رقم ١٥٢٤ (١/ ٧٣٧)
(٥) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٣٣) ، انظر: التاريخ الإسلامي والعسكري ، علي معطي ص١٥٦ .
(٦) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٣٠٣) ، محمد رسول الله لمحمد رضا ص١٤٣ .
(٧) انظر: التاريخ السياسي والعسكري لدولة المدينة ، علي معطي ص١٥٧ .

أولاً: بيوتات النبي (ﷺ) التابعة للمسجد:

وبني لرسول الله (ﷺ) حُجر حول مسجده الشريف، لتكون مساكن له ولأهله، ولم تكن الحجر كبيوت الملوك والأكاسرة والقياصرة، بل كانت بيوت مَن ترفع عن الدنيا وزخارفها، وابتغى الدار الآخرة، فقد كانت كمسجده مبنية من اللبن والطين وبعض الحجارة، وكانت سقوفها من جذوع النخل والجريد، وكانت صغيرة الفناء قصيرة البناء، ينالها الغلام الفارع بيده. قال الحسن البصري - وكان غلامًا مع أمه خيْرة مولاة أم سلمة: (قد كنت أنال أول سقف في حجر النبي (ﷺ) بيدي)[٨]. وهكذا كانت بيوت النبي (ﷺ) في غاية البساطة، بينما كانت المدينة تشتهر بالحصون العالية التي كان يتخذها علية القوم تباهيًا بها في السلم واتقاء بها في الحرب، وكانوا من تفاخرهم بها يضعون لها أسماء، كما كان حصن عبد الله بن أبي بن سلول اسمه مزاحم، وكما كان حصن حسان بن ثابت رضي الله عنه اسمه فارع.

ولكن النبي (ﷺ) بنى بيوته بذلك الشكل المتواضع، وكان باستطاعته أن يبني لنفسه قصورًا شاهقة، ولو أنه أشار إلى رغبته بذلك مجرد إشارة لسارع الأنصار في بنائها له، كما كان بإمكانه أن يشيدها من أموال الدولة العامة كالفيء ونحوه، ولكنه (ﷺ) لم يفعل ذلك ليضرب لأمته مثلاً رفيعًا وقدوة عالية في التواضع والزهد في الدنيا وجمع الهمة والعزيمة للعمل لما بعد الموت[٩].

ثانيا: الأذان في المدينة:

تشاور رسول الله (ﷺ) مع أصحابه لإيجاد عمل ينبه النائم ويذكر الساهي ويعلم الناس بدخول الوقت لأداء الصلاة، فقال بعضهم: ترفع راية إذا حان وقت الصلاة ليراها الناس، فاعترضوا على هذا الرأي لأنها لا تفيد النائم ولا الغافل، وقال آخرون تشعل نار على مرتفع من الهضاب ،فلم يقبل هذا الرأي أيضًا وأشار آخرون ببوق وهو ما كانت اليهود تستعمله لصلواتهم، فكرهه الرسول (ﷺ) لأنه يحب مخالفة أهل الكتاب في أعمالهم، وأشار بعض الصحابة باستعمال الناقوس وهو ما يستعمله النصارى فكرهه الرسول (ﷺ) أيضًا، وأشار فريق بالنداء فيقوم بعض الناس إذا حانت الصلاة وينادي بها فقيل هذا الرأي وكان أحد المنادين عبد الله بن زيد الأنصاري فبينما هو بين النائم واليقظان، إذ عرض له شخص وقال: ألا أعلمك كلمات تقولها عند النداء بالصلاة؟ قال بلى، فقال له: قل: الله أكبر، مرتين ثم قل: لا إله إلا الله فلما استيقظ توجه إلى الرسول (ﷺ) وأخبره خبر رؤياه فقال: **«إنها لرؤيا حق»**، ثم قال له: **«لقن بلالاً فإنه أندى صوتًا منك؟»** وبينما بلال يؤذن للصلاة بهذا الأذان جاء عمر بن الخطاب يجر رداءه فقال: والله لقد رأيت مثله يا رسول الله، وكان بلال بن

---

(٨) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/٣٦) .

(٩) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/١٣) .

رباح أحد مؤذنيه بالمدينة والآخر عبد الله بن أم مكتوم، وكان بلال يقول في أذان الصبح بعد حيّ على الفلاح، الصلاة خير من النوم مرتين وأقرّه الرسول (ﷺ) على ذلك، وكان يؤذن في البداءة من مكان مرتفع ثم استحدث المنارة (المئذنة)(١٠).

ثالثًا: أول خطبة خطبها رسول الله (ﷺ) بالمدينة:

كانت أول خطبة خطبها رسول الله (ﷺ) بالمدينة أنه قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال:

«أما بعد: أيها الناس فقدموا لأنفسكم. تعلمُنَّ، والله ليُصعقنّ أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع، ثم ليقولن له ربه وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه: ألم يأتك رسولي فبلّغك وآتيتك مالاً، وأفضلت عليك، فما قدمت لنفسك؟ فلينظرن يمينا وشمالاً فلا يرى شيئًا، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم، فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل ومن لم يجد فبكلمة طيبة، فإنها بها تجزى الحسنة عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف. والسلام عليكم وعلى رسول الله ورحمة الله وبركاته».

ثم خطب رسول الله (ﷺ) مرة أخرى فقال:

«إن الحمد الله أحمده وأستعينه، نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إن أحسن الحديث كتاب الله تبارك وتعالى، قد أفلح من زينه الله في قلبه، وأدخله في الإسلام بعد الكفر، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس، إنه أحسن الحديث وأبلغه، أحبوا من أحبّه الله، أحبوا الله من كل قلوبكم، ولا تملّوا كلام الله وذكره، ولا تقس عنه قلوبكم، فإن كل ما يخلق الله يختار ويصطفى من الحديث، ومن كل ما أوتي الناس من الحلال والحرام، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، واتقوه حق تقاته، واصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم، وتحابوا بروح الله، إن الله يغضب إن نكث عهده، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»(١١).

رابعًا: الصُفّة التابعة للمسجد النبوي:

لما تمّ تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة بأمر الله تعالى، وذلك بعد ستة عشر شهرًا من هجرته (ﷺ) إلى المدينة(١٢)، بقي حائط القبلة الأولى في مؤخر المسجد النبوي، فأمر النبي (ﷺ) به فظلل أو سُقِّف، وأطلق عليه اسم الصفة أو الظلة(١٣)، ولم يكن له ما يستر جوانبها(١٤).

---

(١٠) انظر: نور اليقين للخضري ص٨٧– ٨٨، تاريخ خليفة بن خياط ص٥٦، نقلاً عن تاريخ دولة الإسلام الأولى، د. فايد حماد عاشور، سليمان أبو عزب ص١٠٨.

(١١): السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٦٦، ١٦٧)، سنن البيهقي (٢/ ٥٢٤، ٥٢٥)

(١٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ٢٥٧).

(١٣) انظر: السمهودي وفاء الوفاء (١/ ٣٢١). (١٤) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٥٨).

قال القاضي عياش: الصفة ظلة في مؤخر مسجد رسول الله (ﷺ) يأوي إليها المساكين، وإليها تنسب أهل الصفة[١٥].

وقال ابن تيمية: الصفة كانت في مؤخرة مسجد النبي (ﷺ) في شمالي المسجد بالمدينة المنورة[١٦].

وقال ابن حجر: الصفة مكان في مؤخر المسجد النبوي مظلل أعد لنزول الغرباء فيه ممن لا مأوى له ولا أهل[١٩].

١- أهل الصُفّة:

قال أبو هريرة: (وأهل الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون على أهل ولا مال ولا على أحد)[٢٠].

إن المهاجرين الأوائل الذين هاجروا قبل النبي (ﷺ) أو معه أو بعده حتى نهاية الفترة الأولى قبل غزوة بدر، استطاع الأنصار أن يستضيفوهم في بيوتهم وأن يشاركوهم النفقة، ولكن فيما بعد كبر حجم المهاجرين مما لم يعد هناك قدرة للأنصار على استيعابهم[٢١].

فقد صار المهاجرون يكثرون بعد ذلك شيئًا بعد شيء، فإن الإسلام صار ينتشر والناس يدخلون فيه، ويكثر المهاجرون إلى المدينة من الفقراء والأغنياء، والآهلين والعزاب، فكان من لم يتيسر له مكان يأوي إليه يأوي إلى تلك الصفة في المسجد[٢٢].

والذي يظهر للباحث أن المهاجر الذي يقدم إلى المدينة كان يلتقي بالرسول (ﷺ)، ثم يوجهه بعد ذلك إلى من يكفله فإن لم يجد فإنه يستقر في الصفة مؤقتا ريثما يجد السبيل[٢٣]، فقد جاء في المسند عن عبادة بن الصامت قال: (كان رسولالله (ﷺ) يُشغل، فإذا قدم رجل مهاجر على رسول الله (ﷺ) دفعه إلى رجل منا يعلمه القرآن، فدفع إليّ رسول الله (ﷺ) رجلاً، وكان معي في البيت أعشيه عشاء أهل البيت، فكنت أقرئه القرآن»[٢٤] وقد كان أول من نزل الصفة المهاجرين[٢٥]، لذلك نسبت إليهم فقيل صفة المهاجرين[٢٦]، وكذلك كان ينزل بها الغرباء من الوفود التي كانت تقدم على النبي (ﷺ)

(١٥) انظر: نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية لعبد الحي الكتاني.
(١٦) الفتاوى (١١/ ٣٨).
(١٧) انظر: فتح الباري (٦/ ٥٩٥)، (١/ ٥٣٥).
(١٨) البخاري رقم ٦٤٥٢.
(١٩) انظر: السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة للشامي ص١٧٥.
(٢٠) الفتاوى (١١/ ٤٠- ٤١).
(٢١) انظر: السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة ص١٧٥.
(٢٢) المسند (٥/ ٣٢٤).
(٢٣) انظر: السمهودي: وفاء الوفاء (١/ ٣٢٣).
(٢٤) سنن أبي داود (٢/ ٣٦١).
(٢٥) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٥٨).
(٢٦) نفس المصدر (١/ ٢٥٩).

معلنة إسلامها وطاعتها[٢٧]، وكان الرجل إذا قدم على النبي (ﷺ) وكان له عريف نزل عليه وإذا لم يكن له عريف نزل مع أصحاب الصفة[٢٨]، وكان أبو هريرة رضي الله عنه عريف من سكن الصفة من القاطنين ومن نزلها من الطارقين، فكان النبي (ﷺ) إذا أراد دعوتهم عهد إلى أبي هريرة فدعاهم لمعرفته بهم وبمنازلهم ومراتبهم في العبادة والمجاهدة[٢٩] ونزل بعض الأنصار في الصفة حبًا لحياة الزهد والمجاهدة والفقر رغم استغنائهم عن ذلك ووجود دار لهم في المدينة، ككعب بن مالك الأنصاري، وحنظلة بن أبي عامر الأنصاري)) غسيل الملائكة» وحارثة بن النعمان الأنصاري وغيرهم[٣٠].

٢- نفقة أهل الصُفّة ورعاية النبي والصحابة لهم:

كان النبي (ﷺ) يتعهد أهل الصفة بنفسه، فيزورهم ويتفقد أحوالهم ويعود مرضاهم، كما كان يكثر مجالستهم ويرشدهم ويواسيهم ويذكرهم ويعلمهم ويوجههم إلى قراءة القرآن الكريم ومدارسته وذكر الله والتطلع إلى الآخرة[٣١]، **وكان (ﷺ) يؤمن نفقتهم بوسائل متعددة ومتنوعة فمنها:**

* إذ أتته (ﷺ) صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئًا، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها، وأشركهم فيها[٣٢].

* كثيرًا ما كان يدعوهم إلى تناول الطعام في إحدى حجرات أمهات المؤمنين رضي الله عنهم ولم يكن يغفل عنهم مطلقًا، بل كانت حالتهم ماثلة أمامه، فعن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما، قال إن أصحاب الصفة كانوا أناسا فقراء، وإن النبي (ﷺ) مرّة قال: **«من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس أو سادس»** - أو كما قال - وإن أبا بكر جاء بثلاثة، وانطلق النبي (ﷺ) بعشرة . . . .

وعن يعيش بن طخفة بن قيس الغفاري قال: (كان أبي من أصحاب الصفة، فأمر رسول الله (ﷺ) بهم، فجعل الرجل ينقلب بالرجل، والرجل بالرجلين، حتى بقيت خامس خمسة، فقال رسول الله (ﷺ): **«انطلقوا»** فانطلقنا معه إلى بيت عائشة . . .»[٣٣].

* وكان (ﷺ) يطلب من الناس أن يوجهوا صدقاتهم إليهم. فقد جاء في المسند أن فاطمة لما ولدت حسنًا، طلب منها (ﷺ) أن تحلق رأسه وتتصدق بوزن شعره من فضة على أهل الصفة[٣٣].

---

(٢٧) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٥٩) .
(٢٨) نفس المصدر (١/ ٢٥٩) .
(٢٩) المصدر السابق (١/ ٢٦٦) .
(٣٠) البخاري رقم ٣٥٨١ ، ومسلم برقم ٢٠٥٧ .
(٣١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٦٧) .
(٣٢) انظر: المسند (٣/ ٤٢٩) .
(٣٣) انظر: المسند (٦/ ٣٩٠، ٣٩١) .

* وقد كان (ﷺ) يقدم حاجتهم على غيرها مما يطلب منه، فقد أتى بسبي مرة فأتته فاطمة رضي الله عنها تسأله خادمًا، فكان جوابه - كما في المسند عند الإمام أحمد : «**والله لا أعطيكم وأدع أهل الصفة تطوي بطونهم من الجوع لا أجد ما أنفق عليهم، ولكن أبيعهم وأنفق عليهم أثمانهم**»[٣٤].

* وقد أوصى النبي (ﷺ) الصحابة بالتصدق على أهل الصفة[٣٥]، فجعلوا يصلونهم بما استطاعوا من خير[٣٦]، فكان أغنياء الصحابة يبعثون بالطعام إليهم[٣٧].

٣- انقطاعهم للعلم والعبادة والجهاد:

كان أهل الصفة يعتكفون في المسجد للعبادة ويألفون الفقر والزهد، فكانوا في خلواتهم يصلون ويقرؤون القرآن ويتدارسون آياته ويذكرون الله تعالى، ويتعلم بعضهم الكتابة حتى أهدى أحدهم قوسه لعبادة بن الصامت رضي الله عنه لأنه كان يعلمهم القرآن والكتابة[٣٨]، واشتهر بعضهم بالعلم وحفظ الحديث عن النبي (ﷺ) مثل أبي هريرة رضي الله عنه عرف بكثرة تحديثه، وحذيفة بن اليمان الذي اهتم بأحاديث الفتن.

وكان أهل الصُّفة يشاركون في الجهاد، بل كان منهم الشهداء ببدر مثل صفوان بن بيضاء، وخريم بن فاتك الأسدي، وخبيب بن يساف، وسالم بن عمير وحارثة بن النعمان الأنصاري[٣٩]، ومنهم من استشهد بأحد مثل حنظلة الغسيل[٤٠]، ومنهم من شهد الحديبية مثل جرهد بن خويلد وأبو سريحة الغفاري[٤١]، ومنهم من استشهد بخيبر مثل تقف بن عمرو[٤٢] ومنهم من استشهد بتبوك مثل عبد الله ذو البجادين[٤٣].

ومنهم من استشهد باليمامة مثل سالم مولى أبي حذيفة وزيد بن الخطاب، فكانوا رهبانًا بالليل فرسانًا في النهار[٤٤].

وكان بعض الصحابة قد اختاروا المكوث في الصفة رغبة منهم لا اضطرارًا، كأبي هريرة رضي الله عنه، فقد أحب أن يلازم رسول الله (ﷺ) ويعوض ما فاته من العلم والخير ، فقد

---

(٣٤) أصل الحديث في البخاري برقم ٣١١٣ .
(٣٥) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/٢٦٧) .
(٣٦) انظر: الحلية (١/ ٣٤٠) .
(٣٧) نفس المصدر (١/٣٧٨) .
(٣٨) سنن أبي داود (٢/٢٣٧) ، وابن ماجه (٢/ ٧٣٠) .
(٣٩) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٦٤) .
(٤٠) انظر: حلية الاولياء (١/ ٣٧٥) .
(٤١) نفس المصدر (١/ ٣٥٣ ، ٣٥٥) .
(٤٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٦٤) .
(٤٣) نفس المصدر (١/ ٢٦٤) .
(٤٤) المصدر السابق (١/ ٢٦٤) .

جاء إلى المدينة بعد فتح خيبر في العام السابع، وحرص على سماع أكبر قدر ممكن من حديثه (ﷺ) ومعرفة أحواله وتبركًا بخدمته (ﷺ)، وهذا لا يتوفر له إلا إذا كان قريبًا من بيت النبي (ﷺ) ،فكانت الصفة هي المكان الوحيد الذي يؤمن له ذلك ،ولنستمع إليه يوضح لنا ذلك، قال أبو هريرة رضي الله عنه: (إنكم تقولون: إن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله (ﷺ)، وتقولون: ما بال المهاجرون والأنصار لا يحدثون عن رسول الله (ﷺ)، بمثل حديث أبي هريرة، وإن إخوتي من المهاجرين كان يشغلهم صفق الأسواق، وكنت ألزم رسول الله (ﷺ) على ملء بطني، فأشهد إذا غابوا، وأحفظ إذا نسوا، وكان يشغل إخوتي من الأنصار عمل أموالهم، وكنت امرءًا مسكينًا من مساكين الصفة، أعي حين ينسون)[٤٥] .

وهكذا يوضح رضي الله عنه أنه فعل ذلك رغبة منه في ملازمة النبي ثم إن أبا هريرة كان له سكن في المدينة، وهو المكان الذي تسكنه أمه، والتي طلب من النبي (ﷺ) أن يدعو لها بالهداية[٤٦] ثم إن أبا هريرة لم يكن فقيرًا معدمًا، ففي أول يوم قدم فيه على النبي (ﷺ) في خيبر أسهم له (ﷺ) من الغنيمة، كما أنه لما قدم كان معه عبد يخدمه كما ورد في الصحيح[٤٧] وإذن فالذي أفقره هو إيثاره ملازمة النبي (ﷺ) واستماع أحاديثه، وكان يستطيع الاستغناء عن الصُّفَّة لو أراد[٤٨].

كان أهل الصُّفَّة يكثرون ويقلّون بحسب تبدّل الأحوال التي تحيط بأهل الصُّفَّة من عودة الأهل، أو زوج، أو يسر بعد عُسْر، أو شهادة في سبيل الله.

ولم يكن فقرهم لقعودهم عن العمل وكسب الرزق، فقد ذكر الزمخشري أنهم كانوا يرضخون النوى بالنهار، ويظهر أنهم كانوا يرضخون النوى - يكسرونه- لعلف الماشية، وهم ليسوا أهل ماشية، فهم إذن يعملون لكسب الرزق[٤٩].

٤- عددهم وأسماؤهم:

كان عددهم يختلف باختلاف الأوقات، فهم يزيدون إذا قدمت الوفود إلى المدينة ويقلون إذا قل الطارقون من الغرباء، على أن عدد المقيمين منهم في الظروف العادية كان في حدود السبعين رجلاً[٥٠]، وقد يزيد عددهم كثيرًا حتى أن سعد بن عبادة كان يستضيف وحده ثمانين منهم فضلاً عن الآخرين الذين يتوزعهم الصحابة[٥١].

ومن أهل الصُّفَّة كل من:

---

(٤٥) البخاري رقم ٢٠٤٧ ، مسلم رقم ٢٤٩٢ .

(٤٦) مسلم برقم ٢٤٩١ .

(٤٧) انظر: السيرة النبوية تربية أمة و بناء دولة ص١٨٤ .

(٤٨) نفس المصدر ص١٨٤ .

(٤٩) انظر: المدينة النبوية فجر الإسلام والعصر الراشدي لشُرَّاب (١/ ٢٢٢) .

(٥٠) انظر: أبو نعيم الحلية (١/ ٣٣٩ ، ٣٤١) .

(٥١) نفس المصدر (١/ ٣٤١) .

١- أبو هريرة رضي الله عنه حيث نسب نفسه إليهم.
٢- أبو ذر الغفاري رضي الله عنه حيث نسب نفسه إليهم.
٣- واثلة بن الأسقع.
٤- قيس بن طهفة الغفاري، حيث نسب نفسه إليهم.
٥- كعب بن مالك الأنصاري.
٦- سعيد بن عامر بن حذيم الجمحي.
٧- سلمان الفارسي.
٨- أسماء بن حارثة بن سعيد الأسلمي.
٩- حنظلة بن أبي عامر الأنصاري (غسيل الملائكة).
١٠- حازم بن حرملة.
١١- حارثة بن النعمان الأنصاري النجاري.
١٢- حذيفة بن أسيد أبو سريحة الأنصاري.
١٣- حذيفة بن اليمان.
١٤- جارية بن جميل بن شبة بن قرط.
١٥- جعيل بن سراقة الضمري.
١٦- جرهد بن خويلد الأسدي.
١٧- رفاعة أبو لبابة الأنصاري.
١٨- عبد الله ذو البجادين.
١٩- دكين بن سعيد المزني وقيل: الخثعمي.
٢٠- خبيب بن يساف بن عنبة.
٢١- خريم بن أوس الطائي.
٢٢- خريم بن فاتك الأسدي.
٢٣- خنيس بن حذافة السهمي.
٢٤- خباب بن الأرت.
٢٥- الحكم بن عمير الثمالي.
٢٦- حرملة بن أياس، وقيل: حرملة بن عبد الله العنبري[٥٢].
٢٧- زيد بن الخطاب.

(٥٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٦٢).

٢٨- عبد الله بن مسعود.
٢٩- الطفاوي الدوسي.
٣٠- طلحة بن عمرو النضري.
٣١- صفوان بن بيضاء الفهري.
٣٢- صهيب بن سنان الرومي.
٣٣- شداد بن أسيد.
٣٤- شقران مولى النبي (ﷺ).
٣٥- السائب بن خلاد.
٣٦- سالم بن عمير من الأوس من بني ثعلبة بن عمرو بن عوف.
٣٧- سالم بن عبيد الأشجعي.
٣٨- سالم مولى أبي حذيفة.
٣٩- سالم بن عمير من الأوس من بني ثعلبة بن عمرو بن عوف.
٤٠- سفينة مولى النبي (ﷺ).
٤١- أبو رزين.
٤٢- الأغر المزني.
٤٣- بلال بن رباح.
٤٤- البراء بن مالك الأنصاري.
٤٥- ثوبان مولى النبي (ﷺ).
٤٦- ثابت بن وديعة الأنصاري.
٤٧- ثقيف بن عمرو بن شميط الأسدي.
٤٨- سعد بن مالك أبو سعيد الخدري.
٤٩- العرباض بن سارية.
٥٠- غرفة الأزدي.
٥١- عبد الرحمن بن قرط.
٥٢- عبادة بن خالد الغفاري[٥٣] رضي الله عنه أجمعين وغيرهم من الصحابة الكرام.

وقد وقع بعض الباحثين في خطأ فادح حين استدل بعضهم على مشروعية مسلك بعض المنحرفين من المتصوفة، من حيث ترك العمل والإخلاد إلى الراحة والكسل، والمكوث في

(٥٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٦٣).

الزوايا والتكايا، بحجة التوكل بحال أهل الصُّفَّة[٥٤] إن أبا هريرة، وهو أكثر ارتباطًا بالصُّفَّة من غيره لم يستمر فيها وخـرج إلى الحياة، بل أصبح أميرًا في بعض أيامه على البحرين في عهـد عمر بن الخطاب ولم يكن مـخشوشنًا في حـياته[٥٥]، بل إن أهل الصـفـة كـانوا من المجاهدين في سبيل الله في ساحات القتال وقد استشهد بعضهمّ كما ذكرت.

خامسًا: فوائد ودروس وعبر:

١- المسجد من أهم الركائز في بناء المجتمع:

إن إقامة المساجد من أهم الركائز في بناء المجتمع الإسلامي، ذلك أن المجتمع المسلم إنما يكتسب صـفة الرسوخ والتمـاسك بالتزام نظام الإسلام وعقـيدته وآدابه، وإنما ينبع ذلك من روح المسجد ووحيه[٥٦].

قال تعـالى: ﴿**لاَ تَقُمْ فيه أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى منْ أَوَّل يَوْم أَحَقُّ أَن تَقُومَ فيه فيه رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ**﴾ (سورة التوبة، الآية: ١٠٨)

قـال تعـالى: ﴿ **في بُيُوت أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ* رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ * لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ (سورة النور، الآيات: ٣٦- ٣٨).

٢- المسجد رمز لشمولية الإسلام:

أ- فهـو قد أنشئ ليكون مـتعـبدا لصلاة المؤمنين وذكـرهم الله تعالى وتسـبيـحهم له، وتقديسهم إياه بحمده وشكره على نعمه عليـهم يدخله كل مسلم ويقيم فيه صلاته وعباداته، ولا يضّاره أحد، ما دام حافظًا لقداسته ومؤديًا حق حرمته.

ب- وهو قـد أنشئ ليكون ملتقى رسـول الله (ﷺ) بأصحـابه والوافدين عليـه، طلبًا للهداية ورغبة في الإيمان بدعوته وتصديق رسالته.

ج- وهو قد أنشئ ليكون جامعة للعلوم والمعـارف الكونية والعقلية والتنزلية، التي حث القرآن الكـريم على النظر فيهـا، وليكون مدرسـة يتدارس فـيها المؤمنون أفكـارهم وثمرات عقولهم، ومعهدًا يؤمه طلاب العلم من كل صوب؛ ليتفقهوا في الدين وليرجعوا إلى قومهم مبشرين ومنذرين، داعين إلى الله هادين، يتوارثونها جيلاً بعد جيل.

د- وهو قد أنشئ ليـجد فيـه الغريب مأوى، وابـن السبيل مـستقـرًا لا تكدره منّة أحد عليه، فينهل من رفـده ويعب من هدايته ما أطاق استعداده النفسـي والعقلي، لا يصده أحد عن علم أو معـرفة أو لون من ألوان الهداية، فكم من قـائد تخرج فيـه، وبرزت بطولته بين

(٥٤) انظر: السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة ص١٨٦ .

(٥٥) نفس المصدر ص١٨٨ .

(٥٦) انظر: فقه السيرة للبوطي ص٢٠٣ .

جدرانه، وكم من عالم استبحر علمه في رحابه، ثم خرج به على الناس يروي ظمأهم للمعرفة؟ وكم من داع إلى الله تلقّى في ساحاته دروس الدعوة إلى الله فكان أسوة الدعاة، وقدوة الهداة، وريحانة جذب القلوب شذاها فانجفلت تأخذ عنها الهداية لتستضيء بأنوارها؟

وكم من أعرابي جلف لا يفرق بين الأحمر والأصفر، وفد عليه فدخله ورأى أصحاب رسول الله (ﷺ) حوله هالة تحف به، يسمعون منه وكأن على رؤوسهم الطير، فسمع معهم وكانت عنده نعمة العقل مخبأة تحت ستار الجهالة، فانكشف له غطاء عقله، فعقل وفقه، واهتدى واستضاء، ثم عاد إلى قومه إمامًا يدعوهم إلى الله ويربيهم بعلمه الذي علم، وسلوكه الذي سلك ف،آمنوا بدعوته، واهتدوا بهديه، فكانوا سطرًا منيرًا في كتاب التاريخ الإسلامي[٥٧].

هـ- وهو قد أنشئ ليكون قلعة لاجتماع المجاهدين إذا استنفروا، تعقد فيه ألوية الجهاد والدعوة إلى الله، وتخفق فيه فوق رؤوس القادة الرايات للتوجه إلى مواقع الأحداث، وفي ظلها يقف جند الله في نشوة ترقب النصر أو الشهادة.

و- وهو قد أنشئ ليجد فيه المجتمع المسلم الجديد ركنًا في زواياه؛ ليكون مشفى يستشفى فيه جرحى كتائب الجهاد، ليتمكن نبي الله (ﷺ) من عيادتهم، والنظر في أحوالهم، والاستطباب لهم، ومداواتهم في غير مشقة ولا نصب، تقديرًا لفضلهم.

ز- وهو قد أنشئ ليكون مركزًا لبريد الإسلام، منه تصدر الأخبار، ويرد البريد، وتصدر الرسائل، وفيه تتلقى الأنباء السياسية سلمًا أو حربًا وفيه تتلقى وتقرأ رسائل البشائر بالنصر، ورسائل طلب المدد، وفيه ينعي المستشهدون في معارك الجهاد ليتأسى بهم المتأسون، وليتنافس في الاقتداء بهم المتنافسون.

ح- وهو قد أنشئ ليكون مرقبًا للمجتمع المسلم، يتعرف منه على حركات العدو المريبة ويرقبها، ولا سيما الأعداء الذين معه يساكنونه ويخالطونه في بلده من شراذم اليهود وزمر المنافقين ونفايات الوثنية، الذين انغمسوا في الشرك فلم يتركوه، ليعذر المجتمع المسلم عاقبة كيدهم وسوء مكرهم وتدبيرهم، ويأمن مغبة غدرهم وخياناتهم[٥٨].

فالمسجد النبوي بدأ بتأسيسه وبنائه رسول الله (ﷺ) أول ما بدأ من عمل في مستقره ودار هجرته في مطلع مقدمه؛ ليكون نموذجًا يحتذى به في بساطة المظهر، وعمق المخبر، ليحقق به أعظم الأهداف وأعمها، بأقل النفقات وأيسر المشقات[٥٩].

٣- التربية بالقدوة العملية:

من الحقائق الثابتة أن النبي (ﷺ) شارك أصحابه العمل والبناء، فكان يحمل الحجارة

---

(٥٧) انظر: محمد رسول الله، محمد الصادق عرجون (٣/ ٣٤، ٣٥).

(٥٨) انظر: محمد رسول الله، محمد عرجون (٣/ ٣٦).

(٥٩) نفس المصدر (٣/ ٣٣).

وينقل اللبن على صدره وكتفيه، ويحفر الأرض بيديه كأي واحد منهم، فكان مثال الحاكم العادل الذي لا يفرّق بين رئيس ومرؤوس أو بين قائد ومقود، أو بين سيد ومسود، أو بين غني وفقير، فالكل سواسية أمام الله، لا فرق بين مسلم وآخر إلا بالتقوى، ذلك هو الإسلام عدالة ومساواة في كل شيء، والفضل فيه يكون لصاحب العطاء في العمل الجماعي للمصلحة العامة، وبهذا الفضل ثواب من الله، والرسول (ﷺ) كغيره من المسلمين، لا يطلب إلا ثواب الله[٦٠]، فقد كانت مشاركة النبي (ﷺ) في عملية البناء ككل العمال الذين شاركوا فيه، وليس بقطع الشريط الحريري فقط، وليس بالضربة الأولى بالفأس فقط، بل غاص بعملية البناء كاملة، فقد دهش المسلمون من النبي (ﷺ)، وقد علته غَبرة، فتقدم أسيد ابن حضير رضي الله عنه ليحمل عن رسول الله (ﷺ)، فقال: يا رسول الله أعطينه؟ فقال: «**اذهب فاحتمل غيره؛ فإنك لست بأفقر من الله مني**»[٦١]، فقد سمع المسلمون ما يقول النبي (ﷺ) لصاحبه، فازدادوا نشاطًا واندفاعًا في العمل[٦٢].

إنه مشهد فريد من نوعه ولا مثيل له في دنيا الناس، وإذا كان الزعماء والحكام قد يقدمون على المشاركة أحيانًا بالعمل لتكون شاشات التلفزيون جاهزة لنقل أعمالهم، وتملأ الدنيا في الصحف ووسائل الإعلام كلها بالحديث عن أخلاقهم وتواضعهم فالنبي (ﷺ) ينازع الحجر أحد أفراد المسلمين، ويبين له أنه أفقر إلى الله تعالى، وأحرص على ثوابه منه.

وقد تفاعل الصحابة الكرام تفاعلاً عظيمًا في البناء وأنشدوا هذا البيت:

لئن قعدنا والنبي يعمل ... ذاك منا العمل المضلّل[٦٣]

إن هذه التربية العملية لا تتم من خلال الموعظة، ولا من خلال الكلام المنمق، إنما تتم من خلال العمل الحي الدؤوب، والقدوة المصطفاة من رب العالمين، والتي ما كان يمكن أن تتم في أجواء مكة، والملاحقة والاضطهاد والمطاردة فيها، إنما تتم في هذا المجتمع الجديد والدولة التي تبنى، وكأنما غدا هذا الجمع من الصحابة الكرام كله صوتًا واحدًا، وقلبًا واحدًا، فمضى يهتف:

اللهم إن العيش عيش الآخرة ... فانصر الأنصار والمهاجرة

ويهتف بلحن واحد:

لئن قعدنا والنبي يعمل ... فذاك منا العمل المضلل

وكان الهتاف الثالث:

هذي الحمال لا حمال خيبر ... هذا أبر لربنا وأطهر[٦٤]

---

(٦٠) انظر: التاريخ الإسلامي والعسكري، د. علي معطي ص١٥٨.
(٦١) انظر: صور من حياة الرسول، أمين دويدار ص٢٦١.
(٦٢) انظر: التاريخ السياسي والعسكري، د. علي معطي ص١٥٨.
(٦٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/٤٩٦).
(٦٤) انظر: التربية القيادية (٢/٢٤٩).

فحمل التمر والزبيب من خيبر إلى المدينة كانت لها مكانتها في المجتمع اليثربي، أصبحت لا تذكر أمام حمل الطوب لبناء المسجد النبوي العظيم، فقد أيقنوا ﴿ **مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ (سورة النحل، آية٩٦).

وأما الهتاف الرابع:

لا يستوي من يعمر المساجدا ومن يُرى عن الغبار حائدا[٦٥]

٤- الاهتمام بالخبرة والاختصاص:

أخرج الإمام أحمد عن طَلْق بن علي اليمامي الحنفي، قال بنيت المسجد مع رسول الله (ﷺ)، فكان يقول: «**قربوا اليمامي من الطين فإنه أحسنكم له مسيسًا**» وأخرج الإمام أحمد عن طلق أيضًا، قال: جئت إلى النبي (ﷺ) وأصحابه يبنون المسجد، وكأنه لم يعجبه عملهم، فأخذت المسحاة، فخلطت الطين، فكأنه أعجبه فقال: «**دعوا الحنفي والطين؛ فإنه أضبطكم للطين**» وأخرج ابن حبان عن طلق، فقال: فقلت: يا رسول الله أأنقل كما ينقلون؟ قال: «**لا، ولكن اخلط لهم الطين، فأنت أعلم به**»[٦٦].

فقد اهتم النبي (ﷺ) بهذا الوافد الجديد على المدينة، والذي لم يكن من المسلمين الأوائل، ووظف خبرته في خلط الطين، وفي قوة العمل، وهو درس للمسلمين في الثناء على الكفاءات والاستفادة منها، وإرشاد نبوي كريم في كيفية التعامل ،معها وما أحوجنا إلى هذا الفهم العميق[٦٧].

٥- شعار الدولة المسلمة:

إن أذان الصلاة شعار لأول دولة إسلامية عالمية (**الله أكبر، الله أكبر**) إنها تعني أن الله أكبر من أولئك الطغاة، وأكبر من صانعي العقبات، وهو الغالب على أمره.)أشهد أن لا إله إلا الله) أي لا حاكمية ولا سيادة ولا سلطة إلا لله رب العالمين (إن الحكم إلا لله)، فمعنى لا إله إلا الله: لا حاكم ولا آمر ولا مشرع إلا الله (أشهد أن محمدًا رسول الله) أسلمه الله تعالى القيادة، فليس لأحد أن ينزعها منه، فهو ماضي بها إلى أن يُكمل الله دينه بما ينزله على رسوله من قرآن، وبما يلهمه إياه من سنّة[٦٨]، ويعني الاعتراف لرسول الله بالرسالة، والزعامة الدينية والدنيوية، والسمع والطاعة له[٦٩]، (حي على الصلاة، حي على الفلاح) أقبل يا أيها الإنسان للانضواء تحت لواء هذه الدولة التي أخلصت لله، وجعلت من أهدافها تمتين العلاقة بين المسلم وخالقه، وتمتين العلاقة بين المؤمنين على أساس من القيم السامية.

(٦٥) انظر: محمد رسول الله ، محمد عرجون (٣/ ١٥) .
(٦٦) نفس المصدر (٣/ ١٥) .
(٦٧) انظر: التربية القيادية ، (٢/ ٢٥٢) .
(٦٨) انظر: قراءة سياسية للسيرة النبوية ، محمد قلعجي ص١١٤ .
(٦٩) انظر: دولة الرسول (ﷺ) من التكوين إلى التمكين ، كامل سلامة الدقس ص٤٣٨ .

(قد قامت الصلاة)، وقد اختيرت الصلاة من بين سائر العبادات؛ لأنها عماد الدين كله، ولأنها بما فيها من الشعائر كالركوع والسجود والقيام أعظم مظهر لمظاهر (العبادة) بمعناها الواسع التي تعني: الخضوع والتذلل والاستكانة، فهي خضوع ليس بعده خضوع، فكل طاعة لله على وجه الخضوع والتذلل فهي عبادة، فهي طاعة العبد لسيده، فيقف بين يديه قد أسلم نفسه طاعة وتذلل قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ سورة غافر، آية: ٦٦).

وهذا الارتباط بين شعار الدولة الرسمي بحاكمية الله وسيادة الشرع، وسقوط الطواغيت، وقوانينهم وأنظمتهم وشرائعهم بـ(حي على الفلاح - قد قامت الصلاة) يشير إلى: لا قيام للصلاة ولا إقامة لها كما ينبغي إلا في ظل دولة تقوم عليها وتقوم بها ولها، فقد كان المسلمون يصلون خفية في شعاب مكة قبل قيام دولتهم، أما وقد قامت تحت حماية سيوف الأنصار، فليجهروا بالأذان والإقامة، وليركعوا ويسجدوا مع الراكعين.

إن الواقع التاريخي خير شاهد على أن الله لا يعبد في الأرض حق عبادته إلا في ظل دولة قوية تحمي رعاياها من أعداء الدين.

ثم تتكرر كلمات الأذان (الله أكبر الله أكبر..) للتأكيد على المعاني السابقة[٧٠].

إننا بحاجة ماسة لفهم الأذان، وإدراك معانيه والعمل على ترجمته ترجمة عملية، لنجاهد في الله حق جهاده حتى تدمر شعارات الكفر ونرفع شعارات الإيمان، ونقيم دولة التوحيد التي تحكم بشرع الله ومنهجه القويم.

٦- حكم تشييد المساجد ونقشها وزخرفتها:

والتشييد أن تقام عمارة المسجد بالحجارة مما يزيد في قوة بنائه ومتانة سقفه وأركانه، والنقش والزخرفة ما جاوز أصل البناء من شتى أنواع الزينة.

فأما التشييد فقد أجازه واستحسنه العلماء عامة، بدليل ما فعله عمر وعثمان رضي الله عنهما من إعادة بناء مسجده عليه الصلاة والسلام، وفي ذلك عناية واهتمام بشعائر الله تعالى، واستدل العلماء على ذلك بقوله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ (سورة التوبة، آية: ١٠٨).

وأما النقش والزخرفة، فقد أجمع العلماء على كراهتهما، ثم هم في ذلك بين محرّم ومكرّه كراهة تنزيه، غير أن الذين قالوا بالحرمة والذين قالوا بالكراهة اتفقوا على أنه يحرم صرف المال الموقوف لعمارة المساجد على شيء من الزخرفة والنقش[٧١]، وكان أول من زخرف المساجد الوليد بن عبد الملك بن مروان، ومن يومها والناس شرعوا يغالون في بناء

---

(٧٠) انظر: دولة الرسول صلى الله عليه وسلم من التكوين إلى التمكين ص٤٣٩ .

(٧١) انظر: فقه السيرة النبوية للبوطي ص١٤٥ .

المساجد وزخرفتها حتى أصبح بعضها من قبيل المتاحف، نقصد لما فيها من زخرفة للصلاة فيها، وكل ذلك خارج عن هَدي النبوة[٧٢]، فعندما زخرفت المساجد وخرجت عن نمط البساطة الذي أرشد إليه النبي (ﷺ) انهارت من الداخل نفوس المترفين، وبخع الأسف نفوس المستضعفين، وتنافس في شهوات التزخرف الفارغون من عواصم الإيمان[٧٣].

إن الذين يهتمون بتعمير المساجد وتشييدها وينصرفون بكل جهودهم إلى التفنن في تزيينها ونقشها وإضفاء مختلف مظاهر الأبهة عليها قد وقعوا في خطأ عظيم، حتى أن الداخل إليها لا يكاد يستشعر أي معنى من ذل العبودية لله عز وجل، وإنما يستشعر ما ينطق به لسان حالها من الافتخار بما ارتقى إليه فن الهندسة المعمارية، وفنون الزخرفة العربية.

إن الفقراء لم يعودوا يستطيعون أن يتهربوا من مظاهر الإغراء الدنيوي إلى أي جهة، لقد كان في المساجد ما يعزي الفقير بفقره، ويخرجه من جو الدنيا وزخرفها إلى الآخرة وفضلها، فأصبحوا يجدون حتى في مظهر هذه المساجد ما يذكّرهم بزخارف الدنيا التي حُرموها ويشعرهم بنكد الفقر وأوضاره، فما أسوأ ما وقع فيه المسلمون من هجرات لحقائق إسلامهم وانشغال بمظاهر كاذبة ظاهرها الدين وباطنها الدنيا بكل ما فيها من شهوات وأهواء[٧٤].

٧- فضائل المسجد النبوي:

تحدث النبي (ﷺ) عن فضائل المسجد النبوي ولذلك تعلق الصحابة به، ويمكننا تلخيص هذه الفضائل في الآتي:

أ- تأسيس المسجد النبوي على التقوى:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: دخلت على رسول الله (ﷺ) في بيت بعض نسائه، فقلت يا رسول الله، أي المسجدين الذي أسس على التقوى؟ قال: فأخذ كفًا من حصباء فضرب به الأرض، ثم قال: «**هو مسجدكم هذا**»[٧٥] لمسجد المدينة.

وقد تكلم بعض العلماء في الأحاديث التي أشارت إلى أن المسجد النبوي هو الذي أسس على التقوى بحجة أنها معارضة لقوله تعالى: **﴿لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾** (سورة التوبة، آية: ١٠٨).

وقد اختلف العلماء في المراد بالمسجد الذي أسس على التقوى في الآية السابقة، فقال بعضهم: هو مسجد النبي (ﷺ)، وقال آخرون: هو مسجد قباء، وقد ذكر أقوالهم محمد بن

---

(٧٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٣٣).

(٧٣) انظر: محمد رسول الله، محمد عرجون (٣/ ٣٩).

(٧٤) انظر: فقه السيرة النبوية للبوطي ص١٤٦.

(٧٥) صحيح مسلم رقم ١٣٩٨.

جرير الطبري في تفسيره، ثم قال: (وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب، قول من قال: هو مسجد الرسول (ﷺ)، لصحة الخبر بذلك عن رسول الله (ﷺ)) [٧٦].

ولا معارضة بين الحديث والآية السابقة - على القول بأن المراد بالمسجد الذي أسس على التقوى فيها هو مسجد قباء - لأن كلا من المسجدين أسس على التقوى [٧٧]، وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن الآية السابقة نزلت بسبب مسجد قباء، ثم قال: (لكن الحكم يتناوله ويتناول ما هو أحق منه بذلك، وهو مسجد المدينة، وهذا يوجه ما ثبت في الصحيح عن النبي (ﷺ) أنه سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى، فقال: «**هو مسجدي هذا**» [٧٨].

وقال في موضع آخر: (. . . فتبين أن كلا المسجدين أسس على التقوى، لكن مسجد المدينة أكمل في هذا النعت، فهو أحق بهذا الاسم، ومسجد قباء كان سبب نزول الآية. .) [٧٩].

وذكر الحافظ ابن حجر: أن السّر في جوابه (ﷺ) بأن المسجد الذي أسس على التقوى مسجده رفع توهم أن ذلك خاص بمسجد قباء [٨٠].

ب- فضل الصلاة في المسجد النبوي:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): «**صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام**» [٨١].

جـ- أحد المساجد الثلاثة التي لا تشد الرحال إلا إليها:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «**لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجد الحرام، ومسجد الأقصى، ومسجدي هذا**» [٨٢].

د- الروضة في المسجد النبوي:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي (ﷺ) قال: «**ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي**» [٨٣].

هـ- فضل التعلم والتعليم في المسجد النبوي:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله (ﷺ) يقول: «**من دخل مسجدنا هذا يتعلم خيراً أو يعلمه كان كالمجاهد في سبيل الله، ومن دخله لغير ذلك كان كالناظر إلى ما**

---

(٧٦) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ٤٧٦- ٤٧٩).
(٧٧) انظر: الأحاديث الواردة في فضائل المدينة، د. صالح الرفاعي ص٣٧٢.
(٧٨) انظر: منهاج السنّة النبوية (٧/ ٧٤).
(٧٩) انظر: مجموع الفتاوى (٢٧/ ٤٠٦).
(٨٠) فتح الباري (٧/ ٢٥٤).
(٨١) صحيح البخاري (٣/ ٦٣) رقم ١١٩٠.
(٨٢) صحيح البخاري (٣/ ٦٣) رقم ١١٨٨. (٨٣) صحيح البخاري (٣/ ٧٠) رقم ١١٩٦.

ليس له» .

٧- آية نزلت في أهل الصفة وفقراء المهاجرين:

قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة، آية: ٢٧٣).

فقد ذكر ابن سعد بسنده إلى ابن كعب القرظي قال: هم أصحاب الصفة[٨٥]، وذكر الطبري بأسانيده عن مجاهد والسدي أنها في فقراء المهاجرين[٨٦].

إن الأحداث التي تتعلق بالدعامة الأولى في المجتمع كثيرة وكذلك ما يتعلق بها من أحكام، كضمان حقوق الأيتام، وجواز نبش القبور الدارسة، واتخاذ موضعها مسجدًا إذا نظفت وطابت أرضها، إلا أنني اكتفي بهذه الدروس والعبر والفوائد فيما يتعلق بالمسجد خوفًا من الإطالة.

●●●

(٨٤) انظر: المصنف لأبي شيبة (٢/ ٣٧١)، (١٢/ ٢٠٩) رقم ١٢٥٦٧ وفي رواية الحاكم قال: (هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، فقد احتجا بجميع رواته، ثم لم يخرجاه، ولا أعلم له علة). وأقره الذهبي. انظر: تلخيص المستدرك (١/ ٩١).

(٨٥) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (١/ ٢٥٥).

(٨٦) انظر: تفسير الطبري (٥/ ٥٩١) ط محمود شاكر، السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ٢٦٩).



المبحث الثاني

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

كان من أولى الدعائم التي اعتمدها الرسول (ﷺ) في برنامجه الإصلاحي والتنظيمي للأمة وللدولة والحكم، الاستمرار في الدعوة إلى التوحيد والمنهج القرآني وبناء المسجد، وتقرير المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وهي خطوة لا تقل أهمية عن الخطوة الأولى في بناء المسجد؛ لكي يتلاحم المجتمع المسلم ويتآلف وتتضح معالم تكوينه[٨٧] الجديد.

كان مبدأ التآخي العام بين المسلمين قائمًا منذ بداية الدعوة في عهدها المكي، ونهى الرسول (ﷺ) عن كل ما يؤدي إلى التباغض بين المسلمين فقال (ﷺ): **«لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانًا ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام»**[٨٨].

وقال (ﷺ): **«المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه[٨٩] ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته[٩٠] ومن فرج عن مسلم كربة[٩١]، فرّج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة»**[٩٢].

وقد أكد القرآن الكريم الأخوة العامة بين أبناء الأمة في قوله تعالى: **﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾** (سورة آل عمران، آية: ١٠٣).

وقوله تعالى: **﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾** (سورة الأنفال، آية: ٦٣).

أما موضوع هذا البحث فهو المؤاخاة الخاصة التي شرعت وترتبت عليها حقوق وواجبات أخص من الحقوق والواجبات العامة بين المؤمنين كافة[٩٣].

وقد تحدث بعض العلماء عن وجود مؤاخاة كانت في مكة بين المهاجرين، فقد أثار البلاذري إلى أن النبي (ﷺ) آخى بين المسلمين في مكة قبل الهجرة على الحق والمواساة،

---

(٨٧) انظر: الإدارة الإسلامية في عصر عمر بن الخطاب، د. مجدلاوي ص٥٢، ٥٣.
(٨٨) البخاري، رقم ٦٠٦٥، مسلم رقم ٢٤.
(٨٩) أي لا يتركه مع من يؤذيه ولا فيما يؤذيه، بل ينصره ويدفع عنه.
(٩٠) مسند أحمد رقم ٧٩٢٩.
(٩١) كربة: أي غمة.
(٩٢) البخاري، رقم ٢٤٤٢.
(٩٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ٢٤٠).

فآخى بين حمزة وزيد بن حارثة، وبين أبي بكر وعمر، وبين عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وبين الزبير بن العوام وعبد الله بن مسعود، وبين عبيدة بن الحارث وبلال الحبشي، وبين مصعب بن عمير وسعد بن أبي وقاص، وبين أبي عبيدة بن الجراح وسالم مولى أبي حذيفة، وبين سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وطلحة بن عبيد الله، وبينه وبين علي بن أبي طالب[٩٤]، ويعتبر البلاذري (ت٢٧٦) أقدم من أشار إلى المؤاخاة المكية، وقد تابعه في ذلك ابن عبد البر (ت٤٦٣هـ) دون أن يصرح بالنقل عنه، كما تابعهما ابن سيد الناس دون التصريح بالنقل عن أحدهما[٩٥]، وقد أخرج الحاكم في المستدرك من طريق جميع ابن عمير عن ابن عمر: (آخى رسول الله (ﷺ) بين أبي بكر وعمر، وبين طلحة والزبير، وبين عبد الرحمن بن عوف وعثمان)[٩٦]، وعن ابن عباس: (آخى النبي (ﷺ) بين الزبير وابن مسعود)[٩٧].

وذهب كل من ابن القيم وابن كثير إلى عدم وقوع المؤاخاة بمكة، فقال ابن القيم: (وقد قيل :إنه - أي النبي (ﷺ) - آخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض مؤاخاة ثانية، واتخذ فيها عليًّا أخًا لنفسه، والثبت الأول[٩٨]، والمهاجرون كانوا مستغنين بأخوة الإسلام، وأخوة الدار وقرابة النسب، عن عقد مؤاخاة ،بخلاف المهاجرين مع الأنصار)[٩٩]، أما ابن كثير فقد ذكر أن من العلماء من ينكر هذه المؤاخاة لنفس العلة التي ذكرها ابن القيم[١٠٠].

لم تشر كتب السيرة الأولى المختصة إلى وقوع المؤاخاة بمكة، والبلاذري ساق الخبر بلفظ (قالوا) دون إسناد، مما يضعف الرواية، كما أن البلاذري نفسه ضعف النقاد، وعلى فرض صحة هذه المؤاخاة بمكة فإنها تقتصر على المؤازرة والنصيحة بين المتآخين دون أن تترتب عليها حقوق التوارث[١٠١].

أولاً: المؤاخاة في المدينة:

ساهم نظام المؤاخاة في ربط الأمة بعضها ببعض، فقد أقام الرسول (ﷺ) هذه الصلة على أساس الإخاء الكامل بينهم، هذا الإخاء الذي تذوب فيه عصبيات الجاهلية، فلا حمية إلا للإسلام وأن تسقط فوارق النسب واللون والوطن، فلا يتأخر أحد أو يتقدم إلا بمروءته وتقواه.

---

(٩٤) البلاذري ، أنساب الأشراف (١/ ٢٧٠) .
(٩٥) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٤٠) .
(٩٦) نفس المصدر (١/ ٢٤٠) .
(٩٧) فتح الباري (٧/ ٤٧١) .
(٩٨) يعني المؤاخاة في المدينة .
(٩٩) زاد المعاد (٢/ ٧٩) .
(١٠٠) انظر: السيرة النبوية لابن كثير .
(١٠١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٤١) .

وقد جعل الرسول (ﷺ) هذه الأخوة عقدًا نافذًا لا لفظًا فارغًا، وعملاً يرتبط بالدماء والأموال لا تحية تثرثر بها الألسنة ولا يقوم لها أثر.

وكانت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة تمتزج في هذه الأخوة وتملأ المجتمع الجديد بأروع الأمثال(١٠٢).

والسبب الذي أدى إلى تقوية هذه الأخوة بين المهاجرين والأنصار هو أن أهل هذا المجتمع ممن التقوا على دين الله وحده نشّأهم دينهم الذي اعتنقوه على أن يقولوا ويفعلوا، وعلمهم الإيمان العمل جميعًا فهم أبعد ما يكونون عن الشعارات التي لا تتجاوز أطراف الألسنة. وكانوا على النحو الذي حكاه الله عنهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (سورة النور، آية: ٥١).

وذلك الذي درج عليه المسلمون كفل البقاء والاستمرار لهذه الأخوة التي شد الله بها أزر دينه ورسوله حتى آتت ثمارها في كل أطوار الدعوة طوال حياته (ﷺ)، وامتد أثرها فجمع كلمة المهاجرين والأنصار عند استخلاف الصديق رضي الله عنه، دون أن تطوع للأنصار أنفسهم أن يحدثوا صدعًا في شمل الأمة مستجيبين في ذلك لشهوات السلطة وغريزة السيطرة، لذلك فإن سياسة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار نوع من السبق السياسي الذي اتبعه رسول الله (ﷺ) في تأصيل المودة وتمكينها في مشاعر المهاجرين والأنصار، الذين سهروا جميعًا على رعاية هذه المودة وذلك الإخاء، بل كانوا يتسابقون في تنفيذ بنوده(١٠٣).

ولا سيما الأنصار الذين لا يجد الكتاب والباحثون مهما تساموا إلى ذروة البيان خيرًا من حديث الله عنهم(١٠٤) قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (سورة الحشر، آية: ٩).

ونلحظ في الآية السابقة أن الله تعالى شهد لهم بخمس شهادات:

١- تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم.

٢- يحبون من هاجر إليهم.

٣- لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا.

٤- ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

٥- ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون(١٠٥).

---

(١٠٢) انظر: فقه السيرة للغزالي ص١٩٣ ، ١٩٤ .

(١٠٣) انظر: فصول في السيرة النبوية ، د . عبد المنعم السيد ص٢٠٠ .

(١٠٤) انظر: هجرة الرسول وصحابته في القرآن السنّة للجمل ص٢٤٥ .

(١٠٥) انظر: القيادة الربانية (٢/ ٢٨٤) .

وفي الآية السابقة فوائد عظيمة وحكم جليلة ،منها في التعبير عن المدينة بلفظ (الدار) إشعار بأنها دار خاصة لكل متوطن بها متبوئ لها، فهي بالنسبة لأهلها كدار خاصة للفرد يهنأ بالأمن والاستقرار وهو في داخلها، وفي هذا الإشعار نوع من الأنس السَّرِيِّ في النفس، يزيدها رَوْحًا وطمأنينة، فالأنصار في دارهم وإيمانهم متمكنون من الأمن والاستقرار المادي، تتنزل عليهم السكينة فتحفهم بنورها، كأنها سياج من الرحمة مضروب عليهم، لا يلحقهم فزع ولا يدخل عليهم قلق.

* أما قوله تعالى: ﴿من قَبْلِهِمْ﴾ فالضمير فيه للمهاجرين، ومعناه أن الأنصار هم الذين تبووؤا المدينة المنورة دارًا لهم، وَتَبوؤوا معها الإيمان من قبل هجرة المهاجرين إليهم؛ لأن المهاجرين وإن تبوؤوا الإيمان قبل الأنصار، لأنهم سبقوهم إليه، وتمكنوا منه أعظم تمكن، وتمكن هو منهم أبلغ تمكن، لكنهم لم يتبوؤوا مع الإيمان دارًا يتمكنون فيها من الاستقرار الحسي المادي، والأمن على أنفسهم وإيمانهم من فزعات الأعداء وسطواتهم، فكان للمهاجرين في تبؤو الإيمان دون تبؤو الدار، وكان للأنصار تبوؤوهما معًا في قرن واحد، فالقبيلة بالنظر إلى جمع تبوء الدار مع تبوء الإيمان، حتى كأنهما أمر واحد في التمكن والاستقرار.

* ومن لطائف القرآن الحكيم أنه ساق مدحة المهاجرين قبل مدحة الأنصار مفتتحًا لها بقوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (سورة الحشر، آية: ٨).

* فجعل فَقْد بعض ما كان مدحة للأنصار من تبؤ الدار والإيمان مدحة للمهاجرين، لأنهم فقدوه ابتغاء فضل الله ورضوانه ونصرهم الله بنصر دينه، ونصر رسوله بنصر رسالته ودعوته، ووصفهم بأنهم هم الصادقون، وأن الناس تبع لهم في ذلك، فقال يشرفهم بهذا الاختصاص: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ وقال لعامة المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (سورة التوبة، آية: ١١٩).

* فالقبلية بهذا المعنى مدحة للأنصار، جاءت لتشعرهم بموجباتهم نحو إخوانهم الذين هاجروا إليهم تاركين ديارهم وأموالهم ابتغاء فضل الله ورضوانه، والتفرغ لنصرة دينه، ونصرة رسوله، فالدار التي فقدها المهاجرون بما فيها من أموال وفلذات أكباد إنما فقدوها تقربًا بفقدها إلى الله، فأووا إلى الأنصار يتبوؤن معهم دارهم، دار الأمن والاستقرار مع سبق تبوئهم الإيمان قبل الأنصار، فكمل لهم بهذه الهجرة تبوؤ الدار والإيمان، وانفردوا بسبق تبوئهم الإيمان فضيلة لا يشاركهم فيها غيرهم من سائر المؤمنين وفي طليعتهم الأنصار، الذين جعلوا من الإيواء، والنصرة دعامتين للمؤاخاة القائمة على الحب الصادق، فقيل في وصفهم: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ وهذا حب الله، والله جعله فضيلة لهم ميّزهم بها في مقابلة وصفَ المهاجرين بأنهم أخرجوا من ديارهم وأموالهم ابتغاء مرضاة الله، وتعرضًا لفضله، المنهمر عليهم غيثة ديمة لا ينقطع ولا يفتر، وهم يحملون بين جوانحهم قلوبًا عامرة

بالحب لإخوانهم الأنصار، الذين وصفوا بالإخلاص الصفي، الذي كان ثمرة الحب في الله، ولله فقيل عنهم: ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ أي أنهم لا تستشرف نفوسهم إلى فضل ناله إخوانهم المهاجرون من سبقهم بالإيمان، وتضحيتهم بمفارقة ديارهم وأموالهم، وانتهاضهم لنصرة دين الله ورسالاته ولايتطلعون إلى شيء منه تطلبًا له أو مشاركة فيه(١٠٦).

* وفي قوله: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾والحب الذي يسجله رب العزة تبارك وتعالى في محكم كتابه آيات بينات، تتلى ويتعبد بها في روعة إعجازها، وبراعة أسلوبها، وسمو منهجها في الهداية - لا يمكن أن يبقى معه في حنايا النفس المؤمنة آثار حزازة تَنْفَس على المهاجرين ما آتاهم الله من مكارم الإيمان والتضحية في سبيله والتضحية في سبيله بالديار والأموال، بله متعة مادية زائلة تافهة.

وصفات المدحة السلبية لا تذكر في مقامها إلا إذا كانت ممكنة الوقوع، فيكون نفيها عنصرًا من عناصر المدح المقتضية إحلال ما يقابلها من صفات إيجابية في بناء المدحة المشرقة(١٠٧).

فإذا قيل في وصف الأنصار بعد وصفهم بحبهم المهاجرين: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ معنى ذلك أن هؤلاء الأنصار سموا في حبهم لإخوانهم المهاجرين إلى ذروة الصفاء والإخلاص ووحدة الشعور، وامتلأت صدورهم بهذا الحب القدسي، فلم تعد تتسع لشيء معه، إلا أن يكون ذلك الشيء أثرًا من آثار الحب، وليس ذلك إلا ذروة الفضائل، وهو إيثارهم على أنفسهم بكل مكرمة، ولو كانوا هم في أشد الحاجة إليها(١٠٨).

* ومجيء قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾ عقب قوله عز شأنه: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ بيان لثمرة هذا الحب، وهي ثمرة سَمَا بها الأنصار إلى آفاق لم تصل إليها البشرية في تاريخها البعيد السحيق، ولا في تاريخها الداني القريب، تلك هي ثمرة الإيثار على النفس التي أثمرها الحب الإيماني(١٠٩).

ء ثم وصفوا بالفلاح على جهة الاختصاص به في مقابلة اختصاص المهاجرين بالصدق في عزائمهم والإخلاص في إيمانهم، فقيل فيهم بعد تقرير أنهم بهذا الإيثار صفت نفوسهم من كدورات التطلعات والحزازات، وأخلصوا الحب لإخوانهم المهاجرين، وطهروا من رشح الشح فتوقوه بفضيلة الكرم والسخاء المؤثر: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

كان هذا الحب الأخوي بين المهاجرين والأنصار هو الأساس الذي قامت على دعائمه

---

(١٠٦) انظر: محمد رسول الله، عرجون (٣/ ٩٤).

(١٠٧) انظر: محمد رسول الله (٣/ ٩٥).

(١٠٨) نفس المصدر (٣/ ٩٥).

(١٠٩) المصدر سابق (٣/ ٩٦).

المؤاخاة الاجتماعية التي عقدها النبي (ﷺ) بين أصحابه بعد مقدمه المدينة، فقد كانت هذه المؤاخاة من أسبق الأعمال التي قام بها رسول الله (ﷺ) أول ما استقر في مقامه، وأخذ في بناء مسجده الأعظم[١١٠].

والظاهر أن ابتداءها كان في المسجد وهو يُبْنى، والنبي (ﷺ) مشغول في بنائه مع أصحابه من المهاجرين والأنصار وكان ذلك المكان الطاهر، والعمل الشريف الخالص لوجه الله تبارك وتعالى أنسب الأمكنة لبدء المؤاخاة لما فيهما من اقتضاء الترافق والتعاون والتعاضد، والتواسي والتناصر والتوادد وتقوية آصرة الأخوة الإيمانية، فآخى رسول الله (ﷺ) بين العاملين معه في بناء المسجد أولاً، ثم آخى بين قوم آخرين في دار أنس، وتكرر ذلك منه (ﷺ) حتى استوعبت المؤاخاة عدد طلائع المهاجرين والأنصار، وكانوا نحو المائة نصفهم من المهاجرين، ونصفهم من الأنصار[١١١].

• بعض أسماء المهاجرين والأنصار ممن تآخوا في الله:

أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وخارجه بن زهير، وعمر بن الخطاب، وعتبان بن مالك، وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن معاذ، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن الربيع، والزبير بن العوام، وسلامة بن سلامة بن وقش، وطلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك، وسعيد بن زيد وأبي بن كعب، ومصعب بن عمير وأبو أيوب خالد بن زيد، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وعباد بن بشر بن وقش، وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان، وأبو ذر الغفاري والمنذر بن عمرو، وحاطب بن أبي بلتعة وعويم بن ساعدة، وسلمان الفارسي وأبو الدرداء، وبلال مؤذن رسول الله (ﷺ) وأبو رويحة عبد الله بن عبد الرحمن الخثعمي[١١٢].

ثانيًا: الدروس والعبر والفوائد:

١- آصرة العقيدة هي أساس الارتباط:

إن المجتمع المدني الذي أقامه الإسلام كان مجتمعًا عقديًا يرتبط بالإسلام، ولايعرف الموالاة إلا لله ولرسوله وللمؤمنين، وهو أعلى أنواع الارتباط وأرقاه، إذ يتصل بوحدة العقيدة والفكر والروح[١١٣].

إن الولاء لله ورسوله وللمؤمنين من أهم الآثار والنتائج المترتبة على الهجرة، وكان القرآن الكريم يربي المسلمين على هذه المعاني الرفيعة، فقد بين الحق (سبحانه وتعالى) أن ابن نوح وإن كان من أهله باعتبار القرابة لكنه لم يعد من أهله لما فارق الحق وكفر بالله ولم يتبع نبي الله قال تعالى: ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ

---

(١١٠) انظر: محمد رسول الله، عرجون (٣/٩٨).
(١١١) نفس المصدر (٣/١٠٠).
(١١٢) انظر: ابن هشام (٢/١٠٩-١١١)، السيرة النبوية لابن كثير (٢/٣٢٤).
(١١٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/٢٥٢).

أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (سورة هود، آية: ٤٥- ٤٦). وقد حصر الإسلام الأخوة والموالاة بين المؤمنين فقط قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (سورة الحجرات، آية: .

وقطع الولاية بين المؤمنين والكافرين من المشركين واليهود والنصارى حتى لو كانوا آباءهم أو إخوانهم أو أبناءهم، ووصف من يفعل ذلك من المؤمنين بالظلم مما يدل على أن موالاة المؤمنين للكافرين من أعظم الذنوب قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (سورة التوبة، آية: ٢٣).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ * إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ * لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (سورة الممتحنة، آية: ١-

فإذا كان الله سبحانه يحذر المؤمنين في الآيات السابقة من موالاة الكفار عامة، فهناك آيات كثيرة وردت في تحذير المؤمنين ونهيهم عن طاعة أهل الكتاب خاصة، أو اتخاذهم أولياء، أو الركون إليهم(١١٤).

قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ (سورة البقرة، آية: ١٢٠).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٠٠- ١٠١).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (سورة المائدة، آية: ٥١).

قال صاحب الظلال: (هذا النداء موجه إلى الجماعة المسلمة في المدينة - ولكنه في الوقت ذاته موجه لكل جماعة مسلمة تقوم في أي ركن من أركان الأرض إلى يوم القيامة ولقد كانت المناسبة الحاضرة إذ ذاك لتوجيه هذا النداء للذين آمنوا أن المفاصلة لم تكن كاملة ولا حاسمة بين بعض المسلمين في المدينة وبعض أهل الكتاب- وبخاصة اليهود- فقد كانت هناك علاقات ولاء وحلف، وعلاقات اقتصاد وتعامل، وعلاقات جيرة وصحبة.. وكان هذا

(١١٤) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ، أحزمي جزولي ص٤١٧ .

كله طبيعيًا مع الوضع التاريخي والاقتصادي والاجتماعي في المدينة قبل الإسلام، بين أهل المدينة من العرب وبين اليهود بصفة خاصة.. وكان هذا الوضع يتيح لليهود أن يقوموا بدورهم في الكيد لهذا الدين وأهله، بكل صنوف الكيد التي عددتها وكشفتها النصوص القرآنية الكثيرة.

ونزل القرآن ليبث الوعي اللازم للمسلم في المعركة التي يخوضها بعقيدته، لتحقيق منهجه الجديد في واقع الحياة، ولينشئ في ضمير المسلم تلك المفاصلة الكاملة بينه وبين كل من لا ينتمي إلى الجماعة المسلمة ولا يقف تحت رايتها الخاصة. المفاصلة التي لا تنهي السماحة الخلقية. فهذه صفة المسلم دائمًا. ولكنها تنهي الولاء الذي لا يكون في قلب المسلم إلا لله ورسوله والذين آمنوا الوعي والمفاصلة اللذان لا يسد منهما في كل أرض وفي كل جيل... بعضهم أولياء بعض.. إنها حقيقة لا علاقة لها بالزمن، لأنها حقيقة نابعة من طبيعة الأشياء.. إنهم لن يكونوا أولياء للجماعة المسلمة في أي أرض ولا في أي تاريخ.. وقد مضت القرون تلو القرون ترسم صدق هذه القولة الصادقة... ولم تختل هذه القاعدة مرة واحدة، ولم يقع في هذه الأرض إلا ما قرره القرآن الكريم في صيغة الوصف الدائم، لا الحادث المفرد.. واختيار الجملة الاسمية على هذا النحو.. بعضهم أولياء بعض... ليست مجرد تعبير! إنما هي اختيار مقصود للدلالة على الوصف الدائم الأصيل[١١٥].

وقد نهى الله – سبحانه– المؤمنين عن اتخاذ المنافقين أولياء، وذلك لأن من أبرز صفاتهم موالاة الكفار، وكراهية دين الله قال تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (سورة النساء، آية: ١٣٨-١٣٩).

وقد جاءت آيات توضح صور هذه المفاصلة في القرآن المدني فمنها، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (سورة التوبة، آية: ٧٣).

ونهى المولى عز وجل عن الصلاة عليهم أو القيام على قبورهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (سورة التوبة، آية: ٨٤)

وحدد المولى عز وجل للذين آمنوا جهة الولاء الوحيدة التي تتفق مع صفة الإيمان وبين لهم من يتولون قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (سورة المائدة، آية: ٥٥-٥٦).

فقد فهم الصحابة أن ولاءهم لا يكون إلا لقيادتهم، وإخلاصهم لا يكون إلا لعقيدتهم، وجهادهم لا يكون إلا لإعلاء كلمة الله، فحققوا ذلك كله في أنفسهم وطبقوه على حياتهم

(١١٥) في ظلال القرآن (٢/ ٩١١).

فمحضوا ولاءهم وجعلوه لله ورسوله والمؤمنين وأصبح تاريخهم حافل بالمواقف الرائعة التي تدل على فهمهم العميق لمعنى الولاء الذي منحوه لدينهم وعقيدتهم وإخوانهم وخالقهم.

إن التآخي الذي تم بين المهاجرين والأنصار كان مسبوقًا بعقيدة تم اللقاء عليها والإيمان بها، فالتآخي بين شخصين يؤمن كل منهما بفكرة أو عقيدة مخالفة للأخرى، خرافة ووهم، خصوصًا إذا كانت تلك الفكرة أو العقيدة مما يحمل صاحبها على سلوك معين في الحياة العملية، ولذلك كانت العقيدة الإسلامية التي جاء بها رسول الله (ﷺ) من عند الله تعالى هي العمود الفقري للمؤاخاة التي حدثت، لئن تلك العقيدة تضع الناس كلهم في مصاف العبودية الخالصة لله دون الاعتبار لأي فارق إلاّ فارق التقوى والعمل الصالح، إذ ليس من المتوقع أن يسود الإخاء، والتعاون والإيثار بين أناس شتّتهم العقائد والأفكار المختلفة، فأصبح كل منهم ملكًا لأنانيته وأثرته وأهوائه[١١٦].

٢- الحب في الله أساس بنية المجتمع المدني:

إن المؤاخاة على الحب في الله من أقوى الدعائم في بناء الأمة المسلمة، فإذا وهت يتآكل كل بنيانها[١١٧] ولذلك حرص النبي (ﷺ) على تعميق معاني الحب في الله في المجتمع المسلم الجديد، فقد قال (ﷺ): «**إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي اليوم أظلهم بظلي يوم لا ظل إلا ظلي..**»[١١٨].

وقال: «**قال الله تبارك وتعالى: حقت محبتي للمتحابين في وحقت محبتي للمتواصلين فيَّ، وحقت محبتي للمتباذلين فيَّ، المتحابون فيَّ على منابر من نور يغبطهم النبيون والصديقون والشهداء**»[١١٩].

فكانت توجيهات النبي ،(ﷺ) تحث الصحابة على معاني الحب والتكافل، واحترام المسلمين بعضهم بعضًا ،فلا يستعلي غني على فقير ولا حاكم على محكوم ولا قوي على ضعيف، وكان للحب في الله أثره في المجتمع المدني الجديد، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة نخلاً، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد وكان رسول الله (ﷺ) يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب. فلما نزلت ﴿**لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ**﴾ (سورة آل عمران، آية: ٩٢) قام أبو طلحة فقال: يا رسول الله، إن الله يقول: ﴿**لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾ وإن أحب أموالي إليَّ (بيرحاء)، وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، قال رسول الله (ﷺ): «**ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، وقد سمعت ما قلت وإني أرى أن تجعلها في الأقربين**»، فقال أبو طلحة: أفعل

---

(١١٦) انظر: فقه السيرة للبوطي ص١٥٦ .

(١١٧) انظر: محمد رسول الله ، عرجون (١٢٩/٣) .

(١١٨) مسلم ، كتاب البر والصلة والآداب رقم الحديث ٢٥٦٦ .

(١١٩) مسند أحمد من حديث معاذ بن جبل (٢٢٩/٥) .

يارسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه[١٢٠].

وهذا عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يحدثنا عن هذه المعاني الرفيعة حيث قال لما قدمنا المدينة آخى رسول الله (ﷺ) بيني وبين سعد بن الربيع فقال سعد بن الربيع: إني أكثر الأنصار مالاً فأقسم لك نصف مالي، وانظر أي زوجتي هويت نزلت لك عنها فإذا حلت[١٢١] تزوجتها، قال: فقال عبد الرحمن: لا حاجة لي في ذلك، هل من سوق فيه تجارة؟ قال: سوق قينقاع[١٢٢]، فغدا عليه عبد الرحمن فأتى بأقط وسمن قال: ثم تابع الغدو[١٢٣]، فما لبث أن جاء عبد الرحمن عليه أثر صفرة، فقال رسول الله (ﷺ): **«تزوجت؟»** قال: نعم، قال: **«ومن؟»** قال: امرأة من الأنصار: قال: **«كم سقت؟»** قال: زنة نواة من ذهب - أو نواة من ذهب- فقال له النبي (ﷺ): **«أولم ولو بشاة»**[١٢٤] ونلاحظ أن كرم سعد بن الربيع قابله عفة وكرم نفس من عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم ولم يكن مسلك عبد الرحمن بن عوف خاصًا به، بل إن الكثير من المهاجرين كان مكوثهم يسيرًا في بيوت إخوانهم من الأنصار ثم باشروا العمل والكسب واشتروا بيوتًا لأنفسهم وتكفلوا بنفقة أنفسهم، ومن هؤلاء أبو بكر وعمر وعثمان وغيرهم رضي الله عنهم.

٣- النصيحة بين المتآخين في الله:

فقد كان للمؤاخاة أثر في المناصحة بين المسلمين، فقد آخى النبي (ﷺ) بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء متبذلة فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعامًا فقال له: كل، فإني صائم قال: ما أنا بآكل حتى تأكل قال: فأكل فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، قال: نم، فنام. ثم ذهب يقوم، فقال: نم. فلما كان آخر الليل قال سلمان: قم الآن، فصليا. فقال سلمان: إن لربك عليك حقًا، ولنفسك عليك حقا، ولأهلك عليك حقا، فأعط كل ذي حق حقه، فأتى النبي (ﷺ) فذكر ذلك له فقال له النبي (ﷺ): **«صدق سلمان»**[١٢٥].

٤- لا ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم:

كان الأنصار قد واسوا إخوانهم المهاجرين بأنفسهم وزادوا على ذلك بأن آثروهم على أنفسهم بخير الدنيا، وهذا شاهد على صدق محبتهم وقوة إيمانهم، فقد رويت نماذج عالية من مواقف الأنصار التي كان لها أثر عميق في نفوس المهاجرين، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (قالت الأنصار للنبي (ﷺ) اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل، قال: **«لا»**، فقالوا:

---

(١٢٠) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ٢٥٤).

(١٢١) نزلت لك عنها: أي طلقتها لأجلك، فإذا حلت: أي انقضت عدتها.

(١٢٢) قينقاع قبيلة من اليهود نسب السوق إليهم.

(١٢٣) تابع الغدو: أي دوام الذهاب إلى السوق للتجارة.

(١٢٤) البخاري، كتاب البيوع رقم ٢٠٤٨.

(١٢٥) صحيح البخاري، كتاب الصوم رقم ١٩٦٨ (٤/ ٢٠٩).

تكفوننا المؤونة ونشرككم في الثمرة، قالوا: سمعنا وأطعنا)[١٢٦].

فهذا الحديث يفيد أن الأنصار عرضوا على النبي (ﷺ) أن يتولى قسمة أموالهم بينهم وبين إخوانهم المهاجرين، وقد كانت أموالهم هي النخيل، فأبى عليهم النبي (ﷺ)، وأراد أمرًا تكون فيه المواساة من غير إجحاف بالأنصار بزوال ملكية أموالهم منهم، فقال الأنصار للمهاجرين: تكفوننا المؤونة - أي العمل في النخيل من سقيها وإصلاحها- ونشرككم في الثمرة، فلما قالوا ذلك رأى رسول الله (ﷺ) أن هذا الرأي ضمن سد حاجة المهاجرين مع الإرفاق بالأنصار فأقرهم على ذلك فقالوا جميعًا: سمعنا وأطعنا[١٢٧].

وقد قام الأنصار بالمؤونة وأشركوا المهاجرين في الثمرة، ولعل المهاجرين كانوا يساعدونهم في العمل ولكن أكثر العمل عند الأنصار، وقد شكر المهاجرون للأنصار فعلهم ومواقفهم الرفيعة في الإيثار والكرم وقالوا: يارسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل ولا أحسن بذلاً في كثير، ولقد كفونا المؤونة وأشركونا في المَهْنأ[١٢٨]، حتى لقد حسبنا أن يذهبوا بالأجر كله، قال: **«لا، ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله عز وجل لهم»**[١٢٩].

وفي إشارة المهاجرين إلى الأجر الأخروي بيان لعمق تصورهم للحياة الآخرة وهيمنة هذا التصور على تفكيرهم[١٣٠].

وقد أراد النبي (ﷺ) أن يكافئ الأنصار على تلك المكارم العظيمة التي قدموها لإخوانهم المهاجرين، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: دعا النبي (ﷺ) الأنصار إلى أن يقطع لهم البحرين، قالوا: لا، إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها، قال: **«إمّا لا فاصبروا حتى تلقوني فإنه سيصيبكم بعدي أثرة»**[١٣١].

لقد حققت هذه المؤاخاة أهدافها، فمنها إذهاب وحشة الغربة للمهاجرين ومؤانستهم عن مفارقة الأهل والعشيرة، وشد أزر بعضهم بعضا، ومنها نهوض الدولة الجديدة؛ لأن أي دولة لا يمكن أن تنهض وتقوم إلا على أساس من وحدة الأمة وتساندها، ولا يمكن لكل من الوحدة والتساند أن يتم بغير عامل التآخي والمحبة المتبادلة، فكل جماعة، لا تؤلف بينها آصرة المودة والتآخي الحقيقية، لا يمكن أن تتحد حول مبدأ ما، وما لم يكن الاتحاد حقيقة قائمة في الأمة أو الجماعة فلا يمكن أن تتألف منها دولة[١٣٢].

---

(١٢٦) صحيح البخاري ، المزارعة رقم ٢٣٢٥ .
(١٢٧) انظر: التاريخ الإسلامي (٤/ ٣٠) .
(١٢٨) يعني كفونا العمل واشركونا في الثمرة .
(١٢٩) مسند أحمد (٣/ ٢٠٠- ٢٠١) ، ابن أبي شيبة (٩/ ٦٨) رقم ٦٥٦١ .
(١٣٠) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/ ٤٠٦)*.
(١٣١) صحيح البخاري ، مناقب الأنصار رقم ٣٧٩٤ .
(١٣٢) في ظلال القرآن (٦/ ٣٥٢٦) .

٥- الإرث بالمؤاخاة:

لم يعرف تاريخ البشر كله حادثًا جماعيًا كحادث استقبال الأنصار للمهاجرين بهذا الحب الكريم وبهذا البذل السخي، وبهذه المشاركة الفعالة وبهذا التسابق إلى الإيواء واحتمال الأعباء، فقد طبقت الأخوة في الواقع العملي لحياة الصحابة رضي الله عنهم، إن ما أقامه الرسول بين أصحابه من مبدأ تاريخي لم يكن مجرد شعار في كلمة أجراها على ألسنتهم، وإنما كان حقيقة عملية تتصل بواقع الحياة وبكل أوجه العلاقات القائمة بين الأنصار والمهاجرين، فقد جعل النبي (ﷺ) من هذه الأخوة مسؤولية حقيقية تشيع بين هؤلاء الإخوة، وكانت هذه المسؤولية تؤدي فيما بينهم على خير وجه، ولذلك جعل الله (سبحانه وتعالى) حق الميراث منوطًا بهذا التآخي، دون حقوق القرابة والرحم فقد كان من حكمة التشريع أن تتجلى الأخوة الإسلامية حقيقة محسوسة في أذهان المسلمين وأن يعلموا أن ما بين المسلمين من التآخي والتحابب ليس شعارًا وكلامًا مجردين، وإنما هي حقيقة قائمة ذات نتائج اجتماعية محسوسة تكون أهم أسس نظام العدالة الاجتماعية، أما حكمة نسخ التوارث على أساس هذه الأخوة، فيما بعد، فهي أن نظام الميراث الذي استقرأ أخيرًا، إنما هو نفسه قائم على أخوة الإسلام بين المتوارثين، إذ لا توارث بين ذوي دينين مختلفين إلا أن الفترة الأولى من الهجرة وضعت كلا من الأنصار والمهاجرين أمام مسؤولية خاصة من التعاون والتناصر والمؤانسة، بسبب مفارقة المهاجرين لأهلهم وتركهم ديارهم وأموالهم في مكة ونزولهم ضيوفًا على إخوانهم الأنصار في المدينة، فكان من إقامة الرسول (ﷺ) من التآخي بين أفراد المهاجرين والأنصار ضمانًا لتحقيق هذه المسؤولية، ولقد كان من مقتضى هذه المسؤولية أن يكون هذا التآخي أقوى في حقيقته وأثره من أخوة الرحم المجردة، فلما استقر أمر المهاجرين في المدينة وتمكن الإسلام فيها، غدت الروح الإسلامية هي وحدها العصب الطبيعي للمجتمع الجديد في المدينة[١٣٣].

فلما ألف المهاجرون جو المدينة وعرفوا مسالك الرزق فيها، وأصابوا من غنائم بدر الكبرى ما كفاهم، رجع التوارث إلى وضعه الطبيعي المنسجم مع الفطرة البشرية على أساس صلة الرحم، وأبطل التوارث بين المتآخين، وذلك بنص القرآن الكريم فقال تعالى: **﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَـئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾** (سورة الأنفال، آية: ٧٥). فهذه الآية نسخت التوارث بموجب نظام المؤاخاة[١٣٤]، وبقيت النصرة والرفادة والنصيحة بين المتآخين[١٣٥]، فقد بين حبر الأمة ابن عباس ذلك عند قوله تعالى: **﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ**

(١٣٣) انظر: فقه السيرة للبوطي ص٢١١- ٢١٢ .

(١٣٤) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٤٦) .

(١٣٥) انظر: التاريخ الإسلامي (٤/ ٢٥) .

وَالأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ (سورة النساء، آية: ٣٣). أنه قال: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ قال: ورثة ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجر الأنصاري دون ذوي رحمه للأخوة التي آخى النبي (ﷺ) بينهم فلما نزلت ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ (نسخت، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾[١٣٦] من النصر والرفادة والنصيحة وقد ذهب الميراث ويوصى له[١٣٧].

٦- قيم إنسانية ومبادئ مثالية:

من خلال الروابط الوثيقة التي ألفت بين المهاجرين والأنصار أرست قيم إنسانية واجتماعية ومبادئ مثالية لا عهد للمجتمع القبلي بها، وإنما هي من شأن المجتمعات المتحضرة الفاضلة، وفي مقدمة تلك القيم قيمة العمل الشريف كوسيلة لكسب الرزق، فلقد قبل المهاجرون في أول الأمر ما أظهره إخوانهم الأنصار من كرم الضيافة، ولكنهم أبوا بعد ذلك إلا أن يبحثوا عن موارد رزق لهم، ولا يعولوا على رابطة المؤاخاة التي سعد بها الأنصار، فكان منهم من اشتغل بالتجارة، ومنهم من عمل بالزراعة، مستعذبين متاعب العمل على أن يكونوا عالة على إخوانهم، ذلك لأن عزة الإيمان لا ترضى لصاحبها أن يكون عالة على أحد، بل تطلب منه أن يعطي أكثر مما يأخذ، اليد العليا خير وأحب إلى الله من اليد السفلى، وقد فهم الصحابة الكرام من تعاليم الإسلام أن العمل عبادة وهي منزلة لم تصل إليها النظم المعاصرة التي قصرت فائدته على سد حاجات الإنسان المادية والمعنوية وفي ضوء هذا المفهوم الإسلامي نستطيع أن نقول: إن الإخاء والعمل كانا حجر الزاوية في بناء مجتمع دار المهجر، وبالتالي في تأسيس الحضارة الإسلامية التي بنيت أصولها في المدينة بعد إقامة أول دولة في الإسلام برياسة النبي (ﷺ) ثم ترعرعت حتى أصبحت شجرة يتفيأ ظلالها العالم كله[١٣٨].

٧- تذويب الفوارق الإقليمية والقبلية:

إن القضاء على الفوارق الإقليمية والقبلية ليست بالأمر الهين في المجتمعات الجاهلية، حيث العصبية هي الدين عندهم، وعملية المؤاخاة تهدف إلى إذابة هذه الفوارق بصورة واقعية منطلقة من قلب البيئة الجاهلية.

إن من الأمراض في الصف الإسلامي المعاصر سيطرة الروح الإقليمية والعصبية في نفوس بعض الدعاة وهذه الأمراض تحيل بينهم وبين التمكين وتضعف الصفوف، بل تشتتها وينشغل الصف بنفسه عن أهدافه الكبار وقد أصيبت بعض الحركات الإسلامية بداء العصبية الإقليمية، والعصبية الشخصية، والعصبية القطرية والعصبية حتى على مستوى المدينة والقرية

(١٣٦) هذه الجملة من رواية الطبري بنفس إسناد البخاري (فتح الباري ٨/٢٤٩).
(١٣٧) صحيح البخاري، كتاب التفسير رقم ٤٥٨٠.
(١٣٨) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ص٤١١.

الصغيرة[١٣٩] وهذا تولد عن أمراض في نفوس بعض الأفراد بسبب بعدهم عن القرآن الكريم وسنة سيد المرسلين، فلم يتربوا عليها ولذلك كثر التناحر والتباغض.

إن المسلمين اليوم بأشد الحاجة إلى مثل هذه المؤاخاة التي حدثت بين المهاجرين والأنصار، لأنه يستحال أن تستئنف حياة إسلامية عزيزة قوية إذا لم تتخلق المجتمعات الإسلامية بهذه الأخلاق الكريمة، وترتقي إلى هذا المستوى الإيماني الرفيع، وإلى هذه التضحيات الكبيرة، وأما المظاهر الزائفة من الأخوة (باللسان) فلا تجدي فتيلاً.

إن الفرد المسلم حين يشعر أن له إخوة يحبهم ويحبونه، وينصرهم وينصرونه، خاصة إذا تفاقمت الأزمات، وضاقت عليه الأرض بما رحبت، فإن هذا مما يرفع من روحه المعنوية، بل ويرفع قدراته الذاتية، ويجعله أقوى مضاء وعزيمة، وإن فقدان مثل هذه المؤاخاة مما يضعف الصف الإسلامي ويجعل الفرد المسلم يشعر أحيانًا أنه وحيد أمام أعداء يكنّون له كل حقد، ويحيطون به من كل جانب، فكيف يستطيع حمل كل هذه الضغوط النفسية والمادية[١٤٠]؟

وقد حفظ لنا التاريخ جهاد المجتمع المسلم مع أعدائه، بعد تحقيق وحدته الاجتماعية وهو ما يزال في دور نشأته وتكوينه كثيرًا من المحاولات الإفسادية التي كان الأعداء يدبرون مكايدها، ليشعلوا بها نيران الفتن بين صفوف المجتمع المسلم، ليفرّقوا جمعه ويفككوا وحدته، ولكن هذه المحاولات الإفسادية كانت تبوء بالخسران، لأنها كانت تصطدم بقوة تماسك المجتمع المسلم في تركيبه الإيماني والاجتماعي، فيذيبها في تلك القوة التي جعلت من تركيبه الاجتماعي وحدة مدمجة العناصر دمجًا لا يقبل التفريق، ولا تنفصم عراه، ولا تحل روابطه[١٤١].

٨- المؤاخاة بين المسلمين من أسباب التمكين المعنوية:

إن من أسباب التمكين المعنوية، العمل على تربية الأفراد تربية ربانية، وإعداد القيادة الربانية، ومحاربة أسباب الفرقة، والأخذ بأصول الوحدة والاتحاد[١٤٢].

وأهم أصول الوحدة والاتحاد، وحدة العقيدة، صدق الانتماء إلى الإسلام، طلب الحق والتحري في ذلك، وتحقيق الأخوة بين أفراد المسلمين.

إن من الأصول العظيمة التي تحقق وحدة الصف وقوة التلاحم، ومتانة التماسك بين أفراد المسلمين تحقيق الأخوة في أوساطهم.

إن الأخوة منحة من الله (عز وجل) يعطيها الله للمخلصين من عباده والأصفياء والأتقياء من أوليائه وجنده قال تعالى: **﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً مَّآ أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ**

(١٣٩) انظر: التربية القيادية (٢/ ٢٨٦).
(١٤٠) انظر: الطريق إلى المدينة، لمحمد العبده ص١٠٠، ١٠١.
(١٤١) انظر: محمد رسول الله، عرجون (٣/ ١٥٢).
(١٤٢) انظر: فقه التمكين في القرآن الكريم للصّلابي ص٢٥٣.

وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة الأنفال، آية: ٦٢- ٦٣).

وهي قوة إيمانية تورث شعورًا عميقًا بعاطفة صادقة، ومحبة وود، واحترام، وثقة متبادلة مع كل من تربطنا بهم عقيدة التوحيد ومنهج الإسلام الخالد، يتبعها ويستلزمها، تعاون، وإيثار، ورحمة، وعفو وتسامح، وتكافل وتآزر، وهي ملازمة للإيمان، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (سورة الحجرات، آية: ١٠).

ولا يذوق حلاوة الإيمان إلا من أشرب هذه الأخوة، قال (ﷺ): **«ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر، كما يكره أن يقذف في النار»**[١٤٣].

إن القرآن الكريم يرسم لنا صورة جميلة لأصحاب رسول الله (ﷺ)، قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (سورة الفتح، آية: ٢٩).

إن القرآن الكريم حين وضع بين دفتيه هذه الصورة، إنما يخبرنا بتكريم الله عز وجل فهم: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ أشداء على الكفار ولو كان فيهم الآباء والقرابة والأبناء رحماء بينهم، وهذه الأخوة في الحق، أخوة في الدين، إن الأخوة في الله من أهم الأسباب التي تعمل على الصمود في وجه أعتى المحن التي تنزل بالمسلمين، كما أن الفهم المتبادل والكامل للأخوة في الله من أسباب تماسك صفوف المسلمين وقوتهم، ومن أسباب شموخهم والتمكين لهم[١٤٤].

٩- من فضائل الأنصار:

أ- تسميتهم بالأنصار: سماهم الله ورسوله بهذا الاسم حين بايعوا على الإسلام، وقاموا بإيواء المؤمنين ونصرة دين الله ورسول الله (ﷺ)، ولم يكونوا معروفين بذلك من قبل[١٤٥]، فعن غيلان بن جرير رحمه الله قال: قلت لأنس: أرأيت اسم (الأنصار) كنتم تسمون به، أم سماكم الله؟ قال: سمانا الله...[١٤٦].

أما مناقبهم وفضائلهم فكثيرة لا تحصى، منها مناقب عامة لجميع الأنصار، ومناقب خاصة بأفراد من الأنصار، أما المناقب العامة الواردة في القرآن الكريم ما يلي:

(١٤٣) انظر: البخاري، كتاب الايمان، باب حلاوة الايمان (١/١١).
(١٤٤) انظر: شرح رسالة التعاليم، د. محمد عبد الله الخطيب ص٢٩٦.
(١٤٥) انظر: الهجرة النبوية المباركة، عبد الرحمن البر ص١٣١، ١٣٥.
(١٤٦) البخاري، كتاب مناقب الانصار، باب مناقب الأنصار رقم ٣٧٧٦.

ب- فقد وصفهم المولى عز وجل بأنهم من المؤمنين حقًّا، فقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (سورة الأنفال، آية: ٧٤).

ت- وبشرهم ربهم برضاه عنهم، وامتدح رضاءهم عنه، فقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (سورة التوبة، آية: ١٠٠).

ث- ووصفهم المولى عز وجل بالفلاح قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (سورة الحشر، آية: ٩).

وأما الأحاديث التي تحدثت عن مآثر الأنصار فمنها:

هـ- حب النبي (ﷺ) للأنصار:

عن أنس رضي الله عنه قال: (رأى النبي (ﷺ) النساء والصبيان مقبلين - حسبت أنه قال: من عرس - فقام النبي (ﷺ) مُمْتَنًا[١٤٧]، فقال: **«اللهم أنتم من أحب الناس إليّ»** قالها ثلاث[١٤٨].

و- حب الأنصار علامة الإيمان وبغضهم علامة النفاق:

عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: **«الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله»**[١٤٩].

ز- من أحبهم فاز بحب الله إياه، ومن أبغضهم شقي ببغض الله إياه:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): **«من أحب الأنصار أحبه الله، ومن أبغض الأنصار أبغضه الله»**[١٥٠].

ح- الشهادة لهم بالعفاف والصبر:

العفة والصبر شيمتان كريمتان تدلان على أصالة معدن المتخلق بهما، وتمام مروءته، وكمال رجولته وفتوته، وقد شهد النبي (ﷺ) للأنصار بهما، وما أعظمها شهادة، وما أعظمه من شاهد[١٥١]، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله (ﷺ): **«ما يضر امرأة**

---

(١٤٧) مُمْتَنًا: يعني متفضلاً عليهم بذلك. (١٤٨) البخاري، كتاب مناقب الأنصار رقم ٣٧٨٥.

(١٤٩) البخاري، كتاب مناقب الأنصار رقم ٣٧٨٣.

(١٥٠) رواه أحمد (٢/٥٠١)، الهيثمي: مجمع الزوائد (١٠/٣٩) اسناده جيد.

(١٥١) انظر: الهجرة النبوية المباركة ص١٤٢.

نزلت بين بيتين من الأنصار، أو نزلت بين أبويها»(١٥٢).

ط- رغبة النبي (ﷺ) في الانتساب إليهم لولا الهجرة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي (ﷺ) قال: «**لو أن الأنصار سلكوا واديًا أو شعبًا لسلكت في وادي الأنصار، ولولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار**»(١٥٣).

ي- دعاء النبي (ﷺ) بالمغفرة لهم ولأبنائهم وأزواجهم ولذراريهم:

لا شك أن دعاء الرسول (ﷺ) مستجاب، فقد فاز الأنصار بهذا الفضل، فعن زيد بن أرقم رضي الله عنه أن النبي (ﷺ) قال: «**اللهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار، ولأبناء أبناء الأنصار، ولنساء الأنصار**»(١٥٤).

ك- وصية النبي (ﷺ) بالإحسان إليهم، وعدم إفزاعهم:

كان جهاد الأنصار في سبيل الدين عظيمًا، وكان فضلهم في نشره والدفاع عنه بليغًا، إذ لم يمنعهم من الخفة إلى الخروج في سبيل الله عسر ولا يسر، وحفظ الله لهم ذلك في قوله تعالى: ﴿**لَقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ (سورة التوبة، آية: ١١٧).

ومن ثم كانت وصية رسول الله (ﷺ) بالأنصار والإحسان إلى محسنهم، والتجاوز عن مسيئهم، وكان ترهيبه (ﷺ) من ترويعهم وتفزيعهم وكانت توصيته بالأنصار خيرًا(١٥٥)، فعن أنس رضي الله عنه، أن رسول الله (ﷺ) قال: «**إن الأنصار كَرِشي وعَيْبَتي**(١٥٦)**، وإن الناس سيكثرون، ويَقِلُّون**(١٥٧)**، فاقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم**»(١٥٨).

وعنه أيضًا قال: خرج نبي الله (ﷺ) فتلقته الأنصار بينهم، فقال: «**والذي نفس محمد**

---

(١٥٢) رواه أحمد (٦/ ٢٥٧)، مجمع الزوائد (١٠/ ٤٠)، الحاكم (٤/ ٨٣).

(١٥٣) البخاري، مناقب الأنصار (٦/ ١١٢) رقم ٣٧٧٩.

(١٥٤) البخاري، كتاب التفسير، سورة المنافقين رقم ٤٩٠٦.

(١٥٥) انظر: الهجرة النبوية المباركة ص ١٥٠.

(١٥٦) الكرش، كالكتف، والعيبة - بفتح المهملة وسكون المثناة بعدها موحدة، معناها ما يحرز الرجل فيها ويحفظ نفيس ما عنده من المتاع، والعيبة من الرجل: موضع سره وأمانته. انظر: الهجرة النبوية المباركة ص ١٥٠.

(١٥٧) قال ابن حجر: (أي أن الانصار يقلُّون، وفيه إشارة إلى دخول قبائل العرب والعجم في الإسلام، وهم أضعاف أضعاف قبيلة الانصار، فمهما فرض من الأنصار من الكثرة كالتناسل فرض في كل طائفة من أولئك، فهم أبدًا بالنسبة إلى غيرهم قليل.
ويحتمل أن يكون (ﷺ) اطلع على أنهم يقلون مطلقًا فأخبر بذلك، فكان كما أخبر، لأن الموجودين الآن من ذرية علي بن أبي طالب ممن يتحقق نسبه إليه أضعاف من يوجد من قبيلتي الأوس والخزرج ممن يتحقق نسبه، وقس على ذلك ولا التفات إلى كثرة من يدّعي أنه منهم بغير برهان) (فتح الباري ٧/ ١٢٢).

(١٥٨) البخاري، كتاب مناقب الأنصار رقم ٣٨٠١.

بيده إني لأحبكم، وإن الأنصار قد قضوا ما عليهم، وبقي الذي عليكم[١٥٩]، فأحسنوا إلى محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم»[١٦٠]. وعن أبي قتادة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول على المنبر للأنصار: «... فمن ولي الأنصار فليحسن إلى محسنهم، وليتجاوز عن مسيئهم، ومن أفزعهم فقد أفزع هذا الذي بين هاتين» وأشار إلى نفسه[١٦١].

●●●

(١٥٩) قضوا الذي عليهم ، يشير إلى ما وقع لهم ليلة العقبة من المبايعة ، فإنهم بايعوا على أن يؤووا النبي (ﷺ) وينصروه على أن لهم الجنة ، فوفوا بذلك . «فتح الباري» (٧/ ١٨٧)

(١٦٠) مسند الإمام أحمد (٣/ ١٨٧) .

(١٦١) انظر: الهجرة النبوية المباركة ص١٥١ .



المبحث الثالث

الوثيقة أو الصحيفة

نظم النبي (ﷺ) العلاقات بين سكان المدينة، وكتب في ذلك كتابًا أوردته المصادر التاريخية، واستهدف هذا الكتاب أو الصحيفة توضيح التزامات جميع الأطراف داخل المدينة، وتحديد الحقوق والواجبات، وقد سميت في المصادر القديمة بالكتاب والصحيفة، وأطلقت الأبحاث الحديثة عليها لفظة الدستور.

ولقد تعرض الدكتور أكرم ضياء العمري في كتابه «السيرة النبوية الصحيحة» لدراسة طرق ورود الوثيقة وقال: (ترقى بمجموعها إلى مرتبة الأحاديث الصحيحة[١٦٢] وبين أن أسلوب الوثيقة ينم عن أصالتها «**فنصوصها مكونة من كلمات وتعابير كانت مألوفة في عصر الرسول** (ﷺ) ثم قل استعمالها فيما بعد حتى أصبحت معلقة على غير المتعمقين في دراسة تلك الفترة. وليس في هذه الوثيقة نصوص تمدح أو تقدح فردًا أو جماعة، أو تخص أحدًا بالإطراء أو الذم؛ لذلك يمكن القول بأنها وثيقة أصلية وغير مزورة»[١٦٣]. ثم إن التشابه الكبير بين أسلوب الوثيقة وأساليب كتب النبي (ﷺ) يعطيها توثيقًا آخر.

أولاً- كتابه (ﷺ) بين المهاجرين والأنصار واليهود:

نص الوثيقة[١٦٤]:

١- هذا كتاب من محمد النبي (رسول الله) بين المؤمنين والمسلمين من قريش)وأهل يثرب) ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم.

٢- إنهم أمة واحدة من دون الناس.

٣- المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٤- وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٥- وبنو الحارث بن الخزرج على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف.

٦- وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٧- وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها

(١٦٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٧٥) للعمري.

(١٦٣) تنظيمات الرسول الإدارية في المدينة، لصالح العلي ص٤، ٥.

(١٦٤) مجموعة الوثائق السياسية لمحمد حميد الله ص٤١- ٤٧.

بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٨- وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٩- وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

١٠- بنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

١١- وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

١٢- وإن المؤمنين لا يتركون مفرحًا بينهم أن يعطوه بالمعروف من فداء أو عقل وألا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه.

١٣- وإن المؤمنين المتقين (أيديهم) على (كل) من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثمًا أو عدوانًا أو فسادًا بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعًا، ولو كان ولد أحدهم.

١٤- ولا يقتل مؤمن مؤمنًا في كافر، ولا ينصر كافرًا على مؤمن.

١٥- وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس.

١٦- وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم.

١٧- وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيلالله إلا على سواء وعدل بينهم.

١٨- وإن كل غازية غزت يعقب على بعضها بعضًا.

١٩- وإن المؤمنين يبيء[١٦٥] بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله.

٢٠- وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه. وإنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفسًا ولا يحول دونه على مؤمن.

٢١- وإنه من اعتبط[١٦٦] مؤمنًا قتلاً عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول (بالعقل) وإن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه.

٢٢- وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثًا أو يؤويه، وإن من نصره أو آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل.

---

(١٦٥) أي يمنع ويكف.

(١٦٦) أي قتله دون جناية أو سبب يوجب قتله.

٢٣- وإنه مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله وإلى محمد.

٢٤- وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

٢٥- وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم إلا من ظلم نفسه وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته.

٢٦- إن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف.

٢٧- وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف.

٢٨- وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف.

٢٩- وإن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف.

٣٠- وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف.

٣١- وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته.

٣٢- وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم.

٣٣- وإن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف وإن البر دون الإثم.

٣٤- وإن موالي ثعلبة كأنفسهم.

٣٥- وإن بطانة يهود كأنفسهم.

٣٦- وإنه لايخرج منهم أحدًا إلا بإذن محمد.

٣٧- وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم.

٣٨- وإنه لا يأثم امرؤ بحليفة وإن النصر للمظلوم.

٣٩- وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

٤٠- وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

٤١- وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم.

٤١- وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها.

٤٢- وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث، أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله، وإلى محمد رسول الله (ﷺ)، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره.

٤٣- وإن بينهم النصر من دهم يثرب.

٤٥- أ - وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه أو يلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك، فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين.

٤٥- ب- على كل أناس حقهم من جانبهم الذي قبلهم.

٤٦- وإن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، وإن البر دون الإثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وإن الله على ما أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره.

٤٧- وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، إنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم وأثم، وأن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله (ﷺ)(١٦٧).

ثانيًا- دروس وعبر وفوائد من الوثيقة:

١- تحديد مفهوم الأمة:

تضمنت الصحيفة مبادئ عامة، درجت دساتير الدول الحديثة على وضعها فيها. وفي طليعة هذه المبادئ: تحديد مفهوم الأمة، فالأمة في الصحيفة تضم المسلمين جميعها مهاجريهم وأنصارهم ومن تبعهم، ممن لحق بهم وجاهد معهم أمة واحدة من دون الناس(١٦٨)، وهذا شيء جديد كل الجدة في تاريخ الحياة السياسية في جزيرة العرب، إذ نقل الرسول (ﷺ) قومه من شعار القبلية، والتبعية لها، إلى شعار الأمة، التي تضم كل من اعتنق الدين الجديد، فلقد قالت الصحيفة عنهم: إنهم «**أمة واحدة**» (الفقرة ٢١)، فقد جاء به القرآن الكريم، قال تعالى: ÷ رضي الله عنه » ﴿ **إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ** ﴾ (سورة الأنبياء: ٩٢) وبين (سبحانه وتعالى) وسطية هذه الأمة في قوله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ سورة البقرة، آية: ١٤٣)، ووضح (سبحانه وتعالى) بكونها أمة إيجابية فهي لا تقف موقف المتفرج من قضايا عصرها، بل تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتدعوا إلى الفضائل، وتحذر من الرذائل(١٦٩)، قال تعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ (سورة آل عمران: الآية: ١١٠). وبهذا الاسم الذي أطلق على جماعة من المسلمين والمؤمنين ومن تبعهم من أهل يثرب اندمج المسلمون على اختلاف قبائلهم في هذه الجماعة التي ترتبط بينها برابطة الإسلام فهم يتكافلون فيما بينهم، وهم ينصرون المظلوم على الظالم، وهم يرعون حقوق القرابة، والمحبة، والجوار(١٧٠)، لقد انصهرت طائفتا الأوس والخزرج في جماعة الأنصار ثم انصهر الأنصار والمهاجرون في جماعة المسلمين وأصبحوا أمة واحدة(١٧١) تربط أفرادها رابطة العقيدة وليس الدم، فيتحد

(١٦٧) انظر: مجموعة الوثائق السياسية ص٤١- ٤٧.

(١٦٨) انظر: التاريخ السياسي والعسكري، د. علي معطي ص١٦٩.

(١٦٩) انظر: دستور للأمة، د. عبد الناصر العطار ص٩.

(١٧٠) انظر: التاريخ السياسي والحضاري، د. السيد عبد العزيز سالم ص١٠٠.

(١٧١) انظر: قيادة الرسول السياسية والعسكرية، أحمد راتب ص٩٣.

شعورهم وتتحد أفكارهم وتتحد قبلتهم ووجهتهم، وولاؤهم لله وليس للقبيلة، واحتكامهم للشرع وليس للعرف، وهم يتمايزون بذلك كله على بقية الناس «**من دون الناس**» فهذه الروابط تقتصر على المسلمين ولا تشمل غيرهم من اليهود والحلفاء، ولا شك أن تميز الجماعة الدينية كان أمرًا مقصودًا يستهدف زيادة تماسكها واعتزازها بذاتها(١٧٢)، يتضح ذلك في تمييزها بالقبلة واتجاهها إلى الكعبة بعد أن اتجهت ستة عشر أو سبعة عشر شهرًا إلى بيت المقدس(١٧٣).

وقد مضى النبي (ﷺ) يميز أتباعه عمن سواهم في أمور كثيرة ويوضح لهم أنه يقصد بذلك مخالفة اليهود، من ذلك: أن اليهود لا يصلون بالخفاف فأذن النبي (ﷺ) لأصحابه أن يصلوا بالخف، واليهود لا تصبغ الشيب فصبغ المسلمون شيب رأسهم بالحناء والكتم، واليهود تصوم عاشوراء والنبي (ﷺ) يصومه أيضًا ثم اعتزم أواخر حياته أن يصوم تاسوعاء معه مخالفة لهم(١٧٤). ثم إن النبي (ﷺ) وضع للمسلمين مبدأ مخالفة غيرهم والتميز عليهم فقال: «**من تشبه بقوم فهو منهم**»(١٧٥)، وقال: «**لا تشبهوا باليهود**»(١٧٦)، والأحاديث في ذلك كثيرة وهي تفيد معنى تميز المسلمين واستعلائهم على غيرهم، ولا شك أن التشبه والمحاكاة للآخرين يتنافى مع الاعتزاز بالذات والاستعلاء على الكفار، ولكن هذا التميز والاستعلاء لا يشكل حاجزًا بين المسلمين وغيرهم، فكيان الجماعة الإسلامية مفتوح وقابل للتوسع ويستطيع الانضمام إليه من يؤمن بعقيدته(١٧٧).

واعتبرت الصحيفة اليهود جزءًا من مواطني الدولة الإسلامية وعنصر من عناصرها ولذلك قيل في الصحيفة: (وأن من تبعنا من يهود، فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين، ولا متناصر عليهم) (الفقرة ١٦)، ثم زاد هذا الحكم إيضاحًا، في الفقرة (٢٥) وما يليها، حيث نصّ فيها صراحة بقوله: (وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين..).

وبهذا ترى أن الإسلام قد اعتبر أهل الكتاب الذين يعيشون في أرجائه مواطنين، وأنهم أمة مع المؤمنين، ما داموا قائمين بالواجبات المترتبة عليهم، فاختلاف الدين ليس بمقتضى أحكام الصحيفة سببًا للحرمان من مبدأ (المواطنة)(١٧٨).

٢- المرجعية العليا لله ورسوله:

جعلت الصحيفة الفصل في كل الأمور بالمدينة، يعود إلى الله ورسوله (ﷺ)، فقد

---

(١٧٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/٢٩٣).
(١٧٣) تاريخ خليفة بن خياط ص٢٣، ٢٤، وسيرة ابن هشام (١/٥٥٠).
(١٧٤) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/٢٩٣).
(١٧٥) نفس المصدر (١/٢٩٣).
(١٧٦) المصدر السابق (١/٢٩٣).
(١٧٧) نفس المصدر.
(١٧٨) انظر: نظام الحكم، ظافر القاسمي (١/٣٧).

نصت على مرجع فض الخلاف في الفقـرة (٢٣)، وقد جاء فيها:)وأنكم مهمـا اختلفتم فيه من شيء، فإن مـردّه إلى الله وإلى محمـد) والمغزى من ذلك واضح وهو تأكيـد سلطة عليا دينية تهـيمن على المدينة وتفـصل في الخلافات منعًـا لقيام اضطـرابات في الداخل من جراء تعدد السلطان، وفي نفس الوقت تأكيد ضمني برئاسة الرسول (ﷺ) على الدولة[١٧٩]، فقد حددت الصحيفـة مصدر السلطات الثلاثة، التشريعية، والقضـائية، والتنفيذية، فكان رسول الله (ﷺ) حريصًا على تنفيذ أوامرالله من خلال دولتـه الجديدة، لأن تحقيق الحاكمية لله على الأمة هو محض العـبودية لله تعالى، لأنه بذلك يتحـقق التوحيد ويقـوم الدين، قال تعالى: ﴿مَـا تَعْبُـدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَـاءً سَمَّيْتُـمُوهَا أَنتُمْ وَآبَـاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَـا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (سُورَة يوسف، آيَةَ: ٤٠).

يعني: (ما الحكم الحق في الربوبية والعقائد والعـبادات، والمعاملات إلا لله وحده يوحيه لمن اصطفاه من رسله، لا يمـكن لبشر أن يحكم فـيه برأيه وهواه، ولا يعقله واسـتدلاله ولا باجتـهاده واستحسـانه، فهذه القاعـدة هي أساس دين الله تعالى على ألسنة جـميع رسله لا تختلف باختلاف الأزمنة، والأمكنة)[١٨٠].

لقد نزل القرآن الكريم من أجل تحقيق العبودية والحـاكمية لله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّـا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِـتَابَ بِالْحَقِّ فَـاعْبُـدِ اللَّهَ مُـخْلِصًا لَّـهُ الدِّينَ * أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَـالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ (سورَة الزمر، آية: ٢، ٣) وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَـابَ بِالْحَقِّ لِتَـحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِـمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْـخَائِنِينَ خَـصِـيمًـا﴾ (سورةَ النسـاءَ، آية: ١٠٥) فكما أن تحـقيق العبـودية غاية من إنزال الكتاب فكـذلك تطبيق الحاكمـية غاية من إنزاله، وكما أن العبـادة لا تكون إلا عن وحي منزل فكذلك لا ينبغي أن يحكم إلا بشرع منزل، أو بماله أصل في شرع منزل[١٨١].

إن تحقيق الحاكمية، تمكين للعبـودية، وقيام بالغاية التي من أجلها خلق الإنسان والجان، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦).

وقد اعترف اليهود في هذه الصحيفـة بوجود سلطة قضائية عليا يرجع إليها سكان المدينة بما فيهم اليـهود بموجب بند رقم (٤٢) لكن اليهود لم يُلزموا بالرجوع إلـى القضاء الإسلامي دائمًا، بـل فقط عندما يـكون الحدث أو الاشتـجار بينهم وبين المسـلمين، أما في قضـاياهم الخاصـة وأحوالهم الشخصـية فهم يحتكمـون إلى التوراة ويقضي بينهم أحـبارها، ولكن إذا شاؤوا فبوسـعهم الاحتكام إلى النبي (ﷺ)، وقد خيّـر القرآن الكريم النبي (ﷺ) بين قـبول

---

(١٧٩) انظر: التاريخ السياسي والحضاري، السيد عبد العزيز ص١٠٢.
(١٨٠) انظر: تفسير المنار (١٢/٣٠٩).
(١٨١) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (١/٤٣٣).

الحكم فيهم أو ردهم إلى أحبارهم قال تعالى: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (سورة المائدة، آية: ٤٢).

ومن القضايا التي أراد اليهود تحكيم الرسول (ﷺ) فيها اختلاف بني النضير وبني قريظة في دية القتلى بينهما، فقد كانت بنو النضير أعزّ من بني قريظة، فكانت تفرض عليهم دية مضاعفة لقتلاها، فلما ظهر الإسلام في المدينة امتنعت بنو قريظة عن دفع الضعف، وطالبت بالمساواة في الدية[١٨٢]، فنزلت الآية: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (سورة المائدة، آية: ٤٥).

وبهذه الصحيفة التي أقرت المادة (٤٢) (على أنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسوله) أصبح للرسول (ﷺ) سلطة قضائية مركزية عليا يرجع إليها الجميع، وجعلها ترجع إلى الله وإلى الرسول (ﷺ)، ولها قوة تنفيذية، لأن أوامر الله واجبة الطاعة وملزمة التنفيذ، كما أن أوامر الرسول (ﷺ) هي من الله، وطاعتها واجبة[١٨٣].

وبذلك أصبح رسول الله (ﷺ) رئيس الدولة، وفي نفس الوقت رئيس السلطة القضائية والتنفيذية والتشريعية فقد تولى رسول الله (ﷺ) السلطات الثلاثة بصفته رسول الله المكلف بتبليغ شرع الله، والمفسر لكلام الله، والسلطة التنفيذية بصفته الرسول الحاكم، ورئيس الدولة، فقد تولى رئاسة الدولة وفق نصوص الصحيفة، وباتفاق الطوائف المختلفة الموجودة في المدينة، ممن شملتهم نصوص الصحيفة في المادة ٣٦) التي تقرر أنه (لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد) ولهذا تأثير كبير في عدم السماح لهم بمخالفة قريش أو غيرها من القبائل المعادية، وهناك المادة (٤٣) التي ذهبت إلى ما هو أبعد وأصرح من ذلك إذ قررت أنه (لا تُجار قريش ولا من نصرها) ولم يرد في الصحيفة اسم لأي شخص ما عدا رسول الله (ﷺ)[١٨٤].

٣- إقليم الدولة:

وجاء في الصحيفة: (أن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة) مادة (٤٠). وأصل التحريم ألا يقطع شجرها، ولا يقتل طيرها، فإذا كان هذا هو الحكم في الشجر والطير فما بالك في الأموال والأنفس[١٨٥]؟، فهذه الصحيفة حددت معالم الدولة: أمة واحدة، وإقليم هو المدينة، وسلطة حاكمة يرجع إليها وتحكم بما أنزل الله.

---

(١٨٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢٩١/١).
(١٨٣) انظر: دولة الرسول صلى الله عليه وسلم من التكوين إلى التمكين ص٤١٨.
(١٨٤) انظر: دولة الرسول من التكوين إلى التمكين ص٤٢٠.
(١٨٥) انظر: نظام الحكم، ظافر القاسمي (٣٨/١).

إن المدينة كانت بداية إقليم الدولة الإسلامية ونقطة الانطلاق، ومركز الدائرة التي كان الإقليم يتسع منها حتى يضع حدًا للقلاقل والاضطرابات، ويسوده السلم والأمن العام.

وقد أرسل النبي (ﷺ) أصحابه ليثبتوا أعلامًا على حدود حرم المدينة من جميع الجهات، وحدود المدينة بين لابتيها شرقًا وغربًا، وبين جبل ثور في الشمال، وجبل نمير في الجنوب.

ثم اتسع (الإقليم) باتساع الفتح، ودخول شعوب البلاد المفتوحة في الإسلام حتى عمّ مساحة واسعة في الأرض والبحر وما يعلوهما من فضاء، فمن المحيط الأطلسي غربًا ومناطق واسعة من غرب أوروبا وجنوبها، ومناطق فسيحة من غرب آسيا وجنوبها إلى أكثر أهل الصين وروسيا شرقًا، وكل شمال إفريقيا وأواسطها[١٨٦]، إن إقليم الدولة مفتوح وغير محدود بحدود جغرافية أو سياسية، فهو يبدأ من عاصمة الدولة (المدينة)، ويتسع حتى يشمل الكرة الأرضية بأسرها قال تعالى: ﴿**قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ (سورة الأعراف، آية: ١٢٨) كما أن مفهوم الأمة مفتوح وغير منغلقة على فئة دون فئة، بل هي ممتدة لتشمل الإنسانية كلها إذا ما استجابت لدين الله تعالى الذي ارتضاه لخلقه ولبني آدم أينما كانوا.

فالدولة الإسلامية دولة الرسالة العالمية، لكل فرد من أبناء المعمورة نصيب فيها، وهي تتوسع بوسيلة الجهاد[١٨٧].

٤- الحريات وحقوق الإنسان:

إن الصحيفة تدل بوضوح وجلاء على عبقرية الرسول (ﷺ) في صياغة موادها وتحديد علاقات الأطراف بعضها ببعض، فقد كانت موادها مترابطة وشاملة وتصلح لعلاج الأوضاع في المدينة آنذاك وفيها من القواعد والمبادئ ما يحقق العدالة المطلقة والمساواة التامة بين البشر، وأن يتمتع بنو الإنسان على اختلاف ألوانهم ولغاتهم وأديانهم بالحقوق والحريات بأنواعها[١٨٨]، يقول الأستاذ محمد سليم العوا: (ولا تزال المبادئ التي تضمنها الدستور- في جملتها معمولاً بها- والأغلب أنها ستظل كذلك في مختلف نظم الحكم المعروفة إلى اليوم... وصل إليها الناس بعد قرون من تقريرها في أول وثيقة سياسية دوّنها الرسول (ﷺ))[١٨٩].

فقد أعلنت الصحيفة أن الحريات مصونة، كحرية العقيدة والعبادة وحق الأمن... الخ، فحرية الدين مكفولة: للمسلمين دينهم ولليهود دينهم قال تعالى: ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا**

(١٨٦) انظر: دولة الرسول من التكوين إلى التمكين ص٤١١.

(١٨٧) انظر: دولة الرسول من التكوين إلى التمكين ص٤٢١.

(١٨٨) نفس المصدر ص٤٢٠.

(١٨٩) انظر: النظام السياسي للدولة الإسلامية ص٦٥.

انفصام لها والله سميع عليم﴾ (سورة البقرة، آية: ٢٥٦) وقد أنذرت الصحيفة بإنزال الوعيد، وإهلاك من يخالف هذا المبدأ، أو يكسر هذه القاعدة، وقد نصت الوثيقة على تحقيق العدالة بين الناس، وعلى تحقيق مبدأ المساواة.

إن الدولة الإسلامية واجب عليها أن تقيم العدل بين الناس وتفسح المجال وتيسر السبل أمام كل إنسان يطلب حقه أن يصل إلى حقه بأيسر السبل وأسرعها، دون أن يكلفه ذلك جهد أو مال[190]، وعليها أن تمنع أي وسيلة من الوسائل من شأنها أن تعيق صاحب الحق من الوصول إلى حقه.

لقد أوجب الإسلام على الحكام أن يقيموا العدل بين الناس دون النظر إلى لغاتهم أو أوطانهم أو أحوالهم الاجتماعية، فهو يعدل بين المتخاصمين ويحكم بالحق، ولا يهمه أن يكون المحكوم لهم أصدقاء أو أعداء أغنياء أو فقراء، عمالاً أو أصحاب عمل، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (سورة المائدة، آية: ٨).

والمعنى: لا يحملنكم بغض قوم على ظلمهم، ومقتضى هذا أنه لا يحملنكم حب قوم على محاباتهم والميل معهم[191].

يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودي - رحمه الله- معقبًا على قوله تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (سورة الشورى، آية: ١٥) مانصه (يعني أنني مأمور بالإنصاف دون عداوة، فليس من شأني أن أتعصب لأحد أو ضد أحد، وعلاقتي بالناس كلهم سواء، وهي علاقة العدل والإنصاف، فأنا نصير من كان الحق في جانبه، وخصيم من كان الحق ضده، وليس في ديني أي امتيازات لأي فرد كائنًا من كان، وليس لأقاربي حقوق، وللغرباء حقوق أخرى، ولا للأكابر عندي مميزات لا يحصل عليها الأصاغر، والشرفاء والوضعاء عندي سواء، فالحق حق للجميع، والذنب والجرم ذنب للجميع، والحرام حرام على الكل، والحلال حلال للكل، والفرض فرض على الكل، حتى أنا نفسي لست مستثنى من سلطة القانون الإلهي[192].

إن تربية المجتمع المسلم وإعداده لقيادة الإنسانية بخصائصه التي احتواها منهجه التربوي حفيّة أشد الحفاوة بشرعة العدل، وإقامته بين الأفراد والجماعات والأمم والشعوب، لأن

---

(١٩٠) انظر: النظام السياسي في الإسلام لأبي فارس ص٥٨ .

(١٩١) نفس المصدر ص٥٢ .

(١٩٢) انظر: الحكومة الإسلامية ص٢٠٢ .

العدل في شمول مواطنه هو دعامة القيادة الموفقة قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقَيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (سورة النساء، آية: ١٣٥) وهذا نص قرآني صريح في تكليف المجتمع القيادي المسلم تحقيق العدل على أتم صوره وأكمل أحواله، فالعدل على النفس، وعلى أقرب ذوي القربى كالعدل مع غير النفس وأبعد البعداء، وفي قوله تعالى: ﴿كُونُوا﴾ أمر للمجتمع المسلم في جميع أفراده وجماعاته أينما حلُّوا من أرض الله، وحيثما كانوا في أوطانهم المتقاربة أو المتباعدة، وهو أمر كينونة يشعر بمادته بالإلزام والالتزام، والتهيؤ والانبعاث للقيام بإقامة منهج العدل في الحياة، وفي قوله: ﴿قَوَّامِينَ﴾ بصيغة المبالغة إيماء إلى ما يجب أن يكون عليه المجتمع المسلم من النهوض بإقامة معالم العدل، بكل ما أوتي من قوة مادّية وروحية، مشمِّرًا على ساق العزم في بذل الجهد والتحفز للعمل في سبيل توطيد دعائم العدل الاجتماعي.

إن القرآن الكريم - وهو دستور المجتمع المسلم- لا يقف في أسلوبه الذي يحض به على الاستمساك بالعدل عند سفح الحياة، ولكنه يتولج إلى مداخل الضمير الإنساني، ويأبى عليه أن يخضع في إقامة العدل لعاطفة تتملّق الغني لغناه وسعة ثروته من المال، أو يتملق عاطفة الرحمة، فيرحم الفقير لفقره، فيلوي عنه عنق العدل حتى لا يرى ما يقع منه من ظلم وتحيف على الحق.

والقرآن بذلك لا يرضى للمجتمع المسلم أن يحمله تعزز الغني بثرائه وغناه على ألا يقام معه العدل، ويظلم له الفقير، ولا يرضى لهذا المجتمع المسلم أن تحمله الرحمة للفقير، فيُحابي بظلم الغني لأجله.

ولا يرضى القرآن الحكيم لمجتمعه المسلم أن يميل مع الهوى ويخضع للعواطف فيحيد عن العدل ليًا بالحق، وإعراضًا عنه.

وقد جاءت أخت هذه الآية في نسب أسلوبها وألفاظها لتكمل صورة إقامة العدل على أتم وجوهه لتقرر أن موازين العدل يجب أن تساوي فيها المحب والمبغض، والقريب والبعيد، والصديق والعدو فقالت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (سورة المائدة، آية: ٨).

فصورة الخطاب الكينوني هنا كُله الذي يجعل من العدل طبيعة خلائق المجتمع المسلم الذي نيط به قيادة الإنسانية، هي صورته هناك لأن العدل أمانة هذا المجتمع المسلم العظمى التي حملها ليؤدِّيها إلى الناس في حياتهم[١٩٣] بيد أن الأمر اختلف في الآيتين اختلافا جمع متفرق مواطن العدل باعتباره أصلا من أصول الرسالة الخالدة الخاتمة الذي يعم الحياة من جميع جوانبها، ففي الآية الأولى وجّه الأمر للمجتمع المسلم بأشرف أوصافة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

(١٩٣) انظر: محمد رسول الله (٣/ ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤).

آمَنُوا﴾ إلى أن يكون قوّامًا بالعدل ولو كان في ذلك مراغمة منازع الحب والود والقربى، وفي هذه الآية الثانية وجّه الأمر للمجتمع بعنوانه المشرف إلى أن يكون قوّامًا بالعدل ولو كان في ذلك مراغمة جميع عواطف البغض والعداوة[١٩٤].

وملتقى الآيتين الكريمتين في توجيه المجتمع المسلم توجيهًا صارمًا لا هوادة فيه إلى أن يكون نهّاضًا بالعدل قائمًا به بين الناس له قيادته للإنسانية، وليخلص له التوجه إلى الله في إخلاص العبودية له وحده، لا تحمله محبة مهما عظمت أو بغض مهما اشتد على الإعراض عن إقامة العدل إحقاقًا للحق، وإنصافًا للمظلوم، ونصرًا للضعيف[١٩٥].

أما مبدأ المساواة، فقد جاءت نصوص صريحة في الصحيفة حولها، منها: (أن ذمَّة الله واحدة) وأن المسلمين (يجير عليهم أدناهم) وأن (بعضهم موالي بعض دون الناس)، ومعنى الفقرة الأخيرة أنهم يتناصرون في السّراء والضّراء (الفقرة ١٥)، وتضمنت الفقرة (١٩) أن (المؤمنين يبيء بعضهم عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله). قال السهيلي شارح السيرة في كتابه الروض الأنف: (ومعنى قوله يبيء، هو من البواء، أي: المساواة)[١٩٦].

يعد مبدأ المساواة أحد المبادئ العامة، التي أقرها الإسلام، وهي من المبادئ التي تساهم في بناء المجتمع المسلم، ولقد أقر هذا المبدأ وسبق به تشريعات وقوانين العصر الحديث، ومما ورد في القرآن الكريم تأكيدًا لمبدأ المساواة قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (سورة الحجرات، الآية: ١٣).

وقال رسول الله (ﷺ): «**يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى**»[١٩٧].

إن هذا المبدأ كان من أهم المبادئ التي جذبت الكثير من الشعوب قديمًا نحو الإسلام، فكان هذا المبدأ مصدرًا من مصادر القوة للمسلمين الأولين[١٩٨].

وليس المقصود بالمساواة هنا (المساواة العامة) بين الناس جميعًا في كافة أمور الحياة، كما ينادي بعض المخدوعين ويرون ذلك عدلاً[١٩٩]، فالاختلاف في المواهب والقدرات، والتفاوت في الدرجات غاية من غايات الخلق[٢٠٠]، ولكن المقصود المساواة التي دعت إليها

---

(١٩٤) نفس المصدر (٣/ ١٤٤ ، ١٤٥) .

(١٩٥) المصدر السابق (٣/ ١٤٥) .

(١٩٦) انظر: الروض الأنف (٢/ ١٧) نقلاً عن نظام الحكم للقاسمي (١/ ٣٨) .

(١٩٧) انظر: مسند الإمام أحمد (٥/ ٤١١) .

(١٩٨) انظر: مبادئ نظام الحكم في الإسلام ، عبد الحميد متولي ص٣٨٥ .

(١٩٩) انظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها للميداني (١/ ٦٢٤) .

(٢٠٠) انظر: فلسفة التربية الإسلامية ، ماجد الكيلاني ص١٧٩ .

الشريعة الإسلامية، مساواة مقيدة بأحوال فيها التساوي وليست مطلقة في جميع الأحوال[٢٠١]، فالمساواة تأتي في معاملة الناس أمام الشرع والقضاء وكافة الأحكام الإسلامية، والحقوق العامة دون تفريق بسبب الأصل، أو الجنس، أو اللون، أو الثروة أو الجاه، أو غيرها[٢٠٢].

إن الناس جميعًا في نظر الإسلام سواسية، الحاكم والمحكوم، الرجال والنساء، العرب والعجم، الأبيض والأسود، لقد ألغى الإسلام الفوارق بين الناس بسبب الجنس واللون أو النسب أو الطبقة والحكام والمحكومين كلهم في نظر الشرع سواء ولذلك كانت الدولة الإسلامية الأولى تعمل على تطبيق هذا المبدأ بين الناس وكانت تراعي الآتي:

* إن مبدأ المساواة أمر تعبدي، تؤجر عليه من خالق الخلق (سبحانه وتعالى).

* إسقاط الاعتبارات الطبقية، والعرفية، والقبلية والعنصرية، والقومية والوطنية والإقليمية وغير ذلك من الشعارات الماحقة لمبدأ المساواة الإنسانية وإحلال المعيار الإلهى بدلا عنها للتفاضل، ألا وهو التقوى.

* ضرورة مراعاة مبدأ تكافؤ الفرص للجميع، ولا يراعى أحد لجاهه أو سلطانه، أو حسبه أو نسبه، وإنما الفرص للجميع وكل على حسب قدرته وكفاءاته ومواهبه، وطاقته، وإنتاجه.

* إن تطبيق مبدأ المساواة بين رعايا الدولة الإسلامية يقوي صفها، ويوحد كلمتها، وينتج عنه مجتمع متماسك متراحم يعيش لعقيدة، ومنهج، ومبدأ[٢٠٣].

كانت الوثيقة قد اشتملت على أتمّ ما قد تحتاجه الدولة من مقومات الدستورية والإدارية وعلاقة الأفراد بالدولة، وكان القرآن يتنزل في المدينة عشر سنين، يرسم للمسلمين خلالها مناهج الحياة، ويرسي مبادئ الحكم، وأصول السياسة، وشؤون المجتمع، وأحكام الحرام والحلال وأسس التقاضي، وقواعد العدل، وقوانين الدولة المسلمة في الداخل والخارج، والسنة الشريفة تدعم هذا وتشيده، وتفصّله في تنوير وتبصرة، فالوثيقة حظت خطت خطوطًا عريضة في الترتيبات الدستورية وتعتبر في القمة من المعاهدات التي تحدد صلة المسلمين بالأجانب الكفار المقيمين معهم، في شيء كثير من التسامح والعدل والمساواة وعلى التخصيص إذا لوحظ أنها أول وثيقة إسلامية، تسجل وتنفذ في أقوام كانوا – منذ قريب وقبل الإسلام أسرى العصبية القبلية، ولا يشعرون بوجودهم إلا من وراء الغلبة، والتسلط وبالتخوّض في حقوق الآخرين وأشيائهم[٢٠٤] كانت هذه الوثيقة فيها من المعاني الحضارية الشيء الكثير، وما توافق الناس على تسميته اليوم بحقوق الإنسان، وان لا بد على الجانبين

(٢٠١) انظر: مبادئ علم الإدارة، محمد نور الدين ص١١٦.
(٢٠٢) انظر: فقه التمكين، د. علي الصّلابي ص٤٦٣.
(٢٠٣) انظر: فقه التمكين ص٤٦٦.
(٢٠٤) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، د. محمد فيض الله ص٢٩ إلى ٣٠.

المتعاقدين أن يلتزموا ببنودها فهل حدث هذا الالتزام[٢٠٥].

ثالثًا- موقف اليهود في المدينة:

لقد قامت الحجج القاطعة والبراهين الساطعة لليهود على صدق رسالة الرسول (ﷺ)، ولكن ذلك لم يزدهم إلا عنادًا وعداوة واستكبارًا، وحقدًا وحسدًا على الرسول والذين آمنوا معه، فعن صفية بنت حيي بن أخطب أنها قالت: كنت أحب ولد أبي إليه، وإلى عمي أبي ياسر، لم ألقهما قط مع ولد لهما إلاّ أخذاني دونه، قالت: فلما قدم رسول الله (ﷺ) المدينة، ونزل قباء، في بني عمرو بن عوف، غدا عليه أبي حيي بن أخطب، وعمي أبو ياسر ابن أخطب، مُغَلِّسين. قالت: فلم يرجعا حتى كان مع غروب الشمس، قالت: فأتيا كالَّيْن كسلانين ساقطين يمشيان الهوينى، قالت: فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إلي واحد منهما، مع ما بهما من الغم، قالت: وسمعت عمي أبا ياسر، وهو يقول لأبي حيي بن أخطب: أهو هو؟ قال: نعم والله، قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم، قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت[٢٠٦].

وقد شن اليهود على رسول الله (ﷺ) والذين آمنوا معه حملات إعلامية لتشويه صورة الرسول (ﷺ) وتنفير الناس منه، ونزع الثقة بينه وبين الناس، لقد شعر اليهود بخطورة هذا الدين على مصالحهم، وعلى عقيدتهم المنحرفة المزيفة، القائمة على الاستعلاء واحتقار الناس عدا الجنس اليهودي، لقد جاء ينادي بعقيدة التوحيد، وهم يقولون: عزير ابن الله، وجاء ينادي بالمساواة بين أفراد الجنس البشري وأنه لا يعلو شعب على شعب ولا جماعة على جماعة، وهم يرون أنهم شعب الله المختار، يترفعون عن بقية الأجناس، وينظرون إليهم على أنهم دونهم، وأقل منهم[٢٠٧] ولذلك لم يلتزموا ببنود الوثيقة وشرعوا في التشكيك في نبوة الرسول (ﷺ) ورسالته، وأكثروا من الأسئلة لإحراج رسول الله (ﷺ)، وخدعوا المؤمنين ودلسوا عليهم[٢٠٨]، وغير ذلك من الأعمال الخبيثة.

١- محاولة اليهود لتصديع الجبهة الداخلية:

ومن وسائلهم الخبيثة في حرب الإسلام محاولاتهم المستمرة لتمزيق الصف المسلم وتخريبه، بتقطيع أواصر المحبة بين المسلمين، وذلك بإثارة الفتن الداخلية، والشعارات الجاهلية، والنعرات الإقليمية، والدعوات القومية والقبلية، والسعي بالدسيسة والوقيعة بين الأخوة المتآلفين المتوادين المتحابين، فهم في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر[٢٠٩].

(٢٠٥) انظر: هجرة الرسول وصحابته للجمل ص٢٦١ .
(٢٠٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/٥١٨- ٥١٩) .
(٢٠٧) انظر: الصراع مع اليهود ، محمد أبو فارس (١/ ٣١) .
(٢٠٨) نفس المصدر (١/ ٣١- ٤٦) .
(٢٠٩) انظر: الصراع مع اليهود (١/ ٤٤) .

فقد تفتق ذهن أحد شيوخهم الكبار في السن عن حيلة هدف بها إلى تفريق وحدة الأنصار، وذلك بإثارة العصبية القبلية بينهم ليعودوا إلى جاهليتهم، فتعود الحروب بينهم كما كانت، ويخسر النبي (ﷺ) بذلك أقوى أنصاره[٢١٠]، وفي بيان هذا الخبر يقول محمد بن إسحاق (رحمه الله تعالى): ومرّ شاس بن قيس وكان شيخًا قد عسا[٢١١]، عظيم الكفر شديد الضِّغن على المسلمين، شديد الحسد لهم، على نفر من أصحاب رسول الله (ﷺ) من الأوس والخزرج، في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم، وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم في الجاهلية، فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة[٢١٢]، بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار، فأمر فتى شابا من يهود كان معهم، فقال: اعمد إليهم، فاجلس معهم ثم اذكر يوم من بُعاث وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار.

وكان يوم بعاث يوما اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج، وكان على الأوس يومئذ حضير بن سماك الأشهلي، أبو أسيد بن حضير، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضي، فقتلا جميعًا.

قال ابن إسحاق: ففعل، فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب: أوس بن قيظي، أحد بني حارثة بن الحارث، من الأوس، وجبار بن صخر، أحد بني سلمة من الخزرج، فتقاولا ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددناها الآن جذعة[٢١٣]، فغضب الفريقان جميعًا وقالوا: قد فعلنا، موعدكم الظاهرة - والظاهرة: الحرّة- السلاح السلاح، فخرجوا إليها.

فبلغ ذلك رسول الله (ﷺ)، فخرج إليهم، فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم، فقال: «يا معشر المسلمين، الله الله أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألف به بين قلوبكم؟».

فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضًا، ثم انصرفوا مع رسول الله (ﷺ) سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد عدوّ الله شاس بن قيس، فأنزل الله تعالى في شاس بن قيس وما صنع: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

---

(٢١٠) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/ ٣٧).

(٢١١) عسا: كبرت سنه.

(٢١٢) قيلة: أم الأوس والخزرج.

(٢١٣) جذعة: أي رددنا الحرب فتية قوية.

(٢١٤) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢١١- ٢١٤).

(سورة آل عمران، آية: ٩٨- ٩٩) وأنزل الله في أوس بن قيظي وجبار بن صخر ومن كان معهما من قومهما الذين صنعوا ما أدخل عليهم شأس من أمر الجاهلية[٢١٤]: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ سورة آل عمران، الآيات: ١٠٠- ١٠٥) ونرى من خلال القصة قدرة القيادة النبوية على إفشال مخطط اليهود الهادف لتفتيت وحدة الصف، ويظهر اهتمام النبي بأمور المسلمين وإشفاقه عليهم، وفزعه مما يصيبهم من الفتن والمصائب، فقد أسرع إلى الأنصار وذكرهم بالله، وبين لهم أن ما أقدموا عليه من أمر الجاهلية، وذكرهم بالإسلام وما أكرمهم الله به من القضاء على الحروب، والفتن وتطهير النفوس من الضغائن، وتأليف القلوب بالإيمان ،وكانت لكلمات النبي (ﷺ) أثر في نفوسهم، وسرت في كيانهم روح جديدة مسحت كل أثر لأمر الجاهلية بفضل الله تعالى ثم بكلمات نبيه (ﷺ) المعبرة وروحه القوية المؤثرة، وهيأته الوثابة المنذرة، وأدركوا أن ما وقعوا فيه كان من وساوس الشيطان وكيد عدوهم من اليهود، فبكوا ندما على ما وقعوا فيه من الذنوب، وتعانق رجال الإسلام، تعبيرًا عن محبتهم الإيمانية لبعضهم[٢١٥].

٢- التهجم على الذات الإلهية:

ذكر غير واحد من كتاب السير والمفسرين أن أبا بكر (قد دخل بيت المدارس[٢١٦] على يهود، فوجد منهم ناسًا كثيرًا قد اجتمعوا إلى رجل منهم، يقال له: فنحاص، وكان من علمائهم وأحبارهم، ومعه حبر من أحبارهم، يقال له أشيع[٢١٧]، فقال أبو بكر لفنحاص: ويحك! اتق الله وأسلم، فوالله إنك تعلم أن محمدًا لرسول الله، قد جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة والإنجيل، فقال فنحاص لأبي بكر: والله

(٢١٥) انظر: التاريخ الإسلامي (٤/ ٤١ ، ٤٢) .

(٢١٦) مكان يتلى فيه التوراة .

(٢١٧) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٥٥٨- ٥٥٩) ، وسبل الهدى والرشاد (٣/ ٥٨٣- ٥٨٥) ، وتفسير مجاهد ص١٤٠ .

أبا بكر، ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، وما هو عنا بغني، ولو كان عنا غنيًا ما استقرضنا أموالنا، كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويعطيناه، ولو كان عنا غنيًا ما أعطانا الربا فغضب أبو بكر، فضرب وجه فنحاص ضربًا شديدًا، وقال: والذي نفسي بيده، لولا العهد الذي بيننا وبينكم لضربت رأسك، أي عدو الله، فذهب فنحاص إلى رسول الله (ﷺ)، فقال: يا محمد انظر ما صنع بي صاحبك، فقال رسول الله (ﷺ) لأبي بكر: «**ما حملك على ما صنعت؟**» فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن عدو الله قال قولاً عظيمًا، إنه يزعم أن الله فقير وأنهم أغنياء، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال، وضربت وجهه، فجحد ذلك فنحاص وقال: ما قلت ذلك، فأنزل الله تعالى فيما قال فنحاص ردًا عليه، وتصديقًا لأبي بكر: ﴿**لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ**﴾ (آل عمران: ١٨١).

ونزل في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وما بلغه في ذلك من الغضب[٢١٨]: ﴿**لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ**﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٨٦) وذكر القرآن الكريم في أكثر من موضع سوء أدبهم مع الله (سبحانه وتعالى)، وعدم تنزيهه عن النقائص، ووصفه بما لا يليق به سبحانه، وهذا عين الوقاحة، وانعدام الأدب ومن هذه الآيات قول الله تعالى: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**﴾ (سورة المائدة، آية: ٦٤).

ويبدو من مضمون الآية أن هذا الموقف الذي وقفوه كان منبعثًا مما كان يملأ صدورهم من الغيظ والسخط من رسوخ في قدم النبي (ﷺ) وانتشار دعوته، ولعل مما يصح أن يضاف إلى هذا الاحتمال كون المسلمين قد انصرفوا عنهم أو قاطعوهم بسبب مواقف الكيد والجحود التي ما فتئوا يقفونها، واستجابة لأمر القرآن ونهيه وتحذيره، فأثر ذلك في حالتهم الاقتصادية تأثيرًا سيئًا زاد سخطهم وغيظهم وتبرمهم، ودفعهم إلى ما كان منهم من سوء الأدب في حق الله، ومن رد غير جميل لرسول الله (ﷺ)[٢١٩].

وقد جاءت بعد هذه الآية ما يدل على صحة ما ذهبت إليه قال تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ**﴾ (سورة المائدة: ٦٥، ٦٦) سوء أدبهم مع رسول الله

(٢١٨) انظر: تفسير القرطبي (٤/ ٢٩٥).

(٢١٩) انظر: الصراع مع اليهود (١/ ٥١).

(ﷺ) والنيل من الرسل الكرام والقرآن الكريم:

وكان اليهود يسيؤون الأدب مع رسول الله (ﷺ) في حضرته وأثناء خطابه، إذ يلمزونه، ويحيونه بتحية فيها من الأذى والتهجم ما يدل على سوء أخلاقهم، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: جاء ناس من اليهود إلى رسول الله (ﷺ) فقالوا: السام[٢٢٠] عليك يا أبا القاسم، فقلت: السام عليكم، وفعل الله بكم، فقال رسول الله (ﷺ): **«مه يا عائشة، فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش»**، فقلت: يا رسول الله، ترى ما يقولون؟ فقال: **«ألست تريني أرد عليهم ما يقولون؟ وأقول: وعليكم»**، قالت: فنزلت هذه الآية في ذلك[٢٢١] وهي قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾ (سورة المجادلة، آية: ٨).

وهذه الآية تظهر الحقد الذي هيمن على نفوس اليهود ودفعهم إلى استخدام كل الوسائل والطرق لهدم الإسلام والتخلص من صاحب الرسالة، والسيطرة على المسلمين، ولكن يظهر من دعاء بعض اليهود على الرسول (ﷺ) بالموت مع التظاهر بالسلام عليه، هو الضعف الذي كانوا عليه عند التجائهم إلى هذا النوع من السلام، فالممارس لمثل ما قام به اليهودي الذي سلم على الرسول (ﷺ) بقوله السام عليك، يعيش أزمة نفسية متولدة عن فقدان عز كان يظن أنه ينعم فيه، لقد تغلبت قوى جديدة على ماضيه وحاضره ولم يستطع أن يتفاعل مع من تغلب عليه، ومنعهم الحسد والغيرة من الانقياد للدين الجديد، ومما زاد في تأزم اليهود أنهم جربوا محاربة الإسلام بوسائلهم التي كانوا يظنون أنها لا تقهر، فكان الفشل حليفهم، لذلك لجؤوا إلى الطرق السلبية والوسائل الملتوية، فالدعاء على الخصم مع التظاهر بالسلام هو سلاح العاجزين، ووسيلة الخائبين، وترياق الحاقدين[٢٢٢].

ولما سمع رسول الله (ﷺ) ما صدر عن عائشة رضي الله عنها دعاها إلى الرفق واللين، وبين لها أن المسلم لا يجوز له أن يترك الغضب يتحكم فيه، فالرفق في الإسلام ثمرة لا يثمرها إلا حسن الخلق، فالله رفيق يحب الرفق ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف[٢٢٣].

وأما نيلهم من المرسلين، فقد أتى رسول الله (ﷺ) نفر من يهود فيهم أبو ياسر بن أخطب، ورافع بن أبي رافع، وعازر بن أبي عازر وغيرهم وسألوا رسول الله (ﷺ) عمن يؤمن به من الرسل فقال: **«أؤمن بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم، لا نفرق**

---

(٢٢٠) السام: الموت. انظر: زاد

(٢٢١) زاد المسير في علم التفسير (٨/ ١٨٩) رواه ابن أبي حاتم من حديث الأعمش عن مسروق عن عائشة وإسناده صحيح. وفي صحيح مسلم (٤/ ١٧٠٧).

(٢٢٢) انظر: حوار الرسول مع اليهود، د. محسن عبد الناظر ص١٠١.

(٢٢٣) نفس المصدر ص٨٧.

بين أحد منهم ونحن له مسلمون»، فلما ذكر عيسى عليه السلام، وقالوا: لا نؤمن بعيسى ولا نؤمن بمن آمن به[٢٢٤]، فأنزل الله فيهم: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ (سورة المائدة، آية: ٥٩).

وأما في محاولاتهم للنيل من القرآن الكريم في أسئلتهم ونقاشهم الذي لا ينتهي، فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما قدم رسول الله (ﷺ) المدينة قالت أحبار اليهود: يا محمد، أرأيت قولك: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ سورة الإسراء، آية: ٨٥) إيّانا تريد أم قومك؟ قال: «كُلاً»، قالوا: فإنك تتلو فيما جاءك: أنا قد أوتينا التوراة فيها بيان كل شيء، فقال رسول الله (ﷺ): «إنها في علم الله قليل، وعندكم في ذلك ما يكفيكم لو أقمتموه»[٢٢٥] قال: فأنزل الله تعالى عليه فيما سألوه عنه من ذلك: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة لقمان، آية: ٢٧).

٤- دعم حزب المنافقين وتآمرهم معهم:

حدثنا القرآن الكريم عن قيادة اليهود الفكرية لحزب المنافقين، فهم شياطين المنافقين يخططون لهم، ويوجهونهم، ويدرّسونهم أساليب الكيد والمكر والخداع والدهاء وإثارة الفتن قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ﴾ (سورة البقرة، آية: ١٤).

قال النسفي في تفسيره: (وشياطينهم الذين ماثلوا الشياطين في تمردهم، وهم اليهود)[٢٢٦].

وكان اليهود في المدينة يتآمرون مع المنافقين ضد المسلمين وفي هذا التآمر قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قِرِينًا * وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُواْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِم عَلِيمًا﴾ (سورة النساء، آية: ١٣٨- ١٣٩) قال الأستاذ محمد دروزة: (وجمهور المفسرين على أن الكافرين هنا هم اليهود، وفي الآية قرينة على صحة ذلك، كما أن فيما بعدها قرينة ثانية أيضًا، وواضح أن اتخاذ المنافقين اليهود أولياء، وتواثقهم معهم، إنما هما أثران من آثار التآمر الموطد بين اليهود والمنافقين تجاه الدعوة والقوة الإسلامية)[٢٢٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ وَاللَّهُ

---

(٢٢٤) انظر: ابن هشام في السيرة (١/ ٥٦٧)، تفسير ابن جرير (١/ ٤٤٢)، وانظر: اليهود في السنّة المطهرة، عبد الله الشقاري (١/ ٢٤٢، ٢٤٣).

(٢٢٥) انظر: اليهود في السنّة المطهرة (١/ ٢٤١).

(٢٢٦) انظر: تفسير النسفي (١/ ٢١).

(٢٢٧) انظر: سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم لدروزة (٢/ ١٧٩- ١٨٠)،

يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ (سورة محمد، آية: ٢٥- ٢٦).

والجمهور على أن الآية الأولى عنت المنافقين، وأن الذين كرهوا ما نزل الله هم اليهود، وهكذا تبدو في الآية الثانية صورة من صور التآمر بين الفريقين ضد الإسلام والمسلمين، ونلفت النظر إلى ما حكته الآية الثانية من وعد المنافقين لليهود بطاعتهم والسير على الخطة التي يضعونها، ففي هذا كما هو ظاهر صورة لبعض ما كان لليهود من التوجيه والتأثير والنفوذ في المنافقين، وحركتهم وأعمالهم(٢٢٨).

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (سورة المجادلة، آية: ١٤- ١٦).

قال الماوردي في تفسيره لهذه الآية: (يعني المنافقين تولوا قومًا غضب الله عليهم هم اليهود)(٢٢٩) وفسر الماوردي الصدَّ عن سبيل الله بأنه الصد عن الجهاد ممايلة لليهود(٢٣٠).

ودفعوا المنافقين لإشعال حرب ضد رسول الله (ﷺ)، فعن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: إن رسول الله (ﷺ) ركب حمار على قطيفة فَدَكِيَّة وأردف أسامة بن زيد وراءه يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر، قال: حتى مر بمجلس فيه عبد الله ابن أبي بن سلول، وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أبي، فإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود، وفي المجلس عبد الله بن رواحة، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة، خمّر عبد الله بن أبي أنفه بردائه، ثم قال: لا تُغبِّروا علينا، فسلم رسول الله (ﷺ) ثم وقف، فنزل فدعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أبي سلول: أيها المرء، إنه لا أحسن مما تقول، إن كان حقًا فلا تؤذنا به في مجلسنا، ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه، فقال عبد الله بن رواحة: بلى يا رسول الله فاغشنا به في مجالسنا، فإنا نحب ذلك، فاستبَّ المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتشاورون(٢٣١)، فلم يزل النبي (ﷺ) يخفضهم حتى سكنوا، ثم ركب النبي (ﷺ) دابته فسار حتى دخل على سعد بن عبادة فقال له النبي (ﷺ): **«يا سعد، ألم تسمع ما قال أبو حبان»** -يريد عبد الله بن أبي- قال كذا وكذا، قال سعد بن عبادة: يا رسول الله اعف عنه واصفح، فوالذي أنزل عليك الكتاب، لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك، ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة(٢٣٢) على أن يتوّجوه فيعصبونه بالعصابة، فلما أبى الله ذلك بالحق الذي

(٢٢٨) نفس المصدر (٢/ ١٨٠).
(٢٢٩) انظر: النكت والعيون للماوردي (٤/٢٠٣).
(٢٣٠) نفس المصدر (٤/٢٠٣).
(٢٣١) يتشاورون: أي يتواثبون والمعنى: كادوا أن يثب بعضهم على بعض فيقتتلوا، ويقال: ثار، إذا قام بسرعة وانزعاج. (٢٣٢) البحيرة: لفظ يطلق على القرية والبلد والمراد به هنا المدينة.

أعطاك الله شرق بذلك، فذلك فعل به ما رأيت، فعفا عنه رسول الله (ﷺ)(٣٣٣).

٥- طعن اليهود في من آمن من الأحبار (عبد الله بن سلام):

عندما بلغ عبد الله بن سلام مقدم رسول الله (ﷺ) المدينة، فأتاه فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: قال: ما أول أشراط الساعة، وما أول طعام يأكله أهل الجنة، ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه؟ ومن أي شيء ينزع إلى أخواله؟ فقال رسول الله (ﷺ): «**أخبرني بهن آنفًا جبريل**»، قال: فقال عبد الله: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقال رسول الله (ﷺ): «**أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وأما الشبه في الولد فإن الرجل إذا غشي المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له، وإذا سبقت ماؤها كان الشبه لها**»، قال: أشهد أنك رسول الله، ثم قال: يا رسول الله، إن اليهود قوم بهت وإن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك، فجاءت اليهود، ودخل عبد الله البيت، فقال رسول الله (ﷺ): «**أي رجل فيكم عبد الله بن سلام؟**» فقالوا: أعلمنا وابن أعلمنا، وأخيرنا وابن أخيرنا، فقال رسول الله (ﷺ): «**أفرأيتم إن أسلم عبد الله؟**» قالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج عبد الله إليهم فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، فقالوا: شرّنا وابن شرّنا، ووقعوا فيه(٣٣٤)، فكانوا يؤذون من آمن من أحبارهم، ويثيرون حولهم الشكوك، ويقذفونهم بتهم باطلة قبيحة، وقد حدثنا القرآن الكريم عن هذه الوسيلة، ودافع عن هؤلاء المؤمنين الذين وجه اليهود ضدهم تلك الحملات الظالمة(٣٣٥)، قال تعالى: ﴿**لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَـئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوْهُ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ**﴾ (سورة آل عمران، آية: ١١٣- ١١٥).

قال الواحدي في أسباب النزول: (قال ابن عباس ومقاتل: لما أسلم عبد الله بن سلام، وثعلبة بن سعيد، وأسيد بن سعية، وأسد بن عبيد، ومن أسلم من اليهود، قال أحبار اليهود: ما آمن لمحمد إلا شرارنا، ولو كانوا من أخيارنا لما تركوا دين آبائهم، وقالوا لهم: لقد خسرتم حين استبدلتم بدينكم دينًا غيره، فأنزل الله تعالى: ﴿**لَيْسُواْ سَوَاء**﴾ (٣٣٦).

٦- بث الإشاعات والشماتة بالنبي والمسلمين:

كان اليهود يتحينون الفرص للنيل من المسلمين والبحث عما يفرق كلمتهم، ومن ذلك استغلالهم – في الأشهر الأولى من الهجرة – لوفاة أحد النقباء الذين بايعوا رسول الله (ﷺ) بيعة العقبة، وهو أبو أمامة أسعد بن زرارة الأنصاري الخزرجي رضي الله عنه، فعندما أخذت

(٣٣٣) صحيح البخاري، كتاب التفسير (٨/ ٢٣٠، ٢٣١) رقم ٤٥٦٦.

(٣٣٤) البخاري، كتاب الأنبياء، باب خلق آدم (٦/ ٣٦٢، ٣٦٣) رقم ٣٣٢٩.

(٣٣٥) انظر: الصراع مع اليهود (١/ ٥٩).

(٣٣٦) انظر: أسباب النزول للواحدي ص١١٤.

الشوكة[٣٣٧]، فجاءه رسول الله (ﷺ) يعوده، فقال: «**بئس الميت ليهود** – مرتين– **سيقولون: لولا دفع عن صاحبه، ولا أملك له ضراً ولا نفعًا، ولأتمحلن[٣٣٨] لـه**»، فأمـر به فكُوِيَ بخطين فوق رأسه[٣٣٩] فمات وفي رواية: فكواه حَوْران[٣٤٠]، على عنقه فمات، فقال النبي (ﷺ): «**بئس الميت لليهود، يقولون: قد داواه صاحبه أفلا نفعه؟**»[٣٤١] ولم تكن حادثة أبي أمامة هي الحدث الوحيد الذي أبان الحقد اليهودي على المسلمين، فقد أشاعوا في أول الهجرة أنهم سحروا المسلمين فلا يولد لهم ولد، أشاعوا ذلك ليضيقوا على المسلمين الخناق، ويفسدوا عليهم حياتهم الجديدة التي عاشوها في مدينة رسول الله (ﷺ)، وليعكروا ذلك الجو الصافي الذي يملؤه الحب والتآلف بين المسلمين، ومما يدل على مقدار ما فعلته تلك الإشاعة بين المسلمين، شدة الفرحة التي اعترتهم[٣٤٢] حيث ولد بينهم أول مولود ذكر من المهاجرين وهو عبد الله بن الزبير رضي الله عنه، فعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها – كانت حملت بعبد الله بن الزبير في مكة– قالت: فخرجت وأنا مُتِم، فأتيت المدينة، فنزلت قباء، فولدت بقباء، ثم أتيت به رسولالله (ﷺ) فوضعه في حجره، ثم دعا بتمرة فمضغها، ثم تفل في فيه، فكان أول شيء دخل جوفه ريق رسول الله (ﷺ)، ثم حَنَّكَه بالتمرة، ثم دعا له فبرّك عليه، وكان أول مولود ولد في الإسلام، ففرحوا به فرحًا شديدًا، لأنهم قيل لهم: إن اليهود قد سحرتكم فلا يولد لكم[٣٤٣].

وفي رواية: وسماه عبد الله، ثم جاء بعد وهو ابن سبع أو ابن ثمان سنين ليبايع النبي (ﷺ) وأمره الزبير رضي الله عنه بذلك، فتبسم النبي (ﷺ) حين رآه مقبلاً وبايعه، وكان أول من ولد في الإسلام بالمدينة مقدم رسول الله (ﷺ)، وكانت اليهود تقول: قد أخذناهم فلا يولد لهم بالمدينة ولد ذكر، فكَبَّر أصحاب رسول الله (ﷺ) حين ولد عبد الله[٣٤٤].

٧- موقفهم من تحويل القبلة:

تكاد تكون حادثة تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة هي الفاصل بين الحرب الكلامية وحرب المناوشات والتدخل الفعلي من جانب اليهود، لزعزعة الدولة

(٣٣٧) الشوكة: حمرة تعلو الوجه والجسد.

(٣٣٨) أتمحلن: أي لأحاولن له في حيلة يشفى بوسطتها. انظر: النهاية (٤/ ٣٠٣).

(٣٣٩) انظر: مستدرك الحاكم، كتاب الطب (٤/ ٢١٤) صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي على تصحيحه.

(٣٤٠) حوران: هي كية مُدَوَّرة من حار يحور إذا رجع، وحوّره إذا كواه هذه الكية وتسمى حوراء أيضًا، انظر: النهاية ١/ ٤٥٩.

(٣٤١) انظر: مصنف عبد الرزاق (١٠/ ٤٠٧) رقم ١٩٥١٥.

(٣٤٢) انظر: اليهود في السنّة المطهرة (١/ ٢٦٥).

(٣٤٣) البخاري، كتاب العقيقة، باب تسمية المولود (٩/ ٥٨٧)، ومسلم، كتاب الآداب، باب استحباب تحنيك المولود (٣/ ١٦٩١).

(٣٤٤) انظر: الحاكم في مستدركه، كتاب معرفة الصحابة (٣/ ٥٤٨) صحيح على شرط الشيخين.

الإسلامية الناشئة[٣٤٥]، فعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: إن النبي (ﷺ) كان أول ما قدم المدينة نزل على أجداده - أو قال أخواله- من الأنصار وأنه (ﷺ) صلى قِبَلَ بيت المقدس ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت، وأنه (ﷺ) أول صلاة صلاها صلاة العصر وصلى معه قوم، فخرج رجل ممن صلى معه فمر على أهل مسجد وهم راكعون فقال: أشهد بالله، لقد صليت مع رسول الله (ﷺ) قِبَل مكة، فداروا كما هم قِبَل البيت وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلي قِبَل بيت المقدس وأهل الكتاب، فلما ولى وجهه قِبَل البيت أنكروا ذلك[٣٤٦]، وقد نزلت في هذه الحادثة آيات عظيمة فيها عبر وحكم ودروس للصف المسلم، قال تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ * فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾ (سورة البقرة، آية: ١٤٩- ١٥٢).

أ- أخبر الله تبارك وتعالى بما سيقوله اليهود عند تحول القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة من إثارة الشكوك والتساؤلات قبل وقوع الأمر؛ ولهذا دلالته فهو يدل على نبوة محمد (ﷺ) إذ هو أمر غيبي، فأخبر عنه قبل وقوعه ثم وقع، فدل ذلك على أن محمدًا (ﷺ) رسول ونبي يخبره الوحي بما سيقع، إذ من الأدلة على صدق رسالة الرسول أن يخبر بأمور غيبية ثم تقع بعد ذلك.

وهو يدل أيضًا على علاج للمشاكل قبل حدوثها حتى يستعد المسلمون ويهيئوا أنفسهم لهذه المشاكل للتغلب عليها، والرد عليها ودفعها، لأن الأمر حين يكون مفاجئًا لهم يكون وقعه على النفس أشد، ويربك المفاجئ لهم، أما حين يحدثون عنه قبل وقوعه، فالحديث يطمئنهم ويوطن نفوسهم ويعدها لمواجهة الشدائد[٣٤٧]، قال أبو السعود في تفسيره: (وأخبر بالأمر قبل وقوعه لتوطين النفوس وإعدادها ما يبكتهم، فإن مفاجأة المكروه على النفس أشق وأشد، والجواب العتيد لشغب الخصم الألد أرد)[٣٤٨]، وقد وصف الله تعالى اليهود بالسفه لاعتراضهم على تحويل القبلة وللكيد ضد رسول الله (ﷺ)، قال أبو السعود: (والسفهاء الذين خفت أحلامهم، واستمهنوها بالتقليد والإعراض عن التدبر والنظر في قولهم: ثوب سفيه إذا كان خفيف النسيج، وقيل: السفيه البهات الكذاب المتعمد خلاف ما يعلم، وقيل:

(٣٤٥) انظر: اليهود في السنّة المطهرة (١/ ٢٥٨).
(٣٤٦) البخاري، كتاب الايمان، باب الصلاة رقم ٤٠.
(٣٤٧) انظر: الصراع مع اليهود (١/ ١٠٢).
(٣٤٨) انظر: تفسير أبي السعود (١/ ١٧١).

الظلوم الجهول، والسفهاء هم اليهود)[٣٤٩].

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [٣٥٠]، يقول ابن كثير: (يقول تعالى: إنما حولناكم إلى قبلة إبراهيم - عليه السلام- واخترناها لكم لنجعلكم خيار الأمم، لتكونوا يوم القيامة شهداء الأمم، لأن الجميع معترفون لكم بالفضل، والوسط ها هنا: الخيار والأجود، كما يقال: قريش أوسط العرب نسبًا ودارًا أي خيرها، وكان رسول الله (ﷺ) وسطًا في قومه، ومنه الصلاة الوسطى التي هي أفضل الصلوات...)[٣٥١].

فهي أمة وسط في التصور والاعتقاد، في التفكير والشعور، في التنظيم والتنسيق، في الارتباطات والعلاقات، في المكان في سرة الأرض وأوسط بقاعها[٣٥٢].

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة البقرة، آية: ١٤٣)

فالآية تذكر أن الصلاة نحو بيت المقدس كانت فتنة أي اختبار، والتحول من بيت المقدس إلى الكعبة كان أيضًا اختبارًا وامتحانًا، قال البيضاوي في تفسيره: (وما جعلنا قبلتك بيت المقدس إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه إلا لنمتحن به الناس، ونعلم من يتبعك في الصلاة إليها، ممن يرتد عن دينك إلفًا لقبلة آبائه، أو لنعلم من يتبع الرسول ممن لا يتبعه، وما كان لعارض، يزول بزواله، وعلى الأول معناه ما رددناك إلى التي كنت عليها إلا لنعلم الثابت على الإسلام ممن ينكص على عقبيه لقلقلة وضعف إيمانه[٣٥٣].

فالصلاة إلى الكعبة في بداية الأمر، ثم الصلاة إلى بيت المقدس، ثم العودة إلى الكعبة واستمرار ذلك لا شيء فيه، ما دام الباري سبحانه أمر بذلك، ومن ثم فالتوجه في كل حالة هو عبادة، وما على الناس إلا أن ينقادوا لأمر الله تبارك وتعالى، ويلتزموا بأمره، فالذي يتبع الرسول وينقاد لأوامره في القبلة يعد فائزًا في الاختبار والامتحان، والذي يجد في نفسه على حكم من الأحكام الشرعية كان ساقطًا وهالكًا، والإيمان الحق هو الذي يُلزم صاحبه بالاتباع ومخالفة الهوى[٣٥٤] ولهذا ثبت الصحابة الكرام واستجابوا لأوامر الله تعالى، فعن ابن عمر رضي الله عنه قال: بينا الناس يصلون الصبح في مسجد قباء، إذ جاء رجل فقال:

---

(٣٤٩) نفس المصدر (١/ ١٧٠).

(٣٥٠) كانت رسالة ماجستير للمؤلف حول هذه الآية الوسطية في القرآن الكريم وتحدث عنها حوالي ٧٠٠ صفحة.

(٣٥١) انظر: التربية القيادية (٢/ ٤٢٩).

(٣٥٢) نفس المصدر (٢/ ٤٣٠).

(٣٥٣) انظر: تفسير البيضاوي نقلاً عن الصراع مع اليهود (١/ ١٠١).

(٣٥٤) انظر: الصراع مع اليهود (١/ ١٠١).

قـد أنزل على الـنبي (ﷺ) قرآن، وقد أمـر أن يستقبل الكعبة فـاستقبلوها، فتـوجهوا إلى الكعبة[٣٥٥].

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة البقرة، آية: ١٤٣)

وتبين الآية الكريمة حرص المؤمنين على إخوانهم وحب الخير لهم: حينما نزلت الآيات التي تأمر المؤمنين بتحويل القبلة إلى الكعبة تساءل المؤمنون مشفقين عن مصير عبادة إخوانهم الذين ماتوا، وقد صلوا نحو بيت المقدس، فأخبر الله عز وجل أن صلاتهم مقبولة، فعن ابن عبـاس رضي الله عنهما قـال: لما وجَّه النبي (ﷺ) إلى الكعبـة قالوا: يا رسـول الله، كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس[٣٥٦]، فأنزل الله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة البـقرة، آية: ١٤٣) وبين لهم بأنه رؤوف رحيم، وبها يسكب في قلوب المسلمين الطمأنينة، ويذهب عنها القلق، ويفيض عليها الرضا والثقة واليقين[٣٥٧].

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ * وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة البقرة، آية: ١٤٤- ١٤٨).

كـان رسـول الله (ﷺ) حريصًا على أن يتـوجه في صلاته إلى كعبـة أبيه إبراهيم عليه السلام، فـهو أولى الناس به، لأنه من ثمـرة دعوة أبيـه إبراهيم عليه السـلام، وحامل لواء التوحـيد بحق كمـا حملها إبراهيم عليـه السلام، وهو (ﷺ) كـان يحـرص على أن يكون مستقبلاً ومتميزًا عن أهل الديانات السـابقة، الذين حرّفوا وبدلوا وغيروا كاليهود والنصارى؛ ولهذا كان ينهى عن تقليدهم والتشبه بهم، بل يأمر بمخالفتهم، ويحذر من الوقوع فيما وقعوا

(٣٥٥) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٣٣٧).

(٣٥٦) انظر: سنن الترمذي (٥/ ٢٠٨) رقم الحديث ٢٩٦٤.

(٣٥٧) في ظلال القرآن م١ج٢/ ١٣١- ١٣٣.

فيه من الزلل والخطل والانحراف، ومقتضى هذا الحرص أن يتوجه في صلاته بشكل دائم إلى قبلة أبي الأنبياء، وهو أول بيت وضع للناس(٢٥٨).

إن لحادثة تحويل القبلة أبعادًا كثيرة: منها السياسي، ومنها العسكري، ومنها الديني البحت، ومنها التاريخي. فبعدها السياسي أنها جعلت الجزيرة العربية محور الأحداث، وبعدها التاريخي أنها ربطت هذا العالم بالإرث العربي لإبراهيم عليه الصلاة والسلام، وبعدها العسكري أنها مهدت لفتح مكة وإنهاء الوضع الشاذ في المسجد الحرام حيث أصبح مركز التوحيد مركزًا لعبادة الأصنام، وبعدها الديني أنّها ربطت القلب بالحنيفية وميزت الأمة الإسلامية عن غيرها، والعبادة في الإسلام عن العبادة في بقية الأديان(٢٥٩).

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ * فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾ (سورة البقرة: ١٤٩- ١٥٢).

إن نعمة توجيهكم إلى قبلتكم، وتمييزكم بشخصيتكم من نعائم الله عليكم، وقد سبقتها الآلاء من الله كثيرة عليكم منها:

* ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ﴾، فوجود شخص رسول الله (ﷺ)، إمام المربين والدعاة، هو من خصيصة هذه النخبة القيادية التي شرفها الله تعالى بأن يكون هو المسؤول عن تربيتها، فقيه النفوس، وطبيب القلوب، ونور الأفئدة، فهو النور والبرهان والحجة.

* ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾ فالمادة الأساسية للبناء والتربية، كلام الله تعالى، وكان يرافقه شحنة عظيمة لنزوله أول الأمر غضًا طريًا، فكان جيلاً متميزًا في تاريخ الإنسانية.

* ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾: فالمعلم المربي رسول الله (ﷺ)، فهو المسؤول عن عملية التربية وهو الذي بلغ من الخلق والتطبيق لأحكام القرآن الكريم، ما وصفه الله - تعالى- به هذا الوصف الجامع المانع الذي تفرد به من دون البشرية كافة ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (سورة القلم، آية: ٤). وهو الذي وصفته عائشة رضي الله عنها بأعظم ما يملكُ بشرٌ أن يصف به نبي فقالت: (كان خلقه القرآن)، فكان الصحابة يسمعون القرآن الذي يتلى من فم رسول الله (ﷺ) ويرون القرآن الذي يمشي على الأرض متجسدًا في خلقه الكريم.

* ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ فهذه المهمة الثالثة تعليم الصحابة الكرام الكتاب والحكمة، فالقرآن الكريم لكي يكون مؤثرًا في الأمة لا بد من المربي الرباني الذي يزكي

---

(٢٥٨) انظر: الصراع مع اليهود (١/ ١٠٠).

(٢٥٩) انظر: الأساس في السنّة (١/ ٤٤٠).

النفوس ويطهر القلوب ويعلمها شرع الله تعالى من خلال القرآن الكريم وسنة سيد المرسلين (ﷺ)، فيشرح للمسلمين غامضه ويبين حكمه، ويفصل مجمله، ويسأل عن تطبيقه، ويصحح خطأ الفهم لهم إن وجد، كان الرسول (ﷺ) يعلم ويربي أصحابه لكي يعلموا ويربوا الناس على المنهج الرباني، فتعلم الصحابة من رسول الله (ﷺ) منهج التعليم، ومنهج التربية، ومنهج الدعوة، ومنهج القيادة للأمة من خلال ما تسمع وما تبصر، ومن خلال ما تعاني وتجاهد، فاستطاع (ﷺ) أن يعد الجيل إعدادًا كاملاً، ومؤهلاً لقيادة البشرية، وانطلق أصحابه من بعده يحملون التربية القرآنية، والتربية النبوية إلى كل صقع، وأصبحوا شهداء على الناس.

* ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾. ماذا كانوا قبل الوحي، والرسالة وماذا أصبحوا بعد ذلك؟ كانوا في حروب وصراع وجاهلية عمياء، وأصبحوا بفضل الله ومنه وكرمه أمة عظيمة لها رسالة وهدف في الحياة لا همّ لها إلا العمل ابتغاء مرضاته (سبحانه وتعالى) وحققوا العبودية لله وحده، والطاعة لله وحده، ولرسوله (ﷺ) وانتقلوا من نزعة الفردية والأنانية والهوى إلى البناء الجماعي، بناء الأمة، وبناء الدولة وصناعة الحضارة، واستحقت بفضل الله ومنه أعظم وسامين في الوجود(٢٦٠)﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (آل عمران: ١١٠)﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة البقرة، آية: ١٤٣).

* ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾ (سورة البقرة، آية: ١٥٢). فهذه المنن، وهذه العطايا، وهذه الخيرات تحتاج لذكر الله في الغدو والآصال وشكره عليها، وحثهم المولى عز وجل على ذكره وبكرمه يذكرون في الملأ الأعلى بعدما كانوا تائهين في الصحاري ضائعين في الفيافي.

*﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾ (سورة البقرة، آية: ١٥٢)
وحقّ لهذه النعم جميعًا أن تشكر(٢٦١).

وهكذا الآيات الكريمة تربي الصحابة من خلال الأحداث العظيمة وتصوغ الشخصية المسلمة القوية التي لا ترضى إلا بالإسلام دينًا والتي تعرفت على طبيعة اليهود من خلال القرآن الكريم، وبدأت تتعمق في ثناياها طبيعتهم الحقيقية وانتهت إلى الصورة الكلية النهائية التي تربوا عليها من خلال القرآن الكريم والتربية النبوية قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي

(٢٦٠) انظر: التربية القيادية (٢/٤٣٨- ٤٤٢).
(٢٦١) انظر: التربية القيادية (٢/٤٤٢).

جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ (سورة البقرة، آية: ١٢٠).

٨- من صفات اليهود في القرآن الكريم:

إن المتتبع لتاريخ اليهود ومواقفهم مع المصطفى (ﷺ) يشاهد تلك الأفعال القبيحة والأخلاق الرذيلة التي يتصف بها هؤلاء البشر، ولا غرابة في ذلك فهي طبيعة كل آدمي ينسلخ عن دينه الصحيح، وعقيدته السليمة.

كانت معاناة رسول الله (ﷺ) والمسلمين من اليهود شديدة وأليمة، فالقرآن الكريم تحدث عن بعضها، وكتب السنة، والسير والتاريخ حافلة بالأحداث الجسيمة مع اليهود، وقد تحدث القرآن الكريم، وبينت السنة النبوية صفاتهم القبيحة، كالنفاق، وسوء الأدب مع الله ورسوله، والمكر والخداع، والمداهنة، وعدم الانتفاع بالعلم، والحقد والكراهية، والحسد، والجشع، والبخل، ونكران الجميل، وعدم الحياء، والغرور والتكبر، وحب الظهور، والإشراك في العبادة، ومحاربة الأنبياء والصالحين، والتقليد الأعمى، وكتمان العلم، وتحريف المعلومات، والتحايل على المحرمات، والتفرق، والطبقية في تنفيذ الأحكام، والرشوة، والكذب، والقذارة[٢٦٢]، وسوف نشير إلى بعض هذه الصفات الذميمة التي جاءت في القرآن الكريم.

أ- الإشراك في العبادة:

فعبادة اليهود شركية باطلة، حيث يعتقدون أن لله ولدًا، ويشركون معه في عبادته غيره، وقد سجل الله عزوجل عليهم بعض مظاهر الإشراك قال تعالى: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ * اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ (سورة التوبة، آية: ٣٠- ٣١).

فهم لم يكتفوا في الإشراك بالقول المتقدم بل عبدوا أنبياءهم وصالحيهم واتخذوا قبورهم مساجد وأوثانًا يعبدونها من دون الله[٢٦٣]، قال (ﷺ): «**اتل الله اليهود، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»[٢٦٤].

ب- محاربة الأنبياء والصالحين:

في الوقت الذي يقدسون فيه أحبارهم ورهبانهم إلى درجة العبادة، نجد اليهود في المقابل لا يتورعون في محاربة أنبيائهم وصالحيهم ويشنون عليهم الحملات المغرضة بشتى الطرق، وكافة الوسائل، ولا يمتنعون حتى عن قتلهم، كما فعلوا بزكريا ويحيى عليهم السلام[٢٦٥]،

---

(٢٦٢) راجع الرسالة القيمة (اليهود في السنّة المطهرة)، د. عبد الله الشقاري.

(٢٦٣) انظر: اليهود في السنّة المطهرة (٢/ ٥٠٧).

(٢٦٤) البخاري، كتاب الصلاة (١/ ٥٣٢) رقم ٤٣٧.

(٢٦٥) انظر: اليهود في السنّة المطهرة (٢/ ٥٠٩).

وقد أخبرنا الله عزوجل عليهم بذلك، فبعد أن بين عزوجل ألوانًا من العذاب أوقعه عليهم قال: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ (سورة البقرة، آية: ٦١).

ج- كتمانهم العلم وتحريفهم للحقائق:

إن كتمان العلم وتحريف الحقائق صفة ملازمة لليهود من قديم الزمن، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله (ﷺ): (قيل لبني إسرائيل: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُواْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة البقرة، آية: ٥٨). **فبدلوا فدخلوا يزحفون على أستاهم، وقالوا: حبة في شعرة**)[٢٦٦].

ومن أعظم العلوم التي كتمها أحبار اليهود، وحاولوا إخفاء حقيقتها، علم نبوة محمد (ﷺ)، فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: جاء رسول الله (ﷺ) رافع بن حارثة، وسلام ابن مشكم، ومالك بن الصيف، ورافع بن حرمة، فقالوا: يا محمد ألست تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه، وتؤمن بما عندنا من التوراة، وتشهد أنها من الله حق، فقال رسول الله (ﷺ): **«بلى، ولكنكم أحدثتم وجحدتم ما فيها مما أخذ عليكم من الميثاق، وكتمتم منها ما أمرتم أن تبينوه للناس، فبرئت من إحداثكم»**، قالوا: فإنا نأخذ بما في أيدينا، فإنا على الهدى والحق، ولا نؤمن بك ولا نتبعك[٢٦٧].

فأنزل الله عزوجل فيهم: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّىَ تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (سورة المائدة، آية٦٨).

د- التفرق:

إن اليهود دائمًا وأبدًا مختلفون في الأفكار، مفترقون في الأحكام، تحسبهم جميعًا وقلوبهم شتى تمامًا كما وصفهم الباري عزوجل في قوله تعالى: ﴿لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ﴾ (سورة الحشر، آية: ١٤).

هـ- الرشوة:

إن من سمات اليهود في معالم مجتمعاتهم بحثهم عن تحقيق الغاية التي ينشدونها بشتى

---

(٢٦٦) البخاري، كتاب الانبياء (٦/ ٤٣٦) رمق ٣٤٠٣.

(٢٦٧) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٥٦٧)، وتفسير الطبري (٦/ ٢٠٠) ورجال إسناده موثقون.

السبل والوسائل، ولو كانت مخالفة لشرعهم، كدفع الرشوة والمال الحرام، فأكل السحت من رشوة ومال حرام من طباعهم وقد وصفهم الحق (سبحانه وتعالى) بذلك: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (سورة المائدة، آية: ٤٢).

و- النفاق:

وقد أظهر بعض زعماء اليهود الإسلام حين قويت شوكة المسلمين بالمدينة وتستروا بالنفاق، وقد سجل الله عليهم ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (سورة البقرة، آية: ١٤- ١٥).

ز- المداهنة:

فكانوا يسايرون الواقع والمجتمع، ولا ينكرون المنكر ولذلك لعنهم الله عزوجل وسجل لعنته عليهم في كتابه العزيز: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (سورة المائدة، آية: ٧٨- ٧٩).

ح- عدم الانتفاع بالعلم:

وقد أخبرنا الله تعالى بذلك وصور هذه الصفة تصويرًا دقيقًا[٢٦٨] قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (سورة الجمعة، آية: ٥).

ط- الحقد والكراهية:

من صفات اليهود المستقرة في أعماق نفوسهم الحقد على كل شيء ليس منهم، والكراهية لكل ما هو غير يهودي، مهما كان نوعه ومصدره، وخاصة إذا كان يمت إلى رسول الله (ﷺ) بصلة، كما حصل في أمر القبلة، وما حصل في تحريم الخمر، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت تحريم الخمر، قالت اليهود: أليس إخوانكم الذين ماتوا كانوا يشربونها[٢٦٩]، فأنزل الله (عز وجل): ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة المائدة، آية: ٩٣).

ي- الحسد:

فقد حسد اليهود النبي (ﷺ) على الرسالة، إذ كانوا يظنون أن الرسول الذي سيبعث

---

(٢٦٨) انظر: اليهود في السنّة المطهرة (٢/ ٤٦٣- ٤٨٢).

(٢٦٩) انظر: الحاكم في مستدركه، كتاب الأشربة (٤/ ١٤٣، ١٤٤) صحيح الإسناد.

سيكون منهم، يتجمعون حوله ويقاتلون به أعداءهم، فلما بعث الرسول (ﷺ) من غيرهم جنّ جنونهم، وطار صوابهم، ووقفوا يعادونه عداوة شديدة، ولقد حسدوا أصحابه على الإيمان ونعمة الهدى التي شرح الله صدورهم إليها(٢٧٠)، وقد قال تعالى في ذلك: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ (سورة الناس، آية ٤ - ٥).

وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة البقرة، آية: ١٠٩).

ك- الغرور والتكبر:

اتصف اليهود بالغرور والتكبر على الخلق من قديم الزمان، فهم يرون أنهم أرقى من الناس، وأفضل من الناس، ويزعمون أنهم شعب الله المختار، ويعتقدون أن الجنة لليهودي وأن طريق اليهودية هي طريق الهداية وسواها ضلال، وقد أخبر المولى عز وجل في كتابه عن هذه الخصلة الذميمة(٢٧١) فيهم قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (سورة البقرة، آية: ١١١) وقد مارسوا ذلك الغرور والتعالي على رسول الله (ﷺ) بشتى الوسائل والصور، ومن ذلك هذه الصورة(٢٧٢)، فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: أتى رسول الله (ﷺ) نعمان بن أضاء وبحري بن عمرو، وشاس بن عدي، فكلموه وكلمهم رسول الله (ﷺ) ودعاهم إلى الله وحذرهم نقمته، فقالوا: ما تخوفنا يا محمد نحن أبناء الله وأحباؤه(٢٧٣) - كقول النصارى - فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (سورة المائدة، آية: ١٨).

ل- البخل:

من صفات اليهود القديمة بخلهم بالمال، وعدم إنفاقه في سبيل الخير، فكانوا يأتون رجالاً من الأنصار ويقولون لهم: لا تنفقوا أموالكم فإنا نخشى عليكم الفقر في ذهابها، ولا تسارعوا في النفقة، فإنكم لا تدرون علام يكون(٢٧٤)، فأنزل الله فيهم: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً﴾ (سورة النساء، آية: ٣٧). أي من التوراة التي فيها تصديق ما جاء به محمد (ﷺ): ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُواْ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللّهُ وَكَانَ اللّهُ بِهِم عَلِيماً﴾ (سورة

---

(٢٧٠) انظر: الصراع مع اليهود (١/ ٧٠).

(٢٧١) نفس المصدر (١/ ٧١).

(٢٧٢) انظر: اليهود في السنّة المطهرة (٢/ ٤٩٥، ٤٩٦).

(٢٧٣) انظر: تفسير الطبري (٦/ ١٠٥).

(٢٧٤) انظر: اليهود في السنّة المطهرة (٢/ ٤٨٧، ٤٨٨).

النساء، آية: ٣٩).

م- العناد:

رغم قيام الأدلة والبراهين على صدق نبوة ورسالة محمد (ﷺ) إلا أن اليهود بسبب عنادهم امتنعوا عن الإيمان، وانغمسوا في الكفر والتكذيب، لأن العناد يقفل العقول بأقفال الهوى، وقد بين المولى عز وجل هذه الصفة في قوله تعالى: ﴿**وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ (سورة البقرة، آية: ١٤٥) نعم لو قدمت لهم يا محمد ألف دليل ودليل ما اقتنعوا وما غيروا وبدلوا، ويصدق[٢٧٥] فيهم قول الله تعالى: ﴿ **قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ**﴾ (سورة يونس، آية: ١٠١).

هذه بعض الصفات التي تجسدت في الشخصية اليهودية، والتي أشار القرآن الكريم إليها، لنعرف اليهود على حقيقتهم حتى لا ينغر المسلمون بهم في أي وقت أو أي زمان أو أي مكان.

رابعاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾:

إن هذه الوثيقة وضحت مدى العدالة التي تميزت بها معاملة النبي (ﷺ) لليهود وأعطت لمواطني الدولة مفهوم الحرية الدينية، وضربت عرض الحائط مبدأ التعصب ومصادرة الأفكار والمعتقدات ولم تكن المسألة مسألة تكتيك مرحلي ريثما يتسنى للرسول (ﷺ) تصفية أعدائه في الخارج لكي يبدأ تصفية أخرى إزاء أولئك الذين عاهدهم.. وحاشاه وإنما صدر هذا الموقف وفق سياسة إسلامية منبثقة من شريعة ربانية[٢٧٦].

لقد عقد الرسول (ﷺ) مع اليهود المعاهدات التي تؤمن لهم الحياة الكريمة، في ظل الدولة الإسلامية بحكم أنهم أهل كتاب (أهل الذمة) ولكن طبيعة اليهود الغدر والخيانة وعدم الوفاء، ولم يستطيعوا - ولن يستطيعوا لؤماً وخسة- أن يتخلوا عن تلك الصفات الذميمة فنقضوا عهودهم مع رسول الله (ﷺ)، وكانت نهايتهم بما يتلاءم مع تلك الأفعال، حيث أجلى رسول الله (ﷺ) بني قينقاع وبني النضير، وقتل رجال بني قريظة[٢٧٧]، وهذا ما سوف نراه بإذن الله تعالى في هذا الكتاب ولقد أشار القرآن الكريم إلى طبيعة اليهود مع العهود، فقال تعالى: ﴿**الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ**﴾ (سورة الأنفال، آية: ٥٦).

والعهد هنا ما عقده رسول الله (ﷺ) مع اليهود من عهود ومواثيق بألا يحاربوه ولا

---

(٢٧٥) انظر: الصراع مع اليهود (١/ ٧٢).
(٢٧٦) انظر: دراسة في السيرة ص١٥١ .
(٢٧٧) انظر: العهد والميثاق في القرآن الكريم ، د . ناصر العمر ص١٢١ .

يعاونوا عليه، كما بين ذلك المفسرون[٢٧٨].

لقد سلك اليهود وسائل عدة، ومتغايرة ومتنوعة للكيد لرسول الله (ﷺ) والذين آمنوا معه ومقاومتهم، إلا أن هذه الوسائل لم تفلح ولم تؤت ثمارها المرجوة منها، وهي القضاء على جماعة المسلمين ودولتهم وكيانهم السياسي، فما أسباب ذلك؟

بسبب تلك التربية النبوية الرشيدة التي غرست معاني الإيمان في القلوب، وحققت العبودية الخالصة لله وحاربت الشرك بجميع أشكاله، وعلمت الصحابة الأخذ بأسباب النهوض والتمكين المعنوية والمادية، فقد ربى النبي (ﷺ) أصحابه على العزة، والنخوة، والرجولة، والشجاعة، ورفض الذل، ومقاومة الظلم، وعدم الاستسلام لمؤامرات اليهود وغيرهم، بل مقاومتها والقضاء عليها وعلى أهلها، فثابروا وصابروا حتى انتصروا على أعدائهم[٢٧٩].

كان مكر اليهود في غاية الدهاء تكاد تزول منه الجبال، ولكنه لم يفلح مع الرعيل الأول بسبب القيادة النبوية والمنهج الرباني الذي سار عليه رسول الله (ﷺ)[٢٨٠].

إن المسلمين اليوم يتساقطون أمام المخططات اليهودية، ومؤامراتها، لبعدهم عن المنهاج النبوي في تربية الأمة وكيفية التعامل مع اليهود، فالأمة في أشد الحاجة للقيادة الربانية الحكيمة الواعية الموفقة من عند الله، الخبيرة بأخلاق اليهود وصفاتهم، فتتعامل معهم معاملة واعية مستمدة أصولها من السياسة النبوية الراشدة في التعامل مع هذا الصنف المنحرف من البشر.

إن في عصرنا هذا تغلغلت الأصابع اليهودية القذرة في مجالات عديدة من حياة الشعوب والدول، تلك الأصابع التي تهدف إلى غاية محدودة هي (الفساد في الأرض) وهذا هو التعبير القرآني: ﴿**وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ**﴾ (سورة المائدة، آية: ٣٣).

إن استعمال الفعل المضارع في الجملة يدل على التجدد والاستمرار، فليس سعيهم للفساد مرحلة تاريخية انتهت، لكنه قدرهم الكوني إلى يوم يبعثون، وقد استطاع اليهود أن يهيمنوا على كثير من مقدرات الأمم من خلال كيدهم المدروس، وفي غيبة الوجود الإسلامي القادر على إحباط مؤامراتهم وفضح ألاعيبهم.

إن العبقرية اليهودية في الهدم والتخريب ليست موضع جدل، تلك العبقرية التي (تستغل) الأحداث وتستثمرها لصالحها، إن لليهود وجود مؤثر في الدول الكبرى، اقتصاديًا، وسياسيًا، وإعلاميًا، ولم يكونوا غائبين في النظامين العالميين -الرأسمالية والشيوعية- ولا عن الثورات الكبرى في العالم، وهناك عدد من المنظمات العالمية تبذل جهدًا ضخمًا في

(٢٧٨) انظر: تفسير الطبري (٨/ ٣٠)، والتحرير والتنوير (١٠/ ٤٨).
(٢٧٩) انظر: الصراع مع اليهود (١/ ٨٠).
(٢٨٠) نفس المصدر (١/ ٧٩).

تحقيق أهداف اليهود، أبرزها الماسونية، . . (الليونز) و (الروتاري) و (شهود يهوه). . . إلخ.

ألا يحس الباحث الواعي أن في الأمر نوعًا من المبالغة المقصودة أو غير المقصودة؟

هذه الصورة الجاثمة في عقول الكثيرين أن اليهود هم الذين يحركون العالم، وهم زعماؤه السياسيون ومفكروه ومبدعوه و . . و . . وأن الشخصيات المهمة من غير اليهود ما هي إلا (أحجار على رقعة الشطرنج). على حد تعبير وليام غاي كار[٢٨١].

إن هذا الكم الهائل من الكتب التي تتحدث عن اليهود ودورهم العالمي الخطير تساهم في تهيئة الجو للتسليم بالأمر الواقع وتمنح تفسيرًا جاهزًا لجميع الهزائم التي منيت بها الأمة، الهزائم الحضارية والعسكرية على حد سواء.

إن إحساس الناس بأن (كل شيء) مدبر ومبيت ومدروس من قبل اليهود أو محافلهم يقعد بهم عن المقاومة والمواجهة والجهاد، وما يقال عن اليهود يمكن أن يقال عن أي عدو آخر ينتهج سياسة الإرهاب الفكري والعسكري، فمثلاً الجماعات الباطنية في العالم الإسلامي التي أصبحت ذات وجود قوي في عدد من المواقع والدول، بل وأصبح لهم وجود قائم بذاته في أكثر من بلد إسلامي.

هذه الجماعات تجد أحيانًا من يهول من شأنها ويعطيها أكبر من حجمها، فكل من يتحدث - مثلاً- عن هذه الفئة الغالية المنحرفة أو يكتب أو يحاضر فهو مهدد في رزقه وحياته، إذن فيسكت الجميع حفاظًا على أرزاقهم وأرواحهم[٢٨٢]، إن هذا التضخيم الرهيب لأعدائنا اليهود ليس له حقيقة، لأن أولياء الشيطان كيدهم مهما عظم وكبر ضعيف قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (سورة النساء، آية: ٧٦) إن قوتهم بسبب ضعف إيماننا وبعدنا عن منهج ربنا، لأن الإيمان الصحيح تنهار أمامه جميع المؤامرات، وتفشل جميع الخطط، لكن لابد من نزع عنصر الخوف الذي قتل كثيرًا من الهمم، وأحبط كثيرًا من الأعمال والأحداث تؤكد أن (الوهم) قد يقتل.

وحين توجد الفئة المؤمنة الصابرة يتحطم الكيد كله - يهوديًا- كان أم غير يهودي- أمام عوامل التصدي والنهوض قال تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٢٠).

وهذا لا يعني - بحال من الأحوال- تجاهل قوة العدو أو التقليل من شأنه، حتى لو كان عدوًا حقيرًا، فضلاً عن عدو مدجج وقديمًا.

والمطلوب أن نسلك طريق الاعتدال في تقدير حجم العدو، فلا نبالغ في تهويل قوته بما

(٢٨١) انظر: قضايا في المنهج، سلمان العودة ص٨٤، ٨٥.

(٢٨٢) انظر: قضايا في المنهج ص٨٦.

يوهن قوانا ويفتت عزيمتنا ويسوغ لنا الهزيمة، وفي المقابل لا نستهين به أو نتجاهل وجوده[٢٨٣].

وستمضي في اليهود وغيرهم سنة الله (تعالى): ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (سورة يونس، آية: ٨١).

(٢٨٣) انظر: قضايا في المنهج ص٨٦، ٨٧.



المبحث الرابع

سنة التدافع وحركة السرايا

أولاً: إن من السنن التي تعامل معها النبي (ﷺ) سنة التدافع، وتظهر جليًا في الفترة المدنية مع حركة السرايا والبعوث والغزوات التي خاضها النبي (ﷺ) ضد المشركين، وهذه السنة متعلقة تعلقًا وطيدًا بالتمكين لهذا الدين، وقد أشار الله (تعالى) إليها في كتابه العزيز وجاء التنصيص عليها في قوله (تعالى): ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَـكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (سورة البقرة، آية: ٢٥١).

وفي قوله (تعالى): ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (سورة الحج، آية: ٤٠).

ونلاحظ في آية البقرة أنها جاءت بعد ذكر نموذج من نماذج الصراع بين الحق والباطل المتمثل هنا في طالوت وجنوده المؤمنين، وجالوت وأتباعه، ويذيل الله (تعالى) الآية بقوله (تعالى): ﴿ وَلَـكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (سورة البقرة، الآية ٢٥١) (مما يفيد أن دفع الفساد بهذا الطريق إنعام يعم الناس كلهم)(٢٨٤).

وتأتي آية الحج بعد إعلان الله (تعالى) أنه يدافع عن أوليائه المؤمنين، وبعد إذنه لهم -سبحانه- بقتال عدوهم ويختتم الآية بتقرير الله (تعالى)- لقاعدة أساسية: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

لقد أدرك الصحابة هذه السنة وعلموا أن القضاء على الباطل وتدميره لا بد له من أمة لها قيادة ومنهج وقوة تدمغ الباطل وتزهقه ،وأيقنوا أن الحق يحتاج إلى عزائم تنهض به، وسواعد تمضي به، وقلوب تحنو عليه وأعصاب ترتبط به، لقد علمهم النبي (ﷺ) كيف يتعاملون مع هذه السنة فاستجابوا لأمر الله (تعالى) عندما أمرهم بالجهاد في سبيل الله (تعالى)، فقد شرع الله (عز وجل) الجهاد لهذه الأمة، وجعله فريضة ماضية إلى يوم القيامة لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل، وما تركه قوم إلا أذلهم الله، وسلط عليهم عدوهم، وقد شرع الله (عز وجل) الجهاد على مراحل ليكون أروض للنفس، وأكثر ملائمة للطبع البشري، وأحسن موافقة لسير الدعوة وطريقة تخطيطها(٢٨٥)، فكان تشريع القتال على مراحل:

المرحلة الأولى: الحظر وذلك عندما كان المسلمون في مكة، وكانوا يطالبون النبي (ﷺ) بالإذن لهم في القتال فيجيبهم: (اصبروا فإني لم أومر بالقتال)(٢٨٦).

المرحلة الثانية: الإذن به من غير إيجاب، قال (تعالى): ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ

(٢٨٤) انظر: مفاتيح الغيب ، فخر الرازي (٣/ ٥١٤).
(٢٨٥) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ص٤٣٨ .
(٢٨٦) انظر: تفسير الآلوسي (٦/ ١٠٨).

ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (سورة الحج، آية: ٣٩).

المرحلة الثالثة: وجوب قتال من قاتل المسلمين، قال (تعالى): ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (سورة البقرة، آية: ١٩٠).

المرحلة الرابعة: فرض قتال عموم الكفار على المسلمين قال (تعالى): ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (سورة التوبة، آية: ٣٦).

إن هذا التدرج في حكم القتال، كان يقتضيه وضع الدولة الإسلامية الناشئة، وحالة الجيش الإسلامي الذي كان يأخذ في التكوين من حيث العَدَدُ والعُدَدُ والتدريب، وما إلى ذلك، فكان لا بدّ من مُضيٍّ فترة من الوقت يكون التعرُّضُ فيها لأعداء الدعوة الإسلامية من كفار قريش الذين آذوا المسلمين، واضطروهم إلى الخروج من ديارهم.. يكون فيها ذلك التعرض لأعداء الدعوة، إنما هو على سبيل الاختيار، لا على سبيل الإجبار، وذلك إلى أن يَصْلُبَ عودُ الدولة الإسلامية ويشتد بأس القوة الإسلامية، بحيث تستطيع الصمود أمام قوى الكفر في الجزيرة العربية فيما لو عملت قريش على تأليبها ضد المسلمين، كما وقع فيما بعد! وحينئذ يأتي وجوب القتال، في حالة تكون فيها أوضاع الدولة الإسلامية، والجيش الإسلامي على أهبة الاستعداد لمواجهة كافة الاحتمالات ،هذا فيما يتصل بالقتال الذي يتعرض فيه المسلمون لكفار قريش، جاء النص بالإذن- أي بالإباحة لا بالوجوب، أما في حالة ما لو تعرض فيه المسلمون- وهم في دولتهم في المدينة - لهجوم الأعداء عليهم، فالقتال هنا فرض، لا مجال فيه للخيار، وليس مجرد أمر مأذون فيه، وذلك تطبيقًا لبيعة الحرب، بيعة العقبة الثانية التي أوجبت على الأنصار حرب الأحمر والأسود من الناس في سبيل الذود عن الدعوة الإسلامية، وصاحبها، وأتباعها[٢٨٧].

ومع نزول الإذن بالقتال شرع رسول الله (ﷺ) في تدريب أصحابه على فنون القتال والحروب، واشترك معهم في التمارين والمناورات، والمعارك، وعدّ السعي في هذه الميادين من أجل القربات وأقدس العبادات التي يتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى وقد قام النبي (ﷺ) بتطبيق قول الله (تعالى): ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (سورة الأنفال، آية: ٦٠) وكان منهجه (ﷺ) في تكوين المجاهد المسلم يعتمد على نهجين متوازنين، التوجيه المعنوي، والتدريب العملي.

١- التوجيه المعنوي:

فكان (ﷺ) يسعى إلى رفع معنويات المجاهدين، يمنحهم أملاً يقينيًا بالنصر أو الجنة،

(٢٨٧) انظر: القتال والجهاد، محمد خير هيكل (٤٦٣/١، ٣٦٤).

ومنذ تلك اللحظات وفيما بعد ظلَّ هذا (الأمل) يحدو الجندي المسلم في ساحات القتال ويدفعه إلى بذل كل طاقاته النفسية والجسدية والفنية من أجل كسب المعارك أو الموت تحت ظلال السيوف[٢٨٨]، فمن أقواله (ﷺ) في حث أصحابه على الجهاد: **«والذي نفسي بيده، لولا أن رجالاً من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني، ولا أجد ما أحملهم عليه، ما تخلفت عن سرية تغدو في سبيل الله، والذي نفسي بيده لوددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيا، ثم أقتل ثم أحيا، ثم أقتل ثم أحيا، ثم أقتل»**[٢٨٩].

وقوله (ﷺ): **«ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا، وله ما على الأرض من شيء، إلا الشهيد يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات، لما يرى من الكرامة»**[٢٩٠].

٢- الأسلوب العملي:

فقد سعى النبي (ﷺ) إلى اعتماد كل طاقات الأمة القادرة على البذل والعطاء، رجالاً ونساءً وصبيانًا وشبابًا وشيوخًا، وإلى التمرس على كل مهارة في القتال طعنًا بالرمح وضربًا بالسيف، ورميًا بالنبل، ومناورة على ظهور الخيل، وكان (ﷺ) يمزج خطَّي التربية العسكرية المتوازنين: التوجيه والتدريب والأمل بالنصر أو الجنة وتقديم الجهد في ساحات القتال، ويحض المسلمين على إتقان ما تعلموا من فنون الرماية، قال رسول الله (ﷺ): **«من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا»**[٢٩١]، فهي دعوة إلى عموم الأمة وحتى من دخلوا في سن الشيخوخة على دربتهم في إصابة الهدف ومهارة اليد، ونشاط الحركة، إن الإسلام يهتم بطاقات الأمة، جميعها ويوجهها نحو المعالي وعلو الهمة.

وكان (ﷺ) يهتم بالأعداء على حسب كل ظرف وحال ويحث على كل وسيلة يستطيعها المسلمون، وقد ثبت عنه (ﷺ) أنه قال: **«وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ألا إن القوة الرّمي، ألا إن القوة الرّمي، ألا إنّ القوة الرمي»**[٢٩٢].

إن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة تعلم المسلمين الإعداد على كافة الأصعدة المعنوية والمادية وأن يأخذوا حذرهم قال (تعالى): **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا﴾** (سورة النساء، آية: ٧١) وهذا يدل على وجوب العناية بالأسباب والحذر من مكائد الأعداء، ويدخل في ذلك جميع أنواع الإعداد المتعلقة بالأسلحة والأبدان، وتدريب المجاهدين على أنواع الأسلحة، وكيفية استعمالها وتوجيههم إلى ما يعينهم على جهاد عدوهم والسلامة من مكائده، والله (عز وجل) أطلق الأمر بالإعداد وأخذ الحذر ولم يذكر نوعًا دون نوع ولا حالاً دون حال، وما ذلك إلا أن الأوقات تختلف، والأسلحة تتنوع،

---

(٢٨٨) انظر: دراسة في السيرة ص١٦١ .

(٢٨٩) البخاري ، كتاب الجهاد والسير ، باب تمني الشهادة (٣/ ٢٦٨) رقم ٢٧٩٧ .

(٢٩٠) البخاري ، كتاب الجهاد والسير ، باب تمني الرجوع للدنيا (٣/ ٢٧٤) رقم ٢٨١٧ .

(٢٩١) مسلم ، كتاب الإمارة ، باب فضل الرمي والحث عليه (٣/ ١٥٢٣) رقم ١٩١٩ .

(٢٩٢) مسلم ، كتاب الإمارة ، باب فضل الرمي والحث عليه (٣/ ١٥٢٣) رقم ١٩١٩ .

والعدو يقل ويكثر، ويضعف ويقوى.

كان الجهاد في فهم الصحابة مدرسة عظيمة في تزكية النفس، وأيقنوا لكي يثمر الجهاد ثمراته المرجوة أن يخلصوا لله سبحانه في جهادهم، وأن يعملوا بما آمنوا به ودعوا الناس إليه، فقد بين لهم الرسول (ﷺ) خطورة الرياء في الأعمال قال (ﷺ): «**إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأتي به فعرّفه نعمه، فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلّمه وقرأ القرآن فأتي به، فعرّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن قال: كذبت، ولكنك تعلمت ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرّفه نعمه، فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيه إلا أنفقت فيها لك. قال: كذبت، ولكن فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار**»(٢٩٣).

ولذلك أخلص الصحابة في جهادهم لله (تعالى) طمعًا في ثوابه وخوفًا من عقابه، فكان كلامهم لله وأنفقوا أموالهم ابتغاء مرضاة الله، وقدموا أنفسهم دفاعًا عن دين الله ومن أجل إعلاء كلمة الله (تعالى)، وكان لجهاد الصحابة في سبيل الله (تعالى) آثاره العظيمة في تزكية نفوسهم والتي تتجلى في الجوانب التالية:

● تحرير النفس من حب الحياة والتعلق بها:

فالجهاد في سبيل الله تدريب عملي على الزهد في الدنيا والتطلع إلى الآخرة والتشوق لما أعده الله لعباده في الجنة، وهذا من أعظم ما يهدف إليه المنهج الإسلامي في تزكية النفس، فالمجاهد يبيع نفسه لله (تعالى) ابتغاء مرضاته والله سبحانه واهب الأنفس والأموال ومالكها يكرم عباده المجاهدين بأن يشتري منهم ما وهبهم إذا بذلوها في سبيله(٢٩٤) قال (تعالى): ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ (سورة التوبة، آية: ١١١- ١١٢).

● تمحيص النفس وتدريبها على الصبر والفداء:

أيقن الصحابة الكرام من تربية النبي (ﷺ) لهم أن الجنة محفوفة بالمكاره ولا تنال براحة

---

(٢٩٣) مسلم، كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة رقم ١٩٠٥.
(٢٩٤) منهج الإسلام في تزكية النفس، د. أنس أحمد (٢٩٣/١).

البدن، ولا بد من تعويد النفس على المشاق والصعاب ليقوى بنيانها وتصمد في وجه الشدائد والأهوال، وتدع الخمول والكسل والتواني، وتعلموا من القرآن الكريم أن حكمة الله سبحانه اقتضت أن تتعرض النفوس للتمحيص ليظهر ثباتها ويستقيم حالها، وأن ميدان الجهاد من أكبر الميادين لهذا التمحيص[٢٩٥]، قال (تعالى): ﴿**إن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ * وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ**﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٤٠- ١٤٣).

- **الجهاد عزة للنفس وقوة لها:**

وتعلم الصحابة رضي الله عنهم من الهدي النبوي الكريم أن الجهاد في سبيل الله (تعالى) وسيلة عظيمة لتنمية العزة في نفس المسلم وتقوية كيانها وتطهيرها من الذلة، والمهانة والخمول وغيرها من الصفات المهلكة للفرد والمجتمع، فقد بين لهم سبحانه وتعالى في كتابه العزيز أن المؤمن عزيز الجانب لأنه يستمد العزة من إيمانه بربه وتمسكه بدينه قال (تعالى): ﴿**يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ**﴾ (سورة المنافقون، آية: ٨).

فإذا تخلى المسلم عن الجهاد وشغل بالدنيا عن الآخرة، تعودت نفسه الذلة والهوان والاستكانة والخنوع قال (ﷺ): «**إذا تبايعتم بالعينة[٢٩٦]، وأخذتم أذناب البقر[٢٩٧]، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلاً، لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم**»[٢٩٨].

ويخشى على من جعل الدنيا أكبر همه ومبلغ علمه، ولا يعمل إلا لها ولا يفكر إلا من أجلها أن يكون ممن قال الله (تعالى) فيهم: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ**﴾ (سورة يونس، الآية: ٧- ٨).

وقد قال (ﷺ): «**من مات ولم يَغْزُ، ولم يُحدِّث به نفسه، مات على شعبة من النفاق**»[٢٩٩].

إن الصحابة الكرام سلكوا طريق الجهاد بأنواعه، وبذلك حظوا بالبشارة العظمى وهي قوله (تعالى): ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ (سورة العنكبوت، آية: ٦٩).

---

(٢٩٥) نفس المصدر (١/ ٢٩٤).

(٢٩٦) أي أن يبيع الرجل لغيره سلعة ثم يشتريها منه بثمن أقل.

(٢٩٧) معناه: اتخذتم الماشية للحرث والري وعكفتم على ذلك فلم تنشغلوا إلا به.

(٢٩٨) أبو داود، كتاب البيوع، باب من في النهي عن العينة رقم ٣٤٦٢ وهو صحيح.

(٢٩٩) مسلم، كتاب الإمارة، باب ذم من مات ولم يغزُ رقم ١٩١٠.

ثانيًا- من أهداف الجهاد في سبيل الله (تعالى):

١- حماية حرية العقيدة:

قال (تعالى): ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَوْلاَكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (سورة الأنفال، آية: ٣٩- ٤٠).

قال صاحب الظلال: هناك واجب آخر على الجماعة المسلمة، وهو أن تحطم كل قوة تعترض طريق الدعوة وإبلاغها للناس في حرية، أو تهدد حرية اعتناق العقيدة وتفتن الناس عنها، وأن تظل تجاهد حتى تصبح الفتنة للمؤمنين بالله غير ممكنة لقوة في الأرض، ويكون الدين لله.. لا بمعنى إكراه الناس على الإيمان. ولكن بمعنى استعلاء دين الله في الأرض، بحيث لا يخشى أن يدخل فيه من يريد الدخول، ولا يخاف قوة في الأرض تصده عن دين الله أن يبلغه، وأن يستجيب له، وأن يبقى عليه، وبحيث لا يكون في الأرض وضع أو نظام يحجب نور الله وهداه عن أهله، ويضلهم عن سبيل الله بأية وسيلة وبأية أداة ،وفي حدود هذه المبادئ العامة كان الجهاد في الإسلام.. إنه الجهاد للعقيدة، لحمايتها من الحصار، وحمايتها من الفتنة، وحماية منهجها وشريعتها في الحياة، وإقرار رايتها في الأرض بحيث يرهبها من يهم بالاعتداء عليها، وبحيث يلجأ إليها كل راغب فيها لا يخشى قوة أخرى في الأرض تتعرض له أو تمنعه أو تفتنه.

وهذا هو الجهاد الوحيد الذي يأمر به الإسلام، ويقره ويثبت عليه، ويعتبر الذين يقاتلون فيه شهداء والذين يحتملون أعباءه أولياء[٣٠٠].

٢- حماية الشعائر والعبادات:

قال (تعالى): ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ * أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ (سورة الحج: ٣٨- ٤١).

قال النسفي -رحمه الله-: أي لولا إظهاره وتسليطه المسلمين على الكافرين بالمجاهدة، لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة في أزمنتهم، وعلى متعبداتهم فهدموها، ولم يتركوا للنصارى بيعًا، ولا لرهبانهم صوامع، ولا لليهود صلوات أي كنائس، ولا للمسلمين مساجد، أو لغلب المشركون في أمة محمد (ﷺ) على المسلمين، وعلى أهل الكتاب الذين في ذمتهم، وهدموا متعبدات الفريقين، وقدم غير المساجد عليها لتقدمها وجودًا، أو لقربها

(٣٠٠) في ظلال القرآن (١/ ١٨٧) .

من التهديم[٣٠١].

٣- دفع الفساد عن الأرض:

قال (تعالى): ﴿**وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ * تِلْكَ آيَاتُ اللّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾ (سورة البقرة، آية: ٢٥٠-٢٥٢)

قال ابن كثير في تفسير قوله (تعالى): ﴿**وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ**﴾ أي لولا الله يدفع عن قوم بآخرين كما دفع عن بني إسرائيل بمقاتلة طالوت وشجاعة داود لهلكوا[٣٠٢].

وقال صاحب الكشاف في تفسير هذه الآية: ولولا أن الله يدفع بعض الناس ببعض ويكف بهم فسادهم لغلب المفسدون، وفسدت الأرض، وبطلت منافعها وتعطلت مصالحها من الحرث والنسل وسائر ما يعمر الأرض[٣٠٣].

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي في تفسيره: إن في هذه الآية عبر كثيرة للأمة، منها: فضيلة الجهاد في سبيله، وفوائده، وثمراته، وأنه السبب الوحيد في حفظ الدين، وحفظ الأوطان، وحفظ الأبدان، والأموال.

وأن المجاهدين، ولو شقت عليهم الأمور، فإن عواقبهم حميدة، كما أن الناكلين، ولو استراحوا قليلاً، فإنهم سيتعبون طويلاً[٣٠٤].

٤- الابتلاء والتربية والإصلاح:

قال (تعالى): ﴿**فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ**﴾ (سورة محمد، آية: ٤-٦).

قال ابن كثير في تفسير قوله (تعالى): ﴿**وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ**﴾ أي ولكن شرع لكم الجهاد وقتال الأعداء ليختبركم وليبلو أخباركم[٣٠٥]، كما ذكر حكمته في شرعية الجهاد في قوله (تعالى): ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ**

---

(٣٠١) تفسير النسفي (٣/١٠٦)، الكشاف (٣/١٦)، تفسير المراغي (٦/١١٩).

(٣٠٢) تفسير ابن كثير ()،

(٣٠٣) تفسير الكشاف (١/٣٨٢)، تفسير أبي السعود (١/٢٤٥).

(٣٠٤) تفسير السعدي (١/٣٠٩).

(٣٠٥) تفسير ابن كثير (٤/١٥٤).

الصَّابِرِينَ﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٤٢)

قال صاحب الظلال: إنما يتخذ الله المؤمنين- حين يأمرهم بضرب رقاب الكفار وشد وثاقهم بعد إثخانهم - إنما يتخذهم سبحانه ستارًا لقدرته ولو شاء لانتصر من الكافرين جهرة، كما انتصر منهم من غير هذه الأسباب كلها، ولكنه إنما يريد لعباده المؤمنين الخير، قال (تعالى): ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (سورة البقرة، آية: ٢١٦). وهو يبتليهم، ويربيهم، ويصلحهم، **وييسر لهم أسباب الحسنات الكبار**:

أ- يريد ليبتليهم، وفي هذا الابتلاء يستجيش في نفوس المؤمنين أكرم ما في النفس البشرية من طاقات واتجاهات، فليس أكرم في النفس من أن يعز عليها الحق الذي تؤمن به، حتى تجاهد في سبيله، فتقتل وتقتل، ولا تسلم في هذا الحق الذي تعيش له وبه، ولا تستطيع الحياة بدونه، ولا تحب هذه الحياة في غير ظله.

ب- ويريد ليربيهم، فيظل يخرج من نفوسهم كل هوى وكل رغبة في أعراض هذه الأرض الفانية مما يعز عليهم أن يتخلوا عنه، ويظل يقوي في نفوسهم كل ضعف ويكمل كل نقص، وينفي كل زغل ودخل، حتى تصبح رغائبهم كلها في كفة وفي الكفة الأخرى تلبية دعوة الله للجهاد، والتطلع إلى وجه الله ورضاه وتشيل تلك(٣٠٦). ويعلم الله من هذه النفوس أنها خيرت فاختارت، وأنها تربت فعرفت، وأنها لا تندفع بلا وعي ولكنها تقدر وتختار.

جـ- ويريد ليصلحهم، ففي معاناة الجهاد في سبيل الله، والتعرض للموت في كل جولة، ما يعود النفس الاستهانة بخطر المخوف، الذي يكلف الناس الكثير من نفوسهم وأخلاقهم وموازينهم وقيمهم ليتقوه، وهو هين، هين عند من يعتاد ملاقاته، سواء سلم منه أو لاقاه، والتوجه به لله في كل مرة يفعل في النفس في لحظات الخطر شيئًا يقربه للتصور فعل الكهرباء بالأجسام، وكأنه صياغة جديدة للقلوب والأرواح على صفاء ونقاء وصلاح.

ثم هي الأسباب الظاهرة لإصلاح الجماعة البشرية كلها، عن طريق قياداتها بأيدي المجاهدين الذين فرغت نفوسهم من كل أعراض الدنيا وكل زخارفها، وهانت عليهم الحياة وهم يخوضون غمار الموت في سبيل الله، ولم يعد في قلوبهم ما يشغلهم عن الله والتطلع إلى رضاه. وحين تكون القيادة في مثل هذه الأيدي تصلح الأرض كلها ويصلح العباد ويصبح عزيزًا على هذه الأيدي أن تسلم في راية القيادة للكفر والضلال والفساد، وهي قد اشترتها بالدماء، والأرواح، وكل عزيز وغال أرخصته لتتسلم هذه الراية، لا لنفسها ولكن لله(٣٠٧).

(٣٠٦) شال الميزان: ارتفعت إحدى كفتيه. لسان العرب (١١/ ٣٧٥).
(٣٠٧) في ظلال القرآن (٦/ ٣٢٨٦).

٥- إرهاب الكفار وإخزاؤهم وإذلالهم وتوهين كيدهم:

قال (تعالى): ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾ (سورة الأنفال، آية: ٦٠).

وقال (تعالى): ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللّهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة التوبة، آية: ١٤- ١٥).

وقال (تعالى): ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَناً إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ (سورة الأنفال، آية: ١٧- ١٨).

٦- كشف المنافقين:

قال (تعالى): ﴿مَّا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىَ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٧٩).

قال ابن كثير: أي لابد أن يعقد شيء من المحنة، يظهر فيه وليه، ويفضح به عدوه، يعرف به المؤمن الصابر والمنافق الفاجر، يعني بذلك يوم أحد الذي امتحن الله به المؤمنين، فظهر به إيمانهم وصبرهم وجلدهم وثباتهم وطاعتهم لله ورسوله (ﷺ)، وهتك به أستار المنافقين، فظهر مخالفتهم ونكولهم عن الجهاد وخيانتهم لله ورسوله (ﷺ)[٣٠٨].

٧- إقامة حكم الله ونظام الإسلام في الأرض:

إن إقامة حكم الله في الأرض هدف من أهداف الجهاد، قال (تعالى): ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ (سورة النساء، آية: ١٠٥).

٨- دفع عدوان الكافرين:

إن من أهداف الجهاد في الإسلام دفع عدوان الكافرين، وهذا الجهاد أنواع منها:

أ- أن يعتدي الكفار على فئة مؤمنة مستضعفة في أرض الكفار:

لا سيما إذا لم تستطع أن تنتقل إلى بلاد تأمن فيها على دينها، فإن الواجب عل الدولة الإسلامية أن تعد العدة لمجاهدة الكفار الذين اعتدوا على تلك الطائفة حتى يخلصوها من الظلم والاعتداء الواقع عليها[٣٠٩] قال (تعالى): ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ

---

(٣٠٨) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٣٧١).

(٣٠٩) انظر: الجهاد في سبيل الله، د. عبد الله القادري (٢/ ١٦٢).

الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا * وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ (سورة النساء، آية: ٧٤- ٧٥).

قال القرطبي – رحمه الله– : (حض على الجهاد، ويتضمن تخليص المستضعفين من أيدي الكفرة المشركين الذين يسومونهم سوء العذاب ويفتنونهم عن الدين، فأوجب (تعالى) الجهاد لإعلاء كلمته واستنقاذ المؤمنين الضعفاء من عباده، وإن كان في ذلك تلف النفوس، وتخليص الأسارى واجب على جماعة المسلمين إما بالقتال، وإما بالأموال وذلك أوجب لكونها دون النفوس، إذ هي أهون منها[٣١٠].

ب- أن يعتدي الكفار على ديار المسلمين:

قال (تعالى): ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ * وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (سورة البقرة، آية: ١٩٠- ١٩٢).

فقد نص الفقهاء على أنه إذا اعتدى الكفار على ديار المسلمين يتعين الجهاد للدفاع عن الديار، لأن العدو إذا احتلها سام المسلمين عذابًا، ونفذ فيها أحكام الكفر، وأجبر أهلها على الخضوع له، فتصبح دار كفر بعد أن كانت دار إسلام قال ابن قدامة رحمه الله: (ويتعين الجهاد في ثلاثة مواضع): . . .

أما: إذا نزل الكفار ببلد معين فعلى أهله قتالهم ودفعهم[٣١١]، وقال بعض علماء الحنفية: (وحاصله: إن كل موضع خيف هجوم العدو منه فرض على الإمام أو على أهل ذلك الموضع حفظه، وإن لم يقدروا فرض على الأقرب إليهم إعانتهم إلى حصول الكفاية بمقاومة العدو)[٣١٢].

ج- أن ينشر العدو الظلم بين رعاياه - ولو كانوا كفارًا:

لأن الله سبحانه حرم على عباده الظلم، والعدل في الأرض واجب لكل الناس، وإذا لم يدفع المسلمون الظلم عن المظلومين أثموا، لأنهم مأمورون بالجهاد في الأرض لإحقاق الحق وإبطال الباطل ونشر العدل والقضاء على الظلم، ولا فلاح لهم إلا بذلك، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما كانوا خير أمة أخرجت للناس إلا بذلك، كما قال (تعالى): ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ

---

(٣١٠) انظر: تفسير القرطبي (٥/ ٢٧٩).
(٣١١) انظر: المغني (٩/ ٢٧٩).
(٣١٢) انظر: حاشية ابن عابدين (٤/ ١٢٤).

العقاب﴾ (سورة آل عمران، آية: ١١) قال (تعالى): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (سورة المائدة، آية: ٨).

ومن العدل كف الظلم عن المظلوم الكافر الذي يبغضه المسلم لكفره قال السرخسي- رحمه الله- : (وإن كان - يقصد أحد ملوك أهل الحرب- طلب الذمة على أن يترك يحكم في أهل مملكته بما شاء من قتل أو صلب أو غيره بما لا يصلح في دار الإسلام لم يجب إلى ذلك، لأن التقرير على الظلم مع إمكان المنع منه حرام)[٣١٣].

د- الوقوف ضد الدعاة إلى الله ومنعهم من تبليغ دعوة الله:

إن المسلمين مفروض عليهم من قبل المولى (عز وجل) أن يبلغوا رسالات الله للناس كافة قال (تعالى): ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (سورة يوسف، آية: ١٠٨).

وأعداء الله يصدون أولياءه عن تبليغ عباده دعوته ولا يتركون لهم سبيلاً إلى الناس، كما لا يأذنون للدعاة أن يسمعوا الدعوة إلى الله للناس، ويضعون العراقيل، والعوائق، والحواجز بين الدعوة ودعاتها والناس، ولذلك أوجب الله (عز وجل) على عباده المؤمنين قتال كل من يصد عن سبيل الله (تعالى)[٣١٤].

قال (تعالى): ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ * فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ (سورة محمد، آية: ١- ٤).

ومما تقدم يتضح لنا أن للجهاد أهدافًا سامية، ومصالح كريمة، وفوائد عظيمة، تتحقق للمسلمين وغيرهم، وأن الجهاد من آثار الهجرة ونتائجها المهمة، وأنه من الدعائم التي أقامها الرسول (ﷺ) لبناء الدولة الإسلامية ولتوطيد أركان السلام[٣١٥]. وذلك (لأن الأمة بغير جيش قوي عرضة للضياع، إذ يطمع فيها أعداؤها ولا يهابون قوتها، فإذا كان لها جيش قوي احترم العدو إرادتها، فلا تحدثه نفسه باعتداء عليها فيسود عند ذلك السلام)[٣١٦].

---

(٣١٣) انظر: المبسوط للسرخسي (١٠/ ٨٥).
(٣١٤) انظر: فقه التمكين في القرآن الكريم، للصلابي ص٤٨٨.
(٣١٥) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ص٤٥٣.
(٣١٦) الحركات العسكرية للرسول الأعظم في كفتي الميزان، سيف الدين ص٦٢.

ثالثاً: أهم السرايا والبعوث التي سبقت غزوة بدر الكبرى:

بمجرد الاستقرار الذي حصل للمسلمين بقيادة الرسول (ﷺ) في المدينة، وقيام الجماعة المؤمنة في المجتمع الجديد، كان لا بد أن يتنبه المسلمون وقيادتهم إلى الوضع حولهم وما ينتظرهم من جهة أعدائهم أعداء الدعوة، وكان لا بد أن تنطلق الدعوة الإسلامية إلى غايتها التي أرسل الله محمداً (ﷺ) بها وتحمل هو وأصحابه في سبيلها المشاق الكثيرة.

إن موقف قريش في مكة في أولى الأمور التي يجب أن تعالجها قيادة المدينة، لأن أهل مكة لن يرضوا بأن يقوم للإسلام كيان ولو كان في المدينة، لأن ذلك يهدد كيانهم، ويقوض بنيانهم، فهم يعلمون أن قيام الإسلام معناه انتهاء الجاهلية وعادات الآباء والأجداد، فلا بد من الوقوف في وجهه.

وقد بذلت مكة وأهلها المحاولات لعدم وصول النبي (ﷺ) إلى المدينة، واتخذت مواقف عدائية لضرب الإسلام والقضاء على المسلمين[٣١٧]، واستمر هذا العداء بعد هجرة النبي (ﷺ)، فمن أهم المواقف الدالة على ذلك، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. حدّث عن سعد بن معاذ أنه قال: كان صديقًا لأمية بن خلف، وكان (أمية) إذا مرّ بالمدينة نزل على سعد، وكان سعد إذا مرّ بمكة نزل على (أمية) فلما قدم رسول الله (ﷺ) المدينة انطلق (سعد) معتمرًا فنزل على أمية بمكة، فقال لأمية: انظر لي ساعة خلوة لعلي أطوف بالبيت، فخرج به قريبًا من نصف النهار، فلقيهما أبو جهل فقال: يا أبا صفوان من هذا معك؟ فقال: هذا سعد، فقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمنًا، وقد آويتم الصباة[٣١٨]. وزعمتم أنكم تنصرونهم، وتعينونهم، أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجَعْتَ إلى أهلك سالمًا، فقال له (سعد)، ورفع صوته عليه: أما والله لئن منعتني هذا لأمنعنَّك ما هو أشدُّ عليك منه، طريقك على المدينة...[٣١٩] وفي رواية عند البيهقي: (والله لئن منعتني أن أطوف بالبيت لأقطعن عليك متجرك إلى الشام)[٣٢٠] تدل هذه الواقعة على أن (أبا جهل) يعتبر (سعد بن معاذ) من أهل الحرب بالنسبة إلى قريش، ولولا أنه دخل مكة في أمان زعيم من زعمائها لأهدر دمه ،وهذا تصرف جديد من رؤساء مكة حيال أهل المدينة لم يكن قبل الدولة الإسلامية فيها. فلم يكن أحد من أهل المدينة يحتاج إلى عقد أمان لكي يسمح له بالدخول إلى مكة! بل إن قريشًا كانت تكره أن تفكر في حدوث حالة حرب بينها وبين أهل المدينة قبل هذا الوضع الجديد، وقالوا في هذا الصدد، يخاطبون أهل المدينة ما نصه: (والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم، منكم)[٣٢١]، كما تدل هذه

(٣١٧) انظر: مرويات غزوة بدر، أحمد باوزير ص٧٩.

(٣١٨) جمع صابيء: أي الخارج عن دينه. وكان المشركون يسمون من أسلم صابئًا.

(٣١٩) صحيح البخاري رقم ٣٩٥٠.

(٣٢٠) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٢٥).

(٣٢١) انظر: سيرة ابن هشام (الروض الأنف ٢/ ١٩٢).

القصة على أن قوافل تجارة قريش في طريقها إلى الشام كانت في أمان إلى حدوث هذه الواقعة، لا تتعرض لها الدولة الإسلامية بمكروه. أي: كانت الدولة الإسلامية إلى هذا الوقت لم تعامل أهل مكة معاملة أهل الحرب، فلم تضرب عليهم الحصار الاقتصادي، ولم تصادر لهم أية قافلة، أو تقصدها بسوء! ومعنى هذا أن الأيدي الممسكة بزمام الأمور في مكة هي التي بادرت، وأعلنت الحرب على الدولة الإسلامية في المدينة، واعتبرت المسلمين أهل حرب لا يسمح لهم بدخول مكة إلا بصفة مستأمنين[٣٢٢].

* ودليل آخر على مبادرة رؤساء مكة في إعلان الحرب على الدولة الإسلامية في المدينة ما جاء في سنن أبي داود: (عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن رجل من أصحاب النبي (ﷺ) أن كفار قريش كتبوا إلى (ابن أبي) ومن كان يعبد معه الأوثان من الأوس والخزرج، ورسول الله (ﷺ) يومئذ بالمدينة، قبل وقعة بدر: إنكم آويتم صاحبنا، وإنا نقسم بالله لتقاتلنه ولتخرجُنه، أو لنسيرنَّ إليكم بأجمعنا، حتى نقتل مقاتلتكم، ونستبيح نساءكم، فاجتمعوا لقتال النبي (ﷺ)، فلما بلغ ذلك النبي (ﷺ) لقيهم فقال: «**لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم، وإخوانكم!**» فلما سمعوا ذلك من النبي (ﷺ) تفرقوا[٣٢٣].

وهنا تظهر عظمة النبوة وعظمة القائد المربي (ﷺ) حيث قضى على هذه الفتنة في مهدها، وضرب على وتر العزة القبلية، فقد كان (ﷺ) يدرك أغوار النفس البشرية التي يتعامل معها، ولذلك كان خطابه مؤثرًا في نفوس مشركي يثرب ونحن بحاجة إلى هذا الفقه العظيم في تفتيت محاولات المشركين للقضاء على الصف الإسلامي وزعزعة بنيانه الداخلي، بعد أن بدأت قريش بإعلان حالة الحرب بينها وبين دولة الإسلام بالمدينة، ونزل الإذن من الله (تعالى) بالقتال صار من الطبيعي أن تتعامل دولة المدينة مع قريش حسب ما تقتضيه حالة الحرب هذه، فقد اتجه نشاط الرسول (ﷺ) من أجل توطيد مكانة هذه الدولة، والرد على قريش في إعلانها حالة الحرب على المدينة، فاتجه نشاطه نحو إرسال السرايا، والخروج في الغزوات[٣٢٤]، فكانت تلك السرايا والغزوات التي سبقت بدر الكبرى من أهمها:

١- غزوة الأبواء:

أول الغزوات التي غزاها النبي (ﷺ) غزوة الأبواء[٣٢٥]، وتعرف بغزوة ودان[٣٢٦] أيضًا، وهما موقعان متجاوران بينهما ستة أميال أو ثمانية ولم يقع قتال في هذه الغزوة بل تمت موادعة بني ضمرة (من كنانة) وكانت هذه الغزوة في صفر سنة اثنتين من الهجرة، وكان عدد

(٣٢٢) انظر: الجهاد والقتال (١/ ٤٧٦).
(٣٢٣) سنن أبي داود (٣/ ٢١٣) رقم الحديث ٣٠٠٤.
(٣٢٤) انظر: الجهاد والقتال (١/ ٤٧٦).
(٣٢٥) قيل: سميت بذلك لما فيها من الوباء.
(٣٢٦) ودان: قرية جامعة قريبة من الأبواء.

المسلمين مائتين بين راكب وراجل[٣٢٧].

٢- سرية عبيد الله بن الحارث:

وهي أول راية عـقدها رسـول الله (ﷺ)[٣٢٨]، وكان عدد السرية سـتين من المهاجرين وكانت قوة الأعداء من قريش أكثر من مـائتي راكب وراجل، وكان قائد المشركين أبو سفيان ابن حرب، وحـصلت مناوشات بين الطرفين على ماء بوادي رابغ، رمـى فيها سـعد بن أبي وقاص أول سهم رمي في الإسلام، وكانت بعد رجوعه من الأبواء[٣٢٩].

٣- سرية حمزة بن عبد المطلب:

قال ابن اسحاق: وبعث النبي (ﷺ) في مقامه ذلك - أي لما وصل إلى المدينة بعد غزوة الأبواء- حمزة بن عبـد المطلب إلى سيف البحر[٣٣٠] من ناحية العـيص في ثلاثين راكبًا من المهاجرين، فلقي أبا جهل بن هشام بذلك السـاحل في ثلاثمائة راكب من أهل مكة، فحجر بين الفريقين مَجـدي بن عمرو الجهني، وكان موادعًـا للفريقين جميعًا، فـانصرف القوم عن بعض، ولم يكن بينهم قتال[٣٣١].

٤- غزوة بواط[٣٣٢]:

وكانت غزوة رسول الله (ﷺ) بواط في شهر ربيع الأول في السنة الثانية من مهاجره، وخرج في مائتين من أصحابه وكان مقصده أن يعتـرض عيرًا لقريش كان فيها أمية بن خلف في مئة رجل وألفين وخمسمائة بعير فلم يلق النبي (ﷺ) كيدًا فرجع إلى المدينة.

٥- غزوة العشيرة[٣٣٣]:

وفيهـا غزا (ﷺ) قريشًا، واستعمل على المدينة أبا سلمـة بن عبد الأسد، وسميت هذه الغزوة بغزوة العـشيرة، فأقام بها جـمادي الأولى وليال من جمادي الآخرة، وادع فـيها بني مدلج وحلفـاءهم من بني ضمرة، ثم رجع إلى المـدينة ولم يلق كيدًا. وذلك أن العـير التي خرج لها قد مـضت قبل ذلك بأيام ذاهبة إلى الشام[٣٣٤]، فساحلت على البـحر وبلغ قريشًا خبرها فخرجوا يمنعونها فلقوا رسول الله (ﷺ) ووقعت غزوة بدر الكبرى[٣٣٥].

---

(٣٢٧) انظر: جيش النبي صلى الله عليه وسلم لمحمود شيت خطاب ص٥٤ .
(٣٢٨) انظر: طبقات ابن سعد (٢/ ٧) .
(٣٢٩) انظر: حديث القرآن عن غزوات الرسول ، د . محمد بكر آل عباد (١/ ٤٠) .
(٣٣٠) سيف البحر: ساحله من ناحية العيص .
(٣٣١) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٥٩٥) .
(٣٣٢) بواط: هو جبل من جبال جهينة ، بناحية رضوى بقرب ينبع .
(٣٣٣) العشـيرة: موضع بين مكة والمدينة من ناحـية ينبع على ساحل البـحر الأحمر . (مـراصد الاطلاع ٢/ ٩٤٣) .
(٣٣٤) انظر: طبقات ابن سعد (٢/ ١٠) .
(٣٣٥) نفس المصدر (٢/ ١١) .

٦- سرية سعد بن أبي وقاص:

وبعد غزوة العشيرة بعث النبي (ﷺ) سعد بن أبي وقاص في سرية قوامها ثمانية من المهاجرين، فخرج حتى بلغ الخرار[٣٣٦] من أرض الحجاز ثم رجع ولم يلق كيدًا[٣٣٧].

٧- غزوة بدر الأولى:

سببها: أن كرز بن جابر الفهري، قد أغار على سرح المدينة ونهب بعض الإبل والمواشي، فخرج رسول الله (ﷺ) في طلبه، حتى بلغ واديًا يقال له: سفوان من ناحية بدر، وفاته كرز بن جابر، فلم يدركه، فرجع رسول الله (ﷺ) إلى المدينة[٣٣٨].

٨- سرية عبد الله بن جحش الأسدي إلى نخلة [٣٣٩]:

وأرسل النبي (ﷺ) عبد الله بن جحش في ثمانية من المهاجرين إلى نخلة جنوب مكة في آخر يوم من رجب للاستطلاع والتعرف على أخبار قريش لكنهم تعرضوا لقافلة تجارية لقريش فظفروا بها، وقتلوا قائدها عمرو بن الحضرمي وأسروا اثنين من رجالها وهم عثمان ابن عبد الله والحكم بن كيسان، وعادوا بهم إلى المدينة، وقد توقف النبي (ﷺ) في هذه الغنائم حتى نزل عليه قوله (تعالى): ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (سورة البقرة، آية: ٢١٧)

فلما نزل القرآن الكريم قبض رسول الله (ﷺ) العير والأسيرين، وفي سرية عبدالله هذه غنم المسلمون أول غنيمة، وعمرو بن الحضرمي أول قتيل قتله المسلمون، وعثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان أول من أسر المسلمون[٣٤٠].

رابعًا: فوائد ودروس وعبر:

١- متى شرع الجهاد؟

ذهب الشيخ الدكتور محمد أبو شهبة أن تشريع الجهاد كان في أوائل السنة الثانية للهجرة، وعلل ذلك بسبب انشغال المسلمين في السنة الأولى بتنظيم أحوالهم الدينية والدنيوية كبنائهم المسجد النبوي، وأمور معايشهم، وطرق اكتسابهم وتنظيم أحوالهم السياسية: كعقد التآخي بينهم، وموادعتهم اليهود المساكنين لهم في المدينة، كي يأمنوا

---

(٣٣٦) علم لموضع بالحجاز قرب الجحفة (مراصد الاطلاع ١/ ٤٥٥).

(٣٣٧) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٦٠٠).

(٣٣٨) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٦٠١).

(٣٣٩) نخلة اليمانية: واد عسكرت به هوازن يوم حنين.

(٣٤٠) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ٤٣).

شـرورهم[٣٤١]، وذهب الأستاذ صالح الشامي أن الأذن بالجهاد كان في أواخر السنة الأولى للهجرة[٣٤٢].

٢- الفرق بين السرية والغزوة:

يطلق كتاب السير في الغالب على كل مجموعة من المسلمين خرج بها النبي (ﷺ) ليلقى عدوه غزوة، سواء حدث فيها قتال أو لم يحدث، وسواء كان عددها كبيرًا أو صغيرًا، ويطلق على كل مجموعة من المسلمين يرسلها النبي (ﷺ) لاعتراض عدو كلمة: سرية أو بعث، وقد يحدث فيها قتال وقد لا يحدث، وقد تكون لرصد أخبار عدوه أو غيره، وغالبًا ما يكون عدد الذين يخرجون في السرايا قليلاً، لأن مهمتهم محددة في مناوشة العدو وإخافته وإرباكه، وقد قاد رسول الله (ﷺ) سبعًا وعشرين غزوة، وأرسل ما يقدر بثمان وثلاثين سرية وبعثًا، وقد خطط لها في فترة وجيزة في عمر الأمم بلغت عشر سنوات من الزمن[٣٤٣].

٣- تعدد سكان المدينة وعلاقته بالسرايا:

أمر النبي (ﷺ) بإجراء تعداد سكاني في السنة الأولى من الهجرة، وبعد المؤاخاة مباشرة وكان الإحصاء للمسلمين فقط أو حسب نص أمر رسول الله (ﷺ) حينما قال: (اكتبوا لي من تلفظ بالإسلام من الناس) فلبغ تعداد المحاربين منهم فقط (١٥٠٠) ألف وخمسمائة رجل[٣٤٤]، فأطلق المسلمون بعد إجراء هذا الإحصاء تساؤل تعجب واستغراب (نخاف ونحن ألف وخمسمائة؟) لأنهم كانوا قبل لا ينامون إلا ومعهم السلاح خوفًا على أنفسهم وكان رسول الله (ﷺ) يمنع خروجهم ليلاً فرادى حماية لهم من الغدر[٣٤٥]، وبعد هذا التعدد مباشرة بدأت السرايا والغزوات وهذا الإجراء الإحصائي يدخل ضمن الإجراءات التنظيمية في تطوير الدولة الناشئة[٣٤٦].

٤- حراسة الصحابة للنبي (ﷺ) الشخصية:

كان الصحابة رضي الله عنهم يحرسون النبي (ﷺ) حراسة شخصية، فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: (أرق النبي (ﷺ) ذات ليلة فقال: **«ليت رجلاً صالحًا من أصحابي يحرسني الليلة»** إذ سمعنا صوت السلاح، قال: **«من هذا؟»** قال: سعد، يا رسول الله جئت أحرسك، فقام النبي (ﷺ) فنام حتى سمعنا غطيطه)[٣٤٧] وكان ذلك قبل غزوة

(٣٤١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٧٥، ٧٦).
(٣٤٢) انظر: معين السيرة ص١٧٥.
(٣٤٣) في ظلال السيرة غزوة بدر، لأبي فارس ص١٢.
(٣٤٤) انظر: الوثائق السياسية حميد الله ص٦٥.
(٣٤٥) انظر: الروض الأنف (٥/ ٤٣).
(٣٤٦) انظر: دراسات في عهد النبوة للشجاع ص١٦٣.
(٣٤٧) صحيح البخاري مع فتح الباري، كتاب التمني (٣/ ٢١٩).

بدر الكبرى[٣٤٨]، وفي حديث عائشة، مشروعية الاحتراس من العدو، والأخذ بالحزم، وترك الإهمال في موضع الحاجة إلى الاحتياط وأن على الناس أن يحرسوا سلطانهم خشية القتل، وفيه الثناء على من تبرع بالخير وتسميته وإنما عانى النبي(ﷺ) ذلك مع قوة توكله للاستنان به في ذلك[٣٤٩].

٥- نص وثيقة المعاهدة مع بني ضمرة والتعليق عليها:

(بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد رسول الله لبني ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وأنَّ لهم النصر على من رامهم إلا أن يُحاربُوا في دين الله ما بَلَّ بحرٌ صوفه[٣٥٠] وأن النبي إذا دعاهم لنصرة أجابوه، عليهم بذلك ذمة الله وذمة رسوله، ولهم النصر على من برَّ منهم واتقى)[٣٥١].

انتهز النبي(ﷺ) في غزوة الأبواء فرصة ذهبية، فعقد حلفًا عسكريًا مع شيخ بني ضمرة، فقد كان موقع بلاده ذا قيمة عسكرية لا تقدر بثمن في الصراع بين الدولة الإسلامية الناشئة وقريش ،ولذلك عمل رسول الله(ﷺ) على ضمان حيدتهم في حالة وقوع صدام مسلح بين المدينة وأهل مكة، وكانت خطته(ﷺ) حتى وقعة بدر، أن يزعج قوافل قريش بإرسال مجموعات صغيرة من المهاجرين، وخاصة أن هذه القوافل كانت غير مصحوبة بجيش يحميها، وهو أمر لم تفكر فيه قريش حتى تلك اللحظة[٣٥٢].

كان قرب بني ضمرة وحلفائهم من المدينة التي كانت سوقهم ومصدر رزقهم، قد وضعهم في موقف لا يسمح لهم بأي مسلك غير موادعة الدولة الإسلامية الناشئة، وهو حلف عدم اعتداء وفق المصطلح الحديث[٣٥٣].

وقد دلت هذه الموادعة على أن مقتضيات السياسة الشرعية قد تدفع المسلمين إلى التحالف العسكري أو الاقتصادي أو التجاري مع أي من الكتل القائمة، وأن التحالف السياسي له أصل في الشريعة وضرورة يوجبها استهداف رفع الضرر الحاصل أو المرتقب[٣٥٤]، وأن التحالف مبني على قاعدة رفع الضرر والمصلحة المشتركة، وأن تكون لأصل الحلف غاية شرعية معلومة، وأن يكون للمسلمين في الحلف قرار ورأي، أما إذا كانوا أتباعًا ومنفذين -كما في الأحلاف الحديثة- فهذا لا ينطبق عليه الأصل الشرعي، وعلى قيادة الأمة أن تستوعب هدي النبي(ﷺ) في حركته السياسية، وأن تفهم القاعدة الشرعية التي

---

(٣٤٨) انظر: تفسير القرطبي (٦/ ٢٣٠) .

(٣٤٩) انظر: ولاية الشرطة في الإسلام ، د .عمر محمد الحميداني ص٦٣ .

(٣٥٠) كناية على التأبيد والأستمرار .

(٣٥١) الوثائق السياسية ، محمد حميد الله ص٢٢٠ رقم ١٥٩ .

(٣٥٢) انظر: نشأة الدولة الإسلامية ، د . عون الشريف ص٤٣ .

(٣٥٣) انظر: الفقه السياسي ، خالد سليمان الفهداوي ص١١٩ .

(٣٥٤) نفس المصدر ص١٢٤ .

تقول: (لا ضرر ولا ضرار)[٣٥٥].

يقول الشيخ مصطفى الزرقا في معرض الحديث عن هذه القاعدة ما نصه:

وهذه القاعدة من أركان الشريعة وتشهد لها نصوص من الكتاب والسنة، ويشمل الضرر المنهي عنه ما كان ضررًا عامًا أو خاصًا، ويشمل ذلك دفعه قبل الوقوع بطرق الوقاية الممكنة، ودفعه بعد الوقوع بما يمكن من التدابير التي تزيل آثاره، وتمنع تكراره، كما يدل على وجوب اختيار أهون الشرين لدفع أعظمها، لأن في ذلك تخفيفًا للضرر عندما لا يمكن منعه بتاتًا[٣٥٦].

إن هذه الموادعة توضح جواز عقد الدولة الإسلامية معاهدة دفاعية بينها وبين دولة أخرى إذا اقتضت ذلك مصلحة المسلمين، ولم يترتب أي ضرر على مثل هذه المعاهدة ويجب على الدولة الإسلامية في هذه الحال نصرة الدولة الحليفة إذا دعيت إلى هذه النصرة ضد الكفار المعتدين، كما يجوز للدولة الإسلامية أن تطلب من الدولة الحليفة إمدادها بالسلاح والرجال ليقاتلوا تحت راية الدولة الإسلامية ضد الأعداء من الكفار[٣٥٧].

وقد شرط النبي (ﷺ) على بني ضمرة ألا يحاربوا في دين الله حتى يكون لهم النصر على من اعتدى عليهم أو حاول الاعتداء. وفي هذا إبعاد للعقبات التي يمكن أن تقف في طريق الدعوة، فقد أوجبت هذه المعاهدة على بني ضمرة ألا يحاربوا هذا الدين أو يقفوا في طريقه[٣٥٨].

وتعتبر هذه المعاهدة كسبًا سياسيًا وعسكريًا للمسلمين لا يستهان به[٣٥٩].

٦- (وإني لأول رجل رمى بسهم في سبيل الله[٣٦٠]**:**

كانت سرية عبيدة بن الحارث رضي الله عنه أول سرية في تاريخ السرايا يلتقي فيه المسلمون مع المشركين في مواجهة عسكرية، وقد اتخذ القتال بين الطرفين طابع المناوشة بالسهام، وكان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه (أول العرب رمى بسهم في سبيل الله)[٣٦١] في تلك المعركة التي لم تستمر طويلاً إذ قرر الفريقان الانسحاب من أرضها، وقد كان انسحاب المسلمين قويًا ومنظمًا، وكان بطل هذا الانسحاب سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه، فقد كان له الدور الأكبر في تثبيت وإحباط استعدادات العدو لشن أي هجوم مضاد وذلك بوابل من السهام المزعجة التي قذفها نحوه والتي كونت ساترًا دفاعيًا مهّد لانسحاب

(٣٥٥) هذه القاعدة أصلها حديث نبوي رواه ابن ماجه (٢/ ٣٩) رقم ١٨٩٦ وهو صحيح.

(٣٥٦) انظر: المدخل الفقهي، الشيخ الزرقا ص٩٧٢.

(٣٥٧) انظر: الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، د. محمد خير هيكل (١/ ٤٧٩).

(٣٥٨) انظر: دولة الرسول من التكوين إلى التمكين ص٥٣٠.

(٣٥٩) انظر: الدعوة الإسلامية ص٢٩٦، د. عبد الغفار عزيز.

(٣٦٠) انظر: صحيح سنن الترمذي (٢/ ٢٧٧).

(٣٦١) انظر: السرايا والبعوث النبوية، د. بريكك العُمري ص٩١.

سليم منظم بالنسبة للمسلمين، وقد فر عتبة بن غزوان، والمقداد بن الأسود رضي الله عنهما يومئذ إلى المسلمين وكانا قد أسلما قبل ذلك، وفي هذه السرية حقق سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه سبقًا عسكريًا إسلاميًا، يسجل في سجله الحافل بالأعمال العظيمة لنصرة دين الله (تعالى)، كما أكدت هذه السرية استمرار سياسة رسول الله (ﷺ) التعبوية الخاصة بحشد المهاجرين فقط في الغزوات والسرايا الأولى حتى بدر تنفيذًا لاتفاقية العقبة الثانية[٣٦٢].

٧- نص وثيقة الموادعة مع جهينة والتعليق عليها:

(إنهم آمنون على أنفسهم وأموالهم، وإن لهم النصر على من ظلمهم أو حاربهم إلا في الدين والأهل. ولأهل باديتهم من برَّ منهم واتقى ما لحاضرتهم)[٣٦٣].

ويظهر أثر هذه الموادعة عندما تدخل مخشي بن عمرو الجهني في التوسط بين سرية حمزة بن عبد المطلب والقافلة القرشية التي كان يقودها أبو جهل بن هشام ويحرسها ثلثمائة راكب من فرسان قريش[٣٦٤] فقد التقوا ناحية العيص في منطقة نفوذ جهينة واصطفوا للقتال[٣٦٥]، وقبل أن يندلع القتال بين الفريقين، تدخل مخشي ابن عمرو زعيم من زعماء جهينة في وساطة سلام بينهم، واستطاع أن ينجح في مساعيه السلمية بين الطرفين، فقد كان مخشي وقومه حلفاء للفريقين جميعًا، فلم يعصوه فرجع الفريقان كلاهما إلى بلادهم، فلم يكن بينهم قتال[٣٦٦].

ويظهر من هذه المعاهدة أن عقد المعاهدات بين الدولة الإسلامية والقبائل المجاورة كان سابقًا على الأعمال العسكرية التي قامت بها ،بدليل أن حركة السرايا الأولى الموجهة ضد قريش كان قد سبقها معاهدة سلام بين دولة الإسلام وقبيلة جهينة المقيمة على ساحل البحر الأحمر- وقد توسطت لمنع القتال بين المسلمين وكفار مكة.

ومن فقه هذه المعاهدة جواز عقد معاهدة سلام بين دولة الإسلام ودولة أخرى هي بدورها مرتبطة بمعاهدة سلام مع أعداء الدولة الإسلامية، بشرط ألا تتجاوز تلك المعاهدة إلى الاتفاق على أن تنصر الدولة المعاهدة للمسلمين تلك الدولة العدوَّ إذا ما اشتبكت مع المسلمين في قتال، ويجوز للدولة الإسلامية أن تترك قتال أعدائها بعد أن تستعد لذلك، استجابة لوساطة دولة أخرى، إذا لم يترتب على ذلك ضرر للمسلمين[٣٦٧].

كانت نتائج سرية حمزة رضي الله عنه على المعسكر الوثني سيئة للغاية حيث هزت

(٣٦٢) انظر: السرايا والبعوث النبوية ص٩٢ .

(٣٦٣) انظر: مجموعة الوثائق السياسية ، محمد حميد الله ص٦٢ .

(٣٦٤) انظر: المواهب اللدنية (١/ ٧٥) .

(٣٦٥) انظر: طبقات ابن سعد (٢/ ٦) ، وانظر: السرايا والبعوث ص٨٥ .

(٣٦٦) انظر: السرايا والبعوث النبوية ص٨٦ .

(٣٦٧) انظر: الجهاد والقتال في السياسة الشرعية (١/ ٤٧٨ ، ٤٧٩) .

كيان قريش وبث الرعب في نفوس رجالهـا، وفتحت أعينهم على الخطر المحدق بهم والذي أصبح يهـدد طريق تجارتهم، وقوتهم الاقتـصادية[٣٦٨]، فقـد (قال أبو جهـل حين قدم مكة منصرفه عن حمـزة: يا معشر قريش إن محمـدًا قد نزل يثرب وأرسل طلائعه، وإنما يريد أن يصـيب منكم شيـئًا، فـاحذورا أن تمروا طـريقه، وأن تقـاربوه فإنه كـالأسد الضـاري، إنه حنق[٣٦٩] عليكم نفيتموه نفي القردان[٣٧٠] على المناسم[٣٧١]، والله إن له لسحرة، ما رأيته قط ولا أحد من أصحابه إلا رأيت معهم الشياطين وإنكم عرفتم عداوة ابني قيلة[٣٧٢]، فهو عدو استعان بعدو)[٣٧٣].

٨- سرية عبد الله بن جحش وما فيها من دروس وعبر:

إن سرية عبد الله بن جحش حققت نتائج مهمة وفيها دروس وعبر وفوائد عظيمة منها:

أ- السرية التامة: جاء في خبر هذه السرية أن النبي (ﷺ) كتب لأمير السرية كتابًا وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين، وهذا مثل لتطبيق مـبدأ مهم من مبادئ الحرب، وهو إخفاء الخطط الحربيـة، ومنها خط السيـر، حتى يكون الجيش في أمـان من كيد الأعـداء، فالمدينة كانت آنذاك تضم اليهود والوثنيين ومن المتوقع أن يسارع هؤلاء إلى إخبار أهل مكة بخط سير تلك السرية الموجهة ضدهم، فلما سار أفـراد السرية وهم بأنفسهم لا يعلمون اتجاههم أصبح النبي (ﷺ) آمنًا من انكشاف الهدف المقصود[٣٧٤].

وإن الباحث ليرى أثر التربية النبوية في هذه السرية المباركة حيث سمعوا وأطاعوا جميعًا وساروا إلى منطقة أعدائهم، وتجاوزوها حتى أصبحوا من ورائهم، وهذا شاهد على قوة إيمان الصحابة رضي الله عنهم، واستهانتهم بأنفسهم في سبيل الله (تعالى)[٣٧٥].

ب- حاولت قريش أن تستغل ما وقع من قتل في الشهر الحرام:

من قبل أفراد السـرية فشنوا حربًا إعلامية وهجـومًا مركزًا تتخلله دعايات مـغرضة ضد المسلمين اسـتغلت فيـها التعـاليم الإبراهيمـية التي لا زالت بعض آثارها باقـية في المجـتمع الجاهلي حـتى ذلك الوقت من تحريم القتـال في الأشهر الحرم، وغـير ذلك، فقد (انتـهزت قريش هذه الفرصة للتشهير بمحمد (ﷺ) وبالمسلمين وإظهارهم بمظهر المعتدي الذي لا يراعي الحرمات)[٣٧٦]، (قالت قريش: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم،

(٣٦٨) انظر: السرايا والبعوث النبوية ص٨٦ .
(٣٦٩) الحنق: محركة: الغيظ أو شدته .
(٣٧٠) القردان: جمع قراد وهي دويبة تعض الأبل .
(٣٧١) المناسم: بكسـر السين: طرف خف البعـير والنعامـة ،والفيل والحـافر ،وقـيل: هو للناقة كـالظفر للإنسان .
(٣٧٢) كناية عن الأوس والخزرج ، فقيلة أمهم وكانوا ينسبون إليها .
(٣٧٣) انظر: سيرة ابن هشام (١/٢١٨- ٢١٩) .
(٣٧٤) انظر: التاريخ الإسلامي مواقف وعبر (٤/ ٧١) .
(٣٧٥) نفس المصدر (٤/ ٧١) .
(٣٧٦) انظر: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ،الشريف أحمد ص٤٤٥ .

وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال)[٣٧٧].

ونجحت قريش في خطتها تلك بادئ الأمر حيث (كان لدعايتها صدىً كبير، وأثر ملموس حتى في المدينة نفسها، فقد كثر الجدل والنقاش بين المسلمين أنفسهم، وأنكروا على رجال السرية محاربتهم في الشهر الحرام، واشتد الموقف، ودخلت اليهود تريد إشعال الفتنة)[٣٧٨] وقالوا بأن الحرب واقعة لا محالة بين المسلمين وقريش، بل بينهم وبين العرب جميعًا، جزاء ما انتهكوا من حرمة الشهر الحرام، وأخذوا يرددون (عمرو بن الحضرمي قتله واقد بن عبد الله، عمرو: عمرت الحرب، والحضرمي: حضرت الحرب، وواقد بن عبد الله: وقدت الحرب)[٣٧٩] وهذا الكلام من اليهود يعبر عن حقد دفين في نفوسهم على الإسلام والمسلمين[٣٨٠].

وعندما ظن أهل السرية أنهم قد هلكوا وسقط في أيديهم جاء الرد الرباني المفحم قطعًا لألسنة المشركين الذين يتترسون بالحرمات، ويتخذونها ستارًا لجرائمهم، ففضح القرآن هؤلاء المجرمين، وأبطل احتجاجهم وأجاب على استنكارهم القتال في الشهر الحرام، فالصد عن سبيل الله، والكفر به أكبر من القتال في الشهر الحرام، والمسجد الحرام، وإخراج أهله منه أكبر من القتال في الشهر الحرام، وفتنة الرجل في دينه أكبر من القتل في الشهر الحرام، لقد فعلت قريش كل هذه الجرائم، وارتكبت هذه الكبائر، ولكنها تناستها، أو استهانت بها، ولم تذكر إلا حرمة الشهر، واتخذتها وسيلة لإثارة حرب شعواء على الإسلام ودولته، لتأليب القبائل الوثنية عليها، وتنفير الناس من الدخول في هذا الدين الذي يستحل الحرمات، ويستبيح المقدسات حتى أن رسول الله (ﷺ) قد لحقه الغم، ولام قائد السرية وأصحابه على ما فعلوا[٣٨١]، فنزلت الآيات البينات ترد وبقوة على دعايات قريش المغرضة، موضحة أنه وإن كان الشهر الحرام لا يحل فيه القتال، ولكن لا حرمة عند الله لمن هتك الحرمات وصد عن سبيله[٣٨٢].

ج- حرص القائد على سلامة الجنود:

عندما تخلف سعد بن أبي وقاص، وعتبة بن غزوان بسبب بحثهما عن بعير لهما قد ضل، وجاءت قريش تريد أن تفدي الأسيرين، فأبى رسول الله (ﷺ) وقال: «**أخاف أن تكونوا قد أصبتم سعد بن مالك وعتبة بن غزوان**»، فلم يفادهما حتى قدم سعد وعتبة، ففوديا، فأسلم الحكم بن كيسان[٣٨٣]، وأقام عند رسول الله (ﷺ)، ورجع عثمان بن عبد

(٣٧٧) انظر: سنن البيهقي (٩/ ٥٩) نقلاً عن السرايا والبعوث النبوية ص١٠٠ .
(٣٧٨) انظر: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ص٤٤٥ .
(٣٧٩) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٦٠٣ ، ٦٠٤) .
(٣٨٠) انظر: التاريخ الإسلامي (٤/ ٧٢) .
(٣٨١) انظر: دولة الرسول من التكوين إلى التمكين ص٥٣٣ .
(٣٨٢) انظر: السرايا والبعوث النبوية ص١٠٠ .
(٣٨٣) نفس المصدر ص١٠٠ .

الله بن المغيرة كافرًا(٣٨٤).

ونفهم من المنهاج النبوي ضرورة أن يهتم القائد بسلامة جنده، لأنهم هم الذين يقدمون أنفسهم في سبيل نصرة دين الله وإقامة دولة الإسلام.

إن المدارس العسكرية الحديثة تقول: إن الجندي حين يحس باهتمام القيادة به وسلامته وبأمنه، لا يتردد في أن يبذل غاية البذل، ويعطي أقصى العطاء(٣٨٥).

د- ظهور التربية الأمنية في الميدان:

كانت سرية عبد الله بن جحش قد حققت أهدافها، وظهرت قدرتها على التوغل في المناطق الخاضعة لنفوذ قريش مما أذهلها ،وزاد دهشتها وذهولها تلك السرية التامة، والدقة المتناهية التي تمت بها العملية، حتى أن جواسيس قريش لم تستطع رصدها ولا معرفة الوجهة التي قصدتها، وكان ذلك ما أراده رسول الله (ﷺ) وخطط له بابتكاره أسلوب الرسائل المكتوبة للمحافظة على الكتمان وحرمان العدو من الحصول على المعلومات التي تفيده عن حركات المسلمين (والكتمان أهم عامل من عوامل مبدأ (المباغتة) وهي أهم مبدأ من مبادئ الحرب)(٣٨٦).

وقد أثبتت هذه السرية بما لا يدع مجالاً للشك بأن سرايا النبي (ﷺ) قوية تندفع للقيام بأصعب الأعباء والمهمات، وتتحلى بمزايا القتال، وقدرتها على إنجاز الواجبات بكل كفاءة واقتدار مما يدل على روحها المعنوية العالية.

وتظهر آثار التربية النبوية في الضبط العسكري الرفيع الذي تميز به قائد السرية وطاعته للأوامر النبوية العليا دون تردد أو تخاذل، فما أن قرأ الكتاب حتى امتثل فورًا للأمر بحذافيره، معطيًا من نفسه القدوة الحسنة، وباثًا في نفوس جنوده الحماس وهو يقول لهم: (من كان منكم يريد الشهادة، ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأما أنا فماض لأمر رسول الله (ﷺ))(٣٨٧).

٩- من أهداف السرايا:

عندما ندرس حركة السرايا والغزوات التي قادها رسول الله (ﷺ) بدقة وعمق وتحليل نستطيع أن نتلمس كثيرًا من الأهداف وندرك بعض ما توحي به من دروس وعبر وفوائد، فإذا تأملنا في حركة السرايا التي سيرت قبل بدر نجد أن أفرادها كلهم من المهاجرين ليس فيهم واحد من الأنصار يقول ابن سعد رحمه الله: والمجتمع عليه أنهم كانوا جميعًا من المهاجرين ولم يبعث رسول الله (ﷺ) أحدًا من الأنصار مبعثًا حتى غزا بهم بدرًا(٣٨٨) وهذا كان أمرًا

(٣٨٤) المصدر السابق ص١٠٠ .
(٣٨٥) انظر: غزوة بدر الكبرى ، محمد أبو فارس ص٢٣ .
(٣٨٦) انظر: الرسول القائد ، خطاب ص٩٤ .
(٣٨٧) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٦٠٢) من رواية ابن اسحاق عن عروة .
(٣٨٨) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ٦) .

مدروسًا له أهدافه منها، إحياء قضية المهاجرين في أنفسهم أولاً، وإحيائها على المستوى الخارجي، وانهاك الاقتصاد القرشي ومحاصرته، واستعادة بعض الحقوق المسلوبة، وإضعاف قريش عسكريًا، تدريب الصحابة على إتقان فنون القتال، رصد تحركات قريش، إرهاب العدو الداخلي في المدينة وما حولها، اختبار قوة العدو[٣٨٩]، وقد حققت تلك السرايا أهدافها والتي من أهمها:

أ- بسط هيبة الدولة في الداخل والخارج:

فقد استطاعت تلك السرايا والغزوات أن تلفت أنظار أعداء الدعوة والدولة الإسلامية إلى قوة المسلمين وقدرتهم على ضرب أية حركة مناوئة سواء في الداخل أو الخارج، حتى لا يحدِّث أحد نفسه بمهاجمة الدولة الإسلامية، التي لا يتوقف جيشها ليل نهار، مما أرهب الأفاعي اليهودية، والقبائل الوثنية المحيطة بالمدينة ،وجعل الجميع يعمل ألف حساب قبل أن تحدثه نفسه بغزو المدينة، أو مناصرة أحد من الأعداء عليها ،والذي نلاحظه في حركة السرايا الزيادة المستمرة في أعداد قوة تلك الغزوات والسرايا، ومجيئها متتابعة ليس بينها فاصل زمني على الإطلاق، فلا تكاد السرية أو الغزوة تعود حتى تكون التي بعدها قد خرجت لتحقيق نفس الهدف، وهو ضرب مصالح قريش الاقتصادية، وقطع طرق تجارتها، وخصوصًا إلى بلاد الشام مما كلفها زيادة عدد حراس قوافلها، وارتفاع قيمة بضائعها، عدا عن الرعب والخوف الذي شعر به رجال القوافل القرشية، وأصحاب الأموال في مكة على حد سواء[٣٩٠].

ب- كسب بعض القبائل وتحجيم دور الأعراب:

فقد وادع رسول الله (ﷺ) قبيلة جهينة وحالفها وكذلك بعض القبائل الضاربة في تلك المنطقة، من أجل تحييدها في الصراع الدائر بين مكة والمدينة والعمل على كسبها في هذا الصراع وذلك: (لأن الأصل أن هذه القبائل تميل إلى قريش، وتتعاون معها، إذ بينهما مُحَالفَات تاريخية سمّاها القرآن الكريم بالإيلاف[٣٩١]، سعت قريش من خلالها لتأمين تجارتها مع الشام واليمن)[٣٩٢].

وبعد أن اتفقت بعض القبائل مع رسول الله (ﷺ) وعقدت معه معاهدات، أصبحت تشكل خطرًا على تجارة قريش، وصار المسلمون هم السادة في المنطقة[٣٩٣].

وقام النبي (ﷺ) بتحجيم دور الأعراب عن أن يكون لهم وجود في طرق التجارة، فقد كان الأعراب يشكلون قوة تهديد للقوافل التجارية، وكان المار في مناطق نفوذهم لا يمر إلا

---

(٣٨٩) انظر: غزة بدر الكبرى لأبي فارس ص١٤ إلى ٢٤ .
(٣٩٠) انظر: دولة الرسول من التكوين إلى التمكين ص٥٣٢ .
(٣٩١) سورة قريش (١- ٤) .
(٣٩٢) انظر: المجتمع المدني ، د . أكرم ضياء العمري ص٢٧ .
(٣٩٣) انظر: دراسات في السيرة ، مؤنس ص١٩ .

بإتاوة تدفع إليهم، وحينما قامت الدولة الإسلامية لم يجدوا شيئًا منها فجربوا مهاجمتها وتولى هذا كرز الفهري، ولكنه وجد رسول الله (ﷺ) يطارده إلى سفوان (بالقرب من بدر مسافة تبعد عن المدينة حوالي ١٥٠كيلو مترًا) وقد سمى أهل السير هذه المطاردة غزوة بدر الصغرى وتعد هذه الغزوة درسًا لكل الأعراب، فلم يحصل أن أعرابيًا سوّلت له نفسه مهاجمة المدينة بعد هذه المطاردة، ومن ثم لم تدفع الأمة الإسلامية إتاوات لقطاع الطرق بل أجبرتهم على الانسحاب والدخول في اتفاقات مع المسلمين فأمنوا شرهم[٣٩٤].

جـ- علاقة هذه السرايا بحركة الفتوح الإسلامية:

استمرت حركة السرايا والبعوث وكانت بمثابة تمرينات عسكرية تعبوية، ومناورات حية لجند الإسلام، وكان هذا النشاط المتدفق على شكل موجات متعاقبة من جند الإسلام الأوائل دلالة قاطعة على أن دولة الإسلام في المدينة وبقيادة النبي القائد (ﷺ) كانت مثل خلية النحل لا تهدأ ولا تكل، وإن الباحث ليلحظ في حركة السرايا والبعوث والغزوات الكبرى في زمن النبي (ﷺ) حرص الصحابة على المشاركة كقادة وجنود، فكان (ﷺ) يعدهم لتثبيت دعائم الدولة والاستعداد للفتوحات المرتقبة، والتي ما فتئ عليه الصلاة والسلام يبشر بها أصحابه بين الفينة والأخرى في أوقات الحرب والسلم والخوف والأمن.

إنه بنظرة فاحصة في قوّاد وجنود تلك السرايا والبعوث تطالعنا أسماء لمعت كثيرًا في تاريخ الفتح الإسلامي فيما بعد، مثل قائد فتوحات الشام، أمين الأمة، أبي عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبي وقاص صاحب القادسية، وفاتح المدائن، وخالد بن الوليد سيف الله المسلول هازم الروم في اليرموك، وعمرو بن العاص فاتح مصر وليبيا، وغيرهم رضي الله عنهم، لقد التحق خالد وعمرو فيما بعد بحركة السرايا وقادوا بعضها بعد إسلامهم، لقد كانت السرايا والغزوات التي أشرف عليها الحبيب المصطفى (ﷺ) في حياته بمثابة تدريب حي نابض، بل يمكن اعتبارها دورات أركان للقادة الذين فتحوا مشارق الأرض ومغاربها فيما بعد.

إن حياة الصحابة رضي الله عنهم خلال الأربع والعشرين ساعة اليومية عبارة عن تدريب مستمر، فالبرنامج اليومي المنتظم يبدأ مبكرًا من صلاة الفجر التي تؤدى في جماعة مع قائدهم الأعلى (ﷺ) الذي كان يحثهم على أداء هذه الصلاة جماعة وفي وقتها موضحًا لهم ولأمته، أنها المفتاح العجيب ليوم مليء بالنشاط والحيوية **(يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب مكان كل عقدة عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدت، فإن توضأ انحلت عقدت، فإن صلّى انحلت عقده كلها، فأصبح نشيطًا طيِّب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان)**[٣٩٥].

---

(٣٩٤) انظر: دراسات في عهد النبوة ، د . عبد الرحمن الشجاع ص١٣١ ,

(٣٩٥) مسلم ، انظر: مختصر صحيح مسلم للألباني (١٠٦) .

ثم ينطلق كل منهم إلى عمله الذي تتخلله فترات الصلوات الباقية، حتى إذا ما صلّوا الصلاة الآخرة (صلاة العشاء) ناموا، حتى إذا ما أخذوا قسطًا وافرًا من النوم أوّل الليل إلى الثلث الأخير منه، قام معظمهم لأداء صلاة التهجد التي تملأ قلوبهم روحانية وتكسبهم مزيدًا من النشاط لأدائها في وقت يكون الجسم فيه مرتاحًا.

هذا بالإضافة إلى الاستعداد الدائم واليقظة التامة لمتطلبات دولة الإسلام، فكانوا يقومون بنشاطات تدريبية مركزة تتمثل في ركوب الخيل، والسبق، والرماية، وكان النبي (ﷺ) يحثهم على فعل ذلك، بل ويشاركهم فيه، معطيًا من نفسه القدوة، وكان (ﷺ) يركز على تعلم الرماية كثيرًا موضحًا أنها خير ما يعدُّ من قوة استعدادًا للكفار.

وكان عليه الصلاة والسلام يشجعهم على الصناعة الحربية المتمثلة في ذلك الوقت بصناعة الأسهم، وأن الأجر الذي غايته الجنة ينسحب على صانعها والمتنبل بها، والرامي بها، فيروي لنا عقبة، عن رسول الله (ﷺ) قوله: «**إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة، صانعه الذي احتسب في صنعته الخير، ومتنبله، والرامي، ارموا واركبوا، وأن ترموا أحب إليّ من أن تركبوا، وليس من اللهو إلاّ ثلاثة: تأديب الرجل فرسه، وملاعبته زوجته، ورمية بنبله عن قوسه، ومن علّم الرمي ثم تركه فهي نعمة كفرها**»[٣٩٦].

فيا له من عصر تمسك فيه الصحابة بالتعاليم القرآنية الربانية، وعضُّوا عليها بالنواجذ، وقاموا بتطبيقها حرفيًا في شتى شؤون حياتهم، فغزوا واستعلوا على أمم الأرض شرقًا وغربًا، رغم قلتهم وبساطتهم، وحين ابتعد المسلمون عن تلك التعاليم وألقوا بها وراء ظهورهم ركبهم الذل والصغار، وتداعت عليهم الأمم من أقطارها بعد أن أصبحوا غثاء كغثاء السيل.

إن المهمات والأهداف التي سعت لتحقيقها السرايا والبعوث كانت تتفاوت تبعًا لاختلاف الظروف المحيطة والحادثة، فكانت السرايا الأولى في معظمها عبارة عن دوريات استطلاعية واستكشافية وجسٍّ نبض، ثم تطورت إلى سرايا اعتراضية توقع الرعب والفزع في القوافل القرشية، وذلك قبل غزوة بدر الفاصلة، وعندما قويت شوكة المسلمين بعدها، أصبحت مهمة بعض السرايا والبعوث تنصب في تصفية الأفراد من أعداء الدولة الإسلامية الذين يحاولون النيل من مسيرتها مثل كعب بن الأشرف، والعصماء بنت مروان، وأبي عفك، فكان في قتل كعب ردعًا لليهود، وقتل العصماء وأبي عفك ردعًا للمشركين والمنافقين في المدينة.

وعندما انقلبت الأمور لغير صالح المسلمين بعد أحد، وعندما طمع الأعراب في خيرات المدينة، واستهانوا بالمسلمين لدرجة أنهم غدروا ببعض البعوث التعليمية كما في الرجيع وبئر معونة، غيّر تبعًا لذلك رسول الله (ﷺ) (استراتيجيته) العسكرية، فانتقل بالسرايا من قريش

---

(٣٩٦) أخرجه أحمد، والحاكم وقال: صحيح. ووافقه الذهبي. انظر: الفتح الرباني (١٣/ ١٢٩)، والمستدرك (٢/ ١٠٤).

إلى الأعراب لتأديبهم بطريقة صارمة وسريعة ومباغتة، وكان أهم ما يميِّز تلك السرايا هجومها التعرضي للأعراب قبل تحشدهم وجمع أمرهم بالهجوم على المسلمين.

وظلت السرايا والبعوث النبوية تؤدي دورها وتقوم بمهامها الخاصة لخدمة أهداف الدعوة، فمن دوريات قتالية، إلى سرايا تعقبية، وأخرى تمويهية، حتى إذا ما توطّد الأمر للمسلمين بعد فتح مكة، اهتم النبي (ﷺ) بإزالة كل ما يمت للوثنية بصلة، فبعث السرايا والبعوث من مكة لتحطيم بقية رموز الشرك والوثنية، فانطلقت السرايا لتحطيم العزى ومناة، واللات وسواع، وذا الخلصة، وغيرها من الأصنام والطواغيت الوثنية[٣٩٧].

وبعد ذلك انطلقت دعوة الإسلام في أرجاء الجزيرة، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، ثم تحركت الجيوش الراشدية بعد وفاة الرسول (ﷺ) لنشر دين الله في المعمورة وإزالة كل العوائق والقوى التي تقف في وجه الدعوة ،لقد أدهشت النتائج السريعة الإيجابية لحركة الفتوح الإسلامية جميع المحللين على اختلاف دياناتهم وأفكارهم ومشاربهم.

ولكن ستزول دهشة المحللين المنصفين عندما يقرأوا تلك التعاليم والوصايا النبوية لقوّاد وجنود السرايا والبعوث والتي هي نواة حركة الفتوح الإسلامية والتي صارت تتكرر على ألسنة الخلفاء وقادة جيوش الفتوح وتظهر في أعمالهم فيما بعد[٣٩٨].

عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله (ﷺ) إذا بعث جيشًا قال: **«انطلقوا باسم الله، لا تقتلوا شيخًا فانيًا، ولا طفلاً صغيرًا، ولا امرأة، ولا تغلوا وضموا غنائمكم، وأصلحوا، وأحسنوا، إن الله يحب المحسنين»**[٣٩٩].

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: كان رسول الله (ﷺ) إذا بعث أحدًا من أصحابه في بعض أمره قال: **«بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا»**[٤٠٠].

وعن عبد الرحمن بن عائذ رحمه الله قال: كان رسول الله (ﷺ) إذا بعث جيشًا قال: **«تألفوا الناس وتأتوهم ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم إلى الإسلام، فما على الأرض من أهل بيت مدر ولا وبر إلا تأتوني بهم مسلمين أحب إليّ من أن تقتلوا رجالهم وتأتوني بنسائهم»**[٤٠١].

---

(٣٩٧) انظر: السرايا والبعوث النبوية ص٦١، ٦٢، ٦٣، ٦٤، ٦٥.

(٣٩٨) نفس المصدر ص٦٥، ٦٦.

(٣٩٩) عون المعبود شرح سنن أبي داود (٧/ ٢٧٤).

(٤٠٠) مسلم (١٧٣٢).

(٤٠١) انظر: سبل الرشاد للصالحي (٦/ ١٧).



المبحث الخامس

استمرارية البناء التربوي والعلمي

كان من أوائل ما نزل من القـرآن الكريم في العهد المدني هو مقدمات سـورة البقرة التي تحدثت عن صفات أهل الإيمان، وأهل الكفر، وأهل النفاق ثم إشارة لأهل الكتاب - اليهود والنصارى- وكان التركيز على بيان حقيـقة اليهود؛ لأنهم الذين تصدوا للدعوة الإسلامية من أول يوم دخلت فـيه المدينة، وتتـضمن سـورة البقـرة جانبًا طـويلاً منها لشـرح صفـة يهود وطباعهم[٤٠٢].

والملاحظ أن سورة البـقرة وهي من أوائل ما نزل في العـهد المدني كانت توجيـه الدعوة للناس أجمعين أن يدخلوا في دين الله، وأن يتوجهوا له بالعبادة قال (تعالى): ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (سورة البقرة، آية: ٢١- ٢٢).

وكانت الآيات القرآنيـة في العهد المدني تحذر المسلمين من الاتصاف بصـفات المنافقين؛ وتوضح خطورة المنافقين على المجتمع الناشيء والدولة الجديـدة ولم تظهر حركة النفاق ضد المجتمـع والدولة المسلمة إلا في العهد المدني؛ لأن المسلـمين في مكة (ولم يكونوا من القوة والنفوذ في حالة تستـدعي وجود فئة من الناس ترهبهم أو ترجو خيرهم، فتـتملقهم وتتزلف إليهم في الظاهر، وتتـآمر عليهم وتكيـد لهم وتمكر بهم في الخفـاء، كما كان شـأن المنافقين بوجه عـام. . والآيات تتضمن أوصاف وأخـبار ومواقف المنافقين، والحـملات عليهم كـثيرة جدًا، حتى لا تكاد تخلو سورة مدنيـة منها، وخاصة الطويلة والمتوسطة، وهذا يعني أن هذه الحركة ظلت طيلة العهد المدني تقريبًا، وإن كانت أخذت تضعف من بعد نصفه الأول)[٤٠٣].

واستمر القرآن المدني يتحدث عن عظمة الله، وحقيقة الكون والترغيب بالجنة والترهيب من النار ويشرّع الأحكام لتربية الأمة، ودعم مقومات الدولة التي ستحمل نشر دعوة الله بين الناس قاطبة، وتجاهد في سبيل الله.

وكانت مـسيرة الأمة الـعلمية تتطور مع تطور مـراحل الدعوة وبناء المجتـمع، وتأسيس الدولة، وقد أشاد القرآن الكريم بالعلم والذين يتعلمون، ورويت أحاديث عن تقدير الرسول (ﷺ) للعلم. . وتضمنت كتب الحديث أبوابًا عن العلم.

لقد أيقنت الأمـة أن العلم من أهم مقومـات التمكين، لأن من المستـحيل أن يمكن الله (تعالى) لأمـة جاهلة، مـتخلفـة عن ركاب العلم وإن الناظر للـقرآن الكريم ليتـراءى له في

---

(٤٠٢) انظر: الظلال (١/ ٢٧) وما بعدها

(٤٠٣) انظر: السـيرة النبـوية ، دروزة (٢/ ٧٣ ، ٧٦) نقـلاً عن دراسات في عـهد النبـوة ، د . عبـد الرحمن الشجاع ص١٧٢ .

وضوح أنه زاخر، بالآيات التي ترفع من شأن العلم، وتحث على طلبه وتحصيله، فقد جعل القرآن الكريم العلم مقابلاً للكفر[٤٠٤] الذي هو الجهل والضلال قال (تعالى): ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (سورة الزمر، آية: ٩).

وإن الشيء الوحيد الذي أمر الله (تعالى) رسوله (ﷺ) أن يطلب منه الزيادة هو العالم قال (تعالى): ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (سورة طه، آية: ١١٤)، كما أن أول خاصية ميز الله (تعالى) بها آدم – عليه السلام– هي العلم– قال (تعالى): ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (سورة البقرة، آية: ٣١).

واستمر النبي (ﷺ) في منهجه التربوي لكي يعلم أصحابه ويذكرهم بالله (عز وجل)، ويحثهم على مكارم الأخلاق، ويوضح لهم دقائق الشريعة وأحكامها، وكان توجيهه (ﷺ) لأصحابه أحيانًا فرديًا ومرة جماعيًا، وترك لنا الحبيب المصطفى ثروة هائلة في وسائله التربوية في التعليم وإلقاء الدروس، فقد راعى (ﷺ) الوسائل التربوية التي تعين على الحفظ وحسن التلقي، وتؤدي إلى استقرار الحديث في نفوس وأفئدة الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، فمن هذه الوسائل والمبادئ العظيمة النافعة[٤٠٥] في العهد المكي والمدني:

أولاً: أهم هذه الوسائل والمبادئ:

١- تكرار الحديث وإعادته:

فذلك أسهل في حفظه، وأعون على فهمه، وأدعى لاستيعابه ووعي معانيه ولذلك حرص النبي (ﷺ) على تكرير الحديث في غالب أحيانه، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي (ﷺ) أنه: (كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثًا، حتى تفهم عنه)[٤٠٦].

٢- التأني في الكلام والفصل بين الكلمات:

كان (ﷺ) يتأنّى ولا يستعجل في كلامه، بل يفصل بين كلمة وأخرى، حتى يسهل الحفظ، ولا يقع التحريف والتغيير عند النقل، وبلغ من حرص النبي (ﷺ) ذلك أنه كان يَسْهُل على السامع أن يَعُدَّ كلماته (ﷺ) لو شاء[٤٠٧]، فقد روى عروة بن الزبير رحمه الله، أن عائشة رضي الله عنها قالت: (ألا يعجبك أبو هريرة؟ جاء فجلس إلى جانب حجرتي، يحدث عن النبي (ﷺ)، يُسْمِعُني ذلك، وكنت أسبّح[٤٠٨]، فقام قبل أن أقضي سُبْحتي،

---

(٤٠٤) التمكين للأمة الأسلامية ص٦٢ .
(٤٠٥) انظر: مناهج وآداب الصحابة في التعلم والتعليم ، د . البرّ ص٥٩ ، ٦٠ .
(٤٠٦) البخاري ، كتاب العلم ، باب من أعاد الحديث (١/ ١٨٨) .
(٤٠٧) انظر: مناهج وآداب الصحابة ، د . عبد الرحمن البر ص٦٢ .
(٤٠٨) أسبح: أصلي النافلة وهي السُّبحة وقيل صلاة الضحى .

ولو أدركته لرددت عليه: إن رسول الله (ﷺ) لم يكن يسرد الحديث كسردكم[٤٠٩].

٣- الاعتدال وعدم الإملال واختيار الوقت المناسب:

كان (ﷺ) يقتصد في تعليمه في مقدار ما يلقيه، وفي نوعه، وفي زمانه، حتى لا يمل الصحابة، وحتى ينشطوا لحفظه، ويسهل عليهم عَقْلُهُ وفهمه، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كان النبي (ﷺ) يتخَوَّلُنا[٤١٠] بالموعظة في الأيام، كراهة السآمة علينا[٤١١].

٤- ضرب الأمثال:

للمثل أثر بالغ في إيصال المعنى إلى العقل والقلب، ذلك أنه يقدم المعنويَّ في صورة حسية، فيربطه بالواقع ويقرّبه إلى الذهن، فضلا عن أنَّ للمثل بمختلف صوره بلاغة تأخذ بمجامع القلوب، وتستهوي العقول، وبخاصة عقول البلغاء، ولذلك استكثر القرآن من ضرب الأمثال، وذكر حكمة ذلك في آيات كثيرة، فقال (تعالى): ﴿ **وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ** ﴾ (سورة العنكبوت، آية: ٤٣).

وقال (تعالى): ﴿ **لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ (سورة الحشر، آية: ٢١).

إلى غير ذلك من الآيات، وعلى هذا المنهج الكريم سار النبي (ﷺ)، فاستكثر من ضرب الأمثال، فقد قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: (حفظت عن رسول الله (ﷺ) ألف مثل)[٤١٢].

وقد ألفت كتب متعددة في الأمثال في الحديث النبوي، من أقدمها كتاب (أمثال الحديث) للقاضي أبي محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي، (ت ٣٦٠هـ)[٤١٣].

٥- طرح المسائل:

إن طرح السؤال من الوسائل التربوية المهمة في ربط التواصل القوي بين السائل والمسؤول، وفتح ذهن المسؤول وتركيز اهتمامه على الإجابة، وإحداث حالة من النشاط الذهني الكامل ولذلك استخدم النبي (ﷺ) السؤال في صور متعددة لتعليم الصحابة، مما كان له كبير الأثر في حسن فهمهم وتمام حفظهم، فأحيانًا يوجه النبي (ﷺ) السؤال لمجرد الإثارة والتشويق ولفت الإنتباه، ويكون السؤال عندئذ بصيغة التنبيه (ألا) غالبا، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي (ﷺ) قال: «**ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به**

---

(٤٠٩) البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي (٦/٥٧٦) رقم ٣٥٦٨.

(٤١٠) يتخوّلنا: يتعهدنا.

(٤١١) البخاري، كتاب العلم، باب ما كان النبي يتخولهم بالمواعظة (١/١٦٢) رقم ٦٨.

(٤١٢) انظر: مناهج وآداب الصحابة ص٦٥.

(٤١٣) نفس المصدر ص٦٥، كل وسائل التعليم النبوية اختصرتها من هذا الكتاب القيم.

الدرجات؟»، قالوا: بلى، يا رسول الله، قال: «**إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط**»[٤١٤].

وأحيانًا يسألهم النبي (ﷺ) عما يعلم أنهم لا علم لهم به، وأنهم سيكلُون علمه إلى الله ورسوله، وإنما يقصد إثارة انتباههم للموضوع، ولفت أنظارهم إليه[٤١٥]، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله (ﷺ) قال: «**أتدرون من المفلس؟**»، قالوا: المفلس فينا من لادرهم له ولامتاع. فقال: «**إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم، فطرحت عليه، ثم طرح في النار**»[٤١٦].

وأحيانًا يسأل فيحسن أحد الصحابة الإجابة، فيثني عليه، ويمدحه تشجيعًا له، وتحفيزًا لغيره، كما فعل مع أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): «**يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟**»، قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «**يا أبا المنذر، أتدري أي آية في كتاب الله معك أعظم؟**»، قال: قلت: ﴿**اللَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**﴾ قال: فضرب في صدري، وقال: «**ليَهْنكَ العلم**[٤١٧] **أبا المنذر**»[٤١٨].

فهذا الاستحسان والتشجيع يبعث المتعلم على الشعور بالارتياح والثقة بالنفس، ويدعوه إلى طلب وحفظ المزيد من العلم وتحصيله[٤١٩].

٦- إلقاء المعاني الغريبة المثيرة للاهتمام والداعية إلى الاستفسار والسؤال:

ومن ألطف ذلك وأجمله، ما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله (ﷺ) مرّ بالسوق، داخلاً من بعض العالية، والناس كَنَفَتُه[٤٢٠]، فمر بجدي أسك[٤٢١] ميت، فتناوله، فأخذ بأذنه، ثم قال: «**أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟**»، فقالوا: ما نحب أنه لنا بشئ وما نصنع به؟ قال: «**أتحبون أنه لكم؟**» قالوا: والله لو كان حيًا كان عيبًا فيه، لأنه أسك، فكيف وهو ميت؟ فقال: «**فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم**»[٤٢٢].

---

(٤١٤) مسلم، كتاب الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء (١/ ٢١٩).
(٤١٥) انظر: منهاج وآداب الصحابة ص٦٧.
(٤١٦) مسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم (٤/ ١٩٩٧).
(٤١٧) أي ليكن العلم هنيئًا لك.
(٤١٨) مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي(٥٥٦)
(٤١٩) انظر: مناهج وآداب الصحابة، ص٦٩.
(٤٢٠) كنفته: يعني عن جانبيه، والكنف بالتحريك: الناحية والجانب.
(٤٢١) أسك: مصطلح الأذنين مقطوعهما (النهاية ٢/ ٣٨٤).
(٤٢٢) مسلم، كتاب الزهد والرقائق (٤/ ٢٢٧٢).

٧- استخدام الوسائل التوضيحية:

كان النبي (ﷺ) يستخدم ما يسمى اليوم بالوسائل التوضيحية، لتقرير وتأكيد المعنى في نفوس وعقول السامعين، وشغل كل حواسهم بالموضوع، وتركيز انتباههم فيه، مما يساعد على تمام وعيه وحسن حفظه بكل ملابساته، ومن هذه الوسائل:

أ- التعبير بحركة اليد: كتشبيكه (ﷺ) بين أصابعه وهو يبين طبيعة العلاقة بين المؤمن وأخيه، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي (ﷺ) قال: **«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»** وشبّك بين أصابعه[٤٢٣].

ب- التعبير بالرسم، فكان (ﷺ) يخُط على الأرض خطوطًا توضيحية تلفت نظر الصحابة، ثم يأخذ في شرح مفردات ذلك التخطيط وبيان المقصود منه، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: خطَّ رسول الله (ﷺ) خطًا بيده، ثم قال: **«هذا سبيل الله مستقيمًا»**، ثم خط خطوطًا عن يمينه، وعن شماله، ثم قال: «وهذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه» ثم قرأ: ﴿**وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ (سورة الأنعام، آية: ١٥٣).

جـ- التعبير برفع وإظهار الشيء موضع الحديث: كما فعل (ﷺ) عند الحديث عن حكم لبس الحرير والذهب، فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: إن نبيَّ الله (ﷺ) أخذ حريرًا فجعله في يمينه، وأخذ ذهبًا فجعله في شماله، ثم قال: **«إن هذين حرام على ذكور أمتي»** زاد في رواية: **«حلٌّ لإناثهم»**[٤٢٤]، فجمع النبي (ﷺ) بين القول وبين رفع الذهب والحرير وإظهارهما، حتى يجمع لها السماع والمشاهدة، فيكون ذلك أوضح وأعون على الحفظ.

د- التعليم العملي بفعل الشيء أمام الناس: كما فعل عندما صعد (ﷺ) المنبر فصلَّى بحيث يراه الناس أجمعون، فعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله (ﷺ) قام على المنبر، فاستقبل القبلة وكبّر، وقام الناس خلفه، فقرأ وركع، وركع الناس خلفه، ثم رفع رأسه، ثم رجع القَهْقَري، فسجد على الأرض، ثم عاد إلى المنبر، ثم قرأ، ثم ركع، ثم رفع رأسه، ثم رجع القَهقري[٤٢٥]، فسجد على الأرض، ثم عاد إلى المنبر، ثم قرأ، ثم ركع، ثم رفع رأسه، ثم رجع القهقري، حتى سجد بالأرض، فلما فرغ أقبل الناس، فقال: **«أيها الناس، إنما صنعت هذا لتأتموا بي، ولتَعَلَّموا[٤٢٦] صلاتي»**[٤٢٧].

---

(٤٢٣) البخاري، كتاب المظالم، باب نصر المظلوم (٥/ ٩٩) رقم ٢٤٤٦.

(٤٢٤) أبو داود، كتاب اللباس، باب في الحرير للنساء (٤/ ٥) رقم ٤٠٥٧.

(٤٢٥) القهقري: المشي إلى خلف، من غير أن يعبد وجهة إلى جهة مشية.

(٤٢٦) أي لتتعلموا، فحذف إحدى التائين.

(٤٢٧) البخاري، كتاب الصلاة، باب في السطوح والمنبر والخشب (١/ ٤٨٦) رقم ٣٧٧.

٨- استعمال العبارات اللطيفة والرقيقة:

إن استعمال لطيف الخطاب ورقيق العبارات يؤلف القلوب، ويستميلها إلى الحق، ويدفع المستمعين إلى الوعي والحفظ، فقد كان (ﷺ) يمهِّد لكلامه وتوجيهه بعبارة لطيفة رقيقة، وبخاصة إذا كان بصدد تعليمهم ما قد يُستحيا من ذكره، كما فعل عند تعليمهم آداب الجلوس لقضاء الحاجة، إذ قدّم لذلك بأنه مثل الوالد للمؤمنين، يعلمهم، شفقة بهم[٤٢٨]، فقد قال (ﷺ): **«إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم، فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة، ولا يستدبرها، ولا يَستَطِبْ بيمينه»**[٤٢٩].

لقد راعى المعلم الأول (ﷺ) جملة من المبادئ التربوية الكريمة كانت غاية في السمو الخلقي والكمال العقلي، وذلك في تعليقه على ما صدر من بعض الصحابة، جعلت التوجيه يستقر في قلوبهم، وبقي ماثلاً أمام بصائرهم، لما ارتبط به من معان تربوية كريمة[٤٣٠]، وهذه بعض المبادئ الرفيعة التي استعملها النبي (ﷺ):

أ- تشجيع المحسن والثناء عليه:

ليزداد نشاطًا وإقبالاً على العلم والعمل، مثلما فعل مع أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، حين أثنى على قراءته وحسن صوته بالقرآن الكريم، فعن أبي موسى رضي الله عنه، أن النبي (ﷺ) قال له: **«لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة، لقد أوتيت مزمارًا من مزامير آل داود»**[٤٣١].

* كان صلوات الله وسلامه عليه يقدر ظروف الناس، ويراعي أحوالهم، ويعذرهم بجهلهم، ويتلّطف في تصحيح أخطائهم، ويترفّق في تعليمهم الصواب، ولا شك أن ذلك يملأ قلب المنصوح حبًا للرسالة وصاحبها، وحرصًا على حفظ الواقعة والتوجيه وتبليغهما، كما يجعل قلوب الحاضرين المعجبة بهذا التصرف والتوجيه الرقيق مهيأة لحفظ الواقعة بكافة ملابساتها[٤٣٢] ومن ذلك ما رواه معاوية ابن الحكم السلمي رضي الله عنه قال: (بينما أنا أصلي مع رسول الله (ﷺ) إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: وا ثُكْلَ أمِّياه[٤٣٣]! ماشأنكم تنظرون إليّ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما، رأيتهم يصمتونني، سكت، فلما صلى رسول الله (ﷺ)، فبأبي هو وأمي! ما رأيت معلِّما قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه، فوالله ما كَهَرَني[٤٣٤]، ولا ضربني،

---

(٤٢٨) انظر: مناهج وآداب الصحابة في التعلم والتعليم ص٧٤ .

(٤٢٩) أبو داود ، كتاب الطهارة ، باب كراهية استقبال القبلة عند قضاء الحاجة (١/ ٣) رقم

(٤٣٠) انظر: مناهج وآداب الصحابة في التعلم والتعليم ص٨٥ .

(٤٣١) مسلم ، كتاب صلاة المسافرين ، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن (١/ ٥٤٦) .

(٤٣٢) انظر: مناهج وآداب الصحابة ص٨٦ .

(٤٣٣) وا: حرف للنُّدبة والحسرة ، والثكل فقدان المرأة ولدها ، وأمياه: أي يا أماه .

(٤٣٤) الكَهْر والقَهْر والنَّهرُ متقاربة ، أي ما قهرني ولا نهرني .

ولاشتمني قال: «**إن هذه الصلاة لا يَصْلُح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن**» أو كما قال رسول الله (ﷺ)[٤٣٥].

فانظر - رحمك الله- إلى هذا الرفق البالغ في التعليم، وانظر أثر هذا الرفق في نفس معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه، وتأثره بحسن تعليمه (ﷺ).

جـ- عدم التصريح والاكتفاء بالتعريض فيما يذم:

لما في ذلك من مراعاة شعور المخطئ، والتأكيد على عموم التوجيه ومن ذلك ما حدث مع عبد الله بن اللّتبيّة رضي الله عنه حين استعمله النبي (ﷺ) على صدقات بني سليم، فقبل الهدايا من المتصدقين، فعن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه قال: استعمل رسول الله (ﷺ) رجلاً على صدقات بني سليم، يُدْعى ابن اللّتبيَّة، فلما جاء حاسبه، فقال: هذا ما لكم، وهذا هدية فقال رسول الله (ﷺ): «**فهلاّ جلست في بيت أبيك وأمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقًا؟**» ثم خطبنا، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «**أما بعد، فإني أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولاّني الله، فيأتي فيقول: هذا مالكم، وهذا هدية أهديت لي، أفلا جلس في بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته؟ والله لايأخذ أحد منكم شيئًا بغير حقه إلا لقي الله بحمله يوم القيامة، فلأعرفن أحدًا منكم لقي الله يحمل بعيرًا له رُغاء أو بقرة لها خُوار، أو شاةً تَيْعر**»[٤٣٦] ثم رفع يديه حتى رؤي بياض إبطيه يقول: «**اللهم بلغت. بصر عيني وسمع أذني**»[٤٣٧].

وذلك كان يحدث خطأ شرعي من أشخاص لهم حيثية خاصة، أو تجاوز الخطأ حدود الفردية والجزئية، وأخذ يمثل بداية فتنة أو انحراف عن المنهج، على أن هذا الغضب يكون غضبًا توجيهيًا، من غير إسفاف ولا إسراف، بل على قدر الحاجة ومن ذلك غضبه (ﷺ) حين أتاه عمر ومعه نسخة من التوّراة، ليقرأها عليه (ﷺ)، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى رسول الله (ﷺ) بنسخة من التوراة، فقال: يا رسول الله، هذه نسخة من التوراة، فسكت، فجعل يقرأ ووجه رسول الله يتغير، فقال أبو بكر: ثكلتك الثواكل، ما ترى بوجه رسول الله (ﷺ)؟ فنظر عمر إلى وجه رسول الله (ﷺ)، فقال: أعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله، رضينا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًا. فقال رسول الله (ﷺ): «**والذي نفس محمد بيده لو بَدا لكم موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم عن سواء السبيل، ولو كان حيا وأدرك نبوتي لاتبعني**»[٤٣٨].

ومن ذلك غضبه (ﷺ) من تطويل بعض أصحابه الصلاة وهم أئمة، بعد أن كان (ﷺ) نهى عن ذلك، لما فيه من تعسير ومشقة، ولما يؤدي إليه من فتنة لبعض الضعفاء والمعذورين

---

(٤٣٥) مسلم ، كتاب المساجد ، باب تحريم الكلام في الصلاة (١/ ٣٨١) .

(٤٣٦) الرغاء: صوت الأبل عند رفع الاحمال عليها ، الخوار: صوت البقر ، تيعر: يعنى صاحت.

(٤٣٧) البخاري ، كتاب الحيل ، باب احتيال العالم ليهدي له رقم ٦٩٧٩ .

(٤٣٨) مجمع الزوائد (١/ ١٧٣- ١٧٤) له شواهد كثيرة تقوي الحديث .

وذوي الأشغال، فعن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله، لا أكاد أدرك الصلاة مما يطول بنا فلان. فما رأيت النبي (ﷺ) في موعظة أشد غضبًا من يومئذ فقال: **«أيها الناس، إنكم منفرون، فمن صلى بالناس فليخفف، فإن فيهم المريض والضعيف وذا الحاجة»**(٤٣٩).

ومن ذلك غضبه من اختصام الصحابة وتجادلهم في القدر، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله (ﷺ) على أصحابه، وهم يختصمون في القدر، فكأنما يُفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب، فقال: **«بهذا أُمرتم؟ أو لهذا خُلقتم؟ تضربون القرآن بعضه ببعض؟ بهذا هلكت الأمم قبلكم»**(٤٤٠).

ومن ذلك غضبه (ﷺ) حين يخالف الصحابة أمره، ويصرون على المغالاة في الدين، والتشديد على أنفسهم، ظنًّا أن ذلك أفضل مما أُمروا به، وأقرب إلى الله، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله (ﷺ) إذا أمرهم من الأعمال بما يطيقون قالوا: إنا لسنا كهيئتك يا رسول الله، إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فيغضب، حتى يُعْرَفَ في وجهه الغضب، يقول: **«إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا»**(٤٤١).

ولم يكن غضب النبي (ﷺ) في تلك المواقف إلا عملاً توجيهيًا وتعليميًا، تحريضًا للصحابة على التيقظ، وتحذيرًا لهم من الوقوع في هذه الأخطاء، فالواعظ (من شأنه أن يكون في صورة الغضبان، لأن مقامه يقتضي تكلُّف الانزعاج، لأنه في صورة المنذر، وكذا المعلِّم إذا أنكر على من يتعلَّم منه سوء فهم ونحوه، لأنه قد يكون أدعى للقبول منه، وليس ذلك لازمًا في حق كل أحد، بل يختلف باختلاف أحوال المتعلِّمين)(٤٤٢).

هـ- انتهاز بعض الوقائع لبيان وتعليم معان مناسبة:

كان (ﷺ) تحدث أمامه أحداث معينة، فينتهز مشابهة ما يرى لمعنى معين يريد تعليمه للصحابة، ومشاكلته لتوجيه مناسب يريد بثَّه لأصحابه، وعندئذ يكون هذا المعنى، وذلك التوجيه أوضح ما يكون في نفوسهم رضوان الله عليهم ومن ذلك ما رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قدم على النبي (ﷺ) سبيٌ(٤٤٣)، فإذا امرأة في السَّبي تحلَّب ثدياها(٤٤٤) تسعى(٤٤٥)، إذ وجدت صبيًا في السَّبي، أخذته فألصقته ببطنها، وأرضعته، فقال لنا النبي (ﷺ): **«أتُرَوْن هذه طارحة ولدها في النار؟»** قلنا: لا، وهي تقدر على ألا تطرحه(٤٤٦)

(٤٣٩) البخاري، كتاب العلم، باب الغضب في الموعظة والتعليم (١/ ١٨٦) رقم ٩٠.

(٤٤٠) مقدمة ابن ماجه باب في القدر (١/ ٣٣) رقم ٨٥.

(٤٤١) البخاري، كتاب الإيمان، باب: أقوال النبي: (أنا أعلمكم بالله) (١/ ٧٠) رقم ٢٠.

(٤٤٢) فتح الباري (١/ ١٨٧).

(٤٤٣) السَّبي: الأسرى.

(٤٤٤) تَحلَّب ثديها: أي تهيأ لأن يحلبا.

(٤٤٥) تسعى: من السَّعي، وهو المشي بسرعة.

(٤٤٦) أي لا تطرحه ما دامت تقدر على حفظه معها ووقايته وعدم طرحه في النار.

فقال: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها»(٤٤٧).

(فانتهز (ﷺ) المناسبة القائمة بين يديه مع أصحابه، المشهود فيها حنان الأم الفاقدة على رضيعها إذ وجدته، وضرب بها المشاكلة والمشابهة برحمة الله (تعالى) ليعرِّف الناس رحمة رب الناس بعباده)(٤٤٨).

ثانيًا: من أخلاق الصحابة عند سماعهم للنبي (ﷺ):

حرص الصحابة رضوان الله عليهم على الالتزام بآداب ومبادئ مهمة، كان لها عظيم الأثر في حسن الحفظ وتمام الضبط وقدرتهم في تبليغ دعوة الله للناس، ومن هذه الآداب والأخلاق:

١- الإنصات التام وحسن السماع:

فقد كان رسول الله (ﷺ) أجل في نفوس الصحابة وأعظم من أن يلغوا إذا تحدث، أو ينشغلوا عنه إذا تكلم، أو يرفعوا أصواتهم بحضرته وإنما كانوا يلقون إليه أسماعهم ويشهدون عقولهم وقلوبهم، ويحفزون ذاكرتهم، فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الحديث عن سيرته (ﷺ) في جلسائه قال: (.. وإذا تكلم أطرق جلساؤه، كأنما على رؤوسهم الطير، فإذا سكت تكلموا...)(٤٤٩).

قال الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله: (أصله: أن الغراب يقع على رأس البعير، فيلقط منه القُراد، فلا يتحرك البعير حينئذ، لئلا ينفر عنه الغراب ويبقى القراد في رأس البعير فيؤلمه، فقيل منه: كأن على رؤوسهم الطير)(٤٥٠).

وأيًا ما كان أصل المثل فهو يدل على السكون التام، والإنصات الكامل، هيبة لرسول الله (ﷺ)، وتعظيمًا له، وإجلالاً لحديثه(٤٥١).

٢- ترك التنازع وعدم مقاطعة المتحدث حتى يفرغ:

وهذا من تمام الأدب، المفضي إلى ارتياح جميع الجالسين، وإقبال بعضهم على بعض، والمعين على سهولة الفهم، والتعلم ففي حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه السابق في سيرته (ﷺ) في جلسائه، قال: (لا يتنازعون عنده الحديث، من تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ، حديثهم عنده حديث أولهم..)(٤٥٢) أي أن من بدأ منهم الحديث والكلام سكتوا حتى

---

(٤٤٧) البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وقبلته ومعانقته رقم ٥٩٩٩.

(٤٤٨) الرسول المعلم، عبد الفتاح أبو غدة ص١٦٠.

هذا المبحث اختصرته من مناهج وآداب الصحابة في التعلم والتعليم للدكتور عبد الرحمن البر.

(٤٤٩) الترمذي في الشمائل المحمدية، باب ما جاء في خلق رسول الله رقم ٣٣٥.

(٤٥٠) انظر: الرسول المعلم وأساليبه في التعليم ص٣٠.

(٤٥١) انظر: مناهج وآداب الصحابة ص٧٧.

(٤٥٢) الترمذي في الشمائل المحمدية، باب ما جاء في خلق رسول الله، رقم ٣٣٥.

يفرغ أولاً من حديثه، ولم يقاطعوه أو ينازعوه، وبذلك يبقى المجلس على وقاره وهيبته، ولا تختلط فيه الأصوات، ولا يحصل أدنى تشويش[٤٥٣].

٣- مراجعته (ﷺ) فيما أشكل عليهم حتى يتبين لهم:

فمع كمال هيبتهم لرسول الله (ﷺ) وشدة تعظيمهم له، لم يكونوا يترددون في مراجعته (ﷺ) لاستيضاح ما أشكل عليهم فهمه، حتى يسهل حفظه بعد ذلك، ولا شك أن هذه المراجعة تعين على تمام الفهم وحضور الوعي، فمن ذلك حديث حفصة رضي الله عنها قالت: قال النبي (ﷺ): «**إني لأرجو ألا يدخل النار أحد إن شاء الله ممن شهد بدراً والحديبية**». قالت: قلت: يا رسول الله، أليس قد قال الله: ﴿**وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا**﴾ (سورة مريم، آية: ٧١) قال: «ألم تسمعيه يقول: ﴿ **ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا** ﴾[٤٥٤](سورة مريم، آية: ٧٢)».

ومن ذلك حديث جابر بن عبد الله، عن عبد الله بن أنيس، رضي الله عنهم، الذي رحل جابر إليه فيه، قال ابن أنيس: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «**يحشر الله العباد - أو قال: الناس - عراةً غرلاً[٤٥٥] بُهْمًا**» قال: قلنا: ما بُهْمًا؟ قال: «**ليس معهم شيءٌ، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بَعُد، كما يسمعه من قَرُب: أنا الملك، أنا الديّان، لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة، ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار، وعنده مظلمة، حتى أُقصَّه[٤٥٦] منه، حتى اللطمة**». قال: قلنا: كيف ذا وإنما نأتي الله غُرلاً بُهْمًا؟ قال: «**بالحسنات والسيئات**».

قال: وتلا رسول الله (ﷺ) ﴿**الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾ [٤٥٧] (سورة غافر، آية: ١٧).

وهكذا استفهم الصحابة عما خفي عليهم، واستوضحوا ما أشكل عليهم فهمه وهذه المناقشة والمراجعة كان لها أثر كبير في الفهم والوعي والحفظ[٤٥٨].

٤- مذاكرة الحديث:

كان الصحابة رضوان الله عليهم إذا سمعوا شيئًا من النبي (ﷺ) وحملوا عنه علمًا، جلسوا فتذاكروه، فيما بينهم، وتراجعوه على ألسنتهم، تأكيداً لحفظه، وتقوية لاستيعابه وضبطه والعمل به، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (كنا نكون عند النبي (ﷺ)،

---

(٤٥٣) انظر: مناهج وآداب الصحابة ص٧٨.

(٤٥٤) ابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر البعث (٢/ ١٤٣١).

(٤٥٥) غُرلا: جمع أغرَل، وهو الأقلف والغرلة: القُلفة، والقُلفة: هي القطعة التي تقطع من الذكر عند الختان.

(٤٥٦) أقصَّه: أمكّنه من أخذ القصاص ممن ظلمه.

(٤٥٧) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٣٧) وصححه ووافقه الذهبي.

(٤٥٨) انظر: مناهج وآداب الصحابة ص٨٠.

فنسمع منه الحديث، فإذا قمنا تذاكرناه فيما بيننا حتى نحفظه)[٤٥٩]، وقد بقي مبدأ المذاكرة قائمًا بين الصحابة حتى بعد وفاته (ﷺ)، فعن أبي نضرة المنذر بن مالك بن قطعة رحمه الله قال: (كان أصحاب رسول الله (ﷺ) إذا اجتمعوا تذاكروا العلم، وقرؤوا سوره)[٤٦٠].

٥- السؤال بقصد العلم والعمل [٤٦١]:

كانت أسئلة الصحابة بقصد العلم والعمل، لا للعبث واللعب، فكانت أسئلتهم مشفوعة بهذا القصد، لما علموا من كرهة النبي (ﷺ) للمسائل العبثية التي لا يحتاج إليها، ولما سمعوا من تحذيره (ﷺ) من كثرة السؤال، فعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: (كَرِه رسول الله (ﷺ) المسائل وعَابَها)[٤٦٢].

قال النووي: (المراد: كراهة المسائل التي لا يحتاج إليها، لا سيما ما كان فيه هتك ستر مسلم، أو إشاعة فاحشة أو شناعة على مسلم أو مسلمة قال العلماء: أما إذا كانت المسائل مما يُحتاج إليه في أمور الدين، وقد وقع، فلا كراهة فيها)[٤٦٣].

٦- ترك التنطع وعدم السؤال عن المتشابه:

وذلك تطبيقًا لتحذير النبي (ﷺ) من ذلك، وتشديده على المتنطعين، ونهيه عن مجالستهم، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسول الله (ﷺ) هذه الآية: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ**﴾ (سورة آل عمران، آية: ٧) فقال رسول الله (ﷺ): «**فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم**»[٤٦٤].

٧- ترك السؤال عما سكت عنه الشارع:

فقد التزموا رضوان الله عليهم بهذا الأدب، فلم يتكلفوا السؤال عما سكت عنه الشارع، حتى لا يؤدي السؤال عن ذلك إلى إيجاب ما لم يوجبه الشرع، أو تحريم ما لم يحرمه، فيكون السؤال قد أفضى إلى التضييق على المسلمين، كما قال (تعالى): ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللّهُ عَنْهَا وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ * قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَافِرِينَ**﴾ (سورة المائدة، آية: ١٠١- ١٠٢).

(٤٥٩) أخرجه الخطيب في الجامع (١/٣٦٣- ٣٦٤) وفيه يزيد الرقاشي وهو ضعيف .
(٤٦٠) أخرجه الخطيب في الجامع (٢/٨٦) رقم ١٢٢٩ ،والسمعاني في أدب الأملاء والاستملاء ص٤٨ ,
(٤٦١) انظر: مناهج وآداب الصحابة ص٩٦ .
(٤٦٢) أخرجه أبو خيثمة زهير بن حرب بإسناد صحيح في كتاب العلم ص٢٠ رقم ٧٧ .
(٤٦٣) شرح النووي على مسلم(٣/٧٤١) طبعة الشعب .
(٤٦٤) البخاري ، كتاب التفسير ، سورة آل عمران رقم ٤٥٤٧ .

وحذر الرسول (ﷺ) من مثل ذلك، فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسـول الله (ﷺ): «**إن أعظم المسلمين جرمًا من سأل عن شيء لم يحرم، فحرم من أجل مسألته**»[٤٦٥].

٨- اغتنام خلوة رسول الله (ﷺ) ومراعاة وقت سؤاله:

كان الصحابة رضي الله عنهم يراعون الوقت المناسب للسؤال، ومن ذلك اغتنام ساعة خلوته (ﷺ)، حتى لا يكون في السؤال إثقال أو إرهاق أو نحو ذلك، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: (كان النبي (ﷺ) إذا صلى الفجر انحرفنا إليه، فمنَّا من يسأله عن القرآن، ومنا من يسأله عن الفرائض، ومنا من يسأله عن الرؤيا)[٤٦٦].

٩- مراعاة أحواله (ﷺ) وعدم الإلحاح عليه بالسؤال:

وبخاصة بعد أن نُهوا عن السؤال، ولذلك كانوا يدفعون الأعراب لسؤاله (ﷺ)، ويتحينون وينتظرون مجيء العقلاء منهم، ليسألوا رسول الله (ﷺ) وهم يسمعون، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (نهينا أن نسأل رسول الله (ﷺ) عن شيء، فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل، فيسأله ونحن نسمع، فجاء رجل من أهل البادية فقال: يا محمد، أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك قال: «**صدق**»... الحديث[٤٦٧].

وهكذا استمر البناء التربوي في المجتمع الجديد من خلال المواقف العملية الواضحة منسجمًا مع غرس فريضة التعلم والتعليم بين أفراد المجتمع المسلم، فكانت تلك التوجيهات تساهم في إعداد الفرد المسلم، والأمة المسلمة، والدولة المسلمة التي أسسها رسول الله (ﷺ) وهذا جزء من كل، وغيض من فيض، وتذكير وتنبيه لأهمية استمرار البناء التربوي والعلمي في الأمة حتى بعد قيام الدولة.

●●●

---

(٤٦٥) الدارمي في مقدمته، باب من هاب الفتيا وكره التنطع (١/ ٦٥) رقم ١٣٨.

(٤٦٦) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٥٩): رواه الطبراني في الكبير، وفيه محمد بن عمر الرومي، ضعفه أبو داود وأبو زرعة، ووثقه ابن حبان.

(٤٦٧) مسلم، كتاب الإيمان، باب السؤال عن أركان الإسلام (١/ ٤١، ٤٢).



المبحث السادس

أحداث وتشريعات

أولاً: معالجة الأزمة الاقتصادية:

أدّت هجرة المسلمين إلى المدينة إلى زيادة الأعباء الاقتصادية الملقاة على عاتق الدولة الناشئة، وشرع القائد الأعلى (ﷺ) لحل هذه الأزمة بطرق عديدة، وأساليب متنوعة، فكان نظام المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وبناء الصفة التابعة للمسجد النبوي لاستيعاب أكبر عدد ممكن من فقراء المهاجرين، واهتم (ﷺ) بدراسة الأوضاع الاقتصادية في المدينة، فرأى أن القوة الاقتصادية بيد اليهود، وأنهم يملكون السوق التجارية في المدينة وأموالها، ويتحكمون في الأسعار والسلع ويحتكرونها، ويستغلون حاجة الناس، فكان لا بد من بناء سوق للمسلمين لينافسوا اليهود على مصادر الثروة والاقتصاد في المدينة، وتظهر فيها آداب الإسلام وأخلاقه الرفيعة في عالم التجارة، فحدد (ﷺ) مكانًا للسوق في غرب المسجد النبوي وخطه برجله، وقال: «**هذا سوقكم فلا ينتقصن ولا يضربن عليه خراج**»(٤٦٨).

وقد قامت السوق في عهده (ﷺ) رحبة واسعة، وقد حظى السوق باهتمام النبي (ﷺ)، ورعايته، فتعهده بالإشراف والمراقبة، ووضع له ضوابطًا وسن له آدابًا، وطهره من كثير من بيوع الجاهلية المشتملة على الغبن، والغرر، والغش، والخداع، كما عني (ﷺ) بحريته، وإتاحة الفرص المتكافئة فيها للبيع والشراء بين الجميع على السواء(٤٦٩).

وقد أرسى (ﷺ) آداب كثيرة، وحرمات عديدة لسوق المدينة لكي تصان ولا تنتهك، وتحفظ فلا تخدش، ولا يستهان بها، ولكي يصبح قدوة لأسواق الأمة على مر الدهور، وكر العصور، وتوالي الأزمان، فمن سيرته يمكننا أن نستنبط جملة من الآداب التي كان يأمر بها أو ينهي عنها أثناء دخوله إلى السوق وإشرافه عليه، ومتابعته سير المعاملات فيه، فقد كان (ﷺ) لا يرى منكرًا إلا غيره وأزاله، ولامعروفًا إلا أقره ورغب في المواظبة عليه، والالتزام به، مستمدًا كل ذلك من توجيهات وتعليمات ربه - سبحانه وتعالى- قال (تعالى): ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى**﴾ (سورة النجم، آية: ٣- ٤).

ومن هذه الآداب:

١- يسن في حق الداخل إلى السوق أن يذكر الله- (تعالى)- ابتداءً ويحمده ويثني عليه، وذلك لما ورد عنه (ﷺ) أنه قال: «**من دخل السوق فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيى ويميت وهو حي لا يموت، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة، ورفع له ألف ألف درجة، وبنى له بيتًا في الجنة**»(٤٧٠).

---

(٤٦٨) ابن ماجه، كتاب التجارات، باب الأسواق (٢/ ٧٥١).

(٤٦٩) انظر: أحكام السوق في الإسلام، أحمد الدريويش ص٣٥، ٣٦.

(٤٧٠) سنن الترمذي، أبواب الدعوات، باب ما يقول إذا دخل السوق (٥/ ١٥٥، ١٥٦) قال المنذري في الترغيب: وإسناده متصل حسن، ورواته ثقات أثبات.

(وإنما خص السوق بالذكر، لأنه مكان الغفلة عن ذكر الله والاشتغال بالتجارة، فهو في موضع سلطنة الشيطان، ومجمع جنوده، فالذكر هنا يحارب الشيطان، ويهزم جنوده، فمن قال ذلك فهو خليق بما ذكر من الثواب)[٤٧١].

٢- يكره لمن دخل السوق أن يرفع صوته بالخصام واللجاج فقد ورد في صفته (ﷺ) (أنه ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صخاب[٤٧٢] في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر)[٤٧٣].

فالصخب مذموم بذاته فكيف إذا كان في الأسواق؟ التي هي مجمع الناس من كل جنس[٤٧٤].

٣- ينبغي المحافظة على نظافة الأسواق، والابتعاد عن تلويثها بالأقذار والأوساخ، لكي لا يؤذي المسلمين في حركة سيرهم، ولا بالروائح الكريهة، وقد حث (ﷺ) على النظافة، ونهى عن عدمها وخاصة في طرقات الناس وأسواقهم، وذلك لما فيها من الضرر، قال (ﷺ): **«اتقوا اللاعنين[٤٧٥]**، قالوا: وما اللاعنين، يا رسول الله؟ قال: **«الذي يتخلى في طريق الناس، أو في ظلهم»**[٤٧٦].

٤- الاحتراز في حمل السلاح لمن دخل السوق ومعه سلاح، فقد ثبت عنه (ﷺ) أنه قال: **«إذا مر أحدكم في مسجدنا أو في سوقنا ومعه نبل[٤٧٧] فليمسك على نصلها[٤٧٨] أو قال: فليقبض بكفه أن يصيب أحد من المسلمين منها بشيء»** [٤٧٩]، ويقاس فيه الأسلحة، مع ما فيها من خطر محقق عند أدنى ملامسة لها[٤٨٠].

٥- الأمر بالوفاء بالعقود، والعهود وسائر الالتزامات، والتحذير من نقضها أو الغدر فيهم، قال (تعالى): **﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾** (سورة النحل، آية: ٩١).

٦- السهولة واليسر والمسامحة في البيع والشراء ونحوهما من صنوف التجارة، قال (ﷺ): **«رحم الله عبدا سمحًا إذا باع، سمحًا إذا اشترى، سمحًا إذا اقتضى»**[٤٨١].

---

(٤٧١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي (٩/ ٣٨٦).
(٤٧٢) صخاب: بمعنى الصياح.
(٤٧٣) البخاري، كتاب البيوع، باب كراهية الصخب في الأسواق(٢/ ١٤).
(٤٧٤) انظر: أحكام السوق في الإسلام ص ٤١.
(٤٧٥) اللاعنين: أي الأمرين الجالبين للعن.
(٤٧٦) مسلم، كتاب الطهارة، باب مواضع النهي عن البول فيها.
(٤٧٧) النبل: السهام العربية ولا واحد لها من لفظها.
(٤٧٨) النصل: حديدة السهم والرمح والسيف ما لم يكن له مقبض.
(٤٧٩) البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي: من حمل علينا سلاحنا (٤/ ٢٢٤).
(٤٨٠) انظر: أحكام السوق ص٤٤.
(٤٨١) موطأ الإمام مالك، باب جامع البيوع (٢/ ٦٨٥).

٧- الصدق والبيان وعدم الكتمان، من أهم الآداب التي يجب أن تسري بين الناس في معاملاتهم، فقد أثنى (ﷺ) على التاجر الصادق في معاملته، الأمين في أخذه وعطائه، وبين أنه يحشر يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقًا، قال (ﷺ): «**التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء**» وفي لفظ: «**يوم القيامة**»[٤٨٢].

٨- وجوب الابتعاد عن الأيمان الكاذبة، فقد قال (ﷺ): «**الحلف منفقة**[٤٨٣] **للسلعة، ممحقة للربح**» وفي لفظ: «**ممحقة للبركة**»[٤٨٤].

وقال (ﷺ): «**إياكم وكثرة الحلف في البيع؛ فإنه ينفق ثم يمحق**»[٤٨٥].

(فالحالف يروج سلعته وينفقها لكن هذا الرواج، وذلك الإنفاق موضع لنقصان البركة، ومظنة له في المال، بأن يسلط الله عليه وجوها يتلف فيها إما سرقًا، أو حرقًا، أو غرقًا، أو غضبًا، أو نهبًا، أو عوارض ينفق فيها من أمراض وغيرها)[٤٨٦].

هذه بعض الآداب والتوجيهات النبوية تتعلق بآداب التعامل في السوق الإسلامي، مما كان لها الأثر في تعمير أسواق المسلمين وضعف أسواق اليهود وبذلك استطاع المسلمون أن يسيطروا على الاقتصاد في المدينة، ويتحكموا فيه، وهكذا قهروا اليهود في أدق اختصاصاتهم[٤٨٧].

ولقد تطورت تلك التعاليم والآداب مع توسع الدولة ونزول التشريعات وأصبح للتجارة علم وفقه ومبادئ، ولذلك قال عمر رضي الله عنه: (لا يبيع في سوقنا إلا من تفقه في الدين)[٤٨٨].

إن للأسواق في الإسلام مكانة عالية، ومنزلة سامية، وذلك نظرًا لأهميتها المالية والاقتصادية في حياة الناس، حيث إنه موضع التعامل والمبادلات فيما بينهم، وعن طريقه يحصل كل فرد على أموره المعيشية، وحاجته الضرورية، ومستلزماته الخاصة والعامة، ولذلك حظى السوق الإسلامي بالتوجيهات النبوية[٤٨٩].

ولقد تحدث القرآن الكريم عن آفة اقتصادية واجتماعية خطيرة أثرت على دين الناس ودنياهم ألا وهي نقص الميزان والمكيال، فقد كان هذا العمل يخالف ويناقض النهج الذي أنزله الله من عنده ليتعامل الناس بمقتضاه، ذلك النهج هو العدل في كل شيء، قال

(٤٨٢) سنن الترمذي، كتاب البيوع (٢/ ٣٤١- ٣٤٢).
(٤٨٣) منفقة: أي مظنة لنفاقها وموضع له.
(٤٨٤) مسلم، كتاب المساقاة، باب النهي عن الحلف (٣/ ١٢٢٨).
(٤٨٥) نفس المصدر (٣/ ١٢٢٨).
(٤٨٦) شرح السيوطي على سنن النسائي.
(٤٨٧) في ظلال السيرة النبوية، الهجرة النبوية، لأبي فارس ص٧٠.
(٤٨٨) انظر: أحكام السوق في الإسلام ص٥٣.
(٤٨٩) نفس المصدر ص٥٨٥، ٥٨٦.

(تعالى): ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ (سورة الشورى، آية: ١٧) والميزان هو العدل[٤٩٠]، والموازين والمكاييل آلات لإقامة العدل، ولذا أمر الله بإيفائها، ونهى عن نقصها، قال (تعالى): ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (سورة الأنعام، آية: ١٥٢).

وقال (تعالى): ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِالقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ (سورة الإسراء، آية: ٣٥).

وتوعد الله المطففين بالويل، فقال (تعالى): ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (سورة المطففين، آية: ١- ٥).

فتعلم الصحابة رضي الله عنهم من قصة شعيب أن نقص الميزان والمكيال تعطيل للمنهج الإلهي، ومخالفة للأوامر الربانية، وتعرض لسخط الجبار وعذابه في الدنيا والآخرة.

إن هذا العمل له ضرره على دنيا الناس؛ لأنه يجلب الشدة بدل الرخاء، وغلاء الأسعار بدل رخصها، ويؤدي إلى أضرار على معايش الناس ولذلك حاربته الدولة الإسلامية في المدينة[٤٩١].

إن نقص المكيال والميزان كان من الأسباب التي أدت إلى هلاك قوم شعيب قال (تعالى): ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ (سورة هود، آية: ٩٥).

كانت قصة شعيب مع قومه من ضمن المنهاج النبوي في تربية النبي (ﷺ) لأصحابه؛ ولذلك فهموا أن الانحراف عن المنهج الرباني معناه الدمار والهلاك، وأن شمولية هذا الدين تدخل في كافة شؤون حياتهم.

إن المنهج الرباني عالج المشكلة الاقتصادية عن طريق القصص القرآني؛ لكي يتعظ الناس ويعتبروا بمن مضى من الأقوام، ولم يترك الجانب التشريعي التعبدي الذي له أثر في البناء التنظيمي التربوي، فقد كان المولى (عز وجل) يرعى هذه الأمة وينقل خطاها لكي تكون مؤهلة لحمل الأمانة وتبليغ الرسالة ولا فرق في وسط هذه الدولة بين الأمور الصغيرة والأمور الكبيرة؛ لأنها كلها تعمل لرفع بنائها، ووقوفها شامخة أمام الأعاصير التي تحتمل مواجهتها، ومن هذه الشعائر التعبدية التي فرضت في السنتين الأولى والثانية من الهجرة، الزكاة، وزكاة الفطر، والصيام ونلاحظ سنة التدرج في بناء المجتمع المسلم ومراعاته لواقع الناس، والانتقال بهم نحو الأفضل دون اعتساف أو تعجيل، بل كل شيء في وقته[٤٩٢].

(٤٩٠) انظر: زاد المسير لابن الجوزي (٧/ ٧٧).

(٤٩١) انظر: أسباب هلال الأمم السالفة، سعيد محمد ص٤٤٦.

(٤٩٢) انظر: دراسات في عصر النبوة للشجاع ص١٦٦، ١٦٨.

ثانيًا: بعض التشريعات:

١- تشريع فريضة الصيام:

في السنة الثانية للهجرة من شهر شعبان فرض الله (تعالى) فريضة الصيام وجعله ركنًا من أركان الإسلام، كما فرضه على الأمم السابقة، وفي ذلك تأكيد على أهمية هذه العبادة الجليلة ومكانتها:

قال (تعالى): ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ (سورة البقرة، آية: ١٨٣).

وامتدح الله سبحانه شهر الصيام واختصه من بين سائر الشهور لإنزال القرآن العظيم، فقال (عز وجل): ﴿ **شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ (سورة البقرة، آية: ١٨٥).

وقد وضحت الآية الكريمة الثمرة العظمى التي يحظى بها الصائمون المخلصون، ألا وهي بلوغ درجة التقوى: ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ فالصيام بالنسبة للأمة المسلمة مدرسة فريدة، ودورة تدريبية على طهارة النفوس لكي تنخلع من آفاتها وتتحلى بالفضائل، وترتقي في مدارج التقوى والصلاح(٤٩٣).

ولأهمية الصيام في تربية المجتمع المسلم، فقد رغَّب النبي (ﷺ) في أيام للصيام وحث على صيامها، ورغب في الأجر والمثوبة من الله (تعالى)، وبذلك أصبحت مدرسة الصيام مفتوحة أبوابها طيلة السنة؛ لكي يبادر المسلم إليها كلما أحسَّ بقسوة في قلبه وحاجة لترويض نفسه ورغبة في المزيد من الأجر والفضل عند الله سبحانه(٤٩٤) وقد جاء في الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله (ﷺ): «**لا يصوم عبد مسلم يومًا في سبيل الله، إلا باعد الله بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفًا**»(٤٩٥).

٢- تشريع زكاة الفطر:

وفي رمضان من نفس العام شرع الله سبحانه وتعالى زكاة الفطر وهي على كل حر أو عبد، وذكر أو أنثى، وصغير أو كبير من المسلمين، والحكمة من فرضية هذه الزكاة وإلزام المسلمين بها ظاهرة وجلية، قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: (فرض رسول الله (ﷺ) زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث، وطعمة للمساكين، من أداها قبل الصلاة فهي زكاة مقبولة، ومن أداها بعد الصلاة فهي صدقة من الصدقات)(٤٩٦) ففي هذا الحديث

---

(٤٩٣) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/١٠٦)، ومنهج الإسلام في تزكية النفس.

(٤٩٤) انظر: منهج الإسلام في تزكية النفس (١/٢٦٨، ٢٦٩).

(٤٩٥) البخاري، كتاب الجهاد، باب فضل الصوم في سبيل الله (٣/٢١٣).

(٤٩٦) أبو داود، كتاب الزكاة، باب زكاة الفطر رقم ١٦٠٩.

النص على أن الحكمة مركبة من أمرين:

أ- يتعلق بالصوم في شهر رمضان، فإن النفوس مجبولة على الخطأ والتقصير والوقوع في لغو القول الذي لا فائدة فيه، أو فيه ضرر، من الكلام الباطل ونحو ذلك، مما لا يسلم الإنسان منه غالبًا، فجاءت هذه الزكاة في ختام الشهر تطهيرًا للصائم مما خالط صومه من ذلك.

ب- إغناء المحتاج في يوم العيد الذي يعقب الفطر من رمضان، فهذا يوم يسعد فيه المجتمع المسلم كله، فينبغي أن يعم هذا السرور على الجميع، فشرعت هذه الزكاة لكف هؤلاء عن ذلّ السؤال واستجداء الناس، لذلك كانت خاصة بالفقراء والمساكين لا تعطى لغيرهم، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما المتقدم: (طعمة للمساكين) ولذلك نرى أن رسول الله (ﷺ) لم يجعلها شيئًا كثيرًا يعجز كثير من الناس عنه، بل جعل الواجب شيئًا قليلاً، مما يسهل على الناس ولا يشق عليهم، من غالب قوت البلد، حتى يتمكن من أدائها كثير من المسلمين، فيحصل الغناء بذلك لهؤلاء المحتاجين، فما أعظم هذا الدين[٤٩٧] ولهذه الزكاة أحكام وتفصيلات تُطلب من كتب الفقه[٤٩٨].

٣- صلاة العيد:

وفي هذه السنة صلى النبي (ﷺ) صلاة العيد، فكانت أول صلاة صلاها، وخرج بالناس إلى المصلى يهلّلون الله، و يكبّرونه، ويعظّمونه شكرًا لله على ما أفاء عليهم من النعم المتتالية.

فالعيد موسم من مواسم الخير والتعاطف والتحابب، وكان من دأب رسول الله (ﷺ) أنه إذا صلّى العيد ذكّر وأنذر، ورغّب ورهّب، فيتسابق في مضمار البذل والعطاء الرجال والنساء والصغار والكبار[٤٩٩].

٤- تشريع الزكاة:

وفي السنة الثانية للهجرة شرع الله الزكاة التي هي ركن من أركان الإسلام، وكان ذلك بعد شهر رمضان، لأن تشريع الزكاة العامة كان بعد زكاة الفطر، وزكاة الفطر كانت بعد فرض صيام رمضان قطعًا، يدل على هذا ما رواه الأئمة أحمد وابن خزيمة والنسائي وابن ماجه والحاكم من حديث قيس بن سعد بن عبادة قال: (أمرنا رسول الله (ﷺ) بصدقة الفطر قبل أن تنزل الزكاة، ثم نزلت فريضة الزكاة، فلم يأمرنا ولم ينهنا ونحن نفعله)[٥٠٠] قال الحافظ ابن حجر: إسناده صحيح[٥٠١] وجمهور العلماء سلفًا وخلفًا على أن مشروعية الزكاة

---

(٤٩٧) انظر: المال في القرآن الكريم، سليمان الحصن ص٣٣٤.
(٤٩٨) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ١٠٩).
(٤٩٩) نفس المصدر (٢/ ١١٠).
(٥٠٠) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ١١١).
(٥٠١) فتح الباري (٣/ ٢٠٧).

إنما كانت بالمدينة في السنة الثانية[٥٠٢].

فالزكاة في العهد المكي كانت مطلقة من القيود والحدود وكانت موكولة إلى إيمان الأفراد وأريحتهم وشعورهم بواجب الأخوة نحو إخوانهم من المؤمنين، فقد يكفي في ذلك القليل من المال، وقد تقتضي الحاجة بذل الكثير أو الأكثر[٥٠٣].

فكانت الآيات المكية تهتم بجانب التربية والتوجيه وتحث على رعاية الفقراء والمساكين بأساليب متنوعة منها، إطعام المساكين من لوازم الإيمان، ففي سورة (المدثر) وهي من أوائل ما نزل من القرآن يعرض القرآن الكريم مشهدًا من مشاهد الآخرة، مشهد أصحاب اليمين من المؤمنين في جنّاتهم يتساءلون عن المجرمين من الكفرة، وقد أطبقت عليهم النيران، فيسألونهم عما أحلّ بهم هذا العذاب، فكان من أسبابه وموجباته: إهمال حق المسكين، وتركه لأنياب الجوع والعرى تنهشه وهم عنه معرضون[٥٠٤]، قال (تعالى): ﴿**كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ * فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ**﴾ (سورة المدثر، آية: ٣٨- ٤٦)

وقصّ الله على عباده قصة أصحاب الجنة الذين تواعدوا أن يقطفوا ثمارها بليل، ليحرموا منها المساكين الذين اعتادوا أن يصيبوا شيئًا من خيرها يوم الحصاد، فحلت بهم عقوبة الله العاجلة: ﴿**فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ * فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ * فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ * أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ * وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ * فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ * قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ * عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ * كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾ (سورة القلم، آية: ١٩- ٣٣).

ولم تقف عناية القرآن المكي عند الدعوة إلى الرحمة بالمسكين، والترغيب في إطعامه ورعايته، والترهيب من إهماله والقسوة عليه، بل تجاوز ذلك، فجعل في عنق كل مؤمن حقا للمسكين، أن يحض غيره على إطعامه ورعايته، وجعل ترك هذا الحض قرين الكفر بالله العظيم، وموجبًا لسخطه سبحانه وعذابه في الآخرة قال (تعالى) في شأن أصحاب (الشمال) من سورة الحاقة: ﴿**خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ**﴾ (سورة الحاقة، الآيات: ٣٠- ٣٢).

ولم كل هذا العذاب والهوان والخزي على رؤوس الأشهاد؟: ﴿**إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ**

(٥٠٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ١١١).
(٥٠٣) انظر: فقه الزكاة للقرضاوي (١/ ٧٧).
(٥٠٤) انظر: فقه الزكاة (١/ ٧٠).

العَظِيمِ *وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ المِسْكِينِ﴾ (سورة الحاقة، آية: ٣٣- ٣٤).

وهذه الآيات المزلزلة للقلوب، المنذرة بالعذاب هي التي جعلت مثل أبي الدرداء رضي الله عنه يقول لامرأته: (يا أم الدرداء! إن لله سلسلة ولم تزل تغلي بها مراجل النار منذ خلق الله جهنم، إلى يوم تُلقى في أعناق الناس، وقد نجانا الله من نصفها بإيماننا بالله العظيم، فحُضِّي على طعام المسكين يا أم الدرداء)[٥٠٥].

أما القرآن المدني، فقد نزل بعد أن أصبح للمسلمين جماعة لها أرض وكيان وسلطان، فلهذا اتخذت التكاليف الإسلامية صورة جديدة ملائمة لهذا الطور: صور التحديد والتخصيص، بعد الإطلاق والتعميم، صورة قوانين إلزامية بعد أن كانت وصايا توجيهية فحسب، وأصبحت تعتمد في تنفيذها على القوة والسلطان، مع اعتمادها على الضمير والإيمان، وظهر هذا الإتجاه المدني في الزكاة: فحدد الشارع الأموال التي تجب فيها، وشروط وجوبها، والمقادير الواجبة، والجهات التي تُصرف لها وفيها، والجهاز الذي يقوم على تنظيمها وإدارتها[٥٠٦]، وأكد النبي (ﷺ) في المدينة فريضة الزكاة، وبين مكانها في دين الله، وأنها أحد الأركان الأساسية لهذا الدين، ورغّب في أدائها، ورهّب من منعها بأحاديث شتّى وأساليب متنوعة، وأعلن الرسول عليه السلام في أحاديثه أن أركان الإسلام خمسة، بدأها بالشهادتين، وثنّاها بالصلاة، وثلثها بالزكاة، فالزكاة في السُّنة - كما هي في القرآن- ثالثة دعائم الإسلام، التي لا يقوم بناؤه إلا بها، ولا يرتكز إلا عليها[٥٠٧] وعندما طبّق المسلمون هذا الركن كما أمر الله (تعالى) وكما شرع رسوله (ﷺ)، تحققت أهداف عظيمة في المجتمع وبرزت آثارها في حياة الفرد والمجتمع فمن آثار الزكاة على الفرد:

أ- الوقاية من الشح:

قال (تعالى): ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (سورة الحشر، آية: ٩).

ب- تنمية المال وزيادته:

قال (تعالى): ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (سورة سبأ، آية: ٣٩). وقال (تعالى): ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (سورة إبراهيم، آية: ٧).

وقال (تعالى): ﴿يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ (سورة البقرة، آية: ٢٧٦)

---

(٥٠٥) الأموال ص٣٥ نقلاً عن فقه الزكاة (١/ ٧٠).

(٥٠٦) انظر: فقه الزكاة (١/ ٧٨).

(٥٠٧) نفس المصدر (١/ ٨٩).

وقال (ﷺ): «ما نقص مال من صدقة»[٥٠٨].

وقال (ﷺ): «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: (اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا»[٥٠٩].

وهكذا يتم تطهير نفس المسلم من آفة الشح والبخل، ويسارع إلى الإنفاق موقنًا بفضل الله ووعده الذي لا يتخلف بالرزق الواسع[٥١٠].

جـ- حصول الأمن في الدنيا والآخرة:

قال (تعالى): ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (سورة البقرة، آية: ٢٧٤).

فهم في أمن وسعادة وراحة بال، لأنهم أدوا ما أمرهم الله (تعالى) به، وانتهوا عما نهاهم الله عنه.

ومن آثار الزكاة على المجتمع، حصول المحبة بين الأغنياء والفقراء وشيوع الأمن والطمأنينة في أوساطه، وشعور الأفراد فيما بينهم أنهم كالجسد الواحد قال (ﷺ): «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[٥١١].

ومن الآثار أيضًا: حفظ التوازن الاجتماعي[٥١٢].

عندما كانت الزكاة تجمع من كل من تجب عليه، وتنفق في سبلها المشروعة في صدر الإسلام، كان المجتمع الإسلامي في رخاء ورغد، وتمتع بالطيبات، وتآلف وتآخي وتحابب، فقد روى الرواة أنه في عهد خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أخصب الناس، واغتنوا حتى إنهم بحثوا عن مستحق للصدقة فلم يجدوا، فما كان منهم إلا أن اشتروا بها عبيدًا وأعتقوهم لوجه الله، وهكذا بلغ الإسلام في عصوره الأولى، بمستوى حياة المسلمين ومعيشتهم حدًا لم تبلغه إلا أمم قليلة اليوم، وذلك بفضل تشريع الزكاة[٥١٣].

٥- زواجه (ﷺ) بعائشة رضي الله عنها:

عقد رسول الله (ﷺ) على عائشة في مكة قبل الهجرة، وهي ابنة ست سنين وبعد وفاة خديجة وبنى بها في المدينة وهي ابنة تسع سنين، وذلك في شهر شوال من السنة الأولى للهجرة[٥١٤].

---

(٥٠٨) مسلم، كتاب البر والصلة، باب استحباب العفو والتواضع رقم ٢٥٨٨.
(٥٠٩) البخاري، كتاب الزكاة، باب قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى﴾ (٢/ ١٢٠).
(٥١٠) انظر: منهج الإسلام في تزكية النفس (١/ ٢٤٩).
(٥١١) مسلم، كتاب البر والصلة (٤/ ١٩٩٩) رقم ٢٥٨٦.
(٥١٢) انظر: المال في القرآن الكريم ص٢٤٠.
(٥١٣) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ١١٥).
(٥١٤) انظر: من معين السيرة ص١٦٨.

فكانت حركة الدعوة والجهاد والتربية وبناء الدولة مستمرة ولم تتعطل حالات الزواج في حيـاة الرسول (ﷺ) وأصحابه، بل الزواج والإكثار منه كان عـاديًا جدًا في حياتهم كالطعام والشـراب، وذلك من مظاهر أن الإسلام دين الفـطرة والواقع، بل أن الزواج جزء مـهم في بناء المجتمع المسلم[٥١٥].

كـان رسـول الله (ﷺ) قد بنى بعـائشة رضي الله عنها وهو في الرابعة والخـمسين من عمره وحيثمـا يذكر هذا الرقم يتبادر للذهن الشيب والضعف ونفسية أصابتـها الشيخوخة.. ولا شك أن مرور الأعوام هو مقياس أعمار الناس كقـاعدة عامة، ولكن المقياس الحقيقي هو حيوية الإنسان ونشـاطه وقدرته على المبادرة والعمل، فقد نجد إنسـانًا في الثلاثين يحمل في جسمه ونفسيته مرور الخمسين، وقـد نجد بعض الأحيان إنسان الخمسين فلا نحكم عليه بأكثر من الثلاثين، وشخصية رسول الله (ﷺ) فذة في هذا الميدان فهو - وهو في الخمسين- كان رجلاً في عنفوان شبابه همة وعزمًـا ومضاء ورجولة إنه ،في هذا لا يساويه أي إنسان والأدلة تؤيد ما ذهبت إليه.

أ- لما عرض رسول الله (ﷺ) نفسه على القبائل مر على بني عامر بن صعصعة وعرض عليـهم أمره فقـال بحيـرة بن فراس: والله لو أني أخـذت هذا الفتى من قـريش لأكلت به العرب[٥١٦] ونلحظ في قول بحيرة:

* عبر عنه بـ(الفتى) والفتى هو الشاب في مقتبل العمر الممتلئ حيوية ونشاطًا.

* وفي قوله: (لأكلت به الـعرب) يعبـر عما لاحظه في شـخصيـة الرسول الكريم من حيوية وهمة لا تقف في وجهها جموع العرب قاطبة كانت هذه نظرة بحيرة، والرسول (ﷺ) في الخـمسين من العـمر يومـئذ، إنه الشـباب شكلاً ومـضمونـًا، مظهرًا أو نفـسية، هـمة وروحًا[٥١٧].

ب- وفي خبر الهجـرة، روى البخاري عن أنس رضي الله عنه: (إنه (ﷺ) أقـبل إلى المدينة وهو مردف أبا بكر، وأبو بكر شيخ يعرف، والنبي (ﷺ) شاب لا يعرف، قال: فيلقى الرجل أبا بكر فـيقـول: يا أبا بكر، من هذا الذي بين يديك؟ فيـقول: هذا الرجل يهـديني السبيل، فيحسب الحاسب أنه إنما يعني الطريق، وإنما يعني سبيل الخير)[٥١٨]، وكان (ﷺ) لم يشب، وكان أسن من أبي بكر[٥١٩].

ويلاحظ من النص بوضوح، أن أبا بكر كان يبدو في سنه الحـقيقي شيخًا[٥٢٠]، بينمـا

(٥١٥) انظر: الأساس في السنّة (١/ ٤٢٠).
(٥١٦) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٤٢٤).
(٥١٧) انظر: معين السيرة ص١٧١.
(٥١٨) البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب الهجرة.
(٥١٩) انظر: شرح الزرقاني على المواهب (١/ ٣٥٥) نقلاً عن معين السيرة.
(٥٢٠) انظر: معين السيرة ص١٧١.

كـان (ﷺ) يبدو شابًا، لعدم ظهور الشيب فيـه، كما أوضح ذلك القسطلاني بقوله: وكان (ﷺ) لم يشب، وكان أسن من أبي بكر(٥٢١).

وبذلك نستطيـع أن نقول: إن الفارق في العـمر بينه (ﷺ) وبين عـائشـة لم يكن ذلك الفارق الكبيـر من وجهة النظر العمليـة، فها هو (ﷺ) يسابق السيدة عائشة، فـتسبقه مرة، ويسبقها أخرى، فيقول: «**هذه بتلك**»(٥٢٢)، والأمثلة في حياته كثيرة(٥٢٣).

ويستطيع كـل ذي نظر أن يدرك الحكمة الجليلة التي كـانت وراء زواج رسول الله (ﷺ) من عائشة رضي الله عنها، فقـد تم هذا الزواج الميمون في مطلع الحياة في المدينة ومع بداية المرحلة التشريعية من حياته (ﷺ) ومما لا شك فيه أن الإنسان يقضي جزءًا كبيرًا من حياته في بيتـه ومع أسرته، وكان لا بد من نقل سلوك الـرسول الكريم في هذا الجانب من حـياته إلى الناس، حتى يستطيـعوا التأسي به، وكانت تلك مهمـة السيدة عائشة على الخـصوص وبقية أمهات المؤمنين رضي الله عنهن.

فقد استطاعت السيدة عائشة بما وهبـها الله من ذكاء وفهم أن تؤدي دورها على خير ما يرام، وإن نظرة عابرة لأي كتـاب من كتب السيرة تبين وتؤكد ما ذهبت إليـه. وقد ساعدها على ذلك أن الله (تعالى) كـتب لها الحياة ما يقـرب من خمسين عامًا بعـد وفاة رسول الله (ﷺ) وساعـدتهـا تلك المدة على أن تبلغ ما وعـته عن رسـول الله (ﷺ) فـــرضي الـله عنها(٥٢٤).

---

(٥٢١) انظر: معين السيرة ص١٧١ .
(٥٢٢) نفس المصدر ص١٧٢ .
(٥٢٣) المصدر السابق ص١٧٢ .
(٥٢٤) انظر: معين السيرة ص١٧٣ .